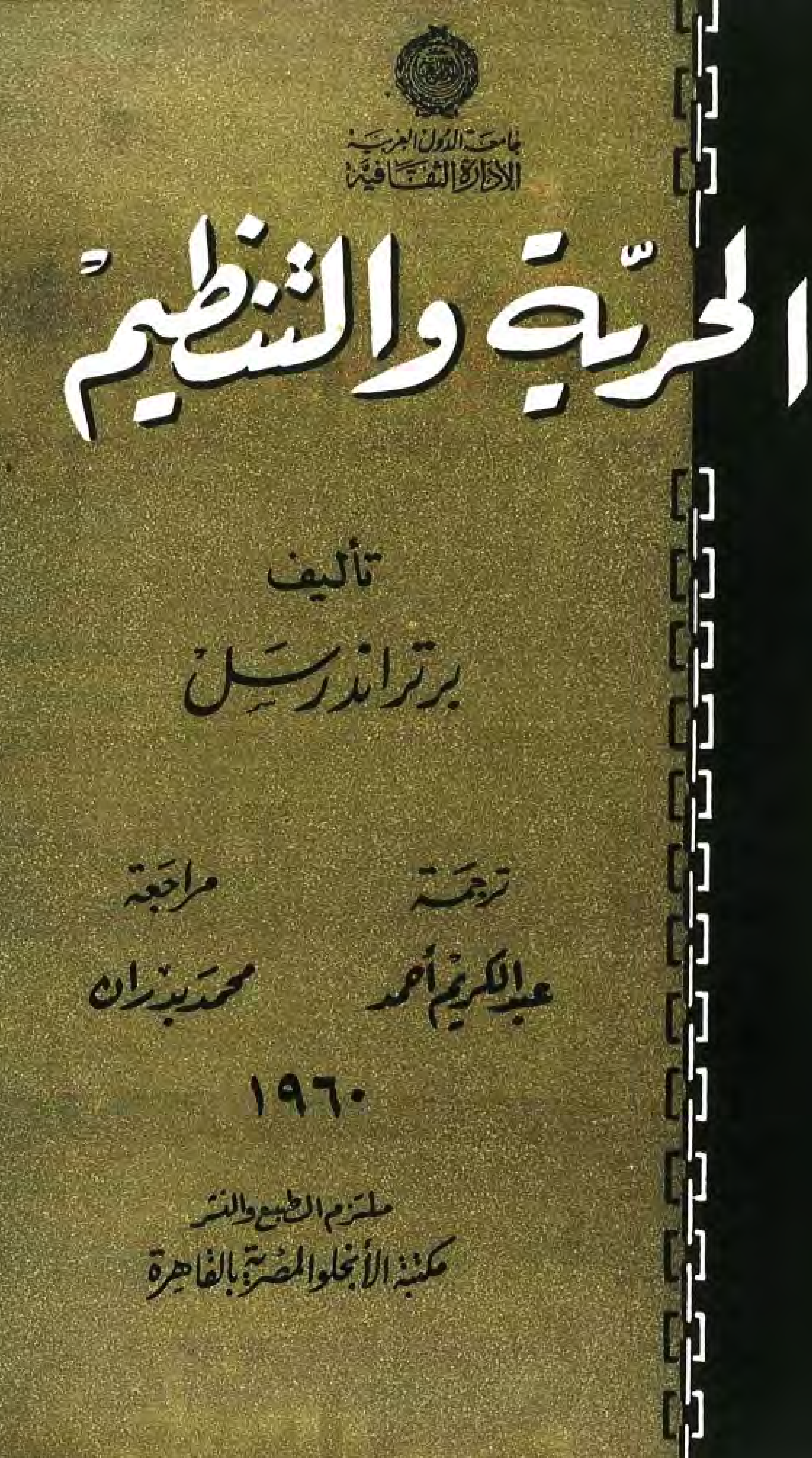

جامعة الدول العربية
الإدارة الثقافية
الحرية والتنظيم
تأليف
برتراند رسل
ترجمة
عبد الكريم أحمد
مراجعة
محمد بدران
١٩٦٠
ملتزم الطبع والنشر
مكتبة الأنجلو المصرية بالقاهرة



الادارة الثقافية

الحرية والتنظيم

تأليف برتراند رسل

ترجمة عبد الكريم أحمد

مراجعة محمد بدران

ملتزم الطبع والنشر
مكتبة الأنجلو المصرية
١٦٥ شارع محمد بك فريد (عماد الدين سابقا)

دار القاهرة للطباعة

مقدمة

ان هذا الكتاب محاولة لتتبع الاسباب الرئيسية للتغيير السياسى الـذى حدث خلال السنين المـائة الواقعة بين ١٨١٤ و ١٩١٤ . ويبدو لى أن هذه الاسباب تنقسم الى ثلاثة أنواع : التطبيق الفنى الاقتصادى (١) ، والنظريات السياسية ، والافراد المهمين . ولا أظن أن أيا من هذه الاسباب الثلاثة يمكن اغفاله أو الاستغناء عنه تماما باعتباره نتيجة لاسباب من نوع آخر .

فالتطبيق الفنى الاقتصادى مثلا ما كان ليتغير بالطريقة التى تغير بها لولا وجود بعض المخترعين النابهين المعروفين . كذلك ترك الايمان بالقوميـــة والدعوة الى الديمقراطية التى قام بها قسم كبير من الطبقات الحاكمة أثرا كبيرا مجرى الأحداث ، و لا يمكن أن نعزوهما كلية الى أسباب اقتصادية .

والمنافســة الحرة التى اعتنقها الراديكاليون البريطانيون والامريكيون وآمنوا بها كل الايمان باعتبارها الدافع الأساسى للتقدم ، كانت بلا شك راجعة الى اعتبارات اقتصادية ، ولكنها كانت مرتبطة ارتباطا واضحا بالبروتستانية . ومن ثم فانه بينما يجب أن نعتبر التطبيق الفنى الاقتصادى أهم أسباب التغيير فى القرن التاسع عشر ، فانه لا يمكن اعتباره السبب الوحيد لهـذا التغيير ، وهو بصفة خاصة لا يفسر لنا انقسام الجنس البشرى الى أمم .

ونجد من ناحية أخرى أن الذين يعتقدون بأنهم كشفوا القوانين المسيطرة على التغير الاجتماعى قد تغالوا فى الاستخفاف بالدور الذى يضطلع به الافراد فى التاريخ ، والذى أكده كارليل أكثر مما يجب ،ولايزال يبالغ فيه أتباعه الرجعيون حتى يومنا هذا .

وأنا لاأعتقد أن تاريخ أوربا خلال السبعين سنة الماضية كان يظل شديد الشبه بما كان ولا يزال عليه فعلا لو أن بسمارك مات فى طفولته . وماينطبق بدرجة كبيرة على بسمارك ينطبق أيضا بدرجة أقل على عدد كبير من الرجال النابهين فى القرن التاسع عشر .

كما أننا لانستطيع أن نتجاهل الدور الذى يعزى الى مايسمى بالصدفة ، أى الى الحوادث التافهة التى كان لها مصادفة أثر كبير . مثال ذلك أن أسبابا ضخمة جعلت الحرب الكبرى مرجحة الاشتعال ، ولكنها لم تجعلها حتمية . وكان من الممكن حتى آخر لحظة أن تؤجل اشتعال نارها حوادث صغيرة لم تقع

---

(١) Economic technique

فعلا ، ولو أننا لانعلم أى شيء جعل وقوع هذه الحوادث مستحيلا ، ولعلهم لو تأجلت كانت قوى السلام قد تغلبت ٠

وفصارى القول أن التاريخ ليس علما ، ولا يمكن جعله يبدو علميا الا بالتزييف فى أحداثه والحذف منها ٠

ومع ذلك فمن الممكن تتبع آثار الأسباب الكبيرة دون المغالاة فى التبسيط على أن نتذكر أن هناك أسبابا أخرى كانت تعمل عملها ٠ والغرض من هذا الكتاب هو تتبع ماحدث من التعارض والتفاعل بين سببين من الأسباب الرئيسية فى التغيير الذى تم فى القرن التاسع عشر : أولهما الايمان بالحرية الذى كان سائدا بين الاحرار والراديكاليين ، وثانيهما ضرورة التنظيم التى نجمت عن التطبيق الفنى الصناعى والعلمى ٠

وقد شاركنى فى العمل طوال المدة التى اقتضاها تأليف هذا الكتاب زميلى بيتر سبنس الذى قام بنصف الابحاث ، وبجزء كبير من التخطيط ، وأجزاء صغيرة من الكتابة نفسها ، فضلا عما أبداه من ملاحظات عظيمة القيمة لا عداد لها ٠

١ ـ خلفاء نابليون

الفصل الاول

خلفاء نابليون

ان المثالية وليدة العذاب والامل ، ومن ثم فهي تبلغ أقصى مداها كلما لاحت في الأفق نهاية فترة من فترات الضنك • ففي أعقاب كل حرب كبرى مثـــلا تتعلق آمال الناس بأحد المنتصرين يظنون أنه قد يكون بطلا يدافع عن آمالهم المثالية • وقد كان هذا الدور من نصيب القيصر الكسندر أسبغته عليـــه الجماهير عقب سقوط نابليون ، وتقبله هو بترحاب • وينبغي أن نذكر أن منافسيـه في هذا الميدان ، ميدان التفوق المعنوي ، لم يكونوا عـلى قدر كبير من القوة المعنوية • وكان منافسوه من الملوك هم فرانسيس امبراطور النمسا وفردريك وليام ملك بروسيا والوصى على العرش الانجليزي ولويس الثامن عشر ، ومن رجال السياسة مترنيخ وكاسلري وتاليران •

ومن بين هؤلاء الرجال كان فرانسيس آخر أباطرة الدولة الرومانية المقدسة وهو لقب انحدر اليه من شارلمان ، وانتزعه منه نابليون الذي كان يعتبر نفسه الخليفة الحقيقي لهذا الفاتح الهمجي • وكان فرانسيس قد اعتاد الهزيمة على يد نابليون ، وانتهى به الامر أن زوج ابنته ماري لويز «للمحدث الكورسيكي» حتى يأمن شر الحرب التي كان لا يفتأ يشنها على النمسا • وعندما بدأ يظهر ، بعد كارثة روسيا سنة ١٨١٢ ، أن نابليون لم يعد ذلك الرجل الذي لا يقهر ، كان فرانسيس اخر من انضم من الملوك الكبار الى الحلف الذي تكون ضده • وكانت النمسا خلال كل السنوات العصيبة على استعداد دائم للافادة من أية صفقة يروق لنابليون أن يعرضها • وفي معارك (١٨١٣ ــ ١٨١٤) كان جيش النمسا رغم ضخامته أقل امتيازا من الجيش البروسي ، وكان ذلك أثر من آثار سياسة ترمى الى جلب المغانم أكثر مما تهدف الى البطولة • ولم يكن فرانسيس هو مصدر هذه السياسة • بل كان صاحبها وزيره مترنيخ وكان قد التحق بخدمة امبراطوره في سن مبكرة وأطلقت يده في الشئون الخارجية بمجرد أن اعتنق باخلاص الرأى القائل بأن أى تغيير ليس في مصلحة سـيده • وبهذا أصبح فرانسيس بعد أن ألقى عن كاهله عبء المسئولية الخارجية حرا يكرس نفسه لمهمة أقرب لمزاجه وهي تنظيم الادارة الداخلية في امبراطوريته • وكان النظام القضائي مركزا الى درجة أن تفاصيل أقل القضايا شأنا كانت تعرض عليه ، ولما كان يميل الى مثل هذه المسائل ، فانه شـغل نفسه حتى بالاشراف على تنفيذ أحكام الاعدام • وقلما كان يعيد النظر في حكم ما ، ولم يستعمـل حقه في الرأفة أبدا • وكانت علاقته بالمقربين اليه لا تتســم بالعطف ، أما بالنسبة لبقية العالم فكاد أن يكون غير معروف •

ورغم أن جيوش فردريك وليم أبلت بلاء حسنا فى القتال فان الاحترام الذى كان الناس يكنونه نحو شخصه كان أقل مما كان يحظى به حتى فرانسيس نفسه . فبينما كانت النمسا تتلقى ضربات الغازى عام ١٨٠٥ وقفت بروسيا موقف المشاهد المذبذب حتى جاء دورها فى العام التالى فسحقت سحقا فى جينا حيث تبددت فى يوم واحد كل تلك الهيبة التى استمدتها بروسيا من مليكها فردريك الأكبر . واضطر الملك المسكين أن يلجأ الى ركن فى أقصى الشمال من ممتلكاته ، وعندما تصافى اسكندر ونابليون فى تيلسست سنة ١٨٠٧ أرسل فردريك وليم زوجته الجميلة لتشفع له عند الامبراطورين . ولم يتأثر نابليون بهذه الشفاعة ولكن اسكندر الشهم كان يحب أن يعتقد فى نفسه البطل المدافع عن الجمال فى محنته . وأثمرت الشفاعة فعقدت معاهدة أعلن فيها نابليون أنه احتراما لرغبة اسكندر يسمح لفردريك وليم بالاحتفاظ بجزء من مملكته السابقة . وكان اعتراف فردريك وليم بجميل اسكندر قويا ومستمرا ، ولكنه ظل حتى آخر لحظة لايعتمد عليه بسبب طبيعته المترددة ، ومن ثم فقد كان موضع احتقار الجميع حتى أقرب حلفائه .

وكان جورج الثالث ، بعد ضياع المستعمرات الامريكية ومنعه بت Pitt من اطلاق الحرية للكثلكة ، قد أشهر جنونه متأخرا ، ولكنه ظل مع ذلك ملكا على انجلترا ، وكان يقوم بمهام الحكم الوصى على العرش وهو عجوز متأنق يخجل من فرط بدانته ولكن جشعه يمنعه من اتخاذ أى خطوة لعلاجها . وكان الوصى على العرش من الناحية السياسية يمثل كل ما هو رجعى ، وفى حياته الخاصة يمثل كل ما هو دنىء . وكانت معاملته لزوجته تجعل الناس يظهرون استهزاءهم به عند مروره فى طرقات لندن ، كما كانت تصرفاته التى تعودها البلاط الانجليزى مع طول الوقت مصدر ازعاج لايحتمل للسيدات الاجنبيات ، ومبلغ علمنا أنه لم ينجح طوال حياته فى كسب احترام أى انسان .

وكان لويس الثامن عشر ، الذى يمكن القول بأن الحروب التى استمرت اثنين وعشرين عاما قامت من أجله ، قليل الرذائل ولكن فضائله كانت أقل من رذائله نفسها . فقد كان رجلا مسنا بدينا مصابا بالنقرس ، يكاد يكون أجنبيا عن فرنسا التى غادرها صبيا وظل بعيدا عنها زهاء ربع قرن . ولم يكن يفتقر الى الفطنة ، كما كان أكثر دماثة من معظم أصدقائه . الا أنه أمضى سنين منفاه بين أعداء فرنسا يحدوه الأمل فى هزيمة بلاده لأن هذه الهزيمة هى السبيل الوحيدة لعودته الى عرشه . وكانت بطانته تتكون من الأمراء والأشراف الذين هربوا من الثورة ولم تكن لديهم أية معرفة بفرنسا التى خلفتها حكومة المؤتمر وخلقها نابليون . واذ كان هو فى حماية اعداء بلاده الاجانب ، فلم يكن متوقعا أن ينال أى احترام فى بلاده ، واذا كانت الحكومات الاجنبية قد رفعته الى العرش فانها فعلت ذلك لان ضعفه يبعث فى نفوسها أملا فى الامان الذى حرمتها منه قوة نابليون .

هؤلاء هم الذين كانوا منافسى اسكندر فى الفوز برضاء الجماهير ، أما منافسوه من بين رجال السياسة فكانوا أقدر من هؤلاء ، الا أنهم لم يكونوا من ذلك الضرب من الرجال الذى يبعث فى الناس حماسة . وكان أكثرهم قوة خلال سنى «السلام الأكبر» مترنيخ الذى ظل يحكم النمسا ، بل وكاد يكون المتحكم فى شئون أوربا كلها ، حتى أسقطته ثورة ١٩٤٨ التى جعلتها سياسته أمرا لامفر منه ، وقد ظل طوال الفترة التى بين سنة ١٨١٤ وسنة ١٨٤٨ دعامة الرجعية والشبح الذى يخيف الاحرار ومصدر الرعب للثوار ، وكان مبدؤه السياسى الأساسى بسيطا ، ان السلطات القائمة من صنع الله ، ومن ثم يجب تأييدها والا كان المرء كافرا . ولما كان هو على رأس هذه السلطات فأن الامر بدا فى نظره واضحا لا يحتاج الى اثبات ، ولعله ما كان ليرى ذلك لو أن الوضع بالنسبة له كان مختلفا .

وقد ولد مترنيخ سنة ١٨٨٣ فى بلاد الراين لاسرة قديمة نبيلة ، ومن ثم كان يمثل طرازا وسطا بين القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، وقد فقد والده جزءا كبيرا من أملاكه نتيجة لغزو جيوش الثورة الفرنسية لألمانيا ، ولم يكن هذا الظرف مما يزيد فى حب مترنيخ للثورات ، وكان السلك الدبلوماسى النمساوى ، حيث عمل والده وأثبت فيه كفايته وان لم يصب فيه شهرة ، هو المجال الواضح لمترنيخ الشاب ، وقد عزز فرصه فيه زواجه من فتاة ثرية هى حفيدة كونيتز المعروف الذىحقق الحلف النمساوى الفرنسى فى أيامحرب السبع السنوات . ولم تحظ القومية الالمانية فى أى وقت من الأوقات ، بل ولا أية قومية أخرى ، بعطف مترنيخ ، فقد كانت الدول فى نظره ضياعا خاصة للملوك ، ولم يكن الامر عنده يحتاج لاى مبدأ آخريربطالدولة بعضها ببعض . وبينما كانت تقاليد ألمانيا الغربية تجعلها أكثر ميلا الى الفرنسيين ، كانت النمسا ، التى تضم بين جنباتها ألمانا وصقالبة ومجريين وايطاليين ، العدو الأكبر للقومية طوال القرن التاسع عشر كله . وكان مترنيخ من هذه الناحية يعمل كما تعمله النمسا نفسها ، على استمرار التقاليد التى كانت قائمة قبل الثورة . ويصدق هذا أيضا على موقفه تجاه الكنيسة ، فانه لم يبد الا القليل من الاحترام للبابا فيما يتعلق بسلطاته الدنيوية على الرغم منأنه كانكاثوليكيا متدينا ، وكثيرا ما وقف فى وجه الكنيسة من الناحية السياسية .

ومع ذلك فقد كانت شخصية مترنيخ تتسم بصفات أخرى تجعله جديرا بان يعتبر «فكتوريا» (كانت الملكة فكتوريا فى العام الثانى والعشرين من حكمها عند مامات مترنيخ) . ذلك أن الغرور ليس وقفا على أى فترة بعينها فى التاريخ ، ولكن ذلك الضرب من الصلف المتباهى الذى اتصف به مترنيخ يمت الى الفترة القائمة بين حروب نابليون والحرب الكبرى ، واذا كان لنا أن نصدق مذكراته ، فانه كان مبرءا كل البراءة من الطموح ولم يبقه فى ميدان الحياة العامة سوى شعور بالواجب واعتقاد يؤلمه ويحز فى نفسه بأن غيره تنقصهم كفاياته . فقد بلغ من شدة اقتناعه بسمو صفاته الخلقية انه ظنها

لابد واضحة لغيره وضوحها له هو نفسه . وفي أواخر عام ١٨١٣ ، عندما تبين له أخيرا أى الكفتين سترجح ، وضع حدا لتذبذب النمسا بين فرنسا وروسيا فكتب لابنته يقول :

« انى واثق من أن نابليون دائم التفكير فى . ولا بد أنى أبدو له وكأنى الضمير مجسما » . وان ما ذكره مترنيخ من أسباب جعلته يتغلب على نفوره من المجد الدنيوى ليبدو شديد الوقع فى النفوس . « ان كراهيتى للمناصب العامة أمر سبق أن ذكرته . فانى وقد اقتنعت بأن كل انسان ينبغى أن يكون مسئولا عن تصرفاته ابان حياته وأدركت الصعوبات الهائلة التى يواجهها الفرد فى تدعيم صرح مجتمع منهار من جميع نواحيه ، ولما كنت لاأرتاح أمام محكمة ضميرى لجميع الاجراءات التى رأيتها تتخذ لانقاذ المجتمع الذى قوضت أركانه أخطاء القرن الثامن عشر ، واذ كانت نفسى ، أخيرا ، لاتطاوعنى على أن أتصور أن تفكيرى قد بلغ من السمو حدا يستطيع معه اصلاح أى شىء يتولاه : فقد حاولت على ألا أظهر على مسرح تثور طبيعتى المستقلة ضد قيامى فيه بدور ثانوى ، على الرغم من اعتقادى بعدم قدرتى على القيام بدور المصلح » .

« ان العناية التى بذلت لتوجيه تربيتى نحو ميدان السياسة الواسع قد عودتنى منذ عهد مبكر أن أتأمل مداه الفسيح . وسرعان ماأدركت أن نظرتى الى طبيعة هذا الميدان وامكانته تختلف فى أساسها عن نظرة الأغلبية الساحقة من أولئك الذين يوكل اليهم القيام بالادوار السياسية الكبيرة فى هذا الميدان » .

وهو يذكر لنا أن الأسماء الدبلوماسيه الضخمة ، التى سبقت عهده والتى عاصرته ، لم توح اليه بالاحترام ، ثم يواصل حديثه قائلا :

« ولما كنت قد عقدت النية على ألا أسلك مسلكهم ، وكنت فى نفس الوقت يائسا من أن أشق لنفسى طريقا يرتضيه ضميرى ، فقد كان طبيعيا أن أفضل ألا أزج بنفسى فى خضم هذه الأحداث السياسية الهائلة ، ذلك الخضم الذى كان فشلى فيه ماديا أكثر توقعا من نجاحى . وأنا أقول ماديا لأنى لم أخش الفشل المعنوى فى يوم من الأيام ، فالرجل الذى يزج بنفسه فى الحياة العامة يجد أمامه دائما مخرجا مؤكدا من هذا الخطر ، وهو الانسحاب من هذه الحياة» .

ولم يكن يبدو للمشاهدين أن النمسا فى أيام نابليون تقوم بدور مشرف . ومع ذلك فان مترنيخ لم يكن يعتقد أن الأمر كذلك . فهو يقول : «لم أجد تحت وطأة ذلك الحمل الضخم من المسئولية ، سوى نقطتين كان يبدو الارتكاز عليهما مستطاعا ، وهما قوة شخصية الامبراطور الصامدة وضميرى » .

وليس من اليسير أن يتبين المرء من مذكرات مترنيخ حقيقة أمره بوصفه شخصا اجتماعيا ، على الرغم من أنه كان مدينا بنجاحه لأساليبه الاجتماعية . ولم يكن مترنيخ عميق التفكير فى أى وقت من الاوقات ؛ لقد كان ماهرا فى

تنفيذ خططه ولكنه لم يكن بحال ممتازا فى وضع هذه الخطط • وكان مرحا حلو المعشر ، فلم يكرهه سوى أولئك الذين كان يعمل على مقاومتهم • وكان يخلط السياسة بالشئون الغرامية كما كان يفعل الدبلوماسيون فى ذلك العهد. ولكنه كان أكثرهم حظا من النجاح • فقد كانت السيدات اللاتى تستقى منهن الاسرار السياسية يلقين منه عناية لايستطعن مقاومتها عادة • وكان هـذا السلاح يوجه أحيانا الى كلا المعسكرين • فقد كان مثلا على علاقة وثيقة استمرت عدة سنوات مع كارولين مورا شقيقة نابليون ، وكان يستقى منها أسرار نابليون. وأحيانا أخرى كانت تنتقل اليه مايرى فوشيه أن من المصلحة أن يسمعه • وعندما صادقت النمسا مورا سنة ١٨١٤ ، وجه تاليران فى خطاباته الى لويس الثامن عشر اتهاما سافرا الى مترنيخ بأنه وقع تحت تأثير حبه للملكة كارولين، لكن الأمر لم يكن كذلك فقد كانت هناك فى أول الأمر دوافع سياسية سليمة تبرر موقف النمسا ، فلما زالت هذه الدوافع فقدت مفاتن الملكة تأثيرها فى مترنيخ • ومن الجائز أن مترنيخ كان يقع أحيانا فريسة للخداع فى علاقاته بالسيدات السياسيات ، الا أنه لايمكن أن يتهم بحق بأن ميوله النسائية كانت تضله وتخرجه عن قصده فى يوم من الأيام •

وكان مترنيخ قبل كل شىء رجلا ارستقراطيا ـ ليس ذلك النـوع من الارستقراطية التى تقوم على ملكية الارض مثل ارستقراطيى انجلترا وروسيا ـ بل من ذلك الضرب من ارستقراطية البلاط التى يرجع الفضل فى وجودهـا الى لويس الرابع عشر • وكانت الأمور الخطيرة فى نظر مترنيخ من شـأن الملوك ووزرائهم فقط ، وهم فى غير حاجة لأن يدخلوا فى اعتبارهم مصالح عامة الناس • فالشعب فى نظره لايكاد يكون له وجود ، الا عندما كان يجد نفسه مضطرا للتفكير باشمئزاز فى قذارة الثوار الفرنسـيين ورثاثتهم • وعندما بدأ الشعب يتمرد فى الفترة الاخيرة من عهده ، كانت طبيعته تملى عليه أن يطأه بقدميه كما يطأ خنفسا سوداء • لقد كان مترنيخ سيدا مهذبا مصقولا يكاد يكون الاخير من هذا النوع قبل طوفان الديمقراطية الجارف •

وكان كاسلرى وزير خارجية انجلترا رجلا على خلق ، وقورا فى حياته الخاصة ، نزيها فى صفاته الشخصية ، وغير متحيز فى الشئون الدبلوماسية ، ولم يكن ألمعيا ، فكان الأجانب يضحكون عليه (كما ضحكوا على ولسن فيما بعد) بسبب جهله جغرافية القارة الأوربية(١) • ولكنه كان صـائب الرأى سديده ، أقل ميلا الى الخداع من معظم معاصريه ، فطنا فى غير ما تظاهر • وشاهد ذلك أن الحكومة النمساوية نجحت فى أثناء اجتماع مؤتمر فينـا فى وضع جواسيسها خادمات فى جميع السفارات تقريبا حيث كانت محتويات سلال المهملات تجمع وترسل الى رجال الشرطة ، ولكن كاسلرى أحضر معه خادماته فسبب بذلك مصاعب تذمر منها رجال الشرطة السرية فى تقاريرهم

---

(١) يردد تاليران فى هذا الصدد ملاحظة كونتيز « أن الاشياء التى يجعلها الانجليز الكثيرة الى حد يبعث على الدهشة • »

أشد التذمر . وقلما كان كاسلرى يخدع غيره ، ولكنه لم يكن من السهل خداعه هو نفسه . ويتبين للمرء من مراسلاته أنه كان رجلا بلا عواطف وغير مغرض الا فيما يتصل بطبقته وأمته ، ويبدو أن نفوره وميوله الشخصية لم يكن لها اعتبار ما فى تكوين آرائه . وكان شديد الريبة فى الأجانب ، وهى صفة بريطانية محضة . فهاهو ذا يكتب الى لورد باتورست فى ٣٠ يناير سنة ١٨١٥ قائلا : « أرجوك ألا تمنح أيا من الدول الأوربية الكبرى مالا فى الوقت الحاضر ، ذلك أنها كلما زاد املاقها سهل صرفها عن التشاحن » ، وكانت تحدوه رغبة صادقة فى السلام بعد سقوط نابليون . وشاهد ذلك مايقوله الوزير النمساوى جنتز فى حديثه عن مؤتمر فينا ، «ان انجلترا ترغب فى السلام ، السلام قبل كل شيء ، السلام - ويؤسفنى أن أقول - بأى ثمن وبأية شروط تقريبا» . وكان كاسلرى يتمتع بميزات كبيرة فى ميدان الشئون الخارجية . ومع ذلك فقد كان عضوا بارزا فى أسوأ وأقسى حكومة ابتليت بها انجلترا فى تاريخها ، وهو يستحق نصيبه كاملا من اللوم فى هذا الصدد. ومما يدعو الى الدهشة من الناحية السيكولوجية أن يصاب هذا العقل الدقيق الخالى من العاطفة بنوع من الجنون يؤدى به فى النهاية الى الانتحار . ويقول عنه جريفيل بحق ان « ميزته الكبرى كانت هى الشجاعة الهادئة الحاسمة التى تكسب جميع تصرفاته مظهرا من العزيمة والثقة وتوحى الى أصدقائه باعجاب واخلاص لاحد له ، كما جعلت أشد خصومه عداء له يحترمونه » . وكان وهو وزير للخارجية يكتب الى السفراء بطريقة بالغة الحزم دون أن يثير ذلك امتعاضهم ، وحتى دوق ولنجتون لم يكن أسمى مقاما من أن يتلقى منه التعليمات . ولكن على الرغم من أن أولئك الذين اتصلوا به بسبب عملهم كانوا يخلصون له ، كما يقول جريفيل ، فان شخصيته التى لا لون لها لم تستطع أن تبعث الحماسة وتشيعها فى نفوس الناس . ويبدو ذلك أيضا مما يقوله جريفيل عن أنباء موته ، « عندما وصلت المدينة قابلت عدة أشخاص اتخذوا جميعا مظهر الحزن لهذه المناسبة ، وقد أثارلى ذلك الى حد بعيد لأنى لم أكن أشك فى أنهم لم يكونوا يبالون بموته ، بل انه اذا كان هناك شعور يخالجهم فأكبر الظن انه الشعور بالرضاء لحدوث شيء ما أكثر مما هو حزن على شخص مات» . ولعل رجلا مغرورا ما كان يسره أن يسمع هذا مبلغ الرثاء له ، ولكنى أشك فى أن لورد كاسلرى كان يهمه ذلك .

ولا يبقى بعد ذلك من الأشخاص المهمين فى مؤتمر فينا سوى تاليران الذى كان يمثل لويس الثامن عشر ومصالح فرنسا البوربونية . ولما كان قد ولد سنة ١٧٥٤ لأسرة من أرقى أسر فرنسا الارستقراطية فقد أوتى الوقت الكافى لان يتمتع بمباهج النظام القديم بعد أن شب عن طوقه ، وقد ظل يذكر دائما أن أولئك الذين ولدوا متأخرين عن ذلك الوقت لم يعرفوا بهجة الحياة الحقيقية . وقد حرمته حادثة اصابته فى طفولته المبكرة من الانخراط فى مسلك العسكرية ، ولذلك أعده أبواه للالتحاق بخدمة الكنيسة وجعلا أخاه الأصغر

وريثا لممتلكات الأسرة • وصار تاليران أسقف أوتون ، الا أنه لم يكن يتوقع من كبار رجال الكنيسة الارستقراطية أن يكونوا على جانب كبير من التقى والصلاح ، لذلك استطاع أن يتمتع بالحياة فى صحبة رفقاء داعرين لايؤمنون بالدين ، على درجة عالية من الذكاء • وقد أدى به نفوره من السلك الكنسى وكذلك معتقداته الحقيقية ، الى الانضمام الى الثورة وتأييد التشريع المدنى للكهنوت • ولكنه وجد نفسه مضطرا الى الهروب فى بداية حكم الارهاب • ففر الى انجلترا حيث ارتابت الحكومة الانجليزية فى أنه جاسوس فرنسى ولم تصرح له بالبقاء • ومن انجلترا ذهب الى أمريكا حيث كون لنفســه عدة أصدقاء أهمهم اسكندر هاملتون وزير المالية ثم عاد أخيرا الى فرنسا عندما هدأت العاصفة •

وقد وجد تاليران أخيرا ميدانا لمواهبه حين أصبح وزيرا للخارجيــه فى حكومة نابليون ، ولم يكن من هواة البطولة ، ولذلك كان دائما يتجنب الصدام العنيف كلما استطاع الى ذلك سبيلا ، فعند ماكان يختلف مع نابليون كان يفضل الخضوع على الاستقالة من منصبه • ولم يترفع أبدا عن أخذ رشـوة لقضاء ماكان يعتزم القيام به على أى الأحوال ، وقد جمع لنفسه بهذه الطريقة ثروة ضخمة ، الا أننا لانجد مايدل على أن الرشاوى أثرت فى سياســته • وكانت له كل الميزات التى يتسم بها الرجل الذكى الذى لاتهمه البطولة • فقد كان سمح الطبع ، قلما يكره أحدا ، ينفر من الحرب ، ويعمل كل مافى وسعه لتنمية التبادل التجارى الحر بين الامم • وقد حاول أن يحد من طموح نابليون ولكنه لم يصب نجاحا ، وعندما فشل فى ذلك ورأى أن نابليون مآله السقوط ، بدأ يتآمر مع آل بوربون • وليس أدل على ذلك من أنه ســنة ١٨٠٨ عندما اجتمع نابليون والقيصر اسكندر فى ايرفورت ليقتسما العالم حذر تاليران القيصر من نابليون مع أنه كان لايزال فى خدمته • وعندما اكتشف خيانته فصله من منصبه ولكنه لم يصمه بالعار ، وعاد تاليران الى السلطة بمجرد سقوط نابليون ، وان لم يبق فيها طويلا بسبب عداء رجال الكنيسه والغلاة من الملكيين الذين علا شأنهم مرة أخرى بعد عودة الملكية •

وهناك أشياء تدعو الى التعجب فى تاليران • فقد كان قسا ولكنه تزوج ، وكان من الارستقراط لكنه تزوج امرأة ليس لها نصيب من عراقة الاصل أو حسن التربية عاشت حياة معوجة بلا خفاء قبل الزواج وبعده • الا أنه ظـل محتفظا على الدوام وفى جميع الأحوال بأسلوبه الهادىء المهذب المترفع الذى كان يثير أعصاب نابليون • وقد حدث فى احدى المناسبات ، عندما قابـل توبيخ الامبراطور له علنا بعدم مبالاة ظــاهرة ، أن دفع ذلك نابليون الى الاسترسال فى العنف شيئا فشيئا حتى عيره آخر الامر بعرجه وخيانة زوجته له • ولكن تاليران ابتسم دون أن يثيره ذلك ، وعندما هدأت العاصفة التفت الى الحاضرين وهز كتفيه وقال لهم : مما يدعو الى الأسف أن يكون هــذا الرجل العظيم سيء التربية الى هذا الحد •

وقل أن نجد من الناس من عاشوا خلال مثل هذه التغيرات التى مر بها تاليران دون أن يصيبهم سوء • فقد ولد فى حكم لويس الخامس عشر ومات أبان حكم الملكة فكتوريا • وكان له فىحياته مالايحصى من المغامرات الغرامية ، تميز الكثير منها بميل عاطفى حقيقى • وقد كان الميل العاطفى فى الواقع أبرز ما اتسمت به طبيعته • وفى شيخوخته كان التفكير الحر والانطلاق فى المغامرات الغرامية قد انقضى عهدهما وسادت فرنسا كما ســادت انجلترا فضيلة العهد الفكتورى • فكيف تاليران نفسه للتغيير الذى حدث ولبس ثوب الفضيلة بالمقدار الذى اقتضته التقاليد الاخلاقية الجديدة (١) وسوىأموره مع الكنيسة على فراش موته بصورة مسرحية من أغرب مايتصوره العقل ، وكانت آخر كلمات له تقريبــا هى أن يذكر القس الذى حضر وفاته بوجوب مسـحه النهائى بكل المراسم المقررة للأساقفة •

الا أنه فى صميم قلبه ظل محتفظا طوال حياته بالنظرة التى كانت سائدة بين الأحرار من الارستقراط فى عهد لويس السادس عشر • وقد أطاحت المقصلة برؤوس معظم من كانوا على شاكلته أو قضت عليهم الحروب أو صاروا رجعيين بسبب ما انتابهم من خوف خلال حكم الارهاب • ولــكن تاليران نجــا من كل هذه المصائب بسبب مرونته وهدوئه الفلسفى وقوة ذهنه المسيطر • وكان طلى الحديث الى حد استطاع معه فى شيخوخته أن يخلب لب السيدات متصنعات الحشــمة بنات قرن عادت فيه الاخلاق القويمة ولكن ضــعفت فيه حياة الفكر • فقد كن يبدأن بأن يرينه خليعا مستهجنا ، ولكنهن لا يلبثن أن يغلبن تحت تأثير حدة ذكائه ، وقوة ثقافته ، واتساع أفقه ، ولطفه ودماثة خلقه • ومما لاريب فيه أن تاليران كان أمعة فى الرجال ، ولكن ما أحــدثه من ضرر كان أقل مما أحدثه الكثيرون من ذوى الاستقامة التى لاترقى اليها الشبهات •

وكان القيصر اسكندر ، الذى كان هو بنفسه وزير خارجية بلاده ، كفأ لهؤلاء الرجال النابهين على بكرة أبيهم • فقد حاول كل من مترنيخ وكاسلرى وتاليران التأثير فيه دون أن يصيبوا نجاحا ، وكان ملك بروسيا يســير وراءه معصوب العينين وان خالف فى ذلك نصيحة وزرائه • وصــحيح أنه مترنيخ أوتى فيما بعد من القوة مااستطاع به التغلب على آراء اسكندر ، الا أن هذا جاء فى وقت يعتبر مرحلة متأخرة من مراحل تطور شخصيته ، أما فى سنة ١٨١٤ فكان لايزال محتفظا باستقلاله الكامل فى الحكم على الامور • ولقد تعلم اسكندر الدبلوماسية فى مدرسة شاقة صارمة • فكانت جــدته القيصرة المتنورة المنحلة الاخلاق كاترين الكبرى ، وكان أبــوه القيصر بول المجنون • وأخذته جدته منذ مولده ، بعيدا عن أبويه وأشرفت بنفسها عــلى

---

(١) ويكتب تاليران فى سنة ١٨٥١ الى لويس الثامن عشر قائلا : « هذا الشعور بعدم المبالاة بالدين الذى اصبح العلة المنتشرة فى الايام التى نعيش فيها » •

تربيته . ولما أدركت أن بول لن يصلح لان يكون قيصرا ، أرادت أن تتخطاه وتجعل اسـكندر وريثها — وأبلغته جدته هذا المشروع كتابة ولما يكن قد بلغ الثامنة عشر من عمره ، وكان لابد أن يرد عليها كتابة أيضا . وقد كان كثير من الشبان يجدون صعوبة في الرد بأسلوب مناسب اذا وضعوا هكذا بين دكتاتورة عجوز ومريض نفسي تطير نفسه شعاعا لأقل شيء ، ولكن الأمر مع اسكندر كان مختلفا ، فقد كتب الى جدته يقول :

« يا صاحب الجلالة الامبراطورية (٢٤ سبتمبر ١٧٩٦)

لاأعرف كيف أعبر عن شكرى للثقة التى شرفتينى بها والكرم الذى أبديتيه نحوى بأن تخطى بيدك تفسيرا لما جاء فى الأوراق الاخرى . وآمل أن تدركى ياصاحبة الجلالة ، وقد رأيت غيرتى على أن أكون جديرا بأفضالك العظيمة . انى مقدر هذه الأفضال حق قدرها . ولن أستطيع أن أرد لك ، ولو بحياتى ، كل ماتفضلت بعمله وماتنوين عمله لى . وواضح أن هذه الأوراق تؤكد كل الأفكار التى أبلغتنيها أخيرا ، ولا يمكن أن تكون ، اذا سمحت لى بأن أقول ذلك ، أكثر عدالة مما هى فى الواقع . وانى اذ أضع عند أقدام جـلالتك الامبراطورية مرة أخرى شعورى بعظيم امتنانى وشكرى ، أسمح لنفسى ، مع عميق احترامى واخلاصى الدائم ،

بأن أكون أطوع رعايا جلالتك الامبراطورية ، وأكثرهم خضوعا ، حفيدك

اسكندر »

والحق انه لحفيد مثالى ! ومع هذا فلو أن والده اطلع على الخطاب ، كما يقول البعض ، لما وجد فيه مايشتم منه أنه أقل اخلاصا لأبيه منه لجدته . وما كان لاسكندر بعد هذا التدريب أن يخشى خداع مترنيخ أو تاليران .

وكانت تربيته من الناحية الدراسـية خيرا مما أتيح لأغلب الامراء فقد كان يتحدث عن كانت وبستالوتزى مع الفتيات الساذجات بينما كانت حملة سنة ١٨١٢ على أشدها . ذلك أن كاترين قد عملت على أن يتشبع بثقـافة القرن الثامن عشر المستنيرة ، بل وحتى بنظريات الاحرار السياسية ، ولم تدخل أى تعـديل على الأسس التى قامت عليها تربيته حتى بعـد أن انقلبت الامبراطورة الى الرجعية بتأثير الثورة الفرنسـية . وكان أسـتاذه ، وهو سويسرى فاضل اسمه لاهارب ، يملأ عقله الواعى بالخير الذى يتقبله العقل ، بينما كان أبوه وجدته يسممان الجزء اللاشعورى من ادراكه . وكان لاهارب يؤمن بالديمقراطية ويعجب — فى الحدود المعقولة — بالثورة الفرنسية ، كما كان فى أول الامر يظن خيرا فى نابليون . وكان على استقامة خلقية فى تحذلق ، فقد عارض مشروع كاترين فى تخطى بول معتمدا على الأسس القانونية البحتة ،

على الرغم من أن بول كان يكرهه وأن اسكندر يحبه ، وعلى الرغم من أنه كان واضحا أن بول لايرجى من ورائه خير لروسيا · وقد دعا ذلك كاترين الى فصل لاهارب رغم أن خطتها التى كانت تهدف الى حرمان بول من العرش لم توضع موضع التنفيذ ، ولو أنها اتخذت بعض خطوات أولية لتنفيذها · فقد أعلنت أن اسكندر أتم تعليمه وأرغمته على الزواج فى سن السادسة عشرة حتى يبدو بالغا كامل النمو ·

وحكم بول أربعة أعوام كانت بالنسبة لاسكندر ، كما كانت بالنسبة لروسيا كلها ، سنين ارهاب · وأخيرا دبرت مؤامرة لاغتياله قام بها أقرب المحيطين به · وأحيط اسكندر علما بها فتوسل الى المتآمرين أن يبقوا على حياة أبيه ويكتفوا بخلعه ان أمكن · الا أن ذلك كان صعبا وخطرا ، ومن ثم قتلوه وتركوا اسكندر يتصرف بخير طريقة يستطيعها فى هذه الظروف · وقد أبعد عن البلاد المتآمرين الذين كان دورهم فى المؤامرة واضحا ، ولكن لم يوقع عليهم من العقاب الا أقل مايستطاع · وتنفست روسيا كلها الصعداء ورحبت باسكندر بسرور بالغ ، وأخفى أمر اشتراكه فى المؤامرة ؛ ولم يتأكد الامر الى بعد ذلك بأكثر من قرن ، وان ظل اشتراكه فيها موضع الظن طوال الوقت · وقد تركت هذه الحادثة فى ضميره جرحا لم يندمل أبدا ، وكان لها أثر كبير فى الصور الغريبة الشريرة التى اتخذها تدينه فيما بعد · على أن هذا الأثر لايكاد يظهر قبل سنة ١٨١٥ ، وظل اسكندر منذ ذلك الحين حتى وفاته سنة ١٨٢٥ يهوى فى ظلمات الكآبة شيئا فشيئا حتى صار فى أخريات حياته مثلا كاملا « لأورستيد » حديث ·

الا أن مارآه العالم من اسكندر فى النصف الأول من حكمه كان شيئا مختلفا عن هذا كل الاختلاف · فقد كان مرحا شهما ، متأنقا فى هندامه الى حد يكاد يكون مبالغا فيه ، متحررا فى سياسته يحدوه أمل فى أن يقترن حكمه بالعمل على تحقيق الأهداف المثالية · وكانت له عشيقة يفضلها على غيرها ويحبها حبا جما ، وقد أنجب منها عدة أطفال · وكانت عاطفته نحو أخته كاترين أقوى من المألوف · فلم يكن يصرفه اشتغاله بأخطر الأمور عن الكتابة اليها ، وقد خلت رسائله اليها من التحفظ فكانت لذلك وثائق ذات أهمية تاريخية بالغة ، وكان يشكر لها صداقتها لعشيقته ، وقد تحالفا معا ضد أمهما · وكان يسره أن يغرقها بفيض من التعبيرات العاطفية المبالغ فيها ، مثل : «استودعك الله يا قرة عينى ، ومعبودة قلبى ، ويا زينة العمر ، الأعجوبة الطبيعة » ؛ ويستطرد مناديا اياها بأغرب الألفاظ (١) · وكانت كاترين شابة مندفعة غير ذات كياسة ولكنها ذات حيوية ، وقد دفعت أخيها بتأثيرها فيه الى اتخاذ موقف سياسى غير سليم فى مناسبة واحدة على الأقل (عندما زار اسكندر انجلترا عام

---

(١) العبارة التى اوردها المؤلف هنا هى : يا « Bisiam Bisiamovna ذات الأنف الافطس » !! التى كتبها اسكندر لأخته فى خطاب قبل معركة استرلتز مباشرة ·

١٨١٤) • وكان لتصرفه نتائج خطيرة فى شئون أوروبا ، وكانا على وفاق دائما الا عندما زحف نابليون على روسيا فى سنة ١٨١٢ فانضمت هى الى الصرخة الوطنية التى علت لما ظهر من اخفاقه •

وكان اسكندر عندما اعتلى العرش عام ١٨٠١ فى الثانيـة والعشرين من عمره لا أكثر ، وكانت احاطته بمختلف الشـئون ضئيلة • فاستدعى لاهارب وحاول أن يدخل اصلاحات فى البلاد بمساعدة مجلس مكون من أصـدقائه الشخصيين • وقد نجح فى القضاء على المساوىء التى خلفها بول ، وخفف من حدة الرقابة وأصلح أحوال التعليم • غير أنه وجد نفسه أمام عقبات هائـلة لا قبل له بها عندما واجه مسائل خطيرة كتحرير رقيق الارض أو وضع دستور للبلاد ، وفيما يتعلق بالسياسة الخارجية ، عقد فى أول الأمر صداقة مـع نابليون وكان لاهارب لايزال معجبا به • ولكن عندما هدد نابليون سويسرا وأعلن نفسه امبراطورا ، وأغضب بذلك لاهارب بوصفه وطنيـا سويسريا ورجلا ديموقراطيا ، انقلب اسكندر ضده وحاربه فى حملتى عـام ١٨٠٥ و١٨٠٦ الفاشلتين اللتين منيت فيهما روسيا بهزيمتى أوسترلتز وفريدلاند ، أولاهما وهو حليف للنمسا والثانية وهو حليف لبروسـيا ، وانتهى الأمر بصلح تلست وقيام صداقة مفاجئة بين الامبراطورين الشرقى والغربى وساد علاقتهما فى أول الامر جو من الصفاء واعتقد كل منهما أن الآخر مخلص له • ولكنهما ما أن افترقا حتى بدأت المشاحنات• ذلك أن اسكندر الذى كان يحارب الأتراك أراد أن يحتفظ بمقاطعتى الفلاخ والبقدان ، ولم يكن نابليون يريد اغضاب الأتراك خوفا من ارتمائهم فى أحضان الانجليز • ولذا عرض تسوية على حساب بروسيا لم يستطع اسكندر الموافقة عليها بسبب وعوده للملـكة لويز الحسـناء • وأخيرا حاول نابليون أن يبهر أنظار اسكندر بمشروع ضخم يرمى الى تقسيم تركيا يتبعه اشتراكهما فى غزو الهند • وقد خلب المشروع لب الجانب الصبيانى من عقل اسكندر ــ الجزء الذى كان يمتعه بقراءة ألف ليـلة وليلة ــ فاسـتجاب له كما كان نابليون يأمل • ولكن ذلك لم يطغ على فطنة اسكندر • فاشترط أن يشمل نصيبه القسطنطينية الى جانب الفـلاخ والبقدان وأن يستولى على نصيبه فى الغنائم قبل أن يعاون نابليون فى غـزو سوريا • ولما كان الاتفاق بواسطة الخطابات أمرا ظهرت استحالته فقد اتفق العاهلان على أن يتقابلا فى ايرمورت ، حيث كان نابليون يأمل فى أن يتغلب على الاسكندر بفضل نفوذه الشخصى • ولكنه لم يقدر اسكندر حق قدره ، فقد كتب اسـكندر الى أخته يقول : « ان بونابرت يعتقد أنى انسان أحمق لا أكثر • ولكن من يضحك أخيرا يضحك كثيرا ، وقد وضعت أملى كله فى الله» • ان مجرد ذكر كلمة بونابرت بدلا من نابليون ينبىء عن شعور بالعداء ، وكان يجعل أية صداقة بينهما بعد ذلك مستحيلة لو عرف الامر •

وفى أثناء ذلك استغل اسكندر فترة الصداقة الظاهرة مع فرنسا فى غزو فنلندا التى كانت تابعة للسويد • وبعد أن تم له ذلك اشترى صداقة

السويد بأن وعدها بمعونته فى الحصول على النرويج التى كانت تابعة وقتئذ للدانمارك التى كانت بدورها على علاقة ودية مع فرنسا · وأحس بعد ذلك أن صداقة فرنسا لم تعد تحقق له غرضا لان نابليون ما زال يرفض مساعدته فى الحصول على الفلاخ والبقدان · فلما احتج نابليون على أن ستمائة سفينة بريطانية سارت صعدا فى خليج فنلندا وأنزلت بضائع بريطانية فى روسيا اكتفى اسكندر بأن نفى ذلك فى غير مجاملة · وسار الجيش العظيم نحو موسكو وهلك فى أثناء تقهقره ، وحيت أوروبا اسكندر باعتباره منقذها ، وسارت جيوش الحلفاء المنتصرة صوب باريس ·

ورأى اسكندر فى ذلك كله يد الله العليا لانه لم يستطع أن يعزو النصر لنفسه أو لقواده · ورأى البروسيون فى ذلك انتصارا للقوة المعنوية على الحاد فرنسا وفسادها · ورأى فيه النمساويون اثباتا للحق القديم · ورأى الانجليز فيه انتصارا للقوة البحرية والصناعة الرخيصة · ورأى العالم بصفة عامة أملا فى السلام ·

هكذا كان الموقف فى مستهل عصرنا ·

٢ ـ مؤتمر فينا

الفصل الثانى

مؤتمر فينا

كانت لاسكندر وفردريك وليم ومترنيخ وكاسلرى مجتمعين القوة التى تمكنهم من رسم خريطة أوروبا السياسية وانشـــاء أى نوع من الحكومات يريدون فى الميدان الدولى وفى كل دولة من دول القارة الاوروبية ، غير أنهم كانوا مقيدين بمعاهدات معينة • ففى سنة ١٨١٣ وعدت روسيا ، وتلتها انجلترا ثم فرنسا ، بروسيا بأن تعود عظيمة كما كانت قبـــل أن يهزمها نابليون سنة ١٨٠٦ • وحددت معاهدة باريس (٣٠ مايو سنة ١٨١٤) حدود فرنسا بما كانت عليه سنة ١٧٨٢ ، فألغيت بذلك الفتوحات التى تمت فى عهد الثورة وعهد نابليون ، وحرمت فرنســا فى مداولات المؤتمر من حق الاشتراك فى تحديد الملاك الجدد للأقاليم المفتوحة • وكانت معاهدة باريس معتدلة رحيمة الى درجة تدعو الى العجب اذا لاحظنا أن فرنسا كانت تحت رحمة الحلفاء بعد اثنين وعشرين عاما من الحروب عانت خلالها جميع دول أوروبا تقريبا ويلات الغزو ، ويرجع معظم السبب فى هذا التساهل مع فرنســا الى كرم اسكندر • فقد دخل باريس على رأس الجيوش الغازية وأعلن أن العدو كان نابليون لا فرنسا ، وقبل القرار الذى اتخذته الحكومة الفرنسية المؤقتة، وهى شبه مختارة ، بعودة آل بوربون الى العرش ليكون ذلك أساسا لعــدم حرمان فرنسا من أى جزء من الاراضى التى كانت ســابقا فى حوزة ملوكها الشرعيين •

وقد لقى كرم اسكندر معارضة شديدة من أقرب حلفائه اليـــه وهم البروسيون ، كما أقلق بال الانجليز • وكتب كاسلرى فى ٣٠ يناير ســنة ١٨١٤ الى رئيس الوزراء اللورد ليفربول يقول :

« انى أعتقد أن الخطر الاكبر الذى نواجهه فى الوقت الحاضر هو نغمــة الشهامة التى اتخذها الامبراطور فى الوصول بالحرب الى نهايتها • ذلك أنه يشعر بعطف شخصى على باريس لاعلاقة له بأية خطط سياسية أوعسكرية • ويبدو أنه ينشد فرصة يدخل فيها عاصمة العدو على رأس حرسه الضخم ، وأكبر الظن أنه يفعل ذلك ليظهر برحمته وتسامحه عكس ما لقيته عاصــمة بلاده من دمار » •

وقد تحققت هذه الرغبة أتم تحقيق لاسكندر ، وأبدى له أهل باريس نتيجة لتسامحه كل الحفاوة الحماسية التى كان يمكن أن يرجوها • وقال بقية

الحلفاء أنه لو كانت فرنسا قد اضطرت الى التخلى عن أقاليم أكثر من التى تخلت عنها لما كانت هذه الاقاليم من نصيب روسيا • كما أن الامبراطور كان أقل كرما فى المسائل التى كانت أقرب الى روسيا مثل بولندا • ولكن هذه الخواطر لم تكن تجول الا فى أذهان العالمين ببواطن الامور فقط ، ولم تؤثر فى حرارة الحماسة التى أبداها عامة الناس نحوه •

وكانت المشاكل الاقليمية التى يواجهها المؤتمر كثيرة ومعقدة • وشعر المؤتمرون أنه قد يكون من المفيد أن يوجد مبدأ ما تبدو القرارات التى تتخذ على أساسه عادلة • وقد عبر جنتز زميل مترنيخ الذى اشتهر أنه أكثر المؤتمرين نشاطا ، انطباعاته فى مذكرة بتاريخ ١٢ فبراير سنة ١٨١٥ يقول فيها : « ان أولئك الذين أدركوا تماما طبيعة المؤتمر وأهدافه عند انعقاده فى فينا لم يكن عسيرا عليهم أن يتبينوا الطريق الذى سيسير فيه أيا كان رأيهم فى نتائجه • فقد كانت العبارات الرنانة مثل (اعادة بناء النظام الاجتماعى) و (تجديد النظام السياسى فى أوروبا) و (سلام دائم يقوم على توزيع عادل للقوى) •• الخ تلقى لتهدئة الجماهير وتضفى عظمة وفخامة على الاجتماع المهيب ، لكن الغرض الحقيقى للمؤتمر كان تقسيم الغنائم التى أخذت من المهزوم بين المنتصرين » •

الا أنه لم يكن من اليسير الاعتراف بذلك جهرا • هذا الى أنه كانت هناك بعض الدول لا مصلحة لها فى معظم المسائل ، ومن ثم فقد تتأثر بالحجج التى تستند الى المبدأ • وفى هذا الموقف كان تاليران هو الذى اكتشف الشعار المعنوى الوحيد الذى أصغى اليه المؤتمر • وابتكر لهذا الغرض « مبدأ الشرعية » الذى سيطر على أوروبا حتى عام ١٨٣٠ • وقد أوضح تاليران ذلك فى التعليمات التى طلب الى لويس الثامن عشر أن يوجهها اليه ليعمل بمقتضاها • ذلك أن فرنسا وقد منيت بهزيمة عسكرية كانت مضطرة الى الاعتماد على القوة المعنوية ، وهذا هو ما قدمه تاليران ، وما من شك فى أنه كان فى خبيئة نفسه يضمر السرور من هذا العمل •

ويقضى مبدأ الشرعية بصفة عامة بأن الاقاليم يجب أن تكون ملكا لحكامها الوراثيين ، الا اذا نزلوا عنها طواعية مقابل تعويض ما • وعلى هذا الاساس فان لفرنسا ، اذا كان يحكمها البوربون ، الحق فى كل الاقاليم التى كانت فرنسية فى عهد لويس السادس عشر • الا أن هذا المبدأ كان يجب أن يصاغ بعناية • فانه لم يكن من المرغوب فيه مثلا أن تعيد انجلترا الى عرشها أسرة ستيوارت • وكذلك كان الحال مع جنوا التى كانت جمهورية مستقلة قبل أن تستولى عليها فرنسا ، والتى كان مقررا أن تعطى للملك سردينيا • وكان من الممكن أن يطالب أهالى جنوا بأن يطبق عليهم مبدأ الشرعية ، ولكنهم لسوء الحظ أثاروا مبدأ آخر من مبادىء مؤتمر لاحق وهو مبدأ تقرير المصير ،

وأدهى من ذلك أنهم كانوا يرغبون فى دستور ديموقراطى . وهذا أمر فيه خطورة . وفى ذلك يقول تاليران :

« تقدم أهل جنوا بمشروع دستور لم يكن من الممكن قبوله لروحه الديموقراطية . ولكن هذا يجعل التسليم به ألزم لأن أهل جنوا كانوا ينفرون بشدة من اخضاعهم لملك أجنبى ، ولانه كان من الخير القضاء على بذور المرارة والنزاع فى كل مكان ، تلك البذور التى كانت تنمو فى كل اتجاه بسبب ضم البلجيكيين الى الهولنديين والساكسون للبروسيين والايطاليين للنمساويين » .

ومن ثم فان مبدأ الشرعية لم يكن ليتخذ حجة تثيرها الشعوب ضد الامراء . وما كان يمكن الادعاء بأن هذا المبدأ لا يمكن أن تثيره الجمهوريات .

فقد كان فى استطاعة سويسرا أن تثيره لان اسكندر كان يحب لاهارب . ولم يكن فى استطاعة بولندا التوسل به لانه لم يعد لها ملك شرعى ولان فرنسا لم تكن سبب تقسيمها . ويمكن القول بصفة عامة أن الاقاليم كانت تعامل كما تعامل الضياع الكبيرة فى الوقت الحاضر : فنحن لا نتصور أن الفلاحين التابعين لأحد أصحاب الاراضى يستطيعون امتلاك الارض التى يعيشون عليها بمجرد أن يقرروا أنهم يريدون ذلك . ان هذا يبدو سخفا فى نظر معظم الناس فى الوقت الحاضر ، كما كان مبدأ تقرير المصير يبدو سخيفا فى نظر من يتولون المفاوضات فى فينا . فاذا كان للملك حق وراثى فى جزء من اقليم فان ذلك يعطيه حقا فى المطالبة به لا يستطيع المؤتمر أن يتجاهله ، والا فقد كان من الممكن اعطاء الاقليم لاحدى الدول الكبرى عن طريق المساومة .

وكان المؤتمر كما رأينا فى حالة جنوا ينفر نفورا شديدا من أى شئ تشتم منه رائحة الديموقراطية . وقد سمح للدستور البريطانى بالبقاء لانه كان من تقاليد انجلترا ، ومنح الفرنسيون دستورا لأسباب مختلفة . فقد كان اسكندر ذا نزعة حرة خارج روسيا ، وكان البريطانيون يعتقدون أن منح الفرنسيين دستورا يجعلهم يقبلون البوربون ويهيئ للأسرة الحاكمة استقرارا . واقتنع النمساويون والبروسيون بعد تردد بأن الدستور يحمل فى طياته أسباب الضعف وأنه سيضعف فرنسا ويحول دون عودة ما عانوه على أيدى لويس الرابع عشر ونابليون مرة أخرى . ولكن منح دساتير لأى بلد آخر لم يكن يلقى أى تشجيع . وكان الاحرار فى انجلترا يعارضون حكومة المحافظين فى هذا الشأن . وقد حدث فى ايطاليا أن لورد «وليم بنتيك»، وهو أحد أعضاء حزب الاحرار ذوى الروح العالية وكان له من الاهمية ما لا يمكن معه اغفال شأنه ، كان سببا فى ازعاج الحكومة الى حد كبير بتشجيعه

أهل جنوا وبالاحتجاج على الفظائع التى ارتكبها ملك صقلية . وقد كتب اليه كاسلرى فى ٧ مايو سنة ١٨١٤ يقول :

« من المستحيل ألا يرى المرء أن أوروبا مقبلة على تغيير معنوى كبير ، وأن مبادىء الحرية تعمل بأقصى قوتها . والخطر الكامن فى هذا هو أن الانتقال قد يكون مفاجئا الى حد لا يحتمل معه أن يجعل العالم خيرا مماهو الآن أو أكثر سعادة . ان لدينا دساتيرا جديدة بدىء بها فى فرنسا واسبانيا وهولندة وصقلية . ومن واجبنا أن نرى نتائجها قبل أن نشجع محاولات أخرى فى هذا السبيل . وقد نبذل تلك المحاولات ، ويجب علينا عندئذ أن نقبل ما يسفر عنه من النتائج ، ولكنى واثق أنه من الخير أن نعمل على اعاقة آثار هذا المبدأ الخطر الذى انتشر فى الخارج . بدل أن نعجل سيرها .

ويجب أن نكف يدنا فى ايطاليا أكثر من غيرها اذا كنا نرغب فى أن نظل على وفاق مع النمسا وسردينيا . فقد كنا على حق فى المخاطرة بأى شىء عندما كنا نعمل على اخراج الفرنسيين من ايطاليا ، ولكن الحالة القائمة فى أوروبا الآن لا تنطوى على مثل هذه الحاجة الملحة ، ونظرا لمقتضيات السلام والهدوء العالمى فانى أفضل أن أرى الايطاليين ينتظرون آثار مايحدث فى بقاع أخرى ولا يحسون بها على أن يعرضوا أمنهم الداخلى للخطر بقيامهم بمحاولات فى الوقت الحاضر » .

وقد يكون خليقا بنا أن نذكر بهذه المناسبة أن دستورى اسبانيا وصقلية لم يلبثا أن ألغيا .

وقد أراد اسكندر أن يظهر للناس أن سياسته على نقيض السياسة غير التحررية التى اتبعتها الدول الغربية فمنح بولندا ، أو على الاصح الجزء الذى حصل عليه منها أخيرا بمقتضى قرارات المؤتمر ، دستورا . الا أن تاريخ هذا الدستور يدل على أن سياسته التحررية لم تكن سوى ألفاظ جوفاء . فقد كانت الهيئة التشريعية مكونة من مجلسين ، المجلس الادنى ويتكون من واحد وسبعين من النبلاء ملاك الاراضى ، وواحد وخمسين عضوا يمثلون المدن . أما المجلس الاعلى فيتكون من أعضاء الاسرة الامبراطورية وبعض الأساقفة وقليل من الموظفين ، وكان البرلمان يجتمع مرة كل سنتين ويدوم اجتماعه ثلاثين يوما ، وكان له أن يقبل أو يرفض ما تتقدم به الحكومة من مشروعات ولكن لم يكن له هو نفسه أن يقترح شيئا منها . وقد سارت الامور على ما يرام فى أول اجتماع عقده البرلمان فى عام ١٨١٨ ، فقد قبل المجلسان كل ما تقدم به اسكندر من مشروعات باستثناء مشروع واحد خاص بالطلاق ألقى اسكندر بشأنه خطابا جميلا قال فيه أنه ينزل على آرائهم وأنه مسرور لهذا الدليل على استقلالهم . ولكنهم فى عام ١٨٢٠ رفضوا جميع اقتراحاته . فاستشاط غضبا وقرر ألا يجتمع البرلمان بعد ذلك حتى عام

١٨٢٥ على الرغم من أن الدستور ينص على غير ذلك . ولم يجتمع البرلمان بعد ذلك الا مرة واحدة سنة ١٨٢٩ ، وفى سنة ١٨٣٠ حدثت الثـورة فى بولندا ، ومنذ ذلك الوقت حتى الحرب العظمى حكم القياصرة بولندا الروسية حكما أتوقراطيا . ومع ذلك فان اسكندر تباهى كثيرا بنواياه التحررية نحو بولندا ، وبالميزات التى تجنيها هذه الدولة من توحيدها تحت حكمه .

وكان مبدأ الشرعية الذى اقتـرحه تاليران يتفق تمـاما وما يريده مترنيخ . الا أنه قامت مع ذلك صعوبة فيما يتعلق بنابولى : ذلك أن «مورا» ملكها كان قد أغرى بالتخلى عن صهره نابليون بمعاهدة تعهدت فيها النمسا ببقائه على عرشه . فلما ذهب نابليون لم يعد لهـذه المعاهدة شـأن ما ، وطالب تاليران بنابلى لملكها الشرعى فرديناند البوربونى . ولحسن الحظ حلت هذه المشكلة الدقيقة بسبب نزق مورا : ذلك أنه أبدى ندمه على خيانتـه السابقة لنابليون عندما عاد من جزيرة ألبا ، ومن ثم سقط عندما سـقط نابليون . وقد جعل ذلك مترنيخ حرا فى التمسـك بمبدأ الشرعية دون تحفظ .

ووقف الانجليز من مبدأ الشرعية موقف الراضى المحبذ طالما كان هذا المبدأ غير متعارض مع أية مصلحة بريطانية . ولم يكن طبعا من المسـتطاع تطبيقه على المستعمرات وكان البريطانيون يصرون دائما على الحصـول على بعض المستعمرات الهولندية المهمة التى فقدها الهولنديون بسبب تحالفهم مع فرنسا مرغمين . وقد منح أمير أورانج بلجيكا تعويضـا له عن هـذه المستعمرات ، وشـكر للمؤتمر فعله هـذا شكرا جزيلا ، وان كان قد فقدها فى سنة ١٨٣٠ . وكان موقف البريطانيين فى خارج أوروبا وفى البحـار تحدده المصالح البريطانية ، أما فى القارة الاوروبية فقد كان مبدأ الشرعية كافيا وصـالحا ما دامت كل المسـائل التى تهم انجلترا قد سـويت قبل أن يبدأ المؤتمر .

وكانت المعارضة التى أثارتها روسيا وبروسيا فى وجه هذا المبدأ أشد وأقوى . فأما روسيا فيرجع بعض معارضتها الى سياسة اسكندر التحررية الغامضـة ، ولكن الدافع الاسـاسى لهذه المعارضـة كان تشـابك مطامعه الاقليمية بصورة معقدة بمطامع بروسيا . ذلك أنه كان قد وعد ملك بروسيا بممتلكات تماثل فى اتساعها ما كان لديه قبل سنة ١٨٠٦ . ولكن بروسـيا كانت تملك قبل سنة ١٨٠٦ اجزاء من بولندا أراد اسكندر أن يحتفظ بها ، ومن ثم رأى وجوب تعويض بروسيا عن هذه الاجزاء فى مكان آخر . وكان أكثر الخطط ملاءمة له أن تعطى ساكسونيا لبروسيا ، ما دام ملك ساكسونيا لم يتخل عن نابليون فى الوقت المناسب . ولكن ملك ساكسونيا كان ملكا شرعيا : واستشاط لويس الثامن عشر وتاليران غضبا من فكرة انتزاع أملاكه

منه . وكانت النمسا تخشى كلا من روسيا وبروسيا ومن ثم انضمت الى فرنسا . وكانت انجلترا تريد تقوية بروسيا واضعاف روسيا ، ولذلك أيد كاسلرى فى مبدأ الامر مطالبة بروسيا بساكسونيا ولكنه عارض فى مطالبة روسيا ببولندا كلها تقريبا . ولما وجد أنه من المستحيل عليه أن يؤيد بروسيا دون أن يعارض روسيا قرر أن يقف فى وجه كلتيهما وانضم الى فرنسا والنمسا . وقد استغرقت هذه المشكلة معظم وقت المؤتمر .

وتم فى مبدأ الامر اجتماع يوم أول أكتوبر بين تاليران واسكندر دافع فيه تاليران عن الأهمية الاخلاقية لمبدأ الشرعية ضد ماصوره بأنه عدم تقيد القيصر بمبادىء الذمة والضمير . ولم يكن اسكندر يحب تاليران ، ويرجع بعض السبب فى هذا بلا ريب لطبيعة تاليران الساخرة ، ولكن أهم من هذا أنه حينما احتجت الحكومة الروسية على نابليون لقتله دوق «دنجين» أجاب تاليران اجابة فيها تلميح الى أن ذلك ليس أسوأ من أن يغتال المرء أباه . وكان مركز تاليران فى ذلك الموضوع ، كما كان فى المقابلة الاخيرة ، متفوقا من الناحية المعنوية على مركز القيصر الشديد التدين ، وكان ذلك بلا ريب من دواعى تسلية تاليران . ولكنه لم يسمح لهذه التسلية بأن تظهر فيما جاء فى مذكراته عن المقابلة التى تمت فى أول أكتوبر :

اسكندر : دعنا نتحدث الآن عن مشاكلنا . ويجب أن ننتهى منها هنا .

تاليران : هذا يتوقف على جلالتكم . فهذه المشاكل ستنتهى بسرعة وتوفيق اذا طبقتم عليها نفس النبل والسمو الروحى الذى طبقتموه على شئون فرنسا .

اسكندر : ولكن ينبغى أن ينشد كل منا تحقيق مصالحه فى هذه التسوية .

تاليران : وكل حقوقه

اسكندر : سأحتفظ بالاقاليم التى احتلها .

تاليران : ان جلالتك لن ترغب فى الاحتفاظ الا بما لك فيه حق شرعى .

اسكندر : انى متفق مع الدول العظمى

تاليران : لست أدرى هل تعتبرون جلالتكم فرنسا من بين هذه الدول

اسكندر : طبعا . ولكنك اذا لم تكن تريد أن يستهدف كل منا تحقيق مصالحه ، فما الذى تنتويه اذن ؟

تاليران : انى أضع العدالة أولا والمصالح بعد ذلك .

اسكندر : ان مصالح أوروبا هى العدالة .

تاليران : ان هذه اللغة يا صاحب الجلالة ليست لغتك ، انها لغة غريبة عليك لا يقرها وجدانك .

اسكندر : كلا ، انى أكرر ماقلت ، وهو أن مصالح أوروبا هى العدالة .

وهنا استدار تاليران الى الحائط وضرب رأسه به صائحا : « أوروبا ، أوروبا ، أى أوروبا المسكينة : هل تقبل أن يقال ان جلالتك دمرتها » .

فأجاب اسكندر ، « انى أفضل الحرب على التفريط فيما احتله » .
ويواصل تاليران أقواله فى مذكراته :

« وتركت ساعدى تسقطان واتخذت موقف الرجل الذى ناء به الحزن ولكنه يصر على موقفه وكأنى أقول « لن يكون الخطأ عندئذ خطأنا » . واعتصمت بالسكوت . وظل الامبراطور بضع لحظات لايقطع على سكوتى ثم عاد يقول « نعم ، أفضل الحرب » . فظللت محتفظا بموقفى نفسه . فرفع يديه فى حركة عصبية بصورة لم أشهدها منه قبلا ذكرتنى بآخر فقرة فى مرثية مارك أوريليوس ، وقال بصوت أقرب الى الصياح « لقد حان موعد الذهاب الى دار التمثيل ، يجب أن أذهب اليه ، لقد وعدت الامبراطور (امبراطور النمسا) بالحضور وهم فى انتظارى » ثم ذهب ، ولكنه لم يلبث أن عادوأخذنى بين ذراعيه واحتضننى وهو يقول بصوت لم يعد يشبه صوته « الوداع ، الوداع . سنلتقى مرة أخرى » .

واستمر النزاع بين هذين الرجلين طوال مدة المؤتمر على الرغم من هذا المنظر المؤثر ، وأخيرا سويت المسائل التى كانت موضع خلاف بالتراضى ، فقد حصل اسكندر على جزء من بولندا أقل مما كان يطالب به ، وحصلت بروسيا على نصف ساكسونيا فقط ، وترك النصف الآخر لملكها الشرعى . ولم يتم هذا التراضى الا بعد أن أرغمت عودة نابليون من ألبا الدول على تصفية خلافاتها . ولولا هذا لكان من المحتمل أن يستمروا فى المناقشة حتى يومنا هذا .

وكان موقف بروسيا فى ظاهرة مماثلا لموقف الدول الاخرى ، ولكنه فى أساسه كان يختلف عنها اختلافا بينا . فقد كان المستشار «هاردنبرج» ميالا الى النمسا فى الغالب ، بينما كان الملك مخلصا كل الاخلاص لاسكندر . الا أنه كانت توجد فى بروسيا حركة وطنية قوية ، جرمانية أكثر منها بروسية ، ومن ثم كانت موضع عطف الكثيرين فى أجزاء أخرى من ألمانيا . وكانت بروسيا قد بدأت بعد عام ١٨٠٦ فى القيام باصلاحات بالقدر الذى سمح به نابليون . وكان الوزير الوطنى « شتاين » قد أثار على نفسه غضب نابليون فأرغم على مغادرة البلاد ، وكان اثناء انعقاد مؤتمر فينا فى خدمة اسكندر . الا أن الجيش البروسى كان متشبعا بفكرة وحدة ألمانيا ويحقد حقدا جارفا على

الفرنسيين • ومنذ عهد لويس الرابع عشر كان غربى ألمانيا المكون من عـدة دويلات ضعيفة تحت رحمة فرنسا ، ولكن بروسيا استطاعت تحت حـكم فردريك الاكبر أن تصد لويس الخامس عشر وان لم تستطع الوقوف فى وجه نابليون • واتضح لجميع الالمان المحبين لوطنهم أن قدرا من الوحدة ضرورى اذا أريد أن يكون الغزو الفرنسى فى المستقبل مستحيلا ، ولكن الامراء المستميتين فى المحافظة على استقلالهم كانوا عقبة فى سبيل جميع مشروعات الوحدة •

وهكذا تضافرت الروح الوطنية الجرمانية مع الحقد على فرنسا على اشاعة شعور بالميل نحو بروسيا بين الطبقات المثقفة ، وخاصة الشباب ، باعتبارها الحصن الوحيد الذى يستطيع حماية ألمانيا من فرنسا • وكان هذا الشـعور بطبيعة الحال معاديا لمبدأ الشرعية الذى يؤدى الى الابقاء على الامارات الصغيرة التى جعلت ألمانيا ضعيفة • ولذا كانت الروح الوطنية الجـرمانية بالضرورة ثورية الى حد ما ، وكانت من هذه الناحية موضع ريبة الحكومات حتى حكومة بروسيا ، ولكن بروسيا ظلت تشجعها طالما كانت تعمل لعظمة هذه المملكة • وأضفت المعارضة ضد الامراء لونا من الديموقراطية على الحـركة القـومية التيوتيونية ، مما جعل ملك بروسيا بعد سنة ١٨١٣ ، والقتال على أشده ، يمنح الشعب دستورا مكافأة له على النصر • وكان لابد من المحافظة على الامل المتولد من هذاالوعد حياحتى يستنفد فردريك وليم كل المجهود الحربى الممكن من رعاياه ، الا أنه كان ينبغى أن تراعى منتهى الحكمة فى الابقاء عليه حيا حتى لا ينزعج الحكام الاتوقراطيون الآخرون • ثم ولم يسمع الا القليل عن الموضوع بعد ووترلو بطبيعة الحال •

وقد دهش تاليران عندما وصل الى فينا لهذه الروح الوطنية الجرمانية الجديدة • وهو يعترف بأن فرنسا تصرفت معها تصرف الغازى الوقح وأثقلت كاهل المهزومين بمطالبها • (كان من مبادىء نابليون أن يحمـل ضـحاياه تكاليف حروبه) • وقد غضب القوم فى فينا من اللين الذى تتسم به معاهدة باريس ، كما كانوا ، على حد قول تاليران (غافلين عن المباهج التى تستمد من الكرم لكثرة ما نعموا بها) ، وكانت القومية الجرمانية فى نظره يعقوبيـة فى طبيعتها ، ويذهب الى أن اليعقـوبية لم تسـيطر على الطبقتين الدنيـا والمتوسـطة فحسب ، بل تسيطر أيضا على أسمى وأغنى طبقة النبلاء الذين يتآمر معهم ، كما يقول ، رجال الجامعات والشـبان المتشبعون بنظرياتهـم والذين يكرهون تقسيم ألمانيا الى دول صغيرة • « ان توحيد الوطن أصـبح شعارهم وعقيدتهم ودينهم الذى بلغ حد التعصب ، وقد كسب هذا التعصب جميع الطبقات حتى بعض الامراء الحاكمين فعلا » • ويعتقد تاليران أن الوحدة الجرمانية لم تكن مصدر خطر على فرنسا عندما كانت الاخيرة تسيطر على الضفة اليسرى للراين وعلى بلجيكا ، ولكنها صارت الآن على جانب كبير من الخطورة • ومن ثم كان واجبه أن يقاوم أى اتجاه نحو الوحدة الالمانية • وقد أفاده مبدأ

الشرعية كثيرا فى هذه الناحيـة واتفق معه فى ذلك مترنيخ مدفوعا الى ذلك بخوفه من بروسيا ٠

وهكذا أصبحت بروسـيا الى حد ما النصـير غير المتحمس لمبدأ جديد ، هو مبدأ القومية ، الذى بدا للدبلوماسيين المتقدمين فى السن مفعما بالخطـر الثـــورى ٠

ولا يمكن القول بأن هؤلاء الدبلوماسيين الشيوخ كانوا على خطأ ٠ ذلك ان ما أسماه تاليران « يعقوبية » القوميين الالمان أدى رأسا الى الحرب العظمى بحركة اذا تأملناها بدت كأنها حتمية ، وقد لاتكون هذه الحتمية سوى مظهر خداع ٠ لقد كان القوميون الالمان متقدمين على عصرهم أيام مؤتمر فينا ، الا أن وجهة نظرهم أخذت تسيطر على العالم شيئا فشيئا ابتداء من سنة ١٩٤٨ ٠

ويتسم هذا المبدأ الجديد ، مبدأ القومية الالمانية ، بعدة عناصر مميزة ٠ فكان فيه العنصر الجرمانى البحت : عنصر الايمـان بتفوق فضيلة الجنس الجرمانى ورجولته ٠ وكان فيه الاعتقاد بأن حدود الدول ينبغىأن تكون مطابقة لحدود القوميات ٠ وكان هناك أيضا الاعتقاد الديموقراطى بأن الشعوب يجب أن يكون لها حق اختيار نوع الحكومة الخاصة بها ٠ وكان كل ذلك يعتبر أثما عظيما بالنسبة للمعتقدات التقليدية السائدة فى سنة ١٨١٥ ٠

وقد أيد القيصر حق الشعوب فى اختيار نوع الحكومة الخاصة بها فيما يتعلق بفرنسا بعد سقوط نابليون سنة ١٨١٤ ٠ وقال جنتز معبرا عن رأى الحكومة النمساوية أنه اذا سمح للفرنسيين بتعيين حاكم آخر فان هذايتضمن « الاعتراف بمبدأ لا يمكن للمرء أن يتفوه به فى أيامنا دون أن يرتعد ، وهو المبدأ القائل بأن الشعب هو الذى يقرر هل يسمح ببقاء الملوك الحاكمين فعلا أو لايسمح ببقائهم ٠ ان مبدأ سيادة الشعب هو محور كل النظم الثورية » ٠

وكان المبدأ القائل ان حـــدود الدول يجب أن تكون مطابقة لحـــدود الشعوب ، بغيضا للنمسا بطبيعة الحال ٠ ذلك أنه لو انتصر هذا المبدأ لاصبح جزءا من ممتلكات الامبراطور فرانسيس ضـمن ألمانيــا الموحدة ، وتصـبح غاليسيا جزءا من بولندا الموحدة ، بينما تصـــبح بوهيميا وترانســلفانيا مستقلتين ٠ وقد حدث كل هذا فعلا منذ الحرب الكبرى نتيجة لمبدأ القومية ، عدا الجزء الخاص بألمانيا بطبيعة الحال ٠ فلا عجب والحالة هذه اذا وقفتالنمسا موقف المعارض للقومية الالمانية ٠

ونشأ الايمان بتفوق فضائل الالمان ورجولتهم من النضال معنابليون ، وخاصة من حملة سنة ١٨١٣ التى كان لها من شأن فى التاريخ الشـــعبى الالمانى مثل ما لهزيمة الارمادا الاسبانية من شـــأن الانجليز ، وما لحـرب الاستقلال من شأن عند الامريكيين ٠

ذلك أن الجيل الذى كان فى شرخ الشباب فى ألمانيا فى سنة ١٨١٣ والرجال الاكبر سنا منهم ، الذين كانوا قادة لهم يعترفون بقيادتهم ، لم يقبلوا مطلقا فكرة القومية العالمية وعارضوا الكلاسيكية السائدة فى القرن الثامن عشر من جميع الوجوه • وكانت الحركة الرومانسية فى ألمانيا ، على نقيضها فى انجلترا ، وثيقة الصلة بالسياسة القائمة فعلا وكانت تهدف الى مثل عليا قابلة للتحقيق ، وقد حقق بسمارك فعلا هذه المثل • وكان الناس خلال الحركة الرومانسية مصابين بحمى المغالاة فى الاعجاب • الذى لا يبرره العقل • فقد أعجب شلى بالثوار اليونانيين ضد الاتراك ، وبالثوار الاسبانيين ضد البوربون ، ولكن الرومانسيين الالمان كانوا يعجبون ببلوخر ، هذا الرجل الصارم المتدين الذى يحتل فى القصص الالمانى مكان دريك فى القصص الانجليزى •

ولما كان بلوخر قد أصبح بطلا قوميا ألمانيا فمن المفيد أن نذكر شيئا عن شخصيته • لقد كان جنديا عظيما ووطنيا متحمسا وخادما مخلصا لمليكه الى أقصى حد ، كما كان متدينا فى عمق وإخلاص • وكان موقفه من فرنسا موقف الاستهجان الخلقى • وقد كتب خلال معركة ووترلو ، وقبل أن يتحدد لمن سيكون النصر فيها ، يقول : « آمل أن تنتهى هذه الحرب بحيث تكف فرنسا عن أن تكون مصدر خطر الى هذا الحد على ألمانيا • يجب تسليم الالزاس واللورين لنا » • وبهذه المناسبة يقول تريتشكه مؤرخ ألمانيا الاول فى القرن التاسع عشر عن بلوخر ، « انه رجل عالمى بكل ما فى الكلمة من معانى النبل » وأنه « متهور فى انكاره لذاته بصورة لم يكن يتسنى وجودها الا فى المثالية الالمانية » •

وكان موقف بلوخر تجاه الثوار الساكسونيين فى جيشه عام ١٨١٥ مما ينبىء عن شخصيته • فقد قسمت ساكسونيا بين ملكها الشرعى وبروسيا ، ومن ثم انضم جزء من جيش ساكسونيا الى الجيش البروسى ، ودفع بعض الجنود الساكسونيين شعور الولاء نحو مليكهم ووطنهم الى أن يرفضوا الاوامر من بلوخر • فأخمد تمردهم بشدة متناهية ، وكتب فى هذه المناسبة الى فردريك أغسطس ملك ساكسونيا يقول :

« يا صاحب الجلالة

لقد جلبتم يا صاحب الجلالة بتصرفاتكم السابقة كارثة دهماء على رعاياكم وهم فرع له قدره من الشعب الالمانى •

وقد تكون نتيجة تصرفاتكم فى المستقبل أن يجلل هذا الفرع بالعار •

لقد حدث التمرد الذى حدث فى الجيش ، والذى وضعت خطته فى فردريكفيلد وبرسبورج ، فى وقت قامت فيه ألمانيا كلها ضد العدو.

المشترك . وقد نادى المذنبون الاشرار علنا ببونابرت حاميا لهم ، وأرغمونى على اعدام أفراد من جيشى لأول مرة وأنا الذى قضيت فى الخدمة العاملة خمسة وخمسين عاما لازمنى خلالها حسن الحظ فلم أقتل أحدا سوى أعدائى .

وسترون جلالتكم من الأوراق المرفقة ما فعلته حتى الآن يحـــدونى الامل فى انقاذ شرف اسم ساكسونيا ، ولكنها المحاولة الاخيرة من ناحيتى .

فاذا لم يلق صوتى أذنا صاغية فسأكون مضطرا الى اعادة النظام بالقوة وأن آمر باعدام الجيش الساكسونى كله اذا استلزم الامر ، رغم ما فى ذلك من ألم لى ، ولكن فيه أيضا راحة لضميرى وأداء لواجبى .

وستقع الدماء التى أريقت فى يوم ما على رأس المسئول عنها قضـــاء لحكم الله : وأمام عرش الديانة سيكون مثل من أعطى الاوامر كمثل من يسمح باعطائها .

وتدركون جلالتكم كل الادراك أن رجلا مسنا فى الثالثة والسبعين مثلى لا يمكن أن يكون لديه من هدف دنيوى سوى اعلاء كلمة الحق .

ولهذا السبب ستتلقون جلالتكم هذا الخطاب .

مركز القيادة فى ليج بلوخر

فى ٦ مايو سنة ١٨١٥م

وكانت طريقته فى التعبير عن مشاعر حبه غريبة . من ذلك ما قاله عندما توفيت زوجته ، « نعم لقد كانت الضفدعة جميلة كالشيطان ، وكانت لها عاطفة ألف شيطان » . وقد أعرب عن شعور قريب من هذا فى ملاحظـة أبداها لمترنيخ وهما فى بهو الحفلات الكبرى فى قصر نابليون بسان كلو ، وكان بلوخر وفرسانه يحتلون هذا القصر بعد معركة ووترلو : « لا بد أن هـذا الرجل كان على قدر كبير من الغباء اذ يكون له كل هذا ثم يجرى وراء موسكو » . وقد خاب أمله عندما لقى « الغبى الكبير » ذلك المصير الهين وهو النفى الى سانت هيلانة ، وسعى الى اعدامه . الا أن ولنجتون لم يقبل مطلقا هذه الخطة كما يبدو فى خطاب كتبه فى ٢٨ يونية ونابليون مازال طليقا .

« يظن الباريسيون أن اليعقوبيين سيسلمونه (نابليون) معتقدين أنى سأبقى على حياته . ويكتب لى بلوخر مطالبا باعدامه ، ولكنى أبلغتـــه أنى سأعارض فى ذلك ، وسأصر على أن يقرر مصيره باتفاق عام . وقد قلت له أيضا انى بوصفى صديقا له أنصحه بألا يشترك فى مثل هذا العمل الدنىء — ، واننا هو وأنا ، قمنا بدور فى هذا الموضوع أنبل من أن نصبح آخـــر الأمر جلادين — وانى مصر على أنه اذا أراد الملوك اعدامه فعليهم أن يستخدموا جلادا ، ولن أكون أنا ذلك الجلاد » .

والذين يذكرون انتخابات « اشنقوا القيصر » فى نهاية الحرب العظمى، والشعور العام فى ذلك الوقت ، والخطب التى ألقاها رجال السياسة المبرزون، سيدركون الى أى حد سبقت بروسيا العالم سنة ١٨١٥ وكيف أن دوافع الذوق النبيلة ستبدو شيئا عتيقا باليا فى نظر أحد الأجيال التاليه •

وأيا كان رأينا فى الأفكار السياسية التى صاحبت النهضة فى ألمانيا فى بداية القرن التاسع عشر ، فلا بد لنا من الاعتراف بأننا اذا نظرنا الى فضل النابهين من رجالها فى التراث الثقافى كانت ألمانيا فى مقدمة العالم كله فى ذلك الوقت • وانه لمن العسير أن يجد المرء «لكانت» و «هيجل» و « جوته » و « شيلر » نظراء من معاصريهم من غير الالمان • ولسنا ننكر أن كانت وجوته مدينان بجزء كبير من عظمتهما الى تحررهما من النعرة القومية الجرمانية وأن الاجيال اللاحقة من الالمان قد استنكرت بعضا من خير صفاتهما • فقد أعجب «كانت» بروسو وأحب الثورة الفرنسية وكتب رسالة يدعو فيها إلى السلام ، الذى يقول فيه ترينيشكه : « السلام الدائم هو الحلم الذى لا رجولة فيه » • اما جوته فقد أيقظ فيه قصف المدافع فى معركة جينا مشاعر فلسفية ولم تبعث فيه حماسة وطنية ومن ثم استطاع أن يزور أرض المعركة مع بعض الفرنسيين دون أن يؤنبه ضميره • لقد كان كانت وجوته عظيمين ، ولكنهما ما كانا ليقرا الطريقة التى استغلهما بها القوميون الالمان • نعم أن أكثر الالمان العظماء الذين جاءوا بعدهما كانت قلوبهم مشبعة بالحماسة الوطنية ، وكان لهم مايبرر ذلك • فان ألمانيا ظلت طوال الفترة القائمة من سقوط نابليون حتى الحرب العظمى محتفظة بتفوقها فى العلوم وفى كل فرع من فروع المعرفة تقريبا • ولم يقتصر الامر على العلم وحده ، بل ان النظرة الالمانية سنة ١٨١٥ كانت من عدة نواح أخرى أقرب الى الروح التى سادت فى مائة السنة التالية من نظرة أية دولة أخرى • ويقول ترتيشكه فى هذا : « لأول مرة من أيام مارتن لوثر انتشرت آراء ألمانيا فى الارض كلها مرة أخرى ، وقد وجدت هذه المرة قبولا أكثر مما تهيأ لأفكار الاصلاح الدينى قديما • ان ألمانيا وحدها هى التى انطلقت تماما خارج نطاق الافكار التى تضمنها نظام العالم فى القرن الثامن عشر • فقد حل محل المبدأ الحسى الذى كان يسود عصر الاستنارة فلسفة مثالية ، وحل محل سيطرة العقل شعور دينى عميق ، وحلت مناهج القوميه محل النزعة العالمية ، وحل الاعتراف بالتقدم الحى للشعوب محل الحقوق الطبيعية ، واستبدلت بقواعد الفن الصحيح شاعرية حرة تنبعث من أعماق الروح كأنما تدفعها من هذه الاعماق طاقة طبيعية ، وحلت ثقافة القيم الجمالية التاريخية الجديدة محل العلوم المضبوطة • وبلغت هذه الدنيا دنيا الافكار الجديدة أشدها على أكتاف ثلاثة أجيال ، أجيال من الشعراء الكلاسيكيين والرومانسيين ، على حين أن الشعوب المجاورة ظلت حتى ذلك الوقت لا تضم سوى أفراد منعزلين يحملون لواء هذه الأفكار الجديدة التى لم تشق طريقها منتصرة فى كل مكان الا أخيرا » •

وأعاد البابا فى هـــذه الفترة نفسها ، وكما يشـير تريتشكه أيضـــا ، عهد التفتيش وقوائم الكتب التى تحرمها الكنيسة ، وأعلن أن جمعيات الكتاب المقدس رجس من عمل الشيطان ، بينما حدث فى جنوبى فرنسا عند عودة الملكية أن « هاجم غوغاء الكاثوليك منازل البروتستانت وقتلوا الهراطقـــة صائحين ، لنصنع عجينة سوداء من دماء كالفن ! » .

ولم يفعل الساسة المجتمعـون فى مؤتمـــر فينا ، وهم من المتنورين المتمدينين ، شيئا لوقف تيار هذه الرجعية السـوداء الخبيثة ، ولكنهم كانوا يرتعدون هلعا من الأفكار الجديدة فى ألمانيا . وقد أخذ مترنيخ بنوع خاص يبذل ما فى وسعه لابقاء الحالة فى ألمانيا على ما كانت عليه ابان القرن الثامن عشر ونجح فى اخماد كل حركة تحررية قامت جهرا حتى سنه ١٨٤٨ .

لقد كانت روح مؤتمر فينا من وحى القرن الثامن عشر ، وكانت القومية الالمانية الديموقراطية ، اذا ما أقحمت نفسها فيه ، تبدو كأنهـا آتيـة من عصر آخر . كذلك أثير فى المؤتمر موضوع اخر كان يبدو غريبا عن الصورة العامة لهذا المؤتمر ، وهو موضـوع تجارة الرقيق . وكانت انجلترا أول من أثار هـذا الموضوع الذى كان بداية يقظة العامل الانسانى الذى يتسم به القرن التاسع عشر ، وقد وقفت منه الدول الاخرى جميعها موقف عدم المبالاة التامة . وكان الشعور بوجوب الغاء الرق جارفا فى انجلترا ، واضـطر كاسلرى ، أيا كان رأيه الخاص ، الى الاصغاء باحترام لمطالب « ويلبر فورس » و « كلاركسون » بطلى حركة الغاء الرقيق . وكان البريطانيون قد الغـوا تجارة الرقيق عنـدهم وحاولوا أن يقنعوا الدول الاخرى بالغائها فى بلادهم خلال خمسة أعوام . وقد دهش أشخاص مثل تاليران من أن الحكومة البريطانية كانت على استعداد لمنح اقليم كامل أو مبلغ ضخم من المال لتحقيق هذا الغرض ، كما أعلنت أن رفضه قد يؤدى الى تمييز تجارى عدائى . والخطاب التالى الذى كتبه كاسلرى الى السفير البريطانى فى مدريد نموذج لعدد كبير من نوعه :

« ميدان سان جيمس

أول أغسطس سنة ١٨١٤

سيدى العزيز ،

... يجب أن تلح على الحكومة الاسبانية لتمنحنا المزيد من التسـهيلات فى موضوع تجارة الرقيق والا فلن نستطيع أن نفعل شيئا لهذه الحكومة مهما كانت رغبتنا فى ذلك . ان الشعب متجه بكليته نحو هذا الهدف . وأعتقـد أنه ما من قرية لم تجتمع وتقدم عرائضا فى هذا الشأن ، وقد تعهد مجلسـا البرلمان بالعمل على تحقيقه والوزراء مضطرون لان يجعلوه أساسا لسياستهم . ومن المهم بصفة خاصة ألا تتخلف أسبانيا والبرتغال عن كل أوروبا فى هذا

الصدد ، والا كانت النتيجة المرجحة تحريم إستيراد منتجات مستعمراتهما ، ولذلك أرجو أن تلح فى المطالبة بأن تتعهد فرنسا بالغاء هذه التجارة فى خلال خمس سنين وأن ترجو الحكومة الاسبانية أن ترســـل تعليمات بهذا المعنى الى « لابرادور » ممثل اسبانيا فى فينا ٠

أما فيما يتعلق بالغاء تجارة الرقيق الفورى شمال خط الاستواء فاذا لم تستطع اقناعهم بأن يتم الالغـــاء ابتداء من جنوب « رأس لوبيز » و « لوب كونسالفز » فأرجو أن تطالب بأن يكون ذلك ابتداء من « رأس فورموزو » أو حتى الى الغرب قليلا من « كيب كوست كاسل » بثلاث نقط (١) ، ولكن لوبيز رفضها جميعا لأن السفن التى تحمل شحنات من العبيد تســتطيع أن تبعد عن الساحل ابتداء من هذه النقطة ٠

ولعلك تذكر أن أسبانيا لم تكن فيها تجارة رقيق خاصة بها قبل الغائها عندنا ، ويبدو أنها لا تستورد الآن الا القليل منهم فعلا لمستعمراتها ٠ وأن القسم الاكبر من الرقيق الذى يشحن أولا الى كوبا وبورتريكو يعاد شحنه الى أمريكا ويهرب فى الولايات المتحدة ، وأكثر ما يكون ذلك عن طريق الميسسبى، رغم قوانين الالغاء الامريكية ٠ وان اقرار حق التفتيش المتبادل لهـــو على جانب كبير من الاهمية لمنع التلاعب فى هذا الشأن » ٠

وموقف الانجليز تجاه تجارة الرقيق غريب من الناحية السيكولوجية ، ذلك بأن الأشخاص الذين بذلوا جهودا أكثر من غيرهم فى ســـبيل الغائها كانوا هم أنفسهم الذين يعارضون كل محاولة للتخفيف من أهوال التصنيع فى انجلترا ، والشيء الوحيد الذى كان أشـــخاص مثـــل ويلبرفورس على استعداد للتسليم به فى موضوع استخدام الاطفال فى الصناعة هو أن يمنح أولئك الاطفال بعض الوقت فى أيام الآحاد ليتعلموا أصول الدين المسيحى٠ لقد خلت قلوبهم من الرحمة نحو الاطفال الانجليز ، أما نحو الزنوج فكانوا كلهم شفقة ٠ ولست أعنى بأن أتعرض لتعليل هذا التناقض ، لان التفسيرات الوحيدة التى تخطر على بالى تدعو الى السخرية الى حد لا يحتمـــل ٠ الا أنه ينبغى ملاحظة هذه الحقائق باعتبارها مثلا بارزا لتعقد المشاعر الانسانية ٠

ولقد كان من المألوف حتى سنة ١٩١٩ أن يعتبر مؤتمر فينا فاشلا ، ولكن العالم أصبح لديه بعد ذلك مستوى من الفشل أعلى درجة من مستوى ذلك المؤتمر ٠ ذلك أنه برغم مساوئه كان من بين القرارات التى تمخض عنها قراران خطيران جديران بشكر أوروبا ، أولهما ما ساده من موقف التســامح مع فرنسا ٠ ولسنا ننكر أنه بعد « المائة اليوم » شعر المؤتمرون بأن لا بد لهم

---

(١) النقطة فى الاصطلاح البحرى ١/٣٢ من دائرة البوصلة أى ٤/١ ١١ درجة ٠

من استعمال الشدة الى حد ما ، ففرضت عليها غرامة حربية وبقيت الجيوش المتحالفة تحتل مراكز هامة فى فرنسا ، الا أنه لم تمض سنوات قليلة حتى دفعت الغرامة وانسحبت الجيـــوش • وكانت النتيجة أن فرنسا لم تحس بمرارة دائمة تجاه المنتصرين •

أما الفائدة الثانية التى جنتها أوروبا من المؤتمر فكانت انشــاء حكومة دولية لتكون أداة للمحافظة على السلام • نعم ان هذه الحكومة كانت مؤقتــة وأن اجراءاتها كانت سيئة عقيمة ، الا أنها مع ذلك منحت أوروبا فترة هدوء بعد حرب استمرت ثلاثة وعشرين عاما • فقد اتفقت روسيا وبروسياوالنمسا وانجلترا ، وانضمت اليها فرنسا فيما بعد ، على أن تعقد مؤتمرات من وقت لآخر لتنظيم شئون العالم • ويرجع الى هذا التدبير بعض الفضل فى أنه لم تحدث حروب مهمة مدة تسعة وثلاثين عاما •

٣ ـ الحلف المقدس

الفصل الثالث

الحلف المقدس

ان محاولة اعادة عمل سبق أن قام به المرء بنجاح تنطوى دائما على مخاطرة • وشاهد ذلك أنه عندما دخل الحلفاء باريس سنة ١٨١٤ كان اسكندر يحتل مركز الصدارة بينهم ، ولكنهم عندما دخلوها سنة ١٨١٥ انتزع منه هذه المكانة ولنجتون وبلوخر اللذان كانا قد هزما أخيرا أعظم عبقرية عسكرية فى العصر الحديث دون معونة اسكندر أو النمسا • على أن ما فاته المجد الدنيوى يتبقى أمامه مجد الآخرة • وكان اسكندر فى ذلك الوقت قد أصبح أشد تدينا مما كان قبل •

وكان قد سمع من عدة سيدات يعرفهن الشىء الكثير عن متنبئة عجيبة تدعى البارونة «كرودنر» ، ولم تكن هذه السيدة ، التى بلغت الثانية والخمسين من عمرها ، قد كرست كل حياتها قبل ذلك للعبادة • فقد كانت ابان شبابها مرحة غير مستقرة ، على الرغم من أنها تؤكد لنا أن روحها السامية لم تنم كل النوم فى أى وقت من الاوقات ، وأنها فى غمرة الترف والمباهج النزقة فى كوبنهاجن ظلت طاهرة تعيش عيشة العازبات وعلى وفاق دائم مع الطبيعة • ثم قررت عام ١٧٨٩ أن تغادر كوبنهاجن (حيث كان زوجها سفيرا لروسيا) لتعيش على وفاق مع الطبيعة فى باريس • ولكن سرعان ما تراكم عليها خلال بضعة شهور دين قدره ٨٠٠ جنيه لصانع ثياب مارى انطوانيت فأدى بها هذا مجتمعا الى أسباب أخرى ، الى مغادرة باريس الى مونبلييه •

وبعد أن هرب الملك الى « فارين » مستعملا جواز سفر أحد أصدقائها ، رأت من الحكمة أن تغادر فرنسا مع عشيقها متنكرا فى زى خادم ؛ وقدمته الى زوجها وأوضحت له الأمر بصراحة ، ولكن التجربة لم تصب نجاحا •• وتقول عنه فى مناسبة لاحقة « ان مسيو كرودنر لايقدر أى نوع من السعادة المنزلية • انه قد ازداد تعلقا بالحفلات والزيارات والمسارح وما اليها أكثر من أى وقت مضى » • ولكنها على الرغم من جموده هذا عاشت معه فى برلين حيث عين سفيرا لبلاده • وكانت تعتقد أنها تجلب له الحظ الحسن وأن « الله أراد أن ينعم على زوجى منذ رجوعى اليه •• ولم لا أصدق أن قلبا ورعا يعبد الله فى بساطة وثقة طالبا العفو والسعادة لشخص آخر ، لا ينال الأمنية التى يطلبها ؟ » ومع ذلك فانها تركت البارون الطبيب آخر الامر فى عام ١٨٠١ ،

واذا كان الله قد أنعم عليه بخير بعد ذلك فلا بد أن هذا حـــدث عن طريق آخـــــر .

وتمت هدايتها سنة ١٨٠٥ عندما كانت تقيم مع أمها فى « ريجا » ، فقد حدث أن شابا يحبها رفع لها قبعته وسقط ميتا لساعته . وقد المها ذلك كثيرا اذ تصورت أنه كان من الممكن أن يحدث ذلك لها هى نفسها . ولم يمضوقت طويل حتى لاحظت أن صانع أحذيتها يبدو سعيدا ، ولما سألته عن السبب ذكر لها أنه من جماعة الاخوان «المورافيين» وأنه تعود قراءة الكتاب المقدس . وجربت الوصفة فنجحت معها . وقد كتبت تقول : « انك لاتدرى أى قدر من السعادة أناله من هذا الايمان المقدس السامى .. ان الحب والطمـــوح والنجاح تبدو لى مجرد طيش . ان الحب المبالغ فيه حتى ولو كان مشروعا يبدو كلا شىء اذا قورن بالسعادة النقية السماوية التى تهبط على الانسان من أعلى » .

وواتتها الفرصة التى أنزلتها منزلة عليا فى التاريخ بعد أن قضت عشر سنوات تحيا حياة العبادة . ولاح لها أنها قد قـــدر عليها أن تقابل قيصرها فأستقرت فى ربيع سنة ١٨١٥ فى قرية تقع على الطريق من فينا الى مركز الجيش الروسى . وعندما كان اسكندر عائدا مسرعا من المؤتمر فى الرابع من شهر يونية ليكون على رأس جنوده اذ وجد نفســـه أخيرا فى ذات ليلة فى هيلبورن قريبا من مقرها . وكان قد سمع عنها كثيرا ، ولكنه لم يكن يعرف أنها على مقربة منه . وكان فى هذه الليلة متعبا لا يستطيع القراءة قلقـــا لا يستطيع النوم فتذكر ما كان قد سمعه عنها وأبدى رغبته فى أن تتاح له فرصة للتعرف بها . وفى هذه اللحظة نفسها أعلن نبأ قدومها .

ولم تضع وقتا ما . بل قالت له من فورها أنه آثم وأنه لم يذل نفسهالاذلال الكافى أمام الله حتى ذلك الوقت . وأنها هى أيضا كانت آثمة كبيرة ولكنها نالت العفو عند قدمى صليب المســـيح . وأجاب اسكندر : « لقـــد جعلتنى أكتشف فى نفسى أشياء لم أدركها من قبل . وانى أشكر الله على ذلك ، ولكنى أحس بحاجة الى الكثير من أمثال هذه المحادثات . فأرجوك ألا تبتعدى عنى » . وأطاعت الأمر الامبراطورى وظلت خلال الاشهر التالية على مقربة من التائب الملكى .

وكان الحلف المقدس نتاج فضيلتها . وقد كتب اسكندر هذه الوثيقة الغريبة فى سبتمبر سنة ١٨١٥ ، وكان المقصـــود بها أن تتضـــمن تطبيق الحقائق الدينية الكبرى التى تعلمها من البارونة على السياسة . وعرض عليها المشروع المبدئى وقبل باحترام مااقترحته من التعديلات ، ثم أخذ الوثيقـــة تورا الى امبراطور النمسا وملك بروسيا ، علىأنيتم توقيع باقيملوك أوروبا

عليها فى أسرع وقت ممكن . (ولم يكن مستطاعا أن يطلب الى سلطان تركية توقيعها لانه لم يكن مسيحيا) .

وفيما يلى نص الحلف المقدس كما وقعه اسكندر وفرانسيس وفردريك وليم فى ٢٩ سبتمبر سنة ١٨١٥ :

« باسم الثالوث المقدس الذى لا يتجزأ .

ان أصحاب الجلالة امبراطور النمسا وملك بروسيا وامبراطور روسيا ، بالنظر الى الاحداث العظيمة التى وقعت فى أوروبا خلال السنوات الثلاثة الماضية ، وخاصة بالنظر الى الأفضال التى شاءت العناية الالهية أن تخص بها هذه الدول التى وضعت حكوماتها ثقتها وأملها فى هذه العناية وحدها ، ان هؤلاء الملوك وقد اقتنعوا كل الاقتناع بأنه أصبح لزاما عليها أن تقيم المبادىء الأخلاقية التى ينبغى على الدول أن تتحلى بها فى معاملاتها فيما بينها على أساس من الحقائق السامية التى تضمنتها العقيدة الابدية التى جاء بها المسيح مخلصنا : يعلنون جادين أن هذا العقد له هدف وحيد هو أن يعلنوا أمام العالم عزمهم الذى لا يتحول على ألا يتخذوا قاعدة لهم سواء فى ادارة دولة كل منهم أو فى علاقاتهم السياسية مع جميع الحكومات الاخرى ، سوى مبادىء عقيدتهم المقدسة ونواميس العدالة والرحمة والسلام ، تلك النواميس التى لايقتصر تطبيقها على شئون الحياة الخاصة بل يجب على النقيض أن تكون ذات تأثير مباشر فى قرارات الحكام وأن تكون رائدهم فى جميع أحكامهم ، باعتبارها الوسيلة الوحيدة للتضامن بين النظم البشرية واصلاح نقائصها .

وبناء عليه يوافق جلالتهم على المواد التالية :

المادة الأولى : وفقا لنصوص الكتاب المقدس التى توصى كل الناس بأن يعتبر كل منهم الآخر أخا له ، يظل الملوك الثلاثة المتعاقدون مرتبطين برباط أخوة حقيقية لا تنفصم عراها ، ويعتبر كل منهم الآخرين مواطنين له يمد لهما يد المساعدة والنجدة فى كل مكان ، وفى كل الظروف - واذ كانوا يعتقدون أن وضعهم بالنسبة لرعاياهم وجيوشهم هو وضع الأب من الاطفال ، فانهم سيوجهون رعاياهم وجيوشهم بروح الاخوة هذه نفسها ، لحماية الدين والسلام والعدالة .

المادة الثانية : ونتيجة لذلك سيكون المبدأ الوحيد الذى تقوم عليه العلاقات سواء بين الحكومات المذكورة أو بين رعاياها مبدأ تقديم الخدمات المتبادلة ، وأن يظهروا نحو بعضهم البعض - بحسن نية لا يتغير - العطف المتبادل الذى ينبغى على كل منهم أن

يتحلى به ، وأن يعتبر كل منهم الآخرين ، دون أي استثناء ، أعضاء في نفس القومية المسيحية ، لان الأمراء الثلاثة المتحالفين لا يرون الا أنهم هم أنفسهم نواب العناية الالهية في حكم أفرع ثلاثة من أسرة واحدة :

النمسا ،

بروسيا ،

روسيا

وهم بذلك يعترفون بأن الشعب المسيحي الذي يكونون هم وشعوبهم جزءا منه ، ليس له في الحقيقة ملك الا من له وحده القوة العليا ، لان فيه وحده كل كنوز الحب والمعرفة والحكمة اللانهائية ، أي الله ، مخلصنا المقدس ، عيسى المسيح ، الكلمة المجسدة ·

وبناء عليه فان أصحاب الجلالة يوصون شعوبهم ، وهم أشد مايكونون حرصا وصبرا ، واعتقادا بأن مايوصونهم به هو السبيل الوحيد للاستمتاع بذلك السلام الذي ينبع من ضمير نقي ، والذي له وحده البقاء ، يوصونهم بأن يحصنوا أنفسهم تحصينا يزداد على مدى الأيام بالمبادىء وبأداء الواجبات التي فرضها مخلصنا الأقدس على بني الانسان ·

المادة الثالثة : ان جميع الدول التي ترغب في الاعتراف مخلصة بالمبادىء المقدسة التي أوحت بهذا الاتفاق ، والتي تدرك أن من أهم الاشياء لسعادة الامم التي ظلت حائرة طويلا ، أن يكون لهذه الحقائق أثرها الواجب في مصائر الناس ، نقول أن جميع الدول التي ترغب في هذا الاعتراف ستقبل هذا الحلف المقدس بأكبر قسط من العطف والحماسة ·

وقع في باريس في سنة ١٨١٥ المباركة وفي ١٤ (٢٦) سبتمبر

توقيع : فرانسوا — فردريك وليم — اسكندر »

ولم يكن رأي الملوك والساسة الآخرين في الحلف المقدس طيبا جدا · وتقرر أن يسمح للويس الثامن عشر بأن ينضم الى الحلف المقدس وان ظلت شئون أوروبا ينظمها حلف الدول الاربع الذي بديء في شومون ، ما دام طابع هذا الحلف المقدس دينيا وليس دنيويا · وكان رأي مترنيخ ، كما ذكره لكاسلري ، أن عقل اسكندر قد اختل ، ورأي الامبراطور

فرانسيس ، وقد اعتقد صحة هذا الرأى ، أنه من الحكمة أن يوقع مرضاة لاسكندر • ورفضت الحكومة البريطانية أن تنضم الى الحلف المقدس ، ولكن الوصى على العرش — هذا المسيحى الصميم — كتب رسالة للقيصر يعبر فيها عن مشاركته اياه فى مشاعره • وعندما جاء اسكندر ليتحدث الى كاسلرى فى الامر اتفق أن كان ولنجتون حاضرا ، ووجد كلاهما (كما كتب كاسلرى الى ليفربول) صعوبة فى الاحتفاظ بالوقار الواجب بينما كان الامبراطور يشرح الموضوع • ومما يجدر بالملاحظة أن توبة اسكندر كانت تعد عند جميع الساسة نصرا للرجعيين ، وأن الرجعيين أنفسهم ، وجميعهم يجهرون بمسيحيتهم ، كانوا يرون أن الاقتراح الذى يطلب اليهم أن يعيشوا وفقا لهذه المبادىء دليلا على الجنون •

ولم يكن للحلف المقدس من الوجهة الرسمية أى تأثير فى مجرى الحوادث التى كانت تنظمها المؤتمرات المنصوص عليها فى الاتفاق الاخير الذى تم فى مؤتمر فينا • ولكن الحقيقة أنه خلال السنوات الخمس عشرة من ١٨١٥ الى ١٨٣٠ (سنوات الرجعية السوداء) لم يخطىء الشعور العام حين كان يرى أن كل ماحدث من كبت للحرية عمل من أعمال الحلف المقدس • فقد كانت نتيجة توبة اسكندر أن نبذ الأفكار الحرة ، ومن ثم ظل يسقط أكثر فأكثر تحت تأثير مترنيخ • ولولا تدخل مدام كرودنر الذى جاء فى الوقت المناسب لما بلغت سيطرة مترنيخ ما بلغته من قوة فى أوروبا • ولسنا ننكر أن القيصر سئم مدام كرودنر بعد فترة لم تطل ، الا أنه استبدل بها مستشارين دينيين أشد منها وبالا • وانا لنجد وجها للشبه بين علاقة اسكندر بمدام كرودنر وعلاقة نيقولا الثانى براسبوتين ، كما نجد بين العلاقتين فارقا : فالعلاقة الاولى مهزلة والثانية مأساة • ولكن المهزلة تنتهى عندما ننتقل من شخص اسكندر الى العالم بأسره • فقد مات وطنيون من نابلى أو قاسوا السجن مدى الحياة ، وضرب جنود روسيون بالسياط حتى ماتوا ، وعذب اليونانيون بأسياخ تخترق أجسادهم ، وكل ذلك لان ضمير اسكندر المرهف طلب هذه الضحايا • لقد كان اسكندر قبل أن يجد الخلاص ، انسانا رحيما ، فلما وجده سقط بعد ذلك بالتدريج فى هاوية سحيقة من القسوة تزداد عمقا على مدى الأيام •

وكانت المؤتمرات التى تولت تنفيذ الخطة التى وضعها مؤتمر فينا هى : مؤتمر اكس لاشابل سنة ١٩١٨ ، وتروباو وليباخ (وهى فى الواقع مؤتمر واحد) سنة ١٨٢٠ وسنة ١٨٢١ ، ومؤتمر فيرونا سنة ١٨٢٢ •

وكان أكبر ما يعنى به مؤتمر اكس لاشابل الذى وصفه مترنيخ بأنه « مؤتمر صغير أنيق جدا » هو بشئون فرنسا • وتم فيه الاتفاق على أن تخلى الجيوش الاجنبية الاراضى الفرنسية فى مدى شهرين • وجددت روسيا

والنمسا وبروسيا وانجلترا معاهدة شومون التى تعهدت هذه الدول بمقتضاها فى سنة ١٨١٤ أن تقاوم كل حكومة فى فرنسا تهدد غيرها من البلاد ٠ الا أنه بعد أن تم ذلك سمح لفرنسا بالانضمام الى جماعة الدول الكبرى بعد أن لم تكن موضع ريبة ٠ واتفق فى ملحق سرى على أن فى مقدور أية دولة من الدول الخمس ، فى حالة قيام اضطرابات ثورية ، أن تلجأ الى الدول الاربع الاخرى التى يجب عليها فى هذه الحالة أن تمد لها يد المساعدة ٠ وانتهى الرأى الى أن تعقد مؤتمرات بصفة دورية وفى حالة وقوع أزمة من نوع ما ٠ وهكذا كان للحكومة الدولية أداتها التشريعية والتنفيذية ، كما كان دستورها هو مبـدأ الشرعية ٠

وأتيحت لمؤتمرى تروباو وليباخ فرصة لتطبيق المبادىء التى اتفق عليها فى أكس لاشـابل تطبيقا عمليا هاما ، فقد وقعت عدة أحداث مروعة أقلقت بال الملوك ووزرائهم ٠ ففى اسـبانيا تمرد الجيش وأرغم الملك على تجـديد دستور سنة ١٨١٢ ٠ وكانت هذه هى المناسبة التى أوحت لشلى نسيد الحرية الذى يبدأ ٠

مرة أخرى تلألأ بين شعب عظيم

وميض برق الشعوب ، الحرية

ولكن البرق شيء خطر ، وقد قررت روسيا وبروسيا والنمسا أن تسد عليه الطريق ٠ الا أن ذلك لم يكن أمرا هينا ٠ فقد حـذت البرتغال حـذو اسبانيا ٠ وثارت نابلى ، وهى تهم مترنيخ أكثر من اسبانيا والبرتغال ، مرة أخرى ضد فرديناند ، وأرغمته على أن يقسم على احترام الدستور الجـديد الذى انتزع منه ٠ ورفضت انجلترا ، التى كانت منذ بداية الامر تنظر بعين الريبة الى السياسة الرجعية التى تتبعها الدول الشرقيـة ، أن تتعاون فى اخماد الثورات ٠ كما أن فرنسا التى اضطرها الحلفاء لقبول النظام البرلمانى لم تكن على ثقة من أن أسبانيا يجب أن تكون بلا برلمان ، وكانت واثقة كل الثقة من أنه اذا حدث تدخل فى أسبانيا فيجب أن يكون تدخلا فرنسيا بحتا ٠ وخشيت الدول الشرقية أن تعود الى الجنود الفرنسيين تقاليدهم الثورية اذا هم اتصلوا بالثوار الأسـبانيين ٠ وعارض الانجليز أى عمـل حربى فى البرتغال ٠ وأصر مترنيخ على ألا يذهب الى نابلى سوى جنود نمساويين ، مما أثار مخاوف غيره من الساسة من ازدياد قوة النمسا ٠

ورغم هذه الصعوبات كلها أفلحت أعمال الرجعية فى كل مكان الا فى البرتغال ٠ فقد حدث تغيير فى الوزارة الفرنسـية نقل السـلطة الى أيدى المحافظين المتطرفين الذين سيروا الجيوش الفرنسية لتغزو أسبانيا فى سـنة ١٨٢٢ وأعادة حكم الملك المطلق ٠ وتمت تسوية مشكلة نابلى بصورة أصرع ٠

فقد هرب فرديناند الى الولايات البابوية واستنجد بالنمساويين ، فأعيد اليه حكمه المطلق ومعه كل فظائع « الارهاب الابيض » • وكانت هذه الاحداث درسا للأحرار جعلهم يجنحون إلى الهدوء فى بلاد القارة بضع سنوات •

وكان دور اسكندر ، الذى كان هو نفسه قبل ذلك متحررا ، طريفا من الناحية السيكلوجية • فقد كان من حسن حظ مترنيخ أن وقع فى هـــذه اللحظة الحاسمة تمرد فى فرقة سيمونوفسكى التى كان اسكندر حتى ذلك الوقت يقدرها أكبر تقدير • وكان التمرد خفيفا جدا وكان سببه قســـوة أميرالاى جديد قسوة غير محتملة • وتظاهر الامبراطور بترك الامـر لوزيره اراكتشيف ، ولكنه فى الواقع أولى موضوع معاقبة المتمردين اهتمامه الشخصى وأصر على اصدار أحكام لا يتصورها العقل فى قسوتها تحت ستار من الرحمة المزيفة • فمثلا « ان صاحب الجلالة الامبراطور ، بالنظر الى طول المدة التى قضاها المذكورون أعلاه فى الجيش الاحتياطى ، وبالنظر الى سجل خدمتهم فى خط النار ، تفضل فرأى أن يجنبهم مذلة عقوبة الضرب بالسياط ، وقرر أن يضرب كل منهم ستة آلاف عصا ، يرسلون بعدها الى الاشـــغال الشاقة فى المناجم » •

وكان فى نفس الوقت تقريبا يكتب الى صديقه المتدين الامير «جولتزين»:

« انى أسلم نفسى تماما لتوجيهـــات الله وقراراته ، وهو الذى يقضى فى الأمور ويضعها فى نصابها ، وكل ما أفعله أن أسلم نفسى لارادته وأنا مقتنع من صميم قلبى بأن ذلك لا يمكن الا أن يؤدى الى الهـــدف الذى قضت به مشيئته لتحقيق الخير العام » •

وقد دونت هذه التأملات الورعة فى خطاب طويل كتبه ابان انعقاد مؤتمر ليباخ يبرر فيه سياسته تجاه نابلى التى جرأ الامير على انتقادها • وفيه يعترف اسكندر أنه لا يستطيع أن يتصور الاسباب التى دعت لهذا الانتقاد الذى لا يمكن أن يصدر « عن اعتقادك بأن علينا أن نتحمل دون أن نحرك ساكنا هذه المبادىء الهدامة التى أشعلت الثورة فى ثلاثة بلاد فى أقل من ستة أشهر والتى تهدد بالانتشار فى أوروبا كلها وتعمها جميعا » • ثم يمضى فيقول ان هذه المبادىء ليست موجهة ضد العروش وحدها ، بل ضد الدين المسيحى أيضا • ويستمر فيقارن ملك نابلى « بيوديت » والثوار من أهل نابلى « بهدلوفرن » ليثبت أن الله يستطيع أن ينصر الفئة الضعيفة ، ثم يورد فقرات من خطابات لفرديناند يقول فيها أنه يضع ثقته فى الله وحده • (ولم يكن فرديناند يخاطر بشيء ما الا اذا رأى أن يرتكب اثم الحنث باليمين ، لأن الدستوريين كانوا يرغبون فى بقائه ملكا عليهم) • وتأتى بعد ذلك صفحات وصفحات من الحجج الدنيـوية يسوقها بدهاء وفى صميم الموضوع • ولكنه لا يلبث أن يعود الى الموضوعات الدينية • فيقول أن الاحرار والثوار والكاربونارى فى العـالم كله جـزء من مؤامرة عامة ، ليست موجهة الى الحكومات بقدر ما هى موجهة الى هـدم دين

المخلص . آن مبدأهم هو سحق الله .. (شعار فولتير « اسحقوا اللعين ») .
وأنا لا أجرأ حتى على أن أخط بيدى هذا الكفر الذى يعرفه الناس تماما من كتابات فولتير وميرابو وكوندورسيه ، وكثيرين غيرهم ممن هم على شاكلتهم» .
وهو يقول أن معتقداته تتفق وتعاليم القديس بولس :

« فى هذه اللحظة فتحت الكتاب المقدس لأبحث عن الفقرة التى تتصل بما أقوله لك الآن ، وعندما فتحته وقع بصرى على رسالة بولس الرسول الى أهل رومية الاصحاح الثامن الآية ٢٢ الى آخر الاصحاح . وليس هذا هو ما أردت أن أستشهد به ، ولكن لما كان ما وقع عليه بصرى عندما فتحت الكتاب المقدس بدا غريبا ومتفقا مع ما كنت أكتبه اليك ، فانى أريدك أن تقرأه .

أما الاستشهاد الذى أعتمد عليه فيما قلت لك عن الايمان فانك تجده فى رسالة بولس الرسول الى أهل رومية ، الاصحاح الرابع عشر فى الآيه الأخيرة ٢٣ : « وأما الذى يرتاب فان أكل يدان ، لأن ذلك ليس من الايمان . وكل ما ليس من الايمان فهو خطية .

انى أحس بأنى موكل بمهمة مقدسة الهية ، ويجب ألا أتهاون فيها ، ولا أستطيع أن أتهاون فيها ، كما يجب على أكثر من ذلك ألا أكون سببا فى فضيحة . يقول بولس الرسول فى رسالته الى أهل روميه الاصحاح الرابع عشر :

الآية ١٣ : فلا نحاكم أيضا بعضنا بعضا بل بالحرى احكموا بهذا أن لا يوضع للأخ مصدمة أو معثرة .

الآية ١٦ : فلا يفترى على صلاحكم .

الآية ١٨ : لأن من خدم المسيح فى هذه فهو مرضى عند الله ومزكى عند الناس .

الآية ١٩ : فلنعكف اذن على ما هو للسلام ، وما هو للبنيان بعضا لبعض .

الآية ٢١ : حسن ألا تأكل لحما و لا تشرب خمرا ، ولا شيئا يصطدم به أخوك أو يعثر أو يضعف .

الآية ٢٢ : ألك ايمان ؟ فليكن لك بنفسك أمام الله — طوبى لمن لا يدين نفسه فيما يستحسنه .

الآية ٢٣ : وكل ما ليس من الايمان فهو خطية .

وهذه النصوص تستتبع بوضوح أن من الحق أن يسجن خير النـاس فى نابلى وأن يعود ظالم غاشم الى الحكم المطلق . وكان اسكندر يقود أكبر جيش

---

(١) يقول المؤلف هنا انه كتب النص الذى أورده الامبراطور وان كان فيه بعض الخلاف عن النص المعترف به ، ولكنى نقلت النص العربى من الاصحاح العربى .

« المترجم »

في العالم وكانت له القوة التي يجعل بها ارادته تسود • ولسنا ننكــر أن مترنيخ كان يظنه مجنونا ، ولكنه يرى ذلك أمرا غير ذى بال طالما كان ممكنــا حمل الرجل المجنون على تنفيذ رغبات وزارة الخارجية النمساوية •

وقد مرت عقيدة اسكندر الدينية فى عدة مراحــل • ففى أول الأمر كان أورثوذوكسيا ولم يكن يهمه أمرها كثيرا • ثم بدأ ، تحت تأثير أخته كاترين، يهتم بالماسونيين الاحرار الذين كانوا موضــع نفور من الارثوذوكس الاكثر تمسكا بدينهم • وجاءت مدام كرودنر فأكدت له ، تبعا لنصيحة الاسكاف المورافى ، أهمية الكتاب المقدس وجعلته ينصرف الى دراسة الكتب المقدسة ، فشجع جمعيات التوارة البريطانية والاجنبية على توزيع التوراة فى روسيا ، واشترك معه فى ذلك الامير جولنزين • وكان كوشيليف صديق جولنزين ، معاونا آخر من معاونى اسكندر الدينيين • وقد حاول الاثنان أن يمنعاه من أن يصير رجعيا شديد الرجعية ، وكانا لا يتفقان فى آرائهما الدينيــة مع التمسك بالدين الى درجة التعصب وهو الذى كان يتسم به كبار رجـــال الكنيسة الروسية • وكان أحد هؤلاء الرجال الارشمنديت فوتيـــوس الذى أصبح له بعد موت كوشيليف نفوذ كبير على الامبراطور • وقد ألقى فوتيوس هذا صلاة جنائزية فريدة نوعا ما عند وفاة كوشيليف قال فيها :

« فى أعماق السكون والوحدة ، أضرع الى المولى أن يستخدم فى أعماله ، عندما تقتضى ذلك ارادته ، رجل الدين ليدمر كهوف الشـــيطان القابعة فى الأماكن الخفيـــة ، وجمعيات الفولتيريين السرية ، والماســـونيين الاحرار والمارتينيين ، ويقطع رأس الافعى ذات الرؤوس السبعة التى صبت لعنتها ثلاثا على النور الذى مات كاهنه الاعظم أخيرا فى يوم القديس جورج ٢٦ نوفمبر ونودى ليقف أمام محكمة الديان » •

وكان أمام سياسة اسكندر فى الشئون الدولية خطوة أخــرى يجب أن يخطوها ، وقد خطا هذه الخطوة فى سنة ١٨٢٢ فى مؤتمر فيرونا وفى المحادثات التمهيدية التى جرت فى فينا • ففى هذا الوقت كانت ثورة اليونانيين عــلى الطغيان التركى تستجمع قواها ، ولم تكن تثير الحماسة فى قلوب الأحــرار فحسب ، بل كانت تثيرها أيضا عند أولئك الذين احتفظـــوا بوجهة نظر الصليبيين وكانوا يكرهون أن يخضع المسيحيون للمسلمين • وكان فى روسيا، الى جانب ذلك ، دافع وطنى للعطف على اليونان لأن تركيـــا كانت عدوها القومى الوراثى ، كما أنه كان لروسيا مطامع أقليمية لا يمكن تحقيقها الا على حساب الأتراك • أما النمسا فكانت تنظر الى الموضوع من زاوية أخرى ، فقد كان من المحتمل أن يؤدى انهيار تركيا الى تقوية روسيا الى درجة غير مرغوب فيها • ونجح مترنيخ فى اقناع اسكندر بألا يؤيد قضـــية اليونانيين عــلى أساس أنهم ثوار خارجون على السلطة الشرعية • وكان مترينخ يعلم حـــق العلم أن اسكندر يضحى بموقفه هذا بمصالح روسية لها أهميتها • فقد كتب

الى الامبراطور فرانسيس يقول « ان المجلس الرومى قد أطاح بضربة واحدة بالعمل المجيد الذى حققه بطرس الأكبر وخلفاؤه » • ومنذ ذلك الوقت أخذت مجموعة الدول الأوروبية تراقب عن كثب علاقات روسيا بالباب العالى وهو ما لم تفعله من قبل • وقد هنأ مترنيخ نفسه على ما فعله فقـــال وهو منشرح الصدر : « أن العمل الحاسم الذى قمت به عمل ممتاز حقا » •

وكان يبدو لاسكندر أنه لا يفعل أكثر من أن ينفذ مبادىء الحلف المقدس • ويروى شاتوبريان ، الذى كان أحـــد مندوبى فرنسا المفوضـــين فى مؤتمر فيرونا ، ما قاله اسكندر له فى هذا الموضوع : « لم يعد هناك مجال لقيـــام سياسة انجليزية أو فرنسية أو روسية أو بروسية أو نمساوية ، لم يعد هناك سوى سياسة عامة واحدة ينبغى على الجميع ، شعوبا وملوكا ، اتباعها لخـــير الجميع • ومن واجبى أن أثبت أنى مؤمن بالمبادىء التى أقمت عليهـــا الحلف • وكانت ثورة اليونان فرصة لاحت لى : فمما لا ريب فيه أنه ليس هناك ما يبدو فى صالحى وصالح شعبى ويتفق مع الرأى الســـائد فى بلدى أكثر من حرب دينية ضد تركيا ، الا أنى لاحظت طابع الثورة فى الاضطرابات التى وقعت فى البلوبونيز • ومن ثم كففت يدى ••• كلا ، لن أنفصل عن الملـــوك الذين انضممت اليهم ، وينبغى أن يسمح للملوك بأن يعقدوا أحلافا عامة ليدافعوا عن أنفسهم ضد الجمعيات السرية • وما الذى يمكن أن يغرينى ؟ ما حـاجتى الى توسيع امبراطوريتى ؟ ان الله لم يضع تحت امرتى ثمانمائة ألف جندى لأحقق بهم مطامعى ، بل هيأهم لى لأحمى بهم الدين والاخلاق والعدالة حتى تســود مبادىء النظام الذى يقوم عليه المجتمع البشرى » •

وبهذه التأملات احتفظ الامبراطور الانطـوائى على فضـيلته ، بينما ظل اليونانيون يقاسون أبشع أنواع العذاب •

ولم يكن تصرف اسكندر فى شئونه الداخلية ابان السنوات الأخيرة من حياته خيرا منه فى شئون أوروبا • فقـد شدد الرقابة على المطبوعات وضيق دائرة التعليم وضيق الخناق على الحرية العلمية أشد التضييق ، وكرس معظم اهتمامه « بالمستعمرات العسكرية » وهى محاولات لاخضاع الفلاحين للنظام العسكرى دون أن ينتزعهم من عملهم بوصفهم رقيـــق أرض • وكان وزيره أراكشيف هو ملاكه الأسود ، وبشير السوء بين رجاله ، يستغـــل تأنيب الضمير الذى كان ينتاب القيصر ويشجعه على المضى فى يأسه الذى كان يسوقه الى القسوة • وكان أراكشيف خادما أمينا للامبراطور بول ، ولم يفته أن يذكر اسكندر بذلك • ففى سنة ١٨٢٣ كتب الى اسكندر بمناسبة عيد ميلاد بول يقول : « بعد أن عبرت فى الهيكل المقدس عن شعورى بالشكر العميـــق فى ذكرى من نحتفل باسمه اليوم ، والذى لا شك فى أنه يرى من مكانه قرب العرش العظيم ، العاطفة الحقة والاخلاص الذى يشعر بهما نحو خليفته العظيم ذلك الفرد من رعاياه الذى اقتضت ارادته ابان حياته أن يضعه بالقرب من

ابنه آمرا اياه بأن يكون خادمه الأمين ، وانى لمنفذ هـذا الامر بكل اخلاص ، وأشكر الله كل يوم على أفضال جلالتكم على » ٠

وكان اسكندر مدينا لأراكشيف بحمايته من ثورات غضب بول التى كانت فى كثير من الأحيان مصدر خطر حتى على أسرته نفسها ٠ وترك اسـكندر الكثير من الشئون الداخلية لأراكشيف ، أما غيرها من الشئون فكان يتظاهر بتركها ولكنه كان يشرف عليها فعلا ٠ مثال ذلك أنه يوجد مسودة خطاب بخط الامبراطور مفروض أنها صادرة من أراكشيف الى موظف كان يريد التقاعد ويتضمن أنه (أى أراكشيف) رأى من الخير ألا يعرض ملتمسه على الامبراطور وأنه يرفض اجابة هذا الطلب دون علم مولاه ٠

ومما هو مثار للجدل : الى أى حد كانت قسوة أراكشيف صادرة منه ، والى أى حد كان هو شعارا لا غير لاسكندر ٠ ولكنى لا أرى مجالا للشك فى أن أراكشيف كان يغذى تأنيب الضمير الذى كان ينتاب اسكندر والذى جعله فى نهاية الأمر يسأم الحياة ولا يستقر طويلا فى مكان واحد ٠ وكان المتعصبون البشعون من أمثال الارشمنديت فوتيوس يلائمون هذه الحالة العقلية المظلمة التى شارفت على الجنون ٠ وقد طلق منذ سنة ١٨١٥ المرح والحب وكانت أخته كاترين قد ماتت ٠ وطغى على العالم الحقيقى شيئا فشيئا سـتار من ظلمات همومه حتى مات تحت وطأة الحزن والكمد ٠

لقد كانت شخصية اسكندر ، الى جانب سمة الجنون التى يتصف بها آل رومانوف ، مزيجا من الخيلاء وحصافة أهل الريف ٠ فأما حصافته فقد خانته فى النهاية ، ولكنها كانت مثار الاعجاب أيام كان فى عنفوان قوته ٠ فهو يكتب الى أمه من ايرفورت حيث كان يتصنع الصداقة لنابليون ليقول لها ، « اننا سنشهد سقوطه فى هدوء ، اذا كانت هـذه ارادة العناية الالهيـة » ، وليدلى اليها بأسباب قوية لتوقعه سقوطه يقول لها فى نفس الـوقت أن صداقته خير من عداوته ٠ وكان خيلاؤه يتطلب اعجاب جميع الناس به ٠ ويقول جنتز فى تقريره عن مؤتمر فيينا : « لقد حضر امبراطور روسيا الى فيينا أولا ليكون موضع اعجاب الناس ، وهو أهم شىء فى تفكيره » ٠ ويستطيع المرء أن يتصور الامبراطور فى أيامه الأولى شابا ريفيا حسن المنظر ، تارة يرقص فى حفلات القرية ليغزو قلوب العذارى ، وطـورا وهو يخـدع جيرانه فى بيـع الأبقار ٠ وفى وسعنا أن نصف جانبا كبيرا من حياته الدينية بأنها « خيلاء » نحو الله ، الذى لم يكن راضيا عن الطريقة التى اعتلى بها العرش ، وهو ما كان اسكندر يخشاه ٠ وكان فى تصرفاته الاستبدادية يحس بأنـه يرضى الله ، ولا شك أنه كان يتصوره مشابها لأبيه ٠

هذا هو مؤسس الحلف المقدس والذى ظل عشر سنين ينظم شئون أوروبا الدولية بما يتفق وادراكه للدين المسيحى ٠ لقد كانت تجربة ممتعـة ، ولكن النتائج التى أسفرت عنها لم تكن كلها نتائج مرضية ٠

٤ ـ عهد مترنيخ

الفصل الرابع

عهد مترنيخ

بلغت قوة مترنيخ أوجها أيام مؤتمر فيرونا سنة ١٨٢٢ . وقد ساعدته فى ذلك عدة ظروف مواتية . أولها وأهمها تأييد كامل من ناحيـــة الامبراطور فرانسيس الذى كان أكثر رجعية من وزيره اذا كان فى الناس من هو أشد رجعية من هذا الوزير ، وكان يعارض التعليم على أساس « أن الرعايا المطيعين مرغوب فيهم أكثر من المواطنين المتنورين » . وجاء تأييد آخر لسلطان مترنيخ من نجاحه فى بسط سلطان النمسا والمبادىء النمساوية على ألمانيا . ذلك أن بعض الامراء الالمان كانوا يميلون الى منح رعاياهم دساتير كما وعدوهم كلهم تقريبا فى سنة ١٨١٣ ، وكانت الجامعة تموج بالمبادىء التحررية التى لاتهدف الى الديموقراطية فحسب ، بل الى توحيد ألمانيا أيضا .

ويقول مترنيخ فى تقريره للامبراطور فرانسيس : « أن بعض الرجـــال (ويلاحظ أنهم كلهم تقريبا من المشتغلين بالتعليم ...) يهدفون الى ضم جميع الألمان فى ألمانيا موحدة ... وقد استغرق فعلا أعداد الشبان أعدادا منظمـا لهذه الغاية اللعينة أكثر من جيل واحد من أجيالهم (الطلبة) . وتوجد الآن طبقة كاملة من موظفى الدولة المقبلين والأساتذة والكتاب المبتدئين قد نضجوا للثورة » . وصادفه حسن الحظ فى معالجته لهذا الموقف . فقد حدث فى شهر مارس سنة ١٨١٩ ، قبيل مؤتمر كارلسباد الذى دعى الى الانعقاد للنظر فى هذه الأمور ، أن قتل أحد طلبة الدين يدعى كارل ساند كاتبا بولونيا رجعيا اسمه كوتسبيو ، كان موضع اعجاب الامبراطور اسكندر . وقد نظر الكثيرون ممن يعتبرهم مترنيخ أعداءه الى هذا العمل على أنه عمل خليق بالثنـــاء ، وجعلوا من القاتل بطلا . ولم يكن عسيرا فى هذه الظروف اقناع كل من اســـكندر والامراء الالمان بأن النزعة التحررية نزعة خطرة . وصدرت فى كارلســباد قرارات تزيد من شدة القيود المفروضة على الصحافة وعلى الأساتذة ، وكان أثر اغتيال كوتسبيو فى حصول مترنيخ على تأييد روسيا مماثلا لأثر تمرد فرقة سيمونوفسكى . كما كانت سياسة فرنسا خلال هذه الفترة تزداد رجعية على الدوام . وأخيرا فان كاسلرى ، الذى تعلم أن يتعاون مع النمسا فى مؤتمـر فيينا ، واصل هذه السياسة فى السنوات التالية ، الا عندما كانت المصـــالح البريطانية تجعل ذلك مستحيلا . وقد كتب مترنيخ عندما علم بوفاته فى سنة ١٨٢٢ يقول : « انه كان الرجل الوحيد فى بلاده الذى اكتسب خبـــرة فى

الشئون الخارجية ، لقد تعلم أن يفهمنى » • أعظم بهذا من اطراء ! وقد ظلت قوة مترنيخ فى ازدياد مستمر طوال السنوات الواقعة بين ١٨١٤ و ١٨٢٢ حتى بدا وكأن ارادته لا راد لها فى أوروبا كلها • فلا عجب والحالة هذه اذا أصبح يعجب بنفسه • وقد كتب عقب مؤتمر اكس لاشابل فى سنة ١٨١٨ الى زوجته يقول :

« يزداد اقتناعى يوما بعد يوم بأن المسائل المهمة لا يمكن أن تسوى على وجه مرض الا اذا توليتها بنفسى ••• لقد صرت نوعا من القوة المعنوية فى ألمانيا ، بل لعلى كذلك فى أوروبا بأكملها ـ قوة ستترك فراغا عندما تختفى ، ومع ذلك فستختفى ، كما يختفى كل شئ يمت بصلة الى الطبيعة البشرية الرقيقة المسكينة ! وانى لآمل أن يمد الله فى أجلى حتى أفعل بعض الخير، هذه هى أعز آمالى » •

وبعد عام من ذلك الوقت ، عندما وجد نفسه فى الغرفة ذاتها التى تم فيها التوقيع على الحلف الرباعى سنة ١٨١٣ اقتحمت عليه تفكيره تأملات جديدة متعلقة بأهميته للعالم فقال :

« ان عقلى لا يفكر فى أى شئ ضيق أو محدود ، انى أذهب بتفكيرى فى كل وألم بميادين أوسع بما لا يقاس مما يستطيعون أو يودون ادراكه • وليس فى ناحية الى آفاق أبعد بكثير مما يشغل بال الغالبية العظمى من رجال الاعمال ، طاقتى أن أحاجز نفسى عن أن أقول لها عشرين مرة كل يوم : (كم أنا على صواب ، وكم هم على خطأ ! وكم هو سهل أن يرى المرء هذا الصواب فهو واضح وبسيط وطبيعى) وسأظل أكرر ذلك حتى آخر أنفاسى ، وسيستمر العالم مع ذلك سائرا فى طريقه التعس » •

الا أنه لم يعد بعد سنة ١٨٢٢ القوى القادر على كل شئ •• فقد أخذ كاننج الذى خلف كاسلرى يعارض سياسة النمسا ، لا فى تفاصيلها فحسب بل فى خطوطها الرئيسية أيضا • وفى سنة ١٨٢٣ يكتب مترنيخ عن انجلترا وهو مكتئب حزين :

« مما يؤسف له أن تفقد ملكة البحار التى كانت سيدة العالم يوما مانفوذها النافع ! ترى ماذا جرى للامبراطورية البريطانية العظيمة النبيلة ؟ ماذا أصاب رجالاتها وخطباءها واحساسها بالحق والواجب وآراءها فى العدالة ؟ ليس هذا كله من عمل شخص واحد ، رجل واحد ضعيف عاجز ، ان كاننج ليس الا رمزا لأعراض ذلك المرض البشع الذى يجرى فى كل شريان فى أرض آبائه ، مرض دمر قواها وأخذ يهدد جسدها الضعيف بالانحلال » •

ولم كل هذا النواح ؟ أكبر أسبابه أن انجلترا رفضت أن تعاون اسبانيا فى اعادة فتح أمريكا الأسبانية ، وأن تعاون تركيا فى استعادة بلاد اليونان • وحدث بعد ذلك فيما يتعلق بالأمر الثانى ما هو أدهى وأمر •

ذلك أنه اذا كان موت كاسلرى من عوامل سوء الطالع بالنسبة لمترنيخ ، فلعل موت اسكندر كان كارثة أكبر حلت بسياسته • لقد كان يفخر بما فعله من اقناع اسكندر بأنه فيما يتعلق باليونان يجب وضع مبدأ الشرعية فوق مصالح روسيا • فلما مات اسكندر سنة ١٨٢٥ عاد أخوه الى سياسة روسيا الطبيعية القاضية بمعاداة الباب العالى • وفى سنة ١٨٢٧ اتحدت انجلترا وفرنسا وروسيا ودمرت الاسطول التركى فى معركة نافارين ، ولم يعد هناك بعدها ما يؤخر طويلا اعتراف الدول باستقلال اليونان •

وتم انهيار نظام الحكومة الدولية التى أنشئت فى مؤتمر فيينا وزاد تعقيدا على تعقيده على أثر ثورة سنة ١٨٣٠ • فقد تخلصت فرنسا من شارل العاشر وأحلت مكانه لوى فيليب الذى لم يكن له أى حق شرعى فى العرش • ورفضت بلجيكا البقاء متحدة مع هولندا وكان لا بد من الاعتراف بها مملكة منفصلة • وقامت حركات ثورية فى ايطاليا وألمانيا ، كما ثارت بولندا الروسية على القيصر • الا أن هذه الحركات لم تصب نجاحا باستثناء ما حدث فى فرنسا وبلجيكا • وحتى فى فرنسا ، سرعان ما ظهر أن الملك الجديد ليس خيرا من آل بوربون الشرعيين •

وأخيرا عاد مركز مترنيخ الشخصى فتحسن على أثر أحداث سنة ١٨٣٠ ، وان كان نظامه لم يسيطر على أوروبا بعد ذلك أبدا • فقد قرر القيصر نيقولا، الذى كان يحب شارل العاشر والذى أزعجته فتنة بولونيا ، أن الدول الرجعية يجب أن تقف صفا واحدا ، وتبين أن الدخول فى نزاع مع النمسا أمر لا يخلو من الخطورة • وأصبحت الحركات الثورية فى ألمانيا رغم ضعفها مصدر قوة للرجعية بعد أن تم اخمادها • وقام حزب اصلاحى فى النمسا ، ولكن مترنيخ، الذى صار شديد الصمم ، استطاع أن يتجاهل برنامج هذا الحزب ، بل وظل فى الواقع لا يشعر بوجوده الى حد كبير •

ولكن الذى هزمه آخر الامر كان نمو مبدأ القومية • وقد كتب عن ذلك فى سنة ١٨١٩ يقول : « انى آمل ، بعون الله ، أن أقضى على الثورة الألمانية كما قضيت من قبل على قاهر العالم كله » • ولكن ثبت أن هذا الامر سراب على الرغم مما بذل من جهود صادقة لتحقيقه • فقد فعلت الرقابة كل ما فى وسعها لتمنع أى تشجيع للشعور القومى حتى ولو كان بطريق غير مباشر • فمثلا كانت جملة « عصبة من الشبان الأبطال تجمعوا حول علم بلادهم المجيد » يغيرها الرقيب الى « عدد كبير من الشبان تطوعوا مختارين لخدمة الصالح العام » (١) •

وحرم مترنيخ على الطلبة النمساويين تلقى العلم فى جامعات أجنبية ، وعارض

---

(١) مترنيخ تاليف ساندمان ص ٦٣ •

فى أن يتعلم الشبان التاريخ أو الفلسفة أو السياسة ، وكان يفضل أن ينشر الكتاب النمساويون كتبهم فى الخارج على أن ينشروها فى بــلادهم · وألقى فى سنة ١٨٣٤ خطابا طويلا فى اجتماع للوزراء الألمان تحدث فيه عن مساوىء المبدأ التحررى وأشار الى « المحاولات المضللة التى تقوم بهــا بعض الجهــات لاحلال النظرية الجديدة الخاصة بسيادة الشعوب محل مبدأ الملكية » ، وقال عن حزب الأحرار أنه « يفسد الشبان ، ويخدع أولئك الذين تخطوا عهدالشباب ، ويشيع الاضطراب والخلاف فى جميع العلاقات العامة والخاصة ، ويحث الناس عامدا وبطريقة منظمة على عدم الثقة بحاكمهم ، ويدعو الى تدمير وابادة كل ما هو قائم » · وصفق الوزراء المجتمعون استحسانا ، ومع ذلك فان « عدم الثقة بالحكام » ظل يزداد ·

ووقعت فى السنين الأخيرة من عهد مترنيخ قلاقل فى ايطاليا وبوهيميــا وغاليسيا وهنغاريا ، وكان السبب فى كل منها هو يقظة الشــعور القومى · وكان أخطر هذه الاضطرابات ما حدث فى هنغاريا · فقد كان لها دستور انحدر من العصور الوسطى يمنح طبقة الأشراف سلطة فى الشئون المحلية وان لم يمنحهم صوتا فى الحكومة المركزية · وكان هناك من الناحية النظرية مجلس تشريعى « دايت » يفترض فيه أن يدعى للانعقاد فى المناسبات الكبيرة ، ولكنه كان قد بلى وعفا عليه الدهر من الناحية العملية ، حين جاءت القوميةالهنغارية وأعادته الى الحياة · وطالب المجلس فى سنة ١٨٢٥ باحلال اللغة المجرية محل اللاتينية التى جرى العرف على أن تتم بها المناقشات فيه ، وبذلك حصــل المجلس فى سنة ١٨٢٧ بعد نزاع طويل ، على وعد بأن يجتمــع كل ثلاث سنوات · ومن ذلك الحين نزلت الحكومة عند سلسلة من مطالب المجريين دون أن تبدى سوى مقاومة ضئيلة بالقدر الذى يكفى لاذكاء الشعور القومى·وقبض على الزعيم الوطنى كوسوت ثم أفرج عنه فى سنة ١٨٣٩ عندما رفض الدايت أن يقدم مالا أو جنودا حتى يطلق سراحه · وأفضت المحاولات الضعيفة التى بذلت للقضاء على هذه الروح من سنة ١٨٤٤ الى ١٨٤٧ الى زيادة اشــتعال الشعور القومى وأدت فى سنة ١٨٤٧ الى انتخاب دايت غالبيته متحمسة ضد الحكومة · كان هذا هو الموقف فى هنغاريا عندما اندلعت ثورة سنة ١٨٤٨ ·

ولم يكن لدى الأجزاء الأخرى غير الجرمانية من امبراطورية هابسبــورج وسائل دستورية للاعراب عن تذمرها ، الا أنها استعملت ما كان لديهــا من وسائل أخرى · فقد عاد الشعور القومى الى الحياة فى بوهيميا وبين صــقالبة الجنوب ، كما أعد البولنديون فى غاليسيا عدتهم للثورة · لقــد كان الموقف خطرا فى كل مكان ، ولكن طول عهد مترنيخ بالحكم ضرب عليــه ستارا من الغفلة ·

وهيأت ثورة فرنسا سنة ١٨٤٨ الفرصة للمتبرمين فى جميع أنحاء القارة الأوروبية فى أن ينطلقوا من عقالهم · وكانت الثورة قد بدأت فعلا فى ايطاليا

حتى قبل أن يضطر لوى فيليب الى الهرب من باريس ، ولكنها انتشرت بعد ذلك الحدث فى جميع أنحاء شبه الجزيرة باستثناء أملاك ملك سردينيا الذى كان هو نفسه متحررا جبانا نوعا ما • وهب الديموقراطيون فى كل أنحاء ألمانيا ، وفى هنغاريا نادى كوسوت بالحرية ، وأثار الاشراف البولنديون فى غاليسيا ثورة قومية لم تقلم أظفارها سوى ثورة قام بها الفلاحون بتشجيع الحكومة النمساوية أو على الاقل بتغاضيها عنها • وتبدد شمل أبطال مبدأ الشرعية فترة من الزمن فى كل مكان الا فى ممتلكات القيصر •

وفى نفس الوقت كان الاحرار فى النمسا الجرمانية يطالبون بدستور ، ولكنهم كانوا يطالبون بشدة أكثر بذهاب مترنيخ • وامتلأت شوارع فيينا بالصخب والضجيج ، وما كان أشد دهشة مترنيخ اذ وجد أنه لا يعارضه الدهماء وحدهم أو أصحاب النظريات التحررية دون غيرهم ، بل يعارضه أيضا الكثيرون ممن كانوا حتى ذلك الوقت أرستقراطيين محافظين ، وحزب قوى من رجال البلاط • فأجاب جميع مطالب الثوار الا مطلبا واحدا هو أن يتقاعد • ولكن اذعانه لم يهدىء من ثورتهم • وأخيرا قررت الاسرةالامبراطورية التى أفزعها الدهماء أن مترنيخ يجب أن يذهب ، وكانت حتى ذلك الوقت منقسمة على نفسها • وهرب مترنيخ ببعض الصعوبة لاجئا الى انجلترا حيث أسلم الشعلة لدزرائيلى •

وبعد فان مترنيخ لم يكن رجلا عظيما ، ولم تكن مواهبه تؤهله للمكانة التى احتلها على المسرح الأوروبى • لقد كان مهذبا فى سلوكه ، ذا قدرة على الاقناع ، لطيفا مع النساء ، كما أنه كان ماهرا فى استغلال ما يتصف به الأشخاص الذين يتفاوض معهم من لازمات شاذة غريبة • وكانت مبادئه هى مبادىء امبراطوره ، كما أن الظروف هى التى منحت النمسا مركزا متفوقا بعد سقوط نابليون • ذلك أن فرنسا قد أوهنتها الهزيمة ، وانجلترا كانت مصرة على الاحتفاظ بالسلم بأى ثمن ، واسكندر على استعداد للتضحية بروسيا فى سبيل الدين ، وملك بروسيا ضعيف مذبذب • والى جانب هذه العوامل كانت النمسا تهتم اهتماما خاصا بمبدأ الشرعية • والمبادىء المناهضة للقومية ، وهى المبادىء التى قامت عليها سياسة جميع الدول عندما كان الخوف من الثورة ومن نابليون ما زال مسيطرا على تفكيرها السياسى • الا أن الدول على مر الزمن هجرت الواحدة بعد الاخرى عقيدة مترنيخ : هجرتها انجلترا فى سنة ١٨٢٢ وروسيا فى سنة ١٨٢٥ وفرنسا فى سنه ١٨٣٠ ، بينما أخذت سيطرته على ألمانيا تضعف شيئا فشيئا • وكان هدفه الذى يوجه اليه تصرفاته هو الجمود ، وليس فى ذلك شىء غير طبيعى بالنظر الى السنين الطويلة التى أشاعت فرنسا الثائرة خلالها القلاقل فى جميع أنحاء العالم • وكان الكثيرون فى سنة ١٨١٥ يؤيدون مبدأ الجمود هذا ويتخذونه أساسا للحكم ، الا أن السلام الطويل ولد طاقة جديدة ، وجعلت الطاقة الجديدة الجمود غير محتمل •

وعلى ضوء هذا المزاج الجديد رأى العالم مترنيخ على حقيقته : مختالا مغرورا تافها ، غير قادر على عرض مبادئه بطريقة مشوقة ، يصم أذنيه عن كل الآراء الجديدة منذ اللحظة التى سقط فيها نابليون • وكان القرن الثامن عشر مازال يعيش فى بطانته كأنه يعيش فى متحف من المتاحف ، وكان نيرفض أن يصدق أن العالم قد سلك سبلا جديدة فى الحياة والتفكير • وبدأ المعجبون به ، وكانوا من قبل يشملون جميع قادة أوروبا ، يتناقصون شيئا فشيئا ، ولكنه ظل يلعب الدور نفسه • وكان أسلوبه قد أصبح عتيقا منذ أمد بعيد قبل أن يطـــرده استهجان النظارة من فوق المسرح • ولم يبق له بعد أن أصبح ثرثـــارا أصم سوى شيخوخته يناجى فيها نفسه معيدا ذكرياته القديمة • وأصبح أخيرا ، فى هذا الدور ، عديم الأذى •

القسم الثانى

الباب الأول

« زحف العقل »

« الوضع الاجتماعى »

١ ـ الفصل الخامس : الارستقراطية .

٢ ـ الفصل السادس : حياة الريف .

٣ ـ الفصل السابع : الحياة الصناعية .

الوضع الاجتماعى

القسم الثانى

زحف العقـل

قال رجل الدين المبجل الدكتور فليوت وهو يدخل مندفعا صباح يوم جميل من أيام مايو فى غرفة الافطار بقلعة كروتشيه : « وقانا الله الســوء يا سيدى ، لقد ضقت ذرعا بزحف العقل هذا · ها هو ذا ومنزلى كاد يحترق، اذ عن لطاهيتى أن تدرس قوانين توازن السوائل الساكنة وضغطها من وريقة رخيصة تصدرها (جمعية الثقافة البخارية) ويكتبها صديق عالم يعتقد أن فى وسعه أن ينجز أعمال الدنيا كلها كما ينجز عمله ، وأن لديه من الكفــاية ما يؤهله لتناول كل فروع المعرفة البشرية » ·

توماس لف بيكوك

الباب الاول

الوضع الاجتماعى

لانجلترا فى الجزء الأول من القرن التاسع عشر أهمية خاصة فى التاريخ مصدرها نمو التصنيع الذى لم يكن له وقتئذ وجود قط فى أى مكان آخر . وقد نشأت عن التصنيع عادات فكرية معينة ونظم بذاتها فى الاقتصاد السياسى تبدت فيها سمات تفردت بها انجلترا فى ذلك العهد ، وتشابكت هذه السمات مع العناصر الاساسية لوسائل الانتاج الجديدة فى نسيج معقد غاية فى التعقيد . وكان لابد لوجهة النظر الجديدة أن تشق طريقها فى صعوبة ضد طرق فى التفكير والعمل أقدم منها عهدا . وكانت المصانع الحديثة والمناجم لا توجد الا فى جزء صغير من انجلترا ، ولا يكاد يكون لها أثر فى عقول الرجال المتعلمين ومن بينهم كل من بيدهم القوة السياسية تقريبا . ولذلك كان لا بد لفهم الافكار الجديدة فى ذلك العهد من أن نأخذ فى الاعتبار الوسط الاجتماعى الذى نشأت فيه ، وجهل الطبقات الحاكمة بالمشاكل الصناعية ، جهلا استمدته هذه الطبقات من تعليم تقليدى وانشغالها بالرياضة .

وكان الانجليز عند نهاية حروب نابليون منقسمين الى طبقات مختلفة وأنواع متباينة من المهن واضحة المعالم . وكانت الحياة الصناعية التى يحياها كل من الأجير وصاحب العمل تكاد تكون غير معروفة بالمرة لدى بقية المجتمع . وكانت توجد فى الريف الطبقات الثلاث ، أصحاب الأراضى والمزارعون والعمال اليدويون . وتكونت من صغار الملاك طبقة سادة الأرياف ، ومن كبارهم الطبقة الارستقراطية . وكانت القوة السياسية منذ ثورة ١٦٨٨ تكاد تكون كلها مركزة فى الطبقة الارستقراطية التى كانت تسيطر على مجلس العموم ، كما كانت تسيطر على مجلس اللوردات ، عن طريق الدوائر الانتخابية العفنة . وعملت الطبقة الارستقراطية منذ سنة ١٧٦٠ على الحط من مستوى الحياة بين الأجراء بشكل ملموس مستغلة فى ذلك قوة البرلمان دون ما خجل . كما حالت أيضا ، عن جهل وبسبب الحرص على نيل قوى جديدة ولرغبتها فى رفع الايجارات ، دون تقدم الطبقة الوسطى . الا أن كل ذلك تم بصورة شبه شعورية وبطريقة تكاد تماثل وعى النائم ، لأن المشرعين فى تلك الأيام لم يكونوا ينظرون الى واجباتهم نظرة جدية . غير أنه ظهر فى الصورة ، فى بداية العصر الذى نعالجه ، توتر جديد ، واختفت بالتدريج روح القرن الثامن عشر لتحل محلها جدية الفكتوريين وفضيلتهم .

١ ـ الارستقراطية

الفصل الخامس

الارستقراطية

كان الأحرار والمحـــافظون The Whigs & the Tories وهما الحزبان اللذان انقسمت اليهما الطبقة الارستقراطية ، أصلا يتكونان من أعداء آل ستيوارت وأصدقائهم على التوالى ، وكان من نتيجـــة ذلك أن الأحرار استولوا على السلطة بعد سقوط جيمس الثانى وظلوا محتفظين بها احتفاظـا يكاد يكون متصل الحلقات مدى قرن من الزمان • الا أن المحافظين تسللوا مرة أخرى الى الحكم فى حمى جورج الثالث ، ودعموا مركزهم بمعارضتهم للثـورة الفرنسية ، وأبقوا الأحرار فى المعارضة حتى سنة ۱۸۳۰ • وكان الانقسام بين المحافظين والأحرار اجتماعيا كما كان سياسيا • فكانت هنـــاك منازل محافظين يقابل فيها المرء محافظين ، ومنازل أحرار يقابل فيها أحرارا • وكان المحافظون يتزوجون عادة من بين المحافظين وكذلك يفعل الأحرار • ومـع أن الفريقين كانا ارستقراطيين فانهما يختلفان الى حد كبير فى تقاليـدهما وفى موقفهما من الطبقة المتوسطة الناهضة •

وكان المحافظون فى بداية القرن التاسع عشر بصفة عـــامة أقل ذكاء من الأحرار • ولم يكن مبدؤهم الأساسى ، وهو معارضة فرنسا وكل الافكـار الفرنسية ، يتطلب تفكيرا مستنيرا ولا يدفع الى تفكير مستنير ، وكانوا يحسبون بأن كل شئ كان على ما يرام قبل أن يسمم اليعقوبيون عقول النـاس ، وان الشيء الوحيد الضرورى بعد أن سجن نابليون فى سان هيلانة وأمن العالم من شره هو القضاء فورا على أى اتجاه ثورى يعاود الظهور من جديد فى انجلترا أو فى الخارج • وكانوا مخلصين للكنيسة والملك ، وان كان جورج الرابع يقض مضاجعهم بعض الشيء • وكانوا يؤمنون بأن الدرجات الاجتماعية من صـنع الله ، وبأن احترام الصغير للكبير أمر بالغ الأهمية • وكانوا فى صف المصالح الزراعية ويودون أن تظل انجلترا معتمدة على نفسها فى انتاج ما تحتاجه من غذاء • وكانوا يعارضون بطبيعة الحال انتشار التعليم بين الجماهير وحـــرية الصحافة والخطب التى تثير الفتنة • أما فيما عدا ذلك فكانوا يشربون النبيذ البرتغالى ولاء لحليفتنا القديمة البرتغال ، ويتقبلون النقـــرس الذى يصيبهم نتيجة لذلك باعتباره تضحية يؤدونها نظير قيامهم بهذا الـــواجب الوطنى • وكان ساستهم ، منذ وفاة بت ، من ذوى المقدرة التى لا تعـــدو الدرجـة الوسطى • وكان الرجل العظيم الوحيد بينهم هو دوق ولنجتون الذى كان

نجاحه فى الحرب أكبر من نجاحه فى الحكم كما تبين ذلك فيما بعد . وقد عبر توم مور سنة ١٨٢٧ عن وجهة النظرة العامة نحو ولنجتون بهذه السطور :

القائد العظيم الذى يبذل جهودا كبيرة ،

ليثبت ما لا يحتاج الى اثبات .

كم من أبطال علا نجمهم ،

وحظهم من الذكاء متواضع !

ولسنا ننكر أنه كان هناك واحد فى حزب المحافظين يتمتع بمقدرة سياسية كبيرة هو كاننج . ولكنه لم يكن محبوبا بينهم ، وقد حدث ذات مرة عندما خرج كاننج من الوزارة أن سمع أحد السادة المحافظين يقول شاكرا الله أنهم « لن يسمحوا بأن تكون لهم صلة بهؤلاء العباقرة الملعونين بعد الآن » .

وكان الاحرار أكثر امتاعا وأشد تعقيدا . ولما كانوا مدينين بمركزهم لثورة ناجحة ضد ملك ، فانهم لم يعتنقوا فى وقت من الاوقات ذلك الولاء المطلق الذى كان يتسم به المحافظون . كما أنهم كانوا يحسون نحو آل هانوفر بشىء يماثل شعورهم نحو خدم مأجورين يمكن طردهم اذا لم يكن عملهم مرضيا ، ويرجع ذلك الى أن الأحرار هم الذين جاءوا بهم ونصبوهم على عرش انجلترا . ولما سألت الملكة فكتوريا اللورد جون رسل هل يعتقد حقيقة أن مقاومة الملوك قد يكون لها ما يبررها فى بعض الظروف ، أجاب : «سيدتى، بما أنى أتحدث مع ملكة من أسرة هانوفر ، فان لى فيما أظن أن أقول نعم » . وبينما كان أغلب الاحرار أيام الثورة الفرنسية قد حذوا حذو بيرك فى التنديد بالثورة ، كان فوكس الذى ظل الزعيم الرسمى للحزب فى صف الفرنسيين الى أقصى حد كان ممكنا مع قيام حكم الارهاب . وفى الفترة من سنة ١٧٩٣ الى ١٨١٥ عندما كان أى ميل للأفكار الفرنسية جريمة وكان أولئك الذين يشك فى أن لديهم اتجاهات يعقوبية معرضين للسجن مددا طويلة ، استمر بعض البارزين جدا من الأحرار يجاهرون بآراء لو أنها صدرت من أشخاص أقل منهم قدرا لساقتهم الى السجن ، مثل الايمان بالحرية والدعوة الى اصلاح برلمانى شامل . لقد أيدوا الحرب ضد نابليون لأنهم اعتبروه طاغية . ولكنهم لم يتحمسوا أبدا للحرب حماسة المحافظين ، وعندما عاد نابليون من ألبا سنة ١٨١٥ ذهب عدد كبير منهم الى أنه يجب منحه فرصة أخرى . وحتى بعد معركة واترلو أعلن لورد رسل فى مجلس العموم أسفه لأن هذه السياسة لم تتبع .

وكان الأحرار يؤمنون بالملكية باعتبارها أداة نافعة لحماية النظام العام ، الا أنهم لم يدعوا فى يوم من الأيام أنهم يكنون احتراما لأشخاص الملوك . وفى ذلك يقول جريفيل فى سنة ١٨٢٩ : «لقد وجد ملوك طيبون وعقلاء ،

ولكنهم لم يكونوا كثيرين · ولو أننا نظرنا اليهم نظرة عامة لوجدناهم من مستوى ضعيف ، وأعتقد أن هذا (جورج الرابع) من أسوئهم » ·

ويقول جريفى عن بناء قصر بكنجهام فى عهد وليم الرابع :

«لم يحدث أبدا أن كان هناك اسراف شرير مبتذل مثل هذا · لقد تكلف مليونا من الجنيهات ، وليس هناك خطأ واحد لم يرتكب فيه · أعمدة فى لون الخداش لا نهاية لها يشيع مرآها فى النفس اشمئزازا ، وتبعث على الغثيان ولكن ورق الجدران فى جناح الملكة أبشع بكثير (هـــكذا) من أى شىء تراه وأكثر ابتذالا · ·هل يستطيع الانسان بعد ذلك أن يدهش من أن يصير النـــاس متطرفين مع وجود مثل هذا النوع من السفه الملكى أمام أبصارهم ، دع عنك ماتثيره فى النفوس شخصيات هؤلاء الملوك أنفسهم(١) »

وكانت آلام الارستقراطيين موضع عطف لم تكن تحظى بمثله آلام الملوك · فعندما اعتلى وليم الرابع العرش كان جريفى (الذى كان يسميه بيلى) يسخر منه لضعف بصره · ولكنه عندما وجد لورد هوللاند (وهو ابن أخى فوكس) فى عسر مالى اعتبر الأمر خطيرا ·

« لقد كنت بالأمس عند لورد هوللاند ·· وكان هو وزوجتـــه يبـدوان مريضين · وواضح أنهما فى ضيق مالى شديد ـ هو فى أرضه وهى : بصورة أشد فى السكر والروم (٢) · وعندما أبديت رأيى فى أن العملة الورقيـــة يجب أن تتسرب ثانية بطريق التغاضى أو بأى طـريق آخر (وكانت انجلترا قد عادت الى قاعدة الذهب قبل ذلك بفترة قصـــيرة) ، قالت ليدى هوللاند انهـــا ترجو الله أن يكون الوقت قد حان لذلك أو لأى شىء آخر ينقذهمـــا · وقال هو أنه لن يوافق مطلقا على عودة العملة الوقية ، ولكنه يعتقد أن قاعدة الذهب يمكن تعديلها : بحيث يصبح الجنيه الذهبى مساويا لواحد أو اثنـين أو ثلاثة وعشرين شـلنا مثلا » · وكان بيت لورد هوللاند وزوجتـــه ملتقى مجتمع الاحرار · ولم يكن ضروريا أن ينتمى الشخص الى الطبقة الارستقراطية ليسمح له بالاشتراك فى حفلاتهما ، بل يكفى أن يكون على قدر من النضـــوج الذهنى وأن تكون مبادئه من النوع الذى يرتضيانه ، وكان سـيدنى سميث ومكولى ، فيما بعد ، من المترددين عليهما · ويصف جريفيـــل (فى ٦ فبراير سنة ١٨٣٢) أول لقاء له مع مكولى عند آل هوللاند فيقول :

« ٦ فبراير : تناولت العشاء أمس عند لورد هوللاند ، وقد وصلت متأخرا جـدا ووجدت مكانا شـاغرا بين سير جورج ربنسن ورجل عامى المنظر يلبس ملابس سوداء · وما أن وجدت لدى متسعا من الوقت للنظر الى جارى حتى بدأت

---

(١) أوراق جريفى ، المجلد الثانى ٣٠٧ ، ٣٠٨ ·
(٢) كانت ليدى هوللاند ابنة احد المزارعين فى جمايكا ووريثته ·

أفكر (كما يفكر المرء عادة) فيمن عساه يكون ، ولما كان قد ظل فترة من الوقت صامتنا لا يفتح فمه الا ليأكل فقد انتهيت الى أنه أحد الادباء الخاملين أو الأطباء ، ولعله طبيب كوليرا ، وبعد فترة وجيزة تحول مجرى الحديث الى المفاضلة بين التعليم المبكر والمتأخر ، وقال لورد هوللاند أنه لاحظ دائما أن الرجال الذين علموا أنفسهم بأنفسهم مغرورون متغطرسون يميلون الى التعالى على عامة الجنس البشرى لجهلهم مقدار ما يعرفه غيرهم من الناس ، ذلك أن عدم التحاقهم بالمدارس العامة يجعلهم لايدرون شيئا عن سير التعليم العام ، وقال جارى أنه يعتقد أن أبرز مثل للرجل الذى علم نفسه بنفسه هو «الفيبرى» الذى بلغ الثلاثين من عمره ولم يكن قد تعلم شيئا سوى قيادة العربات ، وكان يجهل لغته نفسها جهلا اضطره الى أن يتعلمها مثل الطفل مبتدئا بالكتب الأولية . وضرب لورد هوللاند « يوليوس قيصر سكاليجار » مثلا من أمثلة التعليم المتأخر وقال انه تزوج وبدأ يتعلم اللغة اليونانية فى نفس اليوم ، وعندئذ قال جارى : « لاأظن أن تعلمه اليونانية كان عملا بدون تفكير سابق مثل زواجه » ، وأعطتنى هذه الملاحظة والطريفة التى قيلت بها فكرة عن جارى فخيل الى أنه شخص بليد الذهن ، اذ أنه قالها بطريقة تكاد تكون سخيفة تثير فى السامع روح السخرية . واعترانى شيء من الدهشة عندما سمعته يمسك بطرف الحديث (مستطردا من جرح سكاليجار) ثم يتحدث عن «لويولا» وكيف جرح فى «بامبلونا» . وقد أدهشنى أن يكون لديه علم بأى شيء عن جرح «لويولا» . وبعد أن انتهيت الى ذلك بدأت فى معاودة الاكل ، وعندئذ وجه أوكلاند ، وكان جالسا أمامى ، حديثه الى جارى قائلا : هل لك فى كأس من النبيذ يا مستر مكولى ؟ لقد خيل الى أننى على وشك السقوط من مقعدى . فقد كان جارى هو مكولى الرجل الذى كنت أتحرق شوقا الى رؤيته وسماعه من مدة طويلة والذى أثارت عبقريته ولباقته ومعلوماته المدهشة ونواحى نبوغه المختلفة عجبى واعجابى معا منذ أمد بعيد ، وهأنذا أجلس بجواره وأسمعه يتحدث وأراه شخصا بليدا . وأحسست كأنه قرأ أفكارى ، فتندى وجهى عرقا ، ومع ذلك كان من المستحيل الا أجد فى الموضوع كله شيئا من المتعة . ولم أتبين الى أى حد كان منظر مكولى مبتذلا وقبيحا الا عندما وقف ، فلم يكن يبدو على وجهه أى أثر للذكاء ، ولم يحدث أبدا أن كتلة من الطين العادى الى هذا الحد قد احتوت عقلا قويا وخيالا حيا . لقد كان مكولى فى ذلك اليوم مصابا ببرد والتهاب فى حلقه ، وكان ذلك الالتهاب سببا مستمرا فى انقباض عضلات زوره مما جعله يبدو على وشك أن تعتريه نوبة . وقد بدا الى أن سلوكه ليس مما يسر ولكنه لم يكن متصنعا أو مرتبكا ، ومع ذلك فهو لايتسم بالبساطة ، كما أنه ليس مهذبا تماما وأن لم يكن فظا ، فلم يجنح الى الاستئثار بالحديث أو التعصب للرأى أو للحقائق التى يذكرها أو الى الادعاء بالتفوق ، ولكن سرعان ما ظهرت سعة معلوماته وتنوعها ، فقد كان يبدو أنه يحيط احاطة تامة بكل موضوع أثير ، وكان الاقتباس وضرب الأمثلة والقصص لكل موضوع

فى متناوله • وكان الموضوع الرئيسى فى تلك الليلة على ما أذكر هو حقوق الابن الاكبر فى هذه البلاد وفى غيرها وخاصة فى روما القديمة ، ولكن مستر مكولى لم يكن متأكدا من أحكام القانون الرومانى فى الموضوع الا فيما يتعلق بتقسيم أملاك المتوفى بين أبنائه اذا لم يترك وصية • وبعد العشاءدخل تاليران ومدام دى دينو • وقدم مكولى الى تاليران الذى قال له أنه ينوى زيارة مجلس العموم يوم الثلاثاء وأنه يأمل أن يسمعه يتحدث ، وقال : انه سمع كل الخطباء العظام وأن مايتمناه فى الوقت الحاضر هو أن يسمع السيد مكولى •

وكان ملبورن كثير التردد على منزل آل هوللاند ، وكان حديثه ، كما يقول جريفيل ، حديث الرجل المثقف الى حد لا يصدقه العقل • وها هو ذا مثل مما ذكره جريفيل فى هذا الموضوع ، فى ٧ سبتمبر سنة ١٨٣٤ «تحدث آلن عن المصلحين الأوائل وعن العرائضيين وعن إضطهاد المسيحيين الأوائل بعضهم بعضا ، وألقى ملبورن من الذاكرة نص خطاب «فيجيلانتيوس»الى«جيروم» ، ثم سأل عن القانون الحادى عشر من قوانين هنرى الرابع الذى أصدره مجلس العموم ضد الكنيسة ، وأشار الى حوار بين كبير أساقفة كانتربرى وأسقف « الى » الوارد فى مستهل مسرحية هنرى الخامس لشكسبير ، فأرسل لورد هوللاند فى طلب الكتاب وبدأ يقرأ ، وكان ملبورن يحفظه كله عن ظهر قلب ويلقن القارىء طول الوقت » •

وكان جريفى ، وهو ذو ميول راديكالية ، ينقلب أحيانا على آل هوللاند ، كتب جريفى يقول : «ان حقارة آل هوللاند وقذارتهم التعسة تثير فى نفسى أشد أنواع الاشمئزاز (٢٤ يولية سنة ١٨٢٠) • ولكن الذى انطبع فى ذهنه فى أحيان أخرى كان يختلف عن هذا كل الاختلاف • « لم أدرك فى وقت من الاوقات ظرف لورد هوللاند لمثل ما أدركته هذه المرة • ولا أعتقد أن هناك انجليزيا على قيد الحياة واسع الاطلاع مثله ، فى السير والتاريخ والقصص الطريفة » ، (٢٣ نوفمبر سنة ١٨٣٣) • وبين هذين الرأيين رأى ثالث : « تناولت العشاء مع مدغشقر (اسم التدليل لليدى هوللاند) فى منزل آل هوللاند ، وكان الجمع صغيرا ، ولأول مرة سرنى أن المكان لم يكن مزدحما • • وبينما يستطيع منزل آل هوللاند أحيانا أن يكون مبعث سرور لا يقل فى ذلك عن جو أى منزل آخر أعرفه ، فهو فى أحيان أخرى لا يقل عن غيره امتلاء بالثرثرة ولغو الكلام ، وقد كان كذلك فى هذه المرة » (٢٣ أبريل سنة ١٨٣٦) • وكان منزل آل هوللاند مشهورا بازدحام حفلات عشائه • وقد قصت على جدتى أنها كانت ذات مرة فى هذا البيت ، فدخل عليهم ضيف غير متوقع وصاحت ليدى هوللاند فى مدعويها : « افسحوا مكانا يا أعزائى » ، فأجاب لورد هوللاند : « ليس من وسيلة الا أن أصنع مكانا ، لانه لا يوجد مكان » •

وكانت ليدى هوللاند أحيانا تبدى أقصى أنواع الصلف الذى تتصف به

سيدة عظيمة . وشاهد ذلك ما يذكره جريفى (٦ يونية سنة ١٨٣٣) فى القصة التالية :

« قابلت ليدى هوللاند مرة أخرى يوم الخميس عند لورد سفتون . وقد بدأت بالتذمر من أن الفناء زلق وخطر على جيادها ، وأجاب سفتون على ذلك بأن الفناء سيرصف بالحصى عندما تشرفه بالعشاء فى منزله . وبعد ذلك بدأت تشم الهواء حولها ثم ألقت نظرها على عدة أوان للزهور مليئة بورود جميلة وبجميع أنواع الزهور الاخرى ، وقالت : « لورد سفتون انى مضطرة لأن أرجوك اخراج هذه الزهور من الغرفة ، ان رائحتها أقوى من أن أحتملها» وحمل سفتون فعلا مع خادمه المنضدة بكل ما عليها خارج الغرفة ، ولم تلبث ليدى سفتون الصغيرة المسكينة العزيزة ، التى تحمل دائما طاقةصغيرة من الزهور على صدرها عندما تضع ملابس السهرة ، ان رفعتها من صدرها بتواضع شديد قائلة : « ليدى هوللاند لعل هذه الباقة أكثر مما تحتملينه » ، ولكن الاخرى تفضلت فسمحت لها بالاحتفاظ بها وان كانت قد فعلت ذلك بطريقة غير سمحة . وعندما أضيئت الشموع عند نهاية العشاء ، طلبت ليدى هوللاند أن تطفىء ثلاثا منها لانها أكثر مما تحتمل ولانها قريبة منها جدا . فهل ثمة ما هو أقل كياسة من هذا ؟ » .

وعندما ماتت ليدى هوللاند انتهز جريفيل الفرصة ليكتب موجزا عن أهمية بيت هوللاند (٢٤ نوفمبر سنة ١٨٤٥) .

« على الرغم من أنها كانت امرأة لم يحبها أحد ، ومن ثم فان موتها لن يثير حزنا ، فان العدد الغفير من الناس سيأسف لوفاتها ، بعضهم حزنا عليها ، والبعض أنانية منهم ، وسيحزن كل أولئك الذين تعودوا الحياة فى منزل آل هوللاند واستمروا يترددون عليه لان الستار قد أسدل على هذه المسرحية الطويلة ، ولانطفاء نور اجتماعى أضاء انجلترا وزينها ، بل وأوروبا كلها ، طوال نصف قرن . ان العالم لم ير أبدا ، ولن يرى مرة أخرى ، ما يشبه بيت هوللاند ، وعلى الرغم من أنه لم يكن كما كان ابان حياة لورد هوللاند ، هوللاند قد استطاعت أن تجمع حولها الى آخر حياتها مجتمعا كبيرا يكاد يضم كل نابه ظريف جدير بالاعتبار » .

على أننا لاينبغى أن نفترض أن كل الأحرار كانوا مثقفين مثل المجتمع الذى كانت تضمه حفلات عشاء آل هوللاند . الا أن زعماء الحزب كانوا بصفة عامة على قدر كبير من الثقافة يأخذونها فى يسر ويضيفون اليها ذلك التحرر الخلقى الذى كان من سمات القرن الثامن عشر . فليدى هوللاند مثلا تركت زوجا سابقا وعاشت مدة مع لورد هوللاند قبل أن تطلق من زوجها الاول ، وكانت زوجة ملبورن متيمة ببيرون كما يعرف العالم كله كانت تطارده بشكل سبب له ضيقا . وأحبت ليدى أكسفورد بيرون ، وبادلها هو حبا بحب . وكان سمير

فرانسيس بوردت عشيقا آخر من عشاق ليدى اكسفورد ، وعرف أطفالهــــا باسم «خليط اكسفورد» ٠

وكان مجتمع الاحرار متسامحا مع ألوان الشذوذ الراديكالى طالما كانت مصحوبة بحضور البديهة أو العلم أو عراقة الأصل المصحوبة بالثروة ٠وكان بيرون فى أول الأمر ممن ينطبق عليهم هذا كله فى يسر ٠ وعندما ألقىخطابه الأول والوحيد فى مجلس اللوردات دفاعا عن المتظاهرين فى لوديت ، الذين وقعت عليهم عقوبات وحشية ، لم يترك خطابه أثرا سيئا فىنفس أى شخص، ويرجع بعض السبب فى هذا بطبيعة الحال الى أنه كان معروفا أن خطابه لن يكون له أثر ٠ ولكنه عدا طوره فى النهاية ، لافى السياسة ، بل فى أخلاقه الشخصية ٠ ولم تكن آثامه هى السبب فى الحكم عليه بقدر ماكانت مباهاته بهذه الآثام ٠ وأخيرا هجره الجميع حتى ليدى ملبورن العجوز والدة السياسى المعروف ، وقد كانت موضع سر بيرون، وهى سيدة تمتعتابان شبابها بحرية القرن الثامن عشر الى أقصى حد يسمح به حسن الأدب ٠

وكان التشكك فى شئــــون الدين أمرا مألوفا بين الأحرار ٠ الا أن مؤيديهم من الطبقة الوسطى كانوا فى الغـــالب من المتدينين المنشقين على الكنيسة الانجليزية ، ومن ثم كان الأحرار يحرصون على ألا يجاهروا بالآراء الخارجة على الدين الا فى أحاديثهم الخاصة، وكان التعرض لها بصورة تدركها الطبقات الأدنى منهم أمرا مبتذلا ٠ ولهذا السبب نبذوا شيللى ولم يقبلوه فى صفوفهم وان كانت مواهبه تؤهله للاندماج فيهم لولا صراحتــه فى التعرض للدين ٠ ذلك أن محاولة طالب أن يقنع أستاذه بالالحاد ، وان لم تكن فىذاتها محاولة شريرة ، كانت بلا شك طريقة نابية ، يضاف الى هذا أنه هجر زوجته ٠ وأدهى من ذلك وأمر ، أنه هرب مع ابنة جودوين العجوز ذلك اليعقوبىالخليع الذى لم ينج من العقوبة التى يستحقها عن جرائمه الا بنشر كتابه بثمن يجعل شراءه متعذرا ٠ ولم يقتصر الأمر على أن الفتاة التى هرب معها هى ابنة ذلك الثائر الأشيب ، بل ان أمها كانت تدافع عن حقوق النساء وكانت تحيا علنا حياة فاسدة فى باريس ، ولم تكن حياتها على هذا النحو للمتعة فحسب ، بل كانت تطبيقا لنظرية تدين بها ٠ وكان هذا أكثر من أن يكون فكاهة ٠ وكان الأحرار يتذكرون أنه حتى الاحرار من الارستقراط أنفسهم قطع روبســبير رقابهم ٠ وكانوا أيضا يعرفون الحدود التى يجب الوقوف عندها ، وقد وقفوا عندها فى صلابة ضد شيللى ٠ وظلت هذه الفكرة عنه سائدة بينهم حتى أيام صباى ، بل انى سمعت أنها لم تزل موجودة فى بعض الاوساط حتى الان ٠ وعندما بدأت أهتم بدراسة شيللى وأنا فى السادسة عشرة من عمرى ، قيل لى أنه يمكن الصفح عن بيرون لانه ، وان أثم ، كانت ظروف شبابه التعسة هى التى أدت به الى الاثم ، أما سيرة شيللى الخلقية فلا يمكن الدفاع عنها لأنه كان يتصرف رفقا لمبدأ ، ومن ثم فهو لايستحق أن يقرأ ٠

٢ ـ حياة الريف

الفصل السادس

حيـاة الريف

كانت حياة أعيان الريف طوال حروب نابليون وفى فترة من الزمن بعدهـا حياة هادئة يسودها الرخاء . فلم تكن الحروب وقتئذ مزعجة كما صـارت بعدئذ ، وقل من الأعيان من كان يشغل باله بالمسائل العامة . كانت قيمة الأراضى فى ارتفاع وارتفع كذلك ايجارها : كان الطلب على المنتجات الزراعية يزداد بازدياد عدد السكان ، وكانت بريطانيا العظمى مازالت تنتج كل حاجتها تقريبا من المواد الغذائية . ولسنا نجـــد فى قصص جين أوستن التى تدور حوادثها حول حياة صغار ملاك الأراضى ، سوى اشارة واحدة الى الحـرب على ماأذكر : ذلك أن البطل فى قصة Persuasion (الاقناع) ضابطا بحريا ينتظر بعض المال مكافأة له ويأمل أن يسهل له هذا المال أمر زواجه . أما أعمـــاله المجيدة فى الحرب فلا تسمع عنها كلمة واحدة له . ويبدو أن هذه الأعمــال ماكانت لتزيد من جاذبيته مطلقا فى نظر بطلة القصة . ولا ذكر للصحف فى هذه القصص الا نادرا ، ولم يرد لها ذكر متصل بالسياسة الا مرة واحدة على ما أذكر . وتذكرها المؤلفة عادة لتلقى ضوءا على أشخاص قصصها . فمستر دارسى يلتقط صحيفة ليخفى بها ارتباكه عندما ذهب ليطلب يد اليزابيث بنيت . ومستر بالمر عندما تقنعه زوجته على كره منه بالقيام بزيارة ، يلتقط جـريدة بعد التحية مباشرة وتقول له مسز بالمر : « هل من جديد فى الصحف ؟ » فيرد مستر بالمر : «لاشىء على الاطلاق» ويواصل القراءة . ولعل الجريدة كانت تتضمن تقريرا عن الفتنة فى نور أو القضاء على جمهورية البندقية . فان كانت كذلك فان مستر بالمر لم ير أن مثل هذه الحوادث مما يستحق الذكر .

ومرت فترات كان الدين فيها يقلق بال الناس . من ذلك أن العقيـدة النظامية «Methodism» كانت فى الوقت الذى تكتب فيه جين استن تحدث تغييرا عميقا فى الطبقتين المتوسطة والدنيا . ولكن الدين لم يظهر فى قصصها الا فى صورة واحدة : عندما كان الامر يحتاج أبرشية تمنح للابن الاصغر . وكان كل أشخاص قصصها الأغنياء يملكون حق التصرف فى مناصب دينية محلية تدر ايرادا ، وكانوا فى بعض الاحيان يمنحونها للسخفاء من الناس ، وأحيانا أخرى يمنحونها لبطل القصة ، الا أن المؤلفة لم تكن تهتم فى الحالتين بغير الناحية الاقتصادية .

*

وكان كبار المزارعين يعيشون على طريقتهم كما يعيش ملاك الأراضى ، وان كانوا يتذمرون من فداحة العشور وضريبة الفقراء • وكانوا يقلدون سلوك «السادة المهذبين» تقليدا أعمى ، فكانوا يصطادون ويشربون ويقامرون • وقد أخذت الصورة التقليدية لجون بول من هذه الفترة ، ومما يدعو الى العجب أن تظل هذه الصورة مقبولة حتى الآن رمزا لشعب أغلبيته الساحقة من سكان المدن •

وجاءت لحظة رهيبة فى سنة ١٨١٥ خشى فيها أعيان الريف والمزارعون أن تنتهى فجأة طريقتهم الرغدة فى الحياة • فقد انتهت الحرب وأصبح من الممكن استيراد الحبوب من الخارج • ونقص محصول البلاد ، وعرض الاجانب القمح بأسعار لاتستطيع المحصولات البريطانية منافستها • وحدث ضيق شديد فى المناطق الصناعية لأن البلاد الأجنبية بدأت تفرض ضرائب جمركية على المصنوعات البريطانية • الا أن البرلمان استمع الى مطالب ملاك الأراضى والفلاحين وفرض ضريبة مرتفعة على القمح الاجنبى ، وكانت النتيجة أن الطبقات الاكثر ثراء فى البلاد ظلت ثرية ، وعانت بقية الامة من جراء ذلك ما سوف نراه فيما بعد •

وكانت حياة الأجير الزراعى فى أوائل القرن التاسع عشر فى انجلترا تناقض أشد التناقض السعة التى كان يعيش فيها الأعيان حتى ليصعب علينا أن نفهم كيف ظلت الطبقات العليا تعيش راضية دون أن تحرك ساكنا • لقد كان الفلاحون فى أوروبا ، باستثناء فرنسا وبعض أجزاء ألمانيا ، تعساء أشد التعاسة ، الا أن تعاستهم كانت قديمة العهد كما كانت فى طريقها الى التحسن بصفة عامة • ولكن حالة فقراء الريف فى انجلترا ابتداء من سنة ١٧٦٠ وما بعدها كانت فى انحطاط مستمر ، وان كان هذا التغيير يتم فى هدوء لا يكاد يلاحظه أحد • وزاد عدد أفراد الطبقة التى لاتملك أرضا ، وهى طبقة لايكاد يوجد لها مثيل فى القارة الأوربية ، زيادة كبيرة وكانت تقدم الأيدى العاملة اللازمة للنمو السريع فى الصناعة البريطانية ، ولم يدرك معظم المؤرخين حق الادراك الى أى حد بلغ البؤس الذى نجم عن تغير حالة الأجير الريفى حتى نشر كتاب «عامل القرية» بقلم ج•ل• هاموند وباربارا هاموند فى سنة ١٩١١ وهو اتهام ضخم بشع لجشع الطبقات العليا •

وكانت وسائل انتهاب الطبقات الثرية للطبقات الفقيرة متعددة ومختلفة ، أهمها وسيلتان هما «التسوير» و «قانون الفقراء» •

ولتاريخ التسوير ، فضلا عن أهميته فى ذاته ، أهمية أخرى لأنه يوضح تأثير السياسة فى التقدم الاقتصادى • وتفصيل ذلك أن فقراء الريف كانوا يعيشون فى رغد الى حد ما أبان النصف الاول من القرن الثامن عشر • وكانت نصف الأراضى المزروعة فى انجلترا على الارجح تستغل فى ذلك الوقت على نظام « الشرائح » القديم ، ومقسمة الى أنصبة مختلفة المساحات ، منها الكبيرة

جدا ومنها الصغيرة جدا • وكان معظم العمال الزراعيون يستأجرون «شرائح» من الأرض وأكواخا يتضمن ايجارها حقوق رعى وجمـــع حطب الوقود من «الأراضى المشتركة» • وكانت حقوق استعمال الأراضى المشتركة فى حالات كثيرة قائمة أو مسلما بها بصرف النظر عن امتلاكه للكوخ أو عدم امتلاكــه اياه • وهكذا كان العامل يحصل على وقوده مجانا ، وكان يستطيع أن يربى دواجن وبقرة أو خنزيرا على الاراضى المشتركة ، ويستطيع اذا كان مقتصدا أن يدخر أجرته ويضم الى شريحته شريحة بعد شريحه حتى يصبح مزارعا متيسر الحال •

الا أن الأراضى أخذت طوال القرن الثامن عشر والنصف الأول من القرن التاسع عشر تسور بسرعة متزايدة ويعاد توزيعها بناء على قوانين يصدرها البرلمان • وقد بدىء أولا بالحقول ثم تلتها الأراضى البور • فيتقدم عدد قليل من مـلاك الأراضى ، أو يتقدم مالك واحد فى بعض الأحيان ، فى الجهة ملتمسين اصدار قانون ، فيعرض مشروع بقانون وتعين لجنة ، وعندما يصـــدق على المشروع يعاد توزيع الأراضى «المسورة» كما يتراءى لأعضاء اللجنة المعينة ويذهب نصيب الأسد منها الى أكبر مالك أرض ، وهو عادة أحد الاعيان أو عضـــو برلمان • وقد كان هناك نظام من التعاون غير المشروع يستطيع بواسطتـــه الرجل العظيم أن يترك مصالحه فى أيدى أصدقائه وهـو مطمئن • وبذلك يحصل كبار المزارعين فى الجهة على نصيب لابأس به من الأرض المسورة ، أما صغار المزارعين وأصحاب الاكواخ فلا يحصلون على شىء فى العادة ، واذا منحوا نصيبا لايستطيعون أن يضعوا يدهم عليه بسبب النفقات التى يتطلبها وضع السياج ، فيهاجر المزارع الصغير اما الى أمريكا أو الى مدينة صناعية أو يصبح عاملا أجيرا «مياومة» ، وكثيرا ماكان سكان الاكواخ يصلون الى حالة من الضنك الشديد أو الموت جوعا • وكان سادة الأراضى ينظرون الى هـذه الحالة بعين الرضاء التام ، فقد كانوا يأسفون على الأثر السىء الذى تركـه الاستقلال الجزئى الذى يتمتع به العامل ، والذى تمتع به أجداده مئـــات السنين • وكانوا يعتقدون أنه يؤدى به الى الكسل ، وأن العامل لايمكن الاعتماد عليه فى بذل كل مالديه من طاقة لصالح مخدومه الا اذا كان يعتمد على هـــذا المخدوم اعتمادا كليا • ولم يقتصر الأمر على أن التسوير قد حرم العمـــال من الأرض ومن حقوق أخرى لها قيمتها ، بل أنه حرمهم أيضا من القدرة على المساومة فى علاقتهم مع المزارعين وملاك الأراضى • ومن ثم كانت خسارتهم مزدوجة ، فقد فقدوا أولا مصادر رزق كانت تأتيهم فوق أجورهم ، وثانيـا فقدوا جزءا من هذه الأجور بانخفاضها • وقد زاد المجموع الكلى للانتـــاج الزراعى ، ولكن العامل لم يصبح مضطرا الى قبول نصيب أقل مما كان يحصل عليه من قبل فحسب ، بل كان مضطرا أيضـــا الى قبول تخفيض كبير فى أجره • وكان انحطاط حال الفلاحين الذى نجم عن ذلك ثمنا باهظا لتقـدم الزراعة على أساس علمى •

وكانت الوسيلة الثانية للحط من حالة العمال ، اجراء اتخـذ لصالحهم فى

الظاهر وهو قانون الفقراء • ويرجع هذا القانون الى عهد الملكة اليزابيث ، ويقال أن الدوافع اليه كانت انسانية (وان كان ذلك يبدو بعيد التصديق) ويقضى قانون الفقراء بأن كل أبرشية ملزمة بألا تترك أحد فقرائها يموت جوعا • فاذا أصبح أى رجل أو امرأة أو طفل فى حالة املاق ، فان واجب الأبرشية التى ولد فيها أن تمده بما يكفل له الحد الأدنى من العيش • وكان من الممكن اذا حصل الانسان على عمل فى أبرشية بعيدة عن مسقط رأسه أن تتولى الابرشية الجديدة هذا الالتزام اذا احتاج الأمر اليه ، ولكن هذا لم يحدث الا نادرا ، فكان يقال أن للشخص «مقر» فى الأبرشية المسئولة عنه•وكانت أبرشيته تعترض على أن يغادرها مادامت قد تصبح مسئولة عن نفقات اعادته من الطرف الآخر من المملكة ، وحتى اذا سمحت له أبرشيته بمغادرتها فمن المشكوك فيه أن نسمح له أبرشية أخرى بالدخول فيها الا اذا كان يحمل شهادة من أبرشيته تتحمل فيها مسئولية اعادته اليها ، ولكن موظفى الأرشية لم يكونوا ملزمين باعطاء هذه الشهادات التى كان الحصول عليها فى الواقع من أصعب الامور• وكانت هناك من الناحية النظرية عدة طرق لاكتساب «مقر» جديد ، ولكن الوسائل كانت تبتكر لمنع الفقراء من الافادة منها • ومن ثم كان من العسير جدا على الرجل الفقير أن يغادر مسقط رأسه مهما كان موطنه فى غير حاجة الى مجهوده •

وقد خطت البلاد خطوة مهمة فى تطور قانون الفقراء بانشاء مايعرف باسم نظام (سبينهاملاند) عام ١٧٩٥ • وكان الجو فى ذلك الوقت مشبعا بالخوف من الثورة لان حكم الارهاب فى فرنسا كان قد انتهى وشيكا • وقد عجز المحصول وقتئذ وعمت الفاقة انجلترا كلها وأدى ذلك الى مظاهرات واسعة النطاق كان الشأن الاكبر فيها للنساء • وانزعجت الطبقات الحاكمة وانتهت الى أنه لايمكنها المحافظة على سلامتها عن طريق القمح وحده • وحاولت أن تجعل الفقراء يكتفون بالخبز الأسمر والبطاطس والحساء ، ولكن الفقراء رفضوا أن يقلعوا عن أكل الخبز المصنوع من القمح مما أدهش الكثيرين من حسنى النية • الا أن التجربة أثبتتفيما بعد أن الفقراء كانوا فى ذلك على حق من الناحية الاقتصادية • فقد اقتنع الارلنديون بأكل البطاطس ، وكانت النتيجة أن مات منهم جماهير غفيرة فى المجاعة التى حدثت من سنة ١٨٤٥ـ ١٩٤٧ • ودعا بعض الأشخاص ــ ممن كانوا أكثر استنارة من معاصريهم ــ الى وضع حد أدنى للاجور ، وعرض واينبريد مشروع قانون لهذا الغرض على البرلمان ، ولكنه هزم بمعارضة بت • وكانت الخطة التى لاقت قبولا فى معظم أرجاء انجلترا ، وليس فى البلاد كلها ، نظاما لتكملة الأجور من « ضريبة الفقراء » اذا كان الأجر يبدو غير كاف لان يضمن للشخص وأسرته حد الكفاف • فاجتمع عدد من كبار الموظفين بيوركشير فى سبينهاملاند (حيث أدخل هذا النظام لأول مرة) وقدروا أن الرجل يحتاج لثلاثة أرغفة « من حجم الجالون » فى الاسبوع بينما تحتاج المرأة أو الطفل الى رغيف ونصف • فاذا لم

يكن أجره كافيا لشراء هذه الكمية من الخبز يكمل من « ضريبة الفقراء » الى أن يبلغ القدر الكافى الذى يزداد وينقص بطبيعة الحال تبعا لأسعار الخبز .
وكانت الصيغة التى استعملت فى هذا الصدد فى القرار هى :

«عندما يتكلف الرغيف من الخبز من حجم الجالون الذى يزن ثمانية أرطال واحدى عشرة أوقية شلنا واحدا يكون نصيب كل فقير عامل ٣ شلنات أسبوعيا لتفوم بأوده سواء بما ينتجه بعمله أو عمل أسرته أو بعلاوة من ضريبة الفقراء، كما يأخذ شلنا وستة بنسات لزوجته ولكل فرد آخر من أفراد عائلته. وعندما يتكلف الرغيف من هذا النوع شلنا وأربعة بنسات يأخذ كل فقير عامل ٤ شلنات أسبوعيا لنفسه وشلنا وعشرة بنسات لكل فرد من أفراد أسرته . وهكذا يتناسب الايراد تبعا لزيادة ثمن الخبز أو انخفاضه (أى) ثلاثة بنسات للرجل وبنس لكل فرد آخر من العائلة نظير كل بنس يرتفعه الخبز زيادة عن شلن (١) » .

وقد ظل هذا النظام معمولا به دون أية تعديلات مهمة حتى وافق البرلمان بعد اصلاحه على قانون الفقراء الجديد سنة ١٨٣٤ . أما هل القانون الجديد أفضل من القديم فمسألة يمكن أن تكون حتى هذه الايام مثارا للجدل ، ولكن ليس هناك من يجادل فى سوء النظام القديم .

وكانت النتيجة الطبيعية لنظام سبينهاملاند أن خفض أصحاب العمل الاجور حتى تتحمل ضريبة الفقراء جزءا من نفقات العامل الذى يستخدمونه . ومن ثم كان الأجراء فى عدد كبير من الأبرشيات يعيشون على الاعانات . وحدث وقتئذ تطور فى نظام كان موجودا فى عام ١٧٩٥ تدفع بمقتضاه السلطات الأبرشية أجر العامل كاملا وتؤجره لأى شخص لديه عمل يراد أداءه ، وكان العمال فى هذا النظام يسمون « الدائرين » لأنهم كانوا يدورون فى أنحاء الابرشية .

ولم يكن مستوى الحياة على أساس نظام سبينهاملاند كريما ، ومع ذلك فقد كان أعلى من المستوى الموجود فى أماكن كثيرة بعد حروب نابليون . ويبدو أن الهبوط ظل مستمرا طوال المدة التى كان قانون الفقراء قائما خلالها، وانه فى عام ١٨٣١ كانت الجراية العادية للعائلة رغيفا واحدا فى الأسبوع للفرد ورغيفا زائدا للكل ، وفى ذلك يقول آل هاموند :

« هبط المستوى خلال خمسة وثلاثين عاما الى الثلث تبعا لما يقول ماك كولوتسن ، ولم يكن ذلك بسبب الحرب أو المجاعة ، فانجلترا سنة ١٨٢٦ كانت قد قضت فترة سلام دام أحد عشر عاما ، ولكن ذلك الهبوط حدث خلال السير العادى لحياة الشعب ، فهل سجل التاريخ مثل ذلك الانحطاط فى مستوى الحياة فى أى مكان آخر ؟ (٢) .

---

(١) « عامل القرية » هاموند ــ الطبعة الرابعة ص ١٣٩
(٢) « عامل القرية » ص ١٦١ ، وقد كتب ذلك قبل الحرب الكبرى .

وكان لهذا النظام عدة مزايا من وجهة نظر الطبقات العليا — فقد كانوا يشعرون بأن مايدفع من ضريبة الفقراء كان على سبيل الاحسان ، ومن ثم فهو دليل على حبهم للخير ، وفى نفس الوقت ظلت الأجور عند حد الكفاف بطريقة تحول دون أن يصير التذمر ثورة ٠ ففى فرنسا أفادت الثورة الفلاحين فائدة كبرى ، اذ ارتفع مستوى حياتهم فى سنة ١٨١٥ عنه فى سنة ١٧٨٩ ارتفاعا كبيرا على الرغم من الحروب الطويلة والهزيمة فى النهاية ٠ ولعل الثقـــة المستمدة من قانون الفقراء فى أن ولاة الأمور فى الأبرشية سيحولون بينهم وبين الموت جوعا هى التى دعت فقراء الريف فى انجلترا الى أن يصبروا على بؤسهم ٠ وانه لمن العسير ابتكار خطة أقل نفقة من هذه لتهدئة الفقراء ٠ ٠ ولسنا ننكر أن عدة اضطرابات قد حدثت أحيانا وخاصة «التمرد الاخـير» الذى وقع سنة ١٨٣٠ ٠ الا أن اخمادها لم يكلف الحكومة الا أقل عناء ، كما أنها كانت فرصة لتوقيع عقوبات وحشية على الثائرين ٠ لقـــد نزل قانون الفقراء بالعمال الى الحضيض وقضى على احترامهم لأنفسهم ، وعلمهم أن يحترموا «سادتهم» ، وترك كل ما أنتجوه ، باستثناء الحد الأدنى المطلق للبقاء ، فى أيدى ملاك الأراضى والمزارعين ٠ لقد كانت هذه الفترة هى التى بنى فيها أصحاب الاراضى الخرائب الفوطية المقلدة التى يطلق عليها اسم « الحماقات » (١) حين انغمسوا فى ذكريات وجدانية عن الماضى وملأوا الحاضر بؤسا وهوانا ٠ ٠

---

(١) Follies اسم يطلق على الاعمال العديمة النفع وبخاصة المبانى التى يعجز القائمون بها عن اتمامها بعد ان تبين لهم ان نفقاتها اكثر مما تتحمله مواردهم ٠

٣ ـ الحيـاة الصناعيـة

الفصل السابع

الحياة الصناعيـة

كان فى الريف ثلاث طبقات ، ولكن الحياة الصناعية لم يكن فيها سـوى طبقتين ، فصاحب الارض كان يفضل بصفة عامة ألا يقيم بين أقذار المصانع والمناجم ودخانها . وحتى اذا أقام بعض الوقت فى جيرة كانت أيام أبيه ريفية فانه يقتصد فى علاقاته بالطبقة الناهضة من أصحاب الأعمال التى كان ينظر الى أفرادها على أنهم مبتذلون وغير متعلمين . وكانت العلاقة بين طبقة ملاك الأراضى وأصحاب المصانع فى الغالب علاقة سياسية أكثر منها اجتماعية . فقد كانت لهم مصلحة مشتركة فى اخماد القلاقل ، ولكن بقية مصالحهم كانت متعارضة فى معظم الاتجاهات . فقد كانت هناك ضريبة استيراد على القطن الخام كان أصحاب المصانع حانقين عليها . وكانت الضريبة على الحبوب ترفع ثمن الخبز ومن ثم تزيد من النفقات التى يتطلبها ابقاء العمال على قيد الحياة، وكانت الزيادة فى الأجور التى يضطر أصحاب المصانع الى دفعها نتيجة لذلك تذهب الى جيوب ملاك الأراضى فى صورة ايجار للأراضى الزراعية . وكان صاحب المصنع يريد حرية التجارة بينما يؤمن صاحب الأرض بنظام الحماية، وكان صاحب المصنع فى الغالب من «المنشقين» على الكنيسة الانجليزية ، أما أصحاب الأراضى فكانوا كلهم تقريبا من أتباع كنيسـة انجلترا ، وصاحب المصنع التقط تعليمه حيثما اتفق بخيروسيلة استطاعها وارتفع من وهدة الفقر بالاقتصاد والجد فى العمل ، على حين أن صاحب الأرض قد التحق بالمدرسة العامة وعاش فى الرفاهية طوال حياته .

وكانت الطبقات العليا تدرك، عندما يحلو لها التفكير، أن للحياة الصناعية فى الشمال أهميتها . كانوا يعلمون أن منتجاتنا الصناعية ساعدت على هزيمة نابليون ، وكان بعضهم قد سمع عن جيمس وات ، وكانت لديهم فكرة غامضة عن عملية يصبح بها النجار ذا فائدة . الا أن هذه الأشياء وأمثالهـا كانت تبدو لهم كريهة لا أصالة فيها ، هذا الى أنها اذا انتشرت فقد تعرقل متعتهم فى الصيد . وقد كان المشرف على تعليم جدى فى وقت ما الدكتـور كارترايت مخترع النول البخارى الذى أدخل الآلة ونظام المصانع فى حرفة النسيج . وقال تلميذه فيما بعد : « لقد أخذت عن الدكتور كارترايت ، الذى كان رجلا واسع العلم موفور الذكاء فى المسائل الآلية ، تذوقا للشعر اللاتينى لم يزايلنى أبدا » . ويمضى فى ذكرياته فيبدون بعض أمثلة عن قدرة مربيه «فى المسائل الآلية» ، ولكنه لم يذكر كلمة واحدة عن النول البخارى الذى يبدو أنه لم يسمع

عنه مطلقا على الرغم من أن مخترعه أهداه «مجلدا من الخطابات والقصائد فى الأخلاق وفى موضوعات أخرى ذات بال» • وكانت انجلترا تعرف فى الخارج بآلاتها ، ولكن الطبقة العليا كانت تستنكر ذلك ، وتؤكد أهمية الزراعة • وحتى بعد مضى مدة من الزمن نرى هذا الشعور يعبر عنه كنجليك فى سنة ١٨٤٤ فى قصة « ايوثين » بطريقة مسلية ، فى مقابلة خيالية بين سائح انجليزى وباشا تركى :

الباشا : ••• ور ! ••• ور ! •• كل شىء على عجلات وز ! وز ! كل شىء بالبخار •

السائح (للدليل) : ماذا يقصد الباشا بهذا الصوت الذى يصدره ؟ انه لا يريد أن يقول ان حكومتنا ستنكث بالعهود التى قطعتها للسلطان ، يريد ذلك ؟

الدليل : كلا يا صاحب السعادة ، ولكنه يقول ان الانجليز يتحدثون بالعجلات وبالبخار •

السائح : هذه مبالغة ، ولكن قل له أن الانجليز قد وصلوا بالآلات الى حالة عظيمة من الكمال • قل للباشا (وسيدهش من هذا) انه فى أى وقت تحدث عندنا اضطرابات نريد اخمادها ، حتى ولو كانت على بعد مائتى ميل أو ثلاثمائة من لندن ، فاننا نستطيع أن نرسل آلافا من الجنود الى مكان الاضطرابات فى ساعات قلائل •

الدليل : (مستعيدا هدوءه وحريته فى الحديث) : ياصاحب السعادة ، ان لورد مودكومب هذا يقول لسموك أنه اذا ماثار الايرلنديون أو الفرنسيون أو الهنود ضد الانجليز فى أى وقت من الأوقات تلقى جيوش بأكملهـا من الجنود وفرق من المدفعية فى هوة ضخمة اسمها ميدان « يوستن » وفى طرفة عين تصبح فى مانشستر أو دبلن أو باريس أو دلهى وتستأصل أعداء انجلترا من على وجه البسيطة •

الباشا : أعرف ذلك ــ أعرف ذلك كله ، فقد نقلت الى التفاصيل بأمانة ، ويدرك عقلى موضوع الآلات البخارية ، فأنا أعلم أن جيوش الانجليز تركب فوق بخار مراجل تغلى ، وان خيلهم فحم مشتعل ــ ور ! ••• ور ! ••• كل شىء على عجلات •• وز ! •• زز •• كل شىء بالبخار !

السائح (للدليل) : انى أود أن أعرف رأى سيد عثمانى غير متحيز فيما ينتظر لتجارتنا ومنتجاتنا الصناعية الانجليزية من رواج ، فاسأل الباشا عن رأيه فى هذا الموضوع •

الباشا (بعد أن تلقى السؤال من الدليل) : ان مراكب الانجليز تسير فى أسراب كالذباب ومنسوجاتهم القطنية المطبوعة تغطى وجه الأرض ، وسيوف

دمشق كأعواد من القش اذا قيست بسيوفهم • وليست الهند كلها سوى بند واحد فى دفاتر تجارهم الذين تمتلىء مخازن مهملاتهم بالعروش القديمة ! ور !... ور ! .. كل شيء على عجلات • وز ! • وز ! كل شيء بالبخار

الدليل : ان الباشا يمتدح أنصال السيوف الانجليزية وكذلك شركة الهند الشرقية •

السائح : انه على حق فيما يتعلق بالانصال • لقد جربت سيفى مع السيوف العادية التى يستعملها جنودنا فى مالطة ، فقطعتها كأنها صفحات من قصة • (للدليل) ، قل للباشا انى مسرور جدا اذ أجد لديه هذه الفكرة الطيبة عن نشاطنا الصناعى ، الا أنى أود أن يعرف أن لدينا فى انجلترا شيئا آخر غير هذا النشاط • ان هؤلاء الأجانب يتصورون أنه ليس لدينا شيء سوى المراكب والقطر الحديدية وشركات الهند الشرقية ، أرجوك أن تقول للباشا أن ريفنا يستحق اهتمامه ، وانه قد حدث خلال مائتى السنة الاخيرة نفسها تقدم واضح فى زراعة اللفت ، واذا كان ذلك لايسترعى اهتمامه ، فيمكنك على أى حال أن توضح له أن لدينا فضائلنا الريفية ــ اننا شعب يقول الحقيقه واننا ، كالعثمانيين ، مخلصون فى تنفيذ وعودنا •• وبهذه المناسبة يمكنك أن تقول له فى النهاية ، ما دمنا بصدد الحديث فى هذا الموضوع، أن الفلاح البريطانى لم يزل بحمد الله هو الفلاح البريطانى ••

ولكن الفلاح البريطانى لم يكن هو الفلاح البريطانى الذى كان من قبل كما رأينا ، أن سائح كنجليك وأضرابه قد حولوه الى رجل معدم مذعور يكاد يموت جوعا • الا أنه اذا كانت مساوىء الريف فى انجلترا بشعة ، فان مساوىء الصناعة فيها كانت أشد بشاعة الى أقصى حد • لقد أصبحت فظائع المصانع والمناجم فى انجلترا فى ذلك العهد قصة كريهة معادة ، ولكنها مع ذلك قصة لا يطيق الانسان سماعها • ولا يكاد قلبى يطاوعنى على الكلام فيها ، الا أنه ينبغى لى أن أقول عنها شيئا •

ان الذى هزم نابليون ثلوج روسيا وأطفال انجلترا • والدور الذى لعبته الثلوج غير منكور ، لأنه يمكن اسناده الى العناية الالهية ، ولكن التاريخ يمر على الدور الذى لعبه أطفال انجلترا مر الكرام باللغو لأنه دور يجلل رجال انجلترا بالخزى والعار • وكان ميشيليه ، فى تاريخه ، أول من أبرزه فى الصورة التى هو خليق بها ، وذلك فى محادثة خيالية بين بت وأصحاب الأعمال : فهم يشكون اليه فدح ضرائبه الحربية فيرد عليهم قائلا : « خذوا الاطفال » • الا أنه مضى وقت طويل جدا بعد انتهاء الحرب قبل أن يطلقوا سراح الاطفال •

وكان هناك نظامان لتشغيل الأطفال : النظام الأقدم ، نظام « الصبيان المعدمين » ، والنظام الأحدث منه عهدا ، نظام الأطفال « الأحرار » • وكان النظام القديم يسير على النمط الآتى : كانت الأبرشيات فى لندن وفى

أماكن أخرى كثيرة تدعى حق التصرف المطلق فى أولاد الرجـــل الذى يتلقى معونة فقر حتى سن الواحدة والعشرين • وكان معظم هؤلاء الأطفال حتى سنة ١٧٦٧ يموتون ، ومن ثم لم تكن هناك مشاكل أمام السلطات العـامة • وفى هذه السنة بالذات استصدر رجل ذو نزعة انسانية اسـمه هانواى قانونا يقضى بأن يبيت الأطفال خارج المصانع حتى سن السادسة بدلا من الاحتفاظ بهم فى داخلها • وكانت النتيجة أن عددا كبيرا منهم ظل لسوء الحظ على قيد الحياة ، وأصبحت السلطات فى لندن تواجه مشكلة التصرف فيهم • وكانت زيادة الطلب على الأطفال للعمل فى مصانع لانكشيرهى الحل • فقد كان الأطفال يرسلون صبيانا فى أحد المصانع ويصبحون ملكا لصاحب المصنع بالفعل حتى سن الواحدة والعشرين • فاذا كان المصنع يعمل ليل نهار قسم الاطفال الى نوبتين تعمل كل منهما اثنتى عشرة ساعة ، ويشترك فى السرير الواحد طفلان : طفل ممن يعملون نهارا وطفل ممن يعملون ليلا • وهؤلاءكانوا أسعد الاطفال حظا ، أما المصانع التى تغلق أبوابها ليـلا فلم يكن فيها نوبة واحدة ، وقد يضطرالاطفال الى العمل خمس عشرة ساعة أو ستة عشرة ساعة كل يوم •

وكان أصحاب المصانع يفلسون أحيانا ، فيؤخذ الأطفال فى عربة الى بقعة منعزلة حيث يطلق سراحهم ويتركون ليتصرفوا كيفما استطاعوا • ولم يكن يسمح للأطفال بمغادرة المصنع أبدا ، باستثناء الحـالة السابقة ، الا ليذهبوا الى الكنيسة يوم الأحد اذا تم تنظيف الآلات فى وقت يسمح بذلك • ويكاد احتمال عدم الحصول على تعليم دينى كاف يكون الشىء الوحيد الذى يتأثر به الضمير العام فى ذلك العهد ، ولكنه والحق يقال ، كان يتأثر بعض الشىء من كثرة الأوبئة التى مات بسببها أعداد كبيرة من الاطفال •

وفى سنة ١٨٠٢ عرض سير روبرت بيل ((والد السياسى المعروف) ، الذى لم يكن هو نفسه من أصـحاب الاعمـال المثاليين ، مشروع قانون على البرلمان ونجح فى الحصول على مصادقته عليه يهدف الى « المحافظة بصـــورة أفضل على صحة وأخلاق الصبيان والعمال الآخرين الذين يعملون فى مصانع القطن وغيرها وفى صناعة القطن وأمثالها » ولم يكن القانون فى الواقع ينطبق الا على الصبيان وفى صناعة القطن وحدها • وكان سير روبرت بيل يعتقـد « أنه سيجعل تجارة القطن طيبة وصـالحة من الوجهة الاخلاقية بقدر ما هى مهمة » ونص القانون على ألا يعمل الصبيان ليلا ، والا يعملوا أكثر من اثنتى عشرة ساعة يوميا ، وعلى حلة جديدة كل عام ، وأن تخصص غرف منفصلة لكل من الاولاد والبنات وسرير مستقل لكل فرد ، وأن يتلقوا كل أحد دروسا فى الديانة المسيحية ، ويختبرهم مرة فى السنة أحد رجال الكنيسة • وما ذا يمكن لأطفال فاضلين أن يطلبوا أكثر من ذلك ؟

واحتج أصحاب الاعمال على هذا القانون قائلين أنه سيفضى الى افلاس

أعمالهم • ولكن ظهر فيما بعد أنه ليس هناك من يعتزم ارغامهم على تنفيذه ، ولم ينجم عنه عمليا الا القليل من الخير • ثم بدأ فضلا عن ذلك ماكان يسمى سخرية الأطفال « الأجراء » يحلون محل الصبيان شيئا فشيئا • والأطفال الاجراء هم الذين كانوا يرسلون للعمل بمشيئة ذويهم على الرغم من أنهم لم يكونوا محرومين من حقهم الشرعى فى الموت جوعا • وكان التغيير ناجما عن احلال قوة البخار محل القوة المائية وقد نشأ عن ذلك نقل المصانع الى المدن حيث يستطاع الحصول على عدد كاف من الاطفال محليا • ورفض ولاة الامور أن تمنح معونة الفقراء للآباء الذين يرفضون ارسال أولادهم الى المصانع ، وأصبح عدد كبير من النساجين على شفا الموت جوعا بسبب منافسة الآلات الجديدة • ونجم عن ذلك أن كثيرا من الاطفال اضطروا الى أن يبدأوا العمل لكسب قوتهم فى سن السادسة أو السابعة ، أو قبل ذلك فى بعض الاحيان •

ويصف آل هاموند فى كتاب « عامل المدينة » حياة هؤلاء الاطفال الأجراء :

« وعندما يصبح الطفل أجيرا فان حياته العاملة لا تكاد تختلف عن حياة صبيان الصناعة التى وصفناها آنفا • كانوا يدخلون أبواب المصنع فى الساعة الخامسة أو السادسة صباحا ، ويغادرونها فى الساعة السابعة أو الثامنة مساء على أقل تقدير ، بما فى ذلك أيام السبت • ويظلون طوال هذا الوقت داخل مبان تتراوح درجة الحرارة فيها بين ٧٥ و ٨٥ درجة فهرنهيت • والراحة الوحيدة التى ينالونها خلال هذه الساعات الاربع عشرة أو الخمس عشرة من السجن هى أوقات الاكل ، نصف ساعة للافطار وساعة للغداء على أكثر تقدير • وكانت ساعات الطعام المنتظمة ميزة لا يتمتع بها الا الكبار ، أما الاطفال فلم تكن بالنسبة لهم فى ثلاثة أيام أو أربعة فى الاسبوع سوى تغيير فى العمل لا غير ، فقد كانوا ينظفون آلة واقفة عن العمل بدل أن يلاحظوا آلة أثناء عملها ، ويختطفون ويزدردون طعامهم كلما استطاعوا بين التراب ومخلفات الاحتراق • ولا يلبث الطفل أن يفقد كل رغبة فى الوجبات التى يتناولها داخل المصنع • ذلك ان مخلفات الاحتراق كانت تخنق رئتيه ، فاذا لم يفلح البصق فى اخراجها من رئتيه أعطيت له المقيئات بكمية كبيرة •

وكثيرا ما كان العمل الذى يوكل الى هؤلاء الأطفال يوصف أنه خفيف وسهل ، عمل يكاد يكون تسلية ، يتطلب انتباها ولكنه لا يتطلب مجهودا • وكان ثلاثة أرباع الاطفال يعملون (جماعين) أى يضمون أو يربطون الخيوط المقطوعة فى آلات « الفتل » والغزل المختلفة • وكان غيرهم يعملون فى كنس بقايا القطن أو تغيير « الوشيعات » واستبدالها • وقد قام فيلدن (١٧٨٤ - ١٨٤٩) صاحب العمل المتنور الانسانى النزعة الذى كان يمثل هووكوربت مدينة أولدهام والذى يشارك شافتسبورى وسادلر المجد الذى يعطر

ذكرناهما ، قام بتجربة طريفة لقياس المجهود الجسمانى الذى كان الاطفال يتحملونه • فقد راعه ما ذكره بعض مندوبى المصانع عن المسافات التى يقطعها الطفل يوميا فى تتبعه لآلة الغزل ، فوضع ما قالوه موضع الاختبار العملى فى مصنعه ، وما كان أشد دهشته اذ وجد أن ما يقطعه الطفل فى اثنتى عشرة ساعة لا يقل عن عشرين ميلا • نعم انه كان هناك فترات قصيرة للراحة ، ولكن لم تكن هناك مقاعد يجلسون عليها لان الجلوس لم يكن مسموحا به •

أما الرأى القائل بأن عمليات «التجميع» التى يقوم بها الاطفال كانت عملية خفيفة فى الواقع ، فانخير من عبر عنه هو المستر «تافنل» أحد مندوبى المصانع • فهو يقول ان ثلاثة أرباع الاطفال يعملون « جماعين » على آلات الغزل ، وعندما ترتد الآلة يقفون نحو ثلاثة أرباع دقيقة • ومن هذا يستخلص أنه اذا كان الطفل يعمل اثنتى عشرة ساعة يوميا فهو « فى الواقع لا يقوم بعمل ما مدة تسع ساعات » ، أو اذا كان يلاحظ آلتين ، وهذا ما يحدث عادة ، فان « وقت فراغه يبلغ ست ساعات بدلا من تسع » •

وكانت الساعات الاربع عشرة أو الخمس عشرة التى يقضيها الطفل محبوسا ستة أيام فى الاسبوع هى ساعات العمل « النظامية » • أما فى أوقات الضغط فقد كانت ساعات العمل مرنة تمتد بعض الاحيان الى حد لا يكاد يصدقه العقل • فلم يكن العمل من الساعة الثالثة صباحا الى العاشرة مساء أمرا غير معروف ، ففى مصنع مستر فارنى كان العمل يستمر طوال الصيف من الثالثة والنصف صباحا الى التاسعة والنصف مساء • وفى المصنع الذى يسمى بحق « خليج جهنم » لم يكن العمل يستمر من الساعة الخامسة صباحا حتى التاسعة مساء فحسب ، بل كان يستمر أيضا طول الليل مرتين فى الاسبوع ، وكان هذا يحدث على فترات تمتد كل منها شهرين • وكان أصحاب المصانع الأكثر انسانية يقنعون فى أوقات الضغط بست عشرة ساعة يوميا من الخامسة صباحا الى التاسعة مساء •

وكان من المستحيل الاحتفاظ بهذا النظام بأى حال من الاحوال الا باستعمال الخوف قوة دافعة • ولم ينكر ملاحظو العمال الذين أدلوا بشهاداتهم أمام لجنة سادلر أن وسائلهم كانت وحشية • وقالوا انه لم يكن أمامهم الا أن يرغموا الاطفال على اتمام القدر المطلوب من العمل أو يتعرضوا هم أنفسهم للفصل ، وأنه فى مثل هذه الظروف تعتبر الرحمة ترفا لا يستطيع رجال ذوو أسر أن يسمحوا لأنفسهم بها • وكان لا بد من توقيع عقوبات قاسية على التأخر فى الوصول الى العمل صباحا بحيث تتغلب على الاغراء الذى قد يتعرض له الاطفال المتعبين بأن يقضوا أكثر من ثلاث ساعات أو أربع فى الفراش • وقد قال أحد الشهود أمام لجنة سادلر أنه يعرف طفلا وصل الى بيته ذات مرة فى الساعة الحادية عشرة مساء واستيقظ فى الثانية

من الصباح التالى مذعورا وهرول يعرج الى باب المصنع • وكان يحدث فى بعض المصانع أنه لا تكاد تمر ساعة طول اليوم دون أن يسمع صوت الضرب وصيحات الألم • وكان الآباء يضربون أطفالهم لينقذوهم من ضرب أقسى على أيدى الملاحظين • وكان التوتر يصل بعد الظهر الى درجة من الشدة بحيث لا ينقطع استعمال العصا الحديدية المعروفة باسم « اسطوانة بيلى » ، ومع ذلك كله فكثيرا ما كان يحدث أن طفلا يغفو ويسقط فى الآلة التى بجواره ليقضى بقية حياته مشوها أو ، اذا كان أحسن حظا ، ليجد راحة أطول من اغفاءته التى اختلسها • ولسنا ننكر أن رجلا من أصحاب المصانع اسمه مستر جوت منع استعمال أى شيء سوى المقرعة ، وحاول الملاحظون أن يمنعوا الاطفال من الاغفاء عندما كانوا يعملون من الخامسة صباحا حتى التاسعة مساء بتشجيعهم على ترتيل الاناشيد الدينية • وكلما تقدم المساء أصبح الألم والتعب والتوتر الذهنى حالات غير محتملة ، ولهذا يضرع الاطفال الى أى شخص يمر بالقرب منهم أن يخبرهم كم ساعة بقيت أمامهم حتى نهاية العمل • وقد قال أحد الشهود أمام لجنة سادلر أن طفله ، وهو صبى عمره ست سنوات ، كان يسأله : « أبى كم الساعة الآن ؟ » فاذا أجابه مثلا بأن الساعة السابعة ، رد عليه الطفل قائلا « انها التاسعة الا ساعتين انى لا أطيق هذا (١) » •

ولما عرفت هذه الظروف هاج الناس مطالبين بقانون يضع حدا لأبشع هذه المساوىء سيجىء ذكره فى فصل مقبل • وسأكتفى فى الوقت الحاضر بالاشارة الى أنه صدر قانون فى سنة ١٨١٩ الا أنه ثبت عدم جدواه مطلقا لأن التفتيش ترك الى المأمورين القضائيين ورجال الدين • وقد تنفس أصحاب المصانع الصعداء حين أثبتت التجربة أن المأمورين القضائيين ورجال الدين لا يعترضون على مخالفة القانون اذا كان الغرض من هذه المخالفة هو مجرد تعذيب الاطفال •

ولم يكن الاطفال يقاسون العذاب فى مصانع القطن وحدها ، بل كانوا يخضعون فى مناجم الفحم لظروف لا تقل عن هذه بشاعة • فكان هناك مثلا الموكلون بفتح « الابواب الساقطة » وغلقها ، وهم عادة أطفال بين الخامسة والثامنة ، وكانوا « يجلسون فى جحور صغيرة الى جانب الابواب يمسكون فى أيديهم خيطا لمدة اثنتى عشرة ساعة • وكانوا يجلسون عادة فى الظلام ، وقد يعطيهم بعض الاحيان عامل طيب القلب من عمال المنجم قطعة من شمعة • وجاء فى تقرير لجنة استخدام الاطفال سنة ١٨٤٢ ، أن طفلة قالت « على أن أغلق الباب وأفتحه دون نور ، وهذا يسبب لى أشد الخوف • فأنا أذهب الساعة الرابعة صباحا ، أو الثالثة والنصف فى بعض الاحيان ، وأعود فى

---

(١) « عامل المدينة » طبعة ١٩٣٢ من ص ١٥٧ — ١٦٠

الساعة الخامسة أو الخامسة والنصف (مساء) . ولا أغفو مطلقا . وأغنى أحيانا عندما أجد الضوء ، أما فى الظلام فلا أجرؤ حتى على الغناء »

وكان الكدح الذى يقوم به الاطفال فى هذه الظروف هو الذى استطاع به لورد ملبورن أن يجمع الثروة التى أمكنته من أن يكون متمدينا وظريفا . وكان كاسلرى ، وهو بعينه لورد لوند ندرى ، أحد ملاك مناجم الفحم ذوى الشأن . وفى الواقع أن أكبر فارق بين المناجم وصناعة القطن أن عددا كبيرا من زعماء الارستقراطيين من الحزبين كانوا ذوى مصلحة مباشرة فى المناجم ، وقد أظهروا أنهم غلاظ القلوب لا يقلون عن أكثر العصاميين من أصحاب مصانع القطن وحشية . وكانت آلام الاطفال المعذبين النغمة التى تختفى وراء الاحاديث الطريفة فى بيت آل هوللاند .

لقد تحدثت عن الاطفال لان هذا الموضوع كان أبشع ناحية فى التصنيع منذ مائة سنة . ولكن مثل هذا العذاب الذى يقاسيه الاطفال ما كان ليحدث لو لم يكن آباؤهم فى حالة من اليأس القاتل . لقد كانت ساعات العمل للكبار طويلة الى حد لا يكاد يتصوره العقل ، والاجور منخفضة جدا ، وظروف السكنى بشعة . وكان العمال الصناعيون ، ومعظمهم كان يقيم فى الريف قبل ذلك ، يحشرون كالماشية داخل مدن حديثة سيئة البناء يملؤها الدخان وغير صحية ، بل ان بعضهم كان يعيش فى قباء ، وكانت الكوليرا والتيفوس أوبئة متوطنة بينهم . وانحدر الصناع المهرة الى حالة من الاملاق بسبب استخدام الآلات ، فالنساجون الذين كانوا قبل ذلك فى ميسرة أصبحوا لا يستطيعون أن يكسبوا أكثر من ستة شلنات ونصف فى الاسبوع . وظل تكوين الاتحادات بين الأجراء مخالفا للقانون حتى سنة ١٨٢٤ ، وعلى الرغم من وجود بعض النقابات فانها كانت بالضرورة صغيرة عديمة الاثر طالما كانت مرغمة على أن تظل سرية ، وكانت الحكومة تستخدم جواسيسا عملهم أن يدفعوا الفقراء الى التعبير عن مشاعر ثورية . وكان الجواسيس أنفسهم ينظمون ، بعد عناء شديد ، حركات صغيرة ، وكان نصيب من يخدع بهم الشنق أو النفى .

ان الرجال الذين حملوا وزر هذه الفظائع كانوا بشرا : وأنا وأنت نشاركهم طبيعتهم البشرية ، ولعلنا - فيما أعتقد - كنا نفعل مثل ما فعلوا لو كنا فى ظروف غير ظروفنا . ومع ذلك فان أحفادهم يحتجون باسم الانسانية على ما يحدث فى روسيا السوفييتية ، ويوقعون عقوبات وحشية على من يحاولون منع بعض الشرور القديمة من معاودة الظهور فى التصنيع فى الهند الذى لم يزل فى سنيه الاولى .

القسم الثانى

الباب الثانى

الراديكاليون الفلسفيون

١ ـ مالتس

الباب الثامن
المتطرفون الفلسفيون

الفصل الثامن
مالتس

ليس التفكير لونا من ألوان النشاط الطبيعية فى الانسان ، فهو ينشأ عن مرض ، مثله كمثل ارتفاع درجة الحرارة فى المرض • ففى فرنسا قبل الثورة ، وفى انجلترا فى مطلع القرن التاسع عشر ، دفع المرض الكامن فى جسم الدولة السياسى رجالا الى التفكير فى مسائل مهمة ، تطورت وأصبحت علم الاقتصاد السياسى • وأنتج هذا العلم ، بالاشتراك مع فلسفة بنتام وعلم النفس الذى أخذه جيمس ميل عن هارتلى ، مدرسة الراديكاليين الفلسفيين الذين سيطروا على السياسة البريطانية زهاء خمسين عاما • وكانوا طائفة غريبة من الرجال ، ليس فيهم شيء طريف ، خالين من كل ما يسمى « التصور » ، حريصين ، عقليين ، يناقشون الموضوعات بحذر مبتدئين بقضايا معظمها غير صحيح ، منتهين الى نتائج تتفق ومصالح الطبقة المتوسطة • وكان جون ستيوارت مل آخر من مثلهم أقل ذكاء من بنتام أو مالتس أو ريكاردو ، ولكنه فاقهم فى قوة الخيال والعطف على الناس ، وكانت النتيجة أنه تحول عن الآراء التقليدية ، بل انه أجاز لنفسه أن يداعب الاشتراكية • الا أن مؤسسى المذهب ، لم يكونوا يتسامحون مطلقا فى أى ضعف مثلهم كمثل مستر ميردستون فى قصة ديفد كدفيلد •

وليس آدم سميث ، مؤسس علم الاقتصاد البريطانى ، من رجال الفترة التى نحن بصددها ، لان كتابه « ثورة الأمم » نشر فى سنة ١٧٧٦ • وترجع أهميته الى مذهب « عدم التدخل » (Laissez faire) الذى أخذه عن الفرنسيين ، ولانه أول من جهر بالحجج التى تؤيد حرية التجارة • الا أنه يفتقر الى الصفات التى يتصف بها مؤسسو المذاهب • فهو حساس ، معتدل ، غير منظم ، ويعترف دائما بأن هناك حدود ، كما حدث مثلا فى حججه الشهيرة التى ساقها دفاعا عن قوانين الملاحة التى كان أساسها أن مقتضيات الدفاع أكثر أهمية من الرخاء • فهو سيد مهذب ، متقدم فى السن ، لطيف ، يتحلى بتلك الصفة المريحة التى يتميز بها القرن الثامن عشر وهى أنه لا ينبغى للسيد المهذب أن يتمسك بعقيدة أكثر مما يجب ، ولكنه مع ذلك كان يؤمن ، فى حدود الادراك الفطرى السليم ، بأن مصالح الفرد والمجتمع متفقة بصفة

عامة ، وأن المصلحة الشخصية المستنيرة تقضى بمثل السلوك الذى يقضى به حب الخير ، وقد استعمل هذا المبدأ فيما بعد لاثبات أن مصـلحة صـاحب المصنع الشخصية تتفق مع المصالح الحقيقية للمجتمع ، وأن مصلحة المجتمع يجب أن تكون مطابقة للمصلحة الحقيقية للأجير · واستتبع ذلك أيضـا أن الاجير يكون أحمق اذا وقف فى وجه مخدومه ·

ومالتس أكثر من مل أهمية بالنسبة للفترة التى نحن بصـددها ، بل وبالنسبة للعالم كله ، وقد كان لكتابه « مقال فى مبدأ السكان » (الطبعـة الاولى سنة ١٧٩٨ ، والثانية سنة ١٨٠٣) أثر عميـق فى كل النظـريات والتطبيقات العملية التى جاءت بعده · ويبدو أن مالتس لم يشارك أبدا فى التفاؤل الذى كان سائدا قبل سنة ١٧٨٩ عـلى الرغم من أنه ولد سـنة ١٧٦٦ · ومما هو جدير بالملاحظة أنه عندما صار بت رئيسـا للوزراء سنة ١٧٨٣ ، وهو فى سن الرابعة والعشرين ، دهش أشد الدهشة من أن يشغل شاب فى هذه السن هذا المنصب الخطير فى حين أن أباه لم ير هذا الرأى · فقد كان أبوه من « الكماليين » (Perfectionist) وصديقا لروسو ، ويقال أنه كان منفذ وصيته وان كان ذلك يبدو غير صحيح ، وكان يعجب اعجابا شديدا بكتاب جودوين « العدالة السياسية » ومؤلف كوندورسيه « تقـدم الروح البشرية » ، وكان مغرما بالجدل يشجع أفراد أسرته على أن يعرضـوا بعض الموضوعات ويناقشها معهم·وقد ابتكر ابنه ، الذى أزعجه ايمان أبيه بالتقدم، ما أسماه «باجهد» «جهازا للقضاء على المرح» ، ولم يكن مالتس فى بداية الامر يقصد به الا أن يكون مجرد سلاح للمناقشة · وقد ثبت بعد ذلك أنه سلاح بتار فآمن مالتس به واستخدمه الى آخر أيامه · وكان هـذا السـلاح هو نظريته المعروفة فى السكان ·

ولسنا ننكر أنه كان هناك الكثير مما يدعو الى التشاؤم فى سنة ١٧٩٧ عندما فكر مالتس فى نظريته لأول مرة · ذلك أن الثورة الفرنسيةكانت قد اجتـازت مرحلة حكم الارهاب وانتقلت الى حكومة « الادارة » الدير كتوار الفاسدة التى لا توحى بخير قط · وأصبحت الآراء المتحررة فى انجلترا فى حكم العدم ، وكانت الضرائب والفقـر يزيدان جنبـا الى جنب ، ولم يكن الوطنيون المتحمسون قد أنعشتهم بعد انتصارات نلسون ، وكان الاسـطول فى حالة من التمرد ، والمتطرفون فى السجون التى وضعهم فيها بت ، الا أن ايرلندا كانت على أبواب ثورة ١٧٩٨ · ولم يكن عسـيرا على المرء أن يرى حربا طويلة مقبلة ، وعهدا طويلا من الاستبداد والضنك والمجاعات الدورية ، والقضاء على كل الآمال التى انبثقت عنها الثورة الفرنسية · لهذا كله كانت المذاهب التى تشيع فيها الكآبة هى الطراز السـائد فى تلك الايام ، وبدأ مالتس يعد العدة لكى يمد العالم بهذه المذاهب ·

وكان مقاله ، كما ظهر فى أول الامر سنة ١٧٩٨ ، مؤلفـا هزيلا يكاد

يكون كله استنتاجا . الا أنه سافر بين هذا التاريخ وسنة ١٨٠٣ عدة مرات الى أوروبا ليجمع الحقائق من كل مكان يدعم بها نظريته . وكانت النتيجة أن ظهرت الطبعة الثانية كتابا تؤثر في المرء ضخامته وما يبدو فيه من استقراء مستمد من كل دول العالم . وفهرست الموضوعات وحده ضخم : « السكان في روسيا » ، « السكان في السويد » ، « السكان في ألمانيا » وهكذا . واذا وصل القارئ فيه الى هذا الحد يكون قد أصبح نصف مقتنع بأي شيء يأتي بعد .

ونظرية مالتس في جوهرها بسيطة للغاية : وخلاصتها أنه اذا لم يحدث ما يوقف نمو السكان ، فانهم يتضاعفون كل عشرين عاما أو نحوها ، واذا مضت عليهم مائة سنة من الآن تضاعفوا اثنين وثلاثين ضعفا ، وبعد مائتى سنة يتضاعفون ١٠٢٤ مرة ، وبعد ثلاثمائة سنة يتضاعفون ٣٢٧٦٨ مرة وهكذا . وواضح أن شيئا من ذلك لا يحدث ، ولا يمكن أن يحدث . ولماذا ؟

ويقول مالتس أنه لا توجد الا ثلاث وسائل لا غير ، تؤدى الى ابقاء عدد السكان منخفضا ، وهى الوازع الاخلاقى ، والرذيلة ، والبؤس . وأمله ضعيف فيما يتعلق بالوازع الخلقي الواسع النطاق حتى يتعلم جميع السكان مبادئ الاقتصاد السياسى الحقيقية . وأما الرذيلة ، فهو بوصفه رجلا من رجال الدين لا يستطيع أن يتحدث عنها الا بلهجة الاستهجان ، هذا الى أنه وان كان يعترف بأنها ربما كانت عاملا هاما فى ايقاف زيادة السكان فى بعض العصور مثل أيام الامبراطورية الرومانية ، لا يتوقع أن تكون ذات أثر كبير فى معظم الاحيان . ويثبت بعد ذلك أن نقص السكان الذى ينجم عن الأوبئة سرعان ما يعوض ، وينتهى الى أن البؤس أهم ما يحول دون زيادة السكان عما يجب . ويقول أن السبب فى أن عدد السكان ليس أكثر مما هو الآن أن الناس يموتون جوعا .

وقد يقال أنه اذا توفر عدد أكثر من الناس للعمل فى الارض فانها ستغل غذاء أكثر . فلماذا تؤدى زيادة السكان اذن الى أن يموت أى شخص جوعا ؟ وعند هذه النقطة تستند المناقشة الى ما سمى فيما بعد بقانون تناقص الغلة . ومضمونه أنه اذا بذل ضعف العمل الذى كان يبذل من قبل فى قطعة بذاتها من الارض وكذلك ضعف رأس المال فان الناتج يزيد ولكنه لا يتضاعف . واذا استغل العمل ورأس المال فى قطعة أرض كانت قبل ذلك بورا ، فان النتيجه تبقى كما هى لانه يمكن الافتراض بأن أحسن الاراضى قد زرعت أولا . وهذا كله بطبيعة الحال لا يصدق اذا كان عدد السكان قليلا جدا ، فالرواد الأول فى الاراضى البكر يستفيدون من السكان الجدد . أما البلاد القديمة التى استقر فيها السكان ، مثل بلاد أوروبا ، فصحيح بصفة عامة أنه اذا زاد عدد السكان دون تقدم يقابل هذه الزيادة فى تحسين وسائل الزراعة فان كمية الطعام التى تخص الفرد تقل . وأخيرا نصل الى الحد الذى اذا زاد

فيه عدد السكان عما هو عليه يصبح نتاج عمل الرجل الواحد أقل مما يلزم لاطعام رجل واحد · وهنا يضع الجوع حدا لأى زيادة ممكنة فى السكان ·

ويقول مالتس ان الذين تتكون منهم أفقر الطبقات فى المجتمع يجب أن يصل فقرهم الى أدنى حد يتفق وبقاءهم أحياء ، والا زاد عددهم زيادة تؤدى الى الحد السالف الذكر · وقد توجد فترات استثنائية قصيرة كالتى أعقبت « الموت الاسود » ، الا أنها لا يمكن أن تستمر طويلا ، لان عـــددا أكبر من الاطفال سيعيشون حتى تعود الحال القديمة الى ما كانت عليه · ومن ثم فان من الخير أن يكون بعض الناس أكثر مالا من غيرهم لان الجميـــع فى أى نظام يقوم على المساواة سيكونون فى أدنى مستوى ، وهو على هذا الاساس يرفض خطط جودوين ، وأووين ، وغيرهما من المصلحين · ويقول « انه مما لا شـك فيه مطلقا أن السبيل الوحيد الذى يتفق وقواعدالدين والاخلاق والذى يقضى بأن يعطى الفقراء الجزء الاكبر من ثروات الاغنياء ، دون أن نهبط بالمجتمع كله الى حد البؤس ، هو أن يراعى الفقراء الحكمة فى زواجهم والاقتصـــاد قبـل الزواج وبعده » · وهكذا يطيح مالتس بكل الخطط التى ترمى الى تحسين حال البشرية ولا تحل مشكلة السكان · وهى مشكلة لا سـبيل الى حلها الا عن طريق الوازع الاخلاقى ، أما الطريق الاخرى التى اقترنت فيما بعد باسمه فهو يتحدث عنها باشمئزاز ويعتبرها « فنونا غير لائقة » ·

ويعترض مالتس بطبيعة الحال على « قوانين الفقراء » وان لم يعتقد أن من الممكن الغاؤها دفعة واحدة · فهو يقول انه من المحال القضاء على الفقر ، وقد يكون ممكنا أن نجعل الفقراء أغنياء والاغنياء فقراء ، ولكن لابد أن يكون البعض فقيرا ما دامت النسبة الحالية بين الطعام وعدد السـكان باقية · فاذا ارتفعت معونة الفقراء ، فان ذلك لن يجعل فى مكنة كل عامل أن ينال نصيبه من اللحم : لان كمية اللحم الموجودة فى البلاد ستظل كما هى ، واذا لم يكن يوجد منها ما يكفى الجميع ، فان الاسعار سترتفع · .

وهو لا يعتقد أنه فى الامكان أن تحصـل أوروبا على قسـط كبير من طعامها من قارات أخرى ، فيقول : « فى غمرة من التأملات الطائشة اقترح البعض (على سبيل المزاح بطبيعة الحال لا الجد) أن تزرع أوروبا غلالهـا فى أمريكا وتكرس نفسها للصناعة والتجارة فقط ، باعتبار ذلك خير تقســيم للعمل فى العالم » ·

وليس هناك سـوى أمل واحد للطبقات العاملة ، هو التربية باعتبارها سبيلا يؤدى الى غرس الوازع الاخلاقى فى نفوسـهم ، ويقــدم بيكوك فى كتاب « مليكورت » مالتس تحت اسم مستر فاكس ، ويمثله وهو يحاول أن « يربى » فلاحا يوشك أن يتزوج :

نظر مستر فاكس الى العـــروسين بعطف بالغ ، وصمم على أن يتأكد هل لديهما فكرة واضحة عن الشرور التى تنتظرهما نتيجة للخطوة الهوجاء التى يعتزمان اتخـــاذها • ومن ثم بادرهما بالاشـــارة الى أن القس مستر بورتبايت مشغول وأنه سيحضر بعد لحظات • ثم قال : « وحتى يحضر،أقف ممثلا لقيادة الادراك السليم لأسألكما هل قدرتما نتائج ما أنتما مقبلان عليه الآن حق قدرها » ؟

العريس : قيادة الادراك السليم ! لن أكون رجلا بحق اذا خضعت لقيادة ما أيا كان نوعها • لسنا خاضعين للأحكام العرفية ، هل تظننا خاضعين لها ؟ تبا لتلك الايام اذا كان ذلك القائد ، الادراك السليم ، سيتدخل بين الرجل المسكين وبين حبيبته •

مستر فاكس : ان حالتك بالذات هي الحالة التى تنادى صارخة بهـذا التدخل •

العريس : اذا كان قائدك ـ وهو الادراك السليم ـ سينتظر حتى تدعوه « زوكى » صارخة فما أطول ما ينتظر • أليس كذلك يا زوكى ؟

العروس : لا شك فى هذا يا روبن •

مستر فاكس : أؤكد لك يا صديقى أن الادراك السليم لا شأن له بالاحكام العرفية ولا بأية صورة من صور السلطان الاســتبدادى ، بل انه يتصـل بالسلطة التى تعتمد على الحق ، والخير فى آخر الامر ، وان العـالم كله هو المجال الذى يعمل فيه •

العريس (وهو يهرش فى رأسه) : قد يكون فى ألفاظك بعض المعنى ، ولكنى أظنك تريد أن تقول ان هذا القائد الذى تسميه الادراك السليم ان هو الا واعظ من أتباع المذهب النظامى ، ولكننى من أتباع الكنيسة الحقة وكذلك زوكى ، ألست كذلك يا زوكى ؟

العروس : لا شأن له بنا مطلقا يا روبن •

العريس : ومن ثم فليس لنا شأن بقيادة الادراك السليم ولا شـأن له بنا • أهو كذلك يا زوكى ؟

العروس : لا شأن له بنا مطلقا يا روبن •

مستر فاكس : اذن فمهما يكن من هذا الامر ، أنت مصمم على الزواج ؟

العريس : أظن ذلك ، بالتأكيد ، ولتسمح لنا بذلك قيادة العقل السليم، أليس كذلك يا زوكى ؟

العروس : نعم ، بالتأكيد يا روبن ٠

مستر فاكس : وهل أنت مدرك حق الادراك يا صديقى الأمين ، حقيقة الزواج ؟

العريس : لا شك أنى مدركها ، فقد حفظتها أنا وزوكى عن ظهر قلب من كتاب الصلوات العامة ، أليس كذلك يا زوكى ؟

(ولم تر سوزان (العروس) أنه يليق أن تجيب فى هذه المرة) ٠

لقد أمرنا فى هـــذا الكتاب بأن من لم يعط موهبـــة ـ (وهنا عركته سوزان عركة مفاجئة شديدة فى ذراعه استحال بعدها حديثـه صراخا) ٠ ما هذا ! لقد آلمتنى كثيرا ! وسأنتقم منك أيا كنت (وهنا طبع قبلة شـديدة على شفتى عروسه التى اعتراها الخجل وجللت بالعار مستر فاكس) ٠

مستر فاكس : أتعلم أنك فى خلال ست سـنوات لا يبعد أن يكون لك من الاطفال مثل هذا العدد ؟

العريس : كلما زاد عددهم كان ذلك زيادة فى الخـــير ٠ أليس كذلك يا زوكى ؟ (وصمتت سوزان مرة أخرى) ٠

مستر فاكس : أرجو أن يكون ذلك يا صديقى ، ولكننى أخشى أن تجد أنه كلما زاد عددهم زاد حزنك ٠ وأى المهن تشتغل بها ؟

العريس : انى أشتغل عند برانستاوت الفلاح : أزرع له وأحصـــد ، وأدرس ، وأذهب الى السوق بالقمح والماشية ، وأدير طرف المحراث اذا لزم الامر ، وأنظف الخيل وأطعمها ، وأنظف الاسوار والحفر ، وأقطع الخشـب ، وأجمع ثمار الحديقة ، وأعصر الجعة ، وأشربها ، وأوجر أربعة عشر شلنا فى الاسبوع على عملى هذا ٠ وزوكى تلك قد جمعت أكداسا من المال ، فقد كانت تعمل فى حلب اللبن عند تشيزكيرد الفلاح ، وعندها أربعة جنيهات وسـبعة عشر شلنا وتسعة بنسات فى الصندوق القديم ذى الثلاثة الاقفال المستوية والعروة التى ببابه ٠ أليس هذا عندك يا زوكى ؟

العروس : نعم عندى بلا ريب يا روبن ٠

مستر فاكس : لا يبدو لى أيها الصديق الجليل أن أجرك البالغ أربعـة عشر شلنا فى الاسبوع مضافا الى ما جمعته سـوزان وهو أربعة جنيهات وسبعة عشر شلنا وتسعة بنسـات سيكفى لاعالة أسرة كالتى تتـوقع أن تكون لك ٠

العريس : ولم يا سـيدى ؟ فأنا أولا لا أعرف أى شىء تعتزمه زوكى فى هذا الامر ٠ ويحك يا زوكى ! لا تقرصينى هكذا ـ وثانيا ـ مع تقـديم

واجب الخضوع لك وللادراك السليم الذى يتولى القيادة والواعظ المنتمى الى طائفة النظاميين ـ أظن أن هذا أمر يتوقف على نظرتنا نحن للحياة ، لا على نظرة أى انسان غيرنا ٠

مستر فاكس : ولكنه يتوقف على نظرة غيرك لهذا السبب ، وهو أنك اذا لم تستطع اعالة أبنائك ، فان على الأبرشية أن تتولى هذا العمل بالنيابة عنك ٠

العريس : هذا صحيح من بعض النواحى ، وهو غاية فى السوء على أحسن تقدير ، ولكنى لا أريد أن تكون لى بعد الآن علاقة بالأبرشية ولا للأبرشية علاقة بى ٠

مستر فاكس : لا شك فى أنك لا علاقة لك بها الآن ، ولكنك يا صديقى العزيز اذا ما حملت أعباء أسرة ، فان نزعتك الاستقلالية ستفارقك وتحل محلها الضرورة الملحة ، واذا ما تصادف أن أصبحت بلا عمل ، وهو ما حدث لكثير من الاشخاص الاشراف الآن ، فماذا أنت فاعل فى ذلك الوقت ؟

العريس : افعل خير ما أستطيع يا سيدى كما هو شأنى على الدوام ، وما من أحد يستطيع أن يفعل خيرا منى ٠

مستر فاكس : وهل تظن اذن أنك تفعل الآن خير ما تستطيع حين تتزوج والمستقبل أمامك مشكوك فيه ؟ كيف تربى أطفالك ؟

العريس : أربيهم على خشية الله ، لا شك فى هذا ٠

مستر فاكس : هذا صحيح بطبيعة الحال ، ولكن كيف تربيهم بحيث يستطيعون كسب عيشهم ؟

العريس : هذا موكول للمستقبل ، ولست أشك فى أنهم لن يموتوا جوعا اذا ساروا على سنة أبيهم ٠ ولكنى أفهم الآن حقيقة ذلك الادراك السليم الذى يتولى القيادة ٠ انه يمثل أحد جباة الضرائب وأوراق النقد ، وهو لا يقنع بانتزاع الخبز من فم المسكين ، وارسال أبنائه الى الجيش والاسطول والى المصانع وما اليها ، بل يريد أن يأخذ منه زوجته فضلا عن هذا كله ٠

مستر فاكس : هأنت ذا يا صديقى الكريم قد ارتكبت خطأ كبيرا ، سأوضحه لك لخيرك ، ان السبب فى ارغام الاطفال على الالتحاق بالجيش والاسطول أن أولئك الفقراء يلدون أطفالا أكثر مما يستطيعون اعالتهم ، ونتيجة ذلك أن الحكام والفاتحين يجدون كثيرا من الادوات المعدة التى يستخدمونها لظلم بنى الانسان واهلاكهم ٠ والنتيجة التى نستخلصها من هذا هى أنه اذا امتنع الناس عن الزواج حتى يتأكدوا من قدرتهم على أن يعولوا أبناءهم وييسروا لهم أسباب الراحة فى بيوتهم ٠

العريس : بارك الله فيك . هذا كلام جميل للغاية ، ولكن خلاصة هذا الحديث هو أنى لا أستطيع أن أعيش من غير زوكى وأن زوكى لا تستطيع أن تعيش من غيرى . هل تستطيعين يا زوكى ؟

العروس : لا ، بالتأكيد يا روبن (×) .

ويبدو أن عملية « التربية » التى توصل النـاس الى الوازع الاخلاقى الذى تتطلبه قواعد مالتس الاقتصادية والاخلاقية عملية طويلة بعض الشىء ، ولكنه مع ذلك متفق مع كل المصلحين الآخرين فى عهده تقريبا على أن التعليم العام أمر أساسى لتحقيق أى تحسين جوهرى . فهو يقول ان بعض النـاس يعترضون على التعليم على أساس أن الفقراء اذا تعلموا القراءة سينصرفون الى قراءة « توم بين » ، ولكنه من ناحيته متفق مع آدم سميث فى أنهم كلما زادوا تعلما ابتعدوا عن الكتابات المثيرة .

وهو يذهب الى أنه ليس هناك « حق » يدعم المبـدأ الذى يقضى بأن الانسان اذا لم يستطع أن يحصل على قوته بمجهوده الخاص ، أو أن الطفـل اذا لم يستطع أن يعيش من مجهـود أبويه ، فان المجتمع ليس عليه أى التزام باعالتهما . فهو يقول :

« ولكن يبدو واضحا ، على أساس من العلم والعمل ، أنه اذا سـمح بهذا «الحق» فأنه لا يلبث أن يزيد الى حـد لا يمكن الوفاء به ، وأن محاولة تحقيق ذلك عمليا تؤدى بالجنس البشرى الى أبشع أنواع الفقر وأوسـعها نطاقا ، ويستتبع بالضرورة أن سلوكنا ، الذى ينكر هذا الحق ، أكثر ملاءمة لحالتنا الراهنة من صيحاتنا الحماسية التى تسمح به .

ان خالق الطبيعة العظيم ، بحكمته التى تبدو فى كل أعماله ، لم يترك هذه النتيجة للتقدير العقلى الجاف للنتائج العامة . فهو اذ يجعل عاطفة حب النفس أقـوى من عاطفة حب الخير الى أقصى حد ، قد أرغمنا فورا على هذا الاتجاه فى السلوك الذى لا مندوحة عنه للمحافظة على الجنس البشرى .. »

ويؤكد مالتس فى أكثر من موضع ، المزايا التى تعـود على المجتمع من الانانية الفردية ، ولهذا السبب جعلتنا العناية الالهية أنانيين . الا أن الانانية التى تعود بالخير أنانية من نوع خاص : انها أنانية فطنة ، مدبرة ، تضـبط نفسها ، ليست مندفعة ولا حمقاء . وقد أنجب مالتس نفسه ثلاثة أطفال فى السنوات الاربع الاولى بعد زواجه ، ولم ينجب بعدها . ولنا أن نفترض أن

(×) اورد المؤلف نص الحوار باللغة الريفية الدارجة وهو ملىء بالمفارقات اللفظية التى يعتمد عليها تماما فى توضيح وجهة نظره .

ذلك يرجع الى ضبط النفس • أما رأي مسز مالتس في مبدأ السكان فلم يسجل •

ويرجع الى مالتس معظم السبب فى أن الراديكاليين الفلسفيين البريطانيين ، على خلاف الراديكاليين فى كل البلاد والعصور الاخرى،اهتموا « بالحرص » أكثر من اهتمامهم بأية فضيلة أخرى ، وذلك وضع بارد فيه جفاف وعداء لحياة العاطفة • وهو على نقيض وجدانية العصور الوسطى من كل ناحية • وقد هوجم مالتس بطبيعة الحال مهاجمة عنيفة ، الا أن الهجوم عليه كان كله على أساس عاطفى أو تعصب دينى • فأما الهجوم الدينى فكان مركزه قويا فى الرد عليه ، لانه هو نفسه رجل دين لا ترقى اليه شبهة فى الالحاد مهما كانت بعيدة • وفى رده على الهجمات القائمة على العاطفة لم يكن يحتاج الى أكثر من لفت النظر الى الحقائق الواضحة القائمة فى انجلترا وقتئذ • وبدت نظريته أمام معاصريه كأن لا سبيل الى دحضها على أساس من التفكير المنطقى ، وكانت النتيجة أن جميع الذين تتأثر آراؤهم بالحجة اتفقوا معه • ولهذا أثر تأثيرا عميقا فى الافكار خلال السنين الثمانين الاولى بعد نشر مؤلفه ، ومنذ ذلك الوقت وهو يؤثر فى معدل المواليد ، وان كان ذلك يحدث بطرق ما كان ليرضى عنها • وأخذ أثره فى الافكار يضعف بينما زاد تأثيره فى معدل المواليد ، الا أن ثانى الأمرين أكثر أهمية من أولهما • واذا كانت عظمة الانسان تقاس بمدى تأثيره في الحياة البشرية ، فقلما نجد من الناس من هم أعظم من مالتس •

وأن الحكم على ما فى مبدا مالتس من صواب وخطأ أصبح مستطاعا الآن ، وان لم يكن كذلك فى أيامه • فبريطانيا العظمى قد اضطرت إبان حروب نابليون الى الاعتماد على ما تنتجه هى نفسها من طعام اعتماداً يكاد يكون تاما ، ولهذا انتشرت فيها الفاقة بينما كان السكان يزيدون بسرعة • وبدا أن قانون الفقراء حافز على الزواج دون تبصر لانه كان يمنح المعونة بنسبة عدد الاطفال •

وكان الاعتقاد السائد فى ذلك الوقت ـ الى عهد قريب ـ أن الزيادة السريعة فى السكان راجعة الى ارتفاع فى معدل المواليد (١) ، ولكن السائد الآن أن هذه الزيادة كان مرجعها الى انخفاض معدل الوفيات • وقد يبدو غريبا أن ينخفض معدل الوفيات فى هذه الفترة العصيبة ، ولكن يبدو أن هذه حقيقة لا سبيل الى الشك فيها • واسباب ذلك كما عددها كلابهام (٢)

---

(١) كان أول تعداد للسكان فى بريطانيا العظمى (دون ايرلندا) فى سنة ١٨٠١ وكانت الارقام فى الاحصاءات الاربعة الاولى هى :

١٠٩٤٣٠٠٠ سنة ١٨٠١ — ١٤٣٩٢٠٠٠ سنة ١٨٢١
١٢٥٩٧٠٠٠ سنة ١٨١١ — ١٦٥٣٩٠٠٠ سنة ١٨٣١

(٢) « التاريخ الاقتصادي لبريطانيا الحديثة » لكلابهام (١٩٢٦) المجلد الاول ص ٥٥

هى « القضاء على الجدرى وانخفاض الاصابة بالحميات نتيجة لادخال نظام المجارى الصحية ، واختفاء مرض الاسقربوط الذى كان من الامراض المستوطنة ، وتقدم فى طب الولادة نشأ عنه انخفاض فى وفيات الاطفال والامهات أثناء الوضع ، وانتشار المستشفيات والصيدليات والمدارس الطبية » . وكان معدل المواليد فى سنة ١٨١١ منخفضا بعض الشىء عنه فى سنة ١٧٩٠ ، ويبدو أنه لا قانون الفقراء ولا عمل الاطفال فى المصانع قد أثر فيه .

وأيا كانت أسباب زيادة السكان ، فان الزيادة نفسها أصبحت لا جدال فيها بمجرد أن عرفت نتائج التعداد الثانى وهو تعداد سنة ١٨١١ . وجملة القول ـ أن مالتس كان محقا بلا جدال فى اعتقاده ، اذا صرفنا النظر عن أثر التقدم الفنى فى الزراعة . ان مساحة محدودة من الارض مثل بريطانيا العظمى ، التى يسكنها فعلا عدد كبير من السكان ، لا تستطيع أن تنتج الغذاء اللازم لعدد أكبر ممن فيها دون أن ينخفض مستوى المعيشة ، وانه اذا استمر عدد السكان فى الزيادة فلابد أن يصل فى القريب العاجل الى الحد الذى تصبح فيه أية زيادة جديدة مستحيلة بسبب نقص الغذاء . وهذا رأى لا ينطبق فى النهاية على بريطانيا العظمى وحدها ، بل تنطبق كذلك على العالم كله . وفى العالم أجزاء كالصين مثلا تظهر فيها حقيقة ذلك واضحة وبصورة محزنة .

الا أنه قد ثبت منذ كتب مالتس مقاله حتى الآن أن العوامل التى تحد من صحة نظريته مهمة الى حد لم يكن متوقعا . فالسكك الحديدية والسفن التجارية قد جعلت من المستطاع « أن تزرع أوروبا غلالها فى أمريكا » ، وهو ما كان مالتس يعتقده دعابة . كما ثبت أن التقدم الفنى فى الزراعة أكثر أهمية مما افترض مالتس أنه مستطاع . وأهم من هذا كله أن الزيادة فى رخاء الأجراء قد أدت الى نقص سريع فى معدل المواليد بدل أن تؤدى الى زيادة هذا المعدل ، وزاد من سرعة هذا النقص ما حدث بعد الحرب العظمى من انخفاض فى مستوى الرخاء مرة أخرى ، ولعل هذا لا يدحض أى شىء قاله مالتس ، ولكنه قضى على أهمية نظريته فيما يتعلق بالاجناس البيضاء . أما فى آسيا فلا تزال لها شأن عظيم .

٢ – بنتام

الفصل التاسع

بنتـــام

كان الراديكاليون الفلسفيون يعرفون عادة بالبنتـــاميين ، وكان معظمهم يعتبرون جيرمى بنتـــام زعيما لهم ، ولكن من المشكوك فيهمع ذلك أنبنتام كان يحتل هذه المكانة لو لا تدخل جيمس مل ٠٠ غير أنه مما لا ريب فيه أن بنتام يعد من أندر الشخصيات في التاريخ ٠ ولعله ، وقد ولد سنة ١٧٤٨ ، كان من المتوقع أن يقترن اسمه بفترة مبكرة عن تلك التى نحن بصـــددها ٠ وأيا كان الامر فالواقع أن حياته الطويلة (مات ســنة ١٨٣٢) تنقسـم الى ثلاث مراحل ، بدأت آخرها وأهمها وهو فى سن الشيخوخة ، فهو لم يعتنق مبدأ الديموقراطية في واقع الامر الا بعد أن بلغ الستين ٠

ولم تكن نشأته مما يرجح أن يصبح فى يوم ما مصلحا ٠ فقــــد كانت أسرته من اليعاقبة ، ولكنها كانت أحرص من أن تتورط فى اضطرابات سنة ١٨١٥ و ١٨٤٥ ٠ وكون جده ثروة من اشتغاله بالاعمال المالية والتجارية ، وكان والده ميسور الحال طوال حياته ٠ وبذل مجهودا كبيرا فى تربية ابنه ، التى كانت ــ كما يبدو ــ مثلا احتذى فى تربيه جون ســتيوارت مل ٠ ففى سن السابعة أرسل بنتام الى مدرسة وستمنستر ، ثم انتقل الى جامعـــة اكسفورد فى الثانية عشرة ، وحصل فى الخامسة عشرة على درجة بكالوريوس فى الآداب ٠ وكان أبوه ، وهو رجل شديد الميل الى التعاظم ، يرغب فى أن يختلط ابنه باللوردات والعظماء فى الجامعة ، وكان على اســتعداد دائم لمـده بما يلزمه من مال ينفقه فى المقامرة عندما يكون فى صحبتهم ٠ ولكن جيرمى كان غلاما حييا يفضل الكتب على اللهو ٠ وقد فعل مافعله مالتس ، وان اختلف الاسلوب ، فقلب العلاقة التى تقوم عادة بين الابن والاب رأسا على عقب : كان الوالد يحث ابنه على اللهو والمجون ، وكان الابن يصر على الجـــد والوقار ٠ والتحق جيرمى بمهنة المحاماة ليرضى أباه ، ولكنه أرضى نفسه بأن كتب فى اصلاح القانون بدل أن يمارسه ٠ وأحب فتاة اعترض والده على زواجه منهـا لانها ليست ثرية ، رغم أنه هو أغضب والده بزواجه زواجا قائما على الحب وكان موفقا فيه كل التوفيق ٠ وتخلى جيرمى عن فتاته مفضلا ذلك على أن يقصر جهوده على السعى لكسب المال ، ولكنه قاسى من جراء ذلك الامرين ٠ ويبدو من خطاباته لأخيه ، وكان لا يخفى عنه شيئا ، أنه قد اتخذ فى ذلك

الوقت طابع عدم المبالاة الساخرة وقد ظل شيء من هذا الطابع في فلسفته وإن اتخذ صورة الحذلقة والنظريات البحتة .

وكان جيرمي في رأى من لم يعرفوه الا في الفترات اللاحقة من حياته رجلا عطوفا غريب الاطوار خجولا الى حد لا يكاد يصدقه العقل لا يخرج أبدا عن نطاق نظام رتيب فرضه على نفسه ، واعتقد أننا نتبين في ذلك الاثر الباقي في نفسه من خلافه مع أبيه ونبذه للسعادة العاطفية (×) .

وقد وصف روبرت أوين ، الذى تعرف ببنتام في سنة ١٨١٣ على الرغم من نفوره من مقابلة الغرباء في هذه الفترة ، لقاءهما الاول فقال :

« بعد اتصالات مبدئية مع صديقينا المشتركين جميعا جيمس مل وفرانسس بليس اللذين كانا وقتئذ مستشاريه الرئيسيين ، وبعد تبادل بعض الرسائل بيني وبينه ، تقرر أخيرا أن أذهب الى مقر عزلته الذى يشبه صومعة الناسك في ساعة معينة ، وأن أصعد الى الطابق العلوى بعد دخولي من الباب مباشرة ثم نتقابل في منتصف الدرج . ونفذت هذه التعليمات وقابلني مضطربا مرتجفا ثم أخذ بيدى بينما جسمه يضطرب من شدة الاهتياج وقال بسرعة : (مرحبا ، مرحبا .. لقد انتهى الامر . لقد تم لقاؤنا . تفضل في مكتبي) ! »

وقابل بنتام أوين بعد خمسة عشر عاما من ذلك الوقت ، وقال له وهما يفترقان : « ليرعك الله ، اذا كان لهذا الكائن وجود ، ومهما يكن من ذلك يا صديقي الصغير اعتن بنفسك » .

وفي سنة ١٨١٤ والسنوات الثلاث التالية كان بنتام يقضي نصف وقته في منزل قديم يسمى « فورد أبى » (دير المخاضة) في ديفونشير حيث كانت الحياة فيه تمضى في سلسلة متصلة من البهجة كما يصفها هو :

« لقد كان مسرح غبطة عظيمة بالنسبة لعدد من الاشخاص لم يكونوا قلة . ولاتسمع فيه كلمة غضب واحدة . وتدير مسزس «مديرة المنزل» شئون المنزل كأنها ملاك . وكان الجيران كلهم ودودين ، وان كانوا لايزارون . وكانت فيه موسيقى ورقص ، وان كنت أكره الرقص . وتختلط فيه زمرة من الناس المهذبين والبسطاء . ويجيء الناس ويذهبون . وتأتي جماعات للرقص وعلى رأسها مسز س. »

غير أني أخشى أن يكون وصف فرانسس بليس أقرب الى الحقيقة :

(×) لقد اعتاد عادة لا تتغير وهي عادة السير حول حديقته قبل الافطار وبعد الافطار ، وكان يسمى هاتين النزهتين « جولات ما قبل الفطور وبعد العشاء »

« كل أيامنا متماثلة ، ولذلك فان وصف أحدها يكفى لوصفها جميعا ٠ يستيقظ مل بين الخامسة والسادسة ، ثم يراجع أصول كتبه مع جون ، فيقرأ جون الاصل ووالده التجربة ٠ ويكون ويلى وكلارا فى حجرةالاستقبال قبل السابعة ، فاذا ما انتهت مراجعة التجارب ذهب جون الى الناحية الاخرى من الغرفة ليعلم أختيه ٠ وعندما يتم ذلك ، وبعض الوقت الذى يحدث فيـه ، يدرس جون الهندسة ، ويستمر ذلك حتى الساعة التاسعة عندما يكون الافطار قد أعد ٠

ويستيقظ مستر بنتام بعد السابعة بقليل ، وينصرف الى عمله فى الثامنة ٠ واستيقظ أنا فى السادسة وأنصرف الى عملى ، وفى التاسعة يبدأ الافطار فى حجرة الطعام ويحضره مسز مل ومل وأنا وجون وكولز ٠

فاذا ما انتهى الافطار أستمع مل الى ويلى وكلارا ثم جون ٠ وتسمعالدروس تحت شرفة عريضة يقطعونها جيئة وذهابا من طرف لآخر ، وفى ناحية منها توجد حجرة الافطار وفىالناحية الاخرى تقوم أوانىالزهور الواحدة فوق الاخرى حتى تصل الى ارتفاع رأسك ، وهذاالمكان فى صدرالمنزل « الدير » ٠ وتلقى كل الدروس والقراءات بصوت مرتفع وتستغرق ثلاث ساعات كاملة ، حتى الساعة الواحدة تقريبا ٠

ويستمر مستر بنتام فى العمل من التاسعة حتى الثانية عشرة ، ومن الثانية عشرة حتى الواحدة يعزف على أرغن فى حجرة الاستقبال ٠

وأقضى أنا الوقت من بعد الافطار حتى الساعة الواحدة فى تعلم اللاتينية ، وهذا أيضا يتم بصوت مرتفع أثناء سيرى ، وقد حفظت حتى الآن الاسماء والصفات ٠ وفى هذه الاثناء يكون جون ، وهو ولد طيب ، قد تلقى درسا فى اللاتينية على مل ، ودرسا فى الفرنسية على : لقد كان فىظروف ممتـــازة بالنسبة لغلام ذى نبوغ ٠

وفى الساعة الواحدة نسير ثلاثتنا فى الدروب والحقول مدة ساعة ٠ وفى الثانية نعود جميعا الى العمـــل مرة أخرى حتى موعد العشاء فى الساعة السادسة ، ونتناول العشاء معا ، أنا ، مسز مل ، ومل ، وبنتام ، وكولز ، فنتناول الحساء أو السمك أو الاثنين معا واللحم والفطائر ثم الفاكهة عادة ؛ وهى البطيخ والشليك والزبيب والعنب ، ولا نشرب خمرا ٠ وقد وضعت زجاجة خمر على المائدة يوم قدومى ، ولكنى لم أذقها ، فلم تظهربعدذلك أبدا ٠ وبعد العشاء أسير أنا ومل سيرا نشطا مدة ساعتين ، حتى الثامنة والربع تقريبا ، وبعد ذلكيسير أحدنا بالتناوب مع مستر بنتام مدة ساعة ، وعندئذ يحضر الشاى الذى نقرأ خلاله الصحف والمجلات ، ولا تلبث الساعة أن تصبح الحادية عشرة ، فنأوى جميعا الى الفراش ٠

وتسير مسز مل فى أبهة حول الحديقة أمام المنزل حوالى نصف ساعة قبل الافطار ، وتسير مرة أخرى بعد العشاء وفى رفقتها جميع الاولاد حتى موعد النوم » .

وكانت العوامل الذهنية التى كيفت عقل بنتام فرنسية فى الاغلب الاعم . نعم ان هيوم ترك أثرا فى فلسفته ، وان هارتلى ترك أثرا فى سيكلوجيته وفقا لمبدأ التداعى . كما أن أول مبادئه الاخلاقية وجد ، فى كتاب هتشسون ، « بحث يتعلق بالخير والشر الاخلاقيين » بنفس الالفاظ تقريبا . وفى هـــذا يقول هتشســـون ان الشر الاخلاقى لعملما هو « مثل درجة البؤس وعـــدد من يقاسونه ، وعلى هذا يكون خير عمل هو الذى يحقق أكبر قدر من السعادة لاكثر عدد من الناس » « × » . الا أن اتجاهاته الذهنية قد كدنتها الفلسفة الفرنسية التى كانت سائدة فى عهد ما قبل الثورة . فكان يعجب بفولتير ، كما كان تابعا متحمسا لهلفسيوس . وقد قرأ هلفسيوس سنة ١٧٩٦ وصمم بعد ذلك مباشرة على أن يكرس حياته لمبادىء التشريع ، وفى هذا يقول :

« لقد كان هلفسيوس بالنسبة لعالم الاخلاق ماكانه بيكون للعالم المادى . واذن (فبيكون) عالم الاخلاق قد وجد ، أما (نيوتن) الاخلاق فلم يأت بعد» ولعلنا لانجانب الصواب اذا افترضنا أن بنتام كان يصبو لان يكون هو نيوتن عالم الاخلاق .

وعندما قرأ بنتام كتاب بيكاريا « فى الجرائم والعقوبات » كان رأيه فيــه أعظم من رأيه فى هلفسيوس نفسه . وفى ذلك يقول :

« لك الله يا أستاذى ، يا سيد المبشرين بالعقل ، يا من رفعت بلادك ايطاليا عالية فوق انجلترا ، وكنت أضيف ـ وفوق فرنسا ـ لولا أن هلفسيوس ، دون أن يكتب فى القانون ، قد ساعدك وأمدك بآرائك الاساسية . انت يامن تتحدث بالمعقول عن القانون عندما كان الناس فى فرنسا لا ينطقون الا بلغو الحديث : حديث هو العقل نفسه اذا قورن باللغو الذى كان ينطق به الانجليز ، وأنت يا من جلت جولات نافعة فى طريق المنفعة ، ماذا أبقيت لنا أن نفعله ؟ — ان الذى أبقيته هو ألا نحيد أبدا عن ذلك الطريق » .

وعملت رحلته الى فرنسا فى سنة ١٧٧٠ وهو فى الثانية والعشرين على تقوية التأثير الفرنسى فى نفسه . والواقع أنه ظل طوال حياته ، ومن عدة نواح ، فيلسوفا فرنسيا من فلاسفة عهد لويس السادس عشر . وكانت الرحلة الاخرى الوحيدة التى أثرت فيه هى زيارته لروسيا سنة ١٧٨٥ .

وكان سبب هذه الرحلة أن أخاه صمويل بنتام (الذى صار فيما بعـــد القائد سير صمويل بنتام) قد التحق بخدمة الامبراطورة كاترين ليحاول

(×) ذكرت هذه الفقرة فى « نمو الراديكالية الفلسفية » تاليف هالفى ص ١٣
(×) « تعليم بنتام » تاليف ايفرات ص ١٥٣

ادخال الاساليب الحديثة على الزراعة فى روسيا ، وهى مهمة ثبت أنها كانت عسيرة وقتئذ ، كما هى عسيرة الآن • وكان جيرمى يأمل أن تدخل كاترين فى بلادها القانون الجنائى العلمى الذى يضعه : وكتب فى ذلك يقول : « لقد بذلت فى روسيا جهودا لحمل الناس على التفكير بقدر مابذل فى بلاد أخرى لمنعهم من التفكير (×) » • غير أنه كان من سوء الحظ أن أخاه ، الذى أصاب نجاحا فى البلاط الروسى ، أراد أن يتزوج احدى الوصيفات ، ورأت كاترين أن هذا تطاولا منه ، ومن ثم غضبت عليه وغضبت كذلك على جيرمى وقانونه •

وكان بنتام كثير الكتابة كل يوم أينما حل ، سواء فى البحر الاسود أو فى منزله أو فى مقره فى كوين سكوير • وكان يعنى بوضع كل ما يكتبه فى عيون حيث تظل معطلة الا اذا قيض لها صديق طيب يخرجها من مكمنها • وكانت النتيجة أن ظل بنتام خامل الذكر فى انجلترا فلم تحظ كتاباته القليلة التى نشرها الا باهتمام بسيط • الا أنه قابل فى سنة ١٧٨٨ رجلا من أهالى جنيف ، اسمه ديمون ، أصبح تلميذه المتحمس له ، وحصل منه هذا التلميذ على بعض المخطوطات وترجمها الى اللغة الفرنسية وعمل على نشرها فى نطاق واسع فى القارة الاوروبية • هـذا وكان ديمون يعد المـادة اللازمة لخطب ميرابو الذى كان مشغولا بغرامياته وبمحاولة التخلص من دائنيه فلم يكن لديه وقت للبحث • وقد نشر ديمون مقتطفات طويلة من كتابات بنتام فى صحيفة ميرابو « كوريبه ده بروفانس » • وكتب بنتام فى سنة ١٧٨٩ الى ميرابو يقول :

« انى لفخور ، كما ينبغى أن أكون ، بما أعربت عنه من نوايا طيبة • وانى لأتطلع بفارغ صبر الى الوقت الذى تتحقق فيه هذه النوايا • والى أن يتم ذلك اسمح لى ، بالاضافة الى الشرف الذى أناله بأن أدعو الكونت دى ميرابو مترجمى والمعقب على كتاباتى ، أن أسمى نفسى مكاتبه » •

وقد بلغ من شهرته فى فرنسا أن الجمعية العمومية انتخبته مواطنا فرنسيا • الا أنه كان ما زال ينتمى الى حزب المحافظين • وسرعان ما عافت نفسه الثورة ، ونسيته الثورة أيضا فى نفس الوقت تقريبا • غير أن صيته استمر فى الذيوع فى غير فرنسا • فكان ابيرانسكى وزير اسكندر المتحرر يعجب به ، وفى سنة ١٨١٤ طلب اليه اسكندر أن يعاونه فى اعداد مجموعة قوانين • وكان موضع التبجيل فى أسبانيا ، وفى جميع أنحاء أريكا اللاتينية ، وقرر المجلس النيابى فى أسبانيا أن تطبع أعماله على نفقة الحكومة • ويذكر لنا بورو فى كتابه « الكتاب المقدس فى أسبانيا » كيف اعتقل فى ركن قصى من غاليسيا لانه كان يبيع الكتاب المقدس وكيف أن القاضى « أطلق سراحه فورا لما علم أنه مواطن لبنتام العظيم » • ودعاه آرون بير ، الذى كان قبل ذلك نائبا لرئيس جمهورية الولايات المتحدة ، ليحضر الى المكسيك حيث كان يريد تنصيب نفسه امبراطورا

(×) « تعليم بنتام » اقرت ص ١٥٣

ويجعل بنتام مشرعا • (ويبدو أن المكسيكيين لم يفكروا قط فى هذا المشروع) وجال بخاطر بنتام أن يذهب الى كاركاس ليستمتع بجوها وليعد قانونا جنائيا لفنزويلا • وقصارى القول ان صيته فى البلاد النائية لم يكن له حد • وفى ذلك يقول هازلت :

« ان مستر بنتام من الاشخاص الذين يثبتون صحة المثل المأثور (لا كرامة لنبى فى بلده) ان صيته قد ذاع حول العالم ، وانعكست أضواء تفكيره ، وزاد بهاؤها ، على الناحية الاخرى من الكرة الارضية • ان اسمه قلما يعرف فى انجلترا ، وهو معروف أكثر فى أوروبا ، ولكن شهرته تبلغ مداها فى سهول‌شيلى ومناجم المكسيك • لقد منح الدنيا الجديدة دساتير ، وشرع للمستقبل • أما سكان وستمنستر ، التى يعيش فيها ، فقلما يحلمون بهـذا الشخص ، ولكنه هيأ للرجل البدائى فى سيبريا راحة كتلك التى يحسها عندما يبدد القمر بأشعته الباردة ظلماء حياته فتجعله يقول مع «كاليبان» (انى أعرفك وأعرف كلبك وأجمتك !) • وربما مد الهندى ذو السحنة السمراء يده له من وراء المحيط الهادى الكبير • ونعتقد أن الامبراطورة كاترين كانت تراسله ، ونعلم أن الامبراطور اسكندر زاره وأهداه صورة صغيرة له محفورة على صندوق سعوط من الذهب أعاده الفيلسوف كما يليق بكرامته الخالدة • ان مستر هوبهاوس أعظم منه شأنا فوق منبر الخطابة ، واللوردرول أكثر منه أهمية فى أحواض بليموث البحرية ، ولكن مستر بنتام يتقدم الجميع فى ميدان الشهرة بلا قرين فى باريس أو بيجو • ويرجع ذلك الى أن تأثير مؤلفنا تأثير عقلى بحت • فقد كرس حياته لطلب الحقائق المجردة والعامة والدراسات التى (تطوف بالفكر من جبال نهر السند الى القطب) • كما أنه لم يتورط أبدا فى المؤامرات الشخصية أو السياسية الحزبية • حقيقة أنه أعلن ذات مرة ، أنه « جيرمى بنتام وهو بكامل قواه العقلية يعتقد أن سـير صمويل ريملى خير من يمثل وستمنستر » الا أن ذلك كان نزوة بنت وقتها • وفيما عدا ذلك كانت حججه ، ان تكن صادقة ، فهى صادقة فى كل مكان : لقد كانت تأملاته مما يهم البشرية جمعاء ، وليست مقصورة على جماعة معينة أوهدف أخلاقى بذاته • لقد بلغت الذروة فى عالم الاخلاق كما بلغتها فى العـالم المادى • ان الشيء الصغير يرى خير ما يرى عن كثب ، أما الشيء العظيم فلا يظهر على حقيقتـه الا من مركز مشرف ، ويزداد على مر الزمن وتسـاميا كلما بعدت المسافة ! •

ومقام مستر بنتام بين الفلاسفة شديد الشبه بمقام لافونتين بين الشعراء • فهو فى عاداته العامة وفى كل شيء ، سوى ما يتعلق بمهنته ، طفل لا أكثر • لقد عاش طوال سنيه الاربعين الاخيرة فى منزل فى وستمنستر يطـل على المنتزه ، مثل ناسك فى صومعته ، يخيل القانون نظاما والعقل البشرى آلة • وكان نادر الخروج من منزله ، لا يجتمع الا بالقليل جدا من الصحب • وكان

القلائل ذوو الحظوة الذين يتمتعون بحق مقابلته لا يسمح لهم بالدخول الا فرادى ، لأنه لم يكن يحب شهودا على حديثه ، وكان يتكلم كثيرا ولا يصغى الا للحقائق » .

وتورط بنتام فى تلك الاثناء فى المشروع المشئوم الذى ملأ الفترة الوسطى من حياته مرارة وارتباكا ماليا . فقد اخترع (أو لعل أخاه قد اخترع) نوعا جديدا من السجون أسماه « بانوبتيكون » على شكل نجمة بحيث يستطيع السجان وهو جالس فى وسط السجن أن يرى أبواب كل غرفة ، بل وأكثر من ذلك ، يستطيع السجان ، عن طريق مرايا توضع بزوايامعينة وستائر فى أوضاع مختلفة ، أن يرى المسجونين دون أن يروه . وكان يعتقد أنه يمكن أن تطبق هذه الفكرة نفسها فى المصانع والمستشفيات والملاجىء والمدارس . واعترض البعض على ذلك باسم الحرية (فيما عدا السجون) . ولكن بنتام كان يؤمن بأن السعادة لا الحرية هى غاية الانسان ، ولم يكن مقتنعا بأن الحرية ضرورية للسعادة ويقول : « سمهم ان شئت جنودا أو سمهم رهبانا أو سمهم آلات فان ذلك لايهمنى ماداموا سعداء . ان الحروب والعواصف هى خير ما يقرأ عنه الانسان ، ولكن السلام والهدوء هما خير مايتحمله » (×)

ولا ينبغى أن نفترض أن بنتام كان يقصر جهوده ، فى أى وقت من الأوقات على « البانوبتيكون » ، فقد كان نشاطه دائما كثيرا متعددالنواحى . فقد اخترع فى سنة ١٨٠٠ مثلا آلة للتبريد . ولكن « البانوبتيكون » ظل سنين طوالا أهم مايشغل باله . وعمل كل مافى وسعه ليقنع الحكومةالبريطانية بانشاء سجن واحد فى القليل على أساس فكرته . وحصل على شبه وعد بذلك ، فاشترى أرضا لهذا الغرض ، ولم يلبث أن وجد أن الحكومة عدلت عن رأيها وخسر من جراء ذلك الجزء الاكبر من ثروته . وكان يعزو فشله الى نفوذ جورج الثالث الشخصى ، ومن الناس من يرى ان هذا كان السبب فى تحوله الى المبدأ الجمهورى فيما بعد . ولاقت فكرته نجاحا فى أماكن أخرى وفى عهود أخرى ، فقد أمر الامبراطور اسكندر ببناء بانوبتيكون فى بطرسبرج ، وشيدت ولاية الينوى واحدا منها فى سنة ١٩٢٠ . ولكن الحكومة البريطانية ظلت على اصرارها . وأخيرا منح بنتام فى سنة ١٨٠٨ مبلغ ٢٠٠٠٠ جنيه تعويضا له عما أنفقه بناء على تشجيع الحكومة .

الا أنه فى سنة ١٨٠٨ كان قد بدأ فعلا فى المرحلة الثالثة ، وأكثر مراحل حياته أهمية ، وذلك بتحالفه مع جيمس مل .

ولم يدخل بنتام أى تغيير على فلسفته العامة عندما أصبح راديكاليا ، فقد بقيت كما كانت أيام صباه لم يحدث فيها قط تغيير . ولم يكن فيلسوفا عميقا ولكنه كان واضحا ومنطقيا وواثقا كل الثقة من أنه على حق . وكان لفلسفته أساسان ، أحدهما نفسانى والاخرى أخلاقى . وقد دونهما بايجاز فى مذكرة كتبها لاستعماله الخاص .

(×) « نشأة الراديكالية الفلسفية » تاليف هاليفى ص ٨٤

« مبدأ التداعى » ، هارتلى : الصلة التى تربط بين الافكار واللغة ، وبين الافكار والافكار ٠
« مبدأ السعادة الكبرى » ٠ بريستلى ، طبعة بنتام على كل فرع من فروع الاخلاق بتفصيل :
وقد سار قبله هلفسيوس بعض هذا الطريق نفسه »

ولا بد لنا أن نقول شيئا عن كل من هذين المبدأين ٠

ان « مبدأ التداعى » الذى يعزوه بنتام الى هارتلى هو : « تداعى الافكار » المعروف ، وهو الذى يجعلنى أقول مثلا « آمل أن تكون مسز لويس بخير » عندما أتحدث مع مستر أبتون سنكلير ٠ وأحيانا تكون نتائج هذا المبدأ خيرا من ذلك ، كما يحدث عندما يذكرنى منظر الشواء بالبيرة ٠ والتداعى كما يعرف الجميع وسيلة من وسائل القبض على المجرمين ٠٠فاذا فرضنا مثلا أنك تستجوب رجلا يشتبه فى أنه قطع رقبة زوجته بسكين ، فتقول أنت كلمة ويرد هو بأول كلمة تخطر بباله ٠ فتقول « قطة » ويقول هو « كلب » ، وتقول « سياسى » فيقول « لص » ، وتقول « سيكين » فيجد نفسه مايدفعه لان يقول « رقبة » ٠ ولكنه يعلم أنه خير له ألا يقولها ، فيتردد قليلا ثم يقول « شوكة » ، ويدل الوقت الذى يمضى على مقاومته ٠

والامر حتى هذه النقطة عادى ٠ ولكن من الناس من يعتقدون أنه يمكن تفسير جميع العمليات العقلية بالتداعى ، وأن علم النفس يمكن أن يصير علما كالعلوم الطبيعية والرياضية على أساس هذا المبدأ وحده ٠ وقد أخذ بنتام هذا المبدأ عن هارتلى ٠ وقبل هارتلى كان هيوم ، وهو رجل أعظم من كل خلفائه من الفرنسيين أو البريطانيين ، قد فعل كل مابدأ له ممكنا فى نفس الاتجاه ٠ فقد فكر هيوم فى كل الاشياء التى فكر فيها أتباعه وبين السبب الذى يدعو الى تصديقها واعتبارها صادقة ، ثم أخذ يوضح أنها مع هذا ليست صادقة كل الصدق ٠ وأغضب ذلك أتبــاعه الذين أرادوا أن يستخرجوا من الشك مذهبا يقينا ، ومن ثم كانوا دائما يقدرون هيوم أقل مما يستحق ولم يكن ماابتكره هارتلى هو مبدأ التداعى ولكن الذى ابتكره هو التوسع فيه ، فوق مايجب ، ليعم كل الظواهر العقلية ٠

ومما تجدر ملاحظته فى هذا الموضوع أن الوضع الذى فيه علم النفس لم يتغير منذ بنتام حتى الآن الا ما طرأ من تبديل على المصطلحات ٠ فبدلا من مبدأ « التداعى » نتحدث الآن عن « الفعل العكسى المشروط » ، وصرنا نرى ان أثر التجربة ينصب على عضلات ، وغدد ، وأعصاب ، ومخ ، لا على أفكارنا ٠ وقد أثبت بافلوف أن المبدأ يستطيع أن يفعل الشىء الكثير ، وأكد واطسون أنه يستطيع أن يفعل كل شىء ٠ ولكن من حقنا أن نرى أن نظريته ناقصة لم تكمل حتى يوضح لنا لماذا لايعطس الانسان عندما نذكر له كلمة « فلفل »

وهناك خلاف واحد مهم بين مذهب التداعى والمذهب السلوكى ٠ فالاخير

ينصب أساسا على ما يفعله الجسم ، بينما كان الاول ينصب على نشاط العقل .
وكان أنصار التداعى يميلون الى انكار وجود المادة ، ولكنهم لم ينكروا العقل .
نعم ان الشاعر قال :

« انستيوات ميل لم يذر عقلا ولا مادة

بل اعمل فيها جميعا هدما وتدميرا بلا رحمة ولا شفقة . » .

ولكنه كان أكثر ترفقا بالعقل منه بالمادة . أما السلوكيون فهم على النقيض من ذلك : أنهم يؤمنون بالمادة ولكنهم يرون أن فكرة العقل فرض لا لزوم له .

ولا شك أنه قد حدث تقدم علمى ملحوظ بقدر الفرق بين قانونى الفعل العكسى المشروط وتداعى المعانى . فالقانون الجديد يشمل كل ما كان يشمله القانون القديم كما يشمل أشياء أخرى كثيرة غيره . وما من أحد يجادل فى أن القانون القديم كان صحيحا فى ميدان بعينه وأن القانون الجديد صحيح فى ميدان أكثر اتساعا يشمل فيما يشمله ميدان القانون القديم . وليس موضوع الجدل بحق هو صحة أى من القانونين بل مداه : فيذهب البعض الى أن جميع الظواهر العقلية تنطوى تحت نطاقه ، بينما يذهب آخرون الى أن بعض أنواع النشاط العقلى تخضع لقوانين أخرى . ولا يزال هذا الجدل الآن فى جوهره كما كان منذ مائة وثلاثين سنة .

وقانونا التداعى والسلوكية ينتهيان الى نفس النتائج من ناحية ذات شأن عظيم . فكلاهما يسلم « بنظرية الحتمية » ، أى أنهما يذهبان الى أن ما نفعله يخضع لقوانين يمكن التثبت منها — الى حد كبير على الاقل — بحيث أن تصرفاتنا فى ظروف معينة يمكن أن يتنبأ بها عالم نفسانى خبير . وعلى ذلك فلنا أن نفترض أن بنتام كان يقول لنفسه : « ان المجرم نتاج الظروف ، واذا كانت ظروف معينة جعلته شريرا فلا بد أن تكون هناك ظروف أخرى يمكن أن تجعله صالحا . ومن ثم ليس علينا الا أن نخترع النوع الصحيح من السجون وهو كفيل بأن يحول اللصوص من تلقاء نفسه الى رجال شرفاء » . وعلى هذا النحو يعتقد السلوكيون أن مشكلة تنشئة أطفال صالحين ليست سوى مشكلة ايجاد الافعال العكسية المشروطة الصحيحة . ففى تجارب المعمل ، اذا فعل الكلب ماتريده أعطيته طعاما ، واذا فعل عكس ماتريده سلطت عليه تيارا كهربائيا . وهم يؤكدون لنا أنه اذا طبقت هذه الطريقة نفسها على الاطفال فسنجعلهم نماذج لحسن الخلق . ولكنى لم أجد أن مستر وكفورد اسكويز ينال ما يستحق من الفضل نظير هذا الكشف .

وكان « مبدأ السعادة الكبرى » أكثر مبادىء المدرسة البنتامية شهرة . وهذا المبدأ يقول ان الاعمال تكون خيرا عندما تؤدى الى أكبر قدر من السعادة لأكبر عدد من الناس ، وتكون شرا اذا لم تؤد الى ذلك ، ولست أدرى

لماذا يعزو بنتام هذا المبدأ الى بريستلى فى الفقرة التى نقلناها عنه قبل · فقد ذكر هذا المبدأ ، كما رأينا ، بنفس ألفاظ بنتام تقريبا فى كتابات هتشسون قبل ذلك بوقت طويل · كما أن معظم الفلاسفة الانجليز والفرنسيين قبلوه فى صورة ما · وبريستلى كما يعرف كل انسان كيميائى راديكالى من أنصار شيعة التوحيد فى الدين المسيحى · وقد وضع فى علم اللاهوت نظاما يستند الى العقل الى حد كبير ، ويمكن القول بأنه هو الذى كشف الاكسجين ، وانتصر للثورة الفرنسية حتى فى أحلك أيامها ، ومن أجل ذلك هاجم غوغاء برمنجهام منزلة ودمروه وكان هو حكيما فهرب الى أمريكا · والخلاصة أنه كان مواطنا خليقا بأكبر قسط من الثناء ، ولكن ليس هناك من سبب خاص يجعله صاحب الفضل فى ابتكار مبدأ السعادة الكبرى ·

وكان هناك شىء من التناقض بين آراء بنتام الاخلاقيـــة وآرائه فى علم النفس ، فبينما العمل الطيب هو الذى يؤدى الى السعادة العامة ، نرى أخـذا بأقوال بنتام ، ان من القوانين السيكولوجية أن كل انسان ينشد تحقيق سعادته الشخصية · واذ كان هذا عملا لايسع الناس الأنيزاولوهفانلومهم على فعله لن يكون سوى مجهود ضائع ، على أن من واجب المشرع مع ذلك أن ينظم الامور بحيث تتحقق سعادة كل فرد عن طريق أفعال تؤدى الى الصالح العام · وهذا هو المبدأ الذى يستوحيه بنتام فى كل أعماله التشريعية ·

ومع ذلك فهناك ، كما يقول ، عدة أسباب تجعل هذا التوحيد المصطنع بين المصلحة الشخصية والمصلحة العامة أمرا لاتمس الحاجة اليه كثيرا كمايمكن أن نفترض · فهناك كما أشار كتاب سابقون كثيرون « التعاطف » الذى يجعل مرأى شخص يتألم يثير فى النفس الألم · بل والى جانب ذلك فاننا سنجد (كما قال كل الاقتصاديين فى ذلك العصر) بوجه عام أن خير ما يفعله الانسان ليحقق المصلحة العامة هو أن يسعى الى تحقيق مصلحته هو ·

وقد نشأ هذا المذهب ، الذى استمد منه المبرر النظرى لمبدأ عدم التدخل وغيره من العقائد المتزنة السليمة ، من دعابة خيال «Jeu d'esprit» وتفصيل ذلك أن ماندفيل ، وضع فى كتابه « حكايات النمل » الذى ظهـــر عام ١٧٢٣ ، بأســـلوب ليس فيه الكثير من الجد ، مذهب « الرذائل الخاصـــة ، والمصـــالح العـــامة » ، وقد ذهب فيه الى أننـــا انما نعمل على تحقيق الخير للمجتمع عن طريق أنانيتنا · وأخذ الاقتصـــاديون والاخلاقيون بهذه النظرية وان قالوا ان ماندفيل ما كان يجب أن يتحدث عن « الرذائل الخاصة » لأن الانانية لايعدها رذيلة الا الذين عجزوا عن فهم المبادىء الحقيقة التى يقوم عليها علم النفس · ومن ثم أخذ جميع الداعين الى مبدأ عدم التدخل بمذهب التوافق الطبيعى بين المصالح ، لا على أنه حقيقة مطلقة ، بل على أنه مبدأ عام فى حدود واسعة النطاق · وسنرى فيما بعـــد كيف وجه ريكاردو ، عن غير قصد ، ضربة قاضية الى هذا المذهب ووضع الأسس للمذهب المضاد مذهب « صراع الطبقات » ·

وبعد فقد كانت المبادىء الاخلاقية التى بنيت على مبدأ السعادة الكبرى ، الذى عرف فيما بعد بمذهب النفعية ، مناقضة بعض الشىء للتعاليم الاخلاقية السليمة اذا نظرنا اليها نظرة جدية . نعم ان بعض النابهين من رجال الدين ، مثل الاسقف بتلر ، قد اعتنقوا هذا المذهب وأنه ظل لا يلقى معارضة الى أن أصبح شعار الراديكاليين . الا أن كل نظرية تحكم على التصرف من الناحية الخلقية عن طريق النتائج التى تؤدى اليها ، لا يمكن أن تتفق ، الا بمحض الصدفة السعيدة ، مع النظرة التى جرى بها العرف ، والتى تعتبر أنواعا معينة من التصرفات آثمة بصرف النظر عن نتائجها . ولا جدال فى أن القاعدة التى تقول « لا تسرق » قاعدة سليمة تماما بصفة عامة ، الا أن من السهل أن يتصور المرء ظروفا تكون فيها السرقة سبيلا لتحقيق السعادة العامة . ففى نظام يسوده مبدأ النفعية تكون كل القواعد الاخلاقية العادية معرضة للاستثناءات . لقد كان بنتام حر التفكير فى الدين ، وكذلك كان كبار أتباعه ، ومن ثم كان طبيعيا أن يتهموا بالدعوة الى تعاليم منافية للأخلاق . والحق أ هذا الاتهام كان فى الواقع أقل بكثير مما كان منتظرا ، ويرجع بعض السبب فى ذلك الى أن زعماء هذه المدرسة كانوا حريصين فى شرح مذهبهم ، وبعضه الى آن حياتهم الخاصة كانت نقية لا تشوبها شائبة الى حد منقطع النظير . وعلى الرغم من أن تعاليمهم كانت فى أساسها تعاليم هدامة ، فان الناس ظلوا ينظرون اليهم بصفة عامة نظرة احترام وتبجيل .

ولم يفرق بنتام بين اللذة والسعادة ، ورفض باصرار أن يضفى شيئا من السمو على ما يسمى باللذات العليا . وفى ذلك يقول هو نفسه : « اذا تساوت اللذة من ناحية الكم فلا فرق بين دق المسامير والشعر » . ومع ذلك فان مذهبه كاد يكون هو النسك بعينه من الناحية العملية . فقد كان يذهب الى أن أسمى الملذات هى الرضا عن النفس . واذ كان الناس يميلون الى تقدير الملذات الحاضرة أكثر من الملذات المستقبلة ، فان الرجل العاقل هو من يتصف بالفطنة وضبط النفس . وكان هو وأتباعه ينشدون السعادة بصفة عامة فى العمل الشاق وانكار اللذات الحسية انكارا يكاد يكون تاما . وما من شك فى أن هذا كان هو مزاجهم الطبيعى ، ولا يمكن تفسيره على أنه نتيجة مستخلصة من مذهبهم ، الا أن النتيجة هى أنهم كانوا فى أخلاقهم لا يقلون صرامة عن معارضيهم المستمسكين بمبادئهم .

٣ ـ جيمس مل

الفصل العاشر

جيمس مل

كان جيمس مل صاحب اليد الطولى فيما أصبح لبنتام من قوة فى السياسة الانجليزية • وقد تركت شخصية هذا الاسكتلندى الصلب أثرها الكبير فى طابع الراديكالية البريطانية • ولد جيمس ميل سنة ١٧٧٣ أى بعد خمسة وعشرين عاما من ميلاد بنتام ، وكان والده تاجرا صغيرا ، وتولى الانفاق على تعليمه زاع من النبلاء هو سير جون ستيوارت الذى أدهشته قدرة الصبى • وكان الهدف أن يصبح رجل دين ، ولكنه ما انتهى من دراسته حتى كان قد فقد ايمانه بالدين المسيحى • وذهب الى لندن عام ١٨٠٢ ، ولا بد أنه لم يكن وقتئذ من الراديكاليين لانه اشـــترك فى تحرير صحيفة ضد اليعاقبة • وعاش مل عن طريق الصحافة وكان يقضى أوقات فراغه فى تعليم ابنه وتأليف كتاب فى تاريخ الهند • وقد بدأ الكتاب فى سنة ١٨٠٦ ونشره فى سنة ١٨١٨ ، وكان نشر هذا الكتاب سببا فى أن شركة الهند الشرقية ألحقتـــه بخدمتها حيث ظل بقية حياته • وكان يعتمد فى معاشه من سنة ١٨٠٨ الى سنة ١٨١٨ على كرم بنتام الى حد كبير • فقد كان فى حديقة منزل بنتام فى كوين سكوير منزل صغير كان يملكه ميلتون ، وأعار بنتام هذا المنزل لجيمس مل بعض الوقت ، ولكن بنتام استأجر بعد ذلك منزلا آخرا قريبا من منزله ليعطيه لمل بنصف الايجار الذى يدفعه • وفى الصيف كان مل يذهب مع بنتام عادة اذا غادر هذا لندن •

وكان مل قد أصبح راديكاليا قبل أن يقابل بنتام ، أما فى علم النفس فكان من أتباع هارتلى ، وفى الاقتصاد كان يعتنق نظريات مالتس ، كما كان صديقا حميما لريكاردو ، وفى السياسة كان ديموقراطيا متطرفا ومن المؤيدين النظريين لمبدأ عدم التدخل • ولم يكن جيمس مل مفكرا أصيلا ، ولكنه كان واضحا فى تفكيره قويا فيه ، كما كان يتمتع بذلك الايمان الذى لا يقبل مناقشة والذى يتحلى به الحوارى المطبوع ، مع ما يتوفر فى الحوارى من ازدراء كامل للمذاهب التى تتعارض مع مذهب رائده • وقد كتب مرة بعـد محاولة قصيرة لقراءة نظريات الفيلسوف كانت : « انى أرى بوضوح كامل ما الذى يهدف اليه كانت المسكين » • وكان يعجب اعجابا شديدا بهلفسيوس كمثل من هم على شاكلته ، وأخذ عنه مذهبه المعروف عن « قدرة التربية على كل شىء » • وكان ابنه الاكبر جون ستيوارت ، الذى ولد فى العام الذى بدأ فيه كتابه عن تاريخ الهند ،

مادة ملائمة لتطبيق نظريات هلفسيوس والتدليل على صحتها . وتنبئنا سيرة جون استيوارت الذاتية ، وهى كتاب من أمتع ما كتب ، بنتيجة هذا ، كما تكشف لنا عرضا عن شخصية والده جيمس مل .

وما من شك فى أن جلد جيمس مل على العمل كان عجيبا . فقد كان يقضى يومه كله جالسا الى مكتبه يؤلف كتابه فى تاريخ الهند ، بينما يجلس ابنه جون فى نفس الغرفة يستذكر دروسه مع حقه فى أن يطلب ايضاحات كلما دعت الحاجة . وقد تولى والد جون تعليمه ، وهو يذكر لنا أنه بدأ اليونانية فى الثالثة من عمره « أحفظ عن ظهر قلب ما كان والدى يسميه (المنطوقات) وهى قوائم من الالفاظ اليونانية الشائعة ومعانيها الانجليزيه ، كان يكتبها لى أبى على بطاقات » . ولم يبدأ اللاتينية حتى بلغ السابعة . وقد قرأ فى نفس السنة ستا من محاورات أفلاطون ، الا أنه لم يحسن فهم « ثياتيتوس » وبدأ يتعلم الحساب فى نفس الوقت ، وكذلك قدرا لا يتصوره العقل من التاريخ ، ويقول فى هذا : « وعندما وصلت الى الحرب الامريكية أخذت الجانب المخطىء كما يفعل الاطفال أمثالى (حتى ردنى أبى الى الصواب) وكان السبب فى ذلك أن الجانب المخطىء كان يسمى الجانب الانجليزى » . أما فيمايتعلق بالتسلية فقد كان لديه كتب مثل « رحلات نسون » : « ولم يكن لدى شيء يذكر من كتب الاطفال - أو من أدوات اللعب - الا ما كان يصلنى من هدايا بين الفينة والفينة من أحد الاقارب أو المعارف . وكان كتاب «روبنسن كروزو» من أهم هذه الكتب وظلت قراءته متعة لى طوال حداثتى . ومع ذلك لم يكن استبعاد كتب التسلية جزءا من برنامج والدى على الرغم من أنه لم يكن يسمح بها الا بقدر ضئيل جدا .

وبعد الثامنة صار من واجب جون ، الى جانب الدراسة ، أن يعلم اخوته واخواته الصغار وكانوا كثيرين . وقد شغلت دراسة الالياذة والأوديسة ومسرحيات اسخيلوس وسوفوكليس ويوربيديس وكل المؤلفين اللاتينيين الكبار وقدر كبير من التاريخ ودراسة مفصلة لنظام الحكم الرومانى ، والقيام بواجبه فى تعليم أفراد الاسرة الصغار معظم وقته ، فلم يجد متسعا من الوقت لدراسة الشيء الكثير ! ويبدوأنه لم يتقن شيئا غيرهذه قبل سن الثانية عشرة سوى الجبر والهندسة وحساب التفاصيل وأفرع أخرى مختلفة من الرياضيات العليا !!

وليس من حقنا أن نفترض أن جون لم تكن له فى الحياة متع ومسرات . فهو يقول : « كانت العلوم التجريبية من أكبر دواعى تسليتى خلال هذه الفترة من طفولتى ، من الناحية النظرية لا العملية ، فلم أكن أجرى التجارب ، الأمر الذى أسفت كثيرا لانى لم أفعله ، بل ولم أكن أشهد هذه التجارب ، ولكننى كنت أقرأ عنها » .

وبدأ جون فى دراسة المنطق عندما بلغ الثانية عشرة ، فقد قرأكل ماكتبه ارسططاليس عن هذا الموضوع وكذلك ماكتبه بعض المدرسيين وهوبز • وكان يقضى أوقات نزهته مع والده يسيران فى طريق باجشوت هيث وهو يستمع الى والده يلقنه أنه ينبغى ألا يعتقد أن المنطق القياسى شيء سخيف ، ويعلمه كيف يبسط الحجج ويضعها فى الصورة القياسية الصحيحة •

وكان قد أشرف على نهاية الثالثة عشرة من عمره عندما التحق والده بخدمة شركة الهند الشرقية ، الا أن تعليمه استمر كما كان ، وقد علمه والده فى هذه السنة بالذات كل الاقتصاد السياسى •

وعندما بلغ الصبى الرابعة عشرة رؤى أنه قد بلغ المرحلة التى يجب عندها أن يرى شيئا من العالم ، وأرسل فى رحلة الى خارج انجلترا مدتها عام • وقد زوده والده عندما غادر منزل الاسرة ببعض النصائح القيمة مثلمافعل بولونيوس فى مناسبة كهذه ، ولم تدون هذه النصائح بألفاظها ، ولكن يبدو أنها كانت بوجه عام على النحو التالى :

« ياجون - لقد ظللت حتى هذه اللحظة أحرص على أن أخفى عنك الى أى حد تمتاز مقدرتك الفكرية وما حصلته فى دراستك عن مثيلاتهما عند معظم الاولاد الذين فى سنك • وذلك لعلمى أن مغالاة الانسان فى تقدير كفاياته من أكبر العيوب • أما الآن وأنت بسبيل قضاء عام فى رحلة خارج البلاد ، وهو ما قررت أنه سيكون سعيا وراء مصلحتك ، فانك لا بد مدرك هذه الحقيقة عن طريق غيرى اذا لم أخبرك أنا بها ، بل لعل بعض الناس يجاملك دون تفكير ويوحى الى عقلك بالاعتقاد الخاطىء بأنك تتمتع بمواهب غير عادية • والواقع أن أية معرفة لديك تزيد على ما يعرفه غيرك لا يمكن أن تعزى الى أية ميزة خاصة لديك، بل الى حسن حظك النادر فى أن لك أبا قادرا على تعليمك ومستعدا لان يبذل الجهد ويوفر الوقت اللازمين لذلك • واذا كنت تعرف أكثر مما يعرفه الصبية الاقل منك حظا ، فليس هذا مما يدعو الى الفخر ، ولو أن هذا لم يكن شأنك لكان عارا عليك » •

وكان جيمس مل من أعداء المسيحية المتحمسين ، وكان يقول ان الاله كما يصفه الدين ، ان كان موجودا ، كان كائنا قاسيا لا حد لقسوته • ومع ذلك يبدو أنه فى علاقته بابنه لم يستطع التخلى عن بعض الصفات الالهية التى كان يستنكرها • فقد كان جون حين ينتقد والده ، على كره منه ، يقول انه لم يظهر كثيرا من العطف على أطفاله • ولكنه يبادر فيضيف انه يعتقد أن والده كان « يحس » نحوهم بحنان ولكنه يخفيه بسبب تحفظه واستهجانه اظهار العواطف ، غير أن القارىء لا يسعه الا أن يرتاب فى هذا القول • ويعترف جون بأنه لم يكن يشعر بالحب نحو أبيه لأن « الخوف منه كان يقضى على الحب فى منابته » • ويضيف أن هذا لا بد كان سببا فى حزن والده ، وأن اخوته

الصغار الذين أشرف جون على تربيتهم دون والده ، كانوا يحبون أباهم من صميم قلوبهم ، وانه ليساورنى الشك فى ذلك أيضا .

وكان جون يجد خلال سنى حياته التالية ، أسبابا تجعله يختلف دائما مع أبيه ، الا أنه كان يتردد فى اتخاذ خطوة تجعل الخلاف يصبح أمرا واقعا . ويبدو شبح أبيه فى كتاباته يحذره كلما راوده اغراء بالاحساس العاطفى وكأنه يقول له : « .. اياك والضعف » . لقد كان جيمس مل رجلا صالحا ، كان يعمل كثيرا وقد كرس نفســـه لتحقيق الاغراض العامة . الا انه ماكان يجب أن يترك مطلق السراح بين أطفال .

وان وصف جون لنظرة والده فى الحياة لممتعة ، خاصـــة وأن جيمس مل يمثل المدرسة البنتامية من هذه الناحية أكثر من اى فرد آخر :

« كان فى نظرته للحياة مزيجا من نظرة الرواقى والابيقورى والكلبى ، لا بالمعنى الحديث للكلمة ولكن بمعناها القـــديم . وكانت الرواقية تغلب على صفاته الشخصية ، أما فى مقياسه للاخلاق فكان أبيقوريا بقـدر ماكان فى هذا المقياس من نزعة نفعية ، فقد كان يرى أن الفيصل الوحيـد بين الخطـــأ والصواب اتجاه الفعل نحو انتاج اللذة أو الالم . الا أنه قلما كان يؤمن (وهذا هو العنصر الكلبى من شـــخصيته) باللذة ، أو أن ذلك كان على الاقل فى أخريات أيامه ، وهى الفترة الوحيدة التى أستطيع التحدث عنها بثقة من هذه الناحية . ولم يكن احساسه باللذة معدوما ، ولكنه كان يعتقد أن القليل من ملذات الحياة هو الذى يستأهل الثمن الذى لابد أن يدفع فيها ، فى الحالة الراهنة للمجتمع على الاقل . وهو يعزو الجزء الاكبر من الفشل فى الحياة الى التغالى فى تقدير اللذة . ومن ثم كان الاعتدال ، بأوسع معانيه عند الفلاسفة اليونانيين – وهو الاعتدال الذى يقف عند حد التوسط فى جميع ألوان مجاراة النفس – كان هذا الاعتـــدال بالنسبة له ، كما كان بالنسبة لهم ، الدعامة الاساسية التى تقوم عليها التربية ، أو يكاد يكون ذلك . وان قدرا كبيرا من ذكريات طفولتى لتشغله محاولاته أن يلقننى هـــذه الفضيلة . وكان يعتقد أن الحياة البشرية فى أحسن حالاتها من أتفه الاشياء بعد أن تولى نضرة الشـــباب وينتهى الظمأ المعرفة الذى لا يطفأ غليله . ولم يكن كثير الحديث عن هـــذا الموضوع وخاصة فى حضرة صغار السن كما يمكن أن نتصور . فاذا ما تحدث عنه كان حديث الشخص الواثق المقتنع أشد الاقتناع . وكان يقول أحيانا أنه اذا أخذت الحياة الصورة التى يمكن أن تكونها عن طريق الحكم الصالح والتعليم الصحيح كانت جديرة بأن يحياها الانسان . ولم يغير رأيه البتة فى أن المتع الفكرية تسمو على كل المتع الاخرى ، حتى بأعتبارها مسرات فى ذاتها بصرف النظر عن الفوائد الاخرى التى تحققها . وكان يضع لذة التعاطف الخير فى رأس القائمة ، كما كان يقول أنه لم يعرف فى حياته رجلا مسنا سـعيدا الا

ذلك الذى استطاع أن يعيش ثانية فى مسرات الشباب • وكان يبدى أكبر ازدراء نحو العواطف المتأججة أيا كان نوعها ونحو كل ما قيل أو كتب فى الاشادة بها • فقد كان يعتبرها ضربا من الجنون ، وكانت عبارة « العاطفة المشبوبة » عنده صيغة أخرى للتعبير عن الاستهجان والاستخفاف • ويرى أن الاهتمام الكثير بالعواطف انحراف فى القيم الاخلاقيـــة فى العصر الحديث اذا قورن بالعصور القديمة » •

لقد كان الاقتناع الفكرى بأن اللذة هى الخير الاوحد ، مع عدم القدرة على ممارستها من الناحية المزاجية ، هو الصفة المميزة لاصحاب مذهب النفعية • وكان فقرهم العاطفى ميزة لهم فيما يتعلق بحساب اللذة والالم • فقد كانوا يميلون الى الاعتقاد بأن اللذة يمكن أن تقاس برصيد الانسان فى المصرف كما يقاس الالم بالغرامات التى يدفعها المرء أو المدد التى يقضيها فى السجن ، وأن الاخلاص الرواقى المبرأ من الانانيـة للمذهب القـائل بأن كل انســـان انما يسعى لتحقيق لذته أمر غريب متناقض من الناحية الســيكلوجية • وكان لينين وأكثر أتباعه اخلاصا يتصفون بشىء لا يختلف عن هـذا كثيرا • فيبدو أن لينين كان يعتقد أن الخير هو وفرة العروض المادية للجميع ، وكان يستخف كثيرا بالدعوة الى « الايثار » ويؤمن ايمانا راسخا — لا يقل عن ايمان البنتاميين — بأن المصلحة الاقتصادية الشخصية هى التى تتحكم فى نشـاط الناس الاقتصادى • وقد تحمل فى سبيل هذا المبدأ الاضطهاد والنفى والفقر • وعندما علا نجمه وصار على رأس دولة كبيرة عاش عيشة أسبارطية متقشفة بسيطة ، ودفعه حبه الشديد للرفاهية المادية الى اغراق بلاده فى فقر مدقع سنين طويلة • ان البنتاميين لم يطلب اليهم مثل هذا العمل البطولى ، ولـكن عقلياتهم كانت قريبة الشبه من ذلك الى حد كبير •

وكان جيمس مل ديموقراطيا ، ولم يكن ذلك لانه كان يحس بأنه مهـــان معتدى عليه (ومنذا الذى يجرؤ أن يعتدى على رجل مثله) ؛ ولا لدافـع من تعاطف كريم ، وهو الذى لم تنعم عليه الطبيعة بقدر كبـــير منه • بل كان ديموقراطيا ، بقدر ما نستطيع أن نحـكم عليـــه ، عن طريق التطبيق العقلى لحساب اللذة • فاذا كان لديك شلن وأردت أن توزعه على اثنى عشر طفلا فانك تحقق أكبر قدر من الســعادة — اذا تساوت الظروف — بأن تعطى كلا منهم بنسا • واذا أعطيت الشلن لاحدهم ولم تعط الباقين شيئا فان الاول سيصاب بالتخمة من كثرة الحلاوى التى سيأكلها ، ويعصف الغضب بالاحد عشر طفلا الآخرين بسبب الغيرة • ويعتبر ذلك ، الى الحد الذى يذهب اليه ، حجة الى جانب الشيوعية ، الا أن الشيوعية كانت موضع اعتراض شديد من جميع البنتاميين لانهم كانوا يعتبرون المنافسة دافعا لابد منه للنشاط • ولم يكن هناك حجة مماثلة لهذه يمكن تطبيقها على توزيع السلطة السياسية • اذ أن الانانية التى تحكم تصرفات جميع الناس لتجعل من غير المستطاع أن يعهد الى شخص ما رعاية مصالح شخص آخر بحيث يكون صاحبها آمنا عليها ، وعلى هذا الاساس

فان أية طبقة تحرم من السلطة السياسية لابد أن تتعرض للظلم • يضاف الى هذا أنه اذا كانت المنافسة حافزا للنشاط النافع فيجب أن يتعرض لها الجميع وأن تلغى الامتيازات غير العادلة • هذه وأمثالها هى الحجج التى يستطيع بنتام أن يفهمها • وهذه هي الاسباب ، بالاضافة الى فشل مشروع « آلبانوبتيكون » ، التى جعلته يهجر حزب المحافظين ويصبح ديموقراطيا •

وكان أصحاب مذهب النفعية رجالا يعتمدون فى أحكامهم على العقل وحده الى حد غير عادى ، وكانوا يؤمنون ايمانا راسخا بأن غالبية الجنس البشرى يعقلون • وفى ذلك يقول مل : « ان كل شخص لديه عقل متعود على أن يزن البراهين ويدع أرجحها يقوده ويحدد أحكامه • وعندما تعرض عليه المسائل مع براهينها بنفس العناية والمهارة ، فانه مما لا ريب فيه — على الرغم من أن قلة قد تخطىء الحكم — أن تصدر الغالبية حكما صحيحا ، وأن أقوى البراهين — أينما وجدت — ستترك أبلغ الاثر » • ان فى هذا الاعتراف بالايمان براءة سعيدة ، وهو ينتمى الى عصر ما قبل فرويد ، وقبل نمو فن الدعاية • ومن الغريب حقا أن الاحداث التى جرت فى عهد مل قد بررت ثقته • فان البنتاميين ، وهم رجال علم ومؤلفو كتب صعبة ، لم يكونوا يهدفون الا الى مخاطبة عقول الناس ، ومع ذلك فقد أصابوا نجاحا ، وقد ظلت السياسه البريطانية حتى سنة ١٨٧٤ تسير فى كل المسائل المهمة على نفس الاسس التى كانوا يدعون اليها • ولم يدهش أحد فى العصر الفكتورى لهذا الانتصار الذى حققه العقل • ولكنه يبدو فى عصرنا المجنون خرافة من خرافات أحد العصور الذهبية •

وما كاد بنتام يقتنع بحجج الديموقراطية حتى أصبح ديموقراطيا أكثر من أى من أتباع مدرسته • فكان يرى أن الملكية ومجلس اللوردات نظامين غير مرغوب فيهما ، وان لم يجد من يجرؤ على أن يتفق معه علنا فى هذا الرأى • كما أنه لم يستطع أن يأتى بأية حجة ضد منح النساء حق التصويت ، بل لقد فعل ما يناقض هذا فتقدم بعدة حجج قوية تؤيد منحهن هذا الحق وان لم ينته الى رأى محدد فى هذا الشأن كتابة • ولكن يبدو أن رأيه الخاص كان فى جانب منحهن هذا الحق أكثر منه فى معارضته ، اذ يقول جون ستيوارت مل وهو يعرض آراء الشبان الذين كانوا متأثرين ببنتام : « ان كل سبب من الاسباب التى تؤيد منح حق الانتخاب لاى انسان ، يلزمنا بألا نحرم النساء من هذا الحق • وكان هذا هو الرأى السائد أيضا بين من اعتنقوا المبدأ الجديد من الشبان ، ومما يسرنى أن أستطيع القول بأن مستر بنتام كان يؤيدنا تأييدا تاما فى هذه النقطة المهمة » • الا أن هذا الرأى ظل لدى مستر بنتام فكرة نظرية علمية ، وكان من نصيب جون ستيوارت مل أن يتولى هو فيما بعد توجيه انتباه البرلمان الى هذه المشكلة باعتبارها مشكلة ذات أهمية عملية •

ولجيمس مل أهمية مزدوجة فى الحركة البنتامية • فهو أولا قد شكل ابنه

جون كما شكل هملكار ابنه هانيبال . ولم يكن جون ، بشخصيته الطريفة الطيبة ، مؤهلا بالطبيعة لهذا المذهب الجاف — مذهب الراديكاليين الفلسفيين، والحق أنه خفف فيما بعد من حدة المذهب فى عـدة نواح . الا أنه ظل محتفظا بايمانه بأن تعاليم والده كانت فى جوهرها سليمة ، وقد منحه ذلك تأثيرا أكبر مما كان يصيبه لو أنه اضطر للاعتماد على ثقته بنفسه .

ووجه الاهمية الثانى لجيمس مل أنه استطاع ، بما له من قدرة على أن يجمع حوله الاتباع ، أن يجمع عددا من الرجال النابهين المتفوقين فى مدرسة واحدة ، ومن ثم زاد فى نفوذهم الجماعى زيادة ضخمة . لقـــد كان معظم الراديكاليين يرتابون فى نظرية مالتس ، ولكن جيمس مل قبلها ووجهها اتجاها جديدا . فهو وصديقه فرانس بليس ، الحائك الراديكالى ، لم يكونا متأثرين بوساوس مالتس الدينية ، ومن ثم استخلصا من مذهبه الاقتصـــادى أن موانع الحمل الصناعية مرغوب فيها . وبدءا المذهب الذى عرف باسم « المالتسية الحديثة » ومنهما انتشر المذهب فى تؤدة بالرغم من الاضطهاد حتى استطاع أن يضع فى عصرنا حدا لزيادة السكان فى أكثر البلاد مدنية .

وقد تعرف بليس ببنتام فى سنة ١٨١٢ عن طريق جيمس مل ، وهـكذا احتك بنتام بطبقة اجتماعية وبنوع من الساسة قلما كان له عهد بهما من قبل. وكان بليس يعامل بنتام باحترام مشوب بالحب فـكان يخاطبه فى رســائله بقوله : « والدى الكبير العزيز » . أما عن رسائل بنتام الى بليس فان احداها، وهى التى جاءت فى كتاب جراهام والاس « حياة فرانسس بليس » قد تصلح نموذجا . وهى تتعلق بالاحتياطات التى كان بنتام يتخذها لاخفـــاء عدائه للمسيحية وايمانه بالمالتسية الحديثة (وربما كان ذلك بتأثير بليس نفسه) . وكلمة Juggical (عابد الاله الهندى المقدس) التى جاءت فى الرسالة تعنى المسيحى . واللفظ مشتق من كلمة Juggernant (بفرنوط) (×) الذى كان يستعمل لديهم بمعنى المسيحية ، حتى يمكن الحديث فى الموضوع أمام الخدم دون التعرض للفضيحة . ونص الرسالة كما يلى :

ولدى الطيب العزيز

لقد حددت لك موعدا ، وعليك أن تحافظ عليه مهما كان الامر ، أو أن تحدد غيره . والمقصود منه أن تقابل برنيتس وتسمع منه أسقفه لانه قال عنك انك « رجـل جرىء شرير » (الموعد هـو السـاعة الواحـدة من يوم الثـــلاثاء وهو بداية نزهتى اليومية) . وقد قلت له انك غلام جرىء ولكنى أنكرت أنك شرير بناء على معرفتى بك معرفة وثيقة قرابة عشرين عاما . وسألته : لماذا

(×) ضرب من العبادة يتطلب التضحية العمياء من العابد بنفســه فى ســبيل المعبود ، ويستعمل اللفظ أيضا بمعنى اية قوة جبارة لا تقاوم تسير فى سبيلها ، وتحطم كل من يعترضها واللفظة هندية

يقول عنك انك شرير ، فكان جوابه أنه يقول ذلك بسبب الجهود التى تبذلها لنشر طريقتك فى مكافحة الزيادة فى السكان ٠ (كان يجب أن أقول - لايقاف الزيادة فى السكان) ٠ والمسألة أنه مسيحى من أتباع كالفن وسليل جدين من رجال الدين المعروفين ذوى السمعة السيئة ٠ وقد قلت له ان كل انسان يتحكم فى تصرفاته ولكن ليس هناك من يتحكم فى آرائه ، وانك ، فيمايتعلق بالموضوع الذى نتحدث عنه ، لست مختلفا معه فى الرأى اكثر من اختلافه معك ، وأنه لو تشاجر كل انسان مع كل شخص آخر لايتفق معه فىوجهة النظر فى نقطة من النقط فان الارض ستستريح قريبا من حملها البشرى ٠ وقد حرصتعلىألا يعرفرأيى فىالمسألة التى هىموضع النقاشوالا ضاعكل ما نهدف اليه ، هذا الا اذا استطعت أن أحمله على تغيير رأيه ، ولم يكنهناك متسع من الوقت لذلك ، وكل ما فهمه منى فيما يتعلق بمشاعرى الدينية أنى أؤيد التسامح بين الجميع ، وقد استشهدت على هذا الرأى بآيات من الكتاب المقدس فى مناسبة أو مناسبتين ٠٠٠ »

وقد جمع جيمس مل بين بنتام ومالتس وريكاردو وراديكالية الطبقة المتوسطة الدنيا التى يمثلها فرانسس بليس ، الذى كان بدوره على صلة وثيقة براديكالية الطبقة العليا الممثلة فى سير فرانسس بوردت ٠ وقد منحت تعاليم هارتلى وهلفسيوس ، ومعها بعض أجزاء من تعاليم هيوم مما يصلح لأن يكون جزءا من معتقد مذهبى ، فورة الجماهير فى انتخابات وستمنستر الاحترام الفكرى الذى ينشأ عندما يكون هناك أساس فلسفى لعقيدة ما ٠ وكان جيمس مل فى كل هذا يقوم بدور الملاط الذى يضم الاحجار المنفرقة ليقيم منها صرحا ٠ وكان الصرح غريبا يضم موادا ما كان أحد يتوقع أن يراها منضمة بعضها الى بعض ٠ ان معظم الحركات (الراديكالية) كان مبعثها أما الشعور بالعطف على المظلومين أو الحقد على الظالمين ٠ أما راديكالية جيمس مل فلم يكن أحد السببين بارزا فيها ٠ ولا ريب أنه كان يشعر بحب للخير العام ، يظهر مثلا فى مقاومته لكل ما اعتقد أن فيه قسوة من الدين التقليدى ٠ غير أن هذه العاطفة لم تكن عميقة ، وكانت خليقة بأن تزول أمام أية عاطفة أقوى منها لو أنها كانت لدىشخصأعمق منه شعورا ٠ انحبالخيرعند جيمس مل كان يقوم مقام الحافز العاطفى ، الا أنه ظل فى مكانة ثانوية ولم يستطع فى أية حالمن الحالات أن يتغلبعلىالعقل ٠ ولميكن يلقى أيةصعوبةفى قبول الآراء القائلة ان الآلام لامفر منها ٠ وكانت هذه الآراء مصدر قوة حيث كانت سليمة ، أما اذا كانت غير سليمة فقد كانت مصدر ضعف ٠ وقد تميزت البنتامية بهذا الضعف وهذه القوة طوال تاريخها ٠

٤ ـ ريكاردو

الفصل الحادي عشر

ريكاردو

يختلف ريكاردو عن جيمس مل فى أن أهميته ترجع الى مذهبه وحده لا الى شخصيته • وقد كان باجماع الآراء رجلا محبوبا ، ويذكره جون ستيوارت مل مرارا بعبارة « أعز أصدقاء والدى » ، ويقول أنه « كان محبوبا من الشبان لبشاشة وجهه وأخلاقه السمحة » • ودخل ريكاردو البرلمان سنة ١٨١٨ وكان المجلس يستمع اليه باحترام ، ولكن تأثيره يرجع الى أنه كان من الكتاب • وقد نشر أهم كتبه « مبادىء الاقتصاد السياسى والضرائب » سنة ١٨١٧ • ونستطيع أن نقول أن هذا الكتاب صار شريعة الاقتصاد الصحيح ، غير أنه قد اتضح أن الشيطان يستطيع أن يستشهد بالكتاب المقدس : فقد استمد كل من الاشتراكيين ودعاة الضريبة المفردة حججهم من نظريته فى الريع • كما أنه أوضح بصورة أعم ، وبطريقة عرضية خلال مناقشته توزيع الثروة بين طبقات المجتمع ، أن للطبقات المختلفة مصالحا متباينة • وقد استمد ماركس كثيرا من كتاباته من ريكاردو • ومن ثم كانت له أهمية مزدوجة فهو الاصل الذى قام عليه الاقتصاد الرسمى ، وهو أيضا المصدر الذى انبثقت منه البدع الجديدة وان لم يكن يقصد ذلك •

ونظرية ريكاردو فى الريع بسيطة وصحيحة كل الصحة فى الظروف المناسبة • ولنقتصر فى بحثها على الاراضى الزراعية أولا فنقول • أن بعض الاراضى أخصب من غيرها وبعضها أقل خصوبة ، ولا بد فى كل وقت من وجود أراضى على الحد الادنى من الانتاج لا يزيد ريعها على نفقاتها • أى أنها لا تغل للفلاح ربحا على رأسماله مساويا للربح الذى يغله هذا المال اذا استغل بطريقة أخرى . فاذا طلب المالك ريعا لهذه الارض ، فان الفلاح لا يجد أنها خليقة بأن يزرعها ، ومن ثم فان هذه الارض لا تدر ريعا لمالكها • أما الارض الاكثر خصوبة فهى على العكس من ذلك تغل ربحا لقدر معين من رأس المال أكثر من الربح المعتاد ، ومن ثم فان زارعها يكون مستعدا لان يؤدى للمالك قدرا من المال مقابل الحق فى زراعتها • انه على استعداد لان يدفع من نتاج الارض ما يزيد على ما تغله أقل الاراضى المزروعة انتاجا • ومن ثم يكون ريع الفدان من الارض هو القدر الذى يزيد به المحصول الذى ينتجه على قيمة المحصول الذى ينتجه فدان من أسوأ الاراضى المنزرعة •

وما ينطبق على الاراضى الزراعية ينطبق على كل أنواع الاراضى • فقطعة من الارض فى وسط مدينة كبيرة تصلح لاغراض مثل المكاتب والحوانيت يمكن أن تغل ربحا هائلا • وجزء من هذا الربح هو فائدة رأس المال المستغل فى صورة مبان وما اليها ، وجزء آخر هو ربح التجارة أو العمل ، ولكن يظل هناك جزء آخر يذهب الى المالك فى صورة ريع للارض • وأى ظرف يطرأ يزيد فى حجم المدينة • ومن ثم يزيد فى الدخل الناتج من الحانوت أو المكتب القائم فى وسطها ، يرفع الريع الذى يستطيع المالك اقتضاءه مقابل حق استعمال المكان • وينبغي أن يكون مفهوما بطبيعة الحال أن النظرية خاصة بريع الارض وحدها ، لا بالجزء الذى يتعلق بقيمة المبانى المقامة فوقها •

وكان لنظرية ريكاردو أهمية عملية كبرى فى ظروف انجلترا وقت أن كان قانون الحنطة معمولا به • ذلك أنه لو كان فى الاستطاعة استيراد الحنطة لتركت أقل الاراضى خصوبة فى انجلترا بلا زراعة • ومن ثم يقل الفرق بين أحسن الاراضى المزروعة وأسوئها وتهبط الايجارات . وكان هذا كله واضحا لاصحاب الاراضى الذين كانوا يسيطرون على البرلمان •

غير أنه كانت هناك نتائج أخرى متصلة بالحجج التى ساقها آدم سميث دفاعا عن حرية التجارة • فلو أن استيراد الغلال تم نتيجة لالغاء ضريبة الاستيراد ، لتحول رأس المال المستغل فى زراعة أسوأ الاراضى الى الصناعة حيث يستغل فى انتاج المصنوعات التى تصدر ويدفع ثمنها فى الغلال المستوردة • وهذا الاستغلال الجديد لرأس المال سيكون بالضرورة أكثر ربحا من القديم ، والا لما كان ثمة ربح من استيراد الغلال بدلا من انتاجها محليا • ومن ثم تحدث زيادة فى الثروة القومية يصحبها انخفاض فى ريع الارض : سيكون هناك قدر أكبر من الثروة يوزع بين السكان ، ومن هذا القدر الزائد تصيب الطبقات الصناعية نصيبا أكبر • وقد استهوت هذه الحجج السليمة التى لا ريب فى صحتها رجال الصناعة ولكنها لم ترق لملاك الاراضى . ولم يستطع دعاة حرية التجارة السيطرة على البرلمان الا بعد أن صدر « قانون الاصلاح » الذى نقل النفوذ السياسى الى الطبقة الوسطى • وعندما أقر قانون حرية التجارة فى الحنطة سنة ١٨٤٦ ، تبين أن نتائجه جاءت مطابقة لما تنبأ به الاقتصاديون •

ان نظرية ريكاردو فى الايجار تعكس بدقة صورة النزاع بين رجال الصناعة من الطبقة الوسطى وبين ملاك الاراضى من الطبقة العليا ، ذلك النزاع الذى سيطر على السياسة الانجليزية من سنة ١٨١٥ حتى سنة ١٨٤٦ • غير أنه كان فى الاستطاعة تطبيق النظرية بصورة أكثر تطرفا بكثير مما تخيل ريكاردو أو رجال الصناعة فى مانشستر • ذلك أن هؤلاء الرجال كانوا أثرياء ، ولكنهم كانوا يتوقون الى المزيد من الثراء • لقد كانوا الاثرياء العاملين ، ولم يقبلوا أن يكونوا فى مركز أدنى من الاثرياء الخاملين • الا أنهم لم يكونوا بأى حال ثوريين ،

فقد كانوا يريدون أن يبقى العالم مكانا يستطيع فيه المرء أن يتمتع بثروته . هذا الى أنهم كانوا يحسون بعدم ثقة عميقة الجذور نحو الدولة ، ولا ريب فى أن ذلك راجع الى أنهم لم يكونوا مسيطرين عليها • ولهذه الاسباب لم يتقدموا من ريكاردو الى هنرى جورج ونظرية الضريبة المفردة • ومع ذلك فان هذا يكون نتيجة منطقية الى أبعد حدود المنطق •

ذلك أن الريع الاقتصادى لا يدفع للمالك لقاء أية خدمة يقوم بها ، انه يدفع له نظير الاذن بانتاج الثروة على أرضه لا لسبب آخر • فهو يثرى من عمل غيره دون أن يحرك ساكنا ، ووظيفته الاقتصادية تنحصر فى أنه يتلقى الريع دون أن يضيف شيئا الى الثروة القومية • وليس من الصعوبة بمكان كبير أن يستنبط من ذلك أن الملكية الخاصة فى الارض يجب الغاؤها وأن يدفع الريع للدولة • بيد أن هذا الاستنباط لم يقم به ريكاردو بل أنه لم يفكر فيه •

وكانت نظرية ريكاردو فى القيمة أقل سلامة من نظريته فى الايجار • الا أنها كانت مع ذلك أبعد أثرا • ومسألة القيمة تظهر فى الاقتصاد على الوجه التالى : افترض أن لديك جنيها تريد أن تنفقه ، فانك تستطيع أن تحصل مقابله على كمية معينة من القمح أو الجعة أو الطباق أو الدبابيس أو الكتب أو غيرها من السلع • فاذا كان عدد معين من الدبابيس وكمية معينة من القمح كل منهما يكلف جنيها ، فان « قيمتها » تكون متساويه • فما الذى يحدد أن عددا بذاته من الدبابيس يساوى كمية معينة من القمح ؟ يجيب ريكاردو عن هذا السؤال بقوله : ان قيمتها تتساوى اذا كان انتاجها قد تطلب قدرا مساويا من العمل . ذلك أن قيمة أية سلعة تقاس بكمية العمل الذى يتطلبه صنعها •

وهذا المذهب سليم الى حد معين • فاذا كنت نجارا وكان عمل منضدة يتطلب منك ضعف الوقت الذى يتطلبه صنع كرسى ، فطبيعى أنك ستطلب فى صنع المنضدة ضعف ما تطلبه لصنع الكرسى ــ عدا ثمن الخشب • فالسلع المصنوعة المختلفة التى يصنعها رجال يتقاضون جميعا أجورا متساوية يكون ثمنها متناسبا مع كمية العمل التى اقتضاها صنعها ــ عدا ثمن المادة الاولية • ويمكن القول بأن نظرية ريكاردو فى القيمة صحيحة تقريبا فى ظل ظروف المنافسة الحرة ، عندما تعتمد قيمة السلعة أساسا على العمليات الصناعية التى تمر بها وهى المقابلة للخصوبة الطبيعية للارض •

الا أنه من السهل أن نرى أن النظرية لا يمكن أن تكون صحيحة من كل الوجوه ، ولو على الاقل لانها تتعارض مع نظرية ريكاردو نفسه فى الريع • ان أردبين من القمح متساويان فى القيمة اذا كانا من نوع واحد أيا كان مصدر انتاجهما ، ولكن أردبا من القمح من أرض جيدة يكلف عملا أقل من أردب مثله ينتج فى أرض ضعيفة • وهذا هو الاساس الذى تقوم عليه نظرية ريكاردو فى الريع ، وكان يجب أن ينبهه الى أن نظريته فى القيمة لا يمكن أن تكون

صحيحة • وهناك بطبيعة الحال أمثلة أكثر تطرفا من ذلك • ففى العهود الاولى عندما كان يكتشف حقل جديد للذهب ، كان يحدث أحيانا أن يلتقط رجل بمحض الصدفة قطعة من الذهب قد تصل قيمتها الى ١٠٠٠٠ جنيه • ان قيمة عمله فى هذه الحال بالمعدل العادى كانت تصل الى نصف جنيه ، ولكن الذهب الذى حصل عليه يساوى نفس القيمة التى تكون له لو أنه اضطر لان يعمل من أجل الحصول عليه •

ولست أحب أن أتعب القارىء بسرد دقائق نظرية القيمــة ، وحسبى أن أقول أن هذا الموضوع كانت له أهمية بالغة فى تطور الاشتراكية بحيث لا معدى عن مناقشته بعض المناقشة . ان نظرية ريكاردو صحيحة كل الصحة فى بعض الحالات ، خاطئة كل الخطأ فى حالات أخرى ، وهى فى الحالات العادية السائدة صحيحة الى حد ما وان كانت غير صحيحة كل الصحة • ويتوقف الامر على ما للاحتكار من شأن فى الحالة التى هى مدار البحث •

ولنأخذ أولا حالة لا يكاد يكون للاحتكار شأن فيها عدا ما يتصل بريع الارض مثل صناعة الاقمشة القطنية بالحالة التى كانت عليها فى عهد ريكاردو • وأكبر الظن أن هذا النوع من السلع هو ما كان يفكر فيه عندما وضع نظريته • لقد كان فى ذلك الوقت عدد كبير من أصحاب المصانع يتنافسون جميعا فيما بينهم منافسة شديدة ، وكان انتاج المادة الاولية يتم فى ظروف متماثلة تقريبــا ويبيعها زراعها فى ظل المنافسة • هذا ، وكان العمل الذى ينفق فى صنع الالات اللازمة بطبيعة الحال جزءا من العمل الذى يتطلبه صنع الاقمشــة ، وكذلك كان يوجد فى ذلك الوقت قدر كاف من الحديد يؤخذ من عدة مناجم ليس بينها أى اتحاد ، كما تكونت مع الوقت عدة مصانع لانتاج آلات النسيج وصحيح أنه هناك عنصر واحد من عناصر الاحتكار هو ما كان ينشأ عن حقوق الاختراع : وهذه تمثل نظريا القيمة الاحتكارية لمهارة المخترع . على أن ما كان يتقاضاه المخترعون مقابل حقوق اختراعهم لم يكن يمثل سوى جزء ضئيل جدا مما تتكلفه قطعة بذاتها من نسيج القطن • ولهذا يمكن القول بوجه عام أن ثمن قطعة القماش كان يتحدد بدقة الى حد كبير تبعا لكميــة العمل الذى يتطلبه انتاجها •

والآن لنبحث حالة تناقض الحالة السابقة كل التناقض • ولنفرض أنهــا صورة من صور ليوناردو مثلا • فالمفروض أن كمية العمل التى بذلت فيهــا ليست أكثر من كمية العمل التى تبذل فى صورة تافهة تباع بخمسة شلنات ، ومع ذلك فقد تساوى خمسين ألفا من الجنيات • وهذه الحالة تمثل الاحتكار بكل معانيه • وذلك أن العرض لا يمكن زيادته ومن ثم لا يعتمد الثمن الا على الطلب وحده . والارباح التى يجنيها أشخاص لديهم احتكار كامل أو جزئى تندرج تحت هذه الحالة ، وأنا حين أقول ذلك أفكر فى أشخاص مثل المغنيين أو الجراحين النابهين والمحامين ونجوم السينما ومن اليهم •

وتقع معظم الحالات فى الوسط بين هذين الطرفين النقيضين • فالمــواد الاولية لاية صناعة هى بصفة عامة اما زراعية أو معدنية • فاذا كانت زراعية عدل قانون الريع قانون ريكاردو فى القيمة كما رأينا : ان ما يحدد القيمة هو قيمة العمل فى أضعف الاراضى المنزرعة لا قيمته فى الاراضى المتوسطة • أما فى حالة المواد المعدنية فان نفس ما ذكرناه عن الانتاج الزراعى ينطبق عليهــا اذا كانت هنــاك عدة مصادر مستقلة لانتاجها • الا أنه كثيرا ما يحدث أن تكون هنــاك اتفاقات بين أصحاب مصادر المادة الاولية بحيث تتحدد قيمتها تبعا للقواعد التى تتحكم فى الاحتكارات . وقد أخذت الاحتــكارات الكاملة والجزئية تحل فى الفترة الاخيرة محل المنافسة • ونتج ذلك اما عن طريق انشاء الموثقات «*» ، واما عن طريق حقوق الاختراع ، أو عن طــريق ملكية المواد الاولية •

وعندما يكون هناك احتكار مصحوب بالقدرة على زيادة الانتاج ، فان عــلى المنتج أن يقرر هل الاربح له أن يوزع مقادير كبيرة بأسعار منخفضــة ، أو مقادير صغيرة بأسعار عالية • وواضح أن مبيعاته تقل بقدر ما يرفع من السعر وأن هناك سعرا يوفر له أكبر قدر ممكن من الربح • ولكن هذا لا علاقة له بتكاليف الانتاج باستثناء أنها تعين حدا أدنى لا يستطيع المنتج أن يبيع بأقل منه ويظل يكسب •

ومن ثم فان نظرية ريكاردو القائلة بأن القيمة تحددها كمية العمل التى تنفق فى انتاج السلعة نظرية بعيدة عن أن تكون صحيحة من كل الوجوه ، وقد أصبحت أقل صحة على مر الزمن بسبب ضعف المنافســة • وكان هو نفسه يدرك نواحى الضعف فى نظريته ، ولكن جيمس مل وماككولوخ تلقفاها بحماسة الحواريين ورفضا أن يعترفا حتى بالتحفظات التى رأى ريكاردو أنها ضرورية • وهكذا تقبل الاقتصاديون التقليديون النظرية بلا تحفظ تقريبا حتى ابتكر جفنز «Jevons» بعد ذلك بكثير نظرية أخرى أفضل منهــا وضعت « الطلب » فى المكان اللائق به من الاهمية •

وقد رحب المدافعون عن العمل بنظرية ريكاردو فى القيمـــة ، وكان من الطبيعى أن يرحبوا بها ، واستخدموها بطريقة لم تخطر له على بال • فقالوا اذا كانت القيمة الكلية للسلعة راجعة الى كمية العمل التى تنفق فى انتاجها ، فلماذا لا يدفع ثمن السلعة كله الى الاشخاص الذين قاموا بصنعها ؟ وبأى حق يستولى المالك وصاحب رأس المال على جــزء من الانتاج ما داموا لم يضيفوا شيئا الى قيمته ؟ واعتمد الاقتصاديون المتصلون بالحركات العمالية مثل توماس هود جسكين ووليم تومبسون على أقوال ريكاردو فذهبــوا الى أنه يجب ألا

(*) اتفاق عدة بيوت صناعية .

يحصل أحد على مال الا مقابل عمل ، والى أن للعامل الحق فى الحصول على كل ما ينتجه عمله . وأصبح هؤلاء الرجال ، كما سنرى فيما بعد ، ذوى نفوذ فى الحركة الاشتراكية المرتبطة بروبرت أوين . ثم أثروا فيما بعد فى ماركس الذى أقام حججه أيضا على نظرية ريكاردو فى القيمة . ولقـــد ضعف نفوذ ريكاردو بين الاقتصاديين التقليديين الى حد كبير وفى الوقت الحاضر ، الا أنه لا يزال باقيا فى اقتصاديات الماركسيين الذين ظلوا محتفظين فى هذه الناحية وفى نواح أخرى غيرها ، بوجهة نظر تمت الى أوائل القرن التاسع عشر .

٥ ـ مذهب بنتام

الفصل الثانى عشر

مذهب بنتام

نشأ من تعاليم مالتس وبنتام وريكاردو مجموعة من العقائد كونت مذهبا تقبله عدد متزايد من التقدميين من الطبقة المتوسطة والعمال – وان كانت بين الطبقة الثانية عدة مدارس منافسة كان لها أيضا نفوذ . وكانت الآراء التى تقبلها أتباع البنتامية أقل نضوجا من آراء زعمائها فى بعض النواحى ، ولكنها أكثر نضوجا فى نواح أخرى . وينبغى أن ننظر فيما صار اليه المذهب عند من قاموا بنشره بين الجماهير لان تأثيره فى التشريع انما جاء عن طريقهم .

وتنقسم وجهات نظر الراديكاليين الفلسفيين بطبيعتها الى ثلاثة أقسام رئيسية : اقتصادية وسياسية وأخلاقية ، وكانت وجهة نظرهم الاقتصادية أهم ما فى مذهبهم .

وكانت الآراء الاقتصادية لهذه المدرسة يسيطر عليها مالتس : كان من الامور التى لا بد منها الى أن يحين الوقت الذى يمكن فيه اقناع الطبقات العاملة بأن تمارس ضبط النسل على أساس أخلاقى ، أن تظل أجور العمال المهرة وفقا لمبدأ زيادة السكان عند حد الكفاف الذى يمكن الرجل من أن يعيش وينشىء أسرة . ويكفى ، حيث يعمل النساء والاطفال لقاء أجر ، أن يكون أجر الرجل بحيث يقوم بأوده وحده . وقد تمر بالعالم فى تاريخه أوقات ، عقب حرب مدمرة أو وباء جارف ، ترتفع فيها الاجور بصفة مؤقتة عن الحد الادنى للعيش ، ولكن النتيجة تكون انخفاضا فى معدل الوفيات بين الاطفال حتى يعود السكان الى مستواهم المنخفض السابق عن طريق زيادة عددهم . ومن ثم ، لم يكن هناك داع للمشروعات التى يقوم بها الاخيار ذوو المقاصد الطيبة ولا للتفريج عن الطبقات الفقيرة بواسطة قانون الفقراء . ومن أجل هذا كان العمال الذين حاولوا رفع الاجور عن طريق الاضرابات واتحادات العمال مضللين يسلكون غير الطريق الصحيح . وكذلك الشيوعيون الذين ينشدون المساواة الاقتصادية قد ينجحون فى الانخفاض بمستوى الاغنياء ولكنهم لن يستطيعوا تحسين حال الفقراء حيث أن الزيادة فى السكان ستهدم فى وقت قصير أى تحسين مؤقت لحالهم .

ولم يكن أمام الطبقات العاملة سوى أمل واحد لا غير ، هو أن يحكموا

عقولهم ويتعلموا السيطرة على غرائزهم التناسلية . وكان الراديكاليون الذين ينتمون الى الطبقة الوسطى ، باستثناء قلة منهم ، يدعونهم الى أن يفعلوا ذلك عن طريق ضبط النفس الاخلاقى . بينما كان بليس ، وهو من أكثرهم تحمسا لمالتس ، والذى ظل متأثرا بأصله العمالى ، يدعو الى استعمال وسائل أقل قسوة . وفى نفس الوقت اتخذت المدرسة كلها من مبادئها عذرا يعفيها من الاشتراك فى المجهودات الانسانية التى كانت تبذل للتخفيف من آلام الطبقات الاجيرة عن طريق ما كان يبدو لهم وسائل سطحية .

كذلك كان لابد من وضع أصحاب الاراضى ، وهم فى الطرف الآخر من السلم الاجتماعى ، فى وضعهم الصحيح . فقد وضحت نظرية ريكاردو فى الريع أن جميع الفوائد الناتجة من قوانين الغلال ستذهب آخر الأمر الى أصحاب الاراضى ، لان ارتفاع الايجار قد حرم الزراع من أى ربح كان من الممكن أن ينالوه لولا هذا الارتفاع . أما الأجراء فلم يصبهم كسب أو خسارة لانهم سيظلون على أى حال عند الحد الادنى للعيش . لكن أصحاب المصانع يخسرون ، لانهم يضطرون لرفع الاجور عندما ترتفع أسعار الخبز حتى يحولوا بين عمالهم والموت جوعا . ومن ثم يجب الغاء الضرائب على القمح المستورد لصالح أصحاب المصانع .

ويمثل الربح ما يبقى بعد دفع الايجار والاجور . ومن ثم كان السبيل الى زيادة الارباح هو خفض الربح والاجور . وتخفيض الاجور لا يمكن أن يتم الا عن طريق خفض أثمان الخبز ، أى باتباع مبدأ حرية التجارة فى الحبوب ، ويؤدى نفس الاجراء أيضا الى خفض الربح عن طريق الامتناع عن زراعة أسوأ الاراضى ، ومن ثم فان هذا الاجراء ذو فائدة مزدوجة للطبقة التى تعيش على الارباح لا على الايجار والاجور . وكان البنتاميون يمثلون هذه الطبقة ، وكانوا هم أول من اعتنق العقيدة الحديثة ، عقيدة التصنيع واستخدام الآلات .

وكانت العقيدة البنتامية من الناحية السياسية تتضمن ثلاث مسائل رئيسية : عدم التدخل «laissez faire» والديموقراطية والتعليم . وقد نشأ عدم التدخل بوصفه مبدأ اقتصاديا ، فى فرنسا فى ظل العهد القديم ، ولكنه اختفى خلال الثورة ، كما أن نابليون لم ير فيه ما يهمه . الا أن انجلترا فى سنة ١٨١٥ كانت تعيش فى نفس الظروف التى أدت الى ظهور هذا المبدأ فى فرنسا أيام لويس السادس عشر : فقد كان فيها طبقة وسطى نشطة ذكية تسيطر عليها سياسيا حكومة غبية . ولعله يمكن أن نتصور وجود اشكال نافعة من سيطرة الدولة ، ولكن الحكومة التى كانت قائمة وقتئذ كانت أقرب الى أن تتخذ أشكالا ضارة ، ومن ثم لم يطالب هؤلاء الرجال الجدد — وهم يحسون بأنهم يملكون سلطة جديدة وأنهم ينشئون عالما جديدا — الا أن يتركوا وشأنهم .

والى هنا يوجد الكثير مما يقال دفاعا عن الحرية فى التجارة والعمل ، ولكن مذهب عدم التدخل أصبح بعد ذلك مذهبا تعسفيا وبولغ فى تطبيقه بنطرف سخيف · فجريدة « الايكونوميست » ، وهى صحيفة كانت تمثل وجهة نظر البنتاميين ، اعترضت حتى على قانون الصحة العامة الذى صدر سنة ١٨٤٨ على أثر تحقيق أجرته لجنة وأظهرت فيه ماكان فى معظم المدن الكبيرة من حالة صحية بلغت من السوء حدا يرتاع له الانسان · وأعلنت أسفها لان القانون لا يلقى معارضة أشد عنفا أثناء عرضه أمام مجلس العموم ، وقال المحرر : « ان الألم والشر انذار من الطبيعة ولا يمكن التخلص منهما ، وان المحاولات الانسانية المتعجلة التى ترمى الى القضاء عليهما فى الدنيا عن طريق التشريع قبل أن يتحقق الغرض منهما ، نجم عنها دائما من الشر أكثر مما نجم عنها من الخير (١) » · ولكن البرلمان صمد أمام هذه الحجج التى تدعوه الى عدم انشاء نظام صالح للمجارى ، لان عدم وجودها أدى الى انتشار وباء شديد على مرمى حجر من مجلس العموم · وكذلك كان معظم الراديكاليين الفلسفيين يعارضون تشريعات المصانع حتى فى الحالات التى لم يكن فيها جدال مطلقا · وفى سنة ١٨٤٧ عندما أقر المجلسان القانون الذى يحرم عمل الاطفال أكثر من عشر ساعات يوميا فى مصانع القطن ، كانت العناوين فى جريدة الايكونوميست « اللوردات يتحالفون مع أعضاء مجلس العموم فى تحريم الصناعة » · وقالت الجريدة أن المبدأ الذى أقر على أساسه هذا القانون هو نفسه الذى قام عليه قانون الغلال ، وهما فى كلتا الحالتين تدخل لا مبرر له فى صالح طبقة واحدة (٢) ·

وقبلت غالبية المدرسة مع بعض القيود مبدأ الديموقراطية الذى كان يدعو اليه جيمس مل بكل قواه ، وكذلك بنتام فى الفترة الاخيرة من حياته · ذلك أن الملكية كانت لها مكانة خاصة عظيمة الاهمية فى تفكيرهم ، ومن أجل ذلك لم يرحبوا بمنح حق الانتخاب لأعداد كبيرة من الناس الذين لا يملكون شيئا · وكانوا جميعا يريدون شيئا أبعد أثرا من قانون الاصلاح الذى صدر عام ١٨٣٢ ، ولكن قل منهم من كانوا يطالبون بحق الانتخاب لجميع الرجال ، كما لم تكن بينهم سوى حفنة صغيرة ترغب فى منح هذا الحق للنساء · وأما الدعوة الى منح حق الانتخاب لجميع الرجال فقد قامت على أكتاف جماعة « العرائضيين (٣) » ، وهم من الطبقة العاملة ومن ثم كانوا أقل قدرا من البنتاميين · ومع ذلك فان البنتاميين كانوا يدعون دائما الى توسيع حق الانتخاب الى أقصى حد يتفق وظروف السياسة العملية ، ومن ثم لم يكن

---

(١) كلابهام ـ المجلد الاول ص ٥٤٥

(٢) كلابهام ـ المجلد الاول ص ٥٧٧

(٣) Chartists طائفة من المصلحين السياسيين فى انجلترا قامت بين عامى ١٨٣٧ ـ ١٨٤٨ تطلب بالاصلاح الاجتماعى وضمنوا مبادئها فى عرائض ·

أثرهم فى تقدم الديموقراطية أقل منه لو أنهم كانوا أكثر تطرفا فى مطالبهم .

وكان الايمان بالديموقراطية مرتبطا بالايمان بسيطرة التفكير المنطقى على عقول الناس ، بشرط أن يكونوا قد تلقوا قدرا من التعليم الذى يمكنهم من تتبع المناقشة . ويقول جون استيوارت مل عن أبيه أنه « كان يثق ثقة لا حد لها بقوة عاملين عظيمين هما : الحكم النيابى والحرية الكاملة فى المناقشة . ولقد بلغ من اعتماد أبى على تأثير التفكير المنطقى فى العقل البشرى، عندما يسمح بوصول هذا التفكير الى عقول الناس ، أن جعله يشعر بأن البلد ينال حتما كل ما يبتغيه اذا تعلم كل السكان القراءة واذا أمكن ايصال كل الآراء على اختلاف أنواعها اليهم بالقول وبالكتابة واستطاع السكان، عن طريق حق الانتخاب ، أن يختاروا المجلس التشريعى الذى ينفذ ما اقتنعوا به من آراء . وكان يعتقد أن المجلس التشريعى اذا لم يعد يمثل مصالح طبقة بذاتها فانه سيهدف الى الصالح العام بأمانة وبقدر كاف من الحكمة ، لان الناس فى هذه الحالة سيهتدون بهدى عقولهم وسيكونون آراءهم فى ظل قيادة مثقفة الى الحد الذى يكفى لان يجعلهم يحسنون اختيار ممثليهم ، حتى اذا فعلوا ذلك تركوا لمن يختاروهم حرية العمل فى حدود واسعة . ومن ثم كان الحكم الارستقراطى ، أى حكم القلة فى أية صورة من صوره ، والذى كان يراه الحائل الوحيد بين الجنس البشرى وبين سياسة أموره بأفضل ما يوجد فى الناس من حكمه ، كان هذا الحكم هدفا لاستنكاره الشديد . وكان حق الانتخاب الديموقراطى أهم نقطة فى عقيدته السياسية ، ولم يكن ذلك قائما على أساس من الحرية أو حقوق الانسان أو من العبارات الاخرى التى تنطوى تحتها معان ذات شأن قليل أو كثير ، وهى العبارات التى ظلت حتى ذلك الوقت الوسيلة المألوفة للدفاع عن الديموقراطية ، بل كان أساسه أن حق الانتخاب الديموقراطى هو أهم ضمان لا بد منه « للحكم الصالح » . ولم يكن فى ذلك أيضا متمسكا الا بما أعتقد أنها الأسس التى لا غنى عنها ، فلم يكن يهمه كثيرا صورة الحكم سواء كانت جمهورية أو ملكية ، وكان من هذه الناحية يفوق بنتام الذى كان يبدو له الملك فى شخصية (المفسد العام) شيئا وبيلا بالضرورة » .

« سينال البلد كل ما يبتغيه ، اذا تعلم السكان كلهم القراءة » . لقد كان جيمس مل يتصور العامل عائدا الى منزله مساء وهو يقرأ كتابات هيوم وهارتلى وبنتام ، ولم يتنبأ بنوع الكتب التى سيزود بها أناس تعلموا القراءة ولكنهم لم يتعلموا شيئا آخر . وما من شك فى أن نوع العامل الذى تصوره موجود فعلا ، ولكنه ليس العامل العادى ، وما كان أى شخص آخر أقل تقشفا من البنتاميين الأول ليتصور أن هذا النوع من العمال سيكون هو الغالب . وأيا كان الامر فانه من الطبيعى أن يشعر المرء بهذه الرغبة الجارفة فى نشر التعليم إذا كان هذا ما يتوقع حدوثه . وقد كان لجميع البنتاميين شأن كبير فى الحركات التى قامت فى ذلك العهد لتزويد الطبقات العاملة

بالمدارس • نعم ان التعليم الاجباري العام لم يقرر في انجلترا حتى سنة ١٨٧٠ ، الا أنه ما كان ليقرر وقتئذ الا بفضل الراديكاليين الفلسفيين •

وكانت معارضة التعليم العام في ذلك الوقت قوية بدرجة تدعو الى الدهشة ، حتى عند فئات لم تكن تلك المعارضة القوية متوقعة منها • ففي عام ١٨٠٧ تقدم «هويتبريد» بمشروع قانون يقضي بانشاء مدارس أولية في جميع أنحاء البلاد • ورفض المشروع في مجلس اللوردات بتأثير الحاج «ايرل الدون» وأسقف كنتربري • وهذا أمر طبيعي متوقع ، ولكن الذي يدعو الى الدهشة هو أن المشروع عورض بشدة من جانب رئيس « الجمعية الملكية» الذي قال : مهما يكن لمشروع تعليم الطبقات العاملة الفقيرة من مظهر براق من الوجهة النظرية ، فانه في الحقيقة سيكون سببا في الاضرار بهم من الناحية الخلقية وسينقص من سعادتهم ، ان تعليمهم سيؤدي بهم الى احتقار حظهم في الحياة بدلا من أن يجعلهم خداما صالحين في الزراعة وفي غيرها من الاعمال الشاقة التي قضى بها عليهم مركزهم في المجتمع ، وبدلا من أن يتعلموا الطاعة والخضوع سيصبحون مشاكسين متمردين ، كما اتضح في البلاد الصناعية ، وسيجعلهم قادرين على قراءة النشرات التي تدعو الى الشغب والفتنة والكتب البذيئة والمطبوعات التي تناهض المسيحية ، ان التعليم سيجعلهم وقحين في معاملة من هم أعلى منهم درجة ، وتكون النتيجة بعد سنوات قليلة أن تجد الهيئة التشريعية أن من الضروري استعمال الشدة معهم وأن يمد الموظفون التنفيذيون بقوانين أكثر شدة من تلك التي يعمل بها الآن » (×) •

ولكن على الرغم من هذه التحذيرات الخطيرة أخذ المنشقون في انشاء المدارس واضطرت الكنيسة الى أن تحذو حذوهم حتى لا تفقد سلطتها على الشبان • وكان البتناميون نشطين في هذه الحركة التي قام بها المنشقون •

ولعل القارىء يذكر أن الدكتور «فولليوث» كان يعترض في الفقرة التي جعلناها شعارا لهذا الجزء من الكتاب ، على كراسات علم توازن السوائل التي تباع بستة بنسات وجمعيات « الفكر البخاري » ، و « الصديق المثقف » • أما عن كراسات علم توازن السوائل فأنا أشك في وجودها ، ولكن « الصديق المثقف » كان بروجهام ، وجمعية « الفكر البخاري » كانت هي « جمعية نشر المعرفة المفيدة » ، التي كان رئيسها بروجهام ونائب رئيسها لورد جون رسل• واذا لم يكن بروجهام بنتاميا كاملا ، فانه كان وثيق الصلة بالبنتاميين ، وكان جيمس مل ، كما يقول وبنه جون « العبقرية الطيبة التي كانت الى جانب بروجهام في معظم ما فعله من أجل الجمهور في التعليم وفي اصلاح التشريع وفي أي موضوع آخر تناوله » • وقد قامت الجمعية المشار اليها بنشر قدر كبير

(×) « عامل المدينة » ـ تاليف هاموند (طبعة ١٩٣٢) ص ٥٧

من المعرفة المفيدة على الرغم من عداء دكتور فولليوت ورئيس الجمعية الملكية . ومع ذلك فلم ينته التحامل على التعليم العام الا بعد نضال شديد . وشاهد ذلك أنه عندما أنشأ جدى فى عام ١٨٥٣ مدرسة فى قرية بيترز هام (حيث كان يعيش) احتج سادة الجهة قائلين « انه قضى على الطابع الارستقراطى الذى كانت تنسم به الجيرة حتى الآن » . كلا . . ان هذا التحامل لم ينته حتى اليوم .

وهناك نقطة أخرى مهمة فى السياسة البنتامية وهى العداء للنزعة الاستعمارية . فبنتام لم يكن يرى ، حتى عندما كان محافظا ، أية جدوى فى ممتلكات ما وراء البحار . وقد كتب وقت أن كانت الثورة الفرنسية فى ذروتها مقالا عنوانه « حرروا مستعمراتكم : الى المؤتمر الوطنى فى فرنسا سنة ١٨٩٣ » مبينا عدم الفائدة من وجود مستعمرات نائية لأية دولة أوربية وما لها من الأضرار » . وقدم هذا الكتاب الى تاليران . ولم يكن هذا رأيا يعرضه على الفرنسيين بالنسبة للمستعمرات وحدهم ، بل انه كان يدين بهذا الرأى بالنسبة للمستعمرات البريطانية . وقد اقتنع بوجهة نظره صديقه اللورد «لانسداون» الذى قال فى مجلس اللوردات سنة ١٧٩٧ « ليس هناك خير للأسبانيين أفضل من أن نريحهم من لعنة المستعمرات (أمريكا الاسبانية) ، وأن نجعلهم شعبا نشطا مثل جيرانهم . وليس هناك شر لانجلترا أكبر من اضافة هذه المستعمرات الى ممتلكاتها التى أصبحت فعلا أكبر مما يجب » . وقد احتفظ أتباع بنتام اللاحقون فى مجموعهم بوجهة نظره نفسها فى هذا الموضوع . لأنهم لم يروا أية ميزة اقتصادية فى السيادة على البلاد الاجنبية باعتبارهم من أنصار حرية التجارة ، كما كان ينقصهم الشعور بالكبرياء الامبراطورى . وكان الأحرار فى القرن الثامن عشر استعماريين أكثر من المحافظين ، وفى القرن التاسع عشر كان البنتاميون ، وهم أكثر الشيع تمثيلا للأحرار ، من الداعين الى مبدأ « انجلترا الصغيرة » ، غير أنه ثبت أن الكبرياء الوطنية أقوى بكثير من الفلسفة فى هذه الناحية . ففى الوقت الذى كان فيه البنتاميون فى أوجهم ، كان بالمرستون معبود حزب الاحرار ، لانه وضع هيبة بريطانيا فى المقام الاول قبل أية فلسفة تحت الشمس .

وينبغى أيضا الاعتراف بأن بنتام نفسه انحرف عن اتجاهه العالمى المتشدد فى موضوع بذاته . فبعد أن التحق جيمس مل بخدمة شركة الهند الشرقية ، أحس هو وبنتام بأن ميدانا جديدا قد فتح أمامهما للتجربة . وكان بنتام يأمل أن يوصى بوضع قانون للهند وقال فى ذلك : « سأكون مشرع الهند البريطانية بعد وفاتى . فبعد عشرين عاما من وفاتى سأكون حاكما مطلقا » . ويضيف « هالفى » بعد أن أورد هذه الجملة عن بنتام : « بعد ثمانية وعشرين عاما من وفاته صدر قانون الهند الجنائى ونفذ ، وكان من وضع ماكولى تحت تأثير

بنتام وجيمس مل ، ومعنى هذا أن بنتام الذى أخفق فى وضع قانون لانجلترا، أصبح فعلا مشرعا لأوسع ممتلكاتها رقعة » (×) .

وكانت وجهة النظر الاخلاقية عند النتاميين غريبة نوعا ما . فقد كانوا متحررين من الناحية الفكرية ، وكانوا من الناحية النظرية يعيشون من أجل اللذة ، وفى الناحية الاقتصادية يعتقدون أن الرجل العاقل يجب أن ينشد تحقيق مصالحه الشخصية المالية . وكانوا من الناحية السياسية يدعون الى احداث تغييرات كبيرة ، فى غير حرارة ولا حماسة وفى غير أى مظهر للكرم العاطفى حتى عندما كانوا يعملون ضد مصلحتهم ومصلحة طبقتهم ، وقد أبدى بعضهم ، وخاصة بنتام ، عدم اهتمام بالمصالح المالية الشخصية يندر وجوده، واستعدادا للتضحية بمبالغ كبيرة فى سبيل الصداقة أو المصلحة العامة ، أما فيما يتعلق « باللذة » فان المرء يحس بأنهم قرأوا عنها فى الكتب وظنوا أنها لابد أن تكون شيئا حسنا ، ولكنهم لم يعرفوا شيئا عنها فى حياتهم الخاصة ، وأن تحررهم الفكرى لم يصل بهم الى أن يقترفوا عملا يناقض التقاليد الأخلاقية التى يتقبلها الناس ، مع جواز استثناء الدعوة للمالتسية الحديثة التى كان يقوم بها جيمس مل فى وهن ، والدعاية التى قام بها بليس فى جرأة أكبر لهذه الفكرة نفسها . وقد كانوا جميعا باستثناء بليس رفاق كتب لا أكثر ، وكان العمل الذى وجدوا فيه المتنفس الطبيعى لنشاطهم هو الكتابة . ولم يكن فى حياتهم صراع ، فليس فيهم واحد يعرف كيف يتعامل مع تاجر خيل غشاش أو مقامر مخاتل أو حتى سكير من النوع العادى .

وأخلاق جيمس مل كما يصفها ابنه تعتبر نموذجا لما كانت عليه شيعته :
« فى الاخلاق كانت مشاعره حية متصلبة فى كل المسائل التى أعتقد أنها مهمة لخير الانسان ، هذا مع أنه لم يكن يحفل بالمرة بكل المبادىء الأخلاقية السائدة (وان كان ذلك لا يظهر فى تصرفاته الشخصية) وكان يعتقد أن هذه المبادىء لا أساس لها سوى النسك والترهات الكهنوتية . فكان مثلا يتطلع الى وجود حرية أكبر فى العلاقات بين الجنسين ولكن دون أن يحدد بدقة ما ستكون عليه أو ما يجب أن تكون عليه ، ظروف هذه الحرية بالضبط . ولم يكن هذا الرأى متصلا عنده بأى احساس شهوانى لا من الناحية النظرية ولا من الناحية العملية . بل أنه على العكس من ذلك، كان يتوقع أن من النتائج الحسنة لزيادة الحرية أن أخيلة الناس ستنصرف عن العلاقة الجسدية وما يتعلق بها ، وعن رفع قيمة هذه العلاقة الى الحد الذى تصبح فيه أحد الاهداف الرئيسية فى الحياة . وذلك تحول فى التخيل والمشاعر فى موضوع كان يعتبره من أعمق الشرور فى العقل البشرى وأكثرها انتشارا فيه » .

(×) « هالفى » « نمو الراديكالية الفلسفية » ص ٥١٠

وكان في الواقع ينظر الى العلاقة الجنسية كما أنظر أنا الى كرة القدم . فليس لدى أية رغبة فى أن أمنع الناس من مشاهدة مباريات كرة القدم ، ولكنى لا أستطيع أن أتصور لماذا يشاهدونها وأرجو أن يجيء اليوم الذى يصبحون فيه أعقل من أن يرغبوا فى مشاهدتها . ولو كنت أعيش فى بلد تعتبر كرة القدم اثما ويلعبها الناس سرا بينما يتظاهرون بانها شيء غير معروف في البلد ، فلربما وجدت ما يدفعنى الى الانتصار لقضية لاعب الكرة المضطهد ، دون أن أتحمس كثيرا لهذا الانتصار ، وهذا يمثل وجهة نظر هؤلاء الرجال المهذبون جدا من أنصار مذهب « اللذة غاية الحياة » فيما يتعلق بالمبادىء الأخلاقية للعلاقة الجنسية .

وكانت الفضيلة التى يضعونها عملا فى المقام الاول من الفضائل هى الحرص وحسن التبصر . وكان لهذا أسباب عدة . منها مالتس : لقد كانوا يرون أن الزواج فى الصغر وتكوين أسرة كبيرة هو أشنع الجرائم ، وليس غير الحرص شيء يساعد الناس على تجنبها . وسبب آخر هو : أن أولئك الذين لديهم راس مال مهما صغر يسهل عليهم استثماره ، أما الذين ليس لديهم رأس مال مطلقا فان الحياة تكون بالنسبة لهم صعبة . وسبب ثالث ترك أثره فى جميع الآراء على إختلاف أنواعها ودرجاتها هو الخوف من الثورة الفرنسية والشعور بأن مثل هذه الاحداث لا يمكن تجنبها الا بالتحكم فى العواطف والانفعالات .

وكان لدى أصحاب مذهب النفعية فضيلة أخرى متصلة اتصالا وثيقا بفضيلة الحرص تلك هى الصحو الذهنى ، فقد كانوا يناقشون بعناية كل شيء يتناولونه بالبحث ، ولم يدر بخلدهم أبدا أن هناك مسائل يدركونها على ضوء الفطرة ، وقلما كانت العواطف تضللهم ، وعلى الرغم من أنهم كانوا منظمين ، فان حب النظام لم يؤد بهم الى ارتكاب أخطاء ما كانوا يرتكبونها على أى الاحوال . وقد انحدر اليهم لجزء كبير من هذا الصحو الذهنى من «لوك» . « ففى مقاله عن الادراك الانسانى » «Human Understanding»

فصل نقدى عنوانه « عن الحماسة » موجه ضد شيع كروموبل . وقد احتل النظاميون (Methodists) مركزا مماثلا لهذا ، من الناحية الفكرية لا من الناحية السياسية ، فى عهد أنصار مذهب النفعية . فقد كان النظاميون يعرفون كل شيء عن العالم الآخر الذى كانوا يعتبرونه أهم من حياتنا على هذه الارض . ولم يكن البنتاميون يدركون شيئا عن هذه الموضوعات وأمثالها فهم لم يكونوا ملحدين ولكنهم كانوا ممن عرفوا بعد ذلك باسم « اللا آدرين » فقد كانوا لا يصدرون أحكاما حيث لا يوجد دليل - وهى سنة تدعو الى الاعجاب بقدر ما هى نادرة الوجود .

وكان اصحاب مذهب النفعية ، وما زالوا ، موضع سخرية الناس لما

يتصورونه عنهم من أنهم يحكمون على جميع الاشياء بقدر فائدتها لا على أساس قيمتها فى ذاتها . « يقول النفعى ، ما فائدة البلبل اذا لم يكن مشويا ؟ وما فائدة شذى الوردة اذا لم تستطع أن تقطر منه سائلا تبـاع منه النقطة بعشرة شلنات ؟ ماذا تستطيع أن تصنع من احمرار سحابة فى الصباح الا باعتبارها نذيرا للراعى بأن يأخذ معـه معطفه الذى لا ينفذ منه المطر عند الخروج (×) » ؟ ويجب الاعتراف بأن فى اتجاه النفعيين الاوائل بعض ما يبرر هذا الاتهام فى الظاهر ، ولكنى أعتقد أن أساسه الاول هو ما توحى به كلمة « النفعية » . وما من شك فى أنه لم يكن فى مذهب هذه المدرسـة ما يبرر هذا النقد الشائع . لقد كان هذا المذهب يقول : « ان اللذة هى الخير . فاذا وجدت لذة فى سماع البلبل أكثر مما تجد فى أكله فيجب ألا تشويه . واذا كنت أنت والبلبل تشتركان فى التمتع بقدر من اللذة اذا ما تركته يغنى أكبر من القدر الذى تتمتعان به لو أكلته ، فان على المشرع أن يصدر من القوانين ما يجعل واجبا عليك ألا تقتل الطائر . كان هذا هو المذهب . ومنذا الذى يستطيع أن يطلب أكثر من ذلك ؟

وحتى من الناحية المزاجية ؛ فعلى الرغم من أن الفكرة الشائعة عنهم كانت صحيحة بعض الشىء من هذه النـاحية ، فانهـا لم تكن تنطبق الا فى حدود معينة . فقد كان بنتام يهـوى الموسيقى ، ودفع جيمس مل ابنه جون الى قراءة قدر من الشعر أكبر مما قرأه أى صبى آخر عاش فى عصره . حتى جون نفسه أصبح بعد أن بلغ أشده ذا مزاج شعرى ونزعة عاطفيـة بعض الشىء تهفو نفسه أحيانا الى المسرات العاطفية التى جعلها أبوه عسيرة عليه . والسبب فى اطلاق كلمة «نفعية» على هذه الجماعة أن بنتام وأتباعه لم يكونوا يرتضون الاشياء العديمة النفع لمجرد أنها تقليدية . فان اجراءات المحكمة العليا التى هاجمها ديكنز فى كتابه « المنزل الاسود » مثـلا لم يكن فيها قطعا شىء من القيمة الذاتية التى فى أغنية البلبل . ومن ثم كان يجب أن يحكم عليها على أساس من فائدتها ، وعلى هذا الاساس حكم بعدم صلاحيتها . وقد طبق بنتام هذا المعيار على كل ماكان يثقل به القانون الانجليزى من عبث لا فائدة من الاحتفاظ به سوى أن يكون مصدر كسب للمحامين ، وكان يرى أن هـذه الفائدة غير كافية ، وبدأ يعمل ليحاول اصـلاح هذا القانون . وما من شك فى أن المعيار الذى وضعه النفعيون فى جميع الميادين المشابهة لهذا الميـدان معيار جدير بالاعجاب ، وعلى أساس هذا المعيار كانوا محقين فيما ذهبوا اليه ولعلهم لم يؤتوا ما أوتى البلبل من فتنة وجمـال ، الا أنهم على الاقل أوتوا فضيلة المنفعة .

(×) « بعث الحركة الايفانجيلية » تأليف « س . بيرغ جولد » ص ٧ سنة ١٩٢٠

٦ ـ الديموقراطية فى انجلترا

الفصل الثالث عشر

الديموقراطية فى انجلترا

جاءت الديموقراطية الى العالم فى صورتها المظفرة الواثقة بنفسهـــا من الولايات المتحدة مقترنة بمبدأ حقوق الانسان . وأخذت حركة العرائضيين ، أول حركة ديموقراطية خالصة فى انجـــلترا ، فلسفتها الكاملة أساسا من أمريكا ، ولكنها فشلت وخلفتها بعد فترة حركة جديدة تطالب بتمثيل الشعب وقاد هذه الحركة أول الامر « برايت » صديق « كوبدن » ، وتولى بعـد ذلك قيادتها جلادستون الذى صار تلميذا لكوبدن خلال فترة برلمان ١٨٤١ـ١٨٤٦ . واستمدت هذه الحركة الناجحة وحيها من الراديكاليين الفلسفيين الذين كان أهم ماتركوه من أثر فى السياسة البريطانية هو الطابع الذى صبغوا به نظرية الديموقراطية طوال وجودها باستثناء فترة العرائضيين .

ويختلف الشعور الديموقراطى الذى كان موجودا فى انجلترا من عدة أوجه مهمة عن الشعور الديموقراطى فى أمريكا وفى القارة الاوربية . وسندرس هذا الشعور الاخير فى فصل مقبل . وحسبنا أن نقول هنا أن من أهم أوجه الخلاف أن دعاة الديموقراطية فى انجلترا لجأوا الى التاريخ والتقاليد . ذلك أن النظم النيابية ، وهى عنصر هام فى الديموقراطية الحديثة ، كانت موجودة فى انجلترا منذ القرن الثالث عشر بلا انقطاع ؛ ولا جدال فى أن مجلس العموم لم يكن فى وقت من الاوقات ممثلا للشعب ، الا انه كان يمثل طبقات أخرى غير الطبقة الارستقراطية ، وقد استخدمته هذه الطبقات فى القرن الســابع عشر فى كفاح قوى ناجح فى سبيل حقوقها . ويقول لورد مورلى فى معرض حديثه عن جون برايت الذى كسب حق الانتخاب للعمال ما يأتى : « أن الزعيم السياسى يحسن صنعا اذ يحاول أن يحتفظ لديموقراطيتنا بطابعها التاريخى . ان جون برايت جدير بأن يكون زميلا لجون هامبدن وجون سلدن وجون بيم لو أنه وجد فى زمانهم . فقد كان يتحلى بروح الزعماء المتطهرين » . وجون برايت نفسه كان من الكويكرز وكان ماثلا فى ذهنه دائما الاضطهاد التقليدى الذى لاقوه ابان حكم آل ستيوارت ، ومن ثم كان يحس بأنه يمثل استمرارا لعهد كرمويل .

وسادت بين الراديكاليين رغبة فى وضع الاصـــلاح فى صورة العودة الى عادات أسلافنا الأكثر نقاء . ففى أحد الاجتماعات الكبرى الأولى التى عقدها العرائضيون فى الهــواء الطلق عام ١٨٣٨ قال « دابلداى » رئيس الاجتمــاع وهو يطالب بحق الانتخاب لجميع الرجال :

«كان حق الانتخاب العام هو مادرجت عليه البلاد حتى منتصف عهد هنرى السادس ٠ فكيف فقدناه ؟ لقد حدث ذلك فى أثناء البلبـــلة التى صاحبت الحروب الاهلية ٠ ذلك أن الناس لم يكونوا يدركون قيمته ولذلك عدل القانون على أساس ادعاءات خلابة فى ظاهرها ؛ ولا يزال الانجليز منذ ذلك الوقت حتى الان يشعرون بآثار هذا الاجزاء المنطوى على الخيانة ٠ وقد سرى هذا الشر فينا شيئا فشيئا ٠ فقد كانت البلاد تنعم بالرخاء وكان الناس العاديون فى سعة الى حد لا يدرك مداه سامعوه ٠ وكانت الضرائب لا وجود لها تقريبا ، ولم يكن ممكنا فرض ضرائب لان برلمانا ينتخبه الشعب كان يتولى المحافظة على ما كان الناس يكسبونه ٠ الا أننا عندما فقدنا هذا البرلمان تغير كل شىء ، فقد أدركت الطبقة الارستقراطية شيئا فشيئا أن النـــاس كانوا أغنى ممـــا ينبغى ، ومن ثم سنوا القوانين لعلاج هذا الشر (١) » ٠

ان دقة دبلداى التاريخية مشكوك فيها ، ولكن من مميزات انجلترا أن يدافع راديكالى متطرف عن آرائه على أساس أنها احياء للماضى البعيد ٠ فقد كان هدف فتنة « وات تايلر » ، التى حدثت أبان العصر الذهبى الذى يتحدث عنه دبلداى ، كان هو الرجوع بالنظام الاجتماعى الى عهد آدم وحواء ٠

وثمة وجه خلاف مهم آخر بين انجلترا وأمريكا فيما يتعلق بالشـــعور الديموقراطى، ذلك أنه فى أمريكا كان ذا طابع زراعى بينما كان طابعه الاساسى فى انجلترا صناعيا ومتسما بسمات سكان المدن ٠ فقـد أبقى قانون الفقراء القديم العمال الريفيين مستسلمين رغم فقرهم (باستثناء فتنة ســنة ١٨٣٠ القصيرة) ، كما أن المزارعين كانوا عادة ينضمون الى أصحاب الاراضى ، لكن الموقف فى المناطق الصناعية كان مختلفا ٠ ذلك أن أصحاب الاراضى لم يكونوا يعيشون بصفة عامة فى أملاكهم ، وكانوا يستصدرون قوانين تقف فى سبيل أصحاب المصـــانع ٠ كمـــا أن أصحاب المصـــانع كانوا يعارضون الطبقة الارستقراطية سياسيا بين سنة ١٨١٥ وسنة ١٨٤٦ بسبب الضرائب الجمركية، وقد ضـموا اليهم الأجراء الى الحـد الذى بدا لهم بعيدا عن الخطر ، وكانت الصناعة تتسع وتتقدم من الناحية الفنية ٠ وهكذا اشتركت جميـع العناصر فى توجيه السكان الذين يشتغلون بالصناعة ، العمال منهم وأصحاب الاعمال ، نحو الراديكالية بينما بقيت المنـــاطق الزراعية اقطاعية لا يكاد يطرأ عليهـا تغيير ٠

هذا فى انجلترا ، أما فى أمريكا وفى القارة الأوروبيـــة فقد كانت الديموقراطية مرتبطة ارتباطا وثيقا بالقومية ، بينما كانت فى انجلترا عكس ذلك ٠ كما أن حرب الاستقلال فى أمريكا والحروب الثورية فى فرنسا قرنت الديموقراطية بالقوة الحربية للامة ، بينما كانت القوة الحربية فى انجـلترا مقترنة بالرجعية وبدوق ولنجتون ، وكانت تستخدم فى اضطهاد الشعــوب الخاضعة أكثر منها فى الدفاع عن النفس ٠ ولهذا السبب كانت أيضا الاحزاب

---

(١) « جاميج » — « تاريخ العراتضيين » ص ٢٣

الديموقراطية والساسة الديموقراطيون فى انجلترا أقل تشبعا بروح الحرب والاستعمار ، وسارت الامور على هذا المنوال حتى تقاعد جلادستون سنة ١٨٩٤

وكان الشعور الديموقراطى فى انجلترا فى القرن التاسع عشر منبعثا الى حد كبير من فترة سوء حكم الطبقة الارستقراطية والملكية التى بدأت عام ١٧٦٠ واستمرت طوال حكم جورج الثالث وجورج الرابع . فقد كان مجلس اللوردات يسيطر على مجلس العموم عن طريق نظام «الدوائر الانتخابية العفنة » ، وكانت الحكومة عاجزة وفاسدة الى حد لا يتصوره العقل ، والضرائب فادحة تسحق كاهل دافعيها خاصة أشد الطبقات فقرا لأنها كانت تفرض فى الغالب على الضروريات . وكانت السلطة التشريعية للبرلمان تستغل كلها لاثراء أصحاب الأراضى على حساب كل فئات المجتمع الأخرى . وكان كل شىء فى حاجة الى اصلاح : التعليم ، والقانون ، والنظام القضائى والسجون والحال الصحية فى المدن ونظام الضرائب وقانون الفقراء وكثير غيرها . بينما كان حكام البلاد يقضون وقتهم فى صيد الثعالب والاوز البرى ، ويستصدرون قوانين أشد قسوة من سابقتها ، ولم يطق عقل الشعب وانسانيته واحساسه استمرار هذا النظام .

وأخذت الثورة الفكرية صورة الراديكالية الفلسفية ، وكان من حسن الحظ أنه عندما أصبح الاصلاح ممكنا وجد رجال لديهم القدرة على تبين التفاصيل وكانوا قد فكروا فيما ينبغى عمله . وكان من تأثير بنتام ومدرسته ان الناس قلما كانوا يتشدقون بأقوال غامضة عن حقوق الانسان ، وتركت العواطف بصفة عامة للرجعيين ، وكان طابع المصلحين الاهتمام بالنفعيه . ولعل ذلك هو السبب فى أن الحركة التى بعثوها ظلت أكثر من خمسين عاما قبل أن تحدث رد فعل لها .

وكانت المعركة الاولى أصعب معارك الحركة نحو الديموقراطية ، وهى معركة قانون الاصلاح التى تم النصر فيها سنة ١٨٣٢ . وكانت الدعوة الى اصلاح مجلس العموم عن طريق الغاء « الدوائر الانتخابية العفنة » وتوسيع حق الانتخاب قد بدأها فعلا سياسيون ذوو نفوذ قبل الثورة الفرنسية ، الا أنها طرحت جانبا مع غيرها من اصلاحات التقدم التشريعى خلال فترة الحروب الفرنسية . ومع ذلك فقد بقيت مصدر الهام لذلك الفريق من الأحرار الذين تبعوا « فوكس » . ومن ثم بدأ الاحرار عندما استولوا على السلطة بزعامة جراى سنة ١٨٣٠ بالعمل على اتخاذ اجراء كان فى نظرهم من واجب « بت » الاصغر أن يستصدره عندما تسلم مقاليد السلطة لاول مرة ، وعلى الرغم من أن اقتراحاتهم كانت متواضعة فان لهجتهم كانت لهجة الديموقراطية . وشاهد ذلك ماقاله لورد جون رسل عندما تقدم بقانون الاصلاح اذ قال انهم مصرون على ألا يكون مجلس العموم : « مكونا من ممثلين لطبقة صغيرة واحدة أو

لمصالح خاصة ، بل يجب أن يكون هيئـة متكاملة تمثـل الشعب تنبثق من الشعب وتتجاوب مع الشعب » ٠

وكان ارستقراطيو حزب الاحرار فى سنة ١٨٣٢ يشبهون الارستقراطيين المصلحين فى فرنسا سنة ١٧٨٩ ٠ « فميرابو » و « لافاييت » وفريق الملكيين الديموقراطيين «الوراقين»(١) يودون لو أنهم حققوا اصلاحا سليما معتدلا يمنح فرنسا دستورا كثير الشبه بدستور انجلترا بعد عام ١٨٣٢ ٠ فلمـاذا اذن نجح فريق الاصلاح الدستورى فى انجلترا وأخفق فى فرنسا ؟ لا ريب أن هناك أسبابا كثيرة لذلك ، ولكن أهمها فيما أعتقد أن الثورة فى فرنسا كانت ثورة مدن وثورة زراعية فى نفس الوقت ، وهو ما لم يحدث فى انجلترا ٠ فقد وجد الارستقراطيون الفرنسيون ، على الرغم من أنهم نزلوا عن امتيازاتهم الاقطاعية ، انهم يواجهون عداء يهددهم بالخراب المـــالى ٠ وقضى ذلك عـلى حماستهم فى الاصلاح ، وأدى بهم الى استعداء الاجانب على الثـــورة ٠ أما المصلحون الانجليز فقد أخمدوا الثورة الزراعية بالدم فى بداية المطالبة بقانون الاصلاح ، ومن ثم أحسوا بأن دخلهم فى أمان ٠ وتراجعت معارضة المحافظين أمام التهديد بالثورة لان المسألة لم تبد لهم مسألة حياة أو مـــوت بالنسبة للارستقراطية ٠ وهكذا انتقلت السلطة السياسية النهائية فى هدوء الى أيدى الطبقة الوسطى ٠

وعلى الرغم من أن قانون الاصلاح قد أجيز بوسائل دستورية بحتة ، فانه ماكان ليصير قانونا بغير تهديد قوى بالثورة أثمر ثمرته ٠ وكان لابد للطبقة الوسطى من الاستعانة بالعمال كى يؤدى هذا التهديد ثمرته المنشودة ،وتطلب هذا بعث الآمال فى نفوسهم ٠ ولم يفد العمال شيئا من المشروع الذى أجيز فعلا ، بل انه حرمهم من حق الانتخاب فى الاماكن القليلة مثل وستمنستر التى كانوا يتمتعون فيها بهذا الحق من قبل ٠ وبينما كانت الطبقة الوسطى تكره احتكار الارستقراطية للسلطة السياسية ، فانها لم تكن تريد نظاما يكون فيه لعمالهم حق الانتخاب ٠ وجاء قانون الاصـــلاح فى الواقع كما أرادته الطبقة الوسطى تماما ٠ فمنذ سنة ١٨٣٢ حتى وسع دزرائيلى حق الانتخاب عام ١٨٦٧ ، كان الوزراء وان ظل معظمهم من الطبقة الارستقراطية ، مضطرين الى الرجوع دائما الى رجال الاعمال واصحاب المصانع والمتاجر ٠ وكانت السلطة النهائية قد انتقلت الى أيد جديدة وتغير طابع السياسة البريطانية ٠

وكان قانون الاصلاح وما أسفر عنه من نتائج صدمة مريرة للطبقة العاملة بددت أوهامها ٠ وكان من بين أول الاجراءات التى اتخذها البرلمـان بعــد الاصلاح سن قانون فقراء جديد استحدث النظام الذى وصفه كتاب « أوليفر تويست » ٠ فقد كان قانون الفقراء فى حاجة الى تعديل ، ولا شـك فى أن

---

(١) ناد سياسى فرنسى من انصار الملكية الدستورية تكون عام ١٧٩١ وقد أيده البعاقبـة

النتائج النهائية للقانون الجديد كانت عواقبها الوبيلة أخف من مثيلاتها فى القانون القديم • ولكنه انطوى على قسوة ومصاعب لا تحتمل كان الداعون اليه يبررونها على أسس مستمدة من أقوال مالتس • لقد ساعدت الطبقة العاملة الطبقة الوسطى فى الاستيلاء على السلطة ، وكان قانون الفقراء الجديد هو جزاءها • وانبثق الوعى السياسى للطبقة العاملة من هذه الخيانة • وكما انبثق مالتس من قانون الفقراء القديم ، انبثق ماركس وانجلز من قانون الفقراء الجديد •

وكان أول أثر للصدمة التى فتحت عيون الأجراء هو نمو الحركة النقابية (سيجىء وصفها فى فصل تال) التى قادها روبرت أوين مؤسس الاشتراكية • وعندما انهارت هذه الحركة عاد الايمان بالوسائل السياسية بدل الوسائل الصناعية ، وأدى ذلك بعض الوقت الى حركة العرائضيين • وقد انبعثت هذه الحركة من «اتحاد عمال لندن» الذى أسس سنة ١٨٣٦ والذى كان يدعو الى ست مطالب تضمنتها عرائض هى : حق الانتخاب لجميع الرجال ، وبرلمان سنوى والتصويت السرى ، وعدم اشتراط الملكية فى الناخب ، ودفع مكافآت لاعضاء البرلمان ، ودوائر انتخابية متساوية •

ولم يكن روبرت أوين يعطف على حركة العرائضيين شأنه تجاه كل حركات الاصلاح السياسى • فهو يقول : «اذا قام بينكم برلمان يختار فى العام القادم على أساس حق الانتخاب العام والتصويت السرى فالغالب أنه سيكون أقل المجالس النيابية التى حكمت هذه البلاد حتى الان كفاية وأكثرها مشاغبة وأسوأ جمعية عامة حكمت البلاد أثناء تاريخها كله » •

وجاءت الحركة المناوئة لقانون الفقراء الجديد من مصدرين متضادين • فقد عارضه المحافظون والعرائضيون معا باعتباره اجراء يمثل راديكالية الطبقة الوسطى • فكان المحافظون يريدون الابقاء على ما كان يؤدى اليه قانون الفقراء القديم من خضوع لملاك الاراضى الزراعية فى الريف ، ولكنهم انزعجوا عندما استحالت الاجتماعات التى تعقد لمعارضة قانون الفقراء الجديد الى اجتماعات العرائضيين •

« ولقد رفض رجل الدين « ج • س • بل » أن يشترك فى مظاهرة كبرى ضد قانون الفقراء القديم قامت فى هارتشهد مور لانه كان فى النية عرض اقتراح بتأييد حق الانتخاب العام •• وشكا فى العام التالى من أن الاجتماعات التى تعقد ضد قانون الفقراء كانت تتحول الى اجتماعات راديكالية ، وصرح بأنه لن يعمل أبدا مرة أخرى مع الراديكالية • غير أن العرائضيين لم يكونوا أقل منه انتقادا لحلفائهم • فقد كتبت جريدة العهد تقول : (ان المظاهرات التى تقوم ضد قانون الفقراء اذا وضعت فى يد محافظ متعصب مثل «ايرل ستانهوب» بن أخى ذلك الحقير ، أداة الاستبداد الدموى ، وليم بت وأحد المعجبين به ، تصبح لا شىء سوى خدعة حزبية ، خدعة يأمل المحافظون من ورائها الاستيلاء على مراكز الاحرار ومرتباتهم ، وهم يبيتون النية على استكمال سلطتهم عندما

يحصلون عليها بطريقة أسوأ مما فعل الاحرار أو مايمكن أن يفعلوه(١)) .

وعلى الرغم من أن الاجراءات التى دعى اليها «العهد» كانت سياسية بحتة فان أهداف العرائضيين النهائية كانت اقتصادية . وفى ذلك يقول مؤرخهم جاميج (وهو واحد منهم) :

« تنظر الجماهير الى الطبقات التى تتمتع بحق الانتخاب والتى تراها تنعم بالثراء ، وتقارن هذا الثراء بالبؤس الذى تتمرغ فيه . واذا ما وزنا الامور بميزان المنطق السليم وتتبعنا أسبابها ونتائجها ، لم نعجب من وصولهم الى هذه النتيجة وهى أن حرماننا من السلطة السياسية هو السبب فى وضعنا الاجتماعى غير الطبيعى» .

الا أنهم بوصفهم هيئة لم يتجاوزوا مطلقا حدود النقط الست أو يناقشوا التغييرات الاقتصادية التي كانوا يعتزمون اجراءها اذا سنولوا على السلطة حتى يتجنبوا ما قد يحدثه ذلك من بلبلة فى النتيجة النهائية .

وقد قضى على الحركة العرائضية قبل أن تحقق أيا من أهدافها ، فقد عرقلها سجن كثير من زعمائها ، وكانت تعانى انقساما داخليا فى مشكلة حكمـــة الالتجاء الى القوة المادية . ولكن السبب الرئيسى فى انهيارها كان ظهـــور « العصبة المناهضة لقانون الغلال » التى أثارت مشكلة كانت مصلحة الطبقة الوسطى والطبقات العاملة فيها واحدة . ووضع الهياج الذى صاحب المطالبة بحرية التجارة وكذلك التحسن السريع فى حالة الاجراء بعد الغاء قانون الغلال حدآ لتلك المرارة التى كانت تحسها الطبقة العاملة ضد سياسى الطبقة الوسطى .
وكان جون برايت ، وهو أحد أصحاب مصانع القطن من الطبقة الوسطى وزميل كوبدن فى الحركة المناهضة لقانون الغلال ، هو الذى تزعم حركة منح عمال المدن حق الانتخاب ، ولم تكن له مصلحة خاصة فى توسيع حق الانتخاب، وكان الدافع الرئيسى له في ذلك كرهه للحرب . فقد عارض فى حرب القرم وفقد نتيجة لذلك مقعده فى البرلمان بصفة مؤقتة . وكان يكره نغمة الحرب والخيلاء التى كان يتحدث بها بالمرستون والتى كانت تحبذها الكثرة الغالبة من الطبقة الوسطى ، واعتقد أن العمال سيؤيدون سياسة أقل ميلا للحرب . وقد استطاع بالمرستون مادام حيا أن يحبط كل مجهودات برايت الاصلاحية، فلما مات عام ١٨٦٥ بدأ الاحرار يحســون بأنهم يجب أن يكونوا متحررين ، وبدأ دزرائيلى العمل على تثقيف حزب المحافظين . وكانت النتيجة أن نال عمال المدن حق الانتخاب سنة ١٨٦٧ . أما العمال الزراعيون فقد اعتبروا ، لأمر ما ، أكثر خطورة وكان عليهم أن ينتظروا الى أن جاء جلادستون ومنحهم حق الانتخاب سنة ١٨٨٥ .

---

(١) ل . وبربارا هاموند ـ « عهد العرائضيين » ص ٢٦٨

٧ ـ حرية التجارة

الفصل الرابع عشر

حرية التجارة

وجهت الطبقة الوسطى فى انجلترا بعد أن استولت على السلطة السياسية سنة ١٨٣٢ جهودها بطبيعة الحال نحو تعديل القوانين بحيث تزيد من ثرائها. كان هناك نوعان من التشريع لابد منها لتقدم الأمة : أحدهما تحسين الحالة فى المصانع والمناجم، والثانى الغاء القوانين التى كانت تعرقل الحركة الصناعية؛ وكان النوع الثانى وحده هو الذى يتفق ومصالح أصحاب المصانع . الا أن أهم بنوده ، وهو الغاء الضرائب على الغلال ، كان يتعارض مع مصلحة ملاك الاراضى الزراعية ، ومن ثم لقى معارضة شديدة من الكثرة الغالبة من الطبقة الارستقراطية . وعندما كان أنصار التصنيع يتحدثون عن مضار ارتفاع ثمن الخبز ، كان أصحاب الاراضى يردون عليهم بالاشارة الى مساوىء استخدام الاطفال فى المصنع وطول ساعات العمل فيها . ونجح كل من الفريقين فى آخر الامر فى اصلاح الشرور التى كان الطرف الاخر يستفيد منها : فنجح لورد سافتسبرى فى الحصول على موافقة البرلمان على «قوانين المصانع» ونجح كوبدن فى استصداره قانون « حرية التجارة » . وكان النزاع بين أصحاب المصانع وملاك الاراضى موفقا سعيد النتائج ، لانه أجبر كلا من الفريقين على الالتجاء الى قوم أخيار لا مصلحة لهم .

بيد أن الفريقين المتنازعين لم يكونا على قدم المساواة ، لان أصحاب المصانع كانوا يخلقون وسائل جديدة فى الانتاج بينما اقتصر دور ملاك الارض على تلقى الريع فحسب . وكان رجال الصناعة البريطانيون فى ذلك الوقت ممتلئين نشاطا لا يعرفون رحمة ولا هوادة ممتلئين بتلك الثقة بالنفس التى تصحب النجاح والسلطة الحديثة . وكان الكثيرون منهم قد ارتفعوا عن طريق مجهوداتهم وحدها . وقد تبعوا الراديكاليين فى ايمانهم بالمنافسة باعتبارها القوة الدافعة للتقدم ، وكانوا ضيقى الصدور بأى شيء يخفف من حدتها . فطالبوا بالغاء الحماية الضرائبية على السلع التى يصنعونها وعلى البضائع التى ينتجها غيرهم، فقد كانوا يشعرون بأنهم اذا منحوا ميدانا مبرءا من التمييز فسيفوزون حتما .

ولم يكن كفاحهم فى موضوع حرية تجارة الغلال فى سبيل مصالحهم

الخاصة فقط ، بل كان موجها أيضا في سبيل مصلحة بلادهم ومصلحة العالم أجمع . ذلك أن القمح يمكن انتاجه في بلاد أخرى بتكلفة أقل منها في انجلترا، بينما يمكن انتاج المنسوجات القطنية في انجلترا بتكاليف أقل منها فيغيرها من البلاد . فاذا ما أصرت انجلترا على انتاج غذائها بنفسها فان مجموع الثروة التي يمكن توزيعها بين جميع السكان تقل عما يكون لو أن انجلترا انتجت غذاء أقل ومسوغات أكثر . ومن هذا المجموع الأقل كان نصيب ملاك الارض الذى يستولون عليه في صورة ريع ، أكبر مما يكون لو أن أسوأ الأراضي تركت بورا . ويستنتج هذا كله من قانون ريكاردو في الريع الذى يقول أن ريع قطعة من الارض يمثل الفرق بين غلتها وغلة أسوأ قطعة تزرع من الارض. ومن ثم فان حرية التجارة ستفيد بلا شك الطبقات التى لا تملك أرضا ، فستزيد ثروة البلاد ، وسيحصلون على نسبة أكبر من المجموع الزائد . ومن ثم كانت حرية التجارة في مصلحة الطبقات الصناعية بشقيها ، العمال وأصحاب الاعمال .

وكذلك كانت حرية التجارة في مصلحة العالم كله . ذلك أن الامم التى تشترى منها بريطانيا العظمى حاجتها من الغذاء ستزداد ثروتها ، فضلا عن أن المنفعة التجارية المتبادلة ستهدىء من حدة المنافسات الدولية ، وبذلك تعمل على تدعيم السلام . هذا على الاقل ماكان يعتقده دعاة حرية التجارة .

وبهذه الطريقة نشأ موقف استطاعت فيه طبقة قوية أن تدافع عن مصالحها الخاصة وأن تدعم في نفس الوقت الخير العام . ومثل هذه المواقف قمينة بأن تعمل على ظهور زعماء من الرجال ذوى الافق الانسانى الواسع ، يختفى فيهم عنصر المصلحة الشخصية خلف المصلحة العامة . وكان كوبدن قائد معركة حرية التجارة من هذا النوع . فهو صاحب مصنع قطن يدرك كل الادراك الميزات المادية التى تجنيها طبقته من حرية التجارة ، الا أنه كان في نفس الوقت عالميا تعتبر حرية التجارة بالنسبة له جزء من قضية أكبر هى قضية السلام العالمى . ولكنه عندما كسب لزملائه قضية حرية التجارة ، وجد آسفا أنهم لايبالون ببقية برنامجه . فقد كان اتجاهه للمصلحة العامة ورقة رابحة في أيديهم طالما اتفق ذلك ومصلحتهم الشخصية ، ولما لم يعد كذلك انقلبوا عليه .

وكان لكوبدن نظرة عامة في السياسة ظلت طوال حياته لا تلقى حظها من التنفيذ في معظم الاحوال بسبب نفوذ بالمرستون المضاد لها ، الا أنها صارت بعد ذلك ذات أهمية كبرى اذ تبناها ، في معظم مظاهرها ، جلادستون وفريق من حزب الاحرار الذين كانوا أقل تعصبا لحزبهم . هذا الى أن التقدير الذى حظى به اثر نجاحه في الحركة المناهضة لقانون الغلال جعل المذاهب التحررية الاوروبية تتأثر الى حد بعيد بوجهة نظره ، وأكسبته أهمية لم تكن مقصورة على بريطانيا وحدها .

وكان كوبدن كغيره من المصلحين يعمل بوحي من الادراك الفطري السليم ، فقد كان يرى أن الأمم ينبغي أن تنشد الثروة القومية دون اعتبار كبير لمسائل مثل المجد واتساع رقعة الارض . فكان يدعو الى السلام ، لا على أساس مجرد مسلم بصحته مقدما بل على أساس أن الحرب والاستعداد للحرب عملية خاسرة اذا نظرنا اليها على أنها من أعمال الاستثمار . وكانت حجته فى دفاعه عن فكرة العالمية أن القومية تقلل من ثروة الجنس البشرى . وفى نفس الوقت كان يختفى وراء هذا الستار الاقتصادى قلب رحيم وقدر كبير من العاطفة الانسانية . ولسنا ننكر أنه كان غافلا عن الظروف السيئة التى يعمل فيها العمال الصناعيون ، ولكن سياسة حرية التجارة لاشك رفعت أجورهم الفعلية الى حد كبير كما كان كوبدن يؤكد باستمرار . ولم يكن مؤمنا بمالتس أو «بالقانون الحديدي للأجور» ، فقد ظل طول الحركة المناهضة لقانون الغلال يردد دائما أن حرية التجارة فى المواد الغذائية ستفيد كلا من أصحاب الاعمال والعمال فى الصناعة ، وقد أثبتت التجربة أنه كان على صواب . وكانت آراؤه الاقتصادية معقولة وعملية ، وليست نظرية جامدة مثل نظريات جيمس مل وماك كولوخ الاقتصادية ، فقد كان يختار من حجج الاقتصاديين ما يدعم حرية التجارة ويتجاهل ماعداها .

لقد كان المألوف فى أيام كوبدن ، وهو مألوف أكثر فى الوقت الحاضر ، اتهام كوبدن بأنه رجل تحدده دوافع دفينة ، يعتقد أن أهم شيء لأية أمة هو الثراء المادى . وشاهد ذلك أنه عندما عارض كوبدن وبرايت فى حرب القرم (وهى حرب كان شعور الامة فيها هائجا فى جنون كشعورها أبان الحرب الكبرى) ، قال الناس أن ذلك يدل على أنهما رجلان لايستطيعان الارتفاع عن مستوى الماديات . وقد عبر تنيسون فى « مود » عن هذه النظرة فى أبيات جديرة بأن تذكر دائما تحذيرا « للمثاليين » .

وهاك وصف تينسون لبرايت وهو يخاطب اجتماعا للسلام :

فى الاسبوع الماضى جاء رجل الى بلدة فى الريف ،

ليخطب منددا بجيشنا الصغير المسكين ،

ويلعب لعبة لعبها من قبل الملوك الطغاة ،

وان كانت الدولة أيضا قد لعبتها مثله أكثر من مرة ،

هذا الذى يرتدى القبعة العريضة ويتشدق بالاشياء المقدسة . وقد أصم قطنه أذنيه وأعماه بريق الذهب .

وحتى فى أحلامه تتردد أصداء رنين نقوده ،

ذلك الحقير ، أخذ يندد بالحرب .

وعند مارأى تنيسون أن حرب القرم قادمة ، كانت تأملاته كما يلى :

جال بخاطرى أن حربا ستنشب دفاعا عن الحق .
وان طغيانا جديدا سيحنى رأسه الآن أو ينقضى ،
ويعود مجد الرجولة الى عرشه القديم ،
ولن يكون لبريطانيا من صاحب المال اله لااله غيره ،
ولن تكون التجارة هى الكل فى الكل ،
ولن يردد السلام فى المراعى نغمات متقاعسة ،
ويرنو بنظره الى الحصاد ينضج ، والى القطعان تتكاثر ،
كلا ولن تقبع طلقات المدافع حتى يعلوها الصدأ على شاطىء التخاذل .

وتنتهى القصيدة بأبيات مشتعلة بالوطنية النبيلة :

... صحوت لأهداف أسمى
لأرض فقدت بعض شهوتها للذهب ،
وحبها لسلام ملىء بالمظالم والمخازى ،
بشعة ، كريهة ، وحشية ، لاتذكر فى حديث ،
ولأحيى مرة أخرى علم المعركة يرفرف عاليا !
وان كانت أضواء كثيرة ستخبو ، وتبكى عيون كثيرة
أولئك الذين يسحقهم صدام الادعاءات المتعارضة ،
غير أن غضب الله الحق سينزل على مارد كاذب ،
وستخفى الظلمات نفسها فى النور ،
وتتلألأ فجأة أسماء تحيطها هالة من البهاء ،
ويصبح الفكر النبيل أكثر حرية تحت الشمس ،
وينبض قلب الناس برغبة واحدة .
والآن ، على حافة البحر الاسود وأعماق البحر البلطى ،
ومنافذ المعاقل تكشر عن أنياب فيها الموت ، تشتعل
زهرة الحرب الحمراء كالدم بقلب من نار .
فدعها تشتعل أو تنطفىء ، وتعصف الحرب كالريح ،
لقد أثبتنا أن لنا قلوبا نضحى بها فى قضية ، ما زلنا والنبل فينا ،
وقد استيقظت ، كما يبدو ، الى عقل أفضل ،
لقد أحسست باحساس بلادى ، وأصبحت واحدا من عشيرتى ،
وآمنت بمقاصد الله ، وبالقدر المكتوب .

غير أن مشاعر كوبدن كانت خلال حرب القرم أقل تهيجا مما تدعو اليه قصائد تينسون ، يشهد بذلك قوله :

«لم تشعر الطبقة العاملة حتى الان بآثار الحرب فى صورة التعطل من

العمل ، بل شعرت بها فى صورة ارتفاع سعر الغذاء الذى أثر تأثيرا شديدا فى العمال غير المهرة الذين يتقاضون أقل الأجور . وكان الفريق الأكبر من هذه الطبقة ، طبقة العمال الزراعيين ـ تلك الجماهير الصماء الضعيفة الذين لم يسمعوا قط أصواتهم فى صخب السياسة أو يشعروا الناس بوجودهم فى أية حركة اجتماعية ـ هم أكثر من قاسى العذاب من جرائها . ان لدينا مدرسة من العاطفيين تقول لنا أن الحرب تعلى من كرامة الانسان الأصيلة وتقضى على قوة المال وعبادة الذهب وما الى ذلك من عبارات . ألا فليسر هؤلاء فى الريف (فهم فى حاجة الى ما ينعش نفوسهم) سواء فى المروج أو فى المستنقعات أو الغابات أو فى أى جزء من هذه الجزيرة جنوبى نهر «الترنت»، يجدون أن متوسط أجور العمال الزراعيين ، فى هذه اللحظة ، أقل من اثنى عشر شلنا فى الاسبوع ، وليسألوا كيف تستطيع أسرة من خمسة أشخاص، وهو أقل من متوسط عدد أفراد الاسرة عندهم ، أن تعيش وثمن الخبز بنسان ونصف بنس للرطل . انهم لن يجدوا من يستطيع الاجابة عن هذا السؤال .»

وقد ظل التناقض بين الادراك الاقتصادى السليم و «المثالية» ، الذى بلغ مرحلة خطيرة فى حرب القرم ، قائما منذ ذلك الوقت ، وكان من سوء حظ البشر أن كان «المثاليون» هم الفائزون بصفة عامة . ولست أقول أن لا شيء خير من الرخاء المادى واعتمد فى ذلك على القضايا الاخلاقية المجردة ، ولكنى اتفق مع كوبدن فى أن خير الاهداف السياسية التى كان لها آثارا اجتماعية هامة ولا يزال أهم هذه الاهداف هو السعى لتحقيق الثراء العام . بل أقول أكثر من ذلك : انه عندما ينصح الذين امتلأت بطونهم الفقراء بأنهم يجب أن يسموا بأرواحهم فوق مطالب المعدة ، أحس بأن الامر كله نفاق يبعث فى النفس الاشمئزاز . وقد كان لهذه «المثالية» التى يسهل على الألسنة أن تلوكها عدة صور . ففى أسوأ فترات حرب نابليون كان النظاميون والمبشرون بالانجيل ينصحون الفقراء بأن يركزوا آمالهم فى الجنة وأن يدعوا الأغنياء يتمتعون بما يملكون على الارض . وجاء من بعدهم من يطيب لهم نزعة العصور الوسطى على اختلاف مشاربهم : كولريدج وكارليل ودزرائيلى والرسائليون (المدافعون عن سلطة الكنيسة) وغيرهم من أصحاب المذاهب التى كانت فى جوهرها رد فعل لظهور الآلة وأصحاب الثروات الصناعية . وأهم من ذلك كانت هناك وجهه النظر القومية التى كان يمثلها بالمرستون فى انجلترا أيام كوبدن ، والتى ثبت أنها اقوى من دعوة كوبدن ومن الاشتراكية ـ حتى وقتنا الحاضر على الاقل .

وليست هذه العقائد «النبيلة» كلها على اختلاف انواعها ، سوى متنفسات لانفعالات خافية من القسوة أو الجبروت أو الطمع . وقد تكون الدعوة الدينية التى تنادى باحتقار العروض الدنيوية موضع احترامنا اذا أدت ، كما أدت دعوة القديس فرانسس الى التزام الفقر من قبل الداعى لها ، ولكن عندما تصدر الدعوة من رجل مثل تنيسون لايسعنا الا أن نشك

فى أن الامر أحبولة تنصب ، بطريقة لاشعورية ، للفقراء حتى يظلوا هادئين . وليست الفئة التى كانت تحتفظ بعقلية العصور الوسطى ومنها كولريدج والرسائليين ، الا قوما يجدون الحياة الحديثـة مؤلمة ايلاما يدفعهم الى أن يبحثوا عن مهرب من الواقع عن طريق الأفيون أو القصص الخرافيـة أو اختراع «عصر ذهبى» فى الماضى . ولست أقول أنهم أشرار فاسدون، بل كل ماأقوله عنهم أنهم تنقصهم الصلابة التى يتطلبها التفكير المثمر . وقد كان لدزرائيلى الذى تراوده هذه الاحلام نفسها ، من القوة ما يكفى لان يقلب الحقيقة كى تتفق مع خياله : فقد كان يرى أن امبراطوريتنا الهندية ، ليست سوقا للبضائع القطنية فحسب ، بل انها أيضا احياء لأبهة سليمان أو أوغسطس . الا أنه حين أضفى ذلك المجد الخيالى على الاستعمار ، قد شجع الطغيـان والسلب فيمن أقنعهم بأن يشاركوه خداعه لنفسه . أما مثالية كارليل فهى من النوع القديم الطراز الذى ينتج لصاحبه عذرا لمعاقبة الآثمين . وهـو يعجب أكثر مايعجب بالرجال الذين استباحوا دماء البشر : فمثله الأعـلى فى البطولة هو دكتور فرانسيا طاغية باراجواى الذى لم يجد كارليل شيئا يقوله فى الاشادة به غير أنه شنـق أربعين أفاقا دون محاكمـة . وليست مبادئه الاخلاقية المتزمتة فى واقع الامر سوى ستار يخفى وراءه كرهـه للجنس البشرى ، ذلك الكره الذى نشأ عن سوء الهضم المستديم الذى كان مصابا به . وقد أدت مثله العليا فى صورتها التى كانت عليها ، الى نيتشـه وعن طريقه الى النازية .

أما القومية ، اذا لم تكن هى الجشع السافر غير المقنع ، فيمكن تعريفها بأنها ربط بين مبدأ اخلاقى أصيل ووحدة جغرافية أو عنصرية . والآخذون بها يقولون مثلا : أن طهارة الحياة العائلية أمر من الأهمية بالمكان الاول من الناحية الاخلاقية وانه يوجد فى خير صوره بين خطى عرض كذا وكـذا وخطى طول كذا وكذا . ويتبع ذلك أن للذين يعيشون فى هذه المنطقـة الفاضلة الحق ، بل ويكاد يكون واجبهم ، أن يقتلوا أى عدد يتراءى لهم من الناس الذين يعيشون فى المناطق الاخرى ويرغموا من بقى منهم على قيـد الحياة أن يدفعوا جزية . ومما يؤسف له أن الفضيلة العليا التى يمتاز بهـا المنتصرون معرضة للزوال خلال عملية الفتح . ولكنى لن أقول أكثر من هـذا عن موضوع القومية لانى سأوليه اهتمامى فى مرحلة تالية .

وكان ظهور التطرف فى الوطنية بين الطبقات الوسطى صـدمة كبرى خيبت آمال كوبدن . ففى سنة ١٨٣٥ حين لم تكن هـذه الطبقات قد ألفت السلطة بعد ، دخل فى روعه أنهم سيؤيدونه فى حبه للسلام ، فهو يقول : «ان الطبقات الوسطى والنشطة فى انجلترا لايمكن أن تكون لها مصلحة غير المحافظة على السلام ، ذلك أن أمجاد الحرب والشهرة ومكاسبها ليست من نصيبهم ، وأن ساحات القتال حقول يستغلها الارستقراطيون ويرويها دماء الشعب » . ثم يمضى قائلا : « وقد نرى فى بعض الانتخابات المقبلة شـعار

(لاسياسية خارجية)يطبق على الذين يريدون أن يصبحوا ممثلين لناخبين أحرار » . الا أن التجربة دلت على أنه كان مخطئا فيما توقع . فقد أصبح بالمرستون ، أكثر أنصار التدخل تهورا ، معبود الطبقة الوسطى بينما فقد كوبدن مقعده فى البرلمان لأنه عارض حرب القرم . وكذلك اعتقد ماركس أن البروليتاريا لن يقبلوا طائعين نحمل مشاق حروب استعماريه ، بيد أن ماركس وكوبدن لم يدركا التغير النفسانى الذى ينجم عن الاستحواذ على السلطة السياسية أو الوسائل التى فديستعملها الاغنياء لمداهنة الديموقراطيه . فقد تعارض طبقة لاتتمتع بحق الانتخاب فى حرب يثيرها حكامها ، ولكنها عندما تحصل على حق الانتخاب تحس بأن الحرب «حربها» هى ، وتصبح حربية النزعة مثل الطبقة الحاكمة السابقة .

ووهم آخر من أوهام كوبدن هو أن التجارة تعمل على نشر السلام .

« ان التجارة هى الترياق العظيم ، كأنها كشف طبى نافع ووسيلة تعمل لحقن جميع أمم العالم بمصل المدنية الصحى الواقى . ولن تغادر شواطئنا كمية من البضائع الا وهى تحمل معها بذور الذكاء والتفكير المثمر الى أفراد من مجتمعات أخرى أقل منا استنارة ، ولن يزور تاجر مراكزنا الصناعية الا كان حين يعود الى بلاده رسولا للحرية والسلام والحكم الصالح - بينما تقوم سفننا التجارية التى تترردد الان على كل ميناء فى أوروبا وطرقنا الحديدية التى تشبه المعجزات والتى تشيد بفضلها الامم جمعاء خير داعية واعلان عن قيمة أنظمتنا المستنيرة» .

وجدير بنا أن نبحث الأسباب التى منعت التجارة من العمل على نشر السلام لانها من بين الاسباب الرئيسية التى أدت الى فشل مذهب كوبدن ، فنقول أنه عندما تكون هناك دولتان غير متنافستين مطلقا فيما يتعلق بالمنتجات المتبادلة بينهما ، أى عند ما تكون كلتاهما غير قادرة على انتاج ماتشتريه ، فان الناس يشعرون بأن التجارة مفيدة للطرفين وتتحقق فعلا النتائج التى كان يأملها كوبدن . وقد كانت معظم التجارة فى عهده من هذا النوع . فقد كنا نبيع القسم الاكبر من مصنوعاتنا الى بلاد ليس لديها آلات انتاج ، وكنا نشترى غلات طبيعية لاتوجد فى الجزائر البريطانية ؛ وعندما تكون التجارة من هذا النوع فانها تعمل على تشجيع الصداقة بين الأمم ، أما اذا باع بلد لبلد آخر بضائع يستطيع هذا البلد الآخر انتاجها فسرعان مايصبح غضب المتنافسين أشد من رضا المستهلكين ، وتتحول الصداقة الى عداء . وشاهد ذلك أنه فى السنوات السابقة على الحرب الكبرى كانت توضع على جميع البضائع الاجنبية التى تباع فى المملكة المتحدة علامات باسم البلد الذى وردت منه وذلك بمقتضى «قانون العلامات التجارية» ؛ وجعل مرأى عبارة « صنع فى ألمانيا » باستمرار الناس يعتقدون أن انجلترا تفقد تجارتها بسبب المنافسة الألمانية ، وهو اعتقاد كان له شأن

كبير فى اثارة الشعور العدائى فى البلاد · ولم يكن للحجة التى تنساق دفاعا عن حرية التجارة والتى تقول بأن ثمن الواردات يدفع من ثمن الصادرات وانها بناء على ذلك لاتضر الانتاج المحلى بوجه عام ، لم يكن لهذه الحجة تأثير فى أى وقت من الاوقات فى أولئك الذين يقاسون من المنافسة الاجنبية ·· وكانت الصناعة البريطانية فى عهد كوبدن قد بدأت تلقى منافسة فى جميع البلاد المتقدمة خارج بريطانيا العظمى ، بيد أن أصحاب المصانع فيها كانوا فى مركز أضعف اذا قورنوا برجال الصناعة الانجليز والاسكتلنديين · ولم تكن بريطانيا العظمى تحظى بالحب بسبب رخص بضائعها فى البلاد التى كانت تحاول بناء صناعاتها على النمط البريطانى · وبذلك أدت زيادة التجارة الى زيادة العداء القومى والى نمو شعور عكس الشعور الذى توقعه كوبدن · وكانت هذه واحدة من أهم أخطائه فى السيكلوجية السياسية ·

وكان كوبدن من الناحية السياسية معارضا للارستقراطية ، وكان فى أيامه الاولى معارضا للطبقة العاملة وان كان ذلك بدرجة أقل : لقد كان معارضا للاولى لانها تمثل امتيازا وليس لديها عقل ، وللطبقة الثانية لانه كان ينقصها التعليم · وكان يعجب اعجابا شديدا بأمريكا ، ويرجع معظم السبب فى اعجابه الى أن المشروعات الصناعية فى تلك البلاد لم يكن يعوق تقدمها نفوذ الارستقراطية والتقاليد ، والى أن السياسة الخارجية فيها كانت بعيدة عن التدخل فى شئون البلاد الاخرى · وقد اختار شعارا لنشرته الاولى القول المأثور عن واشنجتون : «ان القاعدة الكبرى عندنا فيما يتعلق بتصرفاتنا تجاه الشعوب الاجنبية هى أن نحد من علاقاتنا السياسية بها بقدر الامكان ونحن نعمل على توسيع نطاق تجارتنا معها» · وقد ظل طوال اشتغاله بالسياسة يحث الساسة الانجليز على الاخذ بهذا الرأى ولكن دون جدوى · وعندما عرض عليه بالمرستون فى سنة ١٩٥٩ منصبا وزاريا رفضه لانه لم يستطع أن يوافق على السياسة الخارجية التى كان يتبعها ذلك الوغد العجوز ·

وكان كوبدن ، على نقيض معظم الساسة فى عهده ، يرى أن الصناعة — لا التسليح — مصدر القوة القومية ، وبناء على ذلك كانت أمريكا فى نظره أهم من روسيا ، فهو يقول :

«ينبغى للمشتغلين بالسياسة الداخلية والخارجية عندنا ، أيا كان لونهم ، أن يوجهوا عنايتهم لدراسة الصناعة والاقتصاد والسياسة السليمة فى أمريكا لا لدراسة نمو روسيا ، لان خطر التفوق على انجلترا فى القوة والعظمة انما يأتى عن طريق هذه الميادين التى تعمل فيها أمريكا لا عن طريق مجهودات القوة الوحشية : نعم ، ان منافسة أمريكا الناجحة هى التى ستضعنا ،فى أغلب الظن، فى المرتبة الثانية بين الشعوب» ·

وان وصوله الى هذا الاعتقاد فى سنة ١٨٣٥ لينبىء عن حكمة أكثر مما قد يدركه معظم الناس الان · وقد ظل القيصر حتى فى سنة ١٨٩٨ يتوقع أن تخرج اسبانيا منتصرة فى الحرب الاسبانية الامريكية · وربما كانت الحكومة البريطانية أسرع تقديرا للموقف من وليم الثانى ، الا أنها بلا جدال لم تصل الى الرأى الذى عبر عنه كوبدن الا بعد الحرب الاهلية فى أمريكا ·

ويقول كوبدن فيما يتعلق بتخلص رجال الصناعة الامريكيين من تدخل النفوذ الارستقراطى مايأتى :

« ليس هناك مايصور الظروف المعرقلة التى يجاهد فى ظلها بلد قديم ، مثل بريطانيا العظمى ، لمنافسة غريمتها الأحدث عهدا ، أوضح من أن نلقى نظرة على تقدم السكك الحديدية فى الامبراطوريتين ·

ففى نفس الوقت الذى يتم فيه يوميا تقريبا فى الولايات المتحدةمصادقة أحد المجالس التشريعية فى ولاية من الولايات على انشاء شركة جديدة للسكك الحديدية بين الهتاف وبطريقة لاتكلف سوى دولارات قليلة ، نرى البرلمان البريطانى يعترض بأصواته على عدد من أهم المشروعات التى جاءت فى أعقاب سكة حديد ليفربول ·

فشركة لندن وبرمنجهام ، بعد أن أنفقت حوالى أربعين ألف جنيه فى محاولتها الحصول على موافقة المجلس التشريعى على مشروعها ، فشلت فى مجلس اللوردات · وقد استخلصت مما قيل أمام اللجنة هذه الاسئلة ذات الطابع الخاص :

هل تعرف اسم منزل ليدى هيستنجز ؟ الى أى مدى يقترب الخط الذى تريد انشاءه من هذا المنزل ؟ اذا نظرت من الغرف الرئيسية فى هذا المنزل هل يمر الخط أمام هذه الغرف الرئيسية ؟ كم تبعد عن المنزل النقطة الذى يصبح القطار فيها على مرأى منه ؟ ـ هل يكون هذا حوالى ربع ميل ؟ ـ هل يمكن أن يسمع صوت القاطرة فى المنزل من هذه المسافة ؟ ـ هل يوجد فى هذا المكان أى تقاطع أو جسر للسكة الحديدية ؟ ـ هل هو على مرأى من المنزل ؟ ـ واذا راعينا مصلحة البلاد أليس من الممكن أن ينقل الخط الى مسافة أبعد من مقر ليدى هيستنجز ؟ »

لقد كان لكوبدن كل الحق فى تأكيد مضار سيطرة أصحاب الاراضى الجهلاء· بيد أن هناك جانبا آخر لموضوع السكك الحديدية الامريكية · لقد حصل أصحاب رؤوس الاموال الذين لا يسيطر عليهم سوى مجالس تشريعية مرتشية على مساحات هائلة من الاراضى العامة بلا مقابل ، وابتكروا حيلا بارعة لسلب أموال حملة الاسهم العاديين لمصلحة المديرين · فقد اتبعت طرق فنية منظمة فى نقل الثروة أولا من الملكية العامة الى حملة الاسهم فى الشركات ، ثم نقلها

من هؤلاء الى المديرين · وبهذه الطريقة تركزت القوة الاقتصـــادية فى أيدى قلة بلغت من الثراء حدا لم يعرف من قبل ·

ويبدو أن كوبدن لم يكن يدرى شيئا عن فساد دوائر الاعمال والسياسة فى أمريكا ، على الرغم من أن هذا الفساد وجد منذ رياسة واشنجتن الاولى · فقد كان كوبدن كرجال عصره كلهم تقريبا يؤمن بالمنافسة الحرة ، على أن تكون منافسة تسير وفقا لقواعد معينة ، كلعبة الكريكيت · فما كان ليقبل منافسة فى شراء ذمم القضاء للتصديق على خرق القانون ، أو فى حمل شركات السكك الحديدية على نقل بضائع أحد المتنافسين بأسعار أقل من بضائع غيره · وكان أيضا يرى أن تدخل الدولة بأن تســـاعد رعاياها على حساب الاجانب خرق للقواعد كما يفهمها هو · فقد كان المفروض أن الدولة ليست سوى حـــكم يضمن اتبـــاع المتنافسين للقواعد · ويتحدث وليم جيمس عن شـــاب علم أن الغرض من لعب الكرة هو نقلها الى الجانب الآخر من « قوائم الهدف » ، قام فى ليلة مظلمة ووضع الكرة فى هذا الجانب · وكان الرجال الذين يثرون بمساعدة الدولة فى نظر كوبدن و « مدرسة مانشستر » خارجين على أصول الرياضة خروج هذا الشاب · بيد أن هذا التشبيه لو ذكر لهم لبـــدا لهم غير عادل الى أقصى حد · فهم لم يدركوا أن المنافســـة ، كما تصـــوروها ، لعبة ذات أصول ، بل فـــكروا فيها على أنها قانون من قوانين الطبيعـــة · ولما كانوا مواطنين أمناء وشرفاء فانهم لم يحسوا بأن القانون الجنائى الذى يوجد دائما فى الصورة الخلفية للموقف يفرض على نشاطهم قيودا ولذلك فانهم عندما سمعوا بأعمال فاندربلت وجولد صدموا : لان هذا لم يكن ماعنوه بالمرة! ومع ذلك فمما لا سبيل الى انكاره أنه كان منافسة ·

وكان كوبدن يعتبر الاستعمار ضربا من الحماقة ، وكانت له آراء عادلة حقة عن الهند ، حتى أثناء التمرد عندما فقد معظم الانجليز رؤوسهم · فهو يكتب، والجنون حول الموضوع فى أوجه ، ما يأتى :

« من سوء حظى أنى لا أستطيع حتى أن أتعاون مع الذين يريدون «اصلاح» الهند ، فأنا لا أؤمن بقدرة انجلترا على حكم هذه البلاد مطلقا بصفة مستمرة ، وعلى الرغم من أنى أود أن أرى الشركة وقد ألغيت ــ لانها ستار يخفى عن الشعب الانجليزى مسئولياته المريعة كاملة ــ فانى لا أعتقد أن التاج يستطيع حكم الهند تحت سيطرة البرلمان · فلو أن مجلس العموم طرح جانبـــا كل مسئولياته فى التشريع المحلى وكرس نفسه بكليته لمهمة حكم مائة مليون من الآسيويين لفشل ، ان الهند يجب أن يحكمها الذين يعيشون فى ذلك الجانب من الكرة الارضية · ان شعبها ليفضل أن يحكم حكما سيئا ــ حسب رأينا نحن فى الحكم ــ على أيدى رجال من لونه ومن ذوى قرباه وعشيرته على الخضوع لمذلة أن يحكمهم ــ حكما أفضل ــ جماعة من الدخلاء العابرين يجيئون تباعا من الجانب الآخر من الكرة الارضية ·

ثم يكتب فى الوقت عينه الى برايت قائلا :

« ما أسعد ذلك اليوم الذى لا يكون لانجلترا فدان واحد من الارض فى قارة آسيا . غير أنى لا أرى السبيل الى تحقيق هذا الوضع . وانى لأحمد حسن طالعى اذ لست فى مركز يضطرنى الى التصريح علنا بآرائى فى الموضوع الذى يشغل بال الناس جميعا فى الوقت الحاضر ، لانى ما كنت لاستطيع أن أقول ما أعتقد بصراحة وأظل محتفظا بثقة أية دائرة من الدوائر الانتخابية فى المملكة . ترى أين نجد فردا واحدا لا يؤمن بأن انجلترا سيعمها الخراب اذا حرمت من امبراطوريتها الهندية ؟ دعنى اذن لخنازيرى وخرافى ، التى لم يتسلط عليها هذا الوهم » .

ولم يكن كوبدن فى هذا الوقت عضوا فى البرلمان ومن ثم لم يكن مضطرا للتصريح علنا بآرائه عن الهند ، ولكنه كان يحس بأنه فى عزلة أكثر مما كان ابان حرب القرم . فقد وجد أن أصحاب المصانع فى لانكشير ويوركشير كانوا يعتبرون الهند سوقا يجب المحافظة عليها لمصلحتهم بالحراب البريطانية ، وكان يشكو من أنهم لم يفهموا مبادىء حرية التجارة . ويبدو أنه لم يخطر بباله أن الهند اذا ما تركت وشأنها ، قد تنمى صناعة القطن فيها بمساعدة تعريفة جمركية ، ثم تصبح فى غير حاجة الى واردات مانشستر . ان الاسباب التى تدعو الى عدم محاولة حكم الهند بالقوة أسباب ، فيما أرى ، وجيهة كل الوجاهة ، ولكنى أعتقد أنه كان من الممكن فى ذلك الوقت التوفيق بينهما وبين المصلحة الذاتية المادية التى اتسمت بها صناعة المنسوجات البريطانية . لقد كانت حرية التجارة بالنسبة لكوبدن شيئا أعظم من مجرد اجراء مالى يمليه الادراك السليم ، لقد كانت جزءا من عقيدة أخلاقية متأصلة فى النفس . فقد كان يعتقد اعتقادا راسخا أن الامانة خير سياسة ، ومن ثم كان يعمى أحيانا بعض الشىء عن خير سياسة عندما تكون خير سياسة فى الواقع غير أمينة . وقد أثبت تقدم الصناعة منذ عهده الى يومنا هذا أن ما أملاه عليه قلبه فى هذا الموضوع كان خيرا مما أملاه عليه عقله .

ويتعرض كوبدن فى أيامنا للنقد من ناحيتين متضادتين : من ناحية القوميين ، بسبب نزعته العالمية التى أوحت اليه بحماسته لحرية التجارة ، ومن ناحية الاشتراكيين بسبب نفوره من الحركة النقابية وقوانين المصانع . وأعتقد أن النقد الذى وجه اليه من وجهة النظر الثانية ربما كان أشد قسوة بعض الشىء مما كان ينبغى أن يكون . فمما لا ريب فيه أنه كان يريد تحسين حال الطبقات العاملة ، وما من شك فى أنه حسن أحوال هذه الطبقة الى حد يدعو الى الاعجاب . فقد ارتفعت الاجور الحقيقية بسرعة كبيرة منذ اللحظة التى ساد فيها مبدأ حرية التجارة ، باستثناء فترة حرب القرم عندما كنا نحاصر الموانىء التى كان يجىء منها معظم الغلال المستوردة . وأدى فتح الغرب الأوسط بفضل السكك الحديدية الى تحسين آخر فى الاجور الحقيقية ، ولكنه

ما كان ليـــؤدى الى ذلك لولا حرية التجارة • وقد نجح لورد شافتسبرى ، الذى عالج مشكلة حالة العمال على أساس انسانى ، فى اقرار عدد من قوانين المصانع القيمة المختلفة ، ولكنى لا أعتقد أن باحثا متزنا يستطيع أن يعزو اليه قدرا من الزيادة فى سعادة الاجراء يوازى ما يجب أن يعزى الى كوبدن • ومع ذلك فان لورد شافتسبرى حظى ، بفضل العاطفية التى تغلب على حكم الناس ، بتقدير أكثر جدا من كوبدن فى هذا المجال •

ومن المستحيل ، بطبيعة الحال ، أن نحكم بدقة على نصيب حرية التجارة فى زيادة رخاء بريطانيا ، بيد أنه واضح على الاقل أنه لو ظل قانون الغلال نافذا لتطلب الامر زيادة كبيرة فى العمل الزراعى لاطعام السكان المتزايدين ، ولكان الطعام الذى يمكن الحصول عليه نظير قدر معين من العمل فى تربة بريطانيا أقل مما يمكن الحصول عليه بمبادلة المصنوعات بطعام ينتج فى الخارج • وقد بلغت الزيادة فى الاجور الحقيقية أيا كانت أسبابها ، حدا عجيبا • فها هو ذا كلابهام يقول أن الاجور الحقيقية ارتفعت بسرعة بين سنتى ١٨٥٠ و ١٨٧٤ ثم انخفضت بعد ذلك بعض الشىء حتى سنة ١٨٨٦ ثم ارتفعت مرة أخرى حتى فاقت فى سنة ١٨٥٠ المستوى الذى بلغته سنة ١٨٧٤ • فقد كان معدل الاجَور الحقيقية فى سنة ١٨٧٤ بين ٥٠ ، ٦٠ فى المائة أكثر من معدلها فى سنة ١٨٥٠ • وفيما يتعلق بتجارة القطن ، التى كان كوبدن متصلا بهـــا بصفة خاصة ، فقد كان معدل الاجور حتى فى أحلك اللحظات ، أى فى ســنة ١٨٨٦ ، أعلى من مستواها فى سنة ١٨٥٠ بثمانية وأربعين فى المائة • أما فيما يتعلق بالفترة التى سبقت الغاء قوانين الغلال فقد كانت الاجور النقدية أقل فى سنة ١٨٥٠ منها فى سنة ١٨١٠ ، ولم ترتفع الاجور الا ارتفاعا ضئيلا ، اذا كانت قد ارتفعت على الاطلاق ، بين سنتى ١٨١٠ و ١٨٤٦ ، عندما اعتنق بيل مبدأ حرية التجارة • فاذا نظرنا الى هذه الحقائق تعذر علينا انكار أهمية كوبدن فى رفع الاجور •

وواضح فى الوقت نفسه أن كوبدن كان يعارض أى قيود تفرض على حرية المنافسة بين الاجراء • وكان موقفه من استخدام الاطفال أقل مذهبية • فقد كان يحبذ تحديد ساعات العمل للاطفال وكذلك تحديد السن التى يسمح فيها باستخدامهم ، ولكنه كان يعارض قانون « الساعات العشر » ، الذى كان يهدف لضمان عدم عمل الاطفال عشر ساعات يوميا بأن حرم على المصانع أن تعمل أكثر من هذه الفترة كل يوم • فقد كان التدخل فى ساعات العمـــل للبالغين يبدو له موضع اعتراض من ناحية المبدأ ، وان كانت التجربة قد دلت على أن من أصعب الامور تحديد ساعات العمل للاطفال وحدهم تحديدا فعالا • ويقترح كوبدن فى خطاب له فى سنة ١٨٣٦ ، بمناسبة ترشيحه فى ستوكبورت ، ذلك الاقتراح الخيالى الذى يقضى بأن يقتصد كل عامل عشرين جنيها من أجره ليكون فى استطاعته أن يهاجر الى أمريكا اذا شاء • ويبدو أنه لم يكن يدرك

مطلقا الشرور التى كشفت عنها اللجان الملكية • وهو يقول بقوة فى نشرته الاولى ، عن انجلترا وايرلنده وأمريكا ، انه ينبغى أن نعمـــل على علاج فقر الفلاحين الارلنديين قبل أن نتدخل بدوافع انسانية فى شئون القارة الاوربية، ولكنه لم يخطر بباله أبدا أن هذه الحجج نفسها تنطبق على ظروف الصنـاعة فى انجلترا •

وهو يعبر بصراحة عن موقفه تجاه النقابات فى خطاب كتبه الى شقيقه فى سنة ١٨٤٢ ، فيقول : « ثق أنه لا يمـكن أن نجنى شيء من وراء مصـــادقة النقابات • فهى قائمة على مبادىء من الطغيان الوحشى والاحتـــكار • وانى لافضل أن أعيش تحت حكم باى الجزائر على حكم لجنة نقابية • » ومما لا ريب فيه أن هذه كانت وجهة نظر غالبية أصحاب الاعمال فى عهده ، هذا الى أنها تتفق وايمانه العام بحرية التجارة • الا أنها تصـــور عدم قدرته على رؤية مشاكل العمل الا من وجهة نظر أصحاب الاعمال •

وكان كوبدن ، بطبيعة الحال ، معارضا لاى نشاط صناعى تقوم به الدولة الا عند الضرورة القصوى • فقد قال فى آخر سنى حياته فى خطاب طويل هام « يجب ألا يسمح للحكومة بأن تصنع لنفسها أية سلعة يمكن الحصـول عليها من منتج خاص فى سوق يسودها التنافس» •

هذا ولم يكن انتصار حرية التجارة فى سنة ١٨٤٩ كاملا • فقد تقرر أن تفرض ضريبة ابتداء من سنة ١٨٤٩ قدرها شلن واحد على ربع الطن من الغلال ، وبقيت كذلك بعض آثار الحماية الاخرى ، ولم يلغ آخرها الا فى سنة ١٨٧٣ • وكانت السياسة العامة للحكومة فى جانب حرية التجارة حتى سنة ١٩١٤ ، على الرغم من قيام أنصار الحماية بحملة بين سنة ١٨٨٠ و ١٨٩٠ ، وحملة أخرى أكبر منها بدأها جوزيف تشمبرلين فى ســـنة ١٩٠٣ • وكان أكبر سبب فى هزيمته فى الانتخابات هو ذكريات باقية عن « سنوات الجوع بين سنة ١٨٤٠ و ١٨٥٠ » • وقد تقدمت جميع الطبقـــات فى انجلترا بسرعة غير عادية أثناء الجزء الاول من فترة حرية التجارة بصفة خاصة • ولم يكن السبب فى ذلك حرية التجارة وحدها بطبيعة الحال ، فقد كان التفوق الصناعى لانجلترا ومد خطوط السكك الحديدية فى عرض القارة الامريكيـــة عاملين أساسيين فى هذا التقدم • غير أن هذا التقدم ما كان ليتحقق بهذه السرعة بغير حرية التجارة • وقد أثبتت مذاهب الاقتصاديين ، من سنة ١٨٤٦ الى سنة ١٩١٤ مع بعض تعديلات فيها كانت تحدث من آن الى آن ، أنها كانت كافية ، بصفة عامة ، لان تهيىء لجميع الطبقات حياة راضية مطردة التحسن•

أما فى غير انجلترا فقد كانت الأوضاع أكثر تعقيدا • نعم ان كوبدن قد حمل نابليون الثالث على السماح بحرية أوسع للتجارة بمقتضى معاهدة سنة ١٨٦٠ التجارية التى ألغت الموانع السابقة على استيراد عدد كبير من السلع

وخفضت الضرائب الفرنسية على كل الواردات تقريبا من انجلترا الى ٣٠ ٪ أو أقل . غير أن هذه المعاهدة لم تبرم الا بنفوذ نابليون ولم تحظ فى أى وقت من الأوقات بالقبول العام فى فرنسا . ذلك أن أصحاب المصانع شعروا ، وهو أمر طبيعى ، أنهم لا يستطيعون مواجهة المنافسة الانجليزية دون مساعدة التعريفة الجمركية . ومع ذلك ، عقد نابليون معاهدة مماثلة مع الاتحاد الجمركى الالمانى بعد ذلك بسنتين ، على الرغم من عدم تحمسهم لهذه السياسة وكانت الطبقة الوحيدة فى فرنسا التى رحبت من كل قلبها بحرية التجارة هى طبقة زراع الكروم لانهم كانوا يعتمدون على التصدير . الا أنه عندما أصابهم الخراب نتيجة لاصابة كرومهم بحشرة الفيلوكسيرا اقتنعوا بأن الضريبة الجمركية ستمكنهم بطريقة خفية من مقاومة هذه الحشرة البغيضة . ولم يعد فى فرنسا من تلك اللحظة أنصار لحرية التجارة سوى عدد قليل من المفكرين المعزولين . الا أن فرنسا لم تفرض تعريفة جمركية حامية مرتفعة عامة الا فى سنة ١٨٩٢ ، وذلك بسبب المعاهدات التجارية التى عقدت بنفوذ كوبدن .

وفى ألمانيا ، حيث كان تعدد الدول الصغيرة التى لكل منها جماركها الخاصة يسبب مضايقات لا تحتمل للتجارة ، كانت أهم خطوة نحو حرية التجارة من وجهة نظر رجال الصناعة ، هى انشاء الاتحاد الجمركى الالمانى (الزلفراين)، الذى أصبح يضم بالتدريج كل شمال ألمانيا وبعد سنة ١٨٧١ كل الامبراطورية الجديدة ما عدا هامبورج وبريمين ، وكان أكبر الفضل فى اقامة هذا الاتحاد راجعا الى بروسيا . وكان لحرية التجارة بطبيعة الحال ، وهى الحرية التى كان شتاين أول من أدخلها فى ألمانيا ، شأن فى تكوين هذا الاتحاد ، خاصة قبل الوحدة السياسية . هذا الى أن القوة السياسية كانت أساسا فى أيدى كبار أصحاب الاراضى ، وترتب على ذلك أن رجال الصناعة أحسوا بما أحس به أقرانهم فى انجلترا قبل سنة ١٨٤٦ . وكان نتيجة لذلك أن الاحرار والطبقة الوسطى من الالمان كانوا فى مجموعهم فى صف حرية التجارة حتى أحلت الوحدة الالمانية الشعور بالقومية محل التحررية . وفى سنة ١٨٧٠ دفع بسمارك ألمانيا الى هجر سياسة حرية التجارة التى كانت قائمة فعلا وكانت لها الغلبة حتى ذلك الوقت . ولم يكن للايمان بحرية المنافسة منذ تلك اللحظة شأن فى السياسة الالمانية .

وفى أمريكا اعتنق الشمال نصف مذهب كوبدن واعتنق الجنوب النصف الآخر . فكان الجنوب يحبذ حرية التجارة لانه كان يعيش على تصدير القطن وكان الاثر الوحيد للتعريفة بالنسبة له هو رفع أسعار ما يشتريه بيد أن الجنوب كان يعتمد على الرق ، أما الشمال فكانت تدينه الديموقراطية والعمل الحر ، ولكنه كان مصمما على بناء صناعاته على أساس تعريفة مرتفعة . ولم تصبح الصناعة فى الشمال ذات أهمية حقيقية الا أثناء الحرب الاهلية وبتأثير تعريفة وقت الحرب . ومنذ ذلك الوقت صارت أمريكا من أنصار

الحماية حتى فى الأوقات التى لم تكن فيها بحاجة الى الدخل المتجمع من التعريفة وكان مصدر ارتباك للادارة .

ان منزلة كوبدن فى القارة الاوروبية كانت عظيمة على الرغم من أن نفوذه فى التشريع ، خارج انجلترا ، كان نفوذا ظاهريا قصير الاجل . وقد قام فى سنة ١٨٤٦ ، بعد انتصاره الكبير فى انجلترا ، برحلة الظافر المنتصر حول أوروبا .

« لقد استقبل فى كل مكان استقبال المكتشف العظيم فى علم يهم الجنس البشرى فى مجموعه أكثر من أى علم آخر ، هو علم الثروة . فقد أقنع أغنى بلد فى العالم بأن يحدث انقلابا فى سياسته التجارية . وكان الناس ينظرون اليه نظرتهم الى رجل اكتشف سرا هائلا . فكانت كل مدينة مهمة تقريبا زارها فى جميع بلاد أوروبا الكبرى تحتفل بزيارته باقامة الولائم وشرب الانخاب وخطب التهنئة . وقابل البابا وثلاثة أو أربعة من الملوك وكثيرين من السفراء وكل الساسة النابهين . ولم يترك فرصة واحدة تمر دون كلمة يقولها فى موضعها . بل انه رجا قداسة البابا نفسه ، أن يستعمل نفوذه ضد مصارعة الثيران فى أسبانيا (★) » .

وكان قداسة البابا حتى ذلك الوقت (١٨٧٤) لا يزال ضالعا مع الاحرار ، ولم يكن قد أدرك بعد أن التجارة تؤدى الى الخطيئة ، فكان فى رده على كوبدن كريما جدا . ووعد بالنظر فى موضوع مصارعة الثيران ، « وأعلن أنه فى جانب حرية التجارة ، وقال أنه سيفعل كل ما فى وسعه لنصرة قضيتها ، ولكنه أضاف متواضعا أن ما يستطيع عمله قليل » .

وقابل كوبدن مترنيخ بعد ذلك بأشهر قليلة ، وتحدث اليه مترنيخ فترة طويلة بلا انقطاع ، ولكن الحديث لم يكن عن حرية التجارة . ومن ثم لم يترك أثرا كبيرا فى نفس كوبدن الذى اعتقد أن مظهره يدل على « الصقل الجيد أكثر مما يدل على قوة كامنة فى الشخصية » ، وان حديثه كان « مراوغا أكثر منه عميقا » . وبعد المقابلة كتب متفائلا فى يومياته :

« يغلب على الظن أنه آخر تلك الفئة من أطباء الدولة الذين يقتصرون على النظر الى الاعراض التى تظهر على الامة فيكتفون بعلاجات سطحية من يوم الى آخر ، ولا يحاولون مطلقا أن ينفذوا الى ما خلف السطح لاكتشاف مصدر الشرور التى يعانيها النظام الاجتماعى . وستختفى هذه الفئة من الساسة باختفائه ، فلقد سلطت الاضواء على «معامل الحكم» بشدة بحيث لم يعد يسمح لهذه الفئة أن تفرض على الجنس البشرى القواعد القديمة » (★) .

وكانت النمسا والروسيا مهذبتين ، ولكنهما لم تقابلاه بحماسة ، ولكنه حظى فى أسبانيا وايطاليا وألمانيا بحفاوة شعبية منقطعة النظير . ففى أسبانيا

(★) مورلى - « حياة كوبدن » (١) ص ٤٦٤

(★) مورلى - المرجع السابق - ص ٤٧٤

شبه بكريستوفر كولمبوس ، وفى أيطاليا حياه الموسيقيون بأنغامهم ، أما في ألمانيا فقد أهداه المعجبون به من أهلها مبلغا كبيرا من المال . وقد أغضب ذلك تريتشكة الذى كان يبغضه باعتباره « ماديا » ، وقال فى هذا :

« ان التحول الذى تم في انجلترا قد أوحى لانصار حرية التجارة فى جميع البلاد بثقة فى النفس وفى النصر ، وقد سادت مبادئهم خلال العقدين التاليين فى العالم المتمدين . وفى كل مكان فيه تقريبا . فكل اكتشاف جديد يستطيع القرن الثامن عشر أن يفخر به قد أسهم فى ربط الشعوب بعضها ببعض بحيث بدا أن قطع هذا الرباط بالتعريفات العدائية يكاد يكون مما لا يقبله العقل . وبدأت فترة طويلة من التسامح المتبادل لتسهيل التجارة ، وكان ذلك من عوامل تحسن ظروف الحياة بصفة عامة . ولكن الناس أدركوا أخيرا تلك الحقيقة القديمة ، وهى أن السوق المحلية أهم كثيرا من التجارة العالمية »

ويعود الفضل فى ذلك الانتشار الواسع الذى حظى به مبدأ حرية التجارة فى منتصف القرن التاسع عشر الى كوبدن ، ولكن آدم سميث كان أول من نادى بهذا المبدأ قبل ذلك بوقت طويل (فى سنة ١٧٧٦) ثم ضاع بعد ذلك فى غمرة الحروب النابليونية . أما الحجج المعنوية المجردة التى تساق دفاعا عن حرية التجارة والتى عرضها سميث وقبلها معظم رجال الاقتصاد البريطانيين فمستمدة من مبدأ تقسيم العمل . فاذا كان (أ) يجيد صنع السيارات و (ب) يجيد عصر الخمور فانه من الأجدى على الاثنين أن يخصص كل منهما نفسه بصنع مايجيده وأن يتبادل ماينتجه مع الآخر . أما اذا أنفق كل منهما نصف يومه فى صنع السيارات والنصف الآخر فى صنع الخمور فان كلا منهما سيحصل على سيارات أقل وخمور أقل مما اذا قصر جهوده على عمله . وتبقى هذه الحجة صحيحة اذا كان (أ) يعيش فى قطر ، و(ب) يعيش فى قطر آخر . بيد أن هذه الاعتبارات المجردة قلما كانت تؤثر فى الحكومات .

وكان الاقتصادى الالمانى « ليست » أول من هيأ دفاعا نظريا عن مبدأ الحماية (فى سنة ١٨٤١) . وكان هذا الدفاع هو نظرية : « الصناعات الوليدة » الشهيرة . خذ الصلب مثلا . فقد يحدث أن يكون بلد ما مهيأ بالطبيعة لانشاء صناعة ضخمة فى الصلب وتنميتها ، ولكن النفقات الاولية تجعل البدء بهذه الصناعة مستحيلا بسبب المنافسة الاجنبية الا اذا أمكن الحصول على مساعدة الحكومة . وقد كان هذا الوضع قائما فى المانيا عندما كتب ليست ولفترة ما بعد ذلك . بيد أن التجربة دلت على أن الحماية اذا منحت مرة لا يمكن الرجوع فيها حتى بعد أن يكبر الوليد ويصبح عملاقا .

وهناك حجة أخرى ليست اقتصادية بحتة تركت أثرا أعمق فى الحكومات ، وهى أنه يجب على الأمة أن تنتج كل احتياجاتها ، على قدر المستطاع ، فى وقت الحرب . وهذا الرأى جزء من مبدأ القومية الاقتصادية الذى لقى معارضة شديدة من مدرسة ما نشستر التى كانت تدعو الى السلام والى مقاومة الاستعمار . وقد أثبتت القومية الاقتصادية فى النهاية أنها أقوى من النظرة

التجارية البحتة التى نادى بها كوبدن ، بيد أن ذلك لم يكن سوى جانب واحد من جوانب نمو القومية بوجه عام .

ان مبدأ حرية المنافسة كما نادت به مدرسة ما نشستر كان مبدأ لم يأخذ فى الاعتبار بعض قوانين القوى الاجتماعية . فأولا ، تتجه المنافسة الى أن تنتهى بانتصار طرف ما ، وتكون النتيجة أن تنعدم المنافسة ويحل محلها الاحتكار ، والمثل الشائع المعروف لذلك حياة روكفلر ، وثانيا ، هناك اتجاه لأن تتحول المنافسة بين الافراد الى منافسة بين الجماعات، لان عددا من الأفراد يستطيعون أن يزيدوا من فرص انتصارهم اذا اتحدوا بعضهم مع بعض . ولهذا المبدأ مثلان هما النقابية والقومية الاقتصادية . وكان كوبدن ، كما رأينا ، يعارض الحركة النقابية . ومع ذلك فهى نتيجة حتمية للمنافسة بين أصحاب الأعمال والعمال فيما يتعلق بنصيب كل منهما فى مجموع الانتـــاج . وقد عارض كوبدن أيضا القومية الاقتصادية . ولكن القومية الاقتصادية نشأت بين أصحاب رؤوس الأموال لدوافع مشابهة جدا لتلك التى أدت الى نشـــوء النقابية بين العمال . فقد اتضح لرجال الصناعة فى كل من أمريكا وألمانيا أنهم يستطيعون زيادة ثروتهم بالاتحاد لانتزاع مزايا من الدولة ، وبهذه الصورة أصبحوا منافسين بوصفهم مجموعة قومية لمجموعات قومية فى بلاد أخرى . وكان هذا تطورا اقتصاديا محتوما وان كان منافيا لمبادىء مدرسة مانشستر . وقد فشل كوبدن ، فى كل هذه المسائل ، فى فهم قوانين التطور الصناعى ، وترتب على ذلك أن مبادئه لم تبق قائمة الا زمنا محدودا .

وعلى الرغم من أن مبدأ حرية المنافسة كانت حدوده تضيق باستمرار من حدوده باستمرار — بواسطة قوانين المصنع ، والنقابات ، والضرائب الحامية، والموثقات — فقد ظل مثلا أعلى يلجأ اليه رجال الاعمال كلما أريد التدخل فى نشاطهم . ولا يزال القائمون على رأس الاحتكارات الضخمة فى أمريكا يعلنون أنهم يؤمنون بالمنافسة — وان كانوا يعنون بها المنافسة بين العمال فى الحصول على عمل لديهم . وما زالوا — يؤمنون — كما كان فرانسيس بليس يؤمن — بأن المنافسة هى الدافع الوحيد الممكن للجد والنشاط . وقد أصبح هـــذا الاعتقاد مضرا لانه يعرقل التنظيم حيثما يكون هذا التنظيم أجدى من المنافسة غير المنظمة . ومع ذلك فانه فقد حدته كثيرا عما كان منذ ستين عاما . فقد كان يبدو فى ذلك الوقت كان داروين قد أضفى عليه قدسية باعتباره قانونا من قوانين الكون .

فقد نشر كتاب داروين « أصل الأنواع » سنة ١٨٥٩ . ويمكن اعتباره تطبيقا لاقتصاديات بنتام على عالم الحيوان . والناس جميعا يعرفون أن داروين قد وصل الى مبدأى تنازع البقاء والبقاء للأصلح بقراءته نظريات مالتس . أن جميع الحيونات مشغولة بالصراع الاقتصادى للحصول على الطعام ، وأن

الحيوانات التى روضت نفسها ترويضا أكمل على اتباع تعليمات « سمايل» عن «مساعدة النفس» هى التى تعيش وتكون أسرا ، بينما تفنى الحيوانات الاخرى ٠

ومن هنا ينبعث اتجاه عام نحو التقدم : فأكثر الحيوانات مهارة يقضى بالتدريج على الحيوانات الغبية ، حتى نصل فى النهاية الى الانسان ٠

والداروينية كما تبدو فى كتابات مؤسسها ، وكما تبدو أكثر من ذلك فى كتابات هربرت سبنسر ، تكملة للراديكالية الفلسفية ٠ بيد أنها تتضمن عناصر كانت تصيب هلفسيوس وجيمس مل ، لو انهم عرفوها بصدمة ، وبصفة خاصة ما كان منها متصلا بالوراثة ٠ فقد كان من بين المبادىء التى تميزت بها الراديكالية أن الفوارق الذهنية بين الناس ترجع الى اختلاف التربية ٠ بأوسع معانى هذه الكلمة ٠ الا أن داروين يعتبر الوراثة مقترنة بالتغيرات التلقائية من ضرورات التطور ٠ فهناك عدة أنواع من الحشرات يموت فيها الجيل قبل أن يولد الجيل التالى ، وواضح أن تكيفها مع البيئة لا يعود مطلقا الى التربية ٠ ولا مناص من أن يؤمن كل فرد من أنصار الداروينية ، بوجود فوارق خلقية فى القوى الذهنية بين أفراد الجنس البشرى ٠ ان جيمس مل قال لابنه جون أن مابلغه هذا لايرجع الى قدرة شخصية فيه بل يرجع الى أن له والدا بذل مجهودا كبيرا فى تعليمه ٠ ولكن لو أن داروينيا سئل عن هذا لعزا بعض التقدم الذى أحرزه جون الى الوراثة ٠ وقد أحدث هذا صدعا فى مبدأ الراديكالية القائل بأن كل الناس قد ولدوا أكفاء ٠

وكان من السهل بطبيعة الحال مواءمة الداروينية مع القومية ٠ فاليهود مثلا أو أهل الشمال أو أهل اكوادور يعلنون أنهم خير البشر ، ويستخلص من ذلك أنه يجب عمل كل ما يمكن لزيادة ثرائهم — على الرغم من أن الاحصاءات تدل على أن الاغنياء أقل ذرية من الفقراء ٠ وبهذه الطريقة أيضا هيأت الداروينية فرصة للتحول من النظرة العالمية التى نادى بها الراديكاليون الفلسفيون الى التعصب العنصرى الهتلرى ٠

وانه لما يستلفت النظر أن نلاحظ كيف بدأ علماء الأحياء يتحولون عن تنازع البقاء بوصفه دافعا للتطور لما أخذ الاعتقاد فى المنافسة الحرة يضمحل فى العالم الاقتصادى ٠ وان ما أحلوه محل تنازع البقاء لشىء غير محدد على الاطلاق ، الا أنه على أى الاحوال شىء مختلف عنه كل الاختلاف ٠ ولعل نظريتنا فى التطور ستصبح واضحة مرة أخرى عندما تستقر أحوالنا السياسية ٠

وهناك ناحية أخرى أصابت فيها الداروينية تلك الصورة من المنافسة التى نادى بها كوبدن بضربة قاصمة ٠ تلك هى أن المنافسة ، كما فهمتها مدرسة مانشستر ، لم تكن منافسة بين الافراد — وليست بين الجماعات — فحسب ، بل انها كانت أيضا منافسة اقتصادية بحتة داخل اطار من القانون ٠ بيد أن

المنافسة بين الحيوانات ليست محدودة بهذه الطريقة · كما كان واضحا من الناحية التاريخية أن أهم صور المنافسة بين البشر هى الحرب · وهكذا اتجهت الداروينية ، فى صورتها الشعبية ، لأن تكون عدائية واستعمارية ، وان لم يكن لداروين نفسه هذه الاتجاهات ·

ومن ثم كانت الداروينية ، على الرغم من أصلها ، قوة معادية للكوبدنية والراديكالية الفلسفية على السـواء · فهى بتأكيدها أهمية الوراثة أضعفت من ايمان الناس بما للتزبية من قوة عظيمة ، وأحلت محله الاعتقاد بأن بعض الاجناس أفضل فى ذاتها من غيرها · وقد أدى هذا الى تأكيد القومية · كما أن الاعتراف بأن الحرب وسيلة من وسائل المنافسة قد قضى على الارتباط بين المنافسة والدعوة الى السلام ، وهو الرباط الذى كان دائما غـير متجانس ، لأن الشريك الطبيعى للسلام هو التعاون ·

وأنا لاأقول بأن الداروينية الشعبية قد تأيدت بالدليل العلمى فىاستخلاصها هذه النتائج · فلعلها كانت تحتفظ بوجهة نظر داروين وسبنسر السياسية لو أنها نشأت فى بيئة أخرى · ومما لاشك فيه أن علم الأحياء ، كمـا هو الآن ، لا يبرر القوميةأو حب الحرب · الا أن مبادىء داروين كانت مصدرا للمصاعب الفـكرية فى الصـور المتـأخرة من الراديكالية · كمـا كانت مبـادىء مالتس مصـدرا للمصاعب الفـكرية فى صـورتها الأولى من الراديكالية · وكما أن المشكلة الأولى قد تغلب عليها ضبط النسل ، كذلك يمكن التغلب على الصعوبة المتأخرة بواسطة علم تحسين النسل · الا أنه يجب أن يكون هذا علما قائما على أسس علمية أكثر وبعيدا عن القوى أكثـر ممـا نراه فى أية صورة من صوره المنتشرة فى هذه الايام ·

القسم الثـــانى

البـــاب الثالث

الاشتراكية

القسم الثـــانى

البـــاب الثالث

الاشتراكية

الفصل الخامس عشر

أوين والاشتراكية البريطانية الاولى

الفصل الخامس عشر

أوين والاشتراكية البريطانية الاولى

لم يخل الأمر من تحد لمذهب التجـــارة والعمل حتى فيالوقت الذى بلغ فيه أعظم قوته ، فقد كان معظم أصحاب المصانع ينظرون الى الدولة على أنها مصدر للتشريعات والأوامر الملكية التى تصدر بناء على توصية المجلس الخاص، وكانوا يحاولون أن يجعلوا وظيفتها مقصورة على معاقبة العمال المتذمرين • وبدا لهم أن كل تنظيم شر وكانوا يريدون أن يترك كل انسان وشأنه (فى حدود القانون) لينجو أو يهلك بقدر ما تمكنه من ذلك مقدرته •

الا أن « المصنع » كان يستطيع مع ذلك أن يوصى بنوع آخر من الافكار يختلف عن هذا كل الاختلاف ، وذلك لعدة أسباب أولها أن كل مصنع كبير هو فى ذاته منظمة وتعتمد كفايته على حسن تنظيمه • وثانيها ، أن القدرة الانتاجية لأى مصنعمجهز حسنالاعداد يبلغمنالضخامة درجةكبيرة، اذا لميكن يصحبها حسن التنظيم ، أدت الى اكتظاظ الأسواق بالمنتجات اغراقا يؤدى الى خراب أصحابه وتشريد عماله • فأى مصنع اذن عندما ننظر اليه من داخله يوحى بفائدة التنظيم ، واذا نظرنا اليه من خارجه بدت لنا مخاطر الانتاج الذى لاضابط له • وهذه الأفكار وأمثالهـــا هى التى جعلت روبرت أوين مؤسس الاشتراكية بعد سنين عديدة قضاها صاحب مصنع ناجح •

ان الرواد الاوائل فى كل حركة ذات بال ليسوا عادة فى مستوى من يأتون بعدهم من الناحية الفكرية • فقد كان هناك شعراء ايطاليون قبل دانتى ومصلحون بروتستانت قبل لوثر ، ومخترعو آلات بخارية قبل جيمس وات • أولئك قوم يرجع اليهم فضل أصالة التفكير ، لا فضل النجاح فى التنفيذ •

وينطبق هذا القول نفسه على روبرت أوين • فهـو لم يكن واسع الاحاطة بالموضوع مثل كارل ماركس ، كما أنه ليس مجادلا ممتازا مثل معاصريه الذين اعتنقوا مبدأه والذين أقاموا آراءهم على الأسس التى وضـــعهـــا آدم سميث • ولكن آراءه لم تكن محصورة داخل نطاق جامد ، ولهذا أصبح باعث عدة اتجاهات هامة فى نماء الاشتراكية • وكان من بعض النواحى يسبق عصره الى درجة تدعو الى الدهشة • فهو يفكر فى الصناعة من ناحية مصالح الأجراء ثم يحتفظ فى الوقت عينه بعقلية صاحب المصنع الكبير الدكتاتورية •

وهو فى ذلك يذكرنا بروسيا السوفييتية : فمن السهولة بمكان أن نتصوره وقد دفعته الحماسة لاعداد مشروعات خمس سنوات ثم يفشل لعجزه عن فهم نظام الزراعة ٠٠ الا أن الاستمرار فى هذا التشبيه الى أبعد من ذلك قد يؤدى بنا الى تنكب طريق الصواب • فلم يكن أوين حكيما بكل ما تعنيه هذه الكلمة ، ولكنه كان قديسا عظيم القداسة ، وقل أن نجد فى الناس من كانوا أقرب منه الى القلوب • فقد جاءت شخصيته الحساسة الكريمة مثل مطـــر الصيف عقب جو النفعيين الجاف المترب وبين فظائع نظام المصانع الذى كان سائدا فى أيامه •

وقد ولد روبرت أوين سنة ١٧٧١ فى مدينة صغيرة هى نيوتاون بمقاطعة مونتجمرى ومات فيها سنة ١٨٥٨ (×) وقد اتسمت حياته الطويلة التى بلغت ٨٧ عاما بنشاط لا يكاد يصدقه العقل • ومرت خلال مراحل متعددة ، بعضها مهم وبعضها غير ذى أهمية ، ولكنها جميعا جديرة بالاهتمام من حيث أنها تصور شخصية عجيبة • كان والده صانع سروج وكان أيضا وكيل مكتب البريد ولكن مرتب هذه الوظيفة لم يكن بالتأكيد يتجاوز عشرة جنيهات فى السنة • والتحق روبرت بالمدرسة فى الرابعة من عمره ، ولكنه فى ســن السابعة ، بعد أن تعلم القراءة والكتابة والحساب ، عمـــل مساعد معمل ولم يتعلم شيئا جديدا فى المدرسة خلال العامين التاليين سوى فن التعليم • الا أنه كان يتمتع بميزات معينة بعد ساعات العمل فى المدرسة ، وفى ذلك يقــول : « لما كنت أعرف كل أسرة فى المدينة ، وتعرفنى كل أسرة فيها ، كانت مكتبات القس والطبيب والمحامى — مثقفى المدينة — مفتوحة أمامى ، وكان يسمح لى بأن آخذ منها أى كتاب معى الى منزلى ، وقد استفدت من هـــذا التصريح الى أقصى حد » وقد حاولت ثلاث عوانس من شيعة النظاميين أن يحولنــه الى شيعتهن ولكنه يقول : « لما كنت قد قرأت كتبا دينيةمن جميع الشيع المختلفة فقد تولتنى الدهشة : أولا للاختلاف القائم بين المذاهب المختلفة فى المسيحية ، ثم للعداء المرير بين المسيحيين واليهود والمسلمين والهندوس والصينيين ٠٠ الخ ، وبين هذه النحل من ناحية ومن كانوا يطلقون عليهم كفرة ووثنيين من ناحية أخرى • وقد أخذت دراسة هذه الأديان المتعارضة والعــــداء الذى يكنه كل منها لغيره تثير فى نفسى الشكوك نحو سلامة أى منها ٠٠٠ وقــد اضطرتنى قراءتى الدينية مضافة الى قراءاتى الأخرى الى أن أشــــعر شــعورا قويا ، وأنا فى العاشرة من عمرى ، بأن هناك شيئا جوهريا غير سليم فى كل هذه الأديان بالطريقة التى يبشر بها أصحابها حتى ذلك الوقت » •

(×) ان المعلومات المتعلقة بتاريخ حيـاة اوين التى سيأتى ذكرها مستمد معظمهـا من كتاب « سيرة روبرت اوين » تأليف بودمور سنة ١٩٠٦ ، وهناك كتاب كول « حياة اوين » وهو أيضا مفيد •

ويقول أوين : أنه على ما يذكر ، لم يعاقبه والده سوى مرة واحدة :

« لقد كنت أحب دائما أن ألبى رغبات والدى ، ولم أرفض لهما طلبا أبدا . وحدث في يوم من الأيام أن وجهت الى والدتى حديثا لم أسمعه جيدا وافترضت أن الرد المناسب هو أن أقول : « لا » وقلت : « لا » وأنا كعادتى معتقد أننى أحقق رغباتها . ولم تفهمنى والدتى وظنت أنى أرفض ما تطلب ، فقالت فورا فى حدة — وكانت عادتها أن تكلمنى برفق — « ماذا ؟ ألا تريد أن تفعل ؟ » . ولما كنت قد قلت « لا » فقد اعتقدت أنى اذا قلت «نعم سأفعل » أكون مناقضا لنفسى وبالتالى كاذبا ، فقلت مرة أخرى « لا » ولكنى لم أقصد مطلقا عصيانها . ولو أنها عندئذ سألتنى فى تأن وهدوء عن حقيقة شعورى وأفكارى لكنا تفاهمنا المفاهم الواجب ولسارت الأمور كلها خير مايرام ولكن والدتى لم تكن قد فهمت حقيقة شعورى وأفكارى فاستمرت تتكلم بحدة وغضب أشد من ذى قبل لأنى لم أكن قد عصيتها قبل ذلك أبدا ، وقد أدهشها بلا ريب وغضبت أشد الغضب عندما قلت « لا » مرة ثانية . ولم تكن والدتى تتولى معاقبة أى منا بل كانت تترك الأمر لوالدى ، وكان أشقائى وشقيقاتى كثيرا ما ذاقوا طعم السوط الذى كان يحتفظ به والدى للمحافظة على النظام بين الأطفال ، لكنى لم أكن قد ذقت طعم السوط قبل ذلك أبدا . ونادت والدتى أبى وأبلغته رفضى . ثم سئلت مرة أخرى هل أنا مستعد لتنفيذ ما أمرت به والدتى ، فأجبت فى اصرار « لا » ، وعندئذ ذقت طعم السوط المرة بعد المرة وهما يكرران سؤالى هل أطيع وأجيب بالرفض . وظل السوط يلهب ظهرى وأنا مصر على الرفض الى أن قلت فى هدوء ولكن فى حزم — قد تقتلوننى لكنى لن أفعل ، وكان فى ذلك فصل الخطاب . ولم تبذل بعد ذلك مطلقا أية محاولة لعقابى . وانى مقتنع كل الاقتناع ، من شعورى ابان طفولتى الذى لازلت أذكره جيدا ، أن العقاب كثيرا مايكون عديم الجدوى، بل هو مؤذ جدا وضار بمن يعاقب وبمن يوقع عليه العقاب » .

وعندما بلغ أوين العاشرة من عمره أقنع والديه بأنه بلغ السن التى يسمح له فيها بأن يسعى الى رزقه فى العالم بنفسه . فأعطاه والده أربعين شلنا وأرسله الى لندن ليقيم مع أخيه الأكبر الذى كان يملك محلا لصناعة السروج فى « هاى هولبورن » . وبعد ستة أسابيع حصل هذا الصبى الذى لم يتجاوز العاشرة من العمر على عمل عند مستر جيمس ماكجوفوج وهو صاحب متجر فى ستانفورد بمقاطعة لنكولن . ومنذ هذه اللحظة لم يكلف أبويه قرشا واحدا . وسارت الأمور على ما يرام ، فقد أحبه مخدومه وأحب هو مخدومه . ويبدو أن مثار الخلاف الوحيد بينهما كان موضوع الدين :

« لقد اضطررت وأنا كاره ، بعد تردد طويل وأسف ونزاع فكرى أن أنبذ انطباعاتى الأولى المتأصلة فى نفسى عن تفوق المسيحية ، غير أنى ، وقد

اضطررت الى نبذ ايمانى بهذه العقيدة ، لم يعد أمامى سوى أن أنكر كــل العقائد الأخرى لأنى اكتشفت أنها جميعا قائمة على نفس التصور السخيف. الذى يذهب الى « أن كل انسان يكون صفاته بنفسه - فيتحكم فى أفكاره وارادته وتصرفاته - وأنه مسئول عنها أمام الله وأمام الناس » وقد أدت بى تأملاتى الى نتائج أخرى تختلف عن هذه كل الاختلاف ، فقد انتهيت من تفكيرى فى الموضوع الى أنى ما كنت لأستطيع أن أكون آية صفة من صفاتى ، فقد فرضتها الطبيعة على فرضا ، وأن لغتى ودينى وعاداتى فرضها على المجتمع ، وأننى بهذا وليد المجتمع بحق وأن الطبيعة تغرس الصفات والمجتمع يوجهها . وهكذا اضطررت الى انكار كل ايمان بأى دين من الأديان التى تعلمها الانسان. بعد أن تبينت خطأها جميعا فى الأساس الذى تقوم عليه . الا أن مشـــاعرى. الدينية لم تترك وراءها فراغا ، فما لبث أن حل محلها فورا روح البر نحو جميع الناس - لا نحو شيعة أو حزب ، ولا نحو بلد أو لون - بل نحو الجنس البشرى ، روح تصحبها رغبة جارفة فى فعل الخير لهم ».

وأيا أكان الامر فقد وجد أوين أن لابد له من البحث عن عمل آخر ، ووجد هذا العمل فى محل فلنت وبالمر على جسر لندن ، حيث حسب أوين نفســـه ثريا بمرتب قدره ٢٥ جنيه فى السنة . وكانت واجباته فى هذا العمل مرهقة. فقد كان عليه أن يكون فى المتجر الساعة الثامنة صباحا كامل الهندام ، « ولم تكن عملية ارتداء الملابس وقتئذ سهلة . فقد كان على ، وأنا طفل فى ذلك الوقت ، أن أنتظر دورى أمام الحلاق ليرتب شعرى ويضع عليه المسحوق والدهان ويثنيه ، وكانت لدى خصلتان كبيرتان من الشعر على جانبى رأسى وضفيرة من الخلف ، ولم يكن أحد يتصور أن يظهر أمام الزبائن قبل أن يتم ترتيب هذا كله بعناية » . ولم يكن العمل ينتهى بعد أن يغلق المتجر أبوابه ، وكثيرا ما كانت الساعة تدق الثانية قبل أن يأوى الى فراشه . وكان يضايقه عدم وجود فراغ لديه يقضيه فى تعليم نفسه ، ويخشى أن تضر ساعات العمل الطويلة بصحته فى آخر الامر ، ومن ثم حصل على عمل آخر عند مستر ساترفيلد فى مانشستر . وبقى فى هذا العمل حتى سنة ١٧٨٩ عندما قرر أن يبدأ عملا لحسابه الخاص وكان قد بلغ رشده فى الثامنة عشرة من عمره .

وفى ذلك الوقت كان منسج كومبتون حديث العهـــد جدا ولم يكن قد تم تسجيل حق اختراعه بعد . واقترض أوين ١٠٠ جنيه من شقيقه واشترك مع رجل اسمه جونز وبدأ يعمل فى صنع آلات الغزل . ولـكن جونز وجد فى العـام التالى شريكا لديه رأس مال أكبر من أوين اشترى حصة أوين ، واتفق أن يكون نصيبه ست آلات ولكنه فى الواقع لم يتسلم سوى ثلاث . وبدأ بهذه المغازل الثلاثة مصنعا وربح فى أول عام ٣٠٠ جنيه .

وبلغ مسامعــه فى نهاية ذلك العـــام أن شخصا يدعى مستر درنكووتر ،

وهو ثرى من أصحاب مصانع النسيج ، يبحث عن مدير جديد · فرشح نفسه للوظيفة · وعندما سئل عن المرتب الذى يريده قال «ثلاثمائة جنيه فى العام» ، وراع ذلك مستر درنكورتر وأجابه بأنه قابل صباح ذلك اليوم عدة أشخاص تقدموا لهذه الوظيفة وان ما طلبوه مجتمعين لا يساوى هذا المبلغ ، ورفض أوين أن ينزل عن شيء منه وأثبت أنه يربح فعلا هذا القدر من مصنعه · واستطاع بأسلوبه الذى لا يفشل ، أن يؤثر فى مستر درنكووتر ويحصل على الوظيفة · وأصاب فيها نجاحا كبيرا وسرعان ما صار شريكا (وكان عمره وقتذاك ٢٠ عاما) · غير أنه عندما حانت الفرصة لتوحيد المصنع مع مصنع آخر كبير يملكه مستر أولدنو الذي كان يريدأن يتزوج إبنة دونكووتر ، سئل أوين عن مقدار التعويض الذى يريده لفض الشركة القائمة بينه وبين شريكه · فتألم ومزق عقد الشركة واستقال من منصب مديرها · ولم يفقد أوين شيئا نتيجة لهذا التهور ، فقد عرف عنه أن لا شيء مطلقا يحول بينه وبين النجاح ، وسرعان ما وجد عملا جديدا أصبح شريكا فيه ، وصاحبه التوفيق كعادته فى عمله الجديد ·

وكانت الخطوة التالية - التى حددت مستقبله فى عمله ، أن تزوج ابنة أحد الاسكتلنديين من أصحاب المصانع الأثرياء اسمه ديفيد ديل ، واشترى منه مغازله فى نيولانارك · وتم هذا عندما كان أوين فى الثامنة والعشرين · وكان مستر ديل ، الذى كان شديد التدين ، قد قضى بعض الوقت يعارض فى زواج أوين من ابنته بسبب آرائه الدينية · غير أنه لم يكن هناك من يستطيع مقاومة شخصية أوين الجذابة طويلا · وعندما حان الوقت للنظر فى بيع المغازل ترك مستر ديل ، الذى كان رجل أعمال ناجحا جدا واسكتلنديا (×) ، أمر تحديد الثمن لأوين · وقدر أوين المغازل بمبلغ ستين الفا من الجنيهات · فقال مستر ديل « اذا كنت تعتقد أنها تساوى ذلك فسأقبل العرض كما ذكرته ، اذا قبله أصدقاؤك » ووافق أصدقاء أوين (وهم شركاؤه) وتمت الصفقة · وكذلك تم زواج أوين من ابنة مستر ديل بعد ذلك بفترة قصيرة فى سبتمبر سنة ١٧٩٩ · وقد ظلت زوجته شديدة التدين واقتنعت بأن زوجها مصيره جهنم · ومع ذلك فقد بقيت على حبه طول حياتها ، وأحبها هو عندما كانت مشاريعه تترك له وقتا يتذكرها فيه · وعاشا سنين طويلة فى نيولانارك ، وأدار العمل على أسس نموذجية بقدر ما سمح له بذلك شركاؤه · ونجح العمل باستمرار من الناحية التجارية والمالية ، وأذاع نجاحه فى النواحى الأخرى شهرته فى جميع أنحاء العالم ·

وكانت السنوات التى قضاها أوين فى مانشستر فرصة أتاحت له عقد صداقات مع عدد من رجال الفكر النابهين · وأصبح فى سنة ١٧٩٣ عضوا

(×) يعنى انه كان بخيل فقد اشتهر الاسكتلنديون بالبخل (المترجم) ·

فى الجمعيـــة الأدبية والفلسفية بمانشستر التى رشح لها هو فيما بعد دالتون العالم الذى أدخل نظرية الذرة فى الكيمياء • وكان دالتون صديقا حميما لأوين ، كمـــا كان دكتور برسيفال مؤسس الجمعيـــة من أنصـــار تشريع المصانع المتحمسين ، ولعله أثر فى أوين فى هذا الموضوع • وقلمـــا نجد بعدئذ ما يدل على أن أوين تعلم شيئا من غيره •

ويمكن تقسيم حياة روبرت أوين الى أربع مراحـــل • ففى المرحلة الأولى يمثل أوين بطل قصة سمايل « مساعدة النفس » اذ يرتفع بسرعة بمجهوده الشخصى الى مركز ذى نفوذ وثراء • وتنتهى هذه الفترة بامتلاكـه مصنع نيولانارك • وفى المرحلة الثـــانية يبدو رجلا خيرا ومع ذلك فهو صـــاحب العمل الأريب الذى استطاع أن يجعل مصنعه مربحا رغـــم الوسائل التى تهدف الى الخير وحب الانسانية والتى كان أصحاب المصانع الآخرون يعتقدون أنها ستؤدى به الى الخراب• وظل فى هذه المرحلة ناجحا نجاحا يدعوالى العجب، وكان الذى يجعل نجاحه عجيبا بحق هوذلك المزيج من الكفاية والعمل والفضيلة• وأخذت هذه المرحلة من حياته تخلى مكانها سنة ١٨١٥ لمرحلة الاصلاح الاجتماعى وان كان قد ظل على صلة غـــير وثيقـة بنيولانارك بصورة أو أكثر حتى عام ١٨٢٨ أو عام ١٨٢٩ • ولم تكن مرحلة الاصلاح الاجتمـــاعى ناجحة نجـــاحا مباشرا على الرغم من أنه وضع فيهـــا الأسس الأولى للاشتراكية والحركة التعاونية وحرية الفـــكر لدى الطبقة العـــاملة • وتحول شيئا فشـــيئا من زعيم للطبقة العاملة يجله الناس الى الكاهن الأعظم لشيعة صغيرة ، وبعـــد سنة ١٨٣٥ تقريبا فقد أهميته بوصفه من العاملين للصالح العام وأصبح مجرد رجل خيالى انتهى به الأمر الى الروحانية • وكان مصدر نجاحـــه الأولى واخفاقه فيما بعد واحدا : ذلك هو الثقة بالنفس • فطالما كان يسعى لتحقيق امور هى فى أساسها قابلة للتحقيق كانت ثقته فى نفسه عنصرا من عناصر نجاحه ، وعندما حاول فيما بعد أن يحـــدث فى سنوات قلائل تغييرات تتطلب مائة عام ، اصطدم اخفاقه بثقته فى نفسه وأدى به الأمر الى الابتعاد عن عالم الواقع شيئا فشيئا حتى لم يبق له الا أصوات ترتفع اليه من ماضيه ، وهناك فقط وجدت ارادته اللاشعورية ميدانا لا معارضة فيه لقدرتها التى يتطلبها منها لا شعوريا فى كل مجال • ولعله لا يوجد شخص يستطيع أن يكون مبتدعا عظيما دون أن يكون مؤمنا بنفسه ايمانا لايبرره العقل • والدليل على ذلك أن عظماء المبتكرين المبتدعين كانوا يعتقدون فى أنفسهم القداسة أو مايقرب منها• وقد أصيب أوين بهذا المرض نفسه ولكن كان فى صورة وديعة غير مكروهة • وبينما كان غيره من المصلحين يدعون لاعلاء كلمة الله ، كان أوين يدعو لإعـــلاء كلمة العقل • وقد أثار عجبه أن تكون عقول الناس مغلقة الى هذا الحد ، ولكنه كان حسن الظن دائما بقلوبهم •

وكانت آمال أوين فى نيولانارك لا تزال متواضـعة ، وكان نجاحه عظيما •

فقد عمل فى أول الأمر على استخدام آلات حديثة من آخر طراز ، وادارة ذات كفاية . ثم استأصل شأفة السرقة ، التى كانت متفشيه ، ولم تكن تكفى العقوبة القانونية لمنعها . ووجه بعـــد ذلك هجومه نحو السكر ، فعين رجالا يطوفون بنيولانارك ليلا ثم يبلغونه عما يرونه من حالات السكر وكان يوقع على أصحابها غرامات ، واستطاع فى مدى سنين قلائل ، بهـذه الوسيلة وبتأثيره الشخصى ، أن يقضى على السكر قضاء تاما تقريبا فيما عدا يوم رأس السنة . وكان يصر على أن تظل الشوارع نظيفة . وابتكر طريقة غريبة لتشجيع عادات الجد فى المغازل . فصنع قطع صغيرة من الخشب طليت بالأسود والأزرق والأصفر والابيض على التوالى: الأسود دلالة على الرداءة فى العمل والأزرق على المتوسط والأصفر على العمل الجيد والأبيض على الممتاز . وكانت واحدة من هذه القطع الخشبية توضع فى مكان ظاهر بجانب كل عامل ليظهر أى لون من الألوان يستحقه عمله وخلقه . ومن الغريب أن هذه الطريقة أثمـرت ، حتى كان جميع العمال فى آخر الامر يستحقون اما اللون الاصفر أو اللون الأبيض (×) .

كنا حتى الآن ننظر فى الوسائل التى اتبعها أوين ليجعل المغـــازل تدر ربحا . وقد أصاب فى هذا من النجاح ما جعل المصنع خلال السنوات العشر الأولى من ادارته يربح ٦٠٠٠٠ جنيه بالاضافة الى فائدة على رأس المال بواقع ٥ ٪ . فنال بذلك رضا شركائه . وبعد أن حصل على رضائهم أصبح مطلق اليد فى تطبيق ما شاء من اجراءات جديدة تهدف الى الخير الانسانى .

فقد كان عدد المستخدمين عندما تسلم أوين لانارك بين ١٨٠٠ و ٢٠٠٠،منهم خمسمائة من أطفال الملاجىء كانوا تحت التدريب . فقرر فورا ألا يأخذ بعدئذ أطفالا معدمين . ولم يأخذ الا أطفالا فوق العاشرة ، وكان يحصل عليهم من لانارك ، البلد المجاور ، وبرضاء والديهم . وكان شركاؤه يصرون على أن تكون ساعات العمل أربع عشرة ساعة يوميا منها ساعتان للراحة وللوجبات . الا أنه نجح سنة ١٨١٦ فى تخفيضها بعض الشىء . أما الأجور فكان متوسطها سنة ١٨١٩ ٩ شلنات و ١١ بنسا فى الأسبوع للرجال و ٦ شلنات للنســاء و ٤ شلنات و٣ بنس للأطفال الذكور و٣ شلنات و ٥ بنسات للبنات . وينبغى أن نعترف بأن هذه الأرقام ليست مثـــالية . ذلك أن أوين لم يكن حرا فى هذه المســـــائل لأنه كان مضطرا للحصول على أرباح . وكان شركاؤه فى الواقع دائمى التذمر من اتجاهاته الانسانية . واستطاع فى سنة ١٨٠٩ ، ومرة أخرى فى عام ١٨١٣ ، أن يتخلص من شركائه بمعونة شركاء جدد كان

(×) توجد طريقة مشابهة لهذه فى روسيا السوفيتية فى الوقت الحاضر ، اذ تمنح المـــزارع الجماعية شارات تمثل التقدير الذى يستـــحقه كل منها : مثلا طائرة لأحسنها وسرطان لأحطها لأسوئها .

يأمل أن يمنحوه حرية أوسع فى تصرفاته . وكان اللذان أمداه بالمال فى المرة الثانية هما جيرمى بنتام وأحد الكويكريين اسمه وليم آلن . وقد بقيت بعض المشاكل مع ثانيهما ، ولكنها كانت مشاكل من لون آخر وفى مجموعها أقل خطورة من سابقاتها .

وقد لقى أوين فى مبدأ الأمر بعض المصاعب مع الذين كانوا يعملون معه لأنه كان من أهل الجنوب وغريبا عنهم . ولكنه نجح فى اجتذابهم شيئا فشيئا ، ويرجع بعض ذلك الى شخصيته ، ولكن العامل الأساسى كان تصرفه سنة ١٨٠٦ عندما منعت حكومة الولايات المتحدة جميع الصادرات الى بريطانيا العظمى فقطعت عنها بذلك القطن الخام . وأغلقت مصانع النسيج أبوابها أربعة أشهر ، ولكن أوين احتفظ بجميع عماله بأجر كامل . وأصبح من تلك اللحظة موضع ثقة الجميع .

وكان من أهم أعمال أوين الادارية أنه أنشأ مدرسة متصلة بالمصنع . فقد كان كجميع المصلحين فى تلك الفترة يعلق أهمية كبيرة على التعليم . وكان يعتقد أن أخلاق الانسان كلها ، أو كلها تقريبا ، نتاج للظروف . الا أنه كان يختلف عن غيره ممن كانوا يعتبرون هلفسيوس رائدهم ، فى أنه اكتشف هذه الحقيقة العظيمة بنفسه ، على حد قوله ، عن طريق الأثر الذى تركته فى جهازه الهضمى وجبة ساخنة جدا من الحساء المركز . ومما لا ريب فيه أنه كان يمتاز عن جيمس مل فى ناحية واحدة . فقد كان يحب الأطفال ويفهمهم . فجاء كل ماقاله عن التربية صحيحا سليما ، وكان يفهم مشاعر الأطفال وأجسامهم بنفس القدر الذى يفهم به عقلياتهم . فكانت هناك مدرسة للحضانة تسير على أسس حديثة كلها ، وكان الرقص بملابس مناسبة جزءا هاما من البرنامج ، وأحزن ذلك مستر آلن خاصة عندما كان الأولاد يلبسون «السراويل القصيرة» بدلا من «البنطلونات» الطويلة . وحصل على وعد من أوين بايقاف هذه المظاهر ، ولكن يبدو أنها استمرت رغم ذلك .

وأصابت نيولانارك شهرة واسعة ذاعت فى جميع ارجاء العالم وزارها ٣٠٠٠ شخص تقريبا . وكان من بين الزائرين الدوق الأكبر نيقولا (الذى صار فيما بعد قيصر روسيا) ، وأمضى الليلة فى ضيافة أوين فى منزله وظل يستمع له وهو يشرح آراءه مدى ساعتين أو أكثر . وعرض نيقولا أن يأخذ أحد أبناء أوين فى خدمته ، بل انه اقترح ان يأخذ أوين نفسه الى روسيا ومعه مليونان من السكان الزائرين وأسرهم . وتبدو هذه الواقعة غريبة اذا نظرنا اليها على ضوء حياة نيقولا بعد ذلك .

وعندما زار أوين لندن سنة ١٨١٣ للبحث عن شركاء جدد تعرف الى كل ذى حيثية تقريبا ، ولم يقتصر الامر على أن قابل جميع الراديكاليين الفلسفيين

فحسب ، بل انه قابل أيضا رئيس الوزراء وكبير أساقفة كنتربرى وكثيرين آخرين من النابهين . وقد أحبه الجميع ، ولم يكن قد بدأ دعوته بوضوح الى أى من المذاهب التى تعتبر هدامة . ونشر فى سنة ١٨١٤ كتاب « نظرة جديدة الى المجتمع » شرح فيه مذهبه الذى يعتز به عن أثر الظروف فى تكوين الطبائع ، وانتهى الى أنه يمكن بسهولة ادخال تحسينات كبيرة عن هذا الطريق . وأرسل هذا الكتاب الى كل شخص من أصحاب النفوذ تقريبا ، بل انه أرسله الى نابليون نفسه فى البا . ومن الغريب أن نابليون قرأه وأعاده متضمنا بعض التعليقات المحبذة . ولما عاد من ألبا ، كان أوين يرى أن تتاح لنابليون فرصة ليضع آراءه موضع التنفيذ ، الا أن صديقه رئيس الوزراء رأى رأيا آخر .

وكان أول إتصال لأوين بالسياسة العملية سنة ١٨١٥ عند ما حاول استصدار تشريع لتنظيم عمل الأطفال فى المصانع . وكان يريد تحريم استخدام أطفال أقل من العاشرة فى مصانع النسيج ، وألا يسمح بالعمل أكثر من عشر ساعات ونصف ساعة يوميا لمن هم أقل من الثامنة عشرة .

وسارت الأمور على مايرام فى مبدأ الأمر . فقد وعد أوين بتأييد الحكومة بشرط أن يحصل على تأييد البرلمان . وحصل فى البرلمان على عدد كبير من المؤيدين . ووضع مشروع القانون تحت رعاية روبرت بيل الأكبر الذى كان قد استصدر سنة ١٨٠٣ التشريع الصناعى الوحيد الذى كان نافذا وقتئذ وهو القانون الخاص بتنظيم استخدام الأطفال المعدمين فى مصانع القطن . ولكن سير روبرت بيل نفسه كان من رجال الصناعة ، فأصر على استشارة أصحاب المصانع الآخرين ، وبدأ هؤلاء ينظمون معارضة للمشروع ، وأصبح واضحا أن القانون لن يمر الا بعد كفاح طويل وتعديل كبير .

وبعد أن تقدم بيل سنة ١٨١٥ بمشروع قانون على أسس مشروع أوين ، سمح بتأجيله واكتفى سنة ١٨١٦ بانشاء لجنة لبحث الموضوع . وقدم أصحاب المصانع الى هذه اللجنة الادلة على أن الاطفال يفيدون من ساعات العمل الطويلة من الناحية الخلقية . وذكروا أن أربع عشرة ساعة يقضيها الطفل يوميا فى المصنع تعلمه الطاعة والنشاط والمواظبة ، وأنه يجب عدم تخفيض ساعات العمل لمصلحة الأطفال أنفسهم . كما أن من المستحيل مواجهة المنافسة الأجنبية اذا تدخل البرلمان فى الامر ، ويلحق الخراب بأصحاب المصانع ويتعطل الجميع عن العمل . وفى مقابل هؤلاء الشهود ، شهد عدد من الأطباء بأن ساعات العمل الطويلة تضر بصحة الأطفال . ولم يوافق على مشروع القانون من بين أصحاب المصانع سوى أوين وبيل .

ولم يتم شىء فى سنة ١٨١٧ لان بيل كان مريضا . وأعاد بيل تقديم المشروع بقانون عام ١٨١٨ مع تعديله بعض الشىء لعله يضعف بذلك معارضة أصحاب المصانع . ومر المشروع فى مجلس العموم ولكنه رفض فى مجلس

اللوردات . فقد نجح السادة اللوردات فى أن يجدوا عددا من الأطباء على استعداد لان يقسموا أنه لا يوجد شىء خير لصحة لطفل من خمس عشرة ساعة يقضيها فى المصنع يوميا « بل ان أحد الاطباء المعروفين رفض الموافقة على أن وقوف الطفل ٢٣ ساعة من ٢٤ يضر بصحته » (×) .

وأخيرا وافق المجلسان فى سنة ١٨١٩ على قانون . وكان هذا القانون أقل فى عدة نواح من مشروع سنة ١٨١٥ . فكان ينطبق فقط على مصانع القطن دون بقية المنسوجات ، وجعل الحد الأدنى للسن تسع سنوات بدلا من عشر . وكان يسمح باثنتى عشر ساعة من العمل الفعلى يوميا وثلاث عشرة ساعة ونصف يقضيها الطفل فى المصنع بما فيها ساعات الأكل ، وبدلا من تعيين مفتش ترك أمر التفتيش للموظفين المحليين ورجال الكنيسة . وقد أثبتت التجربة فى قانون سنة ١٨٠٢ أن الموظفين المحليين ورجال الكنيسة يمكن الاعتماد عليهم فى اهمال واجبهم ، وتبين لهذا السبب أن القانون الجديد لا ثمرة منه مطلقا كما كان مرجوا .

وكان أوين فى هذه الاثناء قد شرع فى وضع أول برنامج كبير له يهدف الى اصلاح العالم . واذا أدخلنا فى اعتبارنا أن من هذا البرنامج انبثقت الاشتراكية ، فانه لما يدعو الى العجب أن نعرف مدى التعضيد الذى لقيه أوين فى أول الامر من العظماء . فقد ظل دوق كنت والد الملكة فيتوريا صديقا له طول حياته (مات ١٨٢٠) . وكان دوق يورك وأسقف كنتربرى وعدد آخر من الاساقفة والنبلاء يصغون اليه فى احترام بسبب طريقته المسالمة المقنعة ، وكذلك بسبب نجاحه العملى فى نيولانارك . ثم تغلبت أمانته شيئا فشيئا على كياسته وهجره أصدقاؤه العظماء بالتدريج ، ولكن العالم كله كان فى أول الامر يميل اليه ويناصره .

وكانت مقترحات أوين الاصلية قد قدمت الى « لجنة منتقاة » سنة ١٨١٧ كانت تنظر فى قانون الفقراء . وكان السلام قد جلب معه موجة واسعة من البطالة ، وقال أوين فى هذا : « لقد مات العميل الأكبر للمنتجات يوم أن وقع الصلح » . غير أنه الى جانب هذا السبب الوقتى كانت الآلات تحل محل المجهود البشرى ويزداد ذلك على توالى الأيام . وكان بعض المتفائلين يعتقدون أن رخص السلع المصنوعة بالآلات سيؤدى الى زيادة الطلب بحيث أن عددا من العمال سيستخدم لا يقل عمن كان يستخدم منهم أيام الحرف اليدوية . وكان هذا المذهب صحيحا بقدر ما كان هناك من توسع مستمر فى الأسواق الخارجيه ، الا أن الأسواق الخارجية لم تتسع فى عامى ١٨١٦ . فقد أخذت الرسوم الجمركية تفرض على الواردات فى القارة الاوروبية ، كما أن سوق

(×) « عامل المدينة » هاموند ص ١٩٧ .

أمريكا الجنوبية لم تكن حتى ذلك الوقت قد فتحت الا قليلا . وأيا كان الامر فان الأسواق الأجنبية ، كما يعرف الجميع الآن ، لايمكن أن تظل تتسع الى ما لا نهاية . وكان أوين أول من أدرك أتم الادراك المشاكل التى تثيرها القدرة الانتاجية للآلات . فهو يقول ان السلام « وجد فى بريطانيا وفى حوزتها قوة جديدة تعمل باستمرار ، وهي قوة يمكن أن نقول عنها مطمئنين أنها تزيد كثيرا على قدرة العمل عند مائة مليون من أكثر البشر نشاطا فىعنفوانرجولتهم ولنضرب لهذه القوة مثلا فنقول ان فى أحد المصانع فى هذه البلاد آلات يساعدها ما لا يتجاوز ٢٠٠٠ شخص وتنتج قدرا يساوى ما يستطيع كل سكان اسكتلنده أن يصنعوه بالطريقة التى كانت سائدة منذ خمسين عاما ! وفى بريطانيا العظمى عدد من أمثال هذا المصنع .. وهكذا نرى أن بلادنا كانت تملك عند نهاية الحرب قوة منتجة تعمل كما لو كان عدد سكانها قد زاد فعلا خمس عشر أو عشرين مرة . وقد حدث معظم هذا فى السنوات الخمس والعشرين الماضية » (×) .

ويمضى أوين فيقول :

« لقد توقف الطلب الحربى على منتجات العمال ، ولم يعد فى الامكان ايجاد أسواق لها ، ولما كان الدخل العالمى غير كاف لشراء ما تنتجه هذه القوة الهائلة فقد ضعف الطلب نتيجة لهذا . ومن ثم لما أصبح من الضرورى الحد منمصادر الانتاج تبين بعد قليل من الوقت أن القوة الآلية أرخص كثيرا من المجهود البشرى . فاستمر العمل بالاولى وحلت محل الثانية . وأصبح ممكنا الحصول على المجهود البشرى الآن بسعر أقل كثيرا من حد الكفاف المطلق لفرد يعيش عيشة طيبة عادية (× ×) . »

وينتهى أوين الى أن « الطبقات العاملة لم تعد لديها الوسائل المناسبة لمواجهة القوة الآلية » . ولما لم يكن مستطاعا ايقاف الآلات فلابد من واحدة من اثنتين ، اما أن يموت الملايين جوعا ، أو « أن تهيأ مهن ذات طابع خاص للطبقات العاملة الفقيرة المتعطلة وأن نجعل الآلات خاضعة لعمل هذه الطبقات بدلا من احلالها محله كما هو الحال فى الوقت الحاضر » .

وكانت هذه على ما أعتقد أول مرة يدرك فيها شخص مشكلتنا الحديثة . تلك هى أنه لا فائدة ترجى من مهاجمة الآلات ، ومع ذلك فانه اذا ترك الأمر للقوى الاقتصادية القديمة تلعب دورها حرة ، فان العالم الآلى تصبح فيه اليد العاملة رخيصة مستعبدة . وليس هناك ما يحول دون وقوع هذا الشر الا تخطيط مقصود لا اتباع سياسة « حرية العمل والاتجار » . هذا ما

(×) « أوين » تاليف كوك ص ١٧٧ .

(× ×) المصدر السالف الذكر ص ١٧٩ .

كان أوين يقوله فى وضع اقتصادى هو صورة مصغرة من وضعنا الحالى ، وقد أخفى نمو التجارة الخارجية ثم الاستعمار الاقتصادى ما فى هـــذا الرأى من حقيقة زهاءمائة عام • وأخيرا أثبتت الايام أن أوين كان يدرك قوانين مهمـــة فى النمو الصناعى أغفلها كل الاغفال الاقتصاديون التقليديون فى عهده •وقد هزمه بليس ، من الراديكاليين ، فى المناقشة على أساس مبدأ السكان ، وكانت حججه فى الواقع أرجح فى حدود ما كان معروفا وقتئذ ، ولكن ظهرت مع مضى الوقت صحة تشخيص أوين للحالة •

ولم يكن العلاج الذى اقترحه أوين سليما مثل تحليله للشر نفسه • ولمـــا كان مشروعه مقدما الى هيئة تنظر فى قانون الفقراء ، فقـــد عرضها أكثر ما عرض على أنها وسيلة لعلاج الفقر • وكانت خطته ترمى الى أن يجمع المتعطلون فى قرى حيث يزرعون الأرض متعاونين ويعملون متعاونين أيضا فى الصناعة، الا أن الجزء الأكبر من عملهم يكون عادة زراعيا • ويعيشون جميعا فى مجموعة واحدة من المبانى تضم قاعات عامة للقراءة ومطبخا مشتركا ، ويتناول الجميع وجباتهم معا • ويعيش جميع الأطفال الذين تجاوزوا الثالثة فى مبنى مستقل وتتخذ الاجراءات المناسبة لتعليمهم من سن مبكرة جدا • ويعيش الجميع فى وئام ويعملون معا • وتستخدم أحدث المكتشفات الكيمائية فى تطوير الزراعة بحيث تقوم على أسس علمية • غير أن أوين ، مثل كروبوتكين فيما بعد ، كان يؤمن بنظام الزراعة الكثيفة ، وكان يفضل المحراث اليدوى على المحراث الآلى مستندا فى ذلك الى حجج غير مقنعة • فبينما كان يرى أن المصانع ينبغى أن تكون على أحدث طراز ، وأن يتم تسميد الارض بالطرق العلمية، كان يفضل أن تظل عملية الحرث نفسها بدائية •

وأثار مشروع أوين دهشة معاصريه وكان موضع تسليتهم • فقدمه تيلوك على أنه « السيد المفرط فى الخير التعاونى ، الذى لا يريد قتـــالا ولا صلاة ، ولكنه يريد أن يقسم العالم الى مربعات مثل رقعة الشطرنج يحتل كل منهـــا جماعة ينتج بعضها ما يحتـــاجه البعض وتقوم على خدمتهم جميعا آلة بخارية تكسوهم وتطعمهم • وفى الوقت الذى يقدم فيه كل انسان مشروعا لاصـــلاح العالم يقول السيد المفرط فى الخير : ابنوا تكنات تعاونية ضخمة مربعة الشكل تتوسطها آلة بخارية تقوم على خدمة من فيها » • وكانت مربعات أوين هـــذه موضع سخرية عامة ، ولم يأخذها على محمل الجد الا نفر قليل جدا • والحق أن العقبات المالية كان مما لا يمكن التغلب عليه بصرف النظر عن العقبات الاخرى وقد قدر هو نفسه نفقات احدى هذه المؤسسات التى تضم ١٢٠٠ رجل وامرأة وطفل بمبلغ ٩٦٠٠٠ جنيه • نعم انها متى بدأت ستتكفل بنفسها وتدر فائدة على رأس المال المستثمر فيها ، لكن منذا الذي كان مستعدا لاصـــلاح الجنس البشرى بطريقة تتكلف ٨٠ جنيه لكل فرد ؟ لقد كان من الممكن محاولة تنفيذ

المشروع على سبيل التجربة ، الا أنه كان واضحا أنه ليس علاجا للشرور التي يعانيها شعب بأكمله ٠

ولم يفشل أوين لعدم مهارته في تهيئة الدعاية المناسبة لمشروعه ٠ فقد كون لجنة تضم معظم الشخصيات البارزة ، وحظي من الحكومة بالتشجيع ، وحمل جريدة « التايمز » وجرائد أخرى مهمه على تحبيذ المشروع وعلى نشر مقالات عنه بقلمه ٠ وكان يشتري ٣٠٫٠٠٠ نسخة من كل عدد ينشر فيه شيء من ذلك ليوزعها بنفسه ــ ولعله بهذه الطريقة كان يحث الجرائد على الوقوف الى جانبه ٠

ولم يدع أوين الاصالة المشروعة ٠ فكان يقول : ان الفكرة سبقه اليها كاتب اسمه جون بلرز نشر في سنة ١٦٩٦ كتيبا بعنوان « مقترحات لانشاء كلية لجميع المهن والحرف الزراعية المفيدة ٠٠ الخ ٠٠ » ٠ والمرجح أيضا أنه مدين ببعض آرائه لجماعة من اتباع جورج راب في بنسلفانيا ٠ وقال أعداؤه : ان آراءه تشبه الى حد كبير آراء توماس سبنس الذي كان يقول بأن الأرض ملك للشعب وينبغي ألا تترك للمكية الخاصة ٠ وسواء كانت آراء توماس سبنس قد أثرت في آراء أوين أو لم تؤثر فيها ، فانه خليق بالذكر ٠ فقد ولد سنة ١٧٥٠ومات سنة ١٨١٤٠ واستمر يدعو الى تأميم الأرض منذ سنة ١٧٧٥ خلال أسوأ فترات الرجعية المناهضة لليعقوبية ، وبدأ نشاطه أول الامر في نيوكاسل ثم واصله بعد ذلك وهو بائع كتب في تشانسرى لين ٠ وكان الذي دفعه الى تكوين آرائه حادث وقع في نيوكاسل سنة ١٧٧٥ ٠ فقد سورت البلدية جزءا من زمامها وأجرته ، ولكن أجراء المدينة أقاموا دعوى طالبوا فيها بالايجار وكسبوها ٠ ونشر سبنس كتابا يحمل عنوانا جذابا هو « لحم الخنزير أو دروس للجماهير المستضعفة » ٠ وكان أول بحث كتبه وقرأه أمام الجمعية الفلسفية في نيوكاسل عنوانه « في طريقة ادارة ضياع الشعب باعتبارها ملكا مشتركا عن طريق تقسيم الريع » ٠ وتعرض سبنس السجن مرارا وكذلك أتباعه الذين أطلقوا على أنفسهم « أتباع سبنس الأخيار » ٠ واتهمتهم الحكومة بالتآمر وألقت القبض عليهم دون محاكمة وأوقفت « قانون المثول » (×) بسببهم ٠ ولم يكن ارجاع آراء اوون الى هذا الاصل مما يشجع كبار الاساقفة على تأييدها ٠ على أن شبح سبنس لم يكن هو الذي قضى في النهاية على تأييد المراجع العليا لأوين ٠

فقد عرض مشروعه في اجتماع عام في ١٤ أغسطس سنة ١٨١٧ وكله ثقة من أنه سرعان ما ينتشر في العالم كله ٠ ولقي تأييدا كبيرا ولكن بعض الناس رفضوا خططه من مبدأ الامر ٠ كما أن بعض الراديكاليين ، ومن بينهم كوبت ،

(×) Habeas Corpus وهو القانون الذي يقضي بوجوب استدعاء الشخص السجين لسماع دفاعه امام المحكمة ٠

رأوا أنها « لا شيء سوى نوع من التهريج » . وعارض مالتس آراءه على أساس مبدأ زيادة السكان ، وان كان ريكاردو يحبذها بصفة عامة . وأثار الشاعر سوذى نقص العنصر الدينى فى طريقة أوين لاصلاح العالم . وقرر أوين أنه ليس من الأمانة فى شىء أن يلتزم الصمت ازاء هذه التهمة الأخيرة ، ولهذاألقى فى اجتماع ثان عقد فى ٢١ أغسطس خطابا سبق اعداده بعناية أوضح فيه بكل ما يستطيعه من تأكيد ، أنه هو نفسه ليس مسيحيا ، بل قال أكثر من ذلك ، أنه يعتبر الدين المصدر الأساسى لكل الشرور التى تحل بالانسانية قال : « أصدقائى ، أقول لكم أنه قد حيل بينكم حتى الآن وبين أن تعرفوا المعنى الحقيقى للسعادة وذلك نتيجة لشىء واحد لاغير ، هو الأخطاء — الأخطاء الشنيعه — التى تضمنتها الأفكار الأساسية لجميع الأديان التى تلقاها الناس حتى الآن . ومن ثم جعلت الانسان أكثر الكائنات تعاسة وأقلها اتفاقا مع نفسه . وقد أحالت الأخطاء التى تدخر بها هذه الأنظمة الانسان حيواناضعيفا أبلها ، مفتونا فى الدين متعصبا ، أو منافقا بائسا . فاذا انتقلت هذه الصفات الى القرى المقترحة ، بل انها لو دخلت الجنة نفسها لاختفت الجنة ! »

ومن هذا فقد أوين بطبيعة الحال تأييد كبير الأساقفة والأساقفة والأدواق والوزراء وجريدتى التايمز والمورونج بوست . ولم يبق بين العظماء من يقف الى جانبه الا دوق كنت ، وبدرجة أقل ، دوق سكسس ، ووجد معارضوتشريع المصانع فى البرلمان أكثر حججهم وجاهة ضد الرحمة بالأطفال فى أن المدافع عن الرحمة رجل كافر . ولم يثبط هذا من عزيمة أوين بل ظل سائرا فى طريقه كما لو كان الأمر ينتقل من نجاح الى نجاح . وشرع يعمل للحصول على المال اللازم ليبدأ بقرية تعاونيه واحدة على الأقل . ولكن جهوده لم تأت وقتئذ بأية ثمرة .

وفى العام التالى كان فى أوروبا وقدم مذكرة الى مؤتمر اكس لاشابل : وهناك كان لقاؤه الوحيد بالقيصر ، ولم يكن لقاء موفقا .

« وقدم نفسه للقيصر (اسكندر الاول الشقيق الأكبر لضيف أوين الدوق الأكبر نيقولا) عندما كان يهم بمغادرة الفندق وقدم له نسختين من مذكرته ، ولم يكن فى ملابس القيصر جيب يتسع لهذه الاوراق فرفض قبولها ودعا أوين الى زيارته فى المساء . فغضب أوين لرد القيصر الجاف وعزف عن قبول دعوته وسلم أوين نسخا من مذكرته الى لورد كاسلرى أحد المندوبين البريطانيين فى مؤتمر اكس لاشابل وطلب اليه عرضها على المؤتمر ، وعلم فيما بعد من عدة مصادر أن مذكرته بحثت وأنها كانت من بين أهم الوثائق التى عرضت للبحث » .

لقد كان ينبغى له أن يتذكر أن الرجل الحسن الهندام لا يفسد منظره بأن يملأ جيوبه بالأوراق مهما بلغ مقدار تدينه .

وأدرك أوين شيئا فشيئا أن الحكومة لن تنفذ مشروعه ، ولكن الأمل ظل يراوده فى أن تقوم بذلك بعض السلطات المحلية . وفى سنة ١٨٢٠ قدم تقريرا مطولا الى مجلس لانارك موضحا فيه آراءه بتفصيل مسهب . وأهم شيء جديد فى هذا التقرير اقتراحه أن تحل « صكوك العمل » محل النقود . وكانت الحكومة على وشك العودة الى نظام الدفع بالذهب ، الذى أوقف العمل به سنة ١٧٩٧ بسبب الحرب ، ومن ثم كانت مشاكل النقد تحتل عندها مكانا بارزا . وكان اقتراح أوين يتضمن أن تحدد جميع الأسعار بالنسبة الى كمية العمل التى يتضمنها الانتاج وأن تكون كل المدفوعات على أساس وحدات العمل . وهو يقول فى ذلك « ان الوحدة الطبيعية للقيمة هى من حيث المبدأ الجهد البشرى أو القوى اليدوية والذهنية المشتركة التى يتطلبها الانتاج » . وكان يعزو الى تطبيق هذا النظام نتائج تكاد تكون سحرية . وكانت آماله فى هذه الحال ، وكما حدث دائما بعد سنة ١٨١٧ ، مسرفة مبالغا فيها وادراكه للعقبات يكاد يكون معدوما . وكلما تقدمت به السن كان شعوره بالواقع يضعف ويزداد تحليقا فى أجواء الخيال غير المحدد .

ومع ذلك فان هناك شيئا كثيرا من الحقيقة ونقطا هامة فى تقريره الى مجلس لانارك . أما التقرير فيبدأ بأن العمل هو مصدر كل ثروة(×) ، ثم يقول انه ليست هناك صعوبة فى انتاج ما يكفى ولكن الصعوبة فى ايجاد السوق . والأسواق تقوم على مطالب الطبقات العاملة التى تعتمد بدورها على الأجور ومن ثم فان تحسين الأسواق لايتطلب سوى رفع الأجور . « ولكن أوضاع المجتمع القائمة لا تسمح بأن يكافأ العامل على نشاطه ، ومن ثم تكسد جميع الأسواق » . وبعد أن يشرح اقتراحه الخاص بصكوك العمل والقرى التعاونية يمضى معارضا المغالاة فى تقسيم العمل . وذهب الى أنه ينبغى أن ينال الأطفال تدريبا عاما غير متخصص وأن يجمع البالغون بين الزراعة والعمل الصناعى . واعتبر أوين كدأبه دائما أن التعليم أساس كل ماعداه . غير أن النتائج التى كان يهدف اليها كانت بعيدة المدى . فسيحصل كل الناس على مايكفيهم ومن ثم لن تقوم حرب ولن ترتكب جرائم ولا تكون سجون ، وسيكون بدلا منها سعادة شاملة تعم الجميع .

وشغل أوين معظم وقته طوال السنوات الاربع من سنة ١٨٢٤ الى سنة ١٨٢٨فى تجربة انشاء مجتمع علىأسس المربعات التعاونية . وكان جورج راب، وهو مصلح دينى ألمانى ، قد اصطحب جماعة من أتباعه أقاموا مستعمرة فى بنسلفانيا أولا ثم بعد ذلك فى أنديانا وأقلعوا عن الزواج والتدخين فازدهرت أحوالهم . وفى سنة ١٨٢٤ قرروا أن ينتقلوا من مستعمرتهم ، وفى أوائل

(×) ليس هذا صحيحا الا بصورة جزئية بطبيعة الحال كما رأينا فى حديثنا عن ريكاردو .

سنة ١٨٢٥ باعوا كل ماكانو يملكونه فى أنديانا لأوين الذى أطلق على المكان اسم «نيوهارمونى» وشرع فى تنظيم مجتمع أحلامه بعد أن وجه خطابا الى رئيس الولايات المتحدة ومجلس الأمة في واشنجتن . وسارت الأمور كلها سيرا خاطئا ، كما يحدث دائما فى مثل هذه التجارب ، وفقد أوين ٤٠٫٠٠٠ جنيه وخرج من المشروع رجلا فقيرا . الا أن أبناءه الذين ذهبوا معه الى نيوهارمونى احتفظوا ببعض الأراضى وصاروا فى النهاية مواطنين أمريكيين ناجحين .

ومن الغريب حقا أن نيوهارمونى أصابت نجاحا فى مجال واحد كان موضع دهشة المجتمع . ذلك أن أوين قد استوفد من أوروبا بعض رجال العلم قام عدد كبير منهم بأعمال قيمة . وتولى أولاده أنفسهم الاشراف على « مصلحة المساحة الجيولوجية فى الولايات المتحدة » التى ظل مركزها الرئيسى فى نيوهارمونى حتى سنة ١٨٥٦ . وقد كتب بودمور سنة ١٩٠٦ فى ذلك يقول :

« وهكذا أخفقت تجربة أوين الكبرى ، الا أن جهوده كللت بنجاح لم يكن قط فى الحسبان . فقد ظلت نيوهارمونى أكثر من جيل المركز العلمى والتربوى الرئيسى فى الغرب ، تنبعث منها اشعاعات تركت أثرها فى اتجاهات متعددة فى البناء الاجتماعى والسياسى فى البلاد . ويبدو طابع روبرت أوين واضحا على البلد الذى أسسه حتى الآن . ذلك أن نيوهامونى ليست كغيرها من بلدان غربى الولايات المتحدة لانها مدينة ذات تاريخ ، ولا يزال عدد من مواطنى المدينة النابهين يحملون اسم أوين وهم أحفاد الاشتراكى العظيم . وتفخر المدينة بأن لديها مكتبة عامة ـ أمينها أحد أحفاد المستعمرين الأصليين ـ تضم حوالى خمسة عشر ألف مجلد ، الكثير منها نادر وقيم » .

وبعد مجهود قصير لامع فى الحركة النقابية (انتهى عام ١٨٣٤ وسيكون موضع بحثنا فى الفصل التالى) لم يعد لأوين أية علاقة وثيقة براديكالية الطبقة العاملة . وصار زعيما لفئة صغيرة من المفكرين الأحرار فى العقائد الدينية ولم يعد فى نظر الناس المحترمين « مستر أوين الخير » فقد أصبح شخصا خطرا يدفع الجماهير الى الالحاد والى النشاط الثورى . وفى سنة ١٨٣٥ زادت سمعته سوءا بدعوته الى افكار متطرفة فى الزواج فى سلسلة من المحاضرات نشرها بعنوان : « محاضرات عن زواج رجال الدين فى العالم الفاسد القديم » . والواقع ان هذا العنوان مضلل ، فهو يقصد الزواج الذى يعقده رجال الدين . وكان أوين فى ذلك الوقت قد أصبح شيوعيا كاملا . وكان يعارض فى الزواج باعتباره وضعا مرتبطا بالملكية الخاصة وأنه يتضمن ما يشبه الملكية فى الأشخاص . ولم يقتصر استنكاره على الزواج وحده بل انه استنكر أيضا المحيط العائلى الذى يعيش فيها الأطفال، وكان يستعمل فى ذلك لغة جد عنيفة، ولكن يبدو أنه كان يأمل فى أن تقوم بين النساء والرجال علاقات تدوم مدى الحياة رغم الحرية التى يدعو اليها .

ولست أدري هل كانت هذه الآراء وليدة تفكير نظري في الشيوعية ، كما فعل أفلاطون ، أم أنها من ايحاء ظروف معينة في حياته الخاصة • فقد ماتت مسز كوين سنة ١٨٢١ ورغم انه كان كثير التغيب عنها مددا طويلة ، فليس هناك مايدل على أنه انصرف عن حبه اياها • وقد كتبت اليه في آخر سني حياتها تقول :

« زوجي العزيز ، كم أحس بحاجتي اليك ، أستمع الى نصحك في هذه الأوقات العصيبة ••• واني آمل أن تتذكر الخميس القادم ، اليوم الذي صرنا فيه شخصا واحدا منذ واحد وثلاثين عاما، واعتقد، مما أشعر به أنا نفسي ،أننا مازلنا يحب بعضنا بعض بنفس الاخلاص الذي كان يتسم به حبنا منذ واحد وثلاثين عاما وأننا نفهم بعضنا بعضا أكثر مما كنا في ذلك الوقت ، واني لأرغب مخلصة ألا يحدث ما يضعف هذا الحب » •

وعلى الرغم من أن أعداء أوين استهجنوا مبادئه فانهم لم يجدوا مطعنا في حياته الخاصة • فالمربعات التعاونية ومدارس الحضانة والغاء الملكية الخاصة والغاء الزواج تكون كلها مجموعة من المبادىء المنطقية المتسقة ، وليس هناك من سبب يدعو الى البحث من مصدر آخر لآرائه الأخلاقية •

ولم يكن في هذه الايام المدلهمة سوى شخصين لم يرعهما خبث أوين ، هما : لورد ملبورن والملكة فكتوريا • ذلك أن أوين قد ظل ، على الرغم من موضوع عمال دورشستر(×) ، ذا علاقة طيبة بملبورن الذي قدمه الى الملكة عام ١٨٣٩ ، ولما كان أوين لايترك فرصة يقابل فيها أي شخص دون أن يقدم له وثيقة ما فانه أعطى الملكة « نداء موجها من مؤتمر ممثلي المجتمع العالمي للمتدينين العقليين يطلب الى الحكومة تعيين هيئات لبحث ما يقترحه المؤتمر من اجراءات تهدف الى تحسين أحوال المجتمع » وليس في التاريخ ما يدلنا هل تفضلت جلالتها بقراءة الوثيقة متأثرة بهذا العنوان الجذاب أم لا •

ولم يتعرض ملبورن مطلقا للمحاسبة على جرائمه ، ولكنه هوجم بشدة على أنه قدم ملحدا معروفا مثل أوين الى الملكة(× ×) • وقد أشار أسقف اكستر في عريضة قدمها وجهاء برمنجهام ضد الاشتراكية الى أن منظمة أوين غير قانونية وأنه من الممكن ــ بل من الواجب ــ أن يزج به في السجن •

« وأضاف أن هناك ضروبا أخرى بشعة من التجديف والفساد لا يريد أن يخدش بها آذان السادة اللوردات • فهناك كتاب لأوين تحت يد الأسقف ــ والاشارة هنا لاشك مقصود بها كتاب «زواج رجال الدين ••» ــ وقع نظره على فقرة واحدة منه ، ولكنه لم يسمح مطلقا بعد ذلك بأن يدنس عقله بالنظر اليه مرة ثانية • وهو لايستطيع بأي حال من الأحوال ولا يريد أن يلقي

(×) انظر الفصل التالي •

(× ×) واضح أن ملبورن نفسه كان ملحدا متطرفا • انظر جريفيل ١٦ ديسمبر ١٨٣٥ •

لى مسامع المركيز «تورمانبى» بعض عبارات التجديف والبـــذاءة التى لامثيل لسوئها حتى ولو أراد بذلك أن يقنعه بضرورة اتخاذ اجراء حاسم سريع » ·

ومع ذلك فلم يكن هذا هو أسوأ ما فى الأمر · فيبـــدو أنه فى كونيوود (احدى الجماعات التى أسسها أوين) كان الغناء والرقص والموسيقى يحـدث يوم الأحد ! وهذا هو الرجل الذى رأى رئيس الوزراء أنه يليق بأن يقدمه الى الملكة الشابة البريئة ·

وعقب الحملة الخطابية التى تزعمها الأسقف ضد أوين قامت حركة فى أنحاء البلاد على أيدى رجال أقل منه مرتبه ، وكانت النتيجة أن أتباع أوين أصبحوا هدفا لهجوم الغوغاء باسم الدفاع عن المسيحية · الا أنه لم تقع حوادث ذات بال · واختفت الشيعة الأونية شيئا فشيئا فى زوايا النسيان · ونستطيع أن نتبين الى أى حد اقترنت الاشتراكية بالحب المباح فى نظر الطبقات الموسرة من أقوال أحد الشهود من رجال الكنيسة فى سنة ١٨٤٦ أمام لجنة برلمانية لانشاء السكك الحديدية · فقد سئل هذا الشاهد عن أخلاق العمال الذين يعملون فى الانشـــاءات :

انك تتحدث عن الآراء الالحادية · فهل تعتقد أن عددا كبيرا منهم اشتراكيون؟ فأجاب : « معظمهم اشتراكيون فى أعمـــالهم ، ذلك أن قلة صغيرة منهم هم المتزوجون ، وان بدا أن لهم زوجات » (×) ·

ان الحياء الفكتورى الذى تتسم به الاجابة عن هذا السؤال لجدير بالثناء ، الا أنه ليس من المحتمل أن هؤلاء العمال كانوا اشتراكيين بأى معنى آخر · لقد كان اشتراكيو ذلك العهد قلة متحمسة من ذوى النشاط الذهنى ولم يكن لأولئك العمال شىء من هذه الصفات ·

ومن العسير أن يصدر المرء حكما صحيحا على عمل أوين وأثره · فهو حتى عام ١٨١٥ يبدو رجلا عمليا ناجحا فى كل أمر يتولاه ، ولا تقوده نزعات الرجل المصلح الى القيام بمحاولات مستحيلة · وبعد ذلك التاريخ أصبح أفقـه أكثر اتساعا ، ولكن حكمته فى شئون الحياة اليومية تضاءلت · وقد أخفق فيما بذله من محاولات لاصلاح العالم بسبب قلة الصبر وعدم الاهتمام بالنواحى المالية اهتماما كافيا ، وكذلك بسبب اعتقاده بأنه من السهل اقناع كل الناس بأن يروا ما كان يبدو له حقيقة واضحة لا تحتاج الى دليل · وقد ضلله نجاحه فى نيولانارك كما ضلل غيره فى مبدأ الأمر · ذلك أنه كانت لديه دراية بالآلات كما كان يعرف كيف يجعل نفسه محبوبا ، وكانت هاتان الصفتان كافيتين فى نيولانارك ، ولكنهما لم تكونا كافيتين فى مغامراته التـــالية · فلم تكن لديه الصفات التى تجعل منه زعيما أو منظما ناجحا ·

(×) التاريخ الاقتصادى لبريطانيا العظمى « كلابهام » المجلد الاول ص ٤١٢ ·

غير أنه يستحق مكانة ممتازة بوصفه صاحب فكرة . فقد أوضح مشاكل تعلق بالانتاج الصناعى أثبتت الأيام انها مهمة وان كانت أهميتها قد اختفت وقتا فى الفترة التالية لنشاطه بسبب امتداد السكك الحديدية . فقد أدرك أن زيادة الانتاج الناجمة عن استعمال الآلات لابد أن تؤدى اما الى تضخم فى الانتاج أو الى انتشار البطالة الا اذا بذلت الجهود لتوسيع الأسواق عن طريق رفع الأجور . كما أدرك أن احتمال رفع الأجور فى ظل القوى الاقتصادية السائدة فى نظام المنافسة الحرة بعيد . واستنتج من ذلك وجوب الاتجاه بطرق الانتاج والتوزيع اتجاها اشتراكيا أكثر من ذى قبل اذا أريد أن يكون التصنيع مصدر رخاء عام . وقد نجح القرن التاسع عشر فى تجنب منطق تضخم الانتاج عن طريق ايجاد أسواق جديدة وبلاد جديدة للاستغلال بصورة مستمرة ، ولكن الحقائق الكافية فى تحليل أوين قد بدأت تظهر بوضوح فى هذه الأيام .

وكانت أخطر الاعتراضات على برنامجه فى عهده هى مبدأ زيادة السكان وضرورة المنافسة بوصفها قوة دافعة فى الصناعة . وتستمد الحجج التى يقوم عليها هذان الاعتراضان من مالش الذى يصف أوين بأنه « رجـل خـيـر » . ويؤيد تشريعه المقترح للمصانع وأساليبه فى التعليم . ويقول ان جميع النظم التى تهدف الى المساواة تنطوى على استبعاد « تلك البواعث التى تدفع الناس الى بذل الجهود والتى لا يستطيع غيرها التغلب على الكسل الطبيعى فى الإنسان » ، بينما تزول أيضا الموانع الحصينة التى تحول دون الاسراف فى النسل والتى تعتمد جميعها على الملكية الخاصة . «وفى مثل هذه الظروف لن يكون ثمة سبب لأن يرى انسان أنه مضطر لاخضاع نفسه لواجب الامتناع أكثر من أى انسان آخر . وواضح أن عجز أوين التام عن أن يقترح أية وسيلة لتحقيق هذا الهدف - تحديد النسل - بطريقة طبيعية تتفق مع الأخلاق ولا تتضمن قدرا كبيرا من القسوة ، وكذلك اخفاق كل مفكر آخر - قديما كان أو حديثا - ممن حاولوا مثل هذا العمل ، انما يدل على أن الحجج التى تساق ضد أنظمة المساواة ليس لها من رد مقبول حتى من الناحية النظرية » .

أما فيما يتعلق بهذين الاعتراضين ، فان الحجج التى بنيت على مبدأ السكان أجاب عنها انخفاض معدل المواليد فعلا . ومن سخرية القدر الغريبة أن بعض الراديكاليين من الطبقة الوسطى هم الذين أخذت عنهم الطبقات العاملة فى آخر الأمر معظم ماتبعته من وسائل ضبط النسل الذى جعل نجاح الاشتراكية ممكنا ، بينما كان الاشتراكيون انفسهم اما معادين للفكرة أو غير مبالين بها . وتضاءلت خطورة الاعتراضات الأخرى بسبب زيادة القدرة الانتاجية للعمل . فمما لا ريب فيه أن الخوف من الفقر كان دافعا لا بد منه عندما كانت ساعات العمل العادية بين ١٢ و ١٥ ساعة يوميا . أما الآن ، مع استعمال الطرق

الحديثة ، فان ساعات عمل قليلة جدا ، مع التنظيم المناسب ، أصبحت كافية ويمكن الوصول الى هذه الغاية عن طريق نظام يسهل تنفيذه .

وطبيعى أن القرى التعاونية التى يقترحها اوين تعتبر سخفا إذا نظرنا اليها على أنها هى الحل المستطاع . ذلك أنه لا يمكن تجربة نظام شيوعى تجربة صادقة على نطاق ضيق ، بل أن هذه التجربة يجب أن تشمل على الاقل امة باكملها ان لم تشمل العالم كله . وكان اقتراحه يرمى الى أن تجمع هذه القرى بين الزراعة والصناعة ، وان تكفى كل منها نفسها فيما يتعلق بالطعام بقدر الامكان . وكان هذا النظام يبدو طبيعيا فى الشمال الصناعى فى سنة ١٨١٥ حيث كانت تقوم مصانع منعزلة تدار بقوة الماء داخل مناطق زراعية؛ غير أنه من المستحيل فى العالم الحديث أن تنتج مناطق صناعية كل طعامها . اذ لا يستطيع مجتمع صغير فى الوقت الحاضر أن يهدف نحو الاكتفاء الذاتى اقتصاديا الا اذا كان على استعداد لان يتقبل مستوى منخفضا جدا من الحياة .

ومع ذلك فلم يزل هناك الكثير فى نواح أخرى مما يمكن ان يقال فى صف مربعات أوين . فهو على خلاف معاصريه لم يكفكر فى الحياة على أساس من الربح والخسارة ، فقد اهتم بالجمال وبتنمية الحواس والعقل ، واهتم فوق كل شىء بالاطفال . ان حياة جماعية مثل التى وضع أوين برنامجها ممكن أن تضم كل ألوان الجمال الذى يوجد فى كليات أوكسفورد وكيمبردج كما أنه من الممكن توفير وقت فراغ يتسع للفنون الجميلة عامة ويهىء للاطفال حرية العمل واللعب . « ان الفردية العائلية التى الفناها لتجعل كل هذه الاشياء مستحيلة . و « التجمع وحده لهو السبيل الوحيد الذى يستطيع عن طريقة أشخاص ممن ليسوا أكثر ثراء مما ينبغى أن يهربوا من أدران الحياة ويتمتعوا بالمباهج الجمالية التى تتوفر فى العمائر الفسيحة ووفرة الهواء المطلق واشعة الشمس . ان المدن الحديثة سجون للاطفال ، ألا اذ كانوا فقراء الى حد يسمح لهم باللعب فى الشوارع ، وحتى هذا نفسه غير صحى وخطر » . وكان أوين يعتقد أن التحول الى المجتمع الجديد أمر أسرع وأسهل مما هو ممكن فى الواقع ، ولكن الاشياء التى أراد تحقيقها جميلة ، وقد اهملها كل المصلحين الآخرين تقريبا . وهى أشياء جعل نمو الانتاج الآلى تحقيقها عمليا ، مع بعض التعديلات الفنية أيسر من ذى قبل لا أصعب منه . وهذه الاسباب هى التى تجعل أوين رجلا عظيم الشأن على الرغم من مواطن الضعف فى آرائه ، وهى آراء لم تزل قادرة على الاثمار .

الفصل السادس عشر

الحركة النقابية الاولى

يستطيع اى شخص لديه سلعة يبيعها أن يحصل لها فى الغالب على سعر أحسن لو أنه كان محتكرا لها مما لو كان خاضعا للمنافسة فيها . فاذا كان له منافسون فمن مصلحته عادة أن يتحد معهم كي يحصلوا جميعا على مزايا الاحتكار . على أن من العسير فى أغلب الأحيان قيام هذا الاتحاد لأن الذين كانوا متنافسين يميل كل منهم للشك فى غيره ولأن فى وسع أى واحد منهم ، بعد الاتفاق على الاتحاد ، أن يحصل على كسب مؤقت بالخروج على الباقين والتفاهم مستقلا مع المشترين . هذا الى أن المشترين ، وهم يدركون ما عسى أن يصيبهم من خسارة نتيجة لاتفاق البائعين ، يضعون فى طريق هذا الاتفاق كل العقبات الممكنة ، سواء كانت قانونية أو باثارة الرأى العام . ومن ثم فان مزايا المنافسة يحرص عليها المستهلكون ، بينما يعمل المنتجون على تحقيق فوائد الاتحاد . وكان النزاع بين هاتين النظريتين المتضاربتين والمذاهب العامة المتعلقة بما ينشأ عن كل منهما من خير عام يظهر باستمرار خلال التاريخ الاقتصادى للقرن التاسع عشر .

والعمل ، باعتباره سلعة ، يبيعه الأجير ويشتريه صاحب رأس المال . وعند ما يزيد عدد السكان وتسود المنافسة بين الأجراء لا مفر من أن تميل الأجور الى الهبوط الى حد الكفاف . والنقابات ، فى أصلها على الاقل — هى محاولة لمنع حدوث هذه النتيجة عن طريق الاتحاد بين بائعى العمل — فى حرفة معينة فى مبدأ الأمر ، ثم تتسع بالتدريج لتضم ميادين أكبر حتى تشمل آخر الامر الاغلبية الساحقة من الاجراء . ولا جدال فى أن مقدرة الأجراء على المساومة الاقتصادية ، وكذلك مكانة العمل بصفة عامة ، قد ارتفعا كثيرا عن طريق الحركة النقابية ، الا أن الخطوات الاولى كانت صعبة ، وكثيرا ما أصيبت الآمال الكبيرة الاولى بالنكسة بعد النكسة .

ويرجع تاريخ أول نقابة ، كما يقول مستر ومسز سيدنى وب ، الى أواخر القرن السابع عشر ، أى أنها بدأت قبل عهد الانقلاب الصناعى . « فى جميع الحالات التى قامت فيها النقابات كانت الغالبية العظمى من العمال قد فقدوا استقلالهم بوصفهم منتجين يتحكمون فى عمليات الانتاج ويملكون أدوات عملهم ونتاجه ، وتحولوا الى وضع صاروا فيه أجراء طوال حياتهم ولا يملكون أدوات الانتاج ولا السلعة فى صورتها النهائية (×) وفى بعض المهن ، كمهنة الحائكين

(×) «تاريخ الحركة النقابية » تاليف سيدنى وبياتريس وب الطبعة المنقحة سنة ١٩٢٠ ص ٢٥ – ٢٦ .

مثلا ، حدث هذا الهبوط بمستوى العامل الى مستوى البروليتاريا قبل عصر الآلة ، الا أن ظروف قيام الحركة النقابية على نطاق واسع لم تبدأ الا عن طريق الآلة ونظام المصانع ؛ ولهذا السبب أصبحت النقابات مهمة فى بريطانيا العظمى قبل أى مكان آخر بمدة طويلة .

ولم تكن النقابات فى القرن الثامن عشر من الأهمية بدرجة تكفى لاثارة عداء القانون لها ، ولكنها صارت موضع اضطهاد قانونى ابتداء من سنة ١٧٩٩ حتى سنة ١٩١٣ . أولا من جانب الهيئة التشريعية والمحاكم معا ، ثم من قبل المحاكم وجدها متحدية نوايا الهيئة التشريعية . ففى سنة ١٧٩٩ قدم بت مشروع قانون وافق عليه البرلمان بطريقة عاجلة وجعل كل الاتحادات العمالية غير مشروعة . وكانت اتحادات أصحاب الأعمال أيضا غير قانونية من الناحية النظرية بمقتضى هذا القانون ، ولكن هذا الجزء من القانون ظل ميتا . كما كانت هناك تشريعات أخرى الى جانب القانون العام تطبق كلما رأت المحاكم أن ذلك أيسر لها .

ففى اضراب قام به عمال نسيج القطن سنة ١٨١٢ قبض على أعضاء اللجنة بتهمة الاتحاد . وهى جريمة فى نظر القانون العام ، وحكم عليهم بالسجن مددا تتراوح بين أربعة شهور وثمانية عشر شهرا . وفى سنة ١٨١٨ حكم على زعماء اضراب قام به الغزالون بالسجن عامين تطبيقا لتشريع صدر سنة ١٣٠٥ ضد « المتآمرين والمارقين » . وكانت المحاكمات كثيرة حتى عندما لم يكن هناك اضراب . ويقول وب وزوجته : « لقد شهدت العشرين السنة الأولى من القرن التاسع عشر تعقب القانون للنقابيين باعتبارهم ثوارا ومتمردين ، يحولون دون النمو السليم للاتحادات ويدفعون أعضاءها لأعمال العنف والفتن » .

وبدأت حقبة جديدة فى الحركة النقابية سنة ١٨٢٤ نجمت عن تدخل الراديكاليين من الطبقة الوسطى . فقد كانت الحركة حتى تلك اللحظة تنمو من تلقاء نفسها ويتجاهلها جميع من هم خارج صفوف الأجراء أو ينفرون منها . ثم جذبت محاكمة عمال مطبعة التايمز انتباه الحائك الراديكالى فرانسس ولفتت نظره الى مافى قوانين الاتحادات من ظلم بين ، وفى أول العقد الثالث عندما بدأت لهجة السياسة البريطانية تكون أقل مغالاة فى الرجعية ، حصل على تأييد اثنين من الراديكاليين الفلسفيين هما ماك كولوش وجوزيف هيوم فى الغاء هذه القوانين . ونجح هيوم سنة ١٩٢٤ فى حمل البرلمان على أن يوافق على قانون يكفل حرية كاملة للاتحادات أيا كان نوعها . وفى تلك الأيام لم يكن هناك من يهتم كثيرا بمثل هذه المسائل حتى ولا الحكومة نفسها ، ونجح هيوم بالتزامه الصمت والهدوء مع أعضاء البرلمان ، بل والوزراء أنفسهم ، من أن يلاحظوا ما كان يحدث (×) . وحدثت فى تلك الأيام عاصفة من الاضطرابات ودهش

(×) انظر « حياة فرانسيس بليس » دالاس . الفصل الثامن .

الناس اذ وجدوا أن القوانين القديمة لم تعد تنفذ • وفى سنة ١٩٢٥ أعاد البرلمان بعض النصوص التي كان قد ألغاها عن غير قصد • ولكنه لم يذهب الى حد جعل الاضرابات والنقابات غير مشروعة • وأصبحت الحركة النقابية منذ هذه اللحظة ذات شأن فى كل من الصناعة والسياسة ، وان كانت قد مرت بأزمات ونهضات كثيرة •

وقد ظلت النقابات بلا أهداف سياسية أو اقتصادية طوال الفترة التي كانت بعيدة فيها عن تأثير الطبقة الوسطى ، كما انها كانت تفتقر الى الاحساس بتضامن الطبقة العاملة • وكانت تتكون في الغالب من اتحادات محلية من أصحاب الحرف المهرة الذين ينتمون الى حرفة بذاتها ، تتعاون أحيانا مع اتحادات مشابهة لها فى أماكن أخرى • الا انها قلما كانت تهتم بشيء خارج نطاق الاحتفاظ بمستوى الأجور فيها • بيد أن بعض زعمائها تنبهوا ، عقب اتصالهم بالراديكاليين الفلسفيين فى موضوع الغاء قوانين الاتحادات ، الا أن هناك مذهبا آخر يمنح الأجراء أكثر مما يمنحهم ضبط النسل والنظريات الاقتصادية المالتسية والاتجاه نحو الهجرة • ولم تكن الدعوة الى الاشتراكية مقصورة على أوين وحده بل كان يقوم بها أيضا عدد من الاقتصاديين أهمهم توماس هودجسكين الذى يتمتع بميزة نادرة اذ يستشهد به ماركس محترما آراءه وكان هودجسكين يقول ، متبعا فى ذلك ريكاردو ، أن العمل هو مصدر القيمة ، ويختلف معه فى أنه كان يدعو الى أن يأخذ العامل كل نتاج الصناعة • وقد راع جيمس مل الأثر الذى أحدثه نشاطه فكتب بقلق شديد فى ١٦ اكتوبر سنة ١٨٣١ الى بليس عن وفد « من الطبقات العاملة » كان يدعو للشيوعية لدى مستر بلاك محرر المورننج كرونكل :

« ان آراءهم فى الملكية تبدو بشعة ، فانهم لا يريدون فقط ألا تكون بينها وبين التمثيل النيابى علاقة ،وهو أمر سليم فى ذاته وان لم يكن سليما فى الوقت الحاضر ، وهذا ما يجب عليهم أن يدركوه • ولكنهم فيما يبدو يعتقدون أن الملكية يجب ألا توجد أصلا وأن فى وجودها وبال عليهم • ولا يساورنى الشك فى أن بينهم أوغاد يعملون بنشاط وصحيح أنه من اليسير التأثير على بلاك وخداعه • ولكن الموضوع يتطلب عناية • وليس ثمة من يستطيع أن يسبر غور الأمور مثلك ، كما أنه ليس هناك من لديه وسائل العلاج بالقدر الذى لديك • انهم أغبياء اذ لا يرون ما يريدونه جنون سيكون كارثة عليهم لا يمكن أن يحيق بهم الا على أيديهم أنفسهم » •

وأجابه بليس :

« عزيزى مل — بما أنك تبذل جهدك أحيانا فى خدمة الناس ، وبما أنك رجل له نفوذ ، فانى أبعث اليك بمقالة ردا على رسالتك • ان الرجال الذين زاروا بلاك لم يكونوا وفدا من العمال ، بل هم اثنان من ستة أشخاص يديرون

ـ أويسيئون ادارة ـ الاجتماعات فى قاعة فى طريق بلاكفراير وفى معبـــد فيلادلفيا فىفينسبرى • والمذهب الذى يدعون اليه الآن هو ذلك الذى يذكره هودجسكين فى رسالة نشرها سنة ١٩٢٥ بعنوان (الدفاع عن العمل ضــــد مطالب رأس المـال) ••• » واستمر على هذا المنوال فى رسالة طويلة (×)•

وبعد عام أرسل مل المعلومات التىحصل عليها من بليس الىلورد بروجهام :

« ان الهراء الذى تشيرون سيادتكم اليه عن حق العامل فى الاستيلاء على كل انتاج البلاد ، بما فى ذلك الاجور والارباح والريع ، مصدرها خزعبـــلات جنونية نشرها صديقنا هودجسكين على هيئة نظام كامل وقام يدعو اليها فى حماسة المتعصبين المتشددين • وكل ما يظهر منها فى الكرونكل انما يتسرب اليها عن طريقه باعتباره مساعد المحرر ، اذ أن بلاك «المحرر» ليس ماهرا جدا فى اكتشاف هذه المسائل ولـكن جميع آراء بلاك فى موضوع الملـكية آراء سليمة ، ولو أن آراء هودجسكين انتشرت لكانت معولا أكثر هدما للمجتمع المتمدن من جحافل الهون والتتار (× ×) » •

وكانت نتيجة التعاليم الاشتراكية ثورة ضــد راديكالية الطبقــة الوسطى ونموا سريعا لحركة عمالية خالصة ، بعضها نقابى وبعضها تعاونى، كانت تنظر الى أوين باعتباره نبيها • وبينما كان أوين مشغولا بنيوهارمونى بدأت الحركة التعاونية مرتبطة ارتباطا وثيقا بمبادئه • وفى هذه الآونة كان أول استعمال معروفــة للفظ « اشتراكى » وصفا لأتبــاع أوين • وكان ذلك فى مجــلة « التعاون » الصادرة فى سنة ١٨٢٧ اذ أطلق على أنصار « قرى أوين » اسم الشيوعيين والاشتراكيين The communionists and socialists (× × ×)
ولما ظهر أن رأس المال اللازم لانشاء القرى لا سبيل الى الحصول عليه اتجهت الحركة التعاونية فى نموها اتجاها عمليا أكثر من ذى قبل وأن النمو الهـائل للمتاجر التعاونية فى الوقت الحاضر لهو أثر من آثار نمو الحركة التعاونيــــة الذى بدأ منذ أيام أوين ، غير أن الحركة مرت بأزمات مختلفة وتجارب فاشلة عديدة قبل أن تصل الى صورتها العملية المكتملة التى بلغتها فى النهاية •

وقد افتتح أوين ، فى سبتمبر سنة ١٨٣٢ ما أطلق عليـــه « التبـادل القومى العادل للعمل » فى بناء رائع نوعا ما فى طـريق « جريز اين » كان يتخذه قبل ذلك أحد أتباعه اسمه بروملى « مؤسسة لمحاربة الجهل والفقر » • كان المقصود منها أن تمثل ـ الى حد ما ـ ثمن هذه السلع مقدرا بالعمل• وكان مقدار ضخم من التبادل يتم عن طريق هذه المنشأة ، الا أن أحدا لم يعـرف تماما هل كانت عملية خاسرة أو أنهـا كانت تربح • ثم بدأ بروملى يطالب أوين بايجار مرتفع (ليس بصكرك العمل !) • وكانت النتيجة أن انتقل أوين

(×) « بليس » تاليف دالاس ص ٢٧٤ •
(× ×) خطاب مل لبروجهام فى كتاب « جيمس مل » تاليف « بين » ص ٣٦٤ •
(× × ×) « تاريخ بريطانيا الحديثة الاقتصادى » كلابهام • الجزء الاول ص ٣١٥ •

لى مكان جديد ، وفى يولية سنة ١٨٣٣ انقطعت صلته بالمنشأة • وكانت هناك « مراكز لتبادل العمل » غير أن هذه تدار على أسس مشابهة لهذا المركز معظمها فى لندن • وتكونت « جمعية المهن المتحدة » كانت على اتصال بهذه المراكز يوفر فيها العمل للمتعطلين ، ولكنهم كانوا يأخذون أجورهم صكوك عمل ويرسل انتاجهم الى مراكز « تبادل العمل » • الا أن الحركة كلها سرعان مافشلت • ويعزو وليم لوفت ـ وهو أحد زعماء العرائضيين ومن أنصار أوين الذين كانوا على صلة وثيقة بجمعية المهن المتحدة ـ فشل الحركة الى « الخلافات الدينية والحاجة الى الضمان القانونى ونفور النساء من الاقتصار فى مشترياتهن على مكان واحد » • ومما يدعو الى العجب عدم قدرة أوين المستمرة على ابعاد المسائل الدينية من أن تكون ذات شأن فى عمله •

وظلت الحركة النقابية فترة وجيزة مرتبطة ارتباطا وثيقا بهذه المحاولات الاولى الفاشلة للحركة التعاونية • وعلى الرغم من أن بعض النقابات ظلت بمنأى عن مبادىء أوين ، فان معظمها قبل تعاليمه فى سنة ١٨٣٣ ، وحدث بفضل زعامته نمو سريع مفاجىء فى عضويتها ومحاولة لتحقيق أهداف اشتراكية واسعة لها •

وكان أوين كعادته يتوقع الحصول على نتائج سريعة • فكان يعتقد أن الحركة النقابية تستطيع تغيير النظام الاقتصادى بأكمله فى سنوات قلائل • وقد كتب الى اتحاد البنائين ردا على خطاب أرسلوه له ما يأتى : « انكم تستطيعون تحقيق هذا الانتقال (الى العصر التعاونى الجديد) بالنسبة لسكان الامبراطورية كلها فى أقل من خمسة أشهر (×) » • وكون البناءون « اتحاد الاخوة البنائين العاملين القومى » • وكانوا على أهبة للتعاقد بأنفسهم على تشييد المبانى ، وأبلغوا أصحاب الاعمال أن سلطانهم آخذ فى الزوال ، الا أنه ممكن ضمهم الى الاتحاد بوصفهم مدبرين اذا أثبتوا كفايتهم • وفى نفس الوقت طلب البناؤون العاملون أجورا أعلى • ولم يبد أصحاب الاعمال أية حماسة نحو عصر أوين الذهبى ورفضوا استخدام أعضاء الاتحاد . وحدث اضراب ، وشرع المضربون فى بناء مقر لاتحادهم فى برمنجهام • الا أن أموالهم لم تكف لاتمام البناء وانهاء المشروع كله . ولكنه كان فى هذه الاثناء قد أصبح جزءا من حركة أكبر .

وفى أكتوبر سنة ١٨٣٣ اجتمع مندوبون عن النقابات فى جميع أنحاء البلاد فى مقر « التبادل القومى العادل للعمل » وأوصوا بتكوين « اتحاد قومى كبير للطبقات المفيدة والمنتجة » • وفى غضون أسابيع قليلة بلغ عدد أعضائه نصف مليون عضو ، وقدر مجموع عدد النقابيين بمليون شخص • وبينما كانت الشكوك تساور بعض النقابات فى أوين ، كان « اتحاد المهن

(×) « أوين » تاليف كول •

التضامنى القومى الكبير » مخلصا لمذهبه كل الاخلاص ويبدو أن تفاؤله والزيادة السريعة فى عضويه النقابات جعلت النقابيين يتهورون . فحدثت إضرابات فى كل مكان ، وانزعج أصحاب الاعمال ورفضوا استخدام النقابيين فأصبحوا بلا مال .

وفى هذه اللحظة وقعت حادثة عمال درشستر . كان هؤلاء ستة رجال يعملون فى انشاء مقر « لجمعية الصداقة بين العمال الزراعيين » التى لم تكن فى ذاتها جمعية غير قانونية ، غير أنهم اتهموا بجريمة أخرى هى أنهم كانوا قد استحلفوا أعضاءها ايمانا (×) وعلى هذا الاساس حكم عليهم بالنفى سبع سنوات . فكان لابد لأوين والزعماء الآخرين أن يكرسوا جهودهم لاثارة الجماهير للدفاع عن قضية هؤلاء التعساء . وبذلوا كل ما فى وسعهم ولكن ملبورن وزير الداخلية لم يلن .

وساءت وقتئذ أحوال « الاتحاد التضامنى » ، وجاءت خلافات أوبن مع مساعديه ، ومعظمها على مسائل دينية ، فأكملت انهياره . وانصرف أكبر مساعديه : ج. أ. سميث عن الاشتراكية وأسس « الديانة العالمية » ، وعاش بعد هذه الفترة معيشة هادئة فى رغد يعمل محررا لجريدة « فاميلى هيرالد » .

ولقى « الاتحاد القومى الكبير للنقابات » نهايته المحزنة بين المشاكل الشخصية والمتاعب المالية . وبعد أن تحطمت آمال أوين فى الاتحاد أقنع من بقى مخلصا له من أتباعه أن ينضموا اليه فى منظمة جديدة اسمها « الاتحاد البريطانى والاجنبى المتضامن للصناعة والانسانية والمعرفة » وانزوت الحركة النقابية ــ فترة ما ــ فى عالم النسيان . وتحولت حماسة الطبقة العاملة أولا الى اتجاهات سياسية بحتة تحت تأثير العرائضيين ، ثم اتجهت بعد انشاء « رواد ريتشديل » سنة ١٨٤٤ الى الحركة التعاونية الثانية التى ظلت تعتبر أوين نبيا ، ولكنها اتبعت وسائل عملية أكثر من ذى قبل لتحقيق أهداف أقل ثورية .

ويقول وب وزوجته فى سنة ١٨٤٨ ما يأتى :

« لقد زال خطر الثورة . وبدأ ينشأ جيل جديد من العمال ، جيل لا يعرف شيئا عن أسوأ ألوان الاضطهاد القديم ، جيل تشبع بالفلسفة الاقتصادية والسياسية التى ينادى بها مصلحو الطبقة الوسطى . ولم يعد يقرأ ريكاردو وجروته وبنتام الا قلة ، ولكن نشاط التربويين من أمثال لورد بروجهام وشارلز نايت أدى الى انتشار « المعرفة المفيدة » بين جميع أعضاء

(×) كانت هذه جريمة فى انجلترا يطلق عليها Administring oaths

« مؤسسات العمال » وقراء « المجلة الرخيصة » . وقد وجدت آراء الطبقة الوسطى عن حرية العمل والمنافسة غير المقيدة التى انتشرت بهذه الطريقة قوة دافعة ضخمة من الدعاية غير العادية التى قامت بها عصبة مقاومة قانون الغلال والتقدم العام الذى صاحب حرية التجارة .

وقد أدى فشل حركة أوين النقابية مع زيادة الرخاء العام بين سنتى ١٨٤٠ و ١٨٨٠ عندما كانت مدرسة منشستر تسيطر على السياسة الاقتصادية البريطانية الى أن تحول زعماء الطبقة العاملة أنفسهم الى النزعة الفردية الراديكالية . غير أن الحركة النقابية أخذت تنمو شيئا فشيئا وتنتشر فى كل البلاد الصناعية بعد نكستها الكبيرة (يقدر وب وزوجته أنه لم يكن فى المملكة المتحدة كلها سنة ١٨٤٠ مائة ألف تعاونى) . نجحت الحركة فى بريطانيا العظمى فى مواجهة فترات عداء القضاء نحوها بين الحين والحين بتشريعات جديدة تصدر بين الفينة والفينة . وعندما ساءت الاحوال ثانية فى العقد التاسع من القرن الثامن عشر وبدأت الاجور فى الانخفاض تذكر النقابيون أوين وجددوا ايمانهم بالاشتراكية . وأطرى هندمان فى سنة ١٨٨٥ « روبرت أوين النبيل » الذى استطاع أن يدرك عدم جدوى انصاف الحلول . « ولكن الثورة التى لم تكن مستعدة فى أيامه صارت الآن ناضجة ومستعدة ... لقد اقتربت أيام ثورة القرن التاسع عشر الاجتماعية الكبرى (×) » . ولم تقع الثورة فى سنة ١٨٨٥ كما لم تقع فى سنة ١٨٣٤ . ولكن الاشتراكيين اللاحقين وجدوا عملا مفيدا يقومون به . لقد جند أوين العمال غير المهرة فى نقاباته مدة قصيرة ولكنه لم يقدهم الا الى الجوع والسجن والنفى . وفى أواخر العقد التاسع عندما وصلت الحركة النقابية مرة أخرى الى العمال غير المهرة أدت الى سلسلة من الاضرابات التى نجحت نجاحا رائعا واذا كانت الاشتراكية على نطاق قومى قد أثبتت أنها غير عملية فان نتائج كثيرة قد تحققت عن طريق الاشتراكية المحلية .

لقد ازدهرت التجارة وضعفت الاشتراكية ، والآن ضعفت التجارة مرة أخرى وازدهرت الاشتراكية . ولعل هذه ليست آخر حلقة فى السلسلة . الا أن آخر حلقة لا بد آتية .

(×) وبب ٤١١ .

٣ ـ ماركس وانجلز

الفصل السابع عشر

ماركس وانجلز

لم تصر الاشتراكية قوة كبيرة فى السياسة العملية بسرعة ، كما أصبحت الراديكالية الفلسفية ، بل أنها ظلت بوجه عام مذهبا لا أثر له تعتنقه أقلية حتى سنة ١٩١٧ • أما من حيث هى نظام من التفكير فانها تنتمى الى نفس الفترة التى ينتمى اليها ريكاردو وجيمس مل ، ولقد صارت الحركة الاشتراكية بعد فشل روبرت أوين فرنسية فى معظمها وكيفت بحيث تلائم ظروف ماقبل الصناعة ، وكان لآراء سان سيمون وفورييه تأثير كبير ، وبلغ الاشتراكيون من القوة حدا استطاعوا معه أن يسيطروا على بداية ثورة سنة ١٨٤٨ • غير أن الاشتراكية الفرنسية كانت لا تزال تعانى بعض عيوب الأونية وبعض النقائص الاخرى الخاصة بها • فلم تكن تتضمن مجموعة منسقة من المبادىء أو خطة عملية للانتقال من الانتاج الرأسمالى الى الانتاج الاشتراكى •

ولم يكتمل نضوج الاشتراكية من الناحية الفكرية بحيث أصبحت قادرة على أن تكون مصدر ايحاء لحزب سياسى جدى آلا على يدى ماركس وانجلز • وقد نشر البيان الشيوعى ، الذى كان يتضمن فعلا كل النقاط الاساسية لمذهبهما ، قبيل اندلاع الثورة الفرنسية فى سنة ١٨٤٨ • وينتمى نظام ماركس من الناحية الفعلية الى هذه الحقبة •

ولكى نفهم ماركس يجب أن ندخل فى اعتبارنا مجموعة من العوامل المعقدة التى أثرت فيه وشكلت عقليته • وكان أول هذه العوامل هو تأثير هيجل الذى صادف ماركس خلال حياته الجامعية ولم يستطع مطلقا أن يتخلص منه بعد ذلك ، ولا تزال آثاره باقية فى الشيوعية حتى اليوم • وقد اقتبس ماركس من هيجل حبه للنظام الشامل والاعتقاد بأن التاريخ نتيجة نظامية لخطة عقلية تتم بنفس الحتمية ونفس التحديد فى المعارضة المنطقية الذى تتسم به الجدلية الهيجلية • والتجربة الثانية التى مر بها ماركس كانت عمله كصحفيا ألمانيا راديكاليا وتعرضه لكل صعوبات الرقابة كما كانت قائمة وقتئذ • وبعد ذلك قادته رغبته فى المعرفة الى الاتصال بالاشتراكية الفرنسية ، ومن الفرنسيين تعلم أن ينظر الى الثورة على أنها الوسيلة الطبيعية السوية للتقدم السياسى • غير أن انجلز كان هو الذى أدخل لأول مرة فى عملهما المشترك العنصر البالغ الاهمية وهو أحدث المعلومات الخاصة بالتصنيع فى بريطانيا • فقد نشر انجلز فى سنة ١٨٤٥ كتابه عن « حالة

الطبقة العاملة الانجليزية في سنة ١٨٤٤ » ، وقد تركت هذه الفترة المظلمة طابعها على كل ماكتبه ماركس وانجلز بعد ذلك • ولعله لولا اتصال ماركس بانجلترا لاستمرت آراؤه ميتافيزيقية مجردة الى حد بعيد تنقصها تلك المعرفة الوثيقة بالحقائق الصناعية التي استمد منها قدرته على الاقنـــاع • ولما جاء الوقت الذي اكتمل فيه نظامه كان قد اجتمع له ثلاثة عناصر ذات قيمـة من ثلاثة بلاد مختلفة • فقد منحته ألمانيا القدرة على بناء الأنظمة ، وجعلته فرنسا ثوريا ، وجعلته انجلترا عالما •

ولد ماركس سنة ١٨١٨ في تريفس في بلاد الراين حيث كان النفوذ الفرنسي قد تغلغل أكثر من تغلغله في أية بقعة أخرى في ألمانيا (×) • وكان عدة أجيال من أجداده من رجال الدين اليهود ولكن والده كان محاميـــا • واعتنقت الاسرة الدين المسيحي عند موت جدته لوالده ، وكان هو وقتئـــذ في السادسة من عمره ونشىء ماركس على المذهب البروتستنتي • ووقع في غرام فتاة ارستقراطية جميلة ولما يتجاوز السابعة عشرة من عمره ، وأقنـــع والديه ووالديها بالموافقة على خطوبتهما • الا أنه لم يستطع الزواج منهـــا الا بعد سبع سنوات • وكان والداها قد غيرا رأيهما وعارضا بشـــدة في اتمام الزواج •

وبدأت تظهر فيه ، وهو طالب جامعي ـ تلك الطاقة الهائلة ـ السيئة التوجيه ـ التي تميز بها طوال حياته • فهو يذكر في خطاب كتبه لوالده ولم يكن قد تعدى التاسعة عشرة من عمره أنه كتب ثلاثة مجلدات من الشعر الى حبيبته جني وترجم أجزاء كبيرة من « تاسيتوس وأوفيد وكتابين من الباندكت » وكتب كتابا من ثلاثمائة صفحة في فلسفة القانون ، ثم تبين أنها عـــديمة القيمة وألف مسرحية ، « وعرف في فترة من فترات كآبته هيجل من أوله الى آخره » وقرأ عددا لا يحصى في مختلف الموضوعات •

وكان هيجل قد مات عام ١٨٣١ وما زال تأثيره في ألمانيا قويا جدا • الا أن مدرسته انقسمت الى شيعتين ، الهيجليون الشيوخ والهيجليون الشبان • وفي سنة ١٨٣٩ نقد فيورباخ النظام الهيجلي نقدا هداما وتحول من المثالية المطلقة التي نادى بها هيجل الى صورة من صور المادية وجر معه عددا كبيرا من الهيجليين الشبان الذين كانوا يمتـــازون عن الهيجليين الشـــيوخ براديكاليتهم • وكانت الدوائر العلمية في ألمانيا تتسم بنشاط ذهني ضخم خاصة بين الشبان • وبينما كانت ألمانيـا في تلك الآونة متقدمة على العالم كله في ميادين المعرفة ، كانت متخلفة جدا عن فرنسا وانجلترا اقتصـاديا وسياسيا • وكانت الرقابة فيها شديدة شنيعة والطبقات الوسطى محرومة

(×) لقد اعتمدت اساسا فيما يتعلق بحياة ماركس على كتاب اوتو روله « ماركس » حياته واعماله • طبعة آلن وانوين •

من القوة السياسية . ونجم عن ذلك بالضرورة أن أصبح الشبان المفكرون راديكاليين ان لم يكونوا ثوريين ، وتفتحت أذهانهم للأفكار السياسية التي جاءتهم من الخارج وخاصة من فرنسا . ولم يكن ماركس ابان شبابه في عزلة ، بل كان فردا من مجموعة من الشبان المتحمسين الذين يعتقدون أن الفلسفة هي مفتاح كل مغلق ، ولكنهم جميعا اختاروا الفلسفة التي تلائم أكثر من غيرها السياسة الراديكالية .

وأراد ماركس في أول الامر أن يعمل في الصحافة . واشترك في سنة ١٨٤٢ في تحرير مجلة « راينيش زايتونج » ثم لم يلبث أن صار محررها ، وهنا أدرك لأول مرة العقبات التي لا يوجد لها حل في الفلسفة الأكاديمية . وكان أول ما استرعى انتباهه من هذه العقبات موضوع القانون الخاص بسجن الفقراء الذين يسرقون أخشاب الوقود من الغابات . وأدرك من ذلك الوقت أن المسائل الاقتصادية قد أهملت دون مبرر ، وتأكد هذا عنده من كتاب قرأه عن الاشتراكية الفرنسية . وعندما أوقفت الرقابة مجلة « راينيش زايتونج » في يناير سنة ١٨٤٣ أتيح لماركس وقت كاف للدراسة وقرر أن يدرس الاشتراكية .

وذهب الى باريس واضعا هذه الغاية نصب عينيه ، لأن الاشتراكية وقتئذ كانت في الاغلب الأعم اشتراكية فرنسية . وكانت الاشتراكية في تلك الأيام قد صارت تحت قيادة روبرت أوين مذهبا في أساسه علمانيا مناهضا للمسيحية . وكان أوين كما رأينا يعارض دائما في الوسائل السياسية ، وترك السياسة الراديكالية في انجلترا للعرائضيين الذين لم يكن برنامجهم يولي المسائل الاقتصادية اهتماما مباشرا . أما في فرنسا فقد كان الامر على النقيض من ذلك وكانت الحركة التي بدأها سان سيمون وواصلها فورييه في تقدم مطرد تملؤها الحيوية . وتعرف ماركس الى زعمائها وكان أهمهم برودون ولويس بلان . وتعلم كل ما يمكن تعلمه وقتئذ عن الاشتراكية ولكنه لم يعقد أواصر الصداقة مع أي من الاشتراكيين الفرنسيين .

وينبغي أن نقول هنا أن الاشتراكية قبل ماركس لم تكن جديرة بقدر كبير من الاحترام العقلي . فقد كان سان سيمون قبل كل شيء اقطاعيا ينفر من الصناعة والعلم الحديث وكان يسعى الى التجديد عن طريق المسيحية بعد تطهيرها مما فيها من عيوب . أما فورييه فقد كان خياليا الى أبعد حد عندما تعرض لوضع خطط لتنظيم أحسن في الانتاج . وذلك على الرغم من أنه كان ممتازا في نقده للنظام القائم . وترجع أهمية الاشتراكية الى أنها جعلت عددا من المفكرين يحسون بعدم الرضا عن الرأسمالية ويتجهون نحو البحث عن وسيلة تضع حدا لها أو على الاقل تخفف من شرورها . وقد نجح هؤلاء الرجال في فرنسا في خلق حركة عمالية لا هي سياسية بحتة ، مثل حركة

العرائضيين ، ولا هى اقتصادية بحتة ، مثل النقابية ، بل تجمع بين الاثنين معا . وقد أدرك هؤلاء أن الوسائل السياسية مثل حق الانتخاب لجميع الرجال ضرورية ، ولكن الغرض منها كان استعمالها لتحقيق أهداف اقتصادية تهم البروليتاريا . وقد تعلم ماركس فى فرنسا هذه الفكرة الخاصة بعلاقة السياسة بالمسائل الاقتصادية واحتفظ به طوال حياته .

كما ظل الاعتقاد بوجود علاقة وثيقة بين الفلسفة والسياسة ، وهو الاعتقاد الذى قبله ماركس وزمرته على أنه بديهية أيام كان طالبا فى الجامعة ، جزءا من مذهبه . فقد قال وقتذاك : « ان الفلسفة لا يمكن أن تتحقق

الا اذا نهضت البروليتاريا ، والبروليتاريا لا تستطيع أن تنهض الا اذا تحققت الفلسفة » . ولا بد أن هذا يبدو للشعوب التى تتكلم الانجليزية والتى لا تأخذ الفلسفة مأخذ الجد ، شعورا غريبا . اللهم الا اذا كانوا قد تعلموا أن يتقبلوا الشيوعية . أما بالنسبة لماركس فانه يبدو أن تحقيق الفلسفة كان يبلغ فى أهميته ما يبلغه نهوض البروليتاريا . لقد كان فى الواقع قد سار شوطا بعيدا فى طريقه الى النظرية التى مؤداها أن الفلسفة تعبير عن الظروف الاقتصادية .

وبدأت صداقته مع انجلز فى ذلك الوقت ، فى باريس سنة ١٨٤٢ . وكان انجلز يصغر ماركس بعامين ، كما كان قد تعرض فى أيامه الجامعية لنفس المؤثرات الفكرية التى مر بها ماركس . ولكن والده كان يملك عدة مصانع لغزل القطن فى كل من ألمانيا ومانشستر ، وكان قد أرسل انجلز الى مانشستر ليباشر أعمال الاسرة المالية فيها . وقد هيأ له ذلك فرصة الحصول على معلومات مباشرة عن التصنيع الحديث وعن المصنع الانجليزى فى عهد من أسوأ العهود . وكان فى تلك الآونة يؤلف كتابه عن أحوال الطبقة العاملة الانجليزية . ويستعمل هذا الكتاب بقوة نفس المادة التى استعملها ماركس بعد ذلك فى الجزء الاول من كتابه « رأس المال » . فهو مركز حافل بالحقائق المستقاة من مصادر رسمية ، متشائم فيما يتعلق بالفترة التى كتب فيها ولكنه مفعم بالأمل فى ثورة البروليتاريا فى القريب العاجل ، ويجعل الكتاب الحكم على أهمية انجلز فى العمل المشترك الذى قام به الرجلان ممكنا . فقد كان ماركس رجل نظريات علمية أكثر مما ينبغى حتى قابل انجلز ، وكانت فى القارة الاوروبية شرور لعلها لا تقل عن الفظائع التى كانت فى انجلترا ، ولكنها كانت أقل جدة وأقل قوة فى الحكم على مساوىء الرأسمالية . وقد درج انجلز على أن يقلل من شأن نصيبه هو فى جميع ما اشتركا فى عمله ، ولكن لا جدال فى أن هذا النصيب كان عظيما . وكان أهم ما عمله أنه وجه أولا انتباه ماركس الى نوع الوقائع الذى يضمن أكثر من غيره قبول الناس لنظريته الاقتصادية . ويبدو أن المفهوم المادى للتاريخ - فى خطوطه الرئيسية على الأقل - قد اكتشفه كل منهما على حدة قبل أن يبدأ تعاونهما .

وكان انجلز شيوعيا فعلا عندما قابل ماركس أول مرة ، فقد اعتنق هذا المبدأ على يد رجل اسمه موسى هيس أحد الزعماء الراديكاليين الالمان ، وقد كتب هيس في سنة ١٨٤٣ :

« حضر انجلز لمقابلتي وهو في طريقه من برلين في العام الماضي عندما كنت على وشك السفر الى باريس وتدارسنا الموضوعات الحاضرة ، وافترقنا وانجلز قد صار ثوريا من الدرجة الاولى وشيوعيا مؤمنا بمذهبه ، وهكذا عملت على نشر الدمار » .

ومما هو جدير بالذكر أن ماركس في تلك الآونة عقد أواصر الصداقة مع هاين الذي أعجب به اعجابا بالغا وصار شيوعيا .

وكان المفكرون في القارة في ذلك العهد متقدمين جدا في السياسة عن مفكري انجلترا ، ويرجع ذلك بلا شك الى أن الطبقة الوسطى كانت أقل قوة والى أن الثورة كانت الخطوة الاولى الواضحة فيما هو جار وقتئذ . وقد كانت الافكار التي اعتنقها ماركس وأصدقاؤه قبل سنة ١٨٤٨ ، ومترنيخ ما زال في الحكم ، تعرض معتنقيها في الفترة التالية لاضطهاد أكبر مما كانوا يتعرضون له وقتئذ .

ونفي ماركس من باريس في يناير سنة ١٨٤٥ بناء على طلب الحكومة البروسية فذهب الى بروكسل . وفي ذلك الوقت استفاد ماركس لاول مرة من سخاء انجلز عليه بالمال ، ذلك السخاء الذي ظل حتى وفاته المصدر الرئيسي الذي يستمد منه المال . ومن بروكسل قام ماركس ، بمساعدة انجلز ، بدعاية شيوعية واتصل بعدة هيئات مثل « الجمعية التربوية للعمال و « اتحاد العادلين » و « العصبة الديموقراطية » و « الديموقراطيون المتآخون » . وتحول « اتحاد العادلين » الذي كان يجتمع في شارع « جريت وندمل » في لندن الى « العصبة الشيوعية » التي كان برنامجها يتضمن « القضاء على البورجوازية (طبقة الملاك الوسطى) وسيطرة البروليتاريا والغاء المجتمع الطبقي وانشاء نظام اقتصادي واجتماعي خال من الملكية الخاصة والطبقات » . وفي ديسمبر سنة ١٨٤٧ قررت هذه الهيئة أن يقوم ماركس وانجلز بوضع وثيقة عن أهدافها . وترجع كل أهمية « العصبة الشيوعية » في التاريخ الى هذا القرار لان نتيجته كانت هي « البيان الشيوعي » .

وجاء البيان الشيوعي من حيث الاسلوب والوضوح والتركيز وأثره القوي في الدعاية خير ما كتب ماركس في حياته ، فقد كانت فيه الخفة والسرعة اللذان هما من خصائص فجر الثورات ، كما كان فيه ذلك الوضوح الذي ينشأ عن ايمان حديث العهد بنظرية تكشفت حديثا ، وهو يبدأ بالكلمات الآتية :

« هناك شبح يقض مضاجع أوروبا ، هو شبح الشيوعية . وقد عقدت كل السلطات في أوروبا القديمة حلفا مقدسا لابعاد هذا الشبح : البابا والقيصر ، ومترنيخ وجيزو ، والراديكاليون الفرنسيون وجواسيس الشرطة الالمانية » .

وينتهي بهذه الكلمات :

« ان الشيوعيين ليربأوا بأنفسهم عن أن يخفوا آراءهم وأهدافهم . أنهم ليجهرون بأن ما يصبون اليه لا يمكن تحقيقه الا بالقضاء بالقوة على كل الاوضاع الاجتماعية القائمة . فلترتجف الطبقات الحاكمة هلعا من الثورة الشيوعية . ان البروليتاريا ليس لديهم مايفقدونه الا أغلالهم . وأمامهم العالم ليكسبوه . أيها العمال في كل الدول .. اتحدوا » .

وتتضمن بقية البيان تاريخ العالم ويبدأ بقوله « ان تاريخ كل المجتمعات التي قامت حتى الآن هو تاريخ الصراع بين الطبقات » فيبين ما أدت اليه الرأسمالية الحديثة من ثورة وحشية ، ثم يستطرد ، على أساس من حتمية القياس فيما يبدو الى المرحلة التالية من تاريخ العالم ، ثورة البروليتاريا .

ولست أعرف أية وثيقة أخرى بلغت ما بلغه البيان الشيوعي من قوة الدعاية ، وهو يستمد هذه القوة من انفعال عنيف يكسوه رداء عقلي معروض عرضا لا هوادة فيه .

وكان البيان الشيوعي هو الذي أكسب ماركس مكانته في الحركة الاشتراكية ، وهي مكانة كان يستحقها ولو لم يكتب كتابه « رأس المال » .

ولم يكد البيان ينتهي حتى اندلعت الثورة في باريس ودعت الحكومة المؤقتة ، التي كانت غالبيتها من الاشتراكيين ، ماركس الى باريس فذهب اليها . ولكنه لم يبق فيها سوى شهر واحد : فقد امتدت الثورة الى ألمانيا وكان طبيعيا أن يرغب في ان يخص بلاده بنشاطه .

قلما نجد في التاريخ ثورات أصابت كل من اشترك فيها بخيبة أمل أكثر مما فعلت ثورات سنة ١٨٤٨ . وكانت خيبة الامل مؤقتة بالنسبة للثوريين المعتدلين ، أما بالنسبة لماركس فكانت خيبة أمل استمرت طول الحياة .

فقد نفي ماركس من بروسيا في مايو سنة ١٨٤٩ ولم يسمح له بالعودة اليها مطلقا ، وان كان قد عاد في الواقع خفية مرات قليلة وقضى بها فترات قصيرة . وقد كان نشاطه في ألمانيا صحفيا بحتا ، وأكثر اعتدالا مما كان يتوقع : ولكنه مع ذلك كان نشاطا لا تستطيع الرجعية أن تبيحه . ومن ألمانيا ذهب الى باريس ونفي منها بعد شهر . وكان الملاذ الوحيد الباقي هو انجلترا

« أم المنفيين » كما كانت تسمى وقتئذ • وعاش بقية حياته فى انجلترا باستثناء فترات قصيرة الاجل ، ولم يعد يحاول اشعال ثورات ابان حياته ، ولكنه كان يهيىء الحافز العقلى لثورة تقوم فى مستقبل غير معين •

ويقسم فشل ثورات سنة ١٨٤٨ حياة ماركس فترتين واضحتين ، فقد قضت هذه الثورات على كل آماله فى النصر العاجل وساقته الى النفى والفاقة • ولو أن ايمانه بالنصر النهائى للشيوعية كان يقوم على أسس عقلية أقل ثباتا لما استطاع أن يثابر - كما فعل - فى اعداد مؤلفه التـاريخى المرهق بدون تشجيع الا من نفر قليل من أصدقائه وأتباعه • وان مثابرته ونشاطه طوال الفترة الاخيرة من حياته لمما يثير العجب حقا •

أما فيما يتعلق بظروفه الخاصة فان حياته كانت مثل حياة مستر مكوبر سلسلة من الديون الملحة والمرابين والمشاحنات حـول فواتير مزورة وما الى ذلك • وكان هو وأسرته يعيشون فى غرفتين فى شارع « دين » بحى سوهو • وقد كتبت مسز ماركس عندما ماتت طفلة لها فى سنة ١٨٥٢ تقول :

لقد مرضت فرانسيسكا الصغيرة المسكينة بالتهاب رئوى حاد • وظلت البائسة تصارع الموت ثلاثة أيام • وكانت تعانى عذابا شــديدا • وعندما قضى الامر أرقدنا جسدها الصغير فى الغرفة الخلفية الصغيرة المظلمة وذهبنـا جميعا الى الغرفة الامامية • ونمنا تلك الليلة على الارض • وكان الاطفـال الثلاثة الآخرون معنا ، وبكينا الملاك الصـغير الذى فقـدناه ••• وقد ماتت الطفلة فى وقت كنا نعانى فيه آلام الفاقة الشديدة • ولم يكن أصـــدقاؤنا الالمان قادرين على مساعدتنا •• ولم يستطع ارنست جونز ، الذى زارنا فى ذلك الوقت ووعد بمساعدتنا ، أن يفعل شيئا •• ودفعتنى حاجتنا الملحة الى أن أهرع الى لاجىء فرنسى يقيم قريبا منا وكان قد زارنا من وقت قريب • وأعطانى فورا جنيهين بطريقة ودية جدا • واستطعت بهمـا أن أشـــترى التابوت الذى يضم رفات ابنتى المســكينة التى ترقد الآن فى ســـلام • لم يكن لهذه الوليدة مهـــد حين خرجت الى هذا العالم ، ولقد قضينا زمنـــا طويلا نلاقى أشد الصعاب فى الحصول على صـندوق لها يســتريح فيــه جسمها راحته الأبدية » •

وقد خصص انجلز ، الذى استمر يباشر أعمال الاسرة فى مانشستر كل بنس استطاع أن يستغنى عنه لمساعدة ماركس • ولكن انجلز بطبيعة الحال لم يكن على وفاق مع والده الذى كان «كلفينيا» متدينا : ومن ثم لم تكن النقود التى استطاع التصرف فيها كثيرة جـــدا • وكان ماركس يضيف الى ما يصله من انجلز مايتكسبه من الصحافة ، خاصة من أمريكا ، غير أن الدخل الذى كان يحصل عليه بهذه الطريقـــة كان ضئيلا وغير ثابت • ومات ابن ماركس الوحيد فى سن التاسعة • وقد كتب الى انجلز يقول : « ان المنزل

يبدو موحشا منذ وفاة الطفل المسكين الذى كان يملؤه حياة » • وكان ماركس دائما ودودا فى علاقته مع الاطفال ، وكان أطفال جيرانه يدعونه «بابا ماركس» ويتطلعون اليه فى طلب الحلوى ، ولم يكن تطلعهم يذهب سدى • ذلك أنه فى علاقته مع الاطفال لم يكن يخشى المنافسة أو يعتوره الشعور بالنقص اللذان يجعلانه حاد الطبع مشاكسا فى علاقته بالكبار • وقد نشرت مجلة « نيو ستيتسمان آندنيشن » فى ٢٨ أكتوبر الخطاب التالى :

« ميدن تورز

١٨٦٥/٧/٣

عزيزتى مس ليليوت

أرجو أن تقبلى عذرى لتأخيرى فى الاجابة • فأنا من ذلك النوع من الناس الذى يفكر مرتين قبل أن ينتهى الى رأى • ولهذا دهشت اذ تلقيت دعوة من انثى لا معرفة سابقة لى بها على الاطلاق • لكننى بعد أن تأكدت من أنك سيدة محترمة ومن أن معاملاتك التجارية فوق الشبهات ، يسعدنى أن أنتهز هذه الفرصة ، الغريبة بعض الشىء ، لأمتع نفسى بما تقدمينه من طعام وشراب • واذ كنت مصابا بداء الريبة فانى أرجو الا يكون فى حجرة استقبالك تيار هواء ، أو ما يشبهه ، وسأتولى أنا بنفسى ما تحتاجه الحجرة من تهوية • ولما كنت مصابا ببعض الصمم فى أذنى اليمنى فأرجو أن تضعى على يمين المائدة شخصا ثقيل الظل ، وهو ما أعتقد أن جماعتك لا تخلو منه • أما فى الناحية اليسرى فأرجو أن تحتفظى لى بأجمل من لديك من اناث ، أعنى أجمل ضيفاتك •

ولما كنت متعودا - الى حد ما - على مضغ الطباق ، فليكن لديك شىء منه معدا لى • ولما كنت على صلة ببعض الامريكيين الذين تعودوا البصق فانى أرجو ألا يخلو المكان من المباصق • ولما كنت فوق ذلك أحب التيسير والبساطة وأنفر من الجو الانجليزى المثقل بالتكلف ، فيجب أن تكونى مستعدة لرؤيتى عاريا الى حد ما • وانى لأرجو أن أجد ضيفاتك فى نفس الحالة •

الوداع يا عزيزتى الخليعة المجهولة •

المخلص

دكتور كرانكلى »

وطلبت المجلة الى القراء أن يحدسوا من هو كاتب هذا الخطاب • ولكن أحدا لم يصل الى الجواب الصحيح ، لقد كان فى الواقع من ماركس الى ابنته •

وكانت خطاباته الى انجلز سلسلة مملة من الشكاوى : انه كان مريضا •• وزوجته مريضة •• أطفاله مرضى •• والقصاب والخباز يطالبان

بحسابهما ٠٠ والدته لا تريد أن تفعل أى شىء آخر لمساعدته ٠ وأصبح يعتبر مساعدة انجلز له أمرا طبيعيا وأن يبثه أنينه وشكواه حتى فى أقل الاوقات ملاءمة ٠ فقد كان انجلز يعيش مع فتاة ايرلندية دون زواج ، وكانت فتاة مخلصة له ٠ وجاء موتها صدمة شديدة له ، ولما كتب يبلغ ماركس الخبر المحزن أجابه بهذا الخطاب :

« عزيزى انجلز ، لقد أدهشنى وفاة مارى وأحزننى ٠ فقد كانت ودودة وذكية ، وشديدة الاخلاص لك٠ ان الحالة عندنا ليس فيها الا مايزعج ٠ وأنا شخصيا لم أعد أعرف رأسى من قدمى ٠ وقد فشلت محاولاتى للحصول على بعض المال من المانيا أو فرنسا ، وطبيعى أن مبلغ ١٥ جنيه لن يحول دون وقوع الكارثة مدة تزيد على أسبوع أو أسبوعين ٠ هذا الى أن أحدا لم يعد يريد أن يعطينا شيئا بالنسيئة ، ماعدا الجزار والخباز (وهما أيضا سيمتنعان عن معاملتنا بعد هذا الاسبوع) ، وأنا مطالب بالحاح بنفقات المدرسة وايجار المنزل وقد انقضت على الذئاب كلها ٠ والقليلون منهم الذين أعطيتهم بعض ماأنا مدين به لهم تحت الحساب أخفوه فى جيوبهم فى لمح البصر وعادوا ينقضون على وهم أشد عنفا مما كانوا ٠ هذا الى أن الاولاد ليس لديهم ملابس أو أحذية يخرجون بها٠ وقصارى القول اننا نعيش فى جهنم ٠٠٠ ولن نستطيع الاستمرار على هذه الحال أسبوعين آخرين ٠ أنها أنانية منى أن أضايقك بكل هذه المشاكل فى هذا الوقت ٠ ولكن العلاج يكون دائما من نفس نوع المرض ٠ وقد يساعد بلاء على التهوين من بلاء آخر (×) » ٠

واستمرت مشاكل ماركس المالية حتى سنة ١٨٦٩ ، عندما باع انجلز (وكان والده قد توفى) نصيبه فى المصانع ودفع ديون ماركس (٢١٠) جنيه وقرر له معاشا قدره ٣٥٠ جنيه فى السنة وذهب هو نفسه الى لندن وقد صار أخيرا حرا يخصص كل وقته للنشاط الاشتراكى ٠

وكان ماركس طوال هذا الوقت يعمل فى المتحف البريطانى ٠ وفى عام ١٨٥٩ نشر كتابه « نقد الاقتصاد السياسى » وفى سنة ١٨٦٧ نشر الجزء الاول من « رأس المال » ٠ ونشر انجلز الجزأين الثانى والثالث بعدوفاته ٠٠ ولم تستطع المشاكل العائلية ولا المرابون أو الامراض والموت أن يحولوا بينه وبين اتمام مؤلفه الكبير ٠

وكان عمل ماركس المهم الوحيد بعد سنة ١٨٤٩، عدا مؤلفاته، هو النشاط الذى بذله فى « اتحاد العمال الدولى » وهو مايعرف باسم « الدولية الاولى » سنة ١٨٦٤ وكانت الاساس الذى قامت عليه الحركة الاشتراكية الدولية فيما

(×) اوتو روله ـ المرجع السابق ـ ص ٢٢٥

بعد . ولكن على الرغم من أنها كانت تضم بذور أحداث عظيمة ، فانهـا لم تحقق هى نفسها أى عمل عظيم . فالنقابات فى انجلترا بقيت ، بعد شىء من التردد ، على منأى منها باستثناء بعض النقابات القليلة . وفى ألمانيـا ابتعد عنها «الاتحاد العام للعمال الالمان» ، وهو المنظمة التى أسسها لاسال ، بسبب غيرة ماركس من لاسال ومن خلفه شفايترز الذى اتهمه ماركس زورا بأن يعمل مع بسمارك . وأدى نفوذ باكونين فى سويسرا والبلاد اللاتينية الى انتشار الشيوعية الفوضوية التى كانت تختلف عن الماركسية فيما يتعلق بالعمل السياسى ووظيفة الدولة . ولسنا ننكر أن باكونين وأتباعه انضموا فى النهاية الى الدولية الاولى وحاولوا السيطرة عليها ، ولكن نزاعهم مع ماركس أدى الى انهيارها فى سنة ١٨٧٢ .

ولم يكن ماركس فى أى وقت من الاوقات ممن يحتملون المنافسة . ويقول روله وهو يتحدث عن الفترة التى سبقت سنة ١٨٤٨ مباشرة ما يأتى :

« ان الطريقة التى خلت من أى تسامح والتى تم بها تطهير صفوف الشيوعيين وانقسام المعسكر الشيوعى ، لم تكن وليدة ضرورة محتومة ، ولم تكن تعتمد على أى تطور اقتصادى ، بل ان السبب الأساسى كان هو شهوة ماركس فى التفرد شخصيا بالسيطرة التى كان يعللها بثقة عمياء لاتقبل المناقشـة فى قدرة فكرته على الانتصار » .

ولم يطرأ أى تحسن على ماركس فى هذه الناحية حين تقدمت به السن . وكان هجومه على باكونين أكثر عداواته كلها قسوة وأشدها مرارة ولم يتورع فيه عن شىء . وكان باكونين أرستقراطيا روسيا انحاز الى الثورة الالمانية فى سنة ١٨٤٨ ، وكان نتيجة ذلك أن حكم عليه بالاعدام فى ساكسونيا سنة ١٨٤٩ ، ثم سلم الى النمساويين الذين حكموا عليه هم أيضا بالاعدام ، ثم سلموه الى القيصر نيقولا الذى سجنه فى جزيرة « بطرس وبولس » . ثم نفاه الى سيبيريا التى فر منها فى سنة ١٨٦١ ، وأخيرا وصل الى لندن عن طريق اليابان وأمريكا . وقد اتهمه ماركس كتابة منذ سنة ١٨٤٨ بأنه جاسوس ، ومع أنه ثبت وقتئذ أن الاتهام لاأساس له فانه اعاده فى السنين التاليـة فى الظروف الملائمة . وعندما أراد باكونين بعد اثنتى عشرة سـنة فى السجن أن يستأنف علاقته بزملائه من الثوريين وجد نفسه موضع ريبتهم ، واكتشف أخيرا ان ماركس هو مصدر متاعبه ، ولكنه بدلا من أن يغضب لهذا كتب الى ماركس خطابا وديا انتهى بمقابلة بينهما أقنعه فيها باخلاصـه للثورة . وقد هدأ ذلك من حدة ماركس بعض الوقت . وكتب الى انجلز يقول : « لقد رأيته مساء أمس مرة أخرى بعد ستة عشر عاما . وأجد نفسى مضطرا للاعتراف بأنى أحببته جدا ، أكثر جدا من الماضى ... فهو بوجه عام واحد من أولئك القلائل الذين وجدت أنهم لم يتخلفوا خلال ستة عشر عاما ، بل تقدم كثيرا » .

على أن الصداقة بين هذين الرجلين ماكانت لتدوم طويلا ، فقد كان باكونين «رسول الشيوعية الفوضوية ، وكان ماركس نبى الشيوعية السياسية : وكان ماركس يكره الجنس الصقلبى وباكونين يكره اليهود • واجتمعت أسباب شخصية تجعل التعاون بينهما مستحيلا • ولم تكن الاسباب الشخصية فيما يتعلق بباكونين بكافية لاحداث شقاق بينهما • فبعد أن قرأ « رأس المال » كتب يقول « لقد ظل ماركس يخدم قضية الاشتراكية مدى خمسة وعشرين عاما بكفاية وبنشاط واخلاص ، متقدما على كل شخص آخر فى هـــذا المضمار • وما كنت لأغفر لنفسى مطلقا لو أنى ، لاسباب شخصية ، قضيت على ما ترك ماركس من أثر مفيد أو قللت من شأنه • ولكننى مع ذلك قد أتورط فى معركة معه ، لا لانه أساء الى شخصيا ، بل بسبب اشتراكية الدولة التى يدعو اليها » •

وانضم باكونين الى الدولية الاولى فى سنة ١٨٦٨ وشرع يعمل فى ضمها الى وجهة نظره • ودخل مع ماركس فى نزاع شـــديد ، أثبت فيه ماركس وأتباعه أنهم لايتورعون عن شىء • فقد أعادوا اتهامه بالجاسوسية ، كمـــا اتهموه بأنه اختلس ٢٥٠٠٠ فرنك • وفى مؤتمر لاهاى ، حيث كان لماركس أغلبية ، تقرر طرد باكونين على أساس أنه « لجأ الى حيل غير قانونية ليستولى على ممتلكات الآخرين » • الا أنه كان انتصارا عقيما لان الدولية الاولى قضت نحبها فى العالم الثانى •

ولم تقض الصدمة على أى من الفريقين ، الاشتراكيين أو الفوضويين ، الا أنه بينما ازدهرت الاشتراكية ظلت الفوضـــوية عديمة القيمة من الناحية السياسية • وقام فى روسيا خليفة لباكونين يمتاز عنه فى أكثر من ناحية ، هو كروبوتكين الذى عاش حتى رأى الماركســـية تسيطر على روســـيا السوفيتية • واندثر اتباع باكونين فى كل مكان آخر عدا أسبانيا • وأيا كان الرأى فى وسائل ماركس ، فان برنامجه كان عمليا أكثر من برنامج خصمه وقائما على تقدير أسلم للطبيعة البشرية • وقد انتهى دور ماركس فى الحياة العامة بانقضاء الدولية الاولى سنة ١٨٧٣ •

وكان ماركس أول مفكر اقتصادى نابه نظر الى الحقائق الاقتصادية من ناحية البروليتاريا • فقد كان الاقتصاديون التقليديون يعتقدون أنهم يؤسسون علما موضوعيا خاليا من أى تحيز خلو العلوم الرياضية نفسها • الا أن ماركس لم يجد صعوبة فى اثبات أن تحيزهم الرأسمالى أدى بهم الى الوقوع فى أخطاء عديدة وتناقض كثير • وكان يذهب الى أن علم الاقتصاد بأكمله يتخذ اتجاها آخر يختلف عن اتجاههم كل الاختلاف اذا نظرت اليه من زاوية الاجير • ولعل اخلاصه لمصالح البروليتاريا مما يدعو الى العجب بالنظر الى أصـــله البورجوازى وتربيته العلمية • وكان يحـــدوه طوال حياته حب الســـيطرة مختلط بشعور بالنقص جعلاه شرسا فى معاملة من هم أرقى منه اجتماعيا

شديدا في خصومته ، عطوفا على الأطفال . ولعل هذه الصفة فيه هي التي جعلته نصير المظلومين ، ومن العسير تحديد السبب الذى جعله يشعر بالنقص ، وقد يكون منشؤه أنه كان يهوديا أصلا ومسيحيا بتربيته . ولعله كان لهذا السبب يتعرض لازدراء زملائه فى المدرسة فى السنوات الاولى دون أن يجد مايشد أزره من تلك الثقة الداخلية بالنفس التى يستطيع اليهودى عادة أن يستمدها من دينه . ان العداء للسامية شر ، ولكنه أدى الى نتيجة واحدة طيبة : أدى الى ظهور زعماء مدافعين عن الجماهير من بين اليهود ، لعلهم كانوا لولا ذلك يصبحون من المدافعين عن الحالة القائمة . فاذا كان هذا التفسير صحيحا فان الماركسية تكون جزءا وفاقا لغباء الاثرياء الذين يناصبون السامية العداء .

٤ ـ المادية الجدلية

الفصل الثامن عشر

المادية الجدلية

كان لماركس وانجلز فى وضع النظريات نصيب مزدوج ، فهناك نظرية ماركس فى فائض القيمة ، وهناك نظريتهما المشتركة فى التطور التاريخى historical development التى تسمى « المادية الجدلية » · وسنبحث النظرية الثانية أولا ، لانها فيما يبدو لى أكثر سلامة وأهمية من الأولى ·

ولنحاول قبل كل شىء أن نكون على بينة واضحة مما تعنيه نظرية « المادية الجدلية » · انها نظرية تتضمن عدة عناصر · فهى من الناحية الميتافيزيقية مادية ، وفى وسيلتها تسير على نهج من الجدل أوحى به هيجل ، ولكنها تختلف عن نهجه هو من عدة أوجه مهمة · فهى تأخذ من هيجل وجهة نظر تطورية ، تتميز فيها كل مرحلة بمصطلحات منطقية واضحة ، وهذه التغيرات (المراحل) هى من نوع الاطراد ، لا بالمعنى الاخلاقى « "ethical" لهذا اللفظ بقدر ما هو بمعناه المنطقى — أى انها تغيرات تحدث طبقا لخطة يستطيع رجل بلغ الحد الكافى من الذكاء أن يتنبأ بها — نظريا · ويقول ماركس أنه فعلا تنبأ بها فى خطوطها الرئيسية الى اللحظة التى تم فيها انشاء الشيوعية فى العالم كله · وتستحيل ميتافيزيقيتها المادية ، فيما يتعلق بشئون البشر ، الى المذهب الذى يقول ان السبب الرئيسى للظواهر الطبيعية كلها هو طريقة الانتاج والتبادل السائدة فى أى وقت بذاته · وقد شرحت هذه النظرية بوضوح أكثر من أى شرح آخر لها ، فى كتاب انجلز بالالمانية · وقد ظهرت منه الاجزاء التى تهمنا باللغة الانجليزية بعنوان « الاشتراكية ، المثالية والعلمية » ، ومما يفيدنا أن نورد هنا بعض فقرات منه ·

« لقد رأينا أن « كل » التاريخ القديم ، باستثناء مراحله البدائية ، كان تاريخ صراع بين الطبقات : وأن هذه الطبقات المتنازعة كانت فى كل المجتمعات وليدة طرق الانتاج والتبادل — وقصارى القول أنها كانت نتاج الظروف الاقتصادية السائدة فى عصرها · كما أن البناء الاقتصادى للمجتمع يمدنا دائما بالاساس ، وهو الاساس الذى اذا بدأنا منه وحده نستطيع أن نصل الى التفسير النهائى لكل ماقام عليه من الانظمة القضائية والسياسية والدينية والفلسفية وغيرها من الافكار فى أية فترة من فترات التاريخ » ·

ويرى ماركس وانجلز ، أن اكتشاف هذا المبدأ يدل على أن مجىء الاشتراكية محتوم لا مفر منه ·

« ومنذ هذه اللحظة لم تعد الاشتراكية اكتشافا عارضا يقوم به هذا العقل الكبير أو ذاك ، بل النتيجة المحتومة للصراع بين طبقتين نمتا باطراد تاريخى وهما البروليتاريا والبورجوازية • ولم تعد مهمتها تكوين نظام للمجتمع يكون قريبا للكمال بقدر المستطاع ، بل بحث التعاقب الاقتصادى التاريخى للأحداث التى نتجت عنها بالضرورة هذه الطبقات ومابينهامن نزاع ، والبحث فى الظروف الاقتصادية التى نشأت بهذه الطريقة عن الوسيلة المؤدية الى انهاء هذا الصراع • الا أن الاشتراكية الاولى لا تتفق وهذا المفهوم المادى الا بقدر ماكان مفهوم « الطبيعة » لدى الماديين الفرنسيين يتفق مع الجدلية والعلوم الطبيعية الحديثة • ومما لاجدال فيه أن الاشتراكية الاولى كانت تنتقد طرق الانتاج الرأسمالية القائمة وقتئذ ونتائجها • الا أنها لم تستطيع تفسيرها ومن ثم فهى لم تستطع السيطرة عليها • وكل ما كانت تستطيعه هوأن تنبذ هذه الطرق باعتبارها شرا يجب تجنبه • وكلما اشتدت الاشتراكية الاولى فى التنديد باستغلال الطبقة العاملة ، وهو الاستغلال الذى لامفر منه فى ظل الرأسمالية ، ضعفت قدرتها على توضيح ماهية هذا الاستغلال وكيف نشأ » •

ويطلق أيضا على نظرية المادية الجدلية اسم «المفهوم المادى للتاريخ» وفى ذلك يقول انجلز : « يبدأ المفهوم المادى للتاريخ من القضية التى مؤداها أن انتاج وسائل الرزق ، وتبادل المنتجات بعد الانتاج ، هما أساس كل بناء اجتماعى ، وانه فى كل مجتمع ظهر فى التاريخ تعتمد طريقة توزيع الثروة والطريقة التى انقسم بها المجتمع الى طبقات وفئات على ما ينتج وكيف ينتج وكيف يتم تبادل المنتجات • ومن وجهة النظر هذه يجب البحث عن الاسباب النهائية لكل التغيرات الاجتماعية والثورات السياسية ، لا فى عقول الرجال ولا فى قدرة الانسان على ادراك أوفى للحقيقة الخالدة والعدل ، بل فى التغيرات التى تطرأ على طرق الانتاج والتبادل : فيجب البحث عنها فى اقتصاديات كل عهد بذاته لا فى فلسفته • ان الادراك المتزايد بأن الأنظمة الاجتماعية القائمة أصبحت غير معقولة أو عادلة ، وأن العقل أصبح لاعقل ، والصواب خطأ ، لدليل على أنه قد حدثت فى هدوء تغيرات فى طرق الانتاج والتبادل لم يعد يلائمها النظام الاجتماعى الذى كان مناسبا لظروف اقتصادية سابقة • ومن هذا يستتبع أيضا أن وسائل التخلص من هذا التناقض الذى تكشف لا بد أن تكون موجودة هى الأخرى ، فى حالة من النمو بدرجات مختلفة فى طرق الانتاج المتغيرة نفسها • ولا سبيل الى الوصول الى هذه الوسائل عن طريق الاستدلال من مبادىء أساسية ، بل ينبغى اكتشافها فى الحقائق الثابتة المتأصلة فى نظام الانتاج القائم »

وليست ضروب الصراع التى تؤدى الى فورات سياسية فى أساسها صراعا عقليا فى أفكار الآدميين وانفعالاتهم :

« وليس هذا الصراع بين القوى المنتجة وطرق الانتاج صراعا ينشأ في عقل الانسان ، كذلك الصراع القائم بين الخطيئة الاصلية والعدل الالهى . انه يوجد فى الوقع بصورة موضوعية فى خارجنا ، مستقلا عن ارادة حتى من تسببوا فيه وعن تصرفهم . وليست الاشتراكية الحديثة الا انعكاسا فى الفكر لهذا الصراع فى الواقع . أى الانعكاس المثالى أولا فى عقول الطبقة التى تعانى الظلم مباشرة ، نعني الطبقة العاملة » .

وثمة شرح واف للنظرية المادية فى التاريخ فى كتاب منأوائل الكتب اشترك فى تأليفه انجلز وماركس د١٨٤٦ه ويسمى« الايدولوجية الالمانية » . وفيه يذكر المؤلفان أن النظرية الماديةتبدأ مع عملية الانتاج الفعلية فى عصرما وتعتبر صورة الحياة الاقتصادية المتصلة بهذا النوع من الانتـــاج والتى تنشأ بواسطته أساسا للتاريخ . ويقولان أن ذلك يوضح المجتمع المدنى فى مراحله المختلفه وفي نشاطه بوصفه دولة . هذا الى أن النظرية المادية تفسر على أساس اقتصادى شئونا أخرى مثل الدين والفلسفة والاخلاق وأسـباب النهج الذى سار عليه اطرادها .

ولعل هذه المقتطفات تكفى لايضاح ماهية النظرية . الا أن عددا منالاسئلة يظهر بمجرد أن نفحصها فحصا دقيقا . فقبل أن ننتقل الى المســائل الاقتصادية ينزع المرء الى التساؤل أولا هل المادية صحيحة من النـــاحية الفلسفيه ، وهل يمكن تبرير عناصر الجدل الهيجلى التى تتضمنهـــا نظرية النمو الماركسية مستقلة عن النظرية الهيجلية مكتملة . ثم يأتى بعد ذلك سؤال آخر هو : هل لهذه المذاهب الميتافيزيقية أيةعلاقة بالنظرية التاريخية الخاصة بالنمو الاقتصادى ، ثم يأتى أخـــيرا بحث النظـرية نفسهــــا . وأحب أن أحدد مقدما ماأحاول اثباته فأقول : انى ذهبت أولا (١) الى أن المادية بصورة ماقد تكون صحيحة وان كان يستحيل أن نعرف ذلك بصفة قاطعة . (٢) وأن عناصر الجدلية التى أخذها ماركس عن هيجل جعلته ينظر الى التاريخ على أنه عملية عقلية أكثر مما هو فى الواقع ، وأقنعته بأن كل التغيرات لابد أن تكون بشكل ماتقدميه ، كما بعثت فيه شعورا بالثقة فيما يتعلق بالمستقبل ليس له أساس علمى . (٣) وأن نظرية النمو الاقتصادى قد تكون كلها صحيحة كل الصحة ولو كانت الناحية الميتافيزيقية فى نظريته وقد تكون غير صحيحة ولو كانت الناحية الميتافيزيقية عنده صحيحة ، وانه لولا تأثير هجيل لما خطر له مطلقا أن موضوعا تجريبيا بحتا الى هذا الحـــد يمكن أن يقوم على أساس ميتافيزيقى مجرد . (٤) وانه فيما يتعلق بالتفسير الاقتصادى للتاريخ ، فانه يبدو لى انه حقيقى الى حد بعيد ، وانه اضافة مهمة جدا لعلم الاجتماع . الا أنى مع ذلك لاأستطيع أن أعتبره صحيحا كل الصحة أو أن أشعر بأية ثقة فى أن جميع التغييرات التاريخية الكبرى يمكن النظر اليها باعتبارها نموا . ولنتناول هذه النقط واحدة فواحدة .

(١) المادية : لقد كانت مادية ماركس من نوع فريد ، فهى لاتماثل مادية

القرن الثامن عشر بأىشكل من الأشكال • فهو عندما يتحدث عن « المفهوم المادى للتاريخ » لايؤكد أبدا المادية الفلسفية ، بل كلمايؤكده هو السببية الاقتصادية للظواهر الاجتماعية • وخير شرح لموقفه الفلسفى هو مانجدهفى مؤلفه « احدى عشرة نظرية عن فيورباخ » (١٨٤٥) ، وان كان هـــذا الشرح مختصرا جدا ، وهو يقول فيه :

« ان العيب الرئيسى فى جميع المذاهب المادية السابقة — بما فيها مادية فيورباخ — هو أن المادة (gegenstand) والحقيقة والاحســـاس لا تدرك الا فى صورة الموضوع (objekt) أو فى صورة تأمل (Anschaung) ، لا فى صورة نشاط أو عمل انسانى مدرك ، أى بدون العاملالشخصى • ومن ثم جاء نمو الجانب الفعال عن طريق المثالية وكنقيضة للمادية » •

« ان مشكلة اتصال الموضوعية بالتفكيرالبشرى ليست مشكلةنظريةولكنها مشكلة عملية • أى أن الحقيقة الفكرية ، مثل القوة الفكرية ، يجب أنتظهر فى العمل • والنزاع القائم على واقعية الفكر المنفصلعنالعمل أو عدمواقعيته مشكلة كلامية بحتة ••

« ان أقصى ماتستطيع أن تصل اليه المادية التأملية ، أى المادية التىلاتعتبر الاحساس نشاطا عمليا ، هو تأمل أفراد منعزلين فى مجتمع بورجوازى • « والاساس الذى تقوم عليه المادية القديمــة هو المجتمع البورجوازى » أما أساس المادية الجديدة فهو المجتمع البشرى أو الانسانية الاشتراكية •

« ولم يفعل الفلاسفة سوى أنفسروا العالم بعدة طرق ، ولكن المهمةالحقيقية للفلسفة هى تغيير العالم »

والفلسفة التى تدعو اليها الاجزاء الاولى من هذه الآراء هى التى عرفت فيما بعد فى عالم الفلسفة عن طريق كتابات ديوى باسم البراجماســية أو مذهب الذرائع •• ولست أعرف هل يعلم دكتور ديوى بأن ماركس سبقه الى هذا الرأى أولا يعلم ، ولكن مما لاريب فيه أنرأيهما فيما يتعلق بالوضع الميتافيزيقى للمادة واحد لا اختلاف فيه • ولعل مما يفيد أن نشرح نظرية ماركس فى المادة شرحا أوفى لما يعلقه عليه من أهمية •

لقد كان مفهوم « المادة » فى المادية القديمة مرتبطا بمفهوم «الحس »•فكانت المادة تعتبرسبب الحس وأيضا موضوعه أصلا ، فى حالتىالنظر واللمس على الأقل ، وكان الحس يعتبر شيئا يقف الانسان فيه موقف المنفعل يقتصر عمله على تلقى الانطباعات منالعالمالخارجى • بيدانهذا المفهوم عن الحس باعتباره انفعالا سلبيا هو تجريد غير واقعى لا يقابله شىء عملى كما يقول الذرائعيون • فاذا لاحظنا حيوانا يتلقىانطباعات متصلة بحيوانآخرنشاهد مايأتى : تتسع

طاقتا أنفه ، وتختلج أذناه ، ويوجه عينيه الى النقطة المناسبة مباشرة ، وتتوتر عضلاته استعدادا للحركة المناسبة . كل هذا نشاط ، معظمه من نوع يؤكد الصفة الاخبارية للحس ، وبعضه من نوع يؤدى الى نشاط جديد متصل بالموضوع . ان قطة ترى فأرا ليست بأى حال من الاحوال مستقبلا سلبيا لانطباعات تأملية بحتة . ومثل القطة مع الفأر كمثل صانع المنسوجات مع بالة من القطن . ف بالة القطن فرصة للعمل ، انها شيء يحول الى شيء آخر . ولا خفاء فى أن الآلة التى تقوم بتحويله هى نتاج للنشاط البشرى . ويمكن القول بوجه عام ان المادة كلها ، فى رأى ماركس ، يجب أن يفكر الإنسان فيها كما يفكر فى الآلة : ففيها مادة أولية تهيىء الفرصة للعمل ، ولكنها فى شكلها النهائى نتاج انسانى .

لقد تلقت الفلسفة عن الاغريق مفهوم التأمل السلبى ، وافترضت أن المعرفة تأتى عن طريق التأمل . أما ماركس فيعتقد اننا دائما نعمل حتى ونحن أقرب ما نكون الى «الحس» البحت : فنحن لا نقتصر أبدا على ادراك محيطنا ، بل اننا نعمل دائما فى نفس الوقت على تغييره . وهذ بالضرورة يجعل المفهوم القديم للمعرفة غير قابل للتطبيق على علاقاتنا الواقعية بالعالم الخارجي . فبدلا من أن نعرف شيئا بمعنى أننا نتلقى منه انطباعات سلبية ، لا يمكن أن نعرفه الا بمعنى اننا قادرون على تناوله بالتغيير بنجاح . ولهذا كان اختبار كل حقيقة لا يتم الا عمليا . واذ كنا نغير كل « موضوع » عندما نتناوله ونؤثر فيه، فان الحقيقة تزول عنها صفة الثبات والجمود « الاستاتيكية » وتصبح شيئا دائم التغير والنمو . وهذا هو السبب فى أن ماركس يطلق على ماديته « الجدلية » ، ذلك بأنها تتضمن فى ذاتها مبدأ أساسيا هو مبدأ التغير التقدمى مثلها فى ذلك مثل جدلية هيجل .

وأعتقد انه فى وسع الانسان أن يشك فى أن انجلز قد فهم كل الفهم آراء ماركس عن طبيعة المادة والصفة البراجماتيه للحقيقة . ومما لاريب فيه انه كان يظن أنه متفق مع ماركس ، الا أنه أقرب للمادية التقليدية فى الواقع (×) . ويوضح انجلز « المادية التاريخية » كما يفهمها فى مقدمة لكتاب «الاشتراكية المثالية والعملية » كتبها سنة ١٨٩٢ . وفيها يبدو أن الدور الذى يسنده الى العمل قد اختزل الى مهمة التحقيق العلمى التقليدية . فهو يقول ، « انك لا تعرف الشيء على حقيقته حتى تجربه . فعند اللحظة التى تتناول هذه الأشياء بالاستعمال ، على اساس الصفات التى ندركها فيها ، فأننا نختبر صحة مدركاتنا الحسية أو خطئها اختبارا بعيدا كل البعد عن مظنة الخطأ . ولم يحدث مرة واحدة حتى الآن أن أدى الامر الى أن مدركاتنا الحسية أعطتنا ، عندما نخضعها للمقتضيات العلمية ، أفكارا عن العالم الخارجى مختلفة فى طبيعتها عن الواقع ، أو أن هناك تناقضا متأصلا بين العالم الخارجى ومدركاتنا الحسية عنه » .

(×) « نحو فهم كارل ماركس » سيدنى هوك ص ٣٢

وليس فى ذلك أثر من برجماسية ماركس ، أو من المذهب القائل بأن المحسوسات هى فى الأغلب الأعم نتاج نشاطنا ، ولكننا لا نجد فيه أيضا أى أثر يدل على أنه يدرك أن ثمة تناقضا بينه وبين ماركس . ولربما كان ماركس قد غير آراءه فى أواخر حياته ، ولكن يبدو أن الامر الأكثر احتمالا أن ماركس له رأيان مختلفان فى هذا الموضوع ، وفى غيره من الموضوعات ، يدين بهما معا فى وقت واحد ، وانه كان يطبق هذا الرأى أو ذاك ، حسب الموضـــــــوع الذى يناقش فيه . فمما لاجدال فيه انه كان يعتقد بأن هناك قضايا «حقيقة» بمعنى أبعد من المعنى البراجماسى ، فهو عندما يسرد فى «رأس المال» ألوان القسوة التى فى النظام الصناعى كما وردت فى تقارير « اللجان الملكية » فانه يؤمن بلا شك انها حدثت فعلا ، لا ان عملا ناجحا سيتم نتيجة لافتراض أنها حدثت . كما أنه عندما يتنبأ «بالثورة الشيوعية» يؤمن بأنها ستقع فعلا ، لأن التفكير فى حدوثها أمر مناسب . ومن ثم فلابد أن براجماسيته لم تكن تظهر الا فى أوقات مختلفة ، عندما يمكن تبريرها على أساس برجماسى ، بأنها ميسورة مناسبة .

ومما هو جدير بالذكر ان لينين الذى لم يكـــن يعترف بوجود خلاف مابين ماركس وانجلز فى كتابه «المادية والنقد التجريبى» وجهة نظر أقرب الى نظرة انجلز منها الى نظرة ماركس .

أما من ناحيتى ، وأنا لا أعتقد أن المادية يمكن «اثباتها» ، فانى أرى أن لينين على حق فى أن المادية لم تنقصها علوم الطبيعة الحديثة . فمنذ أيامه حتى الآن أخذ كثيرون من علماء الطبيعة المحترمين يبتعدون شيئا فشيئا عن المادية وقد كان ذلك الى حد كبير رد فعل لنجاح لينين ، وطبيعى أ يفترض هؤلاء العلماء والناس عامة أن علم الطبيعة هو السبب فى هذه الحركة . وانى لمتفق مع لينين على أنه لم تظهر حجة جديدة ذات قيمة فى الموضوع من أيام بركلى باستثناء حجة واحدة . ومما يدعو الى التعجب حقا ان هذا الاستثناء الوحيد هو ماجاء به ماركس فى ابحاثه عن فيورباخ وأغفله لينين كل الاغفال ، فلو أنه لم يكن هناك شيء اسمه « حس » ولو كانت المادة باعتبارها شيئا ندركه بطريقة سلبية وهما وخداعا ، واذا كانت « الحقيقة » مفهوما عمليا أكثر منها مفهوما علميا ، اذن لكانت المادية القايمة ، مثـــل مادية لينين ، مما لا يمكن الدفاع عنه . وكذلك تصبح وجهة نظر بركلى هى الاخرى ممالا يمكن الدفاع عنه ، لانها تزيل « الموضوع » الذى يتعلق به نشـــــاطنا . الا أن نظرية ماركس الذرائعية ، لأبعد ماتكون عن المادية ، وان كان يسميها كذلك . نعم ان حججها بالتأكيد أقوى كثيرا من حجج المادية ، أما انها فى آخر الامر نظرية صحيحة أو غير صحيحة ، فمسألة عسيرة تجنبت عامدا أن أدلى برأى فيها ، لانى لا أستطيع أن أفعل ذلك دون كتابة رسالة فلسفية كاملة .

(٢) الجدلية فى التاريخ ، كانت الجدلية الهيجلية نظرية كاملة الاحاطة . فانك اذا بدأت بأى مفهوم جزئى وتأملته فسرعان ما يتحول الى نقيضه ، ويكون هو ونقيضه قضية مركبة ، تصبح هى ايضا نقطة البدء لحركة مماثلة ، وهكذا دواليك حتى تصل الى الفكرة المطلقة (absolute Idea) تستطيع أن تفكر فيها ماشئت دون أن تكتشف أى تناقض جديد . وليس الاطراد التاريخى للعالم فى الزمن سوى توضيع (objectavation) لهذه العملية الفكرية . وقد بدا هذا الرأى لهيجل ممكنا لان العقل عنده هو الحقيقة النهائية . أما ماركس فيرى عكس هذا ، يرى أن المادة هى الحقيقة الغائية . ومع ذلك فهو يظل يعتقد أ العالم يطرد تبعا لقاعدة منطقية . فهيجل يرى أن اطراد التاريخ يجرى على سنن منطقيـــة كأنه دور من الشطرنج ، وماركس وهيجيل يلتزمان قواعد الشـــطرنج ويفترضان فى نفس الوقت أن قطع الشطرنج تحرك نفسها وفقا لقوانين الطبيعة دون تدخل اللاعبين . ويقول انجلز فى احدى الفقرات التى اقتبستها من قبل ما يأتى :

« ان وسيلة التخلص من التناقضات التى ظهرت « لا بد » أيضا أن تكون موجودة بحالة من النمو تزيد أو تنقص داخل طرق الانتاج المتغيرة » . ان « لا بد » هذه تنم عن احدى مخلفات عقيدة هيجل القائلة بأن المنطق يحـكم العالم . ولماذا تكون نتيجة أى صراع فى السياسه هى على الدوام قيام نظام آخر أكثر نموا من سابقه ؟ ان هذا لم يكن فى الواقع ماحدث فى حالات لاعداد لهـــا . فغزو البرابرة لروما لم يؤد الى قيام أنظمة اقتصـــادية أكثر نماء ، ولا طرد المسلمين من أسبانيا أو القضاء على طائفة « الالبيجنسيين » فى جنـــوبى فرنسا . وقد دمرت الحضارة الميسينية قبل عصر هوميروس ثم مرت قرون عديدة قبل أن تظهر حضارة أخرى فى بلاد اليونان . وأن أمثلة الاضمحلال والتأخر تتساوى على الا قل فى عددها وأهميتها فى التاريخ أمثلة النمـــاء . وليست وجهة النظر المضادة التى تظهر فى مؤلفات ماركس وانجلز غير مثل من نزعة التفاؤل التى سادت القرن التاسع عشر .

ان لهذا الامر أهمية علميه ونظرية معا . فالشيوعيون يفترضون دائمـــا أن الصراع بين الشيوعية والرأسمالية لابد أ ينتهى بقيام الشيوعية ، وان كانت الرأسمالية قد تحصل على انتصارات مؤقتة بين الحين والحين ، وهم لا يتصورون نتيجة أخرى مرجحة مثلها هى العودة الى الهمجية . ونحن جميعا نعلم ان الحرب الحديثة أمر خطير شيئا ما ، وان الحرب التالية يحتمل أن تؤدى الى هلاك شعوب كبيرة باستعمال الغازات السامة والبكتريا . فهـل من الممكن ان نفترض جديا أنه بعد حرب تدمر فيها المراكز المزدحمة بالسكان والمراكز المهمة للمنشئات الصناعية سيكون الجزء الباقى من السـكان

(×) توضيع الفكرة هو جعلها موضوعا مجسما .

فى حالة عقلية تسمح بقيام الشيوعية العلمية ؟ أليس من المؤكد تقريبـــا ان الباقين على قيد الحياة سيكونون فى حالة من التذمر والوحشـــية التى لايتصورها العقل يتقاتلون جميعا من أجل آخر لقمة من الخبز ؟ لقـــد كان ماركس يقوم بعمله فى المتحف البريطانى ، ولكن الحكومة البريطانية وضعت دبابة أمام المتحف البريطانى بعد الحرب الكبرى ، ولعلها قد فعلت ذلك لتعلم المفكرين أين يكون مكانهم • وصحيح أنه يمكن أن يقام كما حدث فى روسيا عقب مناوشات مبدئية كالتى حدثت فى سنة ١٤ - ١٩١٨ ، ولكنه لا يمكن أن يقوم عقب حرب خطيرة حقا وانى لأخشى أن يكون التفاؤل التعسفى الذى يتميز به المذهب الشيوعى من بقايا العهد الفكتورى •

وهناك شيء آخر غريب فى التفسير الشيوعى للجدلية • لقد ختم هيجل ، كمـــا يعرف الجميع ، بحثه الجدلى فى التاريخ بالدولة البروســـية التى هى فى رأيه التجسيد الكامل « للفكرة المطلقة » • واعتبر ماركس ، الذى لم يكن يعطف على الدولة البروسية ، هذه الخاتمة عرجاء واهنة • وقال ان الجدليـــة يجب أن تكون أساسا ثورية ، وبدا كأنه يعتقد أنها لا يمكن أن تصل الى مستقر ثابت فى النهاية • بيد أننا لم نسمع شيئا عن الثورات التالية التى ستحدث بعد قيام الشيوعية ، ففى آخر فقرة من كتاب « فقر الفلســـفة » يقول ماركس :

« ان التطور الاجتماعى لن تزول عنه صفة الثورات السياســـية الا فى نظام ليس فيه طبقات أو عداء بين الطبقات » •

أما ماذا يكون هذا التطور الاجتماعى وكيف يتم بغير القوة الدافعـــة للصراع الطبقى فلا يقول ماركس عنه شيئا • وفى الواقع أنه لمن العسير أن نرى حسب نظريته كيف يمكن حدوث أى تطور تال • وليست جدليـــة ماركس أكثر ثورية من جدلية هيجل الا من ناحية الظروف السيـــياسية الراهنة • هذا ولما كان كل نمو انسانى يحكمه ، كما يقول ماركس ، صراع الطبقات ، وبما أنه لن يكون فى ظل الشيوعية الا طبقة واحدة ، فان النتيجة الحتمية أنه لايمكن حدوث أى نمو بعد قيامها ، وأن البشرية لابد أن تظل فى حالة من الجمود البيزنطى الى أبد الآبدين • وواضح أن ذلك لا يمكن أن يكون صحيحا ، وأن فيه ما يشير الى ضرورة وجود أسباب أخرى ممكنـــة للأحداث السياسية الى جانب تلك التى تبينها ماركس •

(٣) عدم اتصال الميتافيزيقا بالموضوع :

ان الاعتقاد بأن الميتافيزيقا لها أى أثر فى الشئون العملية لهو فى نظرى

دليل على العجز المنطقى . ان الانسان ليجد علماء طبيعة من مختلف الآراء منهم من يتبع هيوم ، ومنهم من يتبع بركلى ، ومنهم مسيحيون مقلدون ، ومنهم ماديون أنصار المذهب الحسى ، ومنهم القائلون بأن النفس هى الموجود الوحيد . ولكن هذا لا يترك أى أثر فى نشاطهم فى علم الطبيعة . فهم لايختلفون فىتقديرموعدالخسوف ، أو فى ماهيةالشروط التى يجب توافرها لثبات جسر من الجسور . ويرجع ذلك الى أنه فى العلوم الطبيعية توجد بعض المعرفة الحقيقة، وأيا كانت الآراءالميتافيزيقية التى يعتنقها عالمالطبيعة فانها لا بد أن تكيف نفسها وفقا لهذه المعرفة . ويصدق هذا بعينه على العلومالاجتماعية بقدر مافيها من معارف حقة ، واذا كانت الميتافيزيقا ذات فائدة حقيقية فىالوصول الى نتيجة ما فالسبب فىذلكأن هذه النتيجة لايمكن الوصول اليها بالوسائل العلمية . أى لانه ليس هناك سبب وجيه لافتراض صحتها . ان مايمكنأننعرفه فى هذا المجال ، يمكن ان نعرفه دون حاجة الى الميتافيزيقا ، وكلماينطلب الميتافيزيقا لاثباته لايمكن اثباته . ويعرض ماركس فى الواقع كثيرا من الحجج التاريخية المفصلة فى كتبه ومعظمها سليم الى أبعد حد ، الا أنه ليس بينها ما يعتمد على المادية بحال من الاحوال. ولنضرب لذلك مثلا قولهم أن المنافسة الحرة تنزع الى أن تنتهى الى الاحتكار ، ان هذه القضية حقيقةتجريبية ، والدليل على صحتها واضح لاخفاء فيه أيا كان رأينا الميتافيزيقى . وتتدخل ميتافيزيقية ماركس فى الأمر بطريقتين ، فهى من ناحية تجعل الأشياء أكثر تحديدا وجفافا وقطعية مما هى فى الحياة الحقيقية ، ومن ناحية أخرى تكسبه ثقة عن المستقبل أكثر مما يجيزه أى اتجاه علمى . أما فيما يتعلق باثبات صحة مذهبه فى الاطراد التاريخى ، فان ميتافيزيقية لا صلة لها به . ولا شأنللميتافيزيقا مطلقا فى مستقبل الشيوعية وهل ستعم العالم أو لا تعمه . قد تكون النظرة الميتافيزيقية ذات فائدة فى الصراع : وشاهد ذلك أن الفتوح الاسلاميه الاولى قد سهلها الى حد كبير الاعتقاد بأن المؤمن الذى يستشهد فى القتال مثواه الجنة ، وكذلك قد يساعد اعتقاد الشيوعيين بوجود اله اسمه « المادية الجدلية » يقاتل الى جانبهم ويمنحهم النصر عند ما يشاء فيما يبذلونه من جهود . ومن ناحية أخرى قد يوجد عدد كبير ممن يأنفون أن يؤمنوا بعقائد لا يقوم على صحتها أى دليل فى نظرهم ، ولا بد ان تعتبر هذه الخسارة فىالشيوعيه سببها مافيها من عنصر ميتافيزيقى .

(٤) السببية الاقتصادية فى التاريخ : اننى متفق أساسا مع ماركس فى أن العلل الاقتصادية هى أساس معظم الحركاتالكبرى فى التاريخ ، وليست هذه مقصورة على الحركات السياسية ، بل تشمل أيضا الحركات التى تمت فى ميادين أخرى مثل الدين والفن والأخلاق . الا أن هناك حدودا مهمة يجب

ألا تفوتنا . فأولا : لا يراعى ماركس عنصر التخلف الزمني المراعاة الواجبة : فالمسيحية مثلا ظهرت فى الامبراطورية الرومانية وهى تحمل من عدة وجوه طابع النـظام الاجتماعى السـائد فى هـذه الآونة . ولكن المسيحية ظلت قائمة خلال عدة تغيرات . بيد أن ماركس يعاملها على أنها فى دور الاحتضار . فهو يقول « عندما كان العالم القديم فى آخر مراحل انهياره تغلبت المسيحية على الاديان القديمة . وعندما تهاوت الافكار المسيحية تحت معاول الأفكار العقلية التى سـادت فى القرن الثامن عشر قاتل المجتمع الاقطاعى معركته الأخيرة الفاصلة ضد البورجوازية التى كانت وقتئذ ثورية » (بيان الحزب الشيوعى الذى وضعه كارل ماركس وف . انجلز) . ومع ذلك فقد ظلت المسيحية أكبر عقبة فى سبيل تحقيق آراء ماركس فى بلاده نفسها ، ولا يزال نفوذها فى جميع أنحاء العالم الغربى كبيرا . وأعتقد أنه من الممكن أن نسلم بأن المذاهب الجديدة التى تصيب أى نجاح لابد أن تكون ذات علاقة من نوع ما بالظروف الاقتصادية السائدة فى عهدها ، الا أن المذاهب القديمة قد تظل قائمة قرونا دون أن يكون لها أى اتصال حيوى بهـذه الظروف .

وهناك نقطة أخرى أعتقد أن نظرية ماركس عن التاريخ فيها محددة أكثر مما يجب ، تلك هى أنه لايدخل فى اعتباره أن قوة صغيرة قد ترجح احدى الكفتين عندما تكون قوتان كبيرتان متقاربتين فى كفتى الميزان . وقـد نسلم بأن القوى الكبيرة وليدة أسباب اقتصادية ، ولكن كثيرا مايحدث أن يتوقف انتصار احداها على حادثة عرضية تافهة . انه من العسير ، عنـد قراءة ماكتبه تروتسكى عن الثورة الروسية ، أن نصدق أن وجود لينين أو عدم وجوده فيها سيان ، ولكن سماح الحكومة الالمانية له بالسفر الى روسيا أو عدم سماحهـا له لم يكن من المسائل المقـررة بل كان وليـد الساعة . فلو أن الوزير المختص كان يعانى نوبة سوء هضم فى صباح اليوم الذى أصدر فيه قراره فى هذا الموضوع فلربما قال « لاأوافق » بدلا من « أوافق » التى قالها فى الواقع ، ولا أظن أن الثورة الروسـية بغير لينين كانت تحقق كل ما حققته فعلا . ولنضرب لذلك مثلا آخر : لو أن الروسيين كان لهم قائد محنك فى معركة فالمى ، فلربما كانوا قضوا على الثورة الفرنسية قضاء مبرما . ومثل آخر أكثر عجبا وأوغل فى الخيال : من الممكن بسهولة أن يقال انه لولا وقوع هنرى الثامن فى غرام آن بولين لما كان للولايات المتحدة الامريكية اليوم وجود . لانه نجم عن هذا الغرام أن انجلترا خرجت على البابوية ومن ثم رفضت الاعتراف بهدية البابا الى أسبانيا والبرتغال وهى الهدية التى كانت تشمل الأمريكتين . فلو أن انجلترا ظلت كاثوليكية لكان من المحتمل أن ما نسميه الآن الولايات المتحدة قد صار جزءا من أمريكا الاسبانية .

ويقودنا هذا الى نقطة أخرى ظهر فيها خطأ فلسفة ماركس فى التاريخ . فهو ينظر الى الصراع الاقتصادى على أنه دائما صراع بين طبقات ، بينما كانت الغالبية العظمى من أدوار هذا الصراع بين أجناس أو أمم . لقد كان التصنيع الانجليزى فى أول أمره « عالميا » لأن القائمين به توقعوا أنه سيظل محتفظا باحتكاره للصناعة . وبدأ لماركس كما بدا لكوبدن ان العالم يسير فى طريق « العالمية » . ولكن بسمارك غير مجرى الحوادث ، واتجه التصنيع منذ ذلك الوقت الى طريق قومى اتجاها ازداد قوة على مر الأيام ، وحتى الصراع بين الامم كان اقتصاديا الى حد كبير ، ولكن انقسام العالم الى أمم هو فى ذاته راجع الى أسباب غير اقتصادية فى معظمها .

وهناك طائفة أخرى من الأسباب كانت لها أهمية كبيرة فى التاريخ ، وهى الأسباب التى يمكن أن نطلق عليها اسم الأسباب « الطبية » . فالموت الأسود الذى اجتاح أوروبا مثلا كان حدثا أدرك ماركس أهميته أتم ادراك ، ولكن أسبابه لم تكن اقتصادية الا الى حد قليل . ومما لا شك فيه أن الوباء ما كان ليحدث بين سكان يتمتعون بمستوى اقتصادى أكثر ارتفاعا ، ولكن أوروبا كانت تعيش فى نفس الحالة من الفقر التى كانت عليها سنة ١٣٨٤ قرونا عديدة بحيث لا يمكن أن يكون السبب الأساسى للوباء هو الفقر . ولننظر أيضا الى موضوع مثل انتشار الملاريا والحمى الصفراء الاستوائية ، والى أن هذين المرضين قد أصبحا الآن من الأمراض التى يمكن الوقاية منهما ، تلك مسألة ذات آثار اقتصادية كبرى . وان لم تكن فى حقيقة أمرها ذات طابع اقتصادى .

وأكثر ما يجب تصحيحه فى نظرية ماركس هو ما يتعلق بأسباب التغير فى طرق الانتاج . ذلك أن طرق الانتاج تبدو فى كتابات ماركس أنها هى الأسباب الرئيسة ، ولكنه مع ذلك يترك الاسباب التى تؤدى الى تغيرها من وقت لآخر دون أى توضيح . والواقع أن طرق الانتاج تتغير فى الاغلب الاعم نتيجة أسباب فكرية أى بسبب الاكتشافات والمخترعات العلمية . ويعتقد ماركس أن الاكتشافات والاختراعات تحدث عندما يتطلبها الوضع الاقتصادى . ولكن هذا الرأى ليس له ما يدعمه من حقائق التاريخ . والا ، فلماذا لم يكن هناك أى علم تجريبى تقريبا منذ عهد أرشميدث حتى أيام ليوناردو ؟ مع أن الظروف الاقتصادية السائدة فى القرون الستة التالية لعهد ارشميدث كانت مما يجب أن يجعل البحث العلمى سهلا . لكن نمو العلم بعد النهضة هو الذى أدى الى الصناعة الحديثة . غير أن ماركس لم يقدر الذهن بوصفه عاملا مؤثرا فى العملية الاقتصادية التقدير الواجب .

وبعد ، فان التاريخ يمكن النظر اليه من عدة زوايا ، ومن المستطاع ابتكار قوانين عامة كثيرة تلم كل منها بقدر كاف من الموضوع بحيث تبدو سليمة

وافية بالغرض اذا اختيرت الوقائع بعنـــاية ٠ وانى لأعرض فى غير تعسف لا مبرر له ، النظرية العلمية الآتية بديلا من النظرية الماركسية لتعليل قيـــام الثورة الصناعية :

ان التصــنيع يرجع الى العلم الحديث ، والعلم الحـديث يرجع الى وجود جاليليو ، ووجود جاليليو يرجع الى وجود كوبرنيق ، ووجود كوبرنيق يرجع الى النهضة والنهضة ترجع الى سقوط القسطنطينية ، وسقوط القسطنطينية يرجع الى هجرة الاتراك ، وهجرة الاتراك سببها جفاف آسيا الوسطى ٠ ومن ثم فان الدراسة الأســاسية الخاصــة ببحث العـــلل التاريخيـــة هى علم وصف الماء (×) ٠

(×) لا حاجة الى القول بان رسل هنا يتهكم ولا يعنى ما يقوله جديا ٠ وكانه يقول ان فى هذه النظرية من الحقائق بقدر ما فى النظريات التى تحدث عنها فى الفصل ٠

٥ ـ نظرية فائض القيمة

الفصل التاسع عشر

نظرية فائض القيمة

ان نظرية ماركس فى فائض القيمة بسيطة فى خطوطها الرئيسية ، وإن كانت معقدة فى تفاصيلها . فهو يقول أن الأجير ينتج سلعا تساوى فى قيمتها أجره فى جزء من ساعات العمل اليومية ، يفترض غالبا أنه حوالى النصف ، أما فى ساعات العمل الباقية فهو ينتج سلعا تصبح ملكا لصاحب رأس المال على الرغم من أنه لا يدفع فيها شيئا . ومن ثم فان الأجير ينتج أكثر مما يؤجر عليه . وقيمة هذا الانتاج الاضافى هى ما يسميه ماركس « فائض القيمة » . ومن فائض القيمة هذا تأتى الارباح والايجار والعشور والضرائب — وباختصار — كل شىء عدا الأجور .

وهذا الرأى يقوم على حجج اقتصادية ليس من السهل تماما متابعتها خاصة لانها صحيحة فى بعض أجزائها وغير صحيحة فى بعضها الآخر . ومع ذلك فمن الضرورى تحليل حجج ماركس لانها كانت ذات أثر عميق فى نمو الاشتراكية والشيوعية .

ويبدأ ماركس من المبدأ الاقتصادى التقليدى الذى يقول بأن قيمة التبادل لسلعة ما ، تتناسب مع مقدار العمل الذى يتطلبه انتاجها . وقد بحثنا هذا المبدأ من قبل فى معرض الكلام على ريكاردو ورأينا أنه غير صحيح الا بصورة جزئية وفى ظروف معينه . فهو صحيح اذا كانت الأجور تمثل تكاليف الانتاج وكانت هناك منافسة بين الرأسماليين تعمل على ابقاء الاسعار فى أقل مستوى ممكن . فاذا انضم الرأسماليون وكونوا موثقة أو اتحادا فيما بينهم، أو اذا كانت تكاليف المادة الأولية تمثل جزءا كبيرا من مجموع تكاليف الانتاج فان النظرية تصبح غير صحيحة . ومع ذلك فقد تقبل ماركس النظرية من رجال الاقتصاد فى عصره ، على الرغم من أنه كان يحتقرهم ، دون أن يختبر — فيما يبدو — الحجج التى تساق لتأييدها .

والخطوة التالية فى المناقشة مستمدة من مالتس (وان لم يعترف بذلك الاعتراف الواجب) . فانه بمقتضى نظرية مالتس فى السكان ستظل المنافسة قائمة باستمرار بين الاجراء ، وينبنى على ذلك أن قيمة العمل ، كغيره من السلع ، ينبغى أن تقاس على أساس تكاليف انتاجها (وتوالدها). وهذا يعنى أن الأجور ستظل عند الحد الذى يكفى الحاجات الاساسية وحدها للعامل وأسرته ، وأن العمال لا يستطيعون الارتفاع عن هذا المستوى فى ظل نظام المنافسة .

ونظرية مالتس فى السكان ، كنظرية ريكاردو فى القيمة ، تخضع لقيود سبق أن ناقشناها • وينبذ ماركس هـذه النظرية دائما باحتقار ، وهو مضطر لان يفعل ذلك لانها اذا كانت صحيحة فانها تجعل أى نظام شـيوعى مستحيل التحقيق ، وهو ما حرص مالتس على الاشارة اليه • غير أن ماركس لا يدلى بأى حجج معقولة ضد مالتس ، بل انه يفعـل ما هو أكثر من هـذا اثارة للعجب اذ يقبل دون مناقشة القانون الذى يقول أن الاجور فى ظـل نظام التنافس لا بد أن تظل دائما عند حد الكفاف ، وهو القانون الذى يعتمد على قبول نفس النظرية التى يرفضها فى مناسبات أخرى •

ويبدو أن نظرية فائض القيمة تقوم على أساس هذين الفرضين :

نظرية العمل والقانون الحديدى للاجور : فاذا فرضنا أن الاجير يعمـل مثلا اثنتى عشرة ساعة فى اليوم ، وانه ينتج فى ست ساعات ما يوازى قيمة أجره ، فان ما ينتجه فى الساعات الست الباقية يمثل استغلال الرأسمالى ، أى فائض القيمة الذى يستولى عليه • فعلى الرغم من أن الرأسـمالى لا يدفع شيئا مقابل السـاعات الست الاخيرة ، فهـو مع ذلك ـ لسبب غير مفهوم ـ قادر على أن يجعل سعر منتجاته يتناسب مع ما يتطلبه الانتاج من وقت عمل• وينسى ماركس أن نظريته كلها تعتمد على افتـراض أن كل عمل يسـتحق أجرا ، وأن الرأسماليين يتنافسون فيما بينهم (×) ، فاذا انعـدم هذان الفرضـان فليس ثمة ما يحتم أن تتناسـب القيمة مع وقت العمـل الذى يتطلبه الانتاج •

فاذا افترضنا وجود رأسماليين متنافسين كثيرين فى ميدان العمل الذى نتحدث عنه ، وأن شئون العمل فى مبدئها هى كما يفتـرض ماركس ، كان من المسـتطاع خفض الاسـعار ومع ذلك يتبقى ربح ، ويكون ذلك نتيجة للمنافسة • وصحيح أن الرأسمالى سيكون مضطرا لان يدفع ايجارا ، وربما كان عليه أن يدفع فائدة عن مال مقترض ، الا أنه من ناحيته سيكون مضطرا للاكتفاء بأقل كسب يرى أنه خليق بأن يحمـله على الاستمرار فى العمل أما اذا انعدمت المنافسة ، فان السعر سيتحدد كما هو الحال فى الاحتكارات، طبقا لمبدأ « ما تتحمله السوق » وهو أمر لا علاقة له مطلقا بقدر العمل الذى يستلزمه الانتاج •

ومن ثم ، فانه وان لم يستطع أحد أن ينكر أن النـاس يجمعون ثروات باستغلال العمل ، فان تحليل ماركس للعملية الاقتصادية التى يتم ذلك عن طريقها يبدو غير سليم • والسبب الاساسى فى أنه غير سليم هو قبول نظرية ريكاردو فى فائض القيمة •

(×) على الرغم من ان انجلز يذكر ذلك فى مقدمة كتاب « فقر الفلسفة »

لقد تحدثت فيما سبق عن القيمة كما لو كان مستطاعا قياسها بالسعر (بصرف النظر عن تقلبات العملة) • وهو ما يستتبعه فى الواقع تعريف القيمة بأنها مقدار السلع الاخرى التى يمكن مبادلتها بسلعة معينة • وليس السعر سوى وسيلة للتعبير عن قيم المبادلة لسلع مختلفة بعبارات قابلة للقياس : فاذا شئنا أن نقارن قيمة عدد من السلع المختلفة • فعلنا ذلك بسهولة بالرجوع الى أسعارها ، أى بقيمتها التبادلية بالنسبة الى الذهب (اذا كان نظام العملة الذهبية هو المتبع) • وطالما كانت القيمة تعنى « قيمة التبادل » ، فان قياس قيمة سلعة ما (فى وقت معين) بسعرها فى ذلك الوقت انما هو نتيجة منطقية لتعريف القيمة نفسه •

ولكن ماركس لديه فكرة أخرى عن القيمة تتعارض بصورة غير واضحة مع تعريف القيمة بأنها « قيمة المبادلة » • وهذه الفكرة التى لا تظهر واضحة فى أى قول من أقواله ، فكرة أخلاقية أو ميتافيزيقية ، ويبدو أنها تعنى « ما ينبغى أن تتبادل به السلعة » • وسنورد هنا بعض المقتطفات لاظهار الصعوبة التى يصادفها المرء فى الوصول الى ما يقصده ماركس من معنى فى هذه النقطة ، فهو يقول :

« إن السعر هو الاسم النقدى للعمل متحققا فى سلعة • ومن ثم كان التعبير عن مقابل السلعة بمبلغ من المال هو سعرها تكرار لا فائدة منه كالتعبير بصفة عامة عن القيمة النسبية للسلعة بذكر ما يقابل سلعتين • ولكن على الرغم من أن السعر ، وهو التعبير عن مقدار قيمة السلعة ، هو الذى يوضح نسبة مبادلتها بالنقود فان ذلك لا ينبنى عليه أن ما يوضح نسبة مبادلة السلعة بالنقود هو بالضرورة ما يبين مقدار قيمة السلعة ••• ان مقدار القيمة يعبر عن علاقة من علاقات الانتاج الاجتماعى ، انه يمثل العلاقة التى توجد بالضرورة بين سلعة معينة وذلك الجزء من مجموع وقت العمل فى المجتمع الذى يستلزمه انتاجها • وبمجرد أن يحول مقدار القيمة الى ثمن ، فان العلاقة الضرورية الآنفة الذكر تأخذ صورة نسبة تبادل عرضية الى حد ما ، بين سلعة وأخرى هى سلعة النقود • ولكن نسبة التبادل هذه إما أن تمثل المقدار الحقيقى لقيمة السلعة وهو الذى يمكن التنازل عن السلعة مقابلة حسب الظروف ، أو لمية الذهب التى قد تختلف عن هذه القيمة • وعلى ذلك فان احتمال الاختلاف الكمى بين السعر ومقدار القيمة ، او اختلاف أحدهما عن الآخر ، من مكونات صورة الثمن نفسها » •

والى هنا يمكن أن نفترض أن ماركس لا يفكر الا فى التقلبات العرضية كتلك التى ترجع الى الدهاء أو الى الفقر النسبى للبائع والمشترى ، ولكنه ينتقل الى تفرقة أكثر خطورة بين السعر والقيمة ، ولو أنه استمر فيها أكثر مما فعل لوضعت أمامه عقبات يبدو أنه ظل يجهلها ، فهو يقول :

« ومع ذلك فان صورة الثمن ليست فقط متفقة مع احتمال قيام اختلاف كمى بين مقدار القيمة والثمن ، أى بين مقدار القيمة والتعبير عنها بالنقود ، بل انها قد تخفي أيضا عدم اتساق نوعى يبلغ من شأنه أنه على الرغم من أن النقود ليست سوى صورة لقيمة السلع ، فان الثمن تزول عنه تماما صفة التعبير عن القيمة • فالاشياء التى ليست فى ذاتها سلعا مثل الضمير والشرف •• الخ ، يستطيع أصحابها أن يعرضوها للبيع وأن تكتسب بذلك، عن طريق الثمن ، صورة السلع • ومن ثم يمكن أن يكون لشيء ما ثمن دون أن تكون له قيمة • والثمن فى هذه الحالة وهمي ، مثل بعض الكميات فى الرياضة • الا أن صور الثمن الوهمية قد تخفى أحيانا علاقة قيمة حقيقية اما مباشرة أو غير مباشرة ، مثل ثمن الاراضى البور التى لا قيمة لها لانه لم يدخلها أى عمل بشرى » •

وطبيعى أن لا مفر لماركس ما دام مستمسكا بنظرية « القيمة فى العمل » • أن يذهب الى أن الاراضى البكر ليس لها قيمة • ولما كان لهذه الاراضى فى الغالب ثمن فان التفرقة بين الثمن والقيمة مهمة بالنسبة له فى هذه النقطة • ويبدو الآن أن قيمة المبادلة ليست القدر الحقيقى للسلع الاخرى التى تتبادل بها أية سلعة معينة فى الواقع ، بل هو مقدار السلع الاخرى التى يمكن مبادلتها بسلعة معينة « اذا » قيم الناس السلع بالنسبة لمقدار العمل الذى يستلزمه انتاجها • ويعترف ماركس بأن الناس لا يقيمون السلعة على هذا النحو فى بيعهم وشرائهم ، ولو صح ذلك لكان من المستحيل مبادلة أرض بكر لم يبذل فيها أى عمل بمقدار من الذهب بذل قدر معين من العمل فى استخراجه من المنجم • ومن ثم فان ماركس عندما يقول ان قيمة سلعة ما تقاس بمقدار العمل الذى يتطلبه انتاجها فانه لا يريد أن يقول شيئا عما يمكن أن تساويه السلعة فى السوق • فماذا يعنى اذن ؟

انه قد يعنى واحدا من اثنين : ربما كان كل قصده أن يعرف كلمة « القيمة » تعريفا لفظيا ! فلعله يريد أن يقول : عندما أتحدث عن « قيمة » سلعة ما ، فانى أعنى القدر من العمل الذى يتطلبه انتاجها ، أو على الاصح تلك الكمية من السلع الاخرى التى ينتجها قدر مساو من العمل • أو أنه ربما كان يستعمل كلمة « قيمة » بمعنى أخلاقى ، فيقول ان السلع « ينبغى » أن تتبادل بنسبة العمل الذى استلزم انتاجها ، وأنها تكون كذلك فى عالم تسود فيه العدالة الاقتصادية • فاذا كان يقصد المعنى الاول فان معظم القضايا التى تتضمنها نظريته فى القيمة تصبح تافهة ، بينما تصبح القضايا التى تؤكد وجود علاقة بين القيمة والثمن تحكمية وتظل غير صحيحة فى بعض أجزائها • أما اذا كان يقصد المعنى الثانى فانه لا يكون عندئذ محللا لحقائق اقتصادية بل منشئا لمثل اقتصادى أعلى • هذا الى أن الأعلى فى هذه الحالة يكون مستحيل التحقيق للأسباب التى ذكرت فى نظرية ريكاردو

الخاصة بالريع : ان كيلا من الحنطة يزرع فى أرض ضعيفة يتطلب قدرا من العمل أكثر مما يتطلبه كيل مثله زرع فى أرض جيـدة ، ولكنه لا يمكن أن يباع بسعر أكبر فى ظل أى نظام اقتصادى يمكن أن نتصوره • ومن ثم فان كلا من التفسيرين ، اللفظى والاخلاقى ، لمعنى «القيمة» يرجع بنظرية ماركس الاقتصادية الى حالة الاضطراب •

ومع ذلك يبدو أن التفسير الاخلاقى للقيمة كان له بعض الاثر ، لا فى ماركس وحده ، بل فى كل من آمنوا بنظرية « القيمة فى العمل » • ويشهد بهذا فى حالة ماركس أنه يذكر فى معرض حديثه عن ثمـن الارض البـكر أشياء مثل ثمن شرف الانسان حيث يشـعر المرء بأن وجود الثمن يتضـمن شيئا من المعنى الاخلاقى • أما عن غيره من الاقتصـاديين فمن الطـريف أن نلاحظ أن هودجسكين ، الذى تعلم منه ماركس الشىء الكثير والذى كان أول واحد من أصحاب النظريات طبق نظرية القيمة فى العمل لمصلحة البروليتاريا ، يعود بمصدر هـــذه النظرية الى مذهب لوك الذى يبرر الملـكية الخاصة على أساس حق كل شخص فى نتاج مجهوده (×) • وانه اذا بادل نتاج مجهوده بنتائج قدر مساو لهمن مجهود شخص آخر فان العدالة تكون قائمة • ومن ثم فان نظرية العمل تتفق والاخلاق • ويبدو أن هذه النظرة أثرت فى ماركس عن غير علم منه : فهو يشعر عندما يختلف الثمن عن القيمة بأن الثمن يمثل شر الرأسمالية •

ويعتمد جزء كبير من تأثير كتابات ماركس على الفروض الضمنية فى أمثلته الرياضية ، ولنأخذ واحدا منها يمثل الكثير •

ومثل واحد آخر • يذكر لنا جاكوب العملية الحسابية التالية عن سـنة ١٨١٥ • وهى ناقصة جدا بسبب التكييف السابق لعـدة بنود منهـا ، ومع ذلك فهى كافية فيما يتصل بغرضنا • وهو يفترض أن ثمـــن الحنطة ١٠ شلن ثمانية بوشل ، وأن متوسط غلة الفدان الانجليزى ٢٢ بوشـــل فى السنة •

ما ينتجه الفدان الانجليزى

	بنس	شلن	جنيه	العشور والعوائد	بنس	شلن	جنيه
بذور	—	٩	١	والضرائب	—	١	١
مخصبات	—	١٠	٢	الايجار	—	٨	٢
أجور	—	١٠	٣	ربح المزارع وفائدته	—	٢	١
المجموع	—	٩	٧	المجموع	—	١١	٣

(×) هالفى « توماس هودجسكين » ص ٢٠٨ و٢٠٩ طبعة باريس سنة ١٩٠٣ •

« فاذا افترضنا أن ثمن الناتج هو قيمته ، فاننا نرى هنا فائض القيمة موزعا على عدة بنود من الربح والفائدة والايجار .. الخ ، ولا يهمنا مطلقا شيء منها بالتفصيل وكل ما نفعله أن نضمهـا بعضها الى بعض والمجموع هو فائض القيمة وقدره ٣ جنيهات و١١ شلنا : ومبلغ ٣ جنيهات و ١٩ شلنا الذى يدفع ثمنا للبذور والمخصبات هو رأس المال الثابت ونحن نضعه مساويا للصفر . ويبقى بعد ذلك مبلغ ٣ جنيهات و ١٠ شلنات وهو رأس المال المتغير الذى ينفق ، ونحن نرى أن قيمة جديدة قدرها ٣ جنيهات و ١٠ شلنات + ٣ جنيهات وشلن واحد قد أنتجت بدلا منه . ومن ثم فان

	جنيه	شلن	بنس
ف	٣	١١	—
م	٣	١٠	—

ف/م = (٣ جنيه ١١ شلن —) / (٣ جنيه ١٠ شلن —) وهو ما يعطينا نسبة للفائض أكثر من ١٠٠٪ ، فالعامل يقضى أكثر من نصف وقت عمله اليومى فى انتاج الفائض الذى يتقاسمه أشخاص مختلفون فيما بينهم متدرعين بأعذار مختلفة » .

وفى هذا المثال «ف» تعنى فائض و «م» تعنى رأس مال متغير أى أجور . ونلاحظ أن ماركس قد أدخل فى فائض القيمة كل ما يكسبه المزارع وكل العوائد والضرائب . ومن ثم فان العملية تعنى ضمنا : أ — أن المزارع لايعمل، ب — أن العوائد والضرائب تذهب كلها الى الاغنياء المتعطلين . وماركس بطبيعة الحال لا يجهر بأى هذين الفرضين بعبارات صريحة ، ولكنهما يفهمان ضمنا من أرقامه فى هذا المثال وفى كل مثال آخر مشابه له . وكانت العوائد فى سنة ١٨١٥ ، وهى التى ينطبق عليها المثال السابق ، يذهب معظمها أجورا فى ظل قانون الفقراء القديم . وصحيح أن الضرائب كان معظمها يذهب الى أصحاب الاموال ، ولكن الباقى كان بعضه ينفق بالتأكيد فى أعمال مفيدة ، فكان بعضها مثلا ينفق فى المحافظة على المتحف البريطانى الذى لولاه لما استطاع ماركس أن يكتب مؤلفه الكبير .

وأهم من موضوع الضرائب والفئات موضوع عمل الرأسمالى . ففى حالة الرأسمالى الصغير ، كالمزارع مثلا ، يكون من السخف أن نعامله معاملة الاغنياء المتعطلين . فلو أن مزرعة ما أدارتها الدوله ، لاحتاجت الى مشرف ، وأكبر الظن أن أى مشرف كفء سيتقاضى أجرا يوازى بالتقريب ما يكسبه المزارع اذا أخذنا متوسط ما يكسبه فى عدة سنوات . وكان أصحاب مصانع القطن قبل سنة ١٨٤٦ ، الذين أخذ منهم انجلز فكرته عن الرأسمالى وأخذها من ثم ماركس نفسه ، أشخاصا عاديين الى حد كبير يديرون أعمالهم برأس مال كله مقترض تقريبا . وكان دخلهم يتوقف على مهارتهم فى استعمال المال الذى اقترضوه . وصحيح أنهم كانوا قساة وحشيين ، ولكن ليس صحيحا أنهم كانوا متعطلين . ذلك أنه لابد من وجود شخص ما ينظم المصنع وشخص يشترى الآلات ويبيع المنتجات ، وشخص يقوم بالاشراف

اليومى على العمل . وكان صاحب العمل فى الايام الاولى للتصنيع يقوم وحده بكل هذا . ومع ذلك فان ماركس ينظر الى كل ما يربحه على أنه فائض قيمة يخلقها عماله ويستولى هو عليها ، وأنا أعرف أن هناك فقرات يعترف فيها ماركس بنقيض قوله هذا ، ولكنها فقرات متفرقة ، بينما نجد الاقوال التى تفترض أن صاحب العمل لا يعمل شيئا متغلغلة فى الكتاب كله .

ولسنا ننكر أن الرأسمالى غالبا ما يكون متعطلا لا يعمل شيئا فى المشاريع الرأسماليه الحديثة التى تقوم على نطاق واسع فحملة أسهم السكك الحديدية لا يفعلون شيئا ، والمديرون لا يعملون الا القليل فى ادارة العمل . ويجنح العمل فى ادارة كل المشروعات الكبيرة الى أن يتركز شيئا فشيئا فى أيدى الخبراء المأجورين ، بحيث يصبح الرأسماليون ولا عمل لهم الا قبض الفوائد . ولنا أن نتوقع من الخبراء المأجورين أن يعطفوا على الاشتراكية طالما كانت تمثل تنظيما علميا أكثر للصناعة ، أقل فوضى وأبعد نظرا عما هى عليه الآن . ولكنهم قلما يفعلون ذلك ، ويرجع هذا الى أن الاشتراكية ، بسبب التحيز الذى أضفاه عليها ماركس ، وقفت الى جانب العمال ضد الاغنياء الكسالى ، والى جانب العمال اليدويين ضد كل الاغنياء والعمال الذهنيين . وماركس ، اذ تجاهل وظيفة الرأسمالى الصغير فى ادارة العمل ، وضع نظرية لا يمكن أن تنصف الخبراء المأجورين الذين يتولون أعمال الادارة فى المشروعات الواسعة النطاق . ولقد كان تمجيد العمل اليدوى ضد الذهنى خطأ من الناحية النظرية ، أدى فى نتائجه السياسية الى كوارث مدلهمة .

وقد يقال انه ليس من المهم أن يكون ماركس محقا فى تفاصيل تحليله الاقتصادى ودقائقه ، وحسبه أنه كان على حق فى القول بأن البروليتاريا كانت موضع استغلال وحشى ، وأن هذا الاستغلال يرجع الى قوة الاغنياء . ولم تكن التفرقة بين طبقتين من الاغنياء ذات فائدة من وجهة نظره . وأن الشىء المهم لديه هو وضع حد للاستغلال ، ولا سبيل الى ذلك سوى الاستيلاء على القوة فى معركة مع الاغنياء كمجموعة .

ويوجه الى هذا القول اعتراضان : الاول ، أن القضاء على الاستغلال اذا نفذ بغير حكمة قد يؤدى الى وضع البروليتاريا فى موقف أكثر بؤسا مما كانوا قبلا . والثانى ، أن ماركس لم يبحث بحثا دقيقا عن أين تستقر قوة المال ، وأنه من ثم خلق لنفسه أعداء بلا ضرورة تقتضى عداءهم .

والاعتراض الاول ينطبق على انهيار أى نظام تكون القوة فيه موزعة توزيعا خاليا من المساواة . ذلك أن أصحاب القوة فى هذه الحالة يستخدمونها دائما للحصول على ميزات خاصة لأنفسهم . وهم فى نفس الوقت يرغبون بصفة عامة فى الحيلولة دون حدوث فوضى وأن يضمنوا مستوى معينا من الكفاية فى النظام الذى يفيدون منه . وهم يجنحون الى احتكار الخبرة بأعمال

الحكم والادارة . وقد يحدث اذا سلبوا قوتهم فجأة أن يكون نقص المعرفة والخبرة عند من كانوا معرضين للاضطهاد سببا فى وقوعهم فى أزمات يعانون فيها أكثر مما كانوا يعانون فى ظل الوضع الذى تخلصوا منه . واذا أريد ألا يحدث ذلك فلابد من أن يكون لدى أولئك الذين تحرروا حديثا قدر كاف من الذكاء والمعرفة الفنية والدراية فى الحكم يمكنهم من السير بالحياة الاقتصادية والسياسية للمجتمع . فالثورات الناجحة ، مثل الثورة الفرنسية ، قام بها رجال على قدر من المعرفة والذكاء أكبر مما كان لدى المدافعين عن النظام القديم . فاذا لم يتحقق هذا الشرط فان التحول لابد أن يكون شاقا عسيرا ، وقد لا ينجح فى تحسين الحالة بأية صورة . واننا لنشك فى أن سكان هايتى قد أصبحوا أسعد حالا مما كانوا منذ تخلصوا من الفرنسيين .

أما فيما يتعلق بتحليل قوة المال فانى أعتقد أن هنرى جورج كان أقرب الى الصواب من ماركس . فقد وجد هنرى جورج ، مقتفيا أثر سبنس والفيزيوقراطيين الفرنسيين ، أن مصدر القوة الاقتصادية هو الارض ، ومن ثم كان يرى أن الاصلاح الضرورى الوحيد هو أداء الايجار للدولة لا للمالكين الأفراد . وكان هذا بعينه هو رأى هربرت سبنسر الى أن تقدمت به السن وأصبح رجلا محترما وقورا . وهذا الرأى فى صورته القديمة قلما ينطبق على العالم الحديث ، ولكنه يتضمن عنصرا مهما من الحقيقة لم يدركه ماركس لسوء الحظ . ولنحاول الآن أن نعيد تصوير الفكرة بالمصطلحات الحديثة .

ان كل قدرة على استغلال الآخرين تتوقف على حيازة احتكار كامل أو جزئى ، دائم أو مؤقت . ولكن هذا الاحتكار قد يكون من أنواع مختلفة أشد الاختلاف ، أكثرها وضوحا هو الارض . فاذا كنت أمتلك قطعة أرض فى لندن أو نيويورك ، فانى أستطيع ، بمقتضى قانون « عدم التعدى » ، أن أثير كل قوى الدولة لأمنع غيرى من استعمال أرضى دون موافقتى . وعلى ذلك فان الذين يريدون السكنى فى أرضى أو العمل عليها يجب أن يؤدوا لى ايجارا ، واذا كانت أرضى ممتازة جدا فعليهم أن يدفعوا ايجارا مرتفعا . وليس على أن أفعل شيئا على الاطلاق فى مقابل هذا الريع . ان الرأسمالى يجب عليه أن ينظم مشروعا ، وعلى صاحب المهنة أن يستخدم مهارته ، ولكن صاحب الارض يستطيع أن يفرض جزية على نشاطهم دون أن يقوم بعمل ما . كذلك اذا كنت أمتلك فحما أو حديدا أو أى معدن آخر ، فانى أستطيع أن أفرض شروطى على الذين يرغبون فى استخراجه طالما كنت أترك لهم نسبة معتدلة من الربح . وكل تحسين فى الصناعة وكل زيادة فى سكان المدن تزيد بطريقة آلية ما يستطيع صاحب الارض أن يستولى عليه فى صورة ايجار . ويظل هو بلا عمل بينما يعمل الآخرون . ولكن عملهم يزيده ثراء باستمرار .

على أن الارض ليست هي الصورة الوحيدة من صور الاحتكار • فأصحاب رؤوس الاموال مجتمعين محتكرون بالنسبة للمقترضين ، وهذا هو السبب في أنهم يستطيعون الحصول على فائدة • والسيطرة على وسائل الائتمان نوع من الاحتكار يبلغ من الاهمية ما تبلغه الارض • فالذين يسيطرون على الائتمان يستطيعون تشجيع أى مشروع أو تدميره كما يروق لهم ، بل انهم يستطيعون ، في حدود معينة ، أن يقرروا ازدهار الصناعة بصفة عامة أو كسادها • وهم مدينون بهذه القوة الى الاحتكار •

والذين يملكون أكبر قوة اقتصادية في العالم الحديث يستمدونها من الارض والمعادن والائتمان مجتمعة • فاصحاب المصارف الكبرى يسيطرون على مناجم الحديد والفحم والسكك الحديدية ، والرأسماليون الصغار واقعون تحت رحمتهم ، ويكاد يكون شأنهم في ذلك شأن البروليتاريا سواء بسواء •

ويتطلب القضاء على القوة الاقتصادية أن تكون خطوته الاولى هي القضاء على المحتكرين • ثم يبقى بعد ذلك أن نرى هل يستطيع الذين تم لهم النجاح بفضل مهارتهم دون الاستعانة بالقوة الاقتصادية النهائية أن يحدثوا ضررا كبيرا في عالم خال من الاحتكارات الخاصة • وانى لاشك في أن العالم ، اذا أخذنا في الاعتبار كل العوامل ، كان يصبح أسعد حالا لوأن مستر هنرى فورد منع من صنع سيارات رخيصة • هذا ويتوقف الضرر الذى يحدثه رجال الصناعة الكبار عادةعلى الوصول الى مصدر منمصادر قوة الاحتكار ، انصاحب العمل هو العدو المباشر في النزاع الخاص بالعمل ، ولكنه غالبا لايزيد على أن يكون نفرا في الجيش المعادى ، أما العدو الحقيقى فهو المحتكر •

٦ ـ السياسة الماركسية

الفصل العشرون

السياسة الماركسية

كانت مبادىء ماركس السياسية نتاج نظريته الاقتصادية والمادية الجدلية ٠ وكان الاشتراكيون السابقون يلجأون الى أريحية الناس واحساسهم بالعدالة٠ وقد ظل أوين الى آخر حياته والصفة الغالبة عليه أنه الأب الطيب لنيولانارك ٠ وكانت دعوة سان سيمون دعوة دينية ٠ فقد كان يهدف الى اقامة طراز جديد من المسيحية ٠ وكان هدف فوربيه كما كان هدف أوين انشاء مستعمرات يقوم نجاحها دليلا على صواب مبادئه٠أما ماركس فقد أدرك عدم جدوى هذه الطرق٠ فانه رأى أن عنصر الأريحية عند الناس لن يبلغ من القوة حدا يكفى لتغيير النظام الاقتصادى كله ٠ كما أدرك أن الاشتراكية لن تتحقق على دفعات فى مجتمعات صغيرة منعزلة ، بل يجب البدء بها على نطاق واسع نتيجة لثورة سياسية ٠ وقد حكم هو وانجلز على من سبقوهما بأنهم مثاليون خياليون ٠ وكانت المشكلة التى تواجههم هى: من الناحية النظرية ـ التنبؤ بالنمو الحتمى الجدلى للصناعة ، ومن الناحية العلمية ـ ضمان استيلاء البروليتاريا على القوة، وهى الطبقة التى ستكون مصالحها العامل الذى يحول الرأسمالية الى الاشتراكية ٠

وقد أدرك ماركس وانجلز منذ سنة ١٨٤٨ أن المنافسة لا بد منتهية الى الاحتكار ٠ورأيا أن المشروعات تجنح الى التضخم فى الحجم ، وان كل تقدم فنى يساعد على هذا التضخم ٠ وقد جعل نمو الموثقات فى أمريكا هذا الرأى واضحا قبل أن يموت انجلز ، ولكن ادراك ذلك فى سنة ١٨٤٨ يدل على بعد نظر لم يكن يتمتع به فى ذلك العهد أى شخص آخر غير ماركس ٠ فقد كان ماركس يقول أن تركيز رأس المال سيؤدى الى نقص عدد المولين وان من غلبوا على أمرهم فى معركة التنافس سيصبحون من طبقة البروليتاريا ، ولن يبقى فى النهاية الا قلة من الرأسماليين ويصبح كل السكان تقريبا من البروليتاريا ٠ وسيكون البروليتاريون قد تعلموا خلال صراعهم مع رأس المال أن ينظموا أنفسهم على نطاق قومى أولا ثم على نطاق دولى فيما بعد ، حتى اذا صار الرأسماليون آخر الامر من القلة ، والبروليتاريون من الكثرة والتنظيم ، بدرجة كافية استولى هؤلاء على القوة ووضعوا حدا للعهد الرأسمالى :

« الى جانب التناقص المستمر فى عدد أقطاب رأس المال ، الذين يغتصبون ويحتكرون كل الميزات فى عملية التحول هذه ، يزداد مقدار البؤس والاضطهاد والعبودية والتأخر والاستغلال ٠ ولكن تنمو مع هذا أيضا ثورة الطبقة العاملة، طبقة يزداد عددها على الدوام ، يوحدها وينظمها ويهذبها الطابع الآلى لعملية

الانتاج الرأسمالى نفسها · ويصبح احتكار رأس المال قيدامكبلا لطريقة الانتاج التى نشأت ونمت معه وفى ظله · وأخيرا يصل تركيز وسائل الانتاج وصبغ العمل بالصفة الاشتراكية نقطة يصبحان فيها غير متفقين مع محيطهمـــا الرأسمالى · فيتصدع هذا المحيط · وتدق أجراس نهاية الملكية الخاصــة الرأسمالية ، ويجرد مغتصبوا الملكية من ملكيتهم (١) » ·

وتتكون كل السياسة عند ماركس من الصراع بين الطبقات الذى يؤدى اليه تغير طرق الانتاج الفنى · لقد انتصرت البورجوازية على نبلاء الاقطـــاع فى الثورة الفرنسية الكبرى ، وانتصرت مرة أخرى عليه بالقدر الذى كان ضروريا، فى ثورة سنة ١٨٣٠· وأدت الحرب الاهلية فى انجلترا الى بعض هذا الانتصار فى تلك البلاد ، ولكنه تم بفعل قانون الاصلاح الصادر فى سنة ١٨٣٢ والغاء قوانين الغلال · وقامت فى ألمانيا نفس المحاولة فى ثورة سنة ١٩٤٨ ، ولكنها لم تصب نجاحا كاملا ، وشهدت فرنسا فى هذه السنة الاخيرة بـداية ثورة جديدة ، ثورة البروليتاريا ضد البورجوازية · وكان للاشتراكيين قوة كبرى فى الشهور الاولى من الثورة الفرنسية التى قامت سنة ١٨٤٨ واستطاعوا انشاء «الورش القومية» حيث يستطيع كل شخص، من الوجهة النظرية، أن يحصل فيها على عمل يؤجر عليه · الا ان الاشتراكيين قضى عليهم فى مذابح كبيرة فى شهر يونية · وظلوا مدة طويلة لا يضطلعون بدور كبير فى سياسة البلاد · وكان ماركس يتطلع الى حدوث سلسلة من هذه المعارك تصبح فيها هزيمة الاشتراكيين أكثر صعوبة شيئا فشيئا ، ثم تصبح فى آخر الامر مستحيلة · وما من شك فى أن البروليتاريا سيهزمون البورجــــوازية فى آخر الامر ، كما هزمت البورجوازية النبلاء الاقطاعيين ·

لم يخلق بعد متنبىء صدقت كل نبوءاته ، ولكن ماركس كان مصيبا من عدة وجوه ، فالمنافسة أعقبها فى الغالب احتكار ، وطبيعة البروليتاريا أضـــحت اشتراكية فأكثر · وفى دولة كبرى واحدة تحاول الحكومة فعلا اقامة الشيوعية · الا أن هناك مع ذلك عدة نقط لم يصب فيها ماركس كبد الحقيقة ، وبعضها فقط ذات أهمية كبرى ·

وكان أكثر اخطائه خطورة أنه لم يقدر قوة القومية حق قدرها · « أيهـــا البروليتاريون فى كل البلاد ·· اتحدوا » · هذا ما يقوله البيان الشيوعى ، غير أن التجربة قد دلت على أن البروليتاريا لايزالون يكرهون الاجانب أشد مما يكرهون أصحاب الاعمال · ففى سنة ١٩١٤ أطاع الماركسيون أنفسهم ، باستثناء قلة ضئيلة منهم ، أوامر الدولة الرأسمالية التى اتفق أن كانوا ينتمون اليها · وحتى اذا أمكن على مر الزمن اقناع البروليتاريا من الشعوب البيضاء بتجاهل الحدود القومية ، فان لامر سيتطلب وقتا أطول بكثير قبل أن يشعروا بأى تضامن حقيقى مع منافسيهم من الاجناس الصفراء والسمراء والسوداء ·

---

(١) « راس المال » الجزء الاول ص ٨٣٦ - ٨٣٧ ·

والى أن يفعلوا هذا ، ويبادلهم الصفر والسمر والسود شعورهم ، لن يستطيعوا تحقيق أى نصر راسخ على الرأسماليين .

ولم تثبت القومية انها أقوى من القوى الاقتصادية البحتة فيمـــا يتعلق بالبروليتاريات وحدها . ففيما يخص الرأسماليين أيضا ثبت أن حدود الدول هى عادة حدود الاتحادات الاقتصادية . وشاهد ذلك أن معظم الاحتـــكارات الرأسمالية قومية وليست عالمية . ففى صناعة الصلب مثلا توجد احتكارات معترف بها أو قائمة بالفعل فى أمريكا وألمانيا وفرنسا ، الا أن هذه الاحتكارات المختلفة مستقلة بعضها عن بعض ، وتكاد صناعة الاسلحة تكون هى الصناعة الوحيدة التى لها صفة الدولية حقا(١) لان الشىء المهم بالنسبة لها أن تكون الحروب طويلة وكثيرة لا أن ينتصر فيها هذا الجانب أو ذلك . وباستثناء هذه الصناعة ، يتنافس المحتكرون الذين ينتمون الى دول مختلفـــة ، ويدفعون حكوماتهم الى مساعدتهم فى هذه المنافسة . والتنـــافس بين الامم صراع اقتصادى مثل الصراع بين الطبقات ومساو لهفى الاهمية علىالاقل فىالسياسة الحديثة ، ومع ذلك فان ماركس يقول أن الصراع بين الطبقات هو المسـيطر على السياسة كلها .

واذا فرضنا أن كان لماركس عذر يبرر به عدم تقديره القومية حققدرها ، فان هذا العذر يتضاءل اذا عرفنا أنه هو نفسه اشترك فى الثورة الالمانية التى قامت سنه ١٨٤٨ ولاحظ بعناية الدور الذى لعبته القومية فى القضاء عليها . فهو يذكر فى كتابه «الثورة والثورة المضادة أو ألمانيا سنة ١٨٤٨» الذى كتبه فى سنة ٥١ــ١٨٥٢ كيف حاول صقالبة الامبراطورية النمساوية والهنغارية ، الذين كانت قوميتهم هى السبب المباشر فى الحرب الكبرى بعد ذلك ، وهـم الذين تتكون منهم الان تشيكوسلوفاكيا وجزء من يوجوسلافيا ، كيف حاول هؤلاء التخلص من السيطرة الجرمانية وكيف هزموا فى النهاية . وهو لايظهر أى عطف عليهم بل ينظر الى المسألة كلها من زاوية القومية الالمانية التقليدية . فهو يقول :

«وهكذا انتهت الى وقت ما ، ولعلها انتهت الى الابد ، محاولات صقـالبة ألمانيا لاستعادة كيان قومى مستقل . ان هذه البقايا المنفردة من قوميـات عديدة قد انطفأت جذوةالقومية والحيويةالسياسية فيهامنذ أمد بعيد،فاضطرت من أجل ذلك الى الخضوع لأمم أقوى منها ، هى التى غلبتها على أمرها مدى ألف عام تقريبا ، كما حدث لاهل ويلز فى انجلترا والباسك فى اسبانيـــا والبريتونيين الجنوبيين فى فرنســا وكما حــدث بعد ذلك للكرويوليين الاسبانيين والفرنسين فى تلك الاجزاء من أمريكا الشمالية التى احتلهاالجنس الانجليزى الامريكى أخيرا - ان هذه القوميات المحتضرة ، من البوهميـين

(١) انظر « الدولية والوطنية السرية ليمتد » الذى نشره اتحاد السيطرة الديمقراطى .

والكرواتيين والدلماسيين .. الخ حاولت أن تستغل الفوضى الشاملة التى حدثت فى سنة ١٨٤٨ لاستعادة الحالة السياسية التى كانوا عليها سنة ٨٠٠ ميلادية . ان تاريخ ألف عام كان يجب أن يقنعهم بأن هذا الرجوع الى الوراء مستحيل ، وانه اذا كانت أجناس مثلهم من الصقالبة من أسلافهم قد احتلوا فى وقت من الأوقات جميـع الأقاليم الواقعة شرق نهرى الألب والسال ، فليس الا دليلا على اتجاه تاريخى ، وعلى قدرة الشعب المانى المادية والفكرية على اخضاع جيرانه الشرقيين القدماء وامتصاصهم وهضمهم ، وان نزعـــه الامتصاص التى يتصف بها الشعب الالمانى كانت دائما وما زالت أبعدالوسائل أثرا فى نشر حضارة غربى أوروبا فى شرقى القارة ، وهو اتجاه لن يتوقف الا اذا بلغت عملية الجرمنة حدود شعوب كبيرة متماسكة سليمة قادرة على أن تحيا حياة قومية مستقلة ، مثل الهنغاريين والبولنديين الى حد ما ، وان المصير الحتمى الطبيعى لهذه القوميات المحتضرة هو الاستسلام لهذا التحلل وذلك الاستيعاب من جيرانهم الذين هم أقوى منهم حتى يبلغا غايتهما . ولا شك فى أن ذلك لا يرضى المطامع القومية للدعاة الخياليين للجامعة الصقلبيـة الذين استطاعوا أن يثيروا جزءا من الشعوب البوهيمية والسلافونية ، ولكن هل ينوقع هؤلاء أن يعود التاريخ القهقرى ألف عام ارضاء لفئات قليلة موتورة من الرجال الذين يحيط بهم وينتشر بينهم الالمان من كل جانب فى كل بقعة من الارض يحتلونها ، فوم لايعرفون منذ أمد بعيـــد جدا أية لغـــة أخرى يستعملونها فى أغراض الحضارة سوى اللغه الالمانية وتنقصهم المقومات الاولية للكيان القومى ، وهى كثرة العدد وارتباط الوطن . وهكذا اصطدمت ثـورة الجامعة الصقلبية ، التى اندلع لهيبها فى كل مكان فى الاقاليم السلافونيـــة الجرمانية والمجرية، والتى اتخذت ستارا للحركة الداعية الى استعادة استقلال جميع تلك الامم الصغيرة التى لاعداد لها ، اصطدمت هذه الثورة بالحركات الثورية الاوربية فى كل مكان ،وكان السلافيون فى جميع الحالات (باستثناء الجزء الديمقراطى من بولندا) ينضمون الى جانب الاستبداد والرجعية . هذا ماحدث فى ألمانيا ، وهذا ماحدث فى بلاد المجر ، بل وهذا ماحدث فى أماكن متفرقة فى تركيا.. لقد وقف هؤلاء الخونة للقضايا والأعوان الرئيسـيون لدسائس الحكومة النمساوية موقف الخارجين على القانون فى نظر كل الشعوب الثورية . وعلى الرغم من انه لم يحدث فى أى مكان أن اشترك جماهير الشعب فى المنازعات التافهة الخاصة بالقومية والتى كان يثيرها زعماء الوحدة الصقلبية، فاننا لن ننسى قط أن جماعات من السلافونيين المتعصبين هتفت فى براج ، وهى بلدة نصف ألمانية قائلة : «السوط الروسى ولا الحرية الالمانية» وكرروا هتافهم مرارا ! وليس من المتوقع أن يقوموا بمحاولة أخرى فى فرصة تالية بعد أن ضاعت جهودهم هباء فى سنة ١٨٤٨ ، وبعد الدرس الذى لقنتهم اياه الحكومة النمساوية . الا انهم اذا حاولوا مرة أخرى أن يقفوا الى جانب القوى المناهضة للثورة ، متذرعين بأمثال هذه المعاذير الواهية ، فان واجب المانيا واضح لاخطأ

فيه ، ذلك أنه لا يستطيع بلد ما فى حالة ثورة وحرب خارجية أن يسمح للخونة أن يوجدوا بين ظهرانيه» .

ولو أن ماركس كانت لديه أية قدرة على النقد الذاتى لرأى ، وقد استطاع أن يكتب هذه النبذة ، ان الماركسيين انفسهم غير مبرئين من التحيز القومى .

وكان ماركس يرى أحيانا أن القومية لايمكن تجنبها فى ظل الرأسمالية ، وانه لاشىء يمكن أن يحل محلها الا حكم البروليتاريا . فتراه يكتب فى سنة ١٨٤٦ يقول :

« ان وهم الجمهورية الأوروبية ووهم السلام الدائم فى ظل منظمات سياسية قد أصبح مدعاة للسخرية مثله كمثل العبارات الخاصة بانماء الشعوب فى ظل حرية التجارة .. ان للبورجوازية فى كل بلد مصالحها الخاصة ، ولما كانت لاتضع شيئا فوق هذه المصالح ، فانها لن تسمو أبدا فوق القومية .. ولكن للبروليتاريا مصلحة واحدة متماثلة فى كل البلاد ، ولها عدو واحد ، ومعركة واحدة تنتظرها ، والبروليتاريون فى مجموعهم مبرءون بطبيعتهم من أى تحيز قومى ، وثقافتهم وحركتهم كلها فى أساسها انسانية مناهضة للقومية . ومن ثم فلا يستطيع القضاء على القومية الا البروليتاريا ، والبروليتاريون هم الذين يستطيعون نشر الاخاء بين الشعوب المختلفة ..

ومع هذا فان هذا الحلم لم يتحقق بعد ..

وبينما كان ماركس محقا فيما تنبأ به عن تركيز الصناعة الرأسمالية ، فيما يتعلق بفروعهـــا الأساسية على الأقل ، فى صـــور احتكارية أو قريبة من الاحتكار ، فانه أخطأ حين افترض أن ذلك سيؤدى الى نقص كبير فى عدد الأفراد الرأسماليين . ففى بلاد مثل انجلترا وفرنسا وهولندا يوجد عدد لا حصر له من النساء العجائز والضباط المتقاعدين وذوى الدخول الثابتة على اختـــلاف أنواعها يعيشون على فوائد أموالهم المستثمرة . وهـؤلاء هم عصب الاحزاب الشديدة الرجعية ، لانهم ليس لديهم مايشغل بالهم سوى ثبات أثمان أسهمهم وأرباحها . وحتى العمال يصبحون ذوى مصلحة فى بقاء النظام الرأسمالى اذا كانوا أعضاء فى منظمات لها أرصدة مستثمرة . والحق انه لايوجد فاصـــل واضح بين الرأسمالى والبروليتارى كما افترض ماركس . فقد كان يتطلع كما تطلع هيجل الى وجود طوائف منفصلة فى عالم الواقع ، وينتظر أن تـكون الحقائق فى هذا العالم منفصلة محددة ، انفصالها فى الكتب المدرسية . والأمر ليس كذلك فى أى بلد قديم العهد بالثروة ، بل ان المصالح الرأسمالية عـــلى النقيض من ذلك تنفذ الى أعماق البروليتاريا ، وهى وسيلة للتقريب بين تلك الطبقات التى اعتقد ماركس انها ستتباعد ويزداد تباعدها على مر الايام . مثال ذلك أن الاشخاص الآتية أسماؤهم ، وهم من حملة الاسهم فى شركة هاندلى بيج المحددة المسئولية لصناعة الطائرات ، كانت لهم فى ٥ يونية سنة ١٩٣١ مصلحة مشتركة ، لافى النزعة الرأسمالية وحدها ، بل فى الحرب أيضا .

« سير بازيل مايهيو ، سير هنرى جريون ، عدة بنوك وشركات استثمار ، الضابط الطيار لويس جريج ، مستر س٠د ، فيرى ، المحترم ج٠داون ،دوقة جرافتون ، لورد آرثر براون ٠ مستر ف هاندلى بيج ، مستر آرثر ج بيج ، وهم سائقوا سيارات الأجرة ، وموظفو بلدية ، وعمال طباعة ، ونظار محطات، وصاهرون للنحاس ، وأساقفة ، وعمال فى صناعة نسيج الصوف ، ونجارون وصيادلة ، ومزارعون ، وكونستبلات شرطة ، ومدرسون ، وبائعو سمك ، وضباط بحريون ، وضابط جوى كبير، ورجل دين فى بعض الاوقات، وضابط كبير فى الجيش ، وموظف مدنى فى وزارة الخارجية ، ومدرس موسيقى ، وأطباء ، وأوصياء على كنيسة وسليان بمانشستر (١) » ٠

وليس مصدر هذا التوافق فى المصالح بين طبقات مختلفة هو الاهتمام بالاستثمار وحده ، بل يرجع أيضا الى أسباب تتعلق بطبيعة عمل الشخص ، ولنأخذ رجل الشرطة مثلا ٠ فهو حليف للرأسمالى فى الحدود التى يعتبر فيها حاميا للقانون والنظام الرأسماليين ٠ وهو عندما يرغب فى تحسين حاله شخصيا عن طريق الترقية يجب عليه أن يعمل على ارضاء ولاة الامور ، ولكن عندما يرغب فى تحسين حال رجال الشرطه بصفة عامة يصبح بروليناريا ويلجأ الى وسائل الاتحادات والاضرابات ٠ وينطبق هذا بعينه على جنود الجيش والبحارة ٠ ولكن أية دولة رأسمالية أوتيت شيئا ولو قليلا من الحكمة وتتجنب الهزيمة فى الحرب تستطيع دائما أن تحتفظ بهذه الطبقات الى جانبها ٠ وقد أدرك ماركس وجود هذه الطبقات ولكنه لم يدرك مدى ماستصير اليه من ضخامة وأهمية ٠

وهناك ناحية أخرى أخطأ فيها ماركس عندما قسم المشتغلين بالصناعة كلهم الى رأسمالى وبروليتارى ٠ هى الخاصة بالموظفين المأجورين فى المشروعات الرأسمالية الكبيرة ٠ ذلك أن أعمال الادارة التى كان يقوم بها صاحب العمل نفسه منذ مائة عام ، يقوم بها الآن موظفون يتقاضون مرتبات ، هذا فضلا عن أن الادارة تحتاج فى كثير من الأحيان الى فنيين وخبراء علميين ، ويصدق هذا بصفة خاصة فى الصناعات الكيمائية ٠ وهكذا وجدت طبقة متوسطة جديدة بين الرأسمالى والبروليتارى ٠ وقد أخذت هذه الطبقة على عاتقها كل الاعمال التى كان يقوم بها صاحب العمل فيما مضى أو جل هذه الاعمال ٠ وفى أمريكا حيث تقل الوراثة فى رأس المال عنها فى أوروبا يسيطر كبار الاغنياء فعلا على الصناعة فى بعض نواحيها العامة ، وخاصة فيما يتعلق بالتمويل والسياسة العامة ٠ ولكن هذه الحالة ستزول فيما نظن كلما أصبح رأس المال أكثر ثباتا واستقرارا فى أمريكا ٠ وفى انجلترا أصبح الرأسمالى ملكا لا يفعل شيئا ، وصار الموظف المأجور صاحب السلطان فى المصنع ٠ وأكبر الظن أن هذه النزعة ستعم جميع البلاد ٠

---

(١) « الدولية السرية » التى نشرها اتحاد السيطرة الديمقراطى ص ١٩ ٠

ولا يجد الموظف ذو المرتب مايدعوه الى حب الرأسمالى الذى يفوز بنصيب الأسد من الغنيمة دون أن يعمل شيئا للحصول عليهـا . غير أن الموظف ذا المرتب يتمتع بمركز ممتاز اذا قورن بالعامل الأجير ، وهو من ثم يتردد فى الانضمام الى الأجير بأن يصبح اشتراكيا ، ويرجع بعض السبب فى هذا الى روح التعالى ، ولكن التعالى ليس هو السبب الوحيد. لقد حقر ماركس كل عمل عدا العمل اليدوى ، ولم يحاول أن يلجأ الى أية طبقة سوى طبقة البروليتاريا . لكن الخبراء العلميين يدركون أهميتهم فى العـالم الحديث ، وهم ليسوا على استعداد لان يخضعوا أنفسهم للعمال اليدويين . وشأنهم فى ظل الرأسمالية على الأقل معترف به اذ استخدمهم الرأسماليون وعاملوهم معاملة تنطوى على قدر من الاحترام ، وليس لديهم أى شعور بالاطمئنان الى أن مركزهم سيظل حسنا كما هواذا شبت ثورة بروليتارية. ومن ثم يظل أغلبهم حلفاء للرأسماليين كارهين لوضعهم هذا بدرجة تزيد أو تنقص .

لقد خلق ماركس بتعاليمه حرب الطبقات التى تنبأ بها ، الا انه بتمجيـده للعمل اليدوى أكثر مما ينبغى ، هبط بتقسيم الطبقات الى نقطة فى السـلم الاجتماعى أدنى مما ينبغى ، واستحدث لهذا السبب عداوة أهم طبقة فى العالم الاقتصادى الحديث ، أى طبقة الرجال القائمين بالعمل الذى يتطلب مهـارة فى التصنيع . ولقد كان من الممكن كسبهم ، أو على الاقل كسب عدد كبير منهم ، الى جانب الاشتراكية لو انها عرضت على أنها طريقة لتنظيم الانتـاج والتوزيع العالميين أكثر انطباقا على أصول العلم ، لا فى صورة مذهب انتقامى من الطبقات الاكثر حظا . ان الرأسمالية الخاصة قد أثبتت أنهـا فوضى لا تحتمل وانها لا تستطيع أن تحقق ذلك الرخاء الذى كان ينبغى أن ينشأ عن زيادة القوة الانتاجية للعمل . وقد أصبح واضحا أن حافز الربح لم يعـد الدافع السليم فى ميادين الانتاج الواسعة ، وانه من الضرورى لخير البشرية ايجاد طريقة فى التنظيم كالتى يدعو اليها الاشتراكيون .

والدعوة الى الاشتراكية الدولية فى الوقت الحاضر مستطاعة من ناحيـة الكفاية لامن ناحية الصراع بين الطبقات ، الا ان الحالة فى انجلترا خلال العقد الخامس من القرن الثامن عشر ، وهى التى استمد منها ماركس وجهة نظره ، كان يتعذر معها الدعوة على هذا الأساس . وكان لابد لكل شخص لم يطمس التحيز الى الطبقة الرأسمالية على بصره أن يحس بغضب شديد نحو أصحاب الاعمال الصناعيين ، الا اذا كان هو نفسه وحشا قاسيا لاقلب له . وكانت البروليتاريا فى تلك الايام تنمو نموا سريعا ، وكان العداء بين الطبقات فى جميع ميادين الصناعة حادا وعنيفا . وجعل معظم الاقتصاديين من الطبقـة الوسطى من أنفسهم دعاة لتبرير تصرفات أصحاب الاعمال ، وأخذوا يدافعون عن سيئاتهم معتمدين على مغالطات فندها ماركس بتهكم هى به خليقة .

وليس هناك مايدعو الى العجب فى أن ماركس أقام دعوته أساسا على العداء

بين الطبقات اذا مافكر المرء في الحالة التي كانت عليها الرأسمالية البريطانية في النصف الاول من القرن التاسع عشر • وعلى الرغم من أن الرأسمالية أصبحت أقل وحشية في بريطانيا العظمى بعد سنة ١٨٤٦ ، فان قسوتها استمرت بكامل بشاعتها في كل اقليم بـعيد غزته • وقد بلغت في الكونغو البلجيكي حدا من الوحشية فاق كثيرا أسوأ شرور مصانع النسيج والمناجم في شمالي انجلترا • ان قسوة الانسان في سبيل الربح لاتقف عند حد ، وتلك حقيقة ليست جديدة جاءت بها الرأسمالية ، فقد كانت معاملة قلب الأسد لليهود ومعاملة بيزارو للانكا تتسم بنفس الجشع والقسوة في ابتزاز المال اللذين يتسم بهما أصحاب الاعمال ممن أشاعوا الحقد في نفس ماركس • الا أننا عندما ننظر اليه باعتباره نبيا من أنبياء العصر الحاضر نجد أن الامر مختلف عن هذا بعض الشيء • ذلك أن الحقد الذي كان يعتمل في نفسه ، رغم انه كان طبيعيا جدا وينصب على أشخاص جديرين بكل حقد ، لم يكن أساسا صالحا لدراسة علمية في الاقتصاد ، أو لوضع نظرية تنشيء نظاما يقوم على أنقاض الرأسمالية، ولعله كان من سوء الحظ أن المذهب الماركسي تبلور نتيجة لدراسة الاوضاع في انجلترا الصناعية خلال العقد الذي بدأ سنة ١٨٤٠ ، ولو أن ذلك حدث في فترة لاحقة ، لكان من الجائز أن يتخذ هذا المذهب صورة أقل شدة واكثر قدرة على اجتذاب الأنصار على نطاق واسع •

ان الماركسية بالتجائها الى بث روح الكراهية في نفوس البروليتاريا فقدت عدة حلفاء ذوي شأن كان من الممكن أن تضمهم الى جانبها • غير أنه لما كانت الكراهية أكثر الانفعالات الانسانية الدافعة الى العمل فقد بعثت حركة أنشط وأكثر عزما مما كان يحدث لو انها كانت أقل عنفا مما هي • وكان هذا العنف مقصودا من مبدأ الأمر • فقد ذكر ماركس في خطاب مفتوح كتبه في سنة ١٨٤٦ ضد هـ• كريج أن الحب لم ينجح في تحسين الأوضاع الاجتماعية مدى ١٨٠٠ عام وأنه لا يولد القوة الفعالة اللازمة للعمل .

ثم قال : ان ظروف العالم في الوقت الراهن بما فيه من تعارض شديد بين رأس المال والعمل مصدر أقوى للآراء الاشتراكية من الحب الانساني • ثم يمضي فيقول : « ان هذه الظروف تنادينا قائلة : ان الأمر لا يمكن أن يظل على هذا النحو ، ولابد من حدوث تغيير ، ونحن أنفسنا ، نحن بني الانسان ، يجب أن نغيره • وهذه الضرورة الحديدية تهييء للمجهود الاشتراكية مجـالا أوسع وتضم اليها مؤيدين أقوياء نشطين ، وتمهد السبيل للاصلاح الاشتراكي بتغيير العلاقات الاقتصادية القائمة أسرع مما يغيرها كل الحب الذي يعمر جميع القلوب الحساسة في العالم كله » •

وبعد ، فان الالتجاء الى الكراهية قد يكون الوسيلة النفسية المثلى لكسب النصر في الحرب ، وهذا ما كان يعتقده جميع المحاربين بين سنة ١٩١٤ وسنة ١٩١٨ • ولكنه ليس الوسيلة النفسية السليمة للبناء الذي يعقب الحرب •

فيجب أن يكون ذلك واضحا لنا ، نحن الذين نعانى العواقب المريرة لمعاهدة فرساى • ولم يكن ماركس بالشخص الذى يعمر قلبـــه الحب ، بل ان الحقد والضغينه تشيعان فى صفحاته • ومن سوء الحظ أن الـــكثير من الجوانب الكريهة فى طبيعة ماركس قد قلدها اتباعه • ولا يسع المرء الا أن يحس بأن كل حرب تدور رحاها بهذه الروح ، ستؤدي حتما ـ اذا نجحت ـ الى سلم لا تقل عاقبته بشاعة عن سلم فرساى • ان الحقد اذا اندفع فيه الانسان أكثر ممـا ينبغى ، يصبح عادة ولا بد له أن يبحث دائما عن ضحايا جدد •

وفوق ذلك ، فان مما يشك فيه المرء كثيرا أن تستطيع البروليتاريا بمفردها أن تنتصر على الرأسمالية فى دولة حديثة قديرة • ان الرأسماليين ومعهم أولئك الذين يشعرون بأن مصالحهم متفقة معهم لم يصبحوا ، كمـا افترض ماركس ، جزءا صغيرا من السكان • هذا الى أن هذه الفئه تضم الآن غالبية الخبراء الفنيين الذين تعتمد عليهم الحرب الحديثة • فهل من المنتظر مثلا أن تنضم القوات الجوية الى جانب البروليتاريا ، وهل تستطيع البروليتاريا أن تنتصر فى حرب اذا لم تكن معها هذه القوات ؟ تلك مشكلة واحدة من المشاكل العديدة التى تواجه الماركسية الحديثة •

وقد كان مذهب ماركس فى الصراع بين الطبقات احدى القوى التى قضت على النزعة التحررية فى أوروبا فى القرن الثامن عشر وذلك باشاعة الخوف فى الطبقات الوسطى ودفعها الى الرجعية ، وكذلك بما ذهب اليـــه من أن الآراء السياسية تعتمد ، ويجب أن تعتمد دائما ، على الميول الاقتصـادية دون أى اعتبار للصالح العام • ولم تزل النزعة التحررية القديمة تعيش فى أمريـكا حيث لم يترك ماركس سوى أثر سياسى ضئيل ، وحيث تقوم هذه النزعة فى الوقت الحاضر بمحاولة لاماركسية فى التعمير والانشاء • ولعل هذه الوسائل اللينة قد فات أوانها ، ولعل العالم لن يستطيع أن يتجنب عملية « التطهير » التى تنشأ عن صراع عنيف بين الطبقات • ولكن اذا كان هذا مما لا يمـــكن تجنبه ، فان كتابات ماركس قد ساعدت على أن تجعل هذا التجنب غــــير مستطاع •

ومبادىء ماركس ، كمبادىء غيره من الناس ، بعضها سليم وبعضها غــير سليم • وفيها الكثير مما يمكن المجادلة فيه ، ولكن نظريته تتضمن أربع مسائل ذات أهمية قصوى تثبت انه رجل على قدر كبير من الذكاء الخارق •

الاولى هى مايتعلق بتركيز رأس المال وتحوله تدريجيا من المنافســــــة الحرة أو الاحتكار •

والثانية هى الدافع الاقتصادى فى السياسة ، وهو المبدأ الذى يؤخذ الآن على أنه قضية مسلم بها ، والذى كان يعتبر عندما عرضه ماركس بدعــــة جريئة ••

والثالثة ، وهى نتيجة للدافع الاقتصادى فى السياسة ، هى ضرورة استيلاء من لايملكون رأس مال على القوة · وهذا عكس مافعله أوين من الالتجاء الى نزعة حب الخير ·

والرابعة هى ضرورة استيلاء الدولة على وسائل الانتاج ، ومما يتبع ذلك من أن الاشتراكية يجب أن تضم من مبدئها أمة بأكملها اذا لم يتيسر أن تشمل العالم كله · لقد كان السابقون على ماركس يهدفون الى أنشاء مجتمعات صغيرة ويفترضون أنه من الممكن تجربة الاشتراكية فيها على نطاق ضيق ، ولكنه أدرك عدم جدوى هذه المحاولات كلها ·

ويستحق ماركس ، على أساس هـذه النقط الأربع ، أن يعتبر مؤسس الاشتراكية العلمية · وهو كغيره من مؤسسى المبادىء فى حاجة الى تصحيح آرائه من عدة وجوه ، واذا ما وقفنا أمامه موقف الهيبة والخشوع الدينى ، فقد يكون لهذا أوخم العواقب · أما اذا أخذناه على أنه انسان معرض للخطأ ، فسنجد الكثير من الحقائق المهمة فيما قال ·

القسم الثالث

الديموقراطية وحكم الأقلية الثرية فى أمريكا

الباب الأول

الديمقراطية فى أمريكا

القسم الثالث

الديموقراطية وحكم القلة الثرية فى امريكا

من الغرب أقبلت الحرية بسرعه تعارض منهج السماء وحكم الاقدار ،

كأنها شمس نانية يلقيهـــا اللهب تحترق ، وتشعل وتضىء · جاءت أشعتها الفتية من وراء المحيط الاطلنطى تطارد الظلال والاحلام ·

واحتضنت منها فرنسا بكل ما فيها من ثورات دموية ولكنها لم تستطع اطفاء لهيبها ·

وها هى ذى سهامها المجيدة تتساقط مرة أخرى فتمزق السحب من المانيا الى بلاد الاسبان ·

★★★

ألا ما أشد أسفى على الحرية·!

اذا ما استطاعت الجموع الحاشدة ، أو الثروة الطائلة ، أو الشئون المخيبة للآمال أو الاقدار المتقلبة أن تقضى على الاحرار ·

شيلي

القسم الثالث

الديموقراطية وحكم القلة الثرية فى أمريكا

ظهر مع التصنيع ، كما رأينا ، نظامان فلسفيان كاملان تقريبا ، كلاهما متصل بنوع بذاته من السياسة التقدمية · وهذان النظامان همـا مذهب الراديكالية الفلسفية واشتراكية كارل ماركس المادية ·وتحالفت كل من هاتين المدرستين ، وخاصة الاولى ، مع نزعة التحرر السابقة على عصر التصنيع والمتصلة بالثورتين الامريكية والفرنسية فى سبيل السيطرة على الرأى العام · واقتفى جميع أصحاب الآراء التقدمية اثر جفرسن فى مسائل كثيرة مثـل الديمقراطية ومعارضة الاقطاع والتحمس للتعليم · كما قبل معظمهم مبـدأ تقرير المصير فى القومية الذى نادى به أيضا جفرسن بوضوح لاول مرة فى « اعلان الاستقلال » ·

وكان النمط الذى اتخذته سياسة القرن التاسع عشر التقدمية يتكون فى الغالب من تعاون وتفاعل بين الراديكالية الصناعية والمثل العليا الديموقراطية الخاصة بالقرن الثامن عشر والحرية الفردية والاستنارة الفكرية · وأخذ التصنيع على مر الزمن طابعا عدوانيا وثقة فى نفسه يقويان شيئا فشيئا ، وانزوى ذلك النوع من التقدمية الذى ظهر فى القرن الثامن عشر فى زوايا مهجورة · وبدل الرأسماليون ، بعد أن تحرروا من الاقطـاع ، « الحرية » بوصفها مثلا أعلى الى « المنافسة الحرة » · غير أن المنافسة الحرة تحولت بعد فترة من المغالاة التى لا ضابط لها الى احتكار على نطاق قومى ، فكانت النتيجة أن أصبحت الدولة شريكة فى المنافسة وان حلت النزعة القومية الاقتصادية محل المنافسة بين المشروعات الخاصة ·

وهكذا تختفى تحررية القرن الثـامن عشر ، التى اندمجت فيهـا الراديكالية الصناعية فى مبدأ الامر · ويتخذ رأس المال نزعة محافظة ، ويقتصر النزوع نحو التقدم شيئا فشيئا على البروليتاريا · « والحرية الفردية » التى نادى بها جفرسن مبدأ عديم الجدوى للبروليتاريا ، ويرجع ذلك الى ما اصاحب العمل من قوة اقتصادية · ويتبع ذلك أنه كلما صارت السياسة التقدميـة بروليتارية تفقد عناصرها التى ترجع الى القرن الثامن عشر · ويحل التنظيم والمساواة محل الحرية الفردية ·

١ ـ الديموقراطية فى أمريكا

الباب الاول

الديموقراطية في أمريكا

الفصل الحادي والعشرون

ديموقراطية جفرسن

كانت الولايات المتحدة خلال السنوات السبع والعشرين الاولى من كيانها بوصفها شعبا مستقلا موضع اهتمام أوروبا ، وكان أهم أسباب هذا الاهتمام أنها كانت أكمل وأهم مثل قائم للديموقراطية · وكانت الآراء حولها منقسمة عندئذ كما هي منقسمة الآن حول روسيا : فكان الاعتراف بأوجه النقص فى أمريكا يعتبر خيانة بين الراديكاليين ، والاعتراف بمزاياها خيانة بين المحافظين، ولم يقتصر ذلك على أوروبا · فقد كان الامريكيون ، باستثناء الاتحاديين فى الايام الاولى ، يشعرون بأنهم يحملون لواء التقدم · وفى ذلك يقول جفرسون عندما تقاعد فى سنة ١٨٠٩ « اننا الملاذ الوحيد لبقايا الحرية البشرية ، ومن ثم فان واجبنا نحو أنفسنا ونحو الاجيال المقبلة والجنس البشرى كله يطالبنا باسم كل دافع مقدس ونبيل أن نرعى سلامة بلادنا المحبوبة خلال الاضطرابات التى تثير بقية العالم وتزلزله » · ويشيع نفس الشعور فى خطاب لنكولن فى جتسبرج بعد ذلك بخمسة وعشرين عاما · وقد عبر والت هويتمان عن الشعور العام لدى الامريكيين بقوله :

هل وقفت الشعوب الأقدم عهدا جامدة ؟

هل وهنت قواها وانتهى درسها وقد أنهكها النصب ، هناك وراء البحار ؟

لقد حملنا الامانة الابدية والعبء والدرس ،

أيها الرواد ·· هيا أيها الرواد !

ولم تكن الديمقراطية من الناحية النظرية جديدة بأى حال من الاحوال ، وذلك على النقيض من مذاهب الاقتصاديين والاشتراكيين · فقد كان لها فى العالم الحديث مصدران ، أحدهما يونانى رومانى قديم والآخر بروتستانتى · وامتزج هذان المصدران عند مؤسسى الديموقراطية الامريكية : أما خلفاؤهم فلم يبق عندهم سوى المصدر البروتستانتى ·

ويصف «هيرودوت» فى نبذة معروفة المتآمرين من أهل فارس قبل اعتلاء داريوس العرش وهم يتناقشون فى مزايا الملكية والارستقراطية

والديموقراطية • ومما لا شك فيه أن هيرودوت يعزو الى أهل فارس مشاعر الاغريق : فقد كانت الديموقراطية فى أيامه شائعة فى اليونان باعتبارها صورة من صور الحكم • وكذلك كان الرومان يكرهون الملوك ، وأقاموا جمهورية اتجهت نحو الديموقراطية أكثر فأكثر الى أن خلفتها الامبراطورية • وأصبح رجال مثل «ابنى جراتشى» نماذج للخطابة البلاغية ، وأثنى الكتاب الرومان ، خاصة فى ظل الامبراطورية ، ثناء مستطابا على حرية الشعب • وصار بروتس وكاسيوس رمزا لها • أما دانتى الذى كان يعجب بالامبراطورية المقدسة ، فقد رآهما آثمين من أكبر الآثمين ووضعهما مع يهوذا الاسخريوطى فى فم الشيطان المثلث • الا أن الذين كانوا يبغضون الطغاة جعلوا من بروتس النموذج الاول للفضائل الديمقراطية حتى فى روما نفسها ، بل وحتى فى العصور الوسطى •

وقد أدى احياء الدراسات القديمة الى زيادة أثر اليـــونان وروما فى التفكير السياسى • ففى القرن الثامن عشر عندما كان كل الارســتفراطيين الاذكياء يعرفون اللغة اللاتينية ، وعدد كبير منهم يعرف اليونانية ، كان شىء من الادب الجمهورى يعتبر مما يتفق مع سلامة الذوق • وقد علق « هوراس وولبول » على جدار منزله نسخة من حكم الاعدام على شارل الاول وكتب تحتها « العهد الاعظم » ليظهر تفوقها على « العهد العظيم » Magna Charta المعروف فى التاريخ الانجليزى • وفى فرنسا كانت الراديكالية الفكرية مصحوبة الى حد كبـــير بالاعجاب باليونان والرومان الاقدمين ، وكانت النتيجة أن كره نابليون تاسيتوس ، ولم يكن يطيق أى أستاذ يثنى على هذا المؤلف • وفى أمريكا أيضا ترك هذا الاتجاه أثره فى الايام الاولى وان كان دائما أقل أهمية من أثر البروتستانتية • وشاهد ذلك أن المجلس التشريعى فى فيرجينيا أثنى على جفرسون فى سنة ١٨٠٩ لحبه « الرومانى » لبلاده • وانه عندما استشير فى أمر تمثـــال واشنـــنجتون نصح بأن يكون ممثـــلا له وعلى رأســـه (عباءة) رومانية • وكان القادة الاول للرأى العام فى أمريكا ، وخاصة من كان منهم من فرجينيا ، تسيطرعلى تفكيرهم وأسلوبهم الى حد كبير النمـاذج اليونانية — الرومانية القديمة •

ولعل تأثير اليونان وروما فى فرنسا قبل الثورة كان السبب الاساسى فى انتشار الآراء الديموقراطيـــة بين أولئك الذين لم تكن لهم مصلحة فى التغيير مثل الارستفراطيين الاحرار • ومع ذلك فقد كان هناك ثلاثة عوامل ذات أهمية كبرى تركت أثرها فيهم : روسو ، والفلسفة التى أخذت عن لوك ، والتجربة التى مر بها لافاييت واخوانه الضباط فى أمريكا •

والمصدر الاول لكل هذه العوامل الثلاثة هو البروتستانتية •

فقد أدت الثورة الدينية ضد البابوية فى ألمانيا وانجلترا وأمـــريكا الى

التمرد على السلطة المدنيه وتم هذا التحول بسهولة كبيرة . فقد أكد لوثر مبدأ « حق الفرد فى الحكم على الامور » وأوحى بعمله هذا بأن هناك مسائل ليس للسلطات الحق فى ارغام الفرد عليها . ولما كان لوثر قد صادق عددا من الامراء ، فانه قصر مذهبه على حق الانسان فى مقاومة السلطة الكنسيه ، ولكن كثيرا من الناس رفضوا هذا التحديد فى الهياج الذى نجم عن حركة لوثر . من ذلك أن زعماء الفلاحين الثائرين فى سنة ١٥٢٥ طالبوا بوجوب الغاء رق الارض « لأن المسيح افتدانا جميعا بدمه الغالى ، الراعى والنبيل ، أحقرنا وأجلنا ، ولم يستثن أحدا » . وقد أخمدت ثورة الفلاحين ، واشترك لوثر فى اخمادها بقسوة لا يكاد يصدقها الانسان . ولكن الحركة استمرت ونمت على أيدى اللامعمدانيين الذين ساروا بها الى خاتمتها الطبيعية - الشيوعيـــة الفوضوية ، وهى نفس المذهب الذى عارض به باكونين وكربوتكين مذهب ماركس . وبعد القضاء على اللامعمدانيين فى أوروبا انتقل مذهبهم الى انجلترا حيث أصبح الاساس الذى قامت عليـــه حركة الكويكريين . وقد أوضح « وينستانلى » زعيم الحفارين (×) أنهم ليسوا فى حاجة الى حكومة لأنهم يملكون أموالهم مشاعة بينهم . وعلى الرغم من أن كرمويل لم يكن يقبل هذه المبادىء ، كما لم يقبلها شارل الاول ، فان جيش القديسين المظفر التابع له كان ديموقراطيا من الناحية النظرية . وأضيف الى الديموقراطية كما فهمها القدامى مبدأ جديد هو مبدأ الحرية الشخصية . وبينما قامت المساواة على العقيدة القائلة بأن المسيح مات فى سبيل الجميع ، فان الحرية نشأت من حق الفرد فى أن يحكم بنفسه على الامور . ولما كانت الحرية تصل الى الفوضى اذا دفعت الى خاتمتها المنطقية ، فانه كان على رجال السياســـة البروتستانيين أن يجدوا طريقة تجعلها تتفق ووجود الحكومة . وبدا لهم أن خير طريقة هى مزيج من الديموقراطية ومذهب فى حقوق الانسان يضع حدودا لا يتعداها تدخل الحكومة فى الشئون الخاصة لكل انسان . وهكذا كانت الديموقراطية البروتستانتية فى نفس الوقت نظرية فى الحكم ونظرية فى حدود ســـلطان الحكومة .

وحمل جيش كرمويل مبادئه ، عن طريق الهجرة ، الى نيو انجلاند ، فهم وان لم يسيطروا على الحكومة المحلية هناك فعلا ، كانوا على الاقل النواة التى أدت بالتدريج الى قيام نظام ديموقراطى . وفى انجلترا استمر معارضو آل ستيوارت الذين أعيدوا الى الحكم يبشرون بالحرية الطبيعيه . ويبـــدو أن هؤلاء الرجال ، وخصوصا « آلجرنون سيدنى » ، كان لهم تأثير كبير فى جفرسون (×) . وكذلك كان لوك بطبيعة الحال ، وكان تأثيره يمثل ما بقى من تفكير سليم من عهد الثورة بعد أن استقرت أحوال انجلترا بعد سنة

(×) « حركة الحفارين فى عهد الكومنولث » تاليف لويس بيرنز سنة ١٩٠٦ .
(×) انظر كتاب ف. و. هيرست « حياة جونسون وخطاباته » ص ٩ - ٥٠٨

١٦٨٨ . ويبدو أن روسو لم يكن له أى تأثير ذو قيمة فى زعماء الثــورة الامريكية .

وهكذا كانت ديمقراطية جفرسون تقوم على أساسين . فمن ناحية ، يجب أن يكون الحكم ديموقراطيا ، ومن ناحية أخرى يجب ألا يكون هنــاك الا أقل قدر ممكن من الحكم . وحيث يكون العمل المشترك ضروريا يجب أن تسود ارادة الاغلبية ، ولكن لكل فرد حقوقا طبيعية معينة لا يمكن حرمانه منها وينبغى على الحكومة ألا تدخل فيها .

ويستحق جفرسون أن يعتبر مؤسس الديموقراطية الامريكية لثـلاثة أسباب : الاول أنه هو الذى وضع « اعلان الاستقلال » ، والثانى أنه كان زعيم الحزب الجمهورى ومنشئه الى حد كبير ، وهو الحزب الذى هزم الاتحاديين الذين كانوا مناهضين للديموقراطية ، والثالث أنه كان أول رئيس جمهورية آمن بالديموقراطية وعمل على اقامتها .

وقد كان جفرسون ديموقراطيا للشعب وليس من الشعب . فقــد ارتفع أبوه بمجهوده الشخصى ولكن أمه ، وهى من أسرة راندولف ، كانت تنتمى الى احدى كبريات الاسر فى فرجينيا . وخالط هو نفسه منــذ صباه المبكر أبناء أصحاب المزارع الاثرياء وتمتع بالحياة الرغدة المستقلة التى يتمتع بها أصحاب الاراضى . لقد كان ينتمى بطبيعة نشــأته الى الطبقة الحاكمة فى فيرجينيا ، وصار من قضاة الاخطاط فى سن الحادية والعشرين ، وعضوا فى مجلس المواطنين الاحرار سنة ١٧٦٩ وهو فى السادسة والعشرين . وعندما شرع فى الزواج طلب من انجلترا « بيانو » وعدة جوارب وقطعا عديدة من الملابس الفاخرة . وعلى الرغم من أنه كان سيدا مهذبا بكل ما تحمله هذه الكلمة من معان فان احتقاره للفوارق الاجتماعية كان حقيقيا وأصيلا فى نفسه وساعده على أن يتجنب طوال الثورة الفرنسية ذلك الشعور العاطفى المزيف الذى طبعه « بيرك » فى أخيلة الناس . فنراه يأمل فى سنة ١٧٩٤ أن « يحمل الفرنسيون فى النهاية الملوك والنبلاء والقساوسة الى المقصلة التى ظلوا أمدا طويلا يغرقونها بالدماء البشرية » . وقد حمل الجمعية العامة فى فيرجينيا سنة ١٧٧٧ أثناء حرب الاستقلال على الغاء الوقف وحق الابن البكر وحــده فى الميراث ، وهما النظامان اللذان ساعدا على ابقاء طبقة أرستقراطية من ملاك الاراضى تبلغ فى أهميتها ما بلغته الطبقة المماثلة لها فى انجلترا . وكتب تكر ، مترجم حياة جفرسون ، فى سنة ١٨٣٧ موضحا الاثر الذى أحدثته اجراءات جفرسون هذه يقول : « لقد كان هناك (فى فيرجينيا) قبل الثورة عدد من العربات التى يجرها أربع جياد قدر ما يوجد منها الآن مرتين أو ثلاث مرات ، الا أن عدد العربات التى يجرها جوادان قد يكون الآن عشرة أمثال ما كانت عليه فى الفترة السابقة أو عشرين مثلا » . فاذا كان ذلك دليلا على الديموقراطية ، فهى ديموقراطية ليست من النوع الثورى جدا .

وكان جفرسون منهمكا تماما قبل حرب الاستقلال فى النزاع مع انجلترا، وفى أثناء القتال كان فى مبدأ الامر عضوا فى مجلس الامة ثم عضـــوا فى الجمعية العامة الفرجينية حيث عمل على اعادة النظر فى القوانين بصورة عامة ، وانتقل بها طفرة من حالها التى كانت عليها فى العصور الوسطى الى مفهومات « بكاريا » الحديثة ، فألغى عقوبة الاعدام الا فى حالتى القتل العمد والخيانة العظمى ، كما ألغى تدخل الكنيسة فى الحكم ، وقرر مبدأ الحرية الدينيـة الكاملة • (كانت كل الاديان عدا المذهب الاسقفى موضع اضطهاد فى فيرجينيا حتى ذلك العهد) • وحاول عبثا أن يحقق الغاء الرق بالتدريج فعرض مشروع قانون ينص على أن كل الارقاء الذين يولدون بعد صدوره يصبحون أحرارا • وفى سنة ١٧٧٩ انتخب حاكما لفيرجينيا • ومن سنة ١٧٨٤ الى سنة ١٧٨٩ كان وزيرا مفوضا لدى فرنسا • وعند عودته عين وزيرا للخارجية وظل فى هذا المنصب حتى آخر يوم من سنة ١٧٩٤ • وفى سنة ١٧٩٧ صار نائبـا لرئيس الجمهورية ثم رئيسا لها من سنة ١٨٠١ الى سنة ١٨٠٩ وكان قد بلغ السادسة والستين من عمره تقريبا •

وقد يظن المرء من هذه الصورة العامة لتاريخ حياة جفرسون الوظيفية انه لم يكن لديه متسع من الوقت لأى شىء آخر عدا السياسة • بيد أن حبه لبيته فى مونتبسلو واهتمامه بالعمارة وحبه الشديد للاطلاع على كل ما هو علمى كانت جميعها تحتل من نفسه مركزا مهما يماثل طموحه السياسى على الاقل ، وجعلته يغتبط حقيقة بفترات الراحة والتقاعد التى مرت به • وتصور لنا « مذكرات عن فيرجينيا » التى كتبها عام ١٧٨٢ مباشرة عقب نجـــاته بشق النفس من الانجليز الذين كانوا على وشك أن يأسروه فى منزله ، وتنكر زملائه فى المجلس التشريعى له فى هذه الفترة ، اتساع نطاق مجالات اهتمامه • وقد كتب هذه المذكرات استجابة لطلب رجل فرنسى اسمه « دى ماربوا » الذى لابد دهش من سيل المعلومات الذى تدفق عليه • فقد سأله مثلا عن الانهار فكتب له جيفرسون الحقائق الأساسية المتعلقة بخمسة وثلاثين نهرا مندفعا فى حماسة شديدة من وقت لآخر كأن يقول مثلا : « ان الاهيو أجمل نهـــر على وجه البسيطة فتياراته هادئة ومياهه صافية ومجراه منبسط لا تعوقه صخور أو منحدرات سريعة باستثناء مكان واحـــد » ويتضمن الكتاب معلومات عن الجبال والشلالات والكهوف والنباتات البـــرية والحيوانات مدونة فى تفصيل ودقة بقلم رجل جاب الولاية على ظهر جواد من الشرق الى الغرب ومن الشمال الى الجنوب ولاحظ كل شىء بعناية •

وهو لايكتب كما يكتب رجل العلم النزيه فحسب ، بل يكتب أيضا كما يكتب الوطنى المتحمس • فقد حدث أن جرؤ بافون العـــالم الطبيعى المعروف على أن يقول ان حيوانات العالم الجديد أصغر أجساما من حيوانات العالم القديم وأن فى أمريكا « يقل نشاط الطبيعة وقوتها كثيرا عن العـــالم

القديم » . ولم يكن ذلك مما يطيقه جفرسون . فكتب ثلاث صفحات بالخط الصغير ملئت بيانات مقارنة عن وزن الحيوانات فى أمريكا وأوروبا مبتدئا بالجاموس البرى الذى يزن عدة أمثال أى من حيوانات قارة مستر بافـــون العقيمة . ولم يكن هذا كل شيء : فاذا كان مستر بافون يستطيع أن يتحمل وزن الجاموس البرى فانه سينوء بحمل الماموث الذى توجد عظامه فى أهيو . بل وأكثر من ذلك ، أن بعض الهنود الذين زاروا جفرسون لبعض الشئون عندما كان حاكما أكدوا له أن الماموث لم يزل يعيش فى الشمال الغربى . وفضلا عن شهادتهم ، فان وجوده يتفق ونظام الطبيعة ، ذلك أنه لم يثبت مرة أن الطبيعة سمحت بانقراض أى من سلالات حيواناتها . وأصبح استمرار وجود الماموث على قيد الحياة فى الارض الامريكية قضية آمن بها جفرسون طوال حياته ، بل انها صارت عنصرا من عناصر الحملات السياسية . ولم يكن رأيه غريبا . لقد حدث أن رأيه لم يكن مصيبا ، ولكنه كان من الممكن أن يكون صحيحا ، كما أنه لم يكن قطعا أكثر بعدا عن العلم من رأى مسيو بافـون الشهير .

وكان جفرسون مهندسا معماريا ناجحا يمتاز بالاصالة . فقد كان أحد الرواد فى تكييف الانماط القديمة للظروف الامريكية . أن مونتيسلو وجامعة فرجينيا صرحان جميلان وكلاهما من تصميمه .

وقد تحلى جفرسون بكل ما يستحق الاعجاب فى ثقافة القرن الثامن عشر دون أن يكون فيه ذلك الطابع من الضيق والركود الذى جعل هـــذا القرن غير محبب للنفوس . وقد طفرت المدنية الامريكية فى الشمال من نسق القرن السابع عشر الى التاسع عشر فجأة ، ومن ثم فاتها ذلك العنصر الملطف . ومن سوء الحظ أن تأثير جفرسون فى مسائل الثقافة كان ضـــعيفا لا يكاد يستحق الذكر ، على الرغم من أن تأثيره السياسى كان عظيما فعلا . وحتى ذلك التأثير الثقافى الضعيف لم يكن له وجود الا فى الجنوب حيث طمست الحرب الاهلية معالمه . لقد خسرت أمريكا الشيء الكثير بفقدها تلك السمة من سمات القرن الثامن عشر .

وقد أوضح جفرسون فلسفته السياسية بعبـــارة محكمة قوية فى « اعلان الاستقلال » . وقد صارت ألفاظ هـذا الاعلان معروفة ، على الأقل لدى الامريكيين ، الى حد أصبحت معه لا تحمل أى معنى . ومع ذلك فانى أرجو القارىء أن يسمح لى بتحليل موجز للفقرة العظيمة الاهمية من فقراته :

« أن نرى هذه الحقائق واضحة بنفسها لا تحتاج الى دليل : ان الناس جميعا خلقوا أكفاء ، وأن خالقهم منحهم حقوقا لا يمكن أن تنتزع منهم ، وأن من بين هذه الحقوق حق الحياة والحرية وطلب السعادة ، وأنه أنشئت الحكومات

بين الناس لضمان هذه الحقوق ، وأنها تستمد سلطتها العادلة من رضاء المحكومين وأنه اذا أصبحت أية صورة من صور الحكم عاملا يقضى على هذه الغايات فان من حق الناس أن يغيروها أو يلغوها » .

وهو عندما يقول أن هذه الحقائق « واضحة بنفسها » فانه يعنى بالضبط ما يقول : أنه يعنى أنها معروفة في ضوء الطبيعة الذى كان أكثر سناء فى القرن الثامن عشر منه فى هذه الايام . وقد اعتمد أيضا على ضوء الطبيعة فيما يتعلق بقواعد الاخلاق الشخصية . فقد ذكر فى أخريات حياته فى خطاب الى القاضى جونسون من كارولينا الجنوبية يوضح فيه تصرفاته السياسية السابقة ، ان حزبه كان يعتقد « أن الانسان عاقل ، منحته الطبيعة حقوقا واحساسا داخليا بالعدالة » . وفى سنة ١٨١٥ قال فى خطاب أرسله لآدمز ، « أن الاحساس الخلقى هو جزء من تكويننا مثل الشعور أو البصر أو السمع بالقدر الذى رأى الخالق الحكيم أنه ضرورى لحيوان قدر عليه أن يعيش فى مجتمع » . ويضيف ، « أن كل عقل ليحس بالسرور فى فعل الخير لغيره » وأن «جوهر الفضيلة هو فى فعل الخير للآخرين» .

وايمانه بالاحساس الخلقى بطبيعة الانسان الفطرية هو الذى تقوم عليه أسس مذهبه التحررى . فاذا عرف كل انسان عن طريق ضميره ما هو الصواب ، واذا كان الصواب هو ما فيه الخير للآخرين ، فان تحقيق السعادة العامة لا يتطلب الا أن يطيع كل فرد ما يمليه عليه ضميره . هذا وكان جفرسون يعتقد أن معظم الناس سيعملون بوجه عام ما تمليه عليهم ضمائرهم اذا لم توجد الانظمة التى تفسد الناس وزالت آثار الطغيان التى تحط من شأنهم . وقد يكون القانون ضروريا بالنسبة لفئة قليلة ، ولكن الحرية أساسا هى ما يتطلبه تحقيق السعادة العامة .

ولا تكاد تكون هناك ضرورة لاثبات خطأ هذه الفلسفة لجيل عاش خلال الحرب العظمى ومعاهدة فرساى واضطهاد اليهود وكبار الملاك (الكولاك) فى روسيا ، كل هذا باسم أسمى المثل الاخلاقية العليا . وأجدى علينا أن ندرس مبادىء جفرسون من الناحية العملية فى ضوء النتائج التى كان يقصد أن تسفر عنها والتى كان يحتمل أن تسفر عنها . واذا سلمنا بأن التدخل فى الحرية قد يكون أحيانا مما لا يمكن تجنبه ، فان ذلك لا يستتبع أنه دائما محمود . فقد حدث كثيرا ، وحدث فى أوروبا أيام جفرسون ، أن حرمت الحكومات أعمالا تهدف للخير وفرضت أشياء كثيرة مضرة . فوضعت العراقيل فى سبيل التجارة ودفعت الناس الى الحرب ،وقيدت حرية الفكر وشجعت التعصب . وكانت العقوبة على الاعمال التى يجمع الكل على أنها غير مرغوب فيها مثل السرقة قاسية الى حد تصبح معه شرا أكبر من ذلك الذى تحاول علاجه . وكانت الضرورة الاولى فى مثل هذا العالم هى التخلص من النشاط الحكومى الموجه توجيها سيئا . ولتحقيق هذا الغرض ، كانت أية فلسفة متطرفة بعض الشىء

فى الحرية أداة مفيدة · وقد يكون عدم التدخل بوصفه نظرية من النظريات مما لايمكن الدفاع ، ولكنها باعتبارها قوة سياسية ، كانت بلا شك نافعة فى أيام جفرسون ·

وقد يسر على الديموقراطية أمرها فى أمريكا اتساع المجال أمامها · فالذين لا يحبون المدن المزدحمة كانوا يستطيعون الانتقال غربا ، والذين لديهم ميول اجرامية كانوا يستطيعون قتال الهنود أو المكسيكيين · وكان تصور جفرسون للديموقراطية زراعيا ، فكان يخشى نمو المدن الكبيرة ، ويرجع الى ذلك بعض السبب فى أنه كان يعارض فرض الضرائب الجمركية على المصنوعات (×) · وكانت الغالبية العظمى فى حزبه من أصحاب الاراضى الذين لايحبون رأسمالية المدن · وقد ظلت السياسة التقدمية فى أمريكا أساسا زراعية من عهد جفرسون حتى يومنا هذا ، ويرجع ذلك غالبا الى أن نوع المبادىء التحررية عنده لم يكن فيه ما يفيد الاجير الصناعى · وحتى أقل أصحاب الاراضى شأنا يكونون فى بلد نام متفوقين من الناحية الاجتماعية والاقتصادية على جمهرة السكان · فهم قد يكرهون رأس المال فى صورة المصارف المالية ، بل أن هذا هو المحتمل ، ولكنهم يقفون الى جانب رأس المال ضد الاجراء · وقد جعل ذلك من العسير على أمريكا أن تنمى أى نوع حديث من الاحزاب السياسية التقدمية ، كما جعل أولئك الذين أطلق عليهم تقدميين بالاسم غير متحمسين فى دعوتهم حتى ليصعب على المرء أن يعرف هل رجل مثل و · ج · برايان يمكن اعتباره راديكاليا أو أنه كان آخر المدافعين المستميتين عن صور من الفكر والنشاط عفا عليها الزمن · الا أن المستقبل كان فى عهد جفرسون مازال مزدهرا أمام صغار الملاك ·

وهناك صعوبة أخرى فى فلسفة جفرسون أصبحت مع الوقت عسيرة الحل ، وهى تلك التى تتعلق بحق تقرير المصير · فاعلان الاستقلال يقرر أنه عندما تصبح أية حكومة عاملا يقضى على « الحياة والحرية وطلب السعادة » يحق للشعب أن يغيرها أو يلغيها · وتوحى الظروف بأن الشعب الذى يهمه الامر هو نفسه الذى يفصل فى هذه المسألة ، وليس هناك من وسيلة لتحديد أى الجماعات أو الاشخاص يتكون منهم الشعب ·· فالجنوب مثلا كان يستطيع دون تجن ، أن يعتمد على مبادىء اعلان الاستقلال لتبرير الانفصال · وواضح بطبيعة الحال أن هناك حالات يجب أن يتراجع فيها تقرير المصير أمام المصالح العليا لبنى الانسان · انه ليكون من السخف أن تترك قناة السويس وقناة بنما للسيطرة التى لا ضابط لها لسكان الاراضى التى تمران بها (×) · ان

(×) الأصول الاقتصادية للديموقراطية الجفرسونية — تشارلز «ا» بيرد

(× ×) لقد غير المؤلف رايه هذا كثيرا بمناسبة الاعتداء الثلاثى على مصر فى سنة ١٩٥٦ ، وحتى اذا لم يغيره فان قوله هذا لا يؤخذ على أنها قضية مسلم بها ، فهو يخطىء كما يخطىء غيره من الناس · ويلاحظ هنا انه يقول السيطرة التى لا ضابط لها ، ولم تقل مصر فى يوم من الايام أن سيطرتها على القناة لن يكون لها ضابط ، ومن اجل هذا وضعت هى الضوابط التى تحقق مقتضيات استعمال القناة فيما أعدت له

تقرير المصير يجب اخضاعه للمحك النهائي للصالح العام ، ولا يمكن القول بأنه حق طبيعي مطلق من كل قيد • فكلما تقدم العالم فى سبيل الوحدة ، عن طريق التقدم الفني ، أصبح السماح بالاستقلال المطلق الذى يؤدى الى وجود أمم منفصلة كل منها عن الاخرى عقبة تزداد ضخامة فى سبيل التقدم • ذلك أن الشعوب كالافراد يتعين عليها أن تتعلم الخضوع لنوع من الحكم • ولهذا أصبحت الفلسفة التحررية ، فى هذا الموضوع ، كما هى فى موضوعات أخرى غيره ، تنزع الى الفوضى أكثر مما يتفق وحاجات العلم الحديث •

ولم يكن دستور الولايات المتحدة ، على خلاف اعلان الاستقلال ، من وضع جفرسون ، لأنه كان فى فرنسا عندما وضع وأقر • وطبيعى أنه كان لابد من الاتفاق على وضع دستور ما ، غير أن أنشط العناصر فى الدعوة له كانت هى التى عارضها جفرسون سياسيا فيما بعد • ويحلل شارلز أ• بيرد فى كتاب خليق بالاعجاب (×) ، الدوافع الاقتصادية التى كانت تحدو أولئك الذين وضعوا الدستور وكانوا السبب فى اقراره • وقد جاء الدافع اليه أساسا من أصحاب الملكية الخاصة ، وخصوصا أصحاب الدين الاتحادى وديون الولايات • وكانت لدى هؤلاء رغبة متعمدة فى الهزيمة الديمقراطية ، نراهامثلا فى السلطات الممنوحة للمحكمة العليا وفى المادة الخاصة بضمان قداسة العقود •

وان بعض آراء بيرد لجديرة بالذكر هنا :

« ان الحركة التى أدت الى وضع الدستور الامريكى قد ابتدأها وقام بها أساسا أربع جماعات من ذوى المصالح المتعلقة بالملكية الخاصة ، وهى جماعات أخذت بمصالحها مواد الاتحاد : المال وسندات الدين العام ، والمنتجات الصناعية ، والتجارة ، والنقل البحرى » •

« وكان أعضاء مؤتمر فيلادلفيا الذى وضع مشروع الدستور ، ما عدا فئة قليلة منهم ، ذوى مصالح شخصية مباشرة عاجلة ، وكانوا يستمدون مزايا اقتصادية من النظام الجديد » •

« ان الدستور هو أساسا وثيقة اقتصادية تقوم على الرأى القائل بأن حقوق الملكية الخاصة الاساسية مقدمة على الحكم وأنها ، من الناحية المعنوية ، بعيدة عن متناول الغالبية الشعبية » •

وسنرى أنه لم يكن فى فلسفة الدستور شىء مما يصح لجفرسون أن يعترض عليه وان كانت الجماعات التى وضعته لم تكن ممن يوجه اليها جفرسون اهتماما خاصا ، فقد كان هو أيضا يؤمن بأن الحقوق الخاصة مقدمة على الحكومة، ولم يكن بلا ريب معاديا للملكية بوصفها هذا ، كما أنه لم يعترض على الدستور

(×) تفسير اقتصادى لدستور الولايات المتحدة ١٩٢٥ •

الا من حيث خلوه من اعلان للحقوق ، وهى رغبة حققت فيما بعد · ومع ذلك فان اقرار الدستور كان الخطوة الاولى فى بناء القوة السياسية لحكم القلة ذات المال التى جعلت ديموقراطية جفرسون طرازا باليا ·

وبدىء فى مجلس الامة الاول الذى انتخب فى ظل الدستور فى استعمال أداة الديموقراطية بمهارة لجعل الاغنياء أكثر ثراء · ذلك أن حكومه الولايات المتحدة وحكومات الولايات المختلفة كانت قد استدانت المال ابان الحرب ، وكثيرا ما كانت تعد الجنود بدفع مرتباتهم ولا تفى بوعودها · وانخفضت هذه الديون الى جزء صغير من قيمتها الاسمية لأنه كان يشك كثيرا فى أنها سترد · لكن مجلس الامة قرر دفع هذه الديون بقيمتها الاسمية · ولم تتخذ أيه احتياطات للحيلولة دون وصول أخبار هذه النية مقدما لذوى المصلحة فى هذه الديون · وكانت النتيجة أن اشترى المضاربون الاغنياء الديون من الضباط المتقاعدين الذين كانوا يعيشون فى الريف والذين لم يكـــونوا قد عرفوا بعد ماذا يحدث فى المجلس · وحدثت ضروب من الفساد استفاد منها رجال الاعمال المهرة الذين لم يشترك معظمهم فى الحرب ، على حساب الجنود القدامى وغيرهم من السذج · وأثارت هذه الاعمال غضبا شديدا ولكنه كان أضعف من أن يؤثر فى مجرى الحوادث ·

وكان المحرك الاول فى هذه العمليات وزير المالية اسكندر هاملتون ، وهو رجل من أقدر الرجال الذين عرفوا فى التاريخ وأهمهم · وليس ثمــة دليل على أنه هو نفسه كان فاسدا مرتشيا ، بل انه فى الواقع ترك الوزارة فقيرا · ولكنه شجع الفساد عامدا ، لأنه كان يرى أنه بذلك يمنح الاغنيــاء حقهم من النفوذ · وكان يدافع دون مصلحه خاصة له عما كان يدافع عنه غيره تحدوهم مصالحهم الخاصة · فكان مثلا يدافع عن نمو الصناعة لانه كان يعتقد أن استخدام الاطفال فيها أمر سليم ، فهو يقول : « ان النساء والاطفـــال يصبحون أكثر نفعا ، ويكون الانتفاع بالاطفــال مبكرا ، عنـدما تستخدمهم المؤسسات الصناعية · ويقدر عدد من يعملون من النساء والاطفال فى الصناعات القطنية فى بريطانيا العظمى بأربعة أسباع مجموع من يعملون فيها تقريبا ، والغالبية العظمى بينهم من الاطفال ، وكثير من هؤلاء فى سن غضة » · وكان يكره الديموقراطية ويعجب بانجلترا · وعمل طول حياته العملية لان يجعل امريكا تشبه انجلترا · وكان يأمل فى أن تتحول طبقة الاغنياء الى طبقــة أرستقراطية ، وكان قوى الاعتقاد بأن الفساد هو خير وسيلة لجعل حكم الاغنياء يسود على الديموقراطية ·

ولم يكن هاملتون ، على خلاف جفرسون ، أمريكيا ولا أرستقراطيا : فقد كان الابن غير الشرعى لتاجر اسكتلندى وفتاة من الهند الغربية الفرنسية · وفى جزيرة سان كيتس ، حيث أمضى صباه ، قرأ بلوتارخ وحلم بالشـــهرة · وكتب وهو صبى فى أوائل عقده الثانى وصفا لعاصفة لاقى ترحيبا كبيرا :

« ان وصف العاصفة هو الذى قرر مستقبله . فقد كان الحلم الذى يراوده أن يرتفع عن طريق السيف ، ولكن قلمه هو الذى جمع حوله الاصدقاء الذين دبروا المال لارساله الى أمريكا لتعليمه . وقد ظل طوال حياته يتطلع الى المجد عن طريق السيف وهو لا يدرى أنه يكسب الخلود عن طريق قلمه » (×) . وكان عمره عندما بدأت حرب الاستقلال تسعة عشر عاما ، وحاول جاهدا أن يحصل على فرصة يبرز فيها عسكريا ، غير أن تاريخه العسكرى لم يكن ممتازا وان كان مشرفا . ولم تظهر عبقريته الا فى ميادين السياسة والمال والصحافة .

وقد طالب فى الاجتماع الذى تم لوضع الدستور بأن يكون اختيار رئيس الجمهورية وأعضاء مجلس الشيوخ مدى الحياة ، وأن يعين رئيس الجمهورية حكام الولايات الذين ينبغى أن يكون لهم حق الاعتراض على المجالس التشريعية فى الولايات ورابطا لها . وكان يفضل قيام حكومة ملكية سافرة ، وظل يأمل فى تحقيقها مدة طويلة . وعلى الرغم من أن الدستور لم يجىء كما يشتهى ، فانه تبين ما فيه من امكانيات وبدأ يعمل لاستغلالها الى أقصى حد . وصار زعيم الاتحاديين وحقق الكثير عن طريق تفسير سلطات الحكومة الاتحادية تفسيرا واسعا . فاستعمل التعريفة الجمركية لتشجيع المصنوعات وعمل على ادماج رأس المال التجارى والصناعى والدوائر المالية ، وبذلك أقام حزبا سيطر على أمريكا باستثناء ما يتعلق بالسياسة الخارجية الى حدما من سنة ١٧٨٩ الى سنة ١٨٠١ التى تولى جفرسون فيها الرياسة .

ومن سنة ١٧٩٠ الى سنة ١٧٩٤ كان كل من هاملتون وجفرسون عضوين فى مجلس الوزراء فى واشنجتون . ولم يدرك جفرسون فى مبدأ الامر عندما عاد من فرنسا اتجاه سياسة هاملتون وساعده فى أن تتولى الحكومة أداء ديون الولايات بقيمتها الاسمية ، وهو عمل ندم عليه فيما بعد . ولم يطل الامر حتى ثار العداء المرير بين جفرسون وهاملتون وأصبحا زعيمى حزبين متعاديين أشد العداء . ولم يكن ثمة رجلان آخران يمكن أن يكونا متعارضين فكريا مثلهما . فقد كان جفرسون يناصر الديموقراطية والزراعة ، وكان هاملتون يمثل الارستقراطية وثراء المدن . واعتقد جفرسون ، الذى كان طوال حياته نابها ثريا ، ان الناس بطبيعتهم فضلاء . أما هاملتون ، الذى كافح من قبل ضد الفقر وما فى مولده من شذوذ ، فكان يعتقد أن الناس أساسا فاسدون وأنه لايمكن اجبارهم على القيام بعمل نافع الا بضغط من الحكومة . وكان جفرسون الآمن على مستقبله فى ضياعه وبين أصدقائه المثقفين يؤمن برجل الشارع ، أما هاملتون الذى يعرف من هو رجل الشارع فكان يسعى لصحبة البارزين فى المجتمع . وكان جفرسون ذا مصالح متعددة كثيرة تضفى عليه السعادة وتجعله رجلا غير طموح متسامحا ذا روح عالية فى كل حملاته

(×) كلودج باورز « جفرسون وهاملتون » ص ٢٤ سنة ١٩٢٩ .

السياسية . أما هاملتون ، الذى كانت خيلاؤه تتطلب الثقةالتى يبعثها النجاح فى النفس ، فكان دنيئا فى عداواته لا يرعى ذمة أو ضميرا فى نقاشه . وقد نجح كلاهما الى حد ما ، وفشلا الى حد ما : فقد جعل جفرسون أمريكا موطنا للديمقراطية وجعلها هاملتون موطنا لأصحاب الملايين .

وكان النجاح فى السياسة من حظ جفرسون وفى الاقتصاد من نصيب هاملتون . فلم يلبث حزب هاملتون أن تفتت ، وكان أهم أسباب تفتته أنه فقد اتزانه ، ولكن الحزب ما كان يستطيع أن يسيطر على الحكومة مدة أطول مما فعل مهما بلغت قيادته من المهارة . ذلك أن توسع أمريكا نحو الغرب أدى الى زيادة عدد أصحاب الاصوات الذين كانوا يؤمنــون بديموقراطية جفرسون ، وكذلك فعل المهاجرون الاجانب ، وخاصة الايرلنديين ، لأن هاملتون وحزبه كانوا من أنصار انجلترا . وساعدت التطورات التالية التى أدت الى اتساع الرقعة المخصصة للزراعة على تمكين قبضة الديموقراطية على السياسة الامريكية . وكانت محاولات هاملتون من الناحية السياسية سرابا لم يتحقق .

الا أن تاريخ سياسته كان مختلفا كل الاختلاف اذا نظرنا اليه من الناحية الاقتصادية . فقد تمتعت الصناعة الامريكية فى مبدأ الامر بقدر متزايد من الحماية لأسباب مختلفة ، وكانت هذه فى مبدأ الامر أسبابا عارضة الى حد ما ، ولما كانت الحماية الجمركية كثيرا ما تلعب دورا فى الانتخابات ، فان أصحاب الاعمال والعمال فى الصناعة كانت مصلحتهم الاقتصادية واحدة . ومن ثم لم يكن هناك سوى قدر ضئيل من السياسة البروليتارية على الرغم من بعض الحركات المتفرقة فى العقد الرابع من القرن الثامن عشر ، وظلت المنـــاطق الصناعية تميل بكتلتها الى اتجاه محافظ . ووجد الفساد الذى أدخله هاملتون عامدا فى الدوائر السياسية فرصا أخذت فى الازدياد مع نمو الغرب ، أولا فيما يتعلق بتوزيع الاراضى الجديدة ، وبعد ذلك فى تمويل السكك الحديدية . وقد فشل الغرب باستمرار فى كفاحه ضد الرأسمال الشرقى ، ويرجــع بعض السبب فى ذلك الى الفساد وبعضه الى عدم قدرة الغرب على وضع برنامج منظم . وقد كانت معتقدات المزارع الغربى ، مثل دستور بلاده ، تمنعه من الاعتداء على حقوق الملكية الخاصة ، وهذه الحقوق بالذات هى التى أكدت خضوعه للمصارف المالية . وأصبح ثراء الاغنياء فى أمريكا يزداد بصورة لم تعرف من قبل ، واكتسب هؤلاء الاغنياء سلطة تزيد كثيرا عما كان يتمتع به الملوك فى العهود الغابرة .

ان ديموقراطية جفرسون الزراعية تستطيع النجاح فى بلد مثل الدنمرك التى لا تهيىء الا فرصا ضعيفة للنمو الرأسمالى على نطاق واسع . أما فى اقاليم شاسعة مثل الولايات المتحدة حيث يعتمد الزراعيون أساسا على السكك

الحديدية ، فلا أمل للنزعة الحرة الزراعية فى أن تصيب نجاحا · ان السيطرة على قوى الرأسمالية الحديثة الضخمة غير ممكنة عن طريق فردية سمحة تتمتع بحرية واسعة · وجفرسون ، حين ربط التقـدم الامريكى عن غير قصد ، بهذه الفلسفة غير المناسبة جعل انتصار اقتصاديات هاملتون أكثر شمولا مما كان يستلزمه الحال ·

وقد سيطرت الفلسفة التى كان هذان الرجلان دعامتيها على الحيـــاة الامريكية حتى سنة ١٩٣٣ ·

٢ ـ استعمار الغرب

الفصل الثاني والعشرون

استعمار الغرب

يرجع السبب فى تفاؤل القرن التاسع عشر الى ما حدث من تقدم جد سريع فى الرخاء المادى . وهذا التقدم نفسه يرجع الى عاملين متصلين أحدهما بالآخر وهما حصول التصنيع على أسواق جديدة باستمرار ، والتوسع المستمر فى زراعة الاراضى البكر . ولما كان كوكبنا محدودا فى حجمه فان هذه العملية لا يمكن أن تستمر الى غير نهاية . ولكن الاجزاء الغربية من الولايات المتحدة والممتلكات البريطانية المستقلة والدول الجنوبية من أمريكا الجنوبية هيأت ميدانا للتوسع بلغ من الضخامة حدا جعل الامر يبدو كان لا حاجة للتفكير في المستقبل البعيد عندما تكون كل المساحات الحالية قد احتلت .

وتم غزو الغرب فى الولايات المتحدة على أيدى رجال كانوا يؤمنون بديموقراطية جفرسون وأقاموا حكومات ديموقراطية حيثما وجد عدد كاف من السكان الزراعيين . وكان السكان الزراع الذين تكاثروا فى أمريكا يختلفون كل الاختلاف عما عرف من قبل فى تاريخ البشرية من نواح كثيرة . فقد كان تقسيم السكان فى أوروبا الى سادة اقطاعيين ورقيق أرض قد وجد طريقه الى كل بقعة ، وكان لا يزال قائما فى روسيا وبولندا والنمسا والمجر وبعض أجزاء ألمانيا . وكان العامل الزراعى ، حتى فى الاماكن التى تحرر فيها من رق الارض ، مقيدا من الناحية العملية الى قطعة معينة من الارض أو على الاقل لمنطقة بذاتها . ولم يكن العمال الزراعيون فى ذلك العهد من أصحاب المبادأة فنيا أو سياسيا . وحتى فى فرنسا حيث جعلت الثورة العامل الزراعى مالكا لارضه ، كان ذانزعة محافظة شديدة تحت تأثير الكنيسة . وكان المستعمرون الزراعيون فى أمريكا من المهاجرين الذين تحدوهم روح المغامرة ويتطلعون الى التحسينات الفنية فى طرق الانتاج ، ويستمدون من حكمهم أنفسهم ومن الحياة القاسية التى يحيونها احتراما لأنفسهم وثقة فيها جعلتهم لا يستطيعون النظر الى غيرهم على أنهم أرقىمنهم اجتماعيا . وكانت الديمقراطية فى جميع أنحاء الغرب منتصرة معتدة بنفسها ، على استعداد لتحدى العالم كله ، كما جعلها نجاحها المادى العجيب تزداد اقتناعا بأنها على صواب .

وكانت المرحلة الاولى فىالاستيلاء على الغرب الواقع خلف جبلا «الجانى» مسألة حرب ودبلوماسية . ففى سنة ١٧٥٦ كان الفرنسيون يملكون كندا

وحوض الميسسبى كله بينما كان الاسبان يملكون فلوريدا وتكساس والغرب الاقصى . وفى سنة ١٧٦٣ استولى الانجليز على كندا وعلى النصف الشرقى من وادى الميسسبى ، وكان استيلاء الولايات المتحدة على هذا الاقليم الاخير فى سنة ١٧٦٣ . وفى سنة ١٨٠٣ اشترى جفرسون النصــف الغربى لوادى الميسسبى من نابليون . واشتريت فلوريدا من الاسبان فى سنة ١٨٢١ . وانضمت تكساس بمحض رغبتها الى الولايات المتحدة فى سنة ١٨٤٥ بعــد فترة قصيرة من الاستقلال ، وتم بعد ذلك غزو الاقاليم التى تقع الى الغرب منها حتى المحيط الهادى من المكسيك سنة ١٨٤٨ .

وكان الاستعمار الكثيف لهذه المناطق يتم أحيانا بعد وقت طويل من الاستيلاء عليها ، ولكن التوسع عبر القارة كان مستمرا منذ انشاء الاتحـاد حتى نهاية القرن التاسع عشر . وحتى فى أيام الاحتلال لم يستطع الانجليز أن يحولوا دون تحقيق رغبة الامريكيين الطبيعية فى استكشاف الاراضى البكر التى تقع خلفهم واستغلالها ، وعندما تخلصوا من حكم ادوارد الثالث تحرك سكان الولايات الساحلية يدفعهم الاعتزاز بممتلكاتهم وتحثهم صعاب العيش فى جموع كبيرة عبر الجبال الى وادى الميسسبى . واستمرت الحال هكذا يوما بعد يوم وشهرا اثر شهر وسنة وراء سنة تسير صفوف طويلة من المهاجرين ، الاسر الاكثر مالا فى عربات تتبعها قطعانها ، والاسر الارق حالا على الاقدام تحمل ممتلكاتها فى عربات يد أو على عواتقها ، فى سيل لا ينقطع على الطريق المتجهة الى الغرب لينشئوا ولايات جديدة . وضمت كنتكى الى الاتحاد فى سنة ١٧٩٢ وتنسى فى سنة ١٧٩٦ وأهيو فى سنة ١٨٠٣ . وكان التقدم فى الشمال الغربى بطيئا فى أول الامر لأن الانجليز ، الذين ظل شعورهم عدائيا، احتفظوا بمختلف الاعذار بالحصون التى كانوا قد وافقوا على تسليمها منذ سنة ١٧٨٣ الى سنة ١٧٩٤ عندما تم توقيع معاهدة جاى . كما أن الهنود الذين انضموا الى الانجليز جعلوا البلاد غير أمينة للمستوطنين الى ما بعد الحرب التى قامت فى سنة ١٨١٢ . وابتداء من سنة ١٨١٥ وما بعدها امتلات انديانا وايليونوى ، رغم وجود عدد كبير من الهنود ، بالمستوطنين بسرعة وأصبحتا ولا يتين فى سنة ١٨١٦ و ١٨١٨ على التوالى ، وظل جزء من أقصى الشمال الغربى خاليا من المستوطنين الى ما بعد ذلك بكثير لان ارواء الارض فيه كان يتطلب مجهودا مشتركا . فلم تنضم داكوتا الجنوبية والشمالية مثلا الى الاتحاد حتى سنة ١٨٨٩ . غير أنه ما أن حلت سنة ١٨٢٠ حتى كان هناك أكثر من مليونين وربع مليون من المستوطنين غرب جبال اللجهانيز وفى سنة ١٨٤٠ كان فى هذا الجزء سبعة ملايين تقريبا .

وكانت الحركة نحو الغرب تقل فى أوقات الرخاء وتزيد فى الازمات ، عندما كان الفقراء يهربون من البطالة وانخفاض الاجور وارتفاع الضرائب . الا أنه كانت توجد عدة أسباب غير اقتصادية لهذه الحركة ولهذا لم تنقطع

الهجرة انقطاعا تاما • فحب المغامرة وحب الحرية والرغبة الوجدانية فى أن يحس المرء بنفسه جنديا من جنود الطليعة فى جيش المدنية المتقدم ؛ جعلت كلها الناس يتركون حياة الدعة ليتحملوا مخاطر حياة الرواد وصعابها • وفى ذلك يقول د • توكفيل :—

« انى على استعداد تام للاعتراف بأنه ليس بين الامريكيين شعراء ، ولكنى لا أوافق على أنهم عطل من الافكار الشعرية • ففى أوروبا يتحدث الناس كثيرا عن مجاهل أمريكا ، ولكن الامريكيين أنفسهم لا يفكرون فيها كثيرا : أنهم لا يحسون بما فى الطبيعة غير الحية من عجائب ، بل من الممكن أن نقول عنهم أنهم لايحسون بوجود الغابات الهائلة التى تحيط بهم حتى تهاوى أشجارها تحت فؤوسهم ؛ ذلك أن أبصارهم معلقة بشيء آخر ، انهم يتطلعون الى زحفهم عبر هذه المجاهل ، يجففون مستنقعاتها ويغيرون مجارى انهارها ويعمرون الخالى منها ويخضعون الطبيعة لسلطانهم • وهذه الرؤيا الضخمة لانفسهم وهم يقومون بهذا الزحف لا تراودهم فى فترات منقطة بل يمكن أن نقول أنها رؤى تداعب خيال كل فرد منهم فى أهم تصرفاته وأقلها شأنا بلا انقطاع وأنها تظل على الدوام ماثلة فى ذهنه • ولا يوجد شيء أكثر تفاهة وثقلا وامتلاء بالمصالح الحقيرة من حياة الانسان فى الولايات المتحدة • الا أنه من بين الافكار التى توحى بها هذه الحياة فكرة مليئة بالشاعرية وهى ذلك العصب الخفى الذى يكسب الاطار كله حيويته » (×) •

وأصبح غرب أمريكا يعتبر نفسه ، ويعتبره العالم ، نموذجا للديموقراطية • وكانت هناك مع ذلك ثلاثة عوامل تفردت بها أمريكا فى ذلك العهد وتركت أثرها فى طبائع الناس وفى الحياة الاجتماعية وجعلتهما مختلفين تماما عما يمكن أن يكون فى أوروبا فى ظل أى نوع من أنواع الحكم • وهذه العوامل هى : الارض الحرة والهنود واسترقاق الزنوج • وسأتحدث عن هذا العامل الاخير فى فصل تال • أما العاملين الآخرين فينبغى أن نذكر شيئا عن كليهما الآن اذا أردنا أن نفهم العناصر التى تفردت بها الديموقراطية الامريكية • وسأبدأ بالهنود •

ترك الصراع مع الهنود منذ مبدأ الامر نوعا من العنف والتماسك الاجتماعى فى الحياة الامريكية ما كان ليتوقع وجوده فى بيئة أقل أخطارا من هذه البيئة • وكان الهنود يتحلون بكثير من السجايا الحميدة ولكنهم كانوا قساة الى أبعد حدود القسوة • ولا يمكن أن نطلب من رجال كانت نساؤهم وأطفالهم معرضين باستمرار لسلخ الرؤوس والقتل « بالبلط » الهندية أن يشعروا بالعطف الاخوى نحو الهنود • كما أن الهنود ما كانوا ليقبلوا ذلك الاعتداء الوحشى الذى كان البيض يقومون به دون وازع من ضمائرهم •

(×) دى توكفيل « الديموقراطية فى أمريكا » الجزء الثانى ص ٦٧ طبعة جرين وشركاه •

ويقول جيمس ترسلو آدمز في وصف حرب « البيكو » سنة ١٦٣٧ ما يأتي :

« انها قصة الاعتداء الابيض والحقد العنصرى التى كانت تتكرر لسوء الحظ على طول حدودنا تقريبا مدى قرنين ونصف قرن . وكان الحدث الرئيسى في هذه الحرب ، وهى الاولى فى نيو انجلند ، هو هجوم مفاجىء قام به المتطهرون بقيادة الضابط جون ماسون على أكبر قرية من قرى الهمج . ففى أثناء الظلام والرياح تهب بشدة وقف الحرس عند مدخل الحظيرة ليمنعوا أحدا من الهرب ، ثم أشعلوا النار فى القرية . ومات خمسمائة هندى بين رجل وامرأة وطفل حرقا ، وكل ماقاله القائد المتطهر وقتئذ أن عناية الله قد جعلت عدد الموجودين يزيد فى تلك الليلة المشئومة ١٥٠ شخصا عن المألوف » (×)

وليس لنا بعد ذلك أن ندهش للطريقة التى عامل بها هؤلاءالمستعمرون أنفسهم الكويكريين لأسباب دينية : فقد شنقوا ثلاثة رجال وامرأة وسجنوا عددا آخر وضربوهم وعذبوهم وباعوا أطفالهم عبيدا فى جزر الهند الغربية (× ×) . وقد بقيت بعض آثار هذه الحماسة فى الاضطهاد على الحدود حتى فى القرن الناسع عشر . ولم تأخذ الطابع الدينى الا ضد المورمون، ولكنها ظلت موجودة فى صورتها السياسية وخاصة فيما يتعلق بموضوع الرق .

وكانت الصورة المألوفة للحوادث فى الشمال الغربى تتم على هذا النسق : يأتى أولا المكتشفون ثم يجيء وراءهم بعد فترة قصيرة تجار الفراء . وبعد فترة من الوقت ، تتراوح بين قرنين وعشر سنوات ، تنشىء الحكومة الفرنسية أو الانجليزية أو الامريكية ، ومراكز عسكرية فى المجاهل بناء على ما يذكره تجار الفراء . (وكان الدافع عادة هو الرغبة فى الاستيلاء على تجارة الفراء المبلد الحاكم) . وكان الهنود يثارون خلال الحرب بين الشعوب البيضاء للقضاء على هذه الحاميات المتطرفة . ويؤدى ذلك الى معركة انتقامية يهزم فيها الهنود بعد قتال عنيف ويجبرون على توقيع معاهدة يبيعون بمقتضاها أراضيهم ، ثم يتجهون غربا ليستقروا فى أرض من جديد . وفى أثناء الحرب كان الهنود يذبحون المستوطنين فى جهات نائية ، والمستوطنون يذبحون الهنود . وكان منتظرا من كل رجل أبيض يعيش فى منطقة من مناطق الحدود أن يحارب ضد الهنود عندما يطلب اليه ذلك . وعلى الرغم من أن الهنود كانوا يهزمون دائما فى آخر الأمر فانهم كانوا ينتصرون فى معارك لا يقل عددها عن التى هزموا فيها ، وكانوا ينتصرون دائما تقريبا عندما يتساوى الفريقان فى العدد (× × ×) .

(×) « الديموقراطية تسير » ص ٢٥ .
(× ×) نفس المرجع ص ٢٦ .
(× × ×) « شيكاغو والشمال الغربى » تاليف م. م. كويف .

وكان الخوف من الهنود كالسيف المعلق بصفه مستمرة فوق الحدود فى الأيام الأولى . ويقول نيقولاى وهاى وهما يصفان حياة جد ابراهام لنكولن (وكان يسمى أيضا آبراهام) ما يأتى :

« لم يكن يمر يوم ، قبل أن تضع معاهدة جرينفيل فى سنة ١٨٩٥ حدا للحروب الدامية الطويلة مع الهنود ، يستطيع فيه أحد الرواد أن يترك كوخه وهو على ثقة من أنه لن يجده كومة من الرماد عندما يعود ، ويجد أسرته الصغيرة مذبوحة على عتبته أو سيقت الى أسر أشر من الموت . وفى كل مرة يجن الليل فيها على منزل الرجل وهو بعيد عنه كان قلق نسائه وأطفـــاله وانشغالهم شديدا ، لا يقلل من انزعاجهم أن الامر قد تكرر كثيرا بحيث أصبح مألوفا .

وسرعان ما انتهت حياة الرائد ابراهام لنكولن بفاجعة . فقد استقر فى مقاطعة جفرسون على أرض اشتراها من الحكومة وقطع أشجار الغابة من بقعة أعدها للزراعة . وفى صباح أحد أيام سنة ١٧٨٤ خرج هو وأبناؤه الثلاثة : موردكاى ويوشع وتوماس . وساروا الى نهاية الحقل ليبدأوا عمل اليوم . وانطلقت من الاجمة رصاصة قتلت الاب ، فجرى الابن الاكبر موردكاى، بطريقة غريزية لا شعورية ، الى المنزل ويوشع الى الحصن المجاور فى طلب العون ، وترك الابن الاصغر ، وهو طفل فى السادسة ، بجوار جثة أبيه . واختطف موردكاى ، حين بلغ المنزل ، بندقيته ورأى خلال ثقب فى الحـائط هنديا مصطبغ الجسم بأصباغ القتال ينحنى الى الارض ليلتقط الطفـــل . فصوب بعناية الى حلية بيضاء على صدر المتوحش وأطلق عليه النار فصرعه . وجرى الطفل بعد أن تخلص من الهندى الى الكوخ ، وأخذ موردكاى يطلق النار على المتوحشين الذين بدأوا يظهرون من خلف الاشجار حتى عاد يوشع بالنجدة من الحظيرة وولى المعتدون الادبار . وقد تركت هذه المأساة أثرا لايمحى فى ذاكرة موردكاى . وأصبح يتربص بالهنود فى عزم واصرار يدفعه الى ذلك اما رغبة قوية فى الانتقام لأبيه المقتول ، أو سرور بمهارته فى الاصابة ، وقلما كان ينتظر اذا ما رأى هنديا ليسأله أهو عدو أم صديق بل كان يطلق النار عليه حالما يدخل فى نطاق مرمى بندقيته » .

وقد حارب لنكولن نفســـه ضـــد الهنـــود فى حرب الصقر الاســـود The Black Hawk war سنة ١٨٣٢ . وكان هاريسون مدينا فى وصوله الى الرياسة الى انتصاره على الهنود فى تيبيكانو ، وكذلك حاز الرئيس جاكسون بعض الشهرة بسبب نجاحه ضد الهنود السيمينول ، وان كان السبب الرئيسى فى شهرته يرجع الى الهزيمة التى أنزلها بصهر ولنجتون .

وتعتبر المذبحة التى قتل فيها معظم حامية فورت ديربورن سنة ١٨١٢ فى البقعة التى تقوم عليها شيكاجو الآن ، وهى من أحداث الحرب مع انجلترا، من أفظع مآسى الحروب الهندية . وكانت شيكاغو فى ذلك الوقت تتكون من

الحامية العسكرية وتاجر اسمه كنزى لا أكثر • وصدرت الاوامر المضابط هيلد قائد الحامية أن يخلي الحصن ، ففعل • ثم هوجمت قوته الصغيرة على بعد ميلين من الحصن وقتل ، كما جاء في تقريره ، ٣٨ رجلا وامرأتان و ١٢ طفلا • ولقى القليلون الذين استطاعوا الهرب مغامرات غريبة (×) • فقد كان من بينهم مثلا مسز سيمونز وطفلتها التى تبلغ من العمر ستة أشهر • وقد فقدت زوجها وابنها البالغ من العمر سنتين في المذبحة • وظلت أسيرة فى أيدى الهنود ستة أشهر قضت معظمها سائرة على قدمها تحمل طفلتها • وكانت ترغم على المرور بين صفين من النساء الهنديات اللاتى كن يضربنها بالعصى وهى تحاول أن تحمى طفلتها من ضرباتهم • وأخيرا أخذت الى دترويت التى كانت وقتئذ في أيدى الانجليز ، وكان ذلك نهاية أسوأ فترة في رحلتها • ووصلت بعد ثمانية أشهر من المذبحة الى منزل خشبى اتخذه أبواها ملجأ لهما • وحتى فى هذا المكان قتلت أختها وقتل زوج أختها بيد الهنود بعد وصولها بفترة قصيرة • وعاشت بعد ذلك هى وابنتها حياة خالية من الاحداث وكبرت الابنة وتزوجت وذهبت غربا باستمرار حتى عاشت عيشة موفقة فى أهيو وأيوما وكاليفورنيا حيث ماتت سنة ١٩٠٠ (× ×) •

وقد عامل الهنود التاجر كينزى معاملة المحايد ولم يمسوه بضر خلال المعركة • ومع ذلك فقد قدر له تعويض عن خسائره شمله هو وأبناءه وبناته وزوجات أبنائه المطلقات فى كل معاهدة تمت بعد ذلك مع الهنود •

وكان الهنود قد أثيروا خلال حرب سنة ١٨١٢ الى القيام بأعمال هجومية متحدين تحت قيادة زعيم اسمه تكومش وأخيه ، الذى كان يدعى النبوة وأنه يتلقى الوحى من الروح الكبيرة • وقد قالت الروح الكبيرة للمتنبىء فى احدى المناسبات :

« أنا أبو الانجليز والفرنسيين والاسبان والهنود • لقد خلقت الرجل الاول ، وهو الاب المشترك لكل هؤلاء الناس وأبوكم أنتم أيضا ، وانى أتحدث اليكم الآن عن طريقه هو الذى أيقظته من رقدته الطويلة • ولكن الأمريكيين

(×) « شيكاغو والشمال الغربى القديم » م• م• كويف •

(× ×) يبدو ان القلة التى نجت من المذبحة كانت تتمتع بحيوية عجيبة • ويؤكد احدهم اسمه كينسون ، أنه من مواليد سنة ١٧٣٦ ، ومما لا شك فيه انه اشترك فى حرب الاستقلال • وقد كرس نفسه بعد حرب سنة ١٨١٢ للاعمال السلمية التى وجدها اشد خطورة من الحرب : فقد سقطت عليه شجرة كسرت جمجمته وعظم كتفه وضلعين من ضلوعه ، وكسرت بندقية ساقيه فى استعراض عسكرى • ومع ذلك فقد تزوج أربع مرات وأنجب ٢٢ طفلا • وعندما بلغ سن التاسعة بعد المائة استقر فى تشيكاغو حيث عاش على ما كان يتقاضاه من معاش عسكرى حتى سنة ١٨٥٢ • وقضى السنين الاخيرة من حياته في متحف وشيعت جنازته باحتفال عام بعد وفاته •

ليسوا من صنعي . انهم ليسوا أبنائى ، بل أبناء الروح الشريرة . لقـد نشأوا من حثالة المياه العظيمة التى عكرتها الروح الشريرة ودفعت رياح شرقية عاصفة الزبد الى الغابات انهم كثيرون ولكنى أكرههم » (×) .

واذا كانت الروح الكبيرة تحب الهنود بصفة خاصة ، فقد كان لديها من الاسباب ما يدعوها لكراهية الامريكيين . ومع ذلك فأننا اذا نظرنا الى الامر من ناحية تقدم المدنية البشرية يصعب علينا أن نتصـور ما اذا كان يمكن عمله مما يتفق والعدالة الانسانية . فليس فى وسعنا أن نأسف لأن الولايات المتحدة يقطنها المتحضرون . ولم يكن هناك بد من أن يقاسى الهنود ما قاسوا اذا أريد أن يقطنها متحضرون . كما يقول توكفيل :

« من أية زاوية نظرنا الى مصائر سكان أمريكا الشمالية الاصليين فان ما حاق بهم من كوارث يبدو لا مندوحة عنه ، فاذا استمروا على حالتهم الهمجية فلا بد لهم من الانزواء ، واذا حاولوا أن يتحضروا أخضعهم احتكاكهم بمجتمع أكثر منهم مدنية لحالة من الظلم والفقر المدقع .

وهم لا بد هالكون اذا ظلوا ينتقلون من أرض بور الى أخرى مثلها ، واذا حاولوا أن يستقروا فلا بد لهم أيضا أن يهلكوا ، ومعونة الاوروبيين لهم ضرورية اذا أريد تعليمهم ، ولكن اقتراب الاوروبيين منهم يفسدهم ويدفعهم الى الحيـاة الوحشية . وهم يأبون أن يبدلوا عاداتهم ، ما داموا محافظين على عزلتهم ، واذا ما أرغموا على الخضوع للبيض كان وقت تبـديل هـذه العادات قد محى وانقضى . »

« ان الاسبان يطلقون كلابهم المتوحشة خلف الهنود كما يطلقونهـا خلف الوحوش الضارية . واجتاحوا العالم الجديد سلبا ونهبا بدون رحمة أو شفقة كما لو كانوا يعصفون بمدينة استولوا عليها عنوة : ولكن الدمار يجب أن يوضع له حد والجنون لا بد أن ينتهى ، وقد اختلط من بقى من الهنود بعد المذبحة بغزاتهم واعتنقوا آخر الامر دينهم وطبائعهم . غير أن تصرف الامريكيين فى الولايات المتحدة حيال الاهالى الاصليين يتميز من ناحيـة أخرى بالتزام لشكلية القانون التزاما فريدا فى نوعه . ذلك أن الامريكيين يتركون الهنود وشأنهم ما داموا محتفظين بهمجيتهم ، ويعاملونهم فى هذه الحالة معاملة شعب مستقل ، ولا يستولون على مناطق صيدهم الا بمعاهدة تنقل ملكيتها اليهم . واذا وقع على أحد الشعوب الهندية افتئات شديد بحيث يتعذر عليه البقـاء فى أرضه فانهم يمدون له يد العون فى الانتقـال الى قبر بعيد بعـدا كافيا عن أرض أجداده .

ومع هذا فلم يستطع الاسبان استئصال الهنود بمعاملتهم التى بلغت فى

(×) كويف ـ نفس المرجع ص ١٨٦ .

قسوتها ووحشيتها حدا لم يعرف له مثيل والتى تسمهم بالعار الابدى ، كما لم ينجحوا أبدا فى حرمانهم من كل حقوقهم ، ولكن أمريكيى الولايات المتحدة حققوا الغرضين معا ببساطة فريدة وهدوء وفى حدود القانون بطريقة مظهرها القانون وحب الانسانية ودون اراقة دماء أو انتهاك لمبدأ أخلاقى سامى فى نظر العالم ٠. انه لمن المستحيل القضـــــاء على بشر باحترام أكثر من ذلك لقوانين البشرية (×) ٠

وحتى اذا صرفنا النظر عن الهنود ، فقد كانت حياة الرواد الاول مليئة بأشد الصعاب ولم يكن يعينهم عليها فى المراحل الاولى سوى الحرية والامل ٠ وكثيرا ما تبين آخر الأمر أن الأمل لم يكن سوى وهم وخداع ٠ وكانت مشاق الحياة فى الشمال أكثر منها فى الجنوب بسبب الشتاء القارس من ناحية وعدم وجود عبيد من ناحية أخرى ٠ ورغم ذلك فقـد كان الشمال خيرا من الجنوب للفقراء الذين لا يستطيعون اقتناء العبيد ، لانهم كانوا يعتبرون فى الجنوب أقل شأنا من الناحية الاجتماعية من ملاك العبيد ٠ فأبو لنكولن انتقل فى سنة ١٨١٦ من كنتكى الى انديانا وابتعد بذلك عن حياة الحدود ، وقد بنى لذلك الغرض طوفا حمل عليه كل ما ملكت يداه وكان هذا يتكون من حقيبة أدواته وأربعمائة جالون من الويسكى ٠ وانقلب الطوف ولكنه استطاع انقاذ معظـم حمولته ٠ وتوغل فى الغابة ٠من آخر منزل من منازل المستوطنين ، وشـــق لنفسه طريقا بين الاشجار حتى وصل الى بقعة أعجبته فوضع أدواته والويسكى ، ثم لحقته زوجته وولداه بعد فترة ومعهم بعض الفراش والاوانى ٠ وعاشوا ثلاثة أيام فى كوخ ذى ثلاثة جدران تهب عليهم الرياح وتهطل الامطار والثلوج من الجانب الرابع ٠ ومهد فى هذه الاثناء قطعة من الارض ليزرعها بعد أن قطع أشجارها وأقام كوخا خشبيا صالحا للسكنى ، « وان لم ير من الضرورى أن يزوده بنوافذ أو أبواب أو حتى بأرضية صالحة ٠ «ويقول نيكولاى وهاى» : ان كوخه كان مثل أكواخ غيره من الرواد يحتوى على بضعة مقاعد ذات ثلاث قوائم ، وسرير من قوائم ثبتت فى جدران زاوية من زوايا الكوخ ويرتكز طرفه الخارجى على عصا غرست فى الارض ، والمنضدة وهى قطعة ضخمة من الخشب تقوم على أربعة قوائم ، وبعض الاوانى من القصدير ٠ وهذا هو كل ما كان يحتويه الكوخ ٠ وكان الصبى ابراهام يتسلق الى فراشه فى أعلى الكوخ على سلم مكون من أوتاد خشبيه ثبتت فى الجدار » ٠ وهنا ماتت أم ابراهام بعد أن أصيبت بالحمى كما مات الكثيرون غيرها فى هذه المنطقة ٠

ذلك أن الملاريا ، وغيرها من الحميات ، كانت منتشرة جدا فى الغرب ٠ ويعزو نيكولاى وهاى بعض كآبة لنكولن الى هذا السبب ٠ فهما يقولان :«ان هذه الكآبة التى لازمته لم تكن شيئا تفرد به لنكولن ٠ ونستطيع ان نقول أنها

(×) حين يقول ده تكفيل « دون اراقة دماء » فانه يجانبه الصواب ٠

كانت وباء مستوطنا بين المستعمرين الاوائل في الغرب . وهي ترجع بعض الشيء الى ظروف حياتهم ، والوحدة الكئيبة والمشقة التي كانت معظم الوقت طابع كفاحهم في سبيل البقاء .. والى جانب ذلك النزوع الى الكآبة الذي كان عاما بينهم ، تعرض عدد كبير منهم للملاريا في مستهل حيـــاتهم وظلت آثارها فيهم الى آخر أيامهم .. وقد مات الكثيرون منهم ، أما من بقي على قيد الحياة فقد ظل عدد كبير من بينهم بعد أن تخلص من آثار الملاريا المباشرة يعاني الآثار السيئة للمرض الذي أصيب به في طفولته في صورة اضطرابات عصبية من جميع الانواع » (١) .

وكانت حياة الرواد في الجنوب سهلة نسبيا . فقـــد استطاع أندرو جاكسون ، الذي لا يوجد دليل على انه كان ماهرا في ميدان الاعمال ، ان ينتقل بسرعة من البؤس الى حالة أصبح فيها صاحب أرض واسعة وعدد من العبيد . وقد حقق ذلك عن طريق اشتغاله بالمحاماة (٢) - ولم تكن مؤهلاته تتضمن المعرفة القانونية - واستثمار اتعابه في الارض . وذهب الى تنسي سنة ١٧٨٨ شابا في الحادية والعشرين من عمره لا يملك شروى نقير ، « وبعد ثمان سنوات من وصوله صار من أغنى الرجال في المنطقة » (٣) . وكانت الصـــعوبات الرئيسية في الجنوب هي الهنود والاسبان والحمى . ولكن الامر لم يكن يتطلب من الانسان قدرة في التحمل الجثماني بمفرده كما كان يتطلبه الشمال .

ونشأ بالضرورة عن ظروف الحياة على الحدود هبوط مؤقت في المستوى الثقافي للرواد وأطفالهم . فلم تكن هناك مدارس ولا كنائس ولا رجال تعليم ، الى جانب النضال المرهق مع المجاهل وقلة الكتب وكثرة الويسكي ، وقد جعلت كل هذه الاشياء الرجال ينسون ما كانوا يعرفونه ويعجزون عن تعليم أطفالهم شيئا من معرفتهم السابقة . وعاد الاعتقاد في السحر والفـأل الى الظهور ، فالاسوار تقام عندما يكون القمر باديا ، ولكن البطاطس تزرع عندما لا يكون القمر في السماء (٤) وكان معظم الرواد وخاصة النساء شـديدي التدين ، وكان عدم وجود الكنائس يضايقهم . فكانت تعقد اجتماعات في العراء من وقت لآخر يعظ فيها رجال دين متجولون ، وهذا كل ما كان هنالك لسد الحاجات الروحية للمناطق القليلة السكان . وكان المجتمعون يجيئون من دائرة قطرها خمسون ميلا تدفعهم الحماسة الدينية والرغبة في التخلص من الوحدة ، وتظهر عليهم أغرب الاعراض الهستيرية - ويتمرغون على الارض ويطلقون صيحات غريبة ويصابون بالغيبوبة . وهذه الظاهرة كلها من سمات السكان الزراعيين الذين يعيشون في عزلة ، فقد كانت موجودة في ألمانيا في

(١) ابراهام لنكولن - تاريخه الجزء الاول ص ١٨٩

(٢) يقول كانت سيرته باست في كتابه « حياة اندرو « جاكسون » انه مما لاجدال فيه ان معلوماته في القانون كانت قليلة

(٣) نفس المرجع ص ١٧

(٤) نيقولا هاى - المرجع - السابق - الجزء الاول ٤١ - ٤٢ .

القرن السادس عشر وفى انجلترا فى القرن السابع عشر وفى سيبيرية راسبوتين فى القرن العشرين · ولكنها أدهشت مسز ترولوب لتى وصفتها وصفا شيقا واضحا كل الوضوح (×) ·

وليس ما يدعو الى الدهشة فى فتح الغرب هو أن هذا الفتح قد صاحبه هبوط مستوى الثقافة مؤقتا بل هو السرعة التى عوض بها هذا الهبوط بعد أن مرت مرحلة الرواد الاولى · ويرجع ذلك الى عدة أسباب يبدو أن أهمها كان النساء والقانون والسياسة · هذا فضلا عن أخلاق الناس بوجه عام ·

وكان تأثير النساء فى الولايات المتحدة ، ولم يزل حتى الآن — أكبر منه فى أى بلد آخر ، وكان تأثيرهن فى المجتمعات التى عاشت على الحدود من عوامل نشر المدنية · ويرجع ذلك الى انهن لم يكن يشربن الويسكى ، والى رغبتهن فى التفوق الاجتماعى ، وعطفهن الاموى ، والى أنهن كن أقل تشبعا من أزواجهن برغبة فى المخاطرة العنيفة وفى التخلص من قيود المجتمع المصطنع غير الطبيعى · وكان النساء على الحدود بطبيعة الحال أقل من الرجال وقد ساعدهن ذلك على أن يلزمن الرجال باحترامهن · وعلى الرغم من أن الاجتماعات فى العراء كانت عاصفة فان الدين كان فى الغالب من عناصر التهـــذيب ، وكان النساء فى المتوسط أشد تدينا من الرجال · ولكل هذه الاسباب حافظت النساء على جذوة الرغبة فى كيان منظم حتى فى ظل ظروف جعلته ، بصفة مؤقتة ، مستحيلا ·

ويمكن تصوير هذا التأثير المتمدين بزوجة أبى لنكولن التى تزوجهـا وابنه فى العاشرة من عمره · ولعلنا نذكر أن الكوخ الخشبى ترك بلا نوافذ ولا أبواب ، فأصلح ذلك على الفور · وأحضرت السيدة أسرة وملابس للاطفال ، وانضم زوجها الى الكنيسة المعمدانية ، وحظى ابراهام بالقدر الممكن من التعليم فى الجهة ، ولم يكن ذلك كثيرا ، لأن الدببة كانت هناك أكثر من المدرسين · فهو لم يقض فى حياته كلها سوى سنة واحدة فى التعليم ، ولما أن بلغ أشده جعله أبوه يعمل فى الحقل · وفى المساء كان يقرأ الكتب الوحيدة التى استطاع الحصول عليها : الكتاب المقدس وخرافات ايسوب وروبنسون كروزو ورحلة الحاج وحياة واشنجتون ودستور انديانا المنقح · وكان عليه فيما عدا ذلك أن يعتمد على مجهوداته الخاصة ، ولكن الخطوات الاولى ، التى خطاها عندما كان أصغر من أن يعتمد على نفسه ، كان مدينا بها لزوجة أبيه ·

ومما هو جدير بالملاحظة أنه يقول فى خطاب الى احدى الجرائد كتبه فى حملته الانتخابية سنة ١٨٣٦ ما يأتى : « انى أؤيد منح حق الانتخاب لجميع البيض ممن يدفعون ضرائب أو يحملون السلاح (دون استبعاد النساء بأية حال) » · وقد كان هذا الرأى عجيبا حقا منذ مائة عام ·

(×) مسز ترولوب « عادات الامريكيين فى بيوتهم » الفصل ١٠

وقد بلغت الحركة التى تهدف الى منح النساء حقوقهن مرحلة السياسة العملية أولا فى غرب أمريكا • ففى سنة ١٨٤٦ تضمن اقتراح دستور لولاية وسكونسن حق المرأة المتزوجة فيما تملكه ، ورفض ذلك ، ولكن تقرر لهن نفس الحق فى تكساس فى السنة ذاتها وفى كاليفورنيا فى سنة ١٨٤٩ (×) • وكانت أول ولاية منحت النساء حق التصويت ولاية وايومنج فى سنة ١٨٩٠ • ولم يتم ذلك فى أوروبا وفى شرقى الولايات المتحدة الا نتيجة للحرب الكبرى •

وكان القانون والسياسة عاملين قويين فى تنمية الاتصال بين المستعمرين فى الغرب والمفكرين فى الشرق • فقد أثار الدستور وقانون سنة ١٧٨٧ تكهنات كثيرة فيما يتعلق بمستقبل الولايات والاقاليم • ونشأ بسببهما فى كل مكان وجد فيه عدد كاف من السكان حكم ذاتى يهذبه الدستور كما فسرته المحكمة العليا • وهيأ الحكم الذاتى فرصه للتربية السياسية ، كمـــا نبهت الحملات الاتحادية الناس الى آراء المناطق الاكثر استقرارا فى مسائل ذات أهمية قومية • وكانت بعض القضايا تنظر فى ظروف خاصة أمام المحكمة العليا ، كما أن قضايا كثيرة كانت تتضمن حقوقا مهمة ويحتاج النظر فيها الى مهارة قانونية كبيرة • وكان معظم الرجال النابهين فى ولايات الحدود من المحامين ، كما أن الحاجة الى محامين كانت هى السبب الاساسى فى أن رجال التعليم استقروا فى أول الامر على حدود المدنية • وكان للقانون شأن كبير فى حياة المدن وكان ينفذ عادة بطريقة قاسية عاجلة على يد الرواد أنفسهم • فكانت المحاكم تعقد غالبا فى كوخ خشبى ينسحب منه المحلفون الى طريق جانبى مجـــاور حيث يتداولون فى الحكم • وكانت رغبة الاشتراك فى ادارة الشئون المحلية عامة ، وكانت هى الباعث الرئيسى على تحصيل المعرفة •

وقد أدرك الناس فى أمريكا أهمية المدارس والجامعات فى وقت مبكر • ففى سنة ١٧٨٠ قرر المجلس التشريعى فى فرجينيا ، وهو فى خضم مشاكل حرب الاستقلال ، منحة مالية لانشاء جامعة كنتكى « لأن مصلحة هذا المجتمع أن يشجع ويؤيد كل مشروع يهدف الى تنوير العقول ونشر المعرفة المفيدة حتى بين المواطنين الذين يعيشون فى الاماكن المتطرفة ، والذين قد يجعلهم وجودهم وهى ذلك العصب الخفى الذى يكسب الاطار كله حيويته » (×) •
ان فى هذا ما يشتم منه رائحة جفرسون ، وعلى الرغم من لفظ « المعرفة المفيدة » الذى جاء ذكره فان القرار كان أقل اهتماما بالفائدة من الدعوة الى التعليم التى جاءت فى عهد لاحق • ولكن هذه السياسة اتبعت فى أساسها حيثما أمكن تحقيقها وانتهت الى نظام جامعات الولايات فى ولاية •

(×) تاريخ شعب الولايات المتحدة » ماك ماستر الجزء السابع ١٨٤ — ٢٠١ ، ٩١١

(× ×) نيقولا وهاى ، المرجع السابق الجزء الاول ١٥ — ١٦ •

وكانت مشكلة المدارس مشكلة صعبة ، ولم يكن سبب صعوبتها قلة السكان فحسب ، بل أيضا بسبب الهجرة الاجنبية . فقد كان فى الولايات المتحدة من الاميين فى سنة ١٨٥٠ ضعف ما كان فيها سنة ١٨٤٠ ، اذ أنهم كانوا فى سنة ١٨٤٠ بنسبة شخص واحد فى كل واحد وثلاثين شخصا من مجموع السكان ، بينما صاروا فى سنة ١٨٥٠ بنسبة شخص واحد الى كل أربعة وعشرين (١) . ومن الطريف أن نذكر أن روبرت أوين ابن أوين كان أكثر المطالبين بالتعليم العام نشاطا (٢) . وكانت المدارس فى الشمال خيرا منها فى الجنوب حتى فى المناطق الاقل سكانا . « لقد كانت متشيجان من وجوه عدة نموذجا لولايات الحدود فى الشمال الغربى . ومع ذلك فقد كان فى سنة ١٨٥٠ مكتبات أكثر ، وجرائد ودوريات أكثر ، ومدارس عامة أكثر من أركنساس وميسورى ، وكان الاميون من البيض فيها أقل منهما (٣) » . فكانت هناك مدارس فى كل القرى تقريبا ، الا أن المدرسين كانوا يتقاضون مرتبات ضئيلة : فقد كان المدرس من الرجال يتقاضى خمسة عشر دولارا فى الشهر وكانت المدرسة تتقاضى دولارا وربع فى الاسبوع . وكانت المدارس مجرد أكواخ خشبية ، ولكنها كانت تكفى لان تعلم كل الاطفال تقريبا القراءة والكتابة .

وحدثت مع ذلك خسارة دائمة فى نوع الثقافة ، كما يحدث دائما عندما تقع أحداث تقطع السير العادى للامور . فالثورة الفرنسية أنزلت بالثقافة الفرنسية ضربة لم تفق منها كل الافاقة قط ، وأكبر الظن أن هذا بعينه قد حدث فى روسيا . وكان مؤسسو الولايات المتحدة يقفون من التراث الفكرى موقف القوم المتحضرين ، وهو موقف طبيعى ومقصود فى وقت واحد ، وقد كان فرانكلين وجفرسون يعاملان باحترام فى باريس فى أكثر الاوساط الاجتماعية التى عرفها الانسان ذكاء . وكانت المدنية التى ظهرت فى كل مكان من الغرب انقضت فيه فترة الرواد الاولى أكثر وعيا بذاتها ، وليست لها جذور كافية من التقاليد ، وأقرب الى أن تكون آلية ، كما أنها كانت نفعية أكثر مما يجب وذلك لانها كانت مضطرة لأن تبرر نفسها أمام ديموقراطية فجة بعض الشىء . ان ذلك النوع من التعليم الذى يمكن اثباته بالشهادات والدرجات مرغوب فيه جدا ، ولكن أساتذة الجامعات يتمتعون باحترام أقل من زملائهم فى أوروبا : فهم فى الجامعات الخاضعة لسلطان الدولة معرضون لأهواء دافعى الضرائب ، وفى الجامعات الاخرى يخضعون للمصالح المالية لمجلس ادارة مكون من رجال الاعمال . ونتيجة ذلك أن علوم الدين فى الجامعات الاولى والاقتصاد فى الثانية لا يعالجان بالامانة الكاملة . ولسنا ننكر أن هذه الشرور وأمثالها

---

(١) تاريخ الولايات المتحدة شانتج ص ٢٧١
(٢) نفس المرجع ص ٢٥٠
(٣) هاك ماستر - المرجع السابق ص ١٩٩

موجودة فى غير أمريكا ، ولكنها شرور ما كان يجب أن تقوم لها فى أمريكا قائمة لانها تناقض التقاليد الجفرسونية ، وما كانت لتوجد لو أن الايمـــان الجفرسونى بالحرية العلمية ظل باقيا ٠

وهناك أثر آخر لمرحلة الرواد الاولى ، هو أن النواحى غير النفعية فى الثقافة أصبحت تعتبر من شئون النساء وحدهم أو يكاد يكون كذلك ٠ ولما كانت الغالبية العظمى من النساء لم يدرسن التصوير أو الادب أو الفلسفة دراسة المحترفات ، بل اهتممن بها جميعا اهتمام هواية ومتعة عقلية لاأكثر ، فقد نشأ عن ذلك أن اتسمت كل هذه النواحى بالسطحية واقتصرت دراستها على المحاضرات العامة منذ وقت مبكر ٠ وقد ترك الشرق ، بقدر ماترك الغرب تقريبا ، الثقافة للنساء ،لأن الأعمال المالية والتجارية كانت تستغرق مجهود الرجال ، ولكن العمل الذى استغرق اهتمـــامهم كان متصـلا الى حد بعيد بفتح الغرب ٠ ويستشهد ماك ماستر (×) بنبذة من جريدة « فلادلفيا لوجر » عن وسائل التسلية الفكرية التى حدثت فى فلادلفيا خلال ثلاثة أيام من سنة ١٨٤٢ :

« موعظة ألقاها أحد كبار المورمون ، محاضرة فى الجيولوجيا القاها ليل ، محاضرة فى الزواج والخطبة القيت فى مؤسسة ويلبرفيسك الأدبية ،محاضرة عن الهيجونوت فىمعهد وليم وست ، وعن الاشتراكية فى قاعة الاخوان المتحدين للتقدم الانسانى ، وعن وجود الأشباح فىاللوفيون الجنوبى، وعن المغناطيسية الحيوانية أمام جماعة مكتبة جفرسون والجمعية الأدبية ، وعن نابليون فى معهد رشموند ، ومناقشة موضوع (هل يجب الغاء عقوبة الاعدام ؟) فى معهد كارول»٠

وقد ظل الأمريكيون حتى يومنا هذا شعبا من المستمعين فى ميدان الثقافة، وخاصة نساؤهم ، أما فى الجانب النفعى فقد حققوا تفوقا ممتازا٠ فقد تفوقت أمريكا فى الطب والقانون والهندسة المعمارية والاختراعات الميكانيكية ، ولكن معظم التقدم فىدراسات مثل العلوم الرياضية والنظرياتالطبيعية كان أوروبيا٠ ويقول كاتب انجليزى فىسنة ١٨٢١ فى وصف آمال الأمريكيينفى المستقبل : « ان الشعوب الأخرى تفخر بحاضرها أو بماضيها ، ولكن المواطن الأمريكى الحقيقى يرفع رأســه فى السماء متأملا العظمة التى ستكون عليهـا بلاده فى المستقبل ٠ ويطـالب الآخرون بالاحترام والمجد لما حققته سلسلة طويلة من الأجداد ، ولكن الأمريكى يجد مجده فيما سيحققه أحفاد أحفاده فى المستقبل البعيد ٠ ان غير الأمريكيين يرجعون الى التاريخ ، ولكن الأمريكى يلجأ الى النبوءات ، وهو يتحدانا بجرأة ، وفى احدى يديه كتاب مالتس وفى الاخرى خريطة لمجاهل أمريكا ، ان نعقد مقارنة بين بلادنا وأمريكا كمـا ستكون ، ويضحك فى سرور لما تضفيه النسبة الهندسية على مستقبل بلاده من روائع وهذا التطلع الى المستقبل هو مصدر لا ينقطع لشعوره بالتفوق ٠٠ واذا تذمر

(×) المرجع السابق ص ٨٢

سائح انجليزي من الفنادق وأشار الى نفوره من النوم مع ثلاثة آخرين في فراش واحد ، اتهم أولا بأنه مغتاب تمام ثم قيل له أن ينتظر مائة سنة ثم ينظر الى تفوق الفنادق الامريكية على البريطـــانيه . واذا ذكر شكسبير وملتون ونيوتن ، قيل له مرة أخرى (انتظر حتى ننتهي من تنظيم أرضنا ويصبح لدينا وقت فراغ للاهتمام بالمسائل الأخرى ، انتظر حتى سنة ١٩٠٠ ثم أنظر الى أي حد يتفوق شعراؤنا » وعلماؤنا ونظاراتنا المقربة على أي شيء تستطيع بلادكم العجوز الفانية أن تنتجه (×)

وقد صدقت النبوءة فيما يتعلق بالفنادق والنظارات المقربة ، فأمريكا الآن متفوقة فيها على أي بلد آخر في الدنيا . أما فيما يتعلق بشيكسبير وملتون فلم تصدق النبوءة . فشكسبير وملتون ليس لهما نظير في الدنيا الجديدة ، أما نيوتن فان أقرب نظير له أوروبي وليس أمريكي .

ولم يتم احتلال الأراضي الحرة في الغرب حتى قرابة عام ١٨٩٠ — باستثناء اكلاهوما التي ظلت مدة طويلة اقليما هنديا ، الا أن مصاعب الحياة على الحدود قلت كثيرا بعد انشاء السكك الحديديه ، واضطر الرواد لمواجهة مشاكل جديدة ، ان المسيسيبي وروافده ، تجري بصفة عامة من الشمال الى الجنوب ، بحيث كانت أهم صلات لأي منطقة من مناطق الغرب تتم مع مناطق تقع الى جنوبها طالما بقيت وسائل النقل الرئيسية هي الماء ، غير أنه بعد انشاء السكك الحديدية أخذت وسائل الانتقال تجري بين الشرق والغرب . بل ان هذا قد بدأ قبل السكك الحديدية عندما فتحت قناة ايرى سنه ١٨٢٥ ، ولكن الغرب ظل يعتمد أساسا على الميسيسيبي حتى عهد السكك الحديدية .

وكان الانتقال عبر الجبال والأودية يتسم في الأيام الأولى بالاعتماد على الغريزة في السير كما كان الجرمانيون القدماء لا بد يفعلون في هجرتهم . وقد عارض جورج الثالث الهجرة ، ولم ترحب بها في أول الأمر الولايات الشرقية التي كان هذا الانتقال يخليها من السكان . ولم يشتغل المستوطنون الأوائل بالتجارة الا قليلا ، فقد كانوا ينتجون حاجاتهم بأنفسهم — غلالا لغذائهم وجلود الغزلان لملابسهم ،، وكتلا خشبية لمساكنهم . ولم يطلبوا الى العالم شيئا الا أن يتركهم وشأنهم . ثم حدث تغيير كبير عندما انتقلت الحدود من منطقة الغابات الى منطقة البراري ، لقد أصبح الاقتصار على زراعة الحبـــوب وارسالها بالسكة الحديدية الى الشرق للسكان الجائعين في أوروبا مقابل الحاجات الضرورية للحياة وقدر متزايد من الكميات ، أصبح هذا أعود عليهم بالربح ، ولكن واجهت الرواد في هذه المرحلة صعوبا لم يكونوا أكفاء لها من ذلك أنه على الرغم من أنهم كانوا يستطيعون زراعة الحنطة كما يشاؤون فانهم ماكانوا يستطيعون نقلها وتصديرها الا بالسكك الحديدية . وحيرتهم القوى

(×) مارك ماستر نفس المرجع (٥) ص ٣٣٣

الاقتصادية المنظمة الهائلة • وحتى قبل السكك الحديدية وضعتهم المصارف المالية أمام المشكلة نفسها • وبين هجوم جاكسون على مصارف الولايات المتحدة وحملة « الفضة الحرة » التى قام بها برايان ، كافح الغرب كفاحا أعمى لاجدوى منه للسيطرة على المشروعات الكبرى مستعينا بمبادىء ديمقراطية فردية •

ولقد كان الرجال الذين غزوا الغرب يتحلون بالشجاعة والصبر والصلابة والامل والاعتماد على النفس وكانت لديهم غريزة أساسية تدفعهم نحو المجتمع المتمدين • ولكى نفهم ما حققوه ينبغى أن نقارنه بما حدث فى معظم أنحاء أمريكا اللاتينية ، حيث ضاع خيط رفيق من الدم الابيض بين الهنود والزنوج تاركا الغابات الاولية على توحشها ، بينما ظلت الحكومات القائمة هناك مزيجا من الفوضى والاستبداد • وكانت تضم المستوطنين فى غرب الولايات المتحدة أغراض جماعية معينة لم يكن هناك ضرورة لذكرها لانها كانت غريزية يشترك فيها الجميع • لقد كانت رغبتهم الاولى والاساسية غزو الارض ، ولما تم لهم ذلك ، أرادوا مجتمعا من المواطنين الاحرار المتساوين يخضعون لحكم الاغلبية عندما تكون هناك ضرورة لحكم ، ولكنهم يظلون بعيدين عن تدخل الحكومة بقدر الامكان • وقد نجحوا فى غزو الارض ، ونجحوا فى المحافظة على الحرية السياسية ، ولكن الحرية الاقتصادية ضاعت بطريقة نستطيع أن نرى الآن أنها كانت حتمية • لقد قاموا بعملهم خير قيام ، ولكن فلسفتهم كانت تعتمد فى نجاحها على المساحات الخالية الواسعة ولا تستطيع حل مشاكل عالم الاكثر منها ازدحاما •

٣ ـ ديموقراطية جاكسون

الفصل الثالث والعشرون

ديموقراطية جاكسون

استولى الغرب لأول مرة على السلطة السياسية عندما انتخب أندرو جاكسون رئيسا للجمهورية سنة ١٨٢٨ . وظهر فى عهـــده نوع جديد من الديموقراطية ، أكثر ديموقراطية من التى نادى بها جفرسون . وكان رؤساء الجمهوريات حتى ذلك الوقت أربعة من فرجينيا – واشنجتن وجفرســـون وماديسون ومونرو ، واثنين آخرين هما آدامز الاب وآدامز الابن . وكانوا كلهم من الشرق ، وجميعهم متعلمون ومن ذوى الثقافة التقليدية ، وهم من ذلك النوع من الرجال الذين ربما كانوا خليقين بأن يحكموا الولايات المتحدة لو أن دستورها كان أرستقراطيا . وكان ماديسون ومونرو أصدقاء حميمين لجفرسون ، وبدأت «الاسرة الحاكمة الفرجينية» تبدو قوة ثبتت دعائمها فى الشئون السياسية . ومع ذلك فقد انقرضت الاسرة الحاكمة وحصل جاكسون وهو جنوبى ، على تأييد الجنوب كما حصل على تأييد الغرب . هذا بالاضافة الى أن الشعور الديموقراطى النامى فى بنسلفانيا ونيويورك حول الغالبية فى هاتين الولايتين الى جانبه ضد ج . ك . آدمز الذى كان القوم يشعرون بأنه يمثل التقاليد القديمة ومبادىء نيو انجلند المحافظة . وبينما لم يكن رجل يستطيع أن يصير رئيسا فى ذلك الوقت بمؤازرة الغرب وحده ، فان جاكسون أدخل المثل والمشاعر الغربية فى الحكم ، ولكنها كانت مثل الجنوب الغربى حيث كان يوجد الرق وكانت تختلف عن مثل الشمال الغربى التى تمثلت فى لنكولن فيما بعد .

وكان (×) أبو جاكسون ايرلنديا من أتباع الكنيسة المشيخية ، هاجر الى كارولينا الشمالية مع زوجته وابنيه سنة ١٦٧٥ . وفشلت جهوده فى أن يكسب عيشه عن طريق الزراعة ، ومات سنة ١٧٦٧ وولد ابنه اندرو بعــد ذلك بقليل ، وان لم يعرف أكان مولده فى كارولينا الشمالية أم فى كارولينا الجنوبية . وعملت الارملة ، التى تركها زوجها فى فقر مدقع ، مديرة لمنزل شقيقتها التى كانت على شيء من اليسار ، فقد كان زوجها مزارعا ضمن جماعة من كارولينا مكونة فى الغالب من مهاجرين بروتستانتيين من شمالى ايرلنده . وكانت رغبة أم أندرو أن يصير ابنها رجل دين ولكن ميوله كانت فى اتجاه آخر . ويقول مترجم حياته : لقد كان آندروز بين الفتية الجامحين فى الجيرة أكثرهم جموحا . فقد أغرم بسباق الخيل وقتال الديكة والشجار العنيف مع

(×) المعلومات التالية المتعلقة بحياة جاكسون معظمها ماخوذة من كتاب باسمت « حياة اندرو جاكسون » ١٩١٦

الصبية الآخرين · أما من حيث التعليم فلم يكن مجدا أو قابلا له ، وأكثر ما استطاعه أن يعرف القراءة والكتاب والعمليات الحسابية السهلة ، ولكنه ظل حتى آخر حياته لا يستطيع الهجاء الصحيح ولا اتباع قواعد النحو فى الكتابة ·

وفى نفس الوقت كانت حرب الاستقلال مشتعلة الاوار بالقرب من موطنه · وقتل أحد أخويه فى المعركة ، ومات الثانى اما من الجدرى أو من جروحه ، وماتت أمه من حمى اصابتها وهى تقوم بتمريض الجنود المرضى · وقد مات هؤلاء جميعا فى سنتى ١٧٨٠ و ١٧٨١ · وقاتل الفتى آندرو خلال هذين العامين الانجليز على الرغم من أنه لم يكن قد تجاوز الثالثة عشرة من عمره ، وأسر فى سنة ١٧٨١ ، وأمر الضابط البريطانى الذى كان يتولى القيادة « الفتى آندروز بأن يمسح حذاءه · فرد الفتى ، ونستطع أن نتصور بأية لهجة ، بأنه أسير حرب وليس خادما · وكان الرد على ذلك ضربة من السيف موجهة الى رأس الاسير الصغير ، ولكنه حمى رأسه بذراعه · وقد ظلت يده ورأسه يحملان أثر الضربة حتى وفاته » · وبعد أن أطلق سراحه فى عملية من عمليات تبادل الاسرى ، ترك معتمدا كل الاعتماد على نفسه ، فعبر الجبال الى شارلستون حيث صادق فتيانا أغنياء يهتمون بسباق الخيل ، ويبدو أنه كان يعيش من المراهنة · ولم يذكر مترجم حياته أنه كان « سمسار مراهنات » ولكن الامر يبدو كأنه يوحى بذلك · كما أن هناك ما يدل على أنه اكتسب ذلك الاسلوب المهذب فى السلوك ، الذى بهربه واشنجتون فى الظروف المناسبة بعدئذ ، من مخالطته بعلية القوم من المهتمين بالسباق فى شارلستون

غير أن شارلستون لم تتفق وميوله ودفعه طموحه الى اتخاذ مهنة أكثر جدية · وقرر فى سن السابعة عشرة أن يشتغل بالقانون وصار يدرس القانون فى مدينة تدعى سالسبورى حيث كان على ما يقول أحد من عرفوه فى ذلك الوقت « أشد من عرفته سالسبورى طوال تاريخها صخبا وجموحا وأكثرهم شغفا بصراع الديكة ولعب الورق ، وأشدهم خبثا ورغبة فى الاذى » · وبعد مضى ثلاث سنوات بدأ فى سنة ١٧٨٧ يمارس الاشتغال بالقانون فى كارولينا الشمالية ، ولكن لم يمض عليه اثنا عشر شهرا حتى كان قد قرر أن ينتقل غربا ، واستقر فى ناشفيل فى تنسى التى صارت موطنه بقية حياته الطويلة ·

وكان وادى كمبرلاند الذى يضم ناشفيل ما زال حتى سنة ١٧٨٨ فى حالة غير مستقرة · فقد كان الهنود ، يثيرهم الانجليز أولا ثم الاسبان بعد ذلك ، لا يفتأون يهاجمون الامريكيين كلما لاحت فرصة · وهزمهم الامريكيون فى سنتين متتاليتين ١٧٩٣ و ١٧٩٤ ، وفى سنة ١٧٩٥ أبرمت معاهدة مع أسبانيا ففتحت للولايات المتحدة طريق الملاحة فى الميسيسبى · وكانت هذه الاحداث سببا فى ازدهار تنسى وأصبحت ولاية فى سنة ١٧٩٦ بعد معارضة شديدة فى مجلس الامة من جانب الاتحاديين ·

وفى نفس الوقت زاد جاكسون ثراء مع زيادة الرخاء فى المنطقة . فعندما وصل الى ناشفيل لم يجد فيها الا محاميا واحدا استقر فيها قبله ، وكان هذا المحامى وكيلا باستمرار عن المدينين فى البقاع المجاورة ولهذا لم يستطع الدائنون أن ينالوا العدالة . فالتجأوا الى جاكسون الذى نجح فى قضاياهم . وكانت وسائله فى ممارسة عمله مختلفة بعض الشىء عن الوسائل التى يتبعها كبار المحامين فى مدن أكثر من مدينته استقرارا .

« فقد كان المدعى عليهم ينزعون الى المشاغبة وكثيرا ما كانت تؤيدهم عصابات من رفاقهم يجعلون حياة المدعى شاقة ومحفوفة بالمخاطر ؛ وكانت شجاعة جاكسون المادية لاتقل عن شجاعته الادبية .. ولم تكن اللغة الرديئة والنطق غير السليم والاتهامات العنيفة لتروع القضاة والمحلفين أو تجعل أذهانهم تحيد عن الحقيقة» . وكانت تصرفاته فى أوقات فراغه تدعو أيضا الى الاعجاب ، « فقد كانت جياده أسرع الجياد ، وديكنه أشهر الديكة ، ولم يكن يخاصم سوى النابهين من الرجال ، وكانت عباراته النابية تقذف اليأس فى قلوب جميع شبان الوادى » . واختاره جيرانه أول ممثل لهم فى مجلس الامة سنة ١٧٩٦ اعترافا بفضائله المختلفة . وصار فى العام التالى عضوا فى مجلس الشيوخ، وفى العام الذى تلاه صار قاضيا فى محكمة تنسى العليا . وقد قام وهو فى منصبه هذا بالقبض شخصيا على مجرم شرير كان يتحدى المأمور وأعوانه . ذلك أنه لم يكن من الخير لانسان ما أن يكون متخصصا جدا فى مدينة من مدن الحدود ، وكان جاكسون يستطيع أن يقوم بعمله بنفسه أيا كان نوع هذا العمل . وكان مظهره يوحى بالرهبة كما توحى بها غداراته : فقد كان طويلا منتصب القامة أصفر اللون وكانت عيناه شديدتى الزرقة نفاذتين .

ولم تكن مطالب مهنته كثيرة بحيث لا تترك له وقتا للحب . فقد أسس مستعمرة كمبرلان ، التى صارت فيما بعد تنسى ، رجلان - روبرتسون ودونلسون . ومات ثانيهما قبل أن يصل جاكسون الى ناشفيل « مات فعلا ضحية لانتقام الهنود الحمر وكانت زوجته تؤجر غرفا فى منزلها للراغبين فى السكنى » . وكان جاكسن أحد السكان عندها . وكان للأرملة ابنة لهـــا زوج ، وكان الزوج منحطا دنيئا فجاءت الابنة لتسكن مع أمها . واصطلح الزوجان صلحا ظاهريا وجاء الزوج ليعيش فى ناشفيل . ولكنه بدأ يشعر بالغيرة من جاكسون على الرغم من أن جاكسون أكد له أن غيرته لا أساس لها . ورحل الزوج مقسما أن ينتقم لنفسه ، وخيم الحزن على السيدة وأحبها جاكسون وفى سنة ١٧٩١ بلغه أن زوجها حصل على اذن بطلاقها فتزوجها ، ولـــكن الحقيقة أن الزوج لم يحصل على الطلاق الذى لم يتم الا بعد ذلك بسنتين وعلى أساس أنها ارتكبت جريمة الزنا مع جاكسون . فلما عرف الامر تزوجهـــا جاكسون ثانية . وعاشا سعيدين أتم السعادة حتى وفاتها التى حدثت بعد انتخابه للرياسة مباشرة . وقد كان خصومه طوال المعركة الانتخابية يشيعون

بأنه رجل لاخلاق له وأنه كان يعيش مع امرأة متزوجة بآخر . وحال جاكسون بشهامته بين هذه الاشاعة وبين أن تبلغ مسامعها . ولكنها اكتشفتها بطريق الصدفة ، ويقال ان ذلك كان مما عجل منيتها .

وكان حظه فى أصدقائه أقل من حظه فى الحب . فقد كانت شخصيته تشبه شخصية الملك لير : فلم يكن يستطيع التمييز بين الاصدقاء الحقيقيين والمداهنين ، وكان يستشيط غضبا عندما يتبين أنه منح الخونة عواطفه . وكان مولعا بالشجار على الدوام ، ولم يكن بأى حال من الاحوال حكيما فى اختيار من يصب عليهم جام غضبه . مثال ذلك أنه بعد أن سئم المحاماة أصبح قائدا عسكريا يتحرق شوقا الى الرقى فى سلك الجندية فى لحظة بدت الحرب فيها وشيكة الوقوع (سنة ١٨٠٧) ، ولكنه اختار هذه اللحظة بالذات ليواجه وزير الحربية ويربورن بحقائق قاسية خاصة بالشئون الداخلية . ذلك أن جاكسون كان فى ذلك الوقت صديقا لآرون بير الذى كان مشتركا فى مؤامرة اعتبرتها الحكومة خيانة ، وكتب ويربورن خطابا الى جاكسون فى هذا الصدد ، ولم يرق الخطاب لجاكسون فأرسل اليه الرد التالى :

« ان الواجب الاول من واجبات الجندى أو المواطن الصالح هو الاهتمام بسلامة بلاده ومصالحها . وواجبه الثانى أن يهتم بمشاعره عندما يعتدى عليه بغلظة وبغير حق . وتلك هى لهجة خطابك وتلميحاتك فيه تزعجنى ، فآراؤك وتلميحاتك تخالف مايجب أن يتصف به الجندى ، قصص يشمارالبها وتلميحات عن تصرفات خلقية فيها انحطـــاط بأخلاق قائد عسكرى الى أخلاق قاتل مشاحن . (ثم بعد ذلك) . سيدى : سأرسل لك مع هذا صورة خطاب من الحاكم كاليبرون يبين لك أنى لم أحد أبدا عن واجبى الصحيح نحو بلادى ، حتى عندما أظن أنها أساءت الى .

مع احترامى وتمنياتى لك بالصحة .

أندرو جاكسون »

ثم أضاف بعد ذلك حاشية (لعله لم يرسلها مع الخطاب) :

« لقى الكولونيل ب فى منزلى كل ما يستحقه وطنى منفى من بلاده من اكرام . لقد كنت أعتقد وقتئذ أنه وطنى نفى من بلاده لأسباب يأسف لها كل رجل شريف ، وكذلك العنف الذى استعمل فى مطاردته .. وكان كل حديثه معى يدور حول حبه لبلاده وطاعته للقانون ولاوامركم . وبعد هذه التصريحات وبعد أن أخلى سبيله محلفون محترمون فى محكمة كنتكى تبددت كل شكوكى فيه ، وقد أمددته فعلا بقاربين ، ولو أنه طلب الى اثنين آخرين لأعطيته اياهما بنفس الشروط ، متأثرا بما انطبع فى ذهنى عنه ، لو أننى كنت أمتلكهما . ولكنى يا سيدى لو تبين لى بالدليل أنه خائن لكنت قطعت

رقبته بالسيف بنفس السرور الذى كنت أقطع به رقبتك أنت لو أننى جاءتنى فيك نفس البينة » ·

وسوى هذا الخصام بين الرجلين بالصلح ، ولكن حدثت بين الرجلين منازعات أخرى كانت خاتمتها مفجعة · ففى سنة ١٩٠٦ تحدى للمبارزة رجلا اسمه دكنسن كان يعتبر أمهر الرماة فى الغرب · وكان سلاح المبارزة الغدارة وحددت المسافة بينهما بثمان ياردات ، وكان كل منهما ينوى قتل غريمه · وأطلق دكنسن الطلقة الاولى · ووضع جاكسن يده على صدره ولكنه لم يتحرك حركة أخرى · فصاح دكنسن : يا الهى — هل أخطأته ؟ وتملكه الرعب · ولكن زميل جاكسن صاح به فى حدة يذكره بقانون الشرف ، فوقف ينتظر مصيره ·

وكان غريم جاكسن الآن تحت رحمته · فوقف برهة ينظر اليه ، ثم رفع ذراعه الذى يحمل الغدارة ببطء الى مستوى أفقى · وارتعد ديكنسن وحول رأسه الى ناحية أخرى · وصوب جاكسن غدارته بعناية عامدا ثم ضغط على الزناد · ولكن الرصاصة لم تنطلق وتبين بعد بحث سريع أجراه زميلا المتبارزين أن الزناد لم يكمل دورته ، وكانت هذه لا تعتبر طلقة تبعا للقواعد المتفق عليها · ومنح جاكسن الحق فى طلقة أخرى · ومرة أخرى صـــوب غدارته بعناية نحو ضـــحيته المسكينة الذى ظل طول الوقت واقفا ينتظر مصيره · وانطلقت الرصاصة فى هذه المرة · وقطعت هذه الرصاصة شريانا كبيرا ومات دكنسن فى تلك الليلة · وسار جاكسن منتصرا الى خارج الميدان وهو حريص على أن يخفى عن مرافقيه أنه أصيب ، لانه أراد أن يعتقد غريمه المحتضر أن طلقته خابت · وقال جاكسن مرة : انى كنت سأصيبه حتى لو كانت طلقته اخترقت مخى ·

وكان جاكسون في عمله هذا كما كان فى منازعاته الاخرى مسرفا فى تهوره أكثر مما تحتمله حتى تنسى فى تلك الايام ، وكانت النتيجة أنه اضطر الى الانزواء بعض الوقت بعيدا عن الحياة العامة · وأنقذته من هذا الموقف حرب سنة ١٨١٢ التى كان يعتقد أنها ستهيىء فرصة للاستيلاء على فلوريدا التى كانت وقتئذ أسبانية · وكانت فلوريدا تمتد على الساحل جنوبى تنسى مباشرة ، وكان ذلك مصدر متاعب ، هذا الى أن الاسبانيين والانجليز كانوا يتهمون بأنهم يعملون على اثارة الهنود على الامريكيين · وتظهر مشاعر جاكسون فى نداء وجهه الى جنوده فى ٢١ يوليه سنة ١٨١٢ :

« انكم تتحرقون شوقا لمعرفة الميدان الذى سنجد فيه أسلحتكم عملا لها · اتجهوا بأبصاركم اذن الى الجنوب ! انظروا الى ولاية فلوريدا الغربية ، فهى اقليم لا غنى للشرق الغربى من ولايتنا عن أنهاره وموانيه ، والشق الشرقى أحوج اليها من الشق الغربى · أنظروا هناك أيضا المقر الذى تثير منه الايدى الاثيمة الهمج المتوحشين وتدفعهم الى النهب واراقة الدماء ، أولئك

المتوحشين الذين لوثوا حدودنا بالدماء والذين سيجددون هجماتهم فى اللحظة التى تظهر فيها قوة انجليزية فى خليج بنساكولا ، هناك ينتظركم عمل يتفق وبسالتكم وحماستكم ، وستحسون برضاء فريد وأنتم توسعون فى هـــذه الجبهة حدود الجمهوريه الى خليج المكسيك وتسدون أبدا الى هذا الجزء من الاتحاد الذى تنتمون اليه مباشرة » .

وقامت مصاعب دبلوماسية وسياسية ، وتلقى جاكسون أوامرا بأن يقتصر فى قتاله على الهنود ، فلم يلبث أن هزمهم وطاردهم الى الممتلكـــات الاسبانية . ولكن الحادث الذى جعل منه معبود أمته كان هو الهزيمة التى أنزلها بالبريطانيين فى نيو أورليانز فى ٨ يناير سنة ١٨١٥ ، بعد أن كان الصلح قد أبرم فعلا وان لم يعرفه الطرفان المتقاتلان . وكانت هذه المعركة العديمة الجدوى نموذجا لما كانت عليه الحرب من سخف ، فقد انتهت هذه الحرب دون أن تبت فى أى من المسائل التى قامت من أجلها ولكنها جددت ذلك العداء ضد الانجليز الذى نشأ ابان حرب الاستقلال وجعلته يستمر طوال المائة العام التالية . لقد خسر العالم الشىء الكثير من جراء حماقة انجلترا ، ولكن القائد جاكسون أفاد منها كثيرا .

وعندما استولت الولايات المتحـــدة على فلوريدا فى سنة ١٨٢١ عين جاكسون حاكما عليها ، ولما احتل بنساكولا أبدت مسز جاكسون اهتمامها بطريقة الاسبان فى اتخاذ يوم الاحد يوم لهو ومتعة ، وعملت على أن يعرف الاهالى أنه قد بدأ عهد أكثر طهرا ونقاء من العهد السابق . فقـــد كتبت تقول : أرسلت الصاغ ستانتون ليبلغهم أن الاحد التالى سيحتفل به بطريقة أخرى .. وقد أسعدنى أن أرى بالامس أن ما قلته قد تحقق . فقد حافظوا على النظام التام وظلت الابواب مغلقة وهدمت بيوت الميسر ولم يعد يسمع صوت الرقص والعزف فى يوم الرب ، كما لم تسمع ألفاظ السباب واللعنات » . وعندما رفع العلم الامريكى قام أحد أتباع الكنيسة النظامية يوزع النشرات رغم احتجاج القسس . وأحاط طلاب الوظائف بكل من الحاكم وزوجته يلاحقونهما برغباتهم الملحة فى وظائف الاقليم الجديد . ووقع شجار عنيف جدا بين جاكسون والحاكم الاسبانى المنسحب كان الطرفان فيه سخيفين، وان كان الاسبانى أكثر سخفا . وبعد عدة مصادمات أخرى استقال جاكسون اشمئزازا وعاد الى ناشفيل . وكان منزله «الصومعة» رحبا مريحا كما كان يملك ضيعة لا بأس بها وعددا كافيا من العبيد ، وكان لجاكسون « عربة جميلة يجرها أربعة جياد شهباء ويتبعه بعض الخدم فى زيهم المعروف » .

ومع ذلك فقد كان يعتبر أكثر من جفرسن ديموقراطية ، ومما لاريب فيه أن السبب فى ذلك يرجع بعضه الى نشأته ، ولكن السبب الرئيسى فى ظنى كان افتقاره الى التعليم .

وسقط جاكسون فى انتخابات الرئاسة سنة ١٨٢٤ بأصوات قليلة جدا ، ولكنه نجح فيها عام ١٨٢٨ بأغلبية ساحقة ، ثم أعيد انتخابه للرياسة فى عام ١٩٣٢ • ويعزو الناس اليه عادة أنه صاحب نظام الاسلاب (×) ، وان لم يكونوا فى ذلك منصفين كل الانصاف ، وهو نظام تخصص بمقتضاه كل وظائف الحكومة ، حتى وكلاء مكاتب البريد ، لرجال الحزب الذى يتولى الحكم ويتغيرون بتغير الحزب الحاكم • وعلى الرغم من أن جاكسون ليس مبتكر هذا النظام فانه قطعا بالغ فى تطبيقه • وكان هذا مثلا من ديموقراطيته ، وكان المثل الآخر قضاؤه على بنك الولايات المتحدة • والامران ينبعثان عن نظرية واحدة فى الحكم — وهى النظرية التى تذهب الى أن المطلوب فى الموظف ليس المهارة بل الامانة ، وان دليل الامانة هو الانتماء الى الحزب الذى يفضله الناس أكثر من غيره •

وقد كتب الرئيس الجديد فى مسودة الخطاب الافتتاحى ما يأتى :

« سأعنى عناية خاصة بأن أملأ المناصب المختلفة التى تحت تصرف السلطة التنفيذية بأفراد يجمعون بقدر الامكان بين صفات العقل والقلب ، واضعا نصب عينى دائما أنه يجب فى الحكومة الحرة أن تفضل الصفات الخلقية على المواهب • ذلك أن من السهل أن ندرك أنه فى صور الحكم التى لا يعتبر الشعب فيها صاحب السيادة يعتمد أمن الامبراطورية أساسا على المهارة التى يستمد بها صاحب العرش خضوع رعاياه المفتونين به • ولكن الامر عندنا يختلف عن ذلك • فهنا تسيطر ارادة الشعب كما عبر عنها فى دستور اختاره بنفسه على خدمات الموظفين العموميين ، ويهتم الشعب غاية الاهتمام بالمحافظة على تلك الصفات التى تتضمن الاخلاص والامانة والولاء لمصالحه » •

ولكن تطبيق هذه النظرية لم يأت دائما بنتائج طيبة • فمثلا أعطى منصب المحصل فى ميناء نيويورك الى رجل اسمه سوارثووث بدا للرئيس أنه « يجمع بين صفات العقل والقلب » • ولكن هذا الرجل الحكيم الطيب اتخذ مركزه ، من أول لحظة تقريبا ، وسيلة لجمع المال ، وعندما اكتشفت سرقاته بعد أن اعتزل جاكسون الرياسة تبين أنها بلغت مليونا وربع مليون من الدولارات •

وكان جاكسون مخلصا كل الاخلاص فى ايمانه بنظام الاسلاب ، ولم يكن هذا النظام فى رأيه وسيلة لمكافأة أصدقائه السياسيين • وشاهد ذلك ما كتبه بعد أن تولى الرياسة بشهرين أو ثلاثة أشهر فى مذكراته الخاصة :

(×) يقول شانتج فى كتابه « تاريخ الولايات المتحدة » المجلد السادس ص ١٢٣ « كان الرئيس واشنتجتن هو الذى بدأ نظام الاسلاب ••

« لقد ثارت ضجة كبيرة حول الاقالات • وسيعرض الامر على مجلس الامة لاصدار قانون يقضى باخلاء المناصب بصفة دورية — وعندئذ يعاد تعيين الصالحين ويترك غير الصالحين والمقصرين دون ضجة • ان كل رجل يلى منصبا بضع سنوات يعتقد أن المنصب أصبح ملكه طول الحياة وأنه حقه المكتسب ، وأنه اذا ظل فى منصبه عشرين سنة أو أكثر ، فليس حقه فيه ثابتا فحسب ، بل انه ينبغى أن يحتفظ به لاولاده فلأقرب أقربائه • ليست هذه مبادىء حكمنا • بل ان هذه الدورة فى ملء المناصب هى التى ستحقق لحريتنا الدوام » •

ولم تكن قد تكونت لدى أمريكا وقتئذ فكرة عن الخدمة الحكومية غير الحزبية ، بل ان فكرتها عنها فى الوقت الحاضر لا تزال غير كاملة • فقد كان الاعتقاد السائد أنه اذا لم يتغير شاغلو المناصب بتغير الحكومة فان هذه المناصب تصبح ملكا لطبقة من الموظفين يتوارثونها • وتدين انجلترا الى الراديكاليين الفلسفيين بوجود أداة حكومية دائمة يتم اختيارها عن طريق الامتحان ، فهم الذين أصلحوا الفساد الارستقراطى الذى كان سائدا فى القرن الثامن عشر دون أن يقيموا محله الفساد الديمقراطى الذى نجم عن نظام جاكسون •• ولو أن شخصا اقترح على جاكسون ، الذى كان يعتقد أن الوظائف الحكومية تتطلب الفضيلة أكثر مما تتطلب الذكاء ، أن يشغل المناصب المتفوقون فى الدراسات العلمية لراعه ذلك • وليس فى ذلك غرابة فقد كان هو نفسه قاضيا ناجحا دون معرفة بالقانون ، وقائدا حربيا موفقا دون أن يدرس العلوم الحربية والفنون والحركات العسكرية ، فمن ثم كان طبيعيا أن يفضل قلبا طيبا على رأس مفكر لأن القلب الطيب فى نظره هو المؤهل الحق لشغل المناصب العامة •

على أننا ينبغى ألا نعزو نظام الاسلاب الى جاكسون منفردا ، بل انه كان نتاجا لا مفر منه للديموقراطية كما فهمها الامريكيون • وفى ذلك يقول تشاننج « ان التحول من النظام الاستعمارى القديم الذى يقضى بتعيين الموظفين فى المناصب العامة بصفة دائمة الى الطريق الاكثر ديموقراطية التى تقضى بشغل الوظائف العامة بصفة دورية على أساس سياسى ، ان هذا النمو كان أمرا لا مفر منه (×) » • وعندما كان لنكولن صغيرا كان الناس فى ايلنيوى يرون أن تناوب الزعماء السياسيين فى كل حزب عضوية مجلس الامة أو شغل أى منصب مرغوب فيه بصفة خاصة اجراء سليما • وصحيح أن هذا كان يحدث داخل نطاق السياسة الحزبية ، ولكنه يبين نفس وجهة النظر التى أوحت بنظام الاسلاب ، وهى أن الوظائف العامة لا تتطلب مهارة خاصة ، وأن من العدل تبعا لذلك أن توزع المزايا بالتناوب على جميع الرجال الطيبين •

(×) تشاننج — المرجع السابق والمجلد نفسه ٤٠٢

وكانت النتيجة النهائية للاعتقاد بأن عمل الحكومة لا يتطلب مهارة أن تحولت المهارة الى المشروعات الخاصة · وفى مسائل كثيرة كانت نتيجة نظام جاكسن أن قام بدلا من حكم الشعب حكم المصالح المالية · لقد ظلت روح هاملتون حية فى أمريكا ، وكلما اشتدت هزيمتها فى الظاهر ، زاد انتصارها فى الحقيقة · وقد بلغت فكرة الديموقراطية من الفردية حدا تركت معه كل المشروعات التى تتطلب تعاونا من عدد كبير من الناس ، باستثناء الحرب ، للابتكار الخاص وأديرت بحيث تدر أولا على القائمين بها ربحا ، أما فائدة المجتمع فتأتى عرضا ·

غير أنه يجب أن نعترف مع ذلك بأن لنظام الخدمة العامة الحزبى بعض المزايا من الناحية الحكومية ، وأنه أمر لا مفر منه تقريبا فى بعض الظروف الخاصة · فقد وجد جفرسن ابان رياسة جون آدمز أنه من الضرورى أن يكون حريصا جدا فى استخدام البريد ، لأنه كان يعتقد أن رسائله كان يعبث بها (×) · كما أن لنكولن صادفته ظروف استغل فيها وكلاء مكاتب البريد فى ايلينوى مراكزهم لصالح الحزب الديموقراطى وذلك باغفال تسليم الجرائد التى تؤيد الاحرار (× ×) · وفى مثل هذه الحالات ترجح الاضرار التى تصيب الجمهور المزايا التى تجنيها الحكومة ، وان كان وجود هذا النظام يجعل من الطبيعى أن يفصل الحزب المنتصر الموظفين العاملين الذين وقفوا فى سبيله · ان الخدمة الحكومية غير السياسية ليست ممكنة الا فى الاوقات التى يسودها الهدوء النسبى ، فقد كانت مثلا مستحيلة كل الاستحالة فى روسيا سنة ١٩١٨ · الا أن الانقسامات الحزبية فى أمريـكا لم تكن من الشدة بحيث يستحيل معها قيام خدمة حكومية غير حزبية ، باستثناء فترة الحرب الاهلية · وكان الذى جعلها مستحيلة فى عهد جاكسون هو عدم الاستعداد للاعتراف بأن الوظائف الحكومية تتطلب مهارة · ذلك أن المهارة شىء لا يتمتع به الجميع ومن ثم كان الاعتراف بالحاجة اليها يبدو خيانة للايمان بالديموقراطية ·

وقد هاجم جاكسن مصرف الولايات المتحدة تحدوه نظرة مماثلة لهـذه النظرة · وقد كان هناك قبل ذلك مصرف للولايات المتحدة أنشىء فى سنة ١٧٩١ ، بدأه هاملتون وعارضه جفرسن ، وأقره واشنجتن بعد شىء من التردد فيما يتعلق بدستوريته · وكان لهذا المصرف امتياز انتهى فى سنة ١٨١١ ولم يجدد ، وكان بعض السبب فى ذلك أن ثلاثة أرباع أسهمه كانت فى أيد أجنبية معظمها من الانجليز · وأنشىء المصرف الثانى للولايات المتحدة سنة ١٨١٦ ، وكان أكبر أهدافه اصلاح العملة · وكان امتيازه ينتهى فى سنة ١٨٣٦ الا اذا جدد · ولم يكن شعور الناس نحوه طيبا من مبدأ الامر ، وعندما

(×) تاكر « حياة جفرسون » جزء ٢ ص ٦٤

(× ×) نيقولاى وهاى — نفس المرجع ص ١٨٣

طالب جاكسون خلال حملته الانتخابية للرئاسة سنة ١٨٣٢ بتأييد الجماهير له في معركته ضد هذا المصرف منحه الجمهور تأييده بحماسة ، وخاصة في الجنوب والغرب ٠

وكانت الحالة المصرفية في أمريـــكا قد ظلت فترة طويلة في فوضى ميئوس منها ٠ فقد كان فيها الى جانب مصرف الولايات المتحـدة مصـــارف الولايات والمصارف الخاصة ٠ وأفلست عادة هذه لاخيرة ، التي كانت تسمي مصارف القطط البرية ، وكان جميع المصارف تصدر أوراقا نقدية ، بل أن مصارف القطط البرية نفسها كانت تقوم بلا رصيد آخر تقريبا ٠ ولم يكن في الغرب الا قدر صغير من المسكوكات ٠ وكان النقد في الغرب في الفترة التي بين مصرف الولايات المتحدة الاول ومصرفها الثاني يتكون اما من أوراق نقدية أصدرتها مصارف القطط البرية أو مصارف الولايات ٠ وكانت قيمة الاوراق التي تصدرها الاولى مشكلة في كل مكان ، والثانية كانت تفقـد بعض قيمتها كلما ابتعدت عن مصدرها الاصلي ٠ وكان الغرض من مصرف الولايات المتحدة توحيد النقد في البلاد كلها ، ولكن البنك صادف أوقاتا عصيبة ، وبدا كأنه يزيد الحالة سوءا ٠ وحاولت أوهيو أن تفرض عليه ضريبة فأصدرت المحكمة العليـا قرارا بأن الولايات لا تستطيع أن تفرض عليـه ضرائب ٠ وأعلنت أوهيو أن حق الولايات في تفسير الدستور لا يقل عن حق المحكمة العليا ، وجبيت الضرائب بالقوة من فروع المصرف في أوهيو وأعلنت أن أي شخص يستطيع أن يسرق البنك دون عقوبة ٠ وحدثت متاعب مماثلة لهذه في عدة ولايات أخرى ٠ فقد كان كل شخص في الغرب يقترض لاصلاح أكبر قدر ممكن من الارض ، ولم يستطع عدد كبير جدا من المقترضين الوفاء بديونهم ٠ وكان أغلب الدائنين من الشرق ويمثل المصرف مصالحهم ٠ وطبيعي أن يكون لدى المدينين في كل مكان من الاسباب ما يجعلهم يعارضون المصرف، وكان لدى المدينين في الغرب سبب اضافي ، يدعوهم الى هذه المعارضة ، وهو سبب جغرافي ، فقد بدا كان المصرف يعرقل ذلك العمل العظيم وهو تقدم الغرب ونماؤه ٠

وحيرت عمليات نظام الائتمان فكر الرواد الغربيين ومن بينهم جاكسون ، فقد كانت تحدوهم جميعا رغبة ملحة في استغلال المصارف في الاستحواذ على أرض أكثر واصلاحها ، ولكن لم يبد لهم أن المصارف تقوم بأي عمل مهم حين تقرضهم المال ٠ فقد كان عملها كله يتم على الورق : فصاحب المصرف لم يتصبب عرقا كالرجل الذي يقطع شجرة أو يصلح أرضا بكرا ٠ وكان صاحب المصرف يحصل على امتيازات يمكن بمقتضاها أن ينزل الخراب برجل نشط مقابل وثيقة لا أكثر ودون عمل جدي ٠ فاذا عجز المحصول أو انخفضت الاسعار أو حتى اذا حدثت أزمة نقدية في الشرق أو في أوروبا فان للمصرف أن يقتضي دينه ، واذا لم يستطع المزارع أن يجد مالا أصبح كل نتاج جهوده

ملكا للمصرف • ان الائتمان أشبه بخزان يصب فيه عمل المجتمع كله ، انه نتاج جماعي وليس نتاجا فرديا • غير أن النواحي الجماعية في الاقتصاد لم تكن مفهومة لرجل الغرب الذى لا يعتمد الا على نفسه ، ومن ثم كانت مصدرا لغضبه • وقد سمحت كل المجتمعات المتمدينة ، ولم يكن في سماحها هـذا حكمة ، لأفراد معينين بأن يستحوذوا على أعمال الائتمان على الرغم من أنه يقوم على مجهود المجتمع كله ، كما سمحت لهم بأن يستخدموه فى اقتضاء المال ممن هم فى حاجة الى الاقتراض • وصارت المعارضة فى الارباح التى يجنيها هؤلاء الافراد معارضة لنظام المصارف كله فى عهد جاكسون ، وخاصة لأقل صورها ضررا لانها كانت أكثر الصور تركيزا • والواقع أنه يجب أن تكون هناك مؤسسات للاشراف على الائتمان فى أى مجتمع متمدين يسمح بقيام المشروعات الخاصة ، غير أن هذه المؤسسات اذا تركت فى أيد خاصة تزداد قوة بحيث تسيطر سيطرة تكاد تكون استبدادية على كل ألوان النشاط الاقتصادى • وكان جاكسون ومؤيدوه يريدون الافادة من فرص الثراء التى كان الغرب يتيحها : فالذين يملكون عبيدا لم يروا شيئا غير سـليم فى الاستيلاء على نتاج عملهم ، والذين كانوا يضاربون فى الارض لم يعزفوا عن فرصة للربح عندما ترتفع أثمان أراضيهم نتيجة لجهود جيرانهم • وطالما ظلت أنواع الربح التى يرغبون فيها لانفسهم مسموحا بها فان أرباح أصـحاب المصارف تظل مسموحا بها أيضا • ومن ثم لم يكن جاكسون يستطيع الا أن يقرر أن المصارف الخاصة تدار بطريقة سيئة ، ولم يكن يستطيع أن يذهب الى وجوب الغائها • ذلك أن الديمقراطيه أرادت أن تهيىء حرية واسـعة للراغبين فى الثراء ، ولكنها أرادت أيضا فى نفس الوقت أن تحسد من نجحوا فى الحصول على الثراء • وقد جعلها ذلك غير متسقة منطقيا ومن ثم غيـر قادرة ، بطبيعة الحال ، على النجاح •

ولم يستطع جاكسون أن يقضى على كل المصارف رغم أنه كان يود أن يفعل ذلك • وقد قال مرة لبدل رئيس مصرف الولايات المتحـدة : « انا لا أكره مصرفك أكثر مما أكره أى مصرف آخر ، ولكننى قرأت تاريخ مشروعات (البحر الجنوبى) الموهومة وأنا أخشى المصارف » • وقال فى مناسبة أخرى ، « ان كل من يعرفنى يعرف أنى كنت دائما معارضا لمصرف الولايات المتحدة ، بل لكل المصارف » • وهو عندما يقول « انى أخشى المصارف » فهو انما يعبر عن جوهر احساسه • ذلك أن المصارف محيرة وغامضة ، ولا يستطيع مواطن أمين لم يصب حظا من التعليم أن يعرف أولها من آخرها • ولهـا من القوة ما يجعلها عظيمة الاهمية من الناحية السياسية ، غير انه يجب على كل مواطن بالغ عاقل فى أيه ديموقراطية أن يكون قادرا على الحكم على كل المســائل السياسية • ومن ثم فان أى شيء يصعب على الرجل العادى فهمه يعد فى رأيه مناهضا للديموقراطية ،ومن ثم فهو مضر ، ولما كان مصرف الـولايات المتحدة أقوى من أى مصرف آخر فهو لذلك أكثرها ضررا ، ولما كنا لا نستطيع

الغاء كل المصارف ، فان من واجبنا على الاقل أن نلغى أكبرها ضررا . هذا على ما اعتقد ماكان يدور بخلد جاكسون فى هذا الموضوع ، وهو اذ يفكر على هذا النسق انما يعبر بأمانة عن ارادة الشعب .

وكان جاكسون وطنيا غيورا ، وهو أمر لم يكن منه مفر بالنسبة لخلقه وتاريخ حياته ولسنا نعنى بقولنا أنه وطنى غيور انه يحب بلاده فحسب ، بل تتملكه نزعة الاستعمار والحرب ، فهو يقول فى سنة ١٨٢٩ فى معرض حديثه عن الميسيسبى : « ان اله الكون قد أراد أن يكون هذا الوادى الكبير ملكا لأمة واحدة » . وقد تحققت ارادة الله حتى قامت حرب السبع سنوات حين كان الوادى كله لفرنسا ، ولكن يبدو أنها قد نسيت بعد ذلك الوقت وظلت كذلك حتى جاءت حكومة الولايات المتحدة وعرضت الامر على حكومة الكون!! وكان حقد جاكسون على الانجليز أما طبيعيا بالنظر الى ما عاناه فى حرب الاستقلال وانتصاره فى حرب سنة ١٨١٢ ، ولكن حقده على الاسبان لم يكن له ما يبرره بهذا القدر . ولقد كان كل الجنوبيين فى أيامه تراودهم الرغبة فى القيام بغزوات فى الجنوب . وقد ضمت لويزيانا وفلوريدا وتكساس على التوالى ابان حياته ، وتم ضم فلوريدا بالطريق الدبلوماسى لا بالحرب على الرغم منه . وقد كتب فى سنة ١٨٤٣ ، بعد فترة طويلة من تقاعده ، خطابا عنيفا يحث فيه على ضم تكساس حتى لا يستولى عليها الانجليز ، وقال فيه :

« لقد أبرمت بريطانيا العظمى فعلا معاهدات مع تكساس ، ونحن نعلم أن تلك الامة بعيدة النظر لا تفوتها فرصة فى علاقاتها الكثيرة مع العالم يمكن أن تستفيد منها فى زيادة مواردها العسكريه . فهل هناك ما يمنع ان تتحالف مع تكساس ، فتستبقى ، وهى لا شك فاعلة ، بمشكلة الحدود الشمالية الغربية لتتخذها حجة لاعلان الحرب علينا فى اللحظة التى تختارها - ولنفترض أننا سنضطر الى محاربتها بوصفها حليفة لتكساس . وسترسل هى استعدادا لهذه الحرب عشرين أو ثلاثين ألفا من رجالها هناك ، ثم تنظمهم فى السابين حيث يمكن تخزين المؤن والاسلحة حتى قبل أن ندرك نواياها ، ثم تحتل موضعا على الميسيسبى وتثير الزنوج وتدفعهم الى التمرد ، فيسقط الجزء الجنوبى ومعه نيوأورليانز . وتشتعل أوار حرب العبيد ضد سادتهم فى جميع أنحاء الجنوب الغربى (×) » .

وأرضت نزعته الاستعمارية الجنوب كما أرضت وطنيته جميع الولايات باستثناء كارولينا الجنوبية ، حين أرادت هذه الولاية أن تنفصل ووقف هو يدافع بشدة عن الاتحاد . وكانت قوميته من النوع الذى تحبه الجماهير فى الديموقراطيات اذا كانت قوية . ولكن حب الفتح فى الجنوب صار فى الفترة الاخيرة من حياته غير مرغوب فيه لدى الشماليين بسبب مشكلة الرق . فعندما

(×) نيقولا وهاى - نفس المرجع (١) ص ٢٢٦

كان رئيسا ، كانت التعريفة الجمركية ، لا الرق ، هى التى فرقت بن الشمال والجنوب ، وكان التوفيق فى هذه المشكلة مستطاعا ، اذ كانت الاحــزاب السياسية قد بدأت تنقسم على أساس الاقاليم ، فلم يكن تأييده مقصورا على الجنوب ، بل ان الشمال الغربى وبنسلفانيا كانايؤيدانه كماكانت تؤيده أغلبية فى ولاية نيويورك · فقد كان موضع الاعجاب لوطنيته وبطولته الحربية بقدرما

كان موضع الاعجاب بسبب ديمقراطيته · وقد تعلم الرجل العادى بارشاده أن يحتقر أوروبا ، وأن يحتقر أيضا الكثير مما له قيمة فى بلده نفسه · ولو أن تأثيره كان هو العامل الكبير الاخير فى تكوين الشخصية الامريكية ، لصارت الديموقراطية الامريكية مرتبطة بالجهل والتهور والعنف · ولكن كان من حسن الحظ أن ظهرت فى الجيل التالى مشكلة جديدة مهدت السبيل لتأثير جديد أصبحت أمريكا عن طريقه أكثر جدارة بمالها من سلطان على مصير البشرية ·

الفصل الرابع والعشرون

الرق والانفصال

ان الولايات المتحدة ، كما يدل اسمها ، اتحاد يحدد فيه سلطات الحكومة الاتحادية الدستور كما تفسره المحكمة العليا · وكانت الولايات الثلاث عشرة موجودة قبل اتحادها وكان بينها اختلاف كبير فى الدين والمناخ والتاريخ · وكانت مصالحها الاقتصادية أيضا مختلفة وفى نواح كثيرة متضاربة ، وظلت علاقاتها الاقتصادية مدة طويلة مع أوروبا أكثر مما هى مع بعضها البعض · فلم يكن هناك مثلا تقارب طبيعى بين ماساشوستس المتطهرة ، التى كانت تعيش أساسا على التجارة البحرية والصناعة ، وفرجينيا المشيخية حيث كان أصحاب الاراضى الكبار يزرعون الطباق معتمدين على مجهود العبيد · وجاء الاتحاد نتيجة لحرب الاستقلال ، ولكن حرب ١٨١٢ كادت تقضى عليه ، لان الشمال لم يكن يحب أن تتعطل التجارة · ولما أقر الاتحاديون فى سنة ١٧٩٨ قوانين « الشغب والدخلاء » أصدرت كنتكى قرارات كتبها جفرسن تنص على أن هذه الولاية ترى أن تلك القوانين غير دستورية ورفضت تنفيذها ، وحذت فرجينيا فى ذلك حذوها · ولم يكن الجميع يعترفون فى تلك الآونة بأن تفسير المحكمة العليا للدستور ملزم للجميع · وفى سنة ١٨٣٢ كادت كارولينا الجنوبية أن تنفصل بسبب عدم رغبتها فى التعريفة الجمركية · وحتى فى سنة ١٨٤٣ هدد ثلاثة عشرة رجلا من رجال مجلس الامة وعلى رأسهم الرئيس السابق ج·ك آدمز بانفصال ولاياتهم اذا ضمت تكساس الى الاتحاد؛ وكانت جميع الولايات فى الشمال والجنوب القديمين ترى الانفصال أمرا محتمل الوقوع دائما ·

ثم أصبح العامل الاساسى فى الانفصال على مر الزمن هو مشكلة الرق · ولهذه المشكلة تاريخ طويل لا يمكن فهمها بدونه ·

أدخل الاوروبيون الرق فى جميع أنحاء القارة الامريكية · نعم ان الحكومة الاسبانية سجنت كولمبس لانه استرق بعض الهنود ، ولكن هذه الظاهرة لم تدم طويلا · ولما كان الهنود لا يصلحون رقيقا فقد جيء بالزنوج من غربى أفريقية بأعداد كبيرة · وكان الرق مشروعا فى عهد الاستعمار فى كل مكان من أمريكا ، الا أنه لم يكن فى وقت من الاوقات ذا شأن فى الشمال · وأقر مجلس فرجينيا اجراءات تهدف لالغاء تجارة الرقيق اعترض عليها جورج الثالث وأبطالها · وكان هذا أحد الاسباب التى بنى عليها جفرسون اتهامه لهذا الملك الطائش فى المشروع الاصلى لاعلان الاستقلال ، ولكن هذه الفقرة

استبعدت فيما بعد لانها لاتصلح أساسا للشكوى . ومع ذلك فقـــد ألغيت تجارة الرقيق بمقتضى اتفاق مع الانجليز فى سنة ١٨٠٨

وفى سنة ١٧٨٤ اقترح جفرسن الغاء الرق فى الشمال الغربى ، وعـــلى الرغم من أنه هزم فى تلك المرة فقد نجح فى سنة ١٧٨٧ عندما وافق المجلس القارى بالاجماع على الغاء الرق فى الاقليم الذى يقع شمال نهر أوهيــــو وغربه . وقبل أن ينتهى القرن الثامن عشر كان الرق قد ألغى فى كل الولايات الشمالية وكانت الولايات الجنوبية فى ذلك الوقت تتطلع بسرور الى انقراض الرق تدريجا ولم يكن هناك حتى ذلك الوقت أى شعور عدائى بين الشمال والجنوب بسبب هذه المشكلة .

وتغير مجرى التاريخ فى أمريكا ، كما تغير فى انجلترا المعاصرة ، بسبب اختراع الآلات التى توفر العمل . فقد جعلت المخترعات فى انجلترا فى وسع الشخص أن يغزل وينسج قدرا يساوى ما كان يقوم به خمسون شخصا فى نفس الوقت ، وكانت نتيجة اختراع هذه الوسائل (التى توفر العمل) أن اضطر الاطفال الصغار الى العمل خمس عشرة ساعة يوميا . وكان من نتائجه الاخرى أن زاد الطلب على القطن الخام . وجعلت آلة الحليج التى اخترعها هوينى سنة ١٧٩٣ فى استطاعة الزنجى أن ينظف خمسين رطلا من القطن فى اليوم بدلا من رطل واحد . ونجم عن كل هذا أن اتسعت زراعة القطن بسرعة فى الولايات التى تقع فى أقصى الجنوب . وكانت زراعة مربحة جدا وهى تعتمد على مجهود الرقيق . ومن ثم بدأت منطقة القطن تهتم بموضوع الرق . هــذا الى أنه لما كان الجو فيها غير صحى وكانت تجارة الرقيق قد توقفت ، فقد نشأت الحاجة الى استيراد الرقيق باستمرار الى منطقـة القطن من الولايات الجنوبية الغربية من الشمال ، ومن ثم ارتفعت أثمان الرقيق فى كل مكان وعلا شأن فرجينيا وكارولينا الشمالية باعتبارهما حقلا لتربية ضحـــايا المستقبل لدودة الانكلستوما والملاريا والحمى الصفراء . وتحول شعور الجنوب كما تحولت حياته الاقتصادية ، وصار الدفاع عن الرق بالنسبة له دفاعا عن مصلحة حيوية .

وحدث أول صدام خطير بين الشمال والجنوب سنة ١٨٢٠ وانتهى باتفاق ميسورى . ذلك انه منذ أن ألغت الولايات الشمالية الرق أصبح عدد الولايات الحرة وولايات الرق متساويا ، وظل كذلك لان الولايات الثمان الجديدة كان نصفها حرا ونصفها يبيح الرق . ولما كان مجلس الشيوخ مكونا من ممثلين اثنين لكل ولاية فقد ظل التوازن محفوظا طالما بقى عدد الولايات فى الناحيتين متساويا وكان فى انضمام ميسورى ترجيحا لكفة الجنوب . فقامت معارضة عنيفة وجهت الأنظار الى خطورة الامر فى المستقبل ، ووصفها جفرسون بأنها كناقوس الحريق يدق فى جوف الليل ، وأخيرا تقرر المحافظة على التوازن بانشاء ولاية مين ، كما تقرر انه عندما تنشأ ولايات جديدة فى الغرب مستقبلا

تكون الولايات التى تقع شمال خط عرض ٣٠ر٣٦ درجة خالية من الرق والتى تقع جنوبه تبيح الرق . وظل هذا التراضى يسيطر على سياسة الحكومة الاتحادية مدى جيل من الزمان .

وكان الأثر النهائى لذلك دفع الجنوب الى وضع خطط للتوسع الاستعمارى ولم تعد هناك بعد الاستيلاء على فلوريدا أقاليم تصلح لانشاء ولايات جنوبية جديدة ، بينما ظل انشاء عدد كبير من الولايات التى لا تبيح الرق مستطاعا فى الشمال الغربى . غير أن المكسيك كانت ضعيفة ، وكان يقال أن «الاقدار التى لا خفاء فيها» تتطلب أن تستولى الولايات المتحدة على كل ما ترى أنه من الموافق الاستيلاء عليه من الاراضى المكسيكية فى أى وقت . وعمل المغامرون الامريكيون ، بتشجيع من الولايات الجنوبية ، على أن تعلن تكساس استقلالها عن المكسيك وتعيد الرق الذى كانت المكسيك قد ألغته . وأرادت حكومة تكساس ، التى كانت مكونة من مهاجرين من الولايات المتحدة ، الانضمام الى الاتحاد ، وتم ذلك فى سنة ١٨٤٥ . وأتاح هذا لولايات الرق الغلبية ولاية واحدة .

وكانت المكسيك فى هذه الاثناء قد جرؤت على الاحتجاج ، ومن ثم هيأت الفرصة للحرب المكسيكية . وانتهت الحرب بضم اقليم يتكون الآن من ولايات كاليفورنيا ونيفادا ويوتاه وأريزونا وأجزاء من نيومكسيكو وكلورادو ويومنج . ولكن النتيجة لم تكن كما يأمل الجنوب . ذلك أن الجزء الوحيد الذى كان يسكنه عدد من الاهالى يكفى لان يجعله ولاية هو كاليفورنيا ، وكان نصفها شمالى خط اتفاق مسورى والنصف الآخر جنوبه ، الا أنها قررت عدم اباحة الرق . وأدى ذلك الى موقف عسير وضع له حد ، لبضعة سنين فقط ، باتفاق جديد هو اتفاق سنة ١٨٥٠ - وكان عدد الولايات التى تبيح الرق والتى لا تبيحه قد تساويا مرة ثانية فى الوقت الذى تم فيه هذا الاتفاق وذلك بانضمام ويسكونسن سنة ١٨٤٨ ، ولكن الاقتراح بعدم اباحة الرق فى الاقاليم الجديدة هزم .

ولم يتم اتفاق سنة ١٨٥٠ الا بعد مداولات طويلة شاقة مصحوبة بالتهديد بالانفصال . وكان هذا الاتفاق يحتوى ثلاث شروط ترضى الشمال وشرطين يرضيان الجنوب . فلارضاء الشمال ضمت كاليفورنيا دون تجزئة لتكون ولاية خالية من الرق على الرغم من أن نصفها تقريبا واقع جنوب خط اتفاق ميسورى ، ونظمت كل من نيومكسيكو ويوتاه ولايتين خاليتين من الرق ، وحرمت تجارة الرقيق فى مقاطعة كولمبيا . ولارضاء الجنوب صدر قانون جديد أكثر شدة لمعاقبة الأرقاء الفارين ، ومنحت تكساس عشرة ملايين دولار . ويقول نيكولاى وهاى عن هذا الشرط الاخير : « لقد قيل بحق أن هذا التعويض ، الذى قدره عشرة ملايين دولار والذى يضاعف فجأة قيمة

دين تكساس ثلاث مرات ومن ثم يهيء فرصة لم يسبق لها مثيل للمضاربة في سندات دين هذه الولاية ، كان هو القوة المحركة التي أجازت هـذه القوانين في مجلس الامة على الرغم من المتعقدات الاصلية لغالبية الاعضاء » وهما لا يؤيدان هذا الرأى كل التأييد · ولكن من العسير أن يشك المرء في أن عشرة ملايين دولار ليس لهـا تأثير على « المعتقدات الأصلية » لبعض الناس ·

وانهار اتفاق سنة ١٨٥٠ لعدة أسباب ، على الرغم من أنه كان يرجى أن تكون مشكلة الرق قد سويت نهائيا ، وكان لعودة النزاع سببان هما : (١) أن الشمال كان يكره قانون الرقيق الفارين وقاوم تنفيذه · (٢) أن الجنوب وقد رأى أنه لم تعد هناك فرصة لانشاء ولايات جديدة تبيح الرق جنوب خط عرض ٣٠ر٣٦ درجة اضطر الى الغاء اتفاق ميسورى · وأخذت هوة الخلاف تتسع من هذين المصدرين حتى لم يعد هناك نتيجة له الا الحرب ·

وقد أثبتت مشكلة قانون الرقيق الفارين ، ولعلها اثبتت أكثر من أى شيء آخر ، صحة عقيدة لنكولن القائلة أن الاتحاد لا يمكن أن يعيش ونصفه يبيح الرق والنصف الآخر لا يبيحه · وعندما أعلن لنكولن أول مرة هذا الرأى في سنة ١٨٥٨ أعترت الدهشة الكثيرين ، وكان اعلانه هذا أساسا لحجج دوجلاس ضده في المناقشات الكبيرة التي دارت بينهما ، ولما أن أخذ الارقاء في الجنوب يهربون الى الشمال ، وكان الجنوبيون يطالبون زورا وبهتانا بالزنوج الاحرار المقيمين في الشمال على أنهم رقيق ، اضطر سكان المناطق التي تكره الرق اما الى الخروج على القانون أو أن يصبحوا شركاء فيما كانوا يعتقدون انه قسوة لا يمكن الدفاع عنها · ولم يستطع كثير من الرجال الذين لم تكن الحجج اللفظية المجردة التي يسوقها دعاة الالغاء تحركهم ، أن يقنعوا أنفسهم بوجوب تسليم زنجي يرونه فعلا أمام أعينهم ، ذلك أنه لم يكن في مقدورهم أن يقاوموا ، وقد وضع القانون الامر أمام ضمائر أهل الشمال بطريقة لم يكن يستطيعها أى خطيب معارض للرق ·

ويبدأ التشريع الخاص بالرقيق الفارين في الولايات المتحدة بالدستور الذي وضعه رجال يحرصون أشد الحرص على جميع حقوق الملكية · وكان الدستور ينص على أن الرقيق الفارين يجب تسليمهم لسادتهم حيثما كانوا في داخل الولايات المتحدة ، وكان ذلك أحد المزايا التي استمدها الجنوب في تلك الآونة من قبوله الاتحاد الفدرالي · ووضعت هذه المادة من الدستور موضع التنفيذ بقانون أقر في سنة ١٧٨٣ ، وكان من حق المالك أو وكيله بمقتضاه أن يقبض على الرقيق الذي يزعم ملكيته ويسوقه أمام القاضي حيث يثبت ملكيته له اثباتا يرتضيه القاضي ويحصل منه على شهادة بذلك ثم يأخذ الرقيق معه ويحكم على أى شخص يعترض سبيله في هذا الاجـراء بغرامة قدرها ٥٠٠ دولار ·

ولم يكن مسموحا للزنجي ، والمفروض أنه رقيق ، بأن يدلى بأى دفاع عن نفسه . وكان أصحاب الرقيق الهاربين يستخدمون قناصي الرقيق المحترفين، ووجد هؤلاء أنه أيسر لهم أن يقبضوا على أى زنجي حر ويقسموا على أنه الرجل المطلوب من ان يبحثوا عن الرقيق الفار الذى يفترض انهم يبحثون عنه، وكانت النتيجة أن الزنجي لا يكون فى مأمن حتى يصل كندا . ويصف دكنز فى كتابه « مذكرات أمريكية » الاجراءات القانونية العملية فى هذا الصدد كما كانت قبل سنة ١٨٥٠ فيقول :

« لقد سن الرأى العام هذا القانون . فقد أعلن فى واشنجتون ، المدينة التى تحمل اسم أبى الحرية الامريكية ، يستطيع أى قاض من قضاة الاخطاط أن يكبل بالقيود أى زنجي فى الطريق ويلقيه فى السجن : وليس من الضرورى أن يكون الزنجي قد ارتكب أى ذنب . ويقول هذا القاضي : « لقد ارتأيت أن أعتقد أن هذا الرجل رقيق فار » . ثم يزجه فى السجن . ويخول الرأى العام لرجل القانون بعد ذلك حق الاعلان فى الجرائد عن الزنجي ، منذرا مالكه أن يحضر ليتسلم عبده والا بيع الرقيق للوفاء بنفقات سجنه . ولكن لنفترض أن الزنجي حر وليس له مالك فمن الطبيعى أن نعتقد أنه سيطلق سراحه ، ولكن هذا لا يكون : انه يباع ليعوض سجانه عن النفقات التى صرفت عليه . وقد حدث ذلك المرة بعد المرة وليس لدى الزنجي من وسيلة يثبت بهـا انه حر ، فليس له محام أو رسول يقوم بتوصيل رسائله ولا يجد أية معونة من اى نوع كان ولن يفحص عن أمره أو يحقق فى قضيته . فيلقى الرجل ، وهو الحر الذى قد يكون عمل سنوات طوال واشترى حريته ، فى السجن دون اى اجراء قانونى أو بسبب أية جريمة ارتكبها أو حتى بعد الادعاء بأنه ارتكب جريمة ، ثم يباع ليفى بنفقات سجنه »

ان دكنز يتحدث عما كان يقع فى مركز كولومبيا . ولكن الولايات التى تقع الى الشمال منها أصدرت قوانين لمنع خطف الزنوج الاحرار ، ولتمكن السلطات القضائية فى الولاية من طلب الدليل على أن الزنجي رقيق قبل أن يسمح بنقله ، ولكن المحكمة العليا ، التى كانت تعمل دائما على تثبيت نظام الرق طالما كان قائما ، قررت أن أى تدخل من الولايات فى اجراءات قانون الرقيق الفارين مخالفة للدستور ، فمالك الرقيق يستطيع ، كما يبـدو من قرار المحكمة العليا ، أن يقبض على أى زنجي فى أى مكان وليس مطالبـا باثبات ملكيته حتى يصل به الى ولايته التى تبيح الرق .

كانت هذه هى الاوضاع الخاصة بالقانون فى سنة ١٨٥٠ عندما طالب الجنوب بتشديده . وقد وافق على هذا الطلب ليكون جزءا من الترضية . فقد ظلت جميع الاجراءات الخشنة التى اتسمت بها القوانين القديمة قائمـة وبمقتضى هذا القانون الجديد ، وأضيف اليها ما يقضى بتشديد العقوبة على من يساعد الرقيق الهارب بأية صورة وجعلها ١٠٠٠ دولار والسجن مدة تصل

الى سنة أشهر . كما تقرر الى جانب ذلك أنه يمكن الاستعانة بالاهالي المتطوعين في القبض على الرقيق المزعوم، بحيث يحتمل أن يجبر أهل الحى كلهم على الاشتراك في تنفيذ هذا القانون البغيض ، فعندما يهرب جواد أحد الجنوبيين لم يكن أمامه الا أن يعتمد على جهوده الخاصة في القبض عليه ، ولكن عندما يهرب عبده فانه كان يستطيع أن يطلب الى جميع السكان في مقاطعة شمالية أن يساعدوه على استعادته ، وأى شخص يرفض الاستجابة اليه معرض للعقاب.

وكانت نتيجة هذا القانون في الشمال كارثة على قضية الجنوب. فقد أدى القبض على أحد الرقيق في بسطن الى حدوث هياج استدعيت له قوة كاملة من الجيش وسيق الرقيق بين صفوفها الى فرقاطة أمريكية تولت نقله الى الجنوب عن طريق البحر . وفي أوبرلين ، أهيو ، حدث أن أنقذ جمعة من السكان رفيقا هاربا فألقى بأساتذة جامعات ورجال دين في غيابة السجن وفي مناسبات أخرى مماثلة وقع بعض النابهين من الكويكرز في متاعب جمة لهذا السبب عينه ، وشكا الجنوبيون من أنهم يعرضون حياتهم للخطر في محاولة القبض على العبيد الفارين . وفي الشمال ، حيث كان الناس ينظرون الى الرق في الجنوب بدون مبالاة ، دفعتهم اجراءات تنفيذ قانون العبيد الفارين الى أن ينظروا الى الامر على أنه موضوع يستحيل على المرء أن يقف منه موقف المحايد أو غير المبالي . وكان الجمهور المناصر للالغاء لايزال ضعيفا، ولكن معاقبة مواطنين محترمين لانهم ساعدوا زنوجا بائسين على الهرب من الاسترقاق كان أمرا لايحتمل . ولم يكن اصرار الجنوبيين على بقاء القانون وتشديده يتسم بالحكمة بالنظر الى قلة عدد الارقاء الفارين . فقد كان كل من فقدتهم كارولينا الجنوبية ٢٣ رقيقا في سنة ١٨٦٠ أى بنسبة واحد الى كل ١٧٥٠١ من الارقاء . ولم يفقد الجنوب كله الا ١/٥٠٠٠ من مجموع الارقاء وكانت الثورة على أشدها في ولايات أقصى الجنوب وهى أقل الولايات خسارة في الرقيق (•)

وأخذ دعاة الالغاء في الشمال في الزيادة من ناحية العدد وقوة الشعور المعارض طول الثلاثين عاما السابقة على الحرب الاهلية . ونستطيع أن نقول أن حركة الالغاء أصبحت قوة في الحياة العامة ابتداء من سنة ١٨٣١ عند ما بدأ وليام لويد جريش اصدار جريدته « المحرر Liberator » وقال في أول عدد منها ما يأتى :

« انى سأطالب بلا هوادة بتحرير الرقيق من سكاننا فورا .. ولست اريد أن أتحدث أو أكتب أو افكر في هذا الموضوع باعتدال . كلا ! ثم كلا ! ان لك أن تطلب الى رجل اشتعلت النار في بيته أن يدق ناقوس الحريق

(•) نيقولاى وهى – نفس المرجع (٣) ص ٣١

باعتدال ، وأن ينقذ زوجه ممن يعتدى على عرضها باعتدال ، أو أن تطلب الى أم أن تنتزع طفلها من الندر التى سقط فيها بالتدريج · ولكن لاتطالبونى بالاعتدال فى قضيه مثل قضيتنا هذه · اننى جاد — ولن أغفر لاحد ذنبا — ولن أتراجع خطوة واحدة — وسيستمع الى الناس حتما » ·

واستمع اليه الناس فى الجنوب :

« أعلن المجلس التشريعى فى جورجيا عن مكافأة قدرها ٥٠٠٠ دولار لأى شخص يخطف جريش أو أى شخص يقبض على من تثبت عليه تهمة توزيع « المحرر » فى الولاية » · وقد كان العاملون الأول فى سبيل هذا الاصلاح العظيم ممن لا يعرفهم أحد من جيرانهم سوى قلة ضئيلة حتى أن عمدة بسطن لما تلقى احتجاجات بعض الولايات الجنوبية على النشرات المتهبة مثل « المحرر » استطاع أن يقول انه ليس من بين اعضاء الحكومة فى المدينة ولا من بين معارفه الشخصيين من سمع بهذه الجريدة أو بمحررها ، وأنه قد تبين بعد البحث أن « مقر عمله ليس سوى جحر مهجور وأن معاونه الوحيد صبى زنجى ، وأن مؤيديه قلة لاقيمة لها من أشخاص من جميع الألوان » ·

واستنكر الرئيس جاكسن الدعاية المضادة للرق ، وأعرب عن رغبته فى أن يحرم مجلس الامة أعمال الاثارة « التى يقصد بها دعوة الرقيق الى التمرد وخلق كل الآثار الفظيعة التى تترتب على حرب أهلية » · وعندما سمعت بسطن عن جريش نفرت منه فى مبدأ الامر · وحدث مرة أن هاجمه الغوغاء ولم ينقذه من أيديهم الا زجه فى السجن · وفى البنوى عام ١٨٣٧ قتل غوغاء أحد رجال الدين من دعاة الالغاء اسمه اليجا لفجوى كان يحرر جريدة تدعو الى الالغاء ·

ولكن دعاة الالغاء أخذوا يستلفتون الانظار شيئا فشيئا وخاصة فى ماساشوستس وينبغى ان نقول ان تعصبهم قد اضر بقضيتهم أكثر مما أفادها وانه كان من أسباب التجاء الجنوبيين الى العنف · فقد كانوا يدعون الى قتل كل من يحاول القبض على عبد فار · كما دعوا الى حل الاتحاد لاعتقادهم أن الاتصال بهذا « النظام الملعون » بأية صورة خطيئة — وان لم تكن فائدة العبيد من ذلك الالغاء واضحة · قال جريش فى سنة ١٨٤٣ : « ان الاتفاق القائم بين الشمال والجنوب هو ميثاق مع الموت واتفاق مع الجحيم — يسوق الطرفين الى الاجرام البشع ويجب الغاؤه فورا » · وظل المتطرفون من دعاة الالغاء يطالبون بحل الاتحاد حتى بعد أن نشبت الحرب الاهلية — وهو طلب يصعب فهمه اذا كانوا يريدون خيرا للزنوج حقا · كما انهم بتصميمهم ساعدوا على اثارة الجنوبيين الى القيام بأعمال عدائية ·

وكان الغاء اتفاق ميسورى أول نقض سياسى روعى فيه صالح الجنوبيين لاتفاق سنة ١٨٥٠ · وكانت المشكلة قد نشأت بشأن ولاية كنساس التى تقع شمال خط اتفاق ميسورى ولكنها تجاور ولاية ميسورى التى كان بعض اهلها يريدون أن يحتلوها باعتبارها اقليما يباح فيه الرق ·

وفي سنة ١٨٥٤ تقرر بمقتضى قانون نبراسكا أن تبيح كنساس ونبراسكا الرق أو تحرمانه كما تشاءان . وكان معروفا فيما يتعلق بنبراسكا أنه سيتقرر عدم اباحة الرق ، أما في كنساس فقد كان الأمر موضع شك . فسرعان ما أصبحت كنساس من أجل ذلك ميدان قتال فدخلها الجنوبيون مخترفين ميسوري والشماليون مخترقين أيوها . وأقام كل من الجانبين حكومة أدعى أنها السلطة الشرعية التى تقرر موضوع الرق . واشتعلت نار الحرب الاهلية وسارع الطرفان الى الالتجاء الى واشنجتن . وعلى الرغم من أن واشنجتن ظاهرت الجنوبيين ، فان الشمال انتصر بكثرة العدد ، وضمت كنساس باعتبارها ولاية حرة قبيل الحرب الاهلية مباشرة .

وأدى اعتداء الجنوب كما ظهر فى الغاء اتفاق ميسورى الى تكوين الحزب الجمهورى الذى عقد أول اجتماع قومى له فى فيلادلفيا سنة ١٨٥٦. وكانت سياسة الحزب الجديد تهدف الى الغاء الرق فى جميع أنحاء البلاد ، كما اعاد الحزب فى النقط الاخرى من نواحى أخرى بعض مبادىء الاحرار ، وأهمها رفع التعريفة الجمركية . وفشل الحزب فى أول انتخابات للرياسة دخلها الا أنه مع ذلك حصل على نتيجة تدعو الى الدهشة . فقد حصل المرشح الديموقراطى الناجح (بوكانن) على ١٦٩ر٨٣٨ر١ صوتا بينما حصل فيرمونت الجمهورى على ٢٦٤ر٣٤١ر١ صوتا - وكانت جميع الاصوات التى حصل عليها فى الولايات الحرة ، ومن بين هذه الولايات منحته احدى عشر ولاية أصواتها بينما منحت الخمس الاخريات أصواتها لبوكانان ، وكانت ايلينوى ولاية لنكولن واحدة من هذه الخمسة .

وبدأ الحزب الديموقراطى حياته بجاكسن ، وظل فى الحكم من سنة ١٨٢٩ الى سنة ١٨٦١ باستثناء فترتى سنة ١٨٤١ عندما انتخب هاريس وسنة ١٨٤٩ عند ما انتخب تيلور للرياسة . وكانت فترة سنة ١٨٤١ ضعيفة الاثر لأن هاريس مات بعد شهر من توليه الرياسة ، وانضم تيلور ، الذى كان نائبا للرئيس ومن ثم تولى الرياسة بعد وفاته ، الى الديموقراطيين فى أغلب تصرفاته . وكان موضوع التعريفة أهم مشكلة انقسم فيها الحزبان حتى ظهور مشكلة الرق . فكان الديموقراطيين فى جانب التعريفة المنخفضة ودعا معارضوهم ، الاحرار ، الى التعريفة المرتفعة . وكان الجنوب من أنصار حرية التجارة ، وكانت نيو انجلاند من أنصار الحماية الجمركية . وكانت ولاية نيويورك ديموقراطية عادة ، بينما كان الشمال الغربى يتراوح بين هذا وذاك . ولما كانت التعريفة هى موضع الخلاف الاساسى ، وكان الجنوب متحدا فيما يتعلق بها والشمال منقسما على نفسه ، فان الجنوب كان عادة هو المسيطر على ادارة البلاد ، فمن سنة ١٧٨٩ الى سنة ١٨٦١ لم يحكم الشماليون سوى اثنتى عشرة سنة . وأشعر ذلك الجنوبيين بأن من حقهم أن يتولوا الحكم . ولما كان الشمال يزيد على الجنوب فى المساحة وعدد السكان

والثروة ، فقد وضح شيئا فشيئا أنه لا بد سائد فى النهاية • وقد بدا ذلك شيئا فظيعا فى نظر قوم تعودوا أن يحكموا • ففكروا فى غزوالمكسيك وكوبا وأمريكا الوسطى ، وراودهم حلم ادخال الرق فى جميع أنحاء الغرب• وكانت عقليتهم عقلية أرستقراطيين مهددين ، وأحسوا بأن فى الامر شيئا غير عادى اذ يتوقع منهم أن يخضعوا للاغلبية العددية دون سبب آخر يدعو الى هـــذا الخضوع ، وبدلا من أن يتجهوا الى التوفيق عندما اقتربت الازمة ، صاروا أكثر ضجيجا ووعيــدا ، وأرادوا أن يخيفوا الشــمال ، الذى ظنوه جبانا ، بالاعلان عن نفسهم بالصياح والتهديد •

واحتفلت المحكمة العليا ، التى كانت أغلبيتها من الجنوبيــين ، بتولى بوكانان السلطة بأن أعلنت بعد يومين من توليته (٦ مارس سنة ١٨٥٧). قرار «دردسكوت» الشهير الذى نقض ماكان مفروضا من قبل انه القانون • فقد صدر قرار قضائى يقول ان الزنوج « لا يمكن أن يصبحوا من مواطنى الولايات المتحدة وليس لهم حــق التقاضى أمام المحــاكم الاتحادية •• وأن دستور الولايات المتحدة يعترف بأن العبيد من الممتلكات ويهيب بالحكومــة الاتحادية أن تحميها ، وأن قانون اتفــاق ميسورى والقوانين الاخــرى التى تحرم الرق ليست دســتورية » • ونص صراحــة على أن ما جاء فى اعلان الاستقلال ، من أن كل الناس يولدون متساوين ، لم يكن مقصــودا به أن يطبق على الزنوج••

ورحب الجنوب بهذا القرار فى ابتهاج ، وسكت الشمال الذى لم يكن يريد تعريض المحكمة العليا للازدراء • وقال لنكولن ، الذى لم يتردد يوما ما فى احترام الدستور ، ردا على خطاب ألقاه دوجلاس :

• « والآن فلنتحدث عن قرار « دردسكوت » : ان هذا القرار يعلن قضيتين. - الاولى ان الزنجى لا يستطيع التقاضى أمام محاكم الولايات المتحـــــدة ، والثانية أن مجلس الامة لا يستطيع تحــــريم الرق فى أى أقليم • وقد أصدرت هذا القرار محكمة منقسمة على نفسها ، مختلفة فى انقسامها فيما يتعلق بالنقط المختلفة • ولا يناقش القاضى دجلاس مزايا القرار ، وسأحذو حذوه فى هذا الشأن لانى أعتقد أن عدم قدرتى على اضافة شيء الى ما قاله ماكلين وكوتس فى الموضوع يعادل عدم قدرته على اضافة شيء الى ما قاله فانى • انه يهاجم كل من يشك فى صحة هذا القرار على أساس انه يقاومه بالعنف • ولكن من الذى يقاومه ؟ من الذى تحدى هذا القــرار وأعلن أن دردسكوت حر وقاوم سلطة صاحبه عليه ؟ ان للاحكام القضــائية كلهـــا فائدتان • الاولى انها تقرر بصفة نهائية الحكم فى القضية المعروضة ، والثانية أنها تبين للناس كيف يحكم فى القضايا الاخرى المماثلة عنـــدما تعرض • وتسمى الاحكام القضائية فيما يتعلق بفائدتها الثانية «سوابق» و «مراجع»

وانا لنؤمن قدر ما يؤمن القاضي دجلاس ، وربما كنا نؤمن أكثر منه . بالطاعة والاحترام الواجبين للسلطات القضائية في الحكومة . ونعتقد أن أحكامها في المسائل الدستورية ، عندما تتقرر بصفة نهائيـــة ، يجب أن تسيطر على سياسة البلاد كلها لا على القضايا المحكوم فيهـــا فقط ، وانه لا يحق لاحد نقضها الا بتعديل الدستور بالطرق التي جاءت فيه هو نفسه . وأكثر من ذلك بعد ثورة . ولكننا نعتقد أن الحكم في قضـــية دردسكوت حكم خاطيء . ونحن نعترف أن المحكمة التي أصـــدرته كثيرا ما نقضت أحكامها بنفسها ، وسنعمل مافى وسعنا لان نجعلها تنقض هـذا الحـكم . ونحن لا نقاومه ، لان الاحكام القضائية تعـــد مراجع الى حـــد ما بوصفها سوابق تبعا للظروف . وهـــذا الوضع يتفق مع كل من الادراك الســـليم والمعنى التقليدي لمهنة القانون . فاذا كان هذا الحكم الهام قد صدر بإجماع القضاة ، ودون تحيز حزبي ظاهر ، ومتفقا مع ما يتوقعه جمهور المشتغلين بالقانون ، وما جرى به العمل باستمرار في المحاكم طول تاريخنـا ، ولم يكن بأي شكل قائمة على وقائع تاريخية ليست في الواقع حقيقية ، أو اذا كان ينقصه بعض هذه العناصر — مما جعله يعرض على المحـكمة أكثر من مرة ، وتأكد الحكم المرة بعد المرة على طول السنين، فلعله يكون عندئذ ؛ بل انه ليكون قطعا ، في حكم التخريب بل الثورة ان لا نرضى به ونتخـــذه سابقة . ولكن عندما نجد ، كما هو الحال ، أن كل هـــذه العنـاصر التي تجعله جديرا بثقة الشعب تنقصه ، فان اعتباره مبدأ لم يستقر بعـد في هذه البلاد لا يعد مقاومة ولا يعد تمردا ولا حتى عدم احترام » .

غير أنه بينما كان الاثر المباشر للحكم في قضية دردسكوت أنه بعث في الجنوب ثقة وأشاع الحيرة في الشمال ، فان أثره النهائي كان مختلفـا عن هذا كل الاختلاف . فقد أصبح يبدو ، والحالة على ما هي عليـــه ، أنه لم تعد هناك من وسيلة قانونية يمكن بمقتضاها تحـــريم الرق في الاقاليم الشمالية الغربية . ولم تكن هناك حاجة الى الغاء قانون اتفاق ميسوري ما دام هـــذا القانون غير دستوري ؛ أما قانون نبراسكا الذي عارضـــه الشماليون بشدة فكان يمنح الولايات الجنوبية أقل مما كان الدستور قد منحه لها من قبل . فكان المحكمة العليا قد قالت لهم : «انكم قد تكونون نافرين من الرق ، وقد ترفعون من قدر الزنجي في أنظاركم أكثر مما كان النـــاس يفعلون في سنة ١٧٨٩ ، ولكن مشاعركم وآراءكم لاجدوى ترجى من ورائها في مقاومة كلمات قررت في ذلك العهد . قد تعتقدون أنكم تعيشون في ظل ديموقراطية ، ولكنكم مخطئون : انكم ما زلتم تحكمون بما تقرر منـــذ سبعين عاما تقريبا ، وستظلون في قبضة اليد الميتة حتى يوافق ثلاثة أرباع الولايات المتحدة على اطلاق سراحكم . وسأنقل هنا بعض الفقرات التي جاءت في الحكم نفسه ، وحتى لا يعتقد البعض أن هذا الشرح مضلل :

« ليس هناك على ما نعتقد من يفترض أن أى تغيير فى الرأى العام أو الشعور العام فيما يتعلق بهذا الجنس البائس عند الامم المتمدينة فى أوروبا أو فى هذه البلاد مايجب أن يحمل المحكمة على أن تضفى على كلمات الدستور معانى أكثر تحررا لمصلحة الزنوج مما قصد بها عندما وضع الدستور وأقر .. ان الدستور ليس هو نفسه فى ألفاظه فقط ، بل فى معانيه أيضا ، وفى السلطات التى يخولها للحكومة ، ويصون نفس الحقوق والامتيازات للمواطنين ويؤمنها لهم : وطالما بقى فى صورته الحالية ، فانه لا يتحدث بنفس الالفاظ فقط بل أيضا بنفس المعانى والاغراض التى تحدث بها عندما خرج من أيدى واضعيه واقترع عليه شعب الولايات المتحدة وأقره » .

وكان واضحا أن غالبية المواطنين فى الولايات المتحدة لا يريدون اباحة الرق فى الاقاليم الشمالية الغربية . وأعلنت المحكمة العليا انه ليست هناك وسيلة لدى الغالبية لتجعل ارادتها تسود فى هذا الموضوع .

وكان هذا أمر غير محتمل ويدفع الى الحرب . ولو أن الجنوب كان أكثر صبرا ، لكان من الجائز أن يضطر الشمال الى القيام بعمل غير دستورى دفاعا عن حق الاغلبية فى الحكم . ولكن الجنوب كان أكثر تهجما وأقل تسامحا من الشمال ولهذا كان أول من التجأ الى القوة ، وكانت النتيجة أن الشمال ، بينما كان يدافع عن الدستور ، كسب أكثر مما كان يطالب به

وكان الجنوب والادارات التى تمثل مصالحه متعسفين غير مبالين بحقوق الآخرين فى العلاقات الخارجية وفى العلاقات الداخلية جميعا . وقد ضرب جاكسن فى معاملته للاسبانيين مثلا احتذاه من جاءوا بعده على نطاق أوسع فى الحرب المكسيكية . فقد كان الرئيس بيرس يبحث عن أراض جديدة للرق يضمها ، اواعتقد أن كوبا تصلح لهذا الغرض . فحاول أن يشترى الجزيرة من أسبانيا ، ولكن أسبانيا بلغت بها القحة أن رفضت بيع الجزيرة من ثم اجتمع فى سنة ١٨٥٤ وزراء أمريكا فى مدريد ولندن وباريس واصدروا ما عرف باسم « بيان أوستند » ، الذ تضمن أنه اذا لم تقبل أسبانيا بيع كوبا ، فانه يجب ضمها بالقوة ، وخلف بوكانان أول الموقعين على هذه الوثيقة الغريبة بيرس فى رياسة الجمهورية . واستمر وهو فى هذا المركز يتحين الفرص لضم كوبا ، وكان الحزب الديموقراطى كله يؤيده فى ذلك . وعندما تولى الرياسة قال « اذا نجحت فى تسوية مشكلة الرق على أساس الشروط التى ذكرتها ثم ضم كوبا الى الاتحاد ، وكنت وقتئذ رئيسا ، فانى سأكون على استعداد لان اسلم الروح وأترك الحكم لبريكتريدج» وكانت رياسة الحزب الديموقراطى تدعو الى : « أن يبذل كل مجهود مناسب لتأكيد تفوقنا فى خليج المكسيك » . وتقابل الجهود التى تبذل « لاصلاح » أمريكا الوسطى بالاستحسان .

وعندما قرر الجنوب الانفصال لم يتخل عن خطة الفتح والتوسع فى أمريكا اللاتينية . وتضمن كتيب نشر فى سنة ١٨٦٠ أن ملاك الرقيق سيحققون ما رسمته العناية الالهية وينشئون جمهورية غنية واسعة سعيدة مجيدة تمتلك الرقيق وتضم جميع أمريكا الاستوائية - وستقوم الاجيال القادمة وتستمطر علينا الرحمة والبركة » . ويقول شاتنج : « ان هذه الصورة لامبراطورية أو جمهورية تبيح الرق وتمتد من جبل فيرنون الواقع على نهر البوتوماك الى قصور مونتزوما بالقرب من موقع بركان بوبوكتابتل تطالعنا المرة بعد المرة فى كتب الجنوبيين » (١) .

وكانت نظرة سياسيى الجنوب هى النظرة التى ألفناها فى انجلترا عند الاستعماريين من رجال الطبقة العليا ورجال المال الذين يوحون اليهم بآرائهم فتتراجع الديمقراطية لتنزوى ويسود شيئا فشيئا حكم أقلية يقوم على السلب والنهب وتسيطر على الموقف سيطرة تتزايد على مر الايام . ان ما يميز أمريكا فى تاريخ العالم لم يكن يوجد فى الجنوب بين سنة ١٨٥٠ وسنة ١٨٦٠ .

كان الجنوبيون البارزون فى علاقاتهم الشخصية، كما كانوا فى علاقاتهم السياسية الكبرى ، متغطرسين قساة . وشاهد ذلك أن سمنر عضو مجلس الشيوخ عن ماساشوستس ، وهو رجل ممتاز ألقى خطابا فى المجلس هاجم فيه تيلر عضو الشيوخ عن كارولينا الجنوبية فقال :

« انه ليؤسفنى أن أعود مرة أخرى للحديث عن عضو الشيوخ عن كارولينا الجنوبية الذى أثبت وجوده تماما فى هذه المناقشة ، واعترته ثورة غضب للاقتراح البسيط الذى تقدمت به كنساس لتكون ولاية فى الاتحاد ، فأطلق العنان لالفاظه المفككة يقذفها فى وجه ممثلها تارة وشعبها تارة أخرى . ولم يترك حماقة من حماقات المناقشات البرلمانية القديمة الا أعادها ، أو التواء فى الحقيقة لم يستعمله . ويسرنى أن أضيف أنه كان يفعل كل ذلك بانفعال بالغ ينفى عنه شبهة التضليل المقصود . ولكن الشيخ لا يمس شيئا الا شوهه - بخطأ فى المبادىء وفى الواقع تارة أخرى وهو يظهر عجزا عن التزام الدقة سواء فى ذكر الدستور أو فى ذكر القانون ، وسواء فى تفاصيل الاحصاءات أو فى أفسدام المعرفة ، انه لا يستطيع أن يفتح فاه الا لتخرج منه غلطة » .

وبعد يومين اعتدى شيخ جنوبى شاب اسمه بروكس ، وهو ابن أخى تيلر عامدا على سمنر وهو جالس الى مكتبه فضربه أكثر من مرة على رأسه بعصا من المطاط . وظل سمنر بعض الوقت لا يستطيع القيام لأن المكتب كان

---

(١) شاتنج - نفس المرجع - ص ٢٦٠

يعوقه . فاستمر بروكس يضربه حتى فقد وعيه وسقط على الارض . وكانت العصا قد تناثرت قطعا . وحال شيخ آخر من كارولينا دون وصـــول من ارادوا التدخل لانقاذ سمنر . وقد رفض مجلس الشيوخ لوم بروكس بأية صورة كانت . ولكن مجلس النواب ، الذى كان يضم أغلبية شمالية ، لام بروكس فاضطر للاستقالة ولكن أعيد انتخابه فورا . وأصيب سمنر نتيجة لهـــذا الاعتداء بعاهة فى العمود الفقرى لم يشف منها الا بعد سنين ظل خلالها غير قادر على العمل . وليس هذا سوى مثل واحد لعنف الجنوبيين الـــذى جعل واشنجتن مكانا غير أمين للشماليين .

وكانت الروح السائدة فى الجنوب تهدف الى اعادة تجارة الرقيق . وكان قدر معين من هذه التجارة يتم سرا فى السنين السابقة على الحرب الاهليـــة مباشرة ، الا أن من العسير معرفة الحقائق معرفة أكيدة بطبيعة الحال . وقد ذكر السناتور دوجلاس فى سنة ١٨٦٠ ان عددا من الرقيق تم استيراده خلال سنة ١٨٥٩ أكبر ممن استوردوا فى أية سنة سابقة حتى عندما كانت تجارة الرقيق مشروعة . وفى سنة ١٨٥٨ وصل يخت اسمه « الواندرار » الى نهر سفانا وعليه حمولة من الرقيق جلبرا من آفريقيا . وقــد تظاهر اليخت بأنه من يخوت النزهة وصادف صاحبه ضباط المركب الحربية البريطانية « مدوز » التى كانت تبحث عن سفن تجار الرقيق . وبعد تبـــادل المجاملات توجه اليخت الى الكونجو وشحنه بعدة مئات من الزنوج وذهب بهم الى كارولينا الجنوبية ووزعهم فى الجنـــوب ، ثم قبض على قبطان اليخت وبحـــارته ، ولكنهم برئوا من التهمة ، وصودر اليخت ، الا أن شريك صاحبه ، وهو رجل اسمه لامار ، اشتراه ثانية . « وأبلغ الحاضرين فى المزاد أن اليخت كان ملكه وأنه أخذ منه بغير وجه حق وطلب اليهم ألا يزايدوا عليه . فلم يشترك فى المزاد أحد سوى حارس السجن ، فاعتـــدى عليه لاماز فى نهاية المزاد بسبب عمله هذا » (×) . غير أن صاحب اليخت لم يفلت من العقاب فقد طرد من نادى اليخت فى نيويورك !

وقد وقع حادث آخر قبل ذلك بفترة قصيرة كانت نهايته أســـوأ من ذلك بالنسبة لتجار الرقيق . اذ ضبطت الدلفين ، وهى احـــدى ســـفن أسطول الولايات المتحدة ، المركب « أكو » وعلى ظهرها حوالى ثلاثمائة زنجى وقادتها الى شارلستون . ترى ماذا ينبغى عمله بها ؟ نوقشت المشكلة فى عدد أول سبتمبر سنة ١٨٥٨ من جـــريدة « ريشموندانكوايرر » على الوجه التالى :

« ان القانون يقضى بأن تصادر المركب وأن يدفع أصحابها غرامة توازى ضعف ثمن المـــركب وحمولتها ، وأن يشنق القبطان ويعـــاد الزنوج الى

(× ماك ماستر - نفس المرجع - جزء ٨ - ص ٥٣١

أفريقيا . ولكن من يعلم من أى جزء من أجزاء افريقيا جاءوا ؟ ان القاءهم على الساحل أمر مشكوك فيه من النـــاحية الانسانية . وتركهم أحرارا فى كارولينا الجنوبية مستحيل . فلم يبق اذن الا البحث عن سادة طيبين لهم يستطيعون تحويلهم من برابرة لا فائدة فيهم الى عمال مفيدين . وتساءل أحد مواطنى شارلستون قائلا : لمـاذا تعيدونهم الى بلادهم ؟ ان أصـــحاب المزارع فى حاجة اليهم ، ومثلهم فى ذلك المشتغلون بالاعمال الميكانيكية والسكك الحديدية . لقد وصلوا الى عتبة المدنية . فلمـاذا نعيـــدهم الى البربرية ؟ لقد دخلوا نطاق التأثر بالمسيحية ، فلماذا نعيدهم الى الكفر ؟ ليس هناك من سبب لذلك سوى أن قسما آخر من البلاد ينظر باشمئزاز الى أوضاع الجنوب ويطالبونه بأن يقدم هذه التضحية لصالح الانسانية (×)

وقرر الرئيس ان الزنوج يجب أن يعـــودوا الى افريقيا . وســلمهم فى الوقت نفسه الى جمعية الاستعمار لتعنى بهم مدة عام . ولكنى لم أجـــد ما يدل على أن القبطان شنق .

وسال لعاب كارولينا الجنوبية عند رؤية الغنيمة التى حرمت منهـــا ، فأصدر مجلسها التشريعى قرارات مؤداها أن التدخل فى تجـارة الرقيق غير دستورى . ورفض المجلس التشريعى فى كنساس التصـــديق على قرار ضـــد تجارة الرقيق . ولكن حاكم فلوريدا وقد استنكر هـذه « المشاعر المريضة السقيمة فى هذا الموضوع » ذكر صناعة تربية الرقيق الامريكية بأن المنافسة الاجنبية تتعارض ومصالحهم .

وكانت كارولينا الجنوبية ، كدأبها دائما ، زعيـــمة الحركة وروحها . وشاهد ذلك أن أحد كبار المحلفين فى تلك الولاية تحدث عن القانون الذى يحرم تجارة الرقيق فقال انه « موضوع عام للشكوى » . وأشار الحـاكم الى ضرورة اعادة تجارة الرقيق اذا أريد تجنب العمل الحر ، وذهب الى أنه لا يمكن منع النزاع بين العمل ورأس المال الا باستخدام الرقيق :

« فهو يقول انه اذا لم يتوفر الارقاء المطلوبون للعمل ، فلا بد أن ينوفع الجنوب نوعا من العمال لا يرغب فيـــه ، نوعا لا يتفق ونظمه . انه لخير ألف مرة للجنوب أن يقود عرباته ارقاء ويعمل فى مصانعه أرقاء ويخـدم فى فنادق ويسوق قطاراته أرقاء من أن يتعرض لغزو قوم غرباء بمولدهم وتدريبهم وتربيتهم ، قوم ســـيؤدى وجودهم الى ذلك الصراع بين العمـل ورأس المال الذى جعل من العسير الاحتفاظ بنظم حرة فى بلاد ليس فيها رق . ففى كل الدول التى فيها رق ينبغى للعنصر المتفوق أن يوجه والعنصر الادنى أن يقوم بكل الخدمات اليدوية .

(×) ماك ماستر - نفس المرجع - جزء ٨ ص ٣٤٩

وقد شرح و. ب. جولدن من جورجيا وجهة نظر الجنوب بوضوح يدعو الى الاعجاب فى المؤتمر القومى الديموقراطى الذى عقد فى شارلستون فى مايو سنة ١٨٦٠ فقال :

« أقول لكم أيها الزملاء الديموقراطيون أن تاجر الرقيق الامريكى هو رجل الاتحاد بحق (هتاف وضحك) . وأقول لكم أن تجارة الرقيق فى فيرجينيا أكثر فسادا وأقل اتفاقا مع المبادىء المسيحية من أية ناحية نظرت اليها ، من تاجر الرقيق الافريقى الذى يذهب الى تلك القارة ويأتى الى هذه البلاد برجل وثنى لا قيمة له ويجعل منه رجلا مسيحيا ثم يرسله هو وذريته يتمتعون ببركات المدنية على مر الاجيال .. لقد شاء حسن حظى أن أذهب الى هذه الولاية النبيلة القديمة لشراء بعض السود واضطررت لأن أدفع بين ١٠٠٠ دولار ، ٢٠٠٠ فى الرأس ، وكنت أستطيع الذهاب الى أفريقيا والحصول على زنوج خير ممن اشتريت بخمسين دولارا للواحد منهم .. اننى أدعو الى الغاء القوانين التى تحرم تجارة الرقيق الافريقية لأنى أعتقد أنها الدعوة الاتحادية الحقيقية . ولا أظن أن جهتين تختلف مصالحهما كما تختلف مصالح الشمال والجنوب تستطيعان أن تتحملا صدمات التعصب الا اذا كان بينهما توازن . وأنا أعتقد أنه اذا فتح الباب لهذه التجارة وجيء لنا بالزنوج لتعمير هذه الاقاليم احتفظنا بالتوازن بين الشمال والجنوب » .

غير أنه يجب ألا نفترض أن الجنوب كان مدفوعا ببواعث دينية فى الدفاع عن نظام الرق ، بل على العكس ، انه كان ينفذ رغبات الخالق .. وشاهد ذلك ما قاله ستيفنس نائب رئيس الاتحاد عند بداية الصراع :

« لقد كانت الآراء السائدة التى كان يعتنقها جفرسن ومعظم الزعماء السياسيين فى الوقت الذى وضع فيه الدستور القديم ، ان فى استرقاق أهل افريقيا مخالفة لقوانين الطبيعة وأنه خطأ من ناحية المبدأ ، خطأ اجتماعى وأخلاقى وسياسى .. أما حكومتنا الجديدة قائمة على نقيض هذه الآراء على خط مستقيم ، ان قواعدها ودعائمها تقوم على حقيقة عظيمة هى أن الزنجى ليس مساويا للرجل الابيض ، وان الرق - أى الخضوع للجنس المتفوق - أمر طبيعى وعادى . وان حكومتنا الجديدة هذه لهى أول حكومة فى التاريخ تقوم على هذه الحقيقة المادية والفلسفية والاخلاقية الكبرى .. إن الاساس الذى يقوم عليه مجتمعنا مكون من المادة التى أعدتها له الطبيعة ، وقد علمتنا التجربة أن من الخير للجنس المتفوق وللجنس الادنى معا أن يكون الامر كذلك ، انه فى الواقع يتفق وما رسمه الخالق . وليس لنا أن نشك فى حكمة ما قضت به ارادته أو نناقشه . فهو لحكمة يعلمها خلق الاجناس يختلف بعضها عن بعض كما جعل نجما يختلف عن نجم آخر فى سمائه . ان خير ما يحقق به الاهداف الانسانية

العظمى يكون باطاعة قوانين الخالق وأحكامه في تكوين الحكومات كما يكون باطاعتها في كل شيء عدا ذلك . ان تعاهدنا مؤسس على هـذه المبادىء ومطابق كل المطابقة لهذه القوانين » .

لقد كان الصراع بين الشمال والجنوب تصادما بين مفهومين للكائن الاجتماعى مختلفين كل الاختلاف . فكان : الشمال يؤمن بالمساواة السياسية والجنوب يؤمن بضرورة خضوع العامل اليدوى الذى يجب أن يكون من جنس « أدنى » وكان التصور الشمالى تصورا حديثا يهدف الى تحقيق الرخاء للجميع عن طريق استعمال المخترعات الآلية ، وكان التصور الجنوبى عتيقا يهدف الى رخاء قلة عن طريق مجهود الرقيق . فالرق والديموقراطية لايتفقان في نظر الشمالى، ولكن الرجل الديموقراطى اليونانى والرومانى كان يتفق مع الجنوب . وقصارى القول أن الجنوب كان ينتمى الى الماضى والشمال ينتمى الى المستقبل .

وحددت المصالح الاقتصادية نظرة كل من الاقسام المختلفة في الولايات المتحدة وكانت هذه الاقسام ، في المدة من سنة ١٨٥٠ - ١٨٦٠ ، أربعة : الجنوب الذى يزرع القطن ، والجنوب الذى يزرع الطباق والشمال القديم ، والشمال الغربى ، ولم يكن الغرب الاقصى قد أصبح ذا أهمية كبيرة الا فيما يتعلق بانتاج الذهب .

وكان الجنوب زارع القطن هو الروح المحركة في سياسة الجنوب خلال السنوات التى سبقت الحرب الأهلية . ذلك أن الطلب على القطن وخاصة من انجلترا زاد بسرعة عجيبة وعمل على رواجه ان انجلترا اتبعت مبدأ حرية التجارة (×) . وكان معظم العلاقات الاقتصادية لهذه المنطقة مع انجلترا عن طريق البحر ، وكانت المصنوعات البريطانية تستورد في مقابل القطن . ومن ثم كانت هناك رغبة شديدة في حرية التجارة . وحدث في سنة ١٨٦١ كما حدث في سنة ١٨٣٢ أن ذكرت كارولينا الجنوبية أن سبب خروجها من الاتحاد هى التعريفة الجمركية .وكان الأثرياء من زراع القطن يحبون حياة العزلة في مزارع القطن الواسعة ، وهى حياة لم تكن تساعد على نشر الثقافة التى امتازت بها فرجينيا في الأيام السالفة . وحذا البيض الفقراء حذو كبار أصحاب الأراضى وأيدوا الرق لأنهم اعتقدوا الجنوب سيحل به الخراب اذا ألغى الرق ، ولانه كان من دواعى رضائهم أن يكون هناك من هم أقل منهم مرتبة لينظروا اليهم بعين الاحتقار.وعلى الرغم من أن كارولينا الجنوبية كانت تزرع القطن وأنها كانت أقل نجاحا من الولايات المطلة على خليج المكسيك ، وكان الشعور بالفشل التدريجى يجعلها في حالة هستيرية .

(×) قدر محصول القطن سنة ١٨٥٠ بثمانية وسبعين مليونا من الدولارات وبمائتين وثلاثة وستين مليون دولار سنة ١٨٦٠ « شاننج » جزء ص ٢٩٧

وفقدت فرجينيا ، وهى من بين مجموعة الولايات الشمـــالية التى تبيح الرق ، أهميتها الأولى ، ويرجع معظم السبب فى ذلك الى ارهـــاق الاراضى التى يزرع فيهـا الطباق • كما قل عدد الســـكان قلة شديدة فى كل من فرجينيا وكارولينا الشماليةبسبب الهجرة الى الغرب ، ولم يسدهذا النقص مهاجرون جدد من أوروبا • وكانت كنتكى على أوثق اتصـــالا بأهيو الحرة منها بولايات الرقيق الأخرى • وكذلك كانت تنسى الشرقية أكثر ارتباطا بالشمال منها بالجنوب • وكانت ميسورى على الحدود منقسمة فى مصالحها قسمين متساويين تقريبا •غير أنه كان هناك سبب واحد يجعل ولايات الرق الشمالية شديدة الرغبة فى الاحتفاظ بالرق وذلك أنها كانت موطن تربية الرقيق • وكلمـــا زادت مطالب أقليم القطن ارتفع ثمن الرقيق • فقد كان الجنوب زارع القطن غير صحى ، ولم يكن يستطيع انتـاج كل الارقاء الذين يحتاجهم ويقول شاننج فى هذا :

« ان الأرباح التى كان يدرها انتـــاج أطفال الزنوج فى ولايات الرق الشمالية كانت أرباحا ضخمة ، لأن كل زنجى يولد كان يسـاوى لصاحبه ٢٠٠ دولار فى وقت قصير جدا • ولسنا نجـد ما يدعونا الى أن نقول أكثر من هذا • فليس على المرء الا أن يفكر فى هـــذا الموضوع لحظة أخرى حتى تتراءى له النتائج الكريهة التى تصيب كلا من السيد والعبـد فى مثل هذه الحالة مهما حاولنا أننقلل من شأن هذه النتائج•هذا الى أن تجارة الرقيق ، كبيرة كانت أم صغيرة ، أنشأت روابط اقتصـــادية بين المنطقة الشمالية التى كانت « تجيز الرق » ، اذا صح هـذا التعبير ، والجنوب زارع القطن ومن ثم عملت على تدعيم القـــوى السـياسية والاجتمـــاعية ربطت بين قسمى ولايات الرق » •

وفى الشمال القديم ازدهرت نيو انجلند عن طريق الصناعة وظلت تدعو باستمرار الى رفع الضريبة الجمركية • وكانت الزراعة فى طريقهـا الى أن تفقد أهميتها بسببنمو الغرب • وكانت مدينة نيويورك تعيش علىالتجارة ، بعضها مع الجنوب ، ولذلك كانت أكثر مودة للجنوب من بقية الشمـــال • وكانت كل المدن الكبرى فى الشرق تضم أعدادا كبيرة من المهاجرين الذين وصلوا حديثا ، وكان الايرلنديون أكثرهم عددا ، ولكن الألمان أيضـا كانوا كثيرين رغم أن قسما كبيرا منهم استقر فى الغرب •

وكان الشمال الغربى بتاريخه ومصالحه الاقتصادية أكثر ارتباطا بالوحدة القومية من كل من الجنوب والشرق • وكان الدور الذى لعبه فى الصراع ، وقد تبين أنه دور حاسم ، مرتبطا بتاريخ لنكولن •

٥ ـ لنكولن والوحدة العربية

الفصل الخامس والعشرون

لنكولن والوحدة القومية

كان للشمال الغربي ، أكثر مناطق الولايات المتحدة سرعة في النمو ، وأكثرها حيوية ، من بعض الوجوه ، مصالح اقتصادية محددة كل التحديد ، وهي مصالح لم تكن مطابقة ، الى حد كبير ، لمصالح الأجزاء الأخرى من الاتحاد • فقد بدأ تصدير القمح يصبح ذا شأن قبيل الحرب الأهلية • وكان التصرف في الأراضي العامة في ذلك الوقت ومراسيم حيازة الأرض والسكك الحديدية كلها أشياء يعتمد فيها الغرب على الحكومة الاتحادية أو الرأسمال الشرقي • ونجم عن الرغبة في ايجاد ميادين جديدة للأيدي العاملة البيضاء معارضة في التوسع في الرق في كنساس والأقاليم الأخرى التي كانت تتاخم الشمال الغربي •

ونتج عن التاريخ وعن الظروف القائمة شعور في الغرب يختلف كل الاختلاف عما كان موجودا في الشمال أو الجنوب القديمين : وكان الولاء للولايات أضعف ، والولاء للاتحاد أقوى مما كان قبل ، فبينما كانت الولايات الأقدم عهدا موجودة قبل الحكومة الاتحادية ،كانت الولايات الغربية مدينة بنشأتها لهذه الحكومة • وكان المهاجرون الذين استقروا في هذه الولايات بعضهم من الشمال وبعضهم من الجنوب وكان عدد كبير منهم مهاجرين حديثي الوصول الى أوروبا يبحثون عن الحرية والرخاء في أرض الميعاد ، ولكنهم كانوا غير مهتمين بالانقسامات المحلية • هذا الى أن الغرب لم يكن يطل مباشرة على البحر ومنه الى أوروبا بل كانت تفصل بينه وبين البحر مئات من الأميال من الطرق أو الأنهار الأمريكية • وكان يتطلع الىالحكومة الاتحادية لتشجيع انشاء الطرق وتساعد الاحتفاظ بها حرة آمنة من اليهود ولتبقى الطرق المائية مفتوحة • وكان الشمال الغربي (*) خاصة يعتمد على الوحدة القومية أكثر من غيره • فقد كانت الطرق ، وبعدها السكك الحديدية ، وكذلك الطريق المائي عبر البحيرات العظمى وقناة ايرى تجرى شرقا وغربا ، بينما كان الميسسبي وروافده تجرى شمالا وجنوبا • واذا غضضنا النظر عن وسائل النقل كان الاسبان في الجنوب والانجليز في الشمال والهنود في كل مكان لا يريدهم فيه أحد يذكرون الغرب بحاجته الى حكومة قوية • وليس مستغربا في هذه الظروف أن اكتسب شعور الوطنية

(*) كان الشمال الغربي في ايام لنكولن يتكون من القسم الشرقي من الاقليم الذي يعرف الان باقليم الغرب الاوسط •

نحو الولايات المتحدة قوة أكبر بكثير ممـــا كان عليه فى الشرق حيثما ظل الولاء القديم للولاية باقيا كما كان ٠

وتعرض ابراهام لنكولن ، الذى وجد الغرب فيه معبرا قويا عن سياسته ، فى حداثته للمؤثرات الخارجية التى أثرت فى معظم المواطنين فى ايلينوى ٠ وقد ولد كما رأينا فى كنتكى فى فقر مدقع ولـــكن أسرته رحلت الى انديانا عندما كان فى الســـابعة من عمره ٠ ويقول نيقولاى وهاى « ان الظـروف الاجتماعية فى كنتكى تغيرت كثيرا عما كانت عليـــه أيام الرواد الأول ، وأخذت الحياة طابعا أكثر استقرارا وتنظيمـــا ٠ وولت المساواة البربرية القديمة ، وبدأت تظهر للعيـــان فوارق بين الطبقات ، فكان الذين يملكون رقيقا يتمتعون بتفوق اجتماعى واضح على أولئك الذين لا يملكون ٠ وأدرك توماس لنكولن ذلك ، وقد انتهى الى ان كنتكى لم تعد تصلح للرجل الفقير فقرر أن يجرب حظه فى انديانا » ٠ غير أنه لم يجد الحظ فى انتظاره هناك ، وسنة ١٨٣٠ ، وهى السنة التى بلغ فيهـــا ابراهام رشده ، قرر والده أن يتجه غربا مرة أخرى ، الى ايلينوى هذه المرة ٠

وقد شكلت السنون الاولى من حيـــاة لنكولن شخصيته ٠ ففى طفولته « عاش حياة منفردة فى الغابات يعود من ألعابه الصغيرة التى كان يقوم بها وحده الى منزل لا بهجة فيه ٠ ولم يتحدث أبدا عن هـذه الأيام حتى لأقرب أصدقائه ٠٠٠ ولم يكن لنكولن يعرف شيئا عن كل الوسائل التى تستعمل لتنمية عقـل الطفل وروحه ، والتى يهيئهـــا كل بيت الآن لأطفاله ، مثل الكتب ، واللعب ، والمظاهر اليومية للحب الأبوى » ، لقد كانت بيئة مكونة من العمل الشاق وتقاليد الهنود والوحدة وسكون الغـابة ، انه كان يحب المخلوقات البشرية ، ولعـــل بعض السبب فى ذلك أنهم كانوا نادرين فى الغـــابة ٠

وشق لنكولن طريقه الى النجـــاح فى ايلينوى شيئـــا فشيئا ، ولم يكن ذلك بنبوغه الفائق بل كل بالجد فى العمل وما كان يتحلى به من شـــخصية وطبع جعلاه موضع حب الناس ٠ وصار فى سنة ١٨٣١ كاتبا ومساعدا فى متجر ، وأخـذ حمولة من البضائع عن طريق النهـر الى نيو أورلينز ٠ وفى سنة ١٨٣٢ اشترك فى حرب « الصقر الأسود » ٠ وقد هيأله ذلك فرصة فيما بعد (١٨٤٨) ليهزأ بالمجـد العسكرى باعتباره ميزة سياسية يعتمد الشخص عليهـــا ، وذلك عندما بدأ الناس يرفعون من قدر جنـرال كاس بسبب خدماته فى حرب سنة ١٨١٢ ، وهى خدمات يكتنفها الغموض بعض الشيء وفى ذلك يقول لنكلن :

« هل عرفت يا سيدى الرئيس أننى بطل عســكرى ، ففى حرب الصقر الأسود قاتلت ونزفت دمى وخرجت حيـــا ٠ لم أكن موجودا فى هزيمة

ستيتلمان ولكنى كنت قريبا منها بقدر ما كان القائد كاس قريبا من المعركة التى سلم فيها هال : وقد رأيت ، كما رأى هو ، أرض المعركة بعد حدوثها بقليل .ومما لا شك فيه أننى لم أكسر سيفى ، لأنى لم أكن أملك سيفا ، ولكنى ثنيت بندقيتى ثنية شديدة فى احدى المناسبات . واذا كان القائد كاس قد تفوق على فى التقاط التوت الشوكى ، فاظن أنى تفوقت عليه فى مهاجمة البصل البرى . واذا كان قد رأى أى محارب هندى حى فانه فعل أكثر مما فعلت ، ولكنى اشتركت فى معارك دموية كثيرة مع البعوض ، وعلى الرغم من أنى لم أصب أبدا بالاغماء بسبب نزف الدماء ، فانى أستطيع أن أقول صادقا أنى كثيرا ما أحسست بجوع شديد . واذا حدث يوما أن تخليت عن المبادىء الاتحادية التى يفترض أصدقاؤنا الديمقراطيون أن رأسى ملىء بها ، ومن ثم سيجعلوننى مرشحهم للرياسة ، فاننى أطالبهم بألا يجعلوا منى هدفا للسخرية ، مثلما جعلوا من القائد كاس ، بأن يحاولوا أن يخلقوا منى بطلا عسكريا » .

وكان لنكولن مرشحا للمجلس التشريعى فى ايلينوى فى الوقت الذى حدثت فيه هذه المغامرات العسكرية . وقد دخل الانتخابات على مبادىء الأحرار مؤيدا لهنرى كلاى . وقد قال : « أنا من مؤيدى انشاء مصرف قومى ، ومن مؤيدى نظام الاصلاح الداخلى ، والحماية الجمركية عن طريق التعريفة المرتفعة . وتلك هى مشاعرى ومبادئى السياسية » . ولم يحاول لنكولن فى يوم من الأيام أن يكسب أصواتا بالالتجاء الى الابهام فيما يتعلق بآرائه . وكانت ولاية ايلينوى تؤيد جاكسن ، وكان لنكولن ضده ، فهزم فى هذه المرة .

ولما فشل فى السياسة فكر فى أن يصير حدادا ، ولكنه أصبح شريكا فى بقالة بطريق الصدفة . وأفلست البقالة وتركته غارقا فى الديون . ثم عمل فترة وكيلا لمكتب بريد ، وبعد ذلك مساحا رسميا . ويقال عنه أنه كان محبوبا أينما ذهب ، وكان يقال هذا الحب أحيانا لأسباب غير متوقعة من ذلك « أنه كان خير حكم لسباق الخيل فى البلد » . « أنه كان يستطيع أن يرفع برميل الويسكى من الأرض ويشرب من صمامه » . وسنواء لهذه المزايا ، أو لغيرها ، وضع فى رأس قائمة المرشحين لانتخابات المجلس التشريعى سنة ١٨٣٤ .

وكانت تصرفاته السياسية فى هذه المرة سليمة ولكنها لم تكن باهرة ، باستثناء مرة واحدة هى « احتجاج لنكولن - استون » فى سنة ١٨٣٧ . وكان هذا أول اعلان لآرائه الشخصية فى موضوع الرق الذى كان قد حرم نهائيا فى ايلينوى بمقتضى اقتراع عام حدث سنة ١٨٣٢ بعد فترة من التسامح أو ما يشبهه . وعلى الرغم من هذا التصويت العام فقد كان هناك

عداء شديد نحو دعاة التحريم امتد الى جميع مواطني نيو أنجلند . فكان من الخطورة أن يعلن المرء أنه من معارضي الرق ، وصدرت قوانين شديدة تمنع دخول الزنوج الأحرار في ايلينوى . وقد رأينا فيما سبق كيف أن القس اليالحجوى اغتاله الدهماء فى آلتون بايلينوى بسبب دعوته لتحريم الرق فى سنة ١٨٣٧ نفسها التى جهر فيها لتكولن واستون باحتجاجهما . وكان هذا الاحتجاج ضد قرارات اتخذها المجلس التشريعى للولاية ، ووافق عليها بالاجماع مجلس الشيوخ ، ولم يعارضها الا خمسة أعضاء فقط فى مجلس النواب ، وهى قرارات تؤيد وجهة نظر الجنوب فيما يتعلق بالرق . وقد تضمن احتجاجهما اعتقادهما بأن « نظام الرق يقوم على الظلم وعلى سياسة خرقاء فى نفس الوقت ، ولكن العمل على نشر مبادىء التحريم تجنح الى زيادة مساوئه أكثر مما تخففها » . ويمضيان قائلين ان ليس من حق مجلس الأمة ، فى ظل الدستور ، أن يتدخل فى مشكلة الرق فى الولايات . ومما بدا على مدى تغيير الآراء بسرعة ، أن مثل هذا الاحتجاج المعتدل نفسه كان فى سنة ١٨٣٧ يعتبر عملا من الأعمال التى تحتاج الى شجاعة فائقة . ويبدو من لنكولن منذ ذلك الوقت ذلك المزيج الذى ظل محتفظا به دائما ، وهو نفوره من الرق واحترامه للدستور .

وبدأ فى سنة ١٨٤١ ممارسة القانون الذىدأب على دراسته سنين طويلة فى أوقات متفرقة . وكان محاميا ناجحا ومحبوبا ، وان لم يكن دخله من المحاماة كبيرا فى يوم من الأيام : « وكانت أكبر أتعاب تقاضاها هى مبلغ خمسة آلاف دولار من سكة حديد ايلينوى المركزية ، بعد أن اضطر الى مقاضاة الشركة ليرغمها على آدائها (×) » . وفى سنة ١٨٤٦ انتخب عضوا فى مجلس الأمة ، وكان العضو الوحيد من الأحرار الذى نجح فى ايلينوى وكان يعتقد أن الحرب المكسكية لا مبرر لها . ولكنه رأى انها وقد بدأت يجب تأييدها حتى تنتهى بالنصر . وقد قال فى خطبة له ألقاها فى مجلس الأمة ما يأتى : « اذا كان القول بأن الحرب بدأها الرئيس بلا ضرورة تدعو اليها وبطريقة غير دستورية يعد معارضة الحرب ، فان جميع الاحرار قد عارضوها بصفة عامة . ولكن اذا كان تقديمنا لاموالنا وأرواحنا مع أموالكم وأرواحكم بعد أن بدأت الحرب وصارت قضية البلاد ، يعد تأييدا للحرب فانه ليس صحيحا اذن أننا كنا معارضين للحرب على الدوام » . وكان يذهب دائما الى أنه ينبغى للمواطن الفرد الا يقف موقف المعارضة من حكومة منتخبة بالطريق الديموقراطى الا اذا كانت تلك المعارضة بطريق المناقشة ، وكان لنكولن أحد المفكرين القلائل الذين آمنوا بالديموقراطية بصورة متسقة لا تناقض فيها مطلقا . ولم يكن يؤمن ، مثل جفرسن ، بأن يكون الحكم للشعب فقط ،

(×) نيقولاى وهاى — نفس المرجع جزء ١ ض ٣٠٨

بل وبالشعب أيضـــا ، ولم يغب عن باله مطلقا الحـــاجة الى السلطة والى الخضوع للقانون ٠

ولم تؤد المدة التى قضاها لنكولن فى مجلس الامة الى زيادة اهتمـــامه بالسياسة ، فعاد فى سنة ١٨٤٩ الى ايلينوى والى المحاماه وفى ذلك يقول : « مارست القانون من أول سنة ١٨٤٩ الى آخر سنة ١٨٥٤ باجتهاد ومثابرة أكثر من أى وقت مضى ٠ وكان اهتمـــامى بالسياسة قد أخذ يفتـــر ، حتى أثارنى ثانية الغاء اتفاق ميسورى » ٠ ومما يجدر بالملاحظة أنه درس المنطق خلال سنى تقاعده وحفظ عن ظهر قلب كتب اقليدس الستة ٠ ويستطيـــع المرء أن نتبين أثر ذلك فى خطبه ، فهو يقول مثـــلا : « فى وســـع المرء أن يقول بكل ثقة أنه يستطيع اقناع أى طفل عاقل بأن نظريات أقليدس البسيطة صحيحة ، الا أنه قد يفشل كل الفشـــــل مع شخص ينـــكر التعريفات والبديهيـــات ومبادىء جفرسن هى تعريفات المجتمع الحر وبديهيـــاته » ٠ ومما لا ريب فيه أن جفرسن كان من أصحاب هذا الرأى ، وأنه كان متأثرا باقليدس تأثيرا مباشرا غير مباشر فى تفكيره السياسى ٠ وان احلال الطريقة الاستقرائية محـــل الاستنتاجية كان عملية بطيئـــة وتدريجية ، أدى التقدم الذهنى فيها أحيانا الى تخلف سياسى ٠ ولعل لنا أن نبتهج أن لنكولن ظل عـــلى الرغم من اتصاله الوثيق بالتجربة الانســـانية يفكر على أساس استنتاجى فى بعض المسائل ، لأنه اكتسب عن هـــذا الطريق ثقة وقوة فى الاقناع ٠

وكان كره لنكولن للرق سببـــا فى اعادته مرة ثانية الى ميدان السياسة عندما بدأ أن هناك خطرا من امتداد الرق وكانت عودته اليها على الرغم من سيطرته التامة على هذا الفكرة واخضاعه لاحترامه للدستور ٠

وكان الرجل الذى الغى اتفاق ميسورى بقانون بذاسكا هـــو الشـــيخ دجلاس ممثل ايلينوى ٠ وتقابل دجلاس هذا ولنكولن لاول مرة سنة ١٨٥٤ فى مناقشة عامة فى مهرجان الولاية الزراعى الذى أقيم فى سبرنجفيلد ودار النقاش حول النتائج التى أسفر عنهما عمل دجلاس وزادها حـده ٠ وقال دجلاس فى معرض دفاعه عن مبدئه الخـــاص بسيادة الشعب ، كمـــا كان متوقعا منه أن يقول ٠ أنه لا يهتم بأن تصـــوت الاقاليم الجديدة مـــع الرق أو ضده ، وأنه يكتفى بترك الأمر لرغبات المستوطنين ٠ وأوضح لنكولن ، فى خطاب استمر أربع ساعات ، المبادىء التى استرشد بها فى كل تصرفاته التـــالية :

ليس فى وسعى الا أن أمقت عدم المبالاة التى أعلنت ، والتى أعتقد أنها تخفى حماسة فى تأييد التوســـع فى نطاق الرق ، أمقتها لما تنطوى عليـــه نظام الرق نفسه من ظلم وحش ٠ وأمقتها لأنها تحرم المثل الجمهـــورى

الذى ضربناه للعالم مما يستحقه من نفوذ فى العالم هو له بحق ، وتجعل فى وسع أعداء الأوضاع الحرة اتهامنا بالنفاق ولديهم ما يبرر ذلك الاتهام ، وتجعل أصدقاء الحرية الحقيقيين يرتابون فى اخلاصنا ، وأمقتها بصفة خاصة لانها تدفع عددا كبيرا من الناس الاخيار بيننا الى اعلان الحرب السافرة على المبادىء الاساسية للحرية والمدنية والى انتقاد اعلان الاستقلال والاصرار على أنه لا يوجد مبدأ صحيح تقوم عليه تصرفاتنا الا المصلحة الذاتية » .

ان مبدأ الحكم الذاتى سليم — سلامة مطلقة أبدية — ولكن تطبيقه كما يحاولون الآن ليس من العدل فى شىء ، أو لعلى يجب أن أقول ، أن عدالة تطبيقه فى هذه الحالة تتوقف على نظرتنا للزنجي أهو رجل أم ليس برجل ، فاذا لم يكن الزنجى رجلا ففي هذه الحالة يستطيع من هو رجل أن يفعل به ما يشاء باعتباره يتصرف فى نطاق حكمه لذاته . أما اذا كان الزنجى رجلا ، أليس فى قولنا أن ليس له الحق فى أن يحكم نفسه القضاء الكامل على مبدأ الحكم الذاتى ؟ أن الرجل الأبيض عندما يحكم نفسه كان ذلك حكما ذاتيا ، أما حين يحكم نفسه ويحكم أيضا رجلا آخر ، فان هذا أكثر من حكم ذاتى — أنه طغيان » .

وهناك فقرة تنم بصفة خاصة على أقوال لنكولن اللاحقة : .

« لقد أخذنا نتجه قليلا فقليلا ، ولكن باستمرار ودون توقف ، نتخلى عن عقيدتنا القديمة ونستبدل بها عقيدة جديدة كلما تقدمت بنا السنون نحو القبر ، فمنذ حوالى ثمانين عاما بدأنا بأن أعلنا أن جميع الناس خلقوا: أكفاء ، ولكننا الآن اتجهنا من هذه البداية نحو اعلان آخر نقيض ما بدأنا به ، وهو أن استعباد انسان غيره من الناس » حق مقدس من حقوق الحكم الذاتى « ان هذين المبدأين لا يمكن أن يقوما جنبا الى جنب . انهما متناقضان تناقض الله والشيطان » .

وكان للنقد الذى وجهه لنكولن لدجلاس أثر كبير فى ايلينوى ، وانضم عدد كبير من الديموقراطيين الى الفريق « المناهض لنبراسكا » فى معارضة اى توسع فى الرق . وبدأ دجلاس ، بعد أن أحس بقوة الرأى العام ، يعتدل بعض الشىء فى تشيعه لأصدقائه الجنوبيين . وعندما تنافس الرجلان على انتخاب مجلس الشيوخ فى سنة ١٨٥٨ ، دفعة لنكولن الى التراجع أكثر من ذى قبل وفقد بذلك تأييد ولايات الرق فى سنة ١٨٦٠ وأدى ذلك الى انقسام فى الحزب الديموقراطى كانت نتيجة انتصار لنكولن فى انتخابات الرياسة. ذلك أن الجنوب كان يحكم بمعونة أصوات الشماليين ، وكانت مناقشات لنكولن لدجلاس هى التى جعلت استمرار ذلك الوضع مستحيلا .

واتضح للنكولن أن لابد من قيام صراع عنيف فى موضوع الرق قبل أن يتضح ذلك لغيره من الرجال العامين • ولم يكن هو نفسه يريد الصراع ، وكان مستعدا لترك الجنوب وشأنه فى حيازته للرقيق ، ولكنه كان يشعر بأنه لن يكون هناك حل سلمى يقبله الطرفان • فهو يكتب لاحد أصدقائه فى سنة ١٨٥٥ قائلا : « ان التجربة قد دلت ، فيما أعتقد ، على أنه ليس أمامنا أمل فى انهـــاء نظام الرق بطريق سلمى » ، ثم يمضى قائلا : « أما مســألة تحرير الرقيق بوسيلة سلمية اختيارية ، فان حالة الرقيق من الزنوج فى أفريقيا ، وهى حالة اذا فكر فيها الرجل الحر هالته بشاعتها ، قد أصبحت ثابتة ولا أمل فى اصلاحهـــا أكثر من أمل الأرواح الضالة غير النادمة فى الجنة • وأنه لأيسر للحــاكم المطلق لجميع الروسيين أن يتخلى عن عرشه ويعلن أن رعاياه جمهوريون أحــرارا ، من أن يحرر ســـادتنا الأمريكيون عبيدهم مختارين • »

« ان مشكلتنا السياسية الآن هى : هل نستطيـــع نحن بوصفنا أمة ، أن نظل متحدين والى الأبد اذا بقى نصفنا أرقاء والنصف الآخر أحرارا ، ان المشكلة أشد استعصاء على حتى لا أستطيع لها حلا ، وانى أضرع الى الله أن يلهمنا برحمته الحل (×) • »

وكانت هذه أول مرة نادى فيهـــا بالمبدأ الذى أعلنه ســـنة ١٨٥٨ فى النزاع الذى بينه وبين دجلاس فى مجلس الشيوخ • فقــد قال فى معرض حديثه عن سياسة نبراسكا بعد قبوله الترشيح ما يأتى :

« اننا الآن فى السنة الخامسة وقد مضى منها شطر كبير منذ أن بدأت سياسة معينة كانت تهدف صراحة وفى ثقة بالمستقبل الى وضع حد للهياج فى موضوع الرق • ولم يقتصر الأمر على أن تطبيق هذه السياسة لم يضع حدا للهياج ، بل انه زاد زيادة مستمرة • وأنا أعتقد أنه لن يتوقف الا اذا تأزم الامر ووجد له حل • (ان منزلا منقسما على نفسه لا يستطيع البقاء)• واعتقادى ان هذه الحكومة لن تستطيع البقاء الى غير نهـــاية اذ كان نصفهـــا رقيقا ونصفها أحرارا • ولست أتوقع أن يحل الاتحــاد ـ فلست أظن أن المنزل سينهار ـ ولكنى أتوقع أن الانقسام سيزول • بل ستتحول الى هذه الناحية أو الى تلك • فاما أن يستطيع معارضوا الرق أن يوقفوا انتشاره ، ويجعلوه بحيث يستريح الرأى العام الى أنه صائر حتما الى الالغاء ، أو أن دعاته سيدفعونه الى الأمام حتى يصير مشروعا فى كل الولايات ، القديم منها والجديد والشمال والجنوب » •

وبدأ هذا المذهب فى ذلك الوقت غريبا ليس له ما يبرره ؛ ووجد دجلاس

(×) نيقولاى وهاى نفس المرجع (١) ص ٣٩١ ـ ٣٩٢

فى المناقشـات التى دارت بينه وبين لنـكولن ، والتى كانت أكثر ما يثير الاهتمام فى الحملة الانتخابية كلها • نقول : ا دجلاس وجد مهاجمة لنكولن فى هذه النقطة أشد حججه أثرا • فقد افترض أن لنكولن يدعوا الى القتال باعتباره أمرا مرغوبا فيه ، وليس أنه يتنبأ بما سيقع حتمـا فى المستقبل تقوده حكمته العجيبة التى لا تتسم بأى دافع شخصى • فاتهم لنكولن بأنه يثير حربا أهليـــة ، حرب الشمال ضد الجنوب ، حرب ابادة تستمر حتى ينتهى أحد الطرفين بالخضوع الى الطرف الآخر وكانت الفكرة العامة أن دجلاس سيكون له الفوز ، بل أن الجمهـوريين فى الشرق أسفوا لأنه كان يلقى معارضة • فقد غير رأيه مؤخرا الى حد ما وانضـم الى الجانب الآخر فيما يتعلق بشئون كنسـاس ، وكان يظن أنه يستحق التأييـــد على هذا الأسـاس •

وكان مركز دجلاس حرجا للغاية عـلى الرغم من أنه كان مناقشا ماهرا ، فاذا هو أرض الجنوب فقد ايلينوى ، واذا فشل فى أرضاء الجنوب لم يبق له أمل فى أن ينتخب للرياسة فى سنة ١٨٦١ • وقــد أرغمه لنكولن فى مناقشة جرت فى فريبورت أن يبدى رأيه صريحا فى موضوع كان يفضل فيه الابهام • فقد سأله بين أسئلة أخرى : « هل يستطيع سكان اقليم فى الولايات المتحدة تحريم الرق داخل حدود هذا الاقليم ضد رغبة أى مواطن من مواطنى الولايات المتحدة قبل أن يتم وضع دستور الولايات التى يقيمون فيها ؟ » فأجاب دجلاس أنهم يستطيعون ذلك على الرغم من حكم «دردسكوت» وهم يستطيعون ذلك بواسـطة ما يسمى « التشريع العـــدائى » طالما أن « الرق لا يمكن أن يبقى يوما واحدا ، بل ساعة واحدة ، الا اذا القى تأييدا من قوانين الشرطة المحلية » • وقد أرضى هـــذا الاتجاه ايلينوى ، ونجح دجلاس فى انتخابات مجلس الشيوخ ، ولـــكنه أغضب الجنوب وأحدث انقساما فى الحزب الديموقراطى •

ولما رشح الحزب الجمهـورى لنكولن للرياسة الجمهـورية سنة ١٨٦٠ كانت هناك عدة مسائل ليست متصلة مباشرة بموضوع الرق • كان هناك موضوع تحسين الطرق المـــائية النهرية وموانىء الأنهار ، وكانت هنـاك مشكلة التعريفة الجمركية وكان لنكولن دائمـا من مؤيدى التعريفة المرتفعة ولم يكن قد غير رأيه عندما تم اختياره • وكانت هناك مسألة أخرى تتحكم فى أصوات كثيرة وهى موضوع الأراضى المجانيـة • وكانت مظاهرات من مؤيدى لنكولن تسير فى الطرقات مطالبة بأرض «لجميع المستوطنين فعلا» ، و « لنكولن وتوزيع الأراضى المجـــانية » ، « أقروا قانون توزيع الأراضى وسيحل ذلك مشـكلة الرق » ، « لا بد لنا من المـــائة والستين فدانا » ، الولايات المتحدة الى حد يكفى لأن تعطى كلا منا مزرعة (×) » • ولم يكن

(×) ماك ماستر المرجع السابق - ج ٨ - ص ٦٤

تحرير الرقيق جزاء من برنامج لنكولن فى سنة ١٨٦٠ · لقد كان يدرك شعور الغرب وسكان وادى أوهيو ، وكان يعلم أن سكان أيلينوى وأنديانا وأهيو وحتى سكان كنتكى وتنسى الشرقية مستعدون للقتال فى سبيل الاحتفاظ بالوحدة ، ولكنهم لن يحاربوا للقضاء على الرق (١) · بل لقد كان الرأى حتى فى سنة ١٨٦٤ أنه «لا يوجد رجل من كل عشرة رجال فى الشمال يهمه أن يكون رجلا رقيقا أو رجلا حرا (٢)

ولا ينبغى الخلط بين المعارضة فى توسيع نطاق الرق والمعارضة فى بقاء الرق حيث كان موجودا دائما ، ففى الشمال الغربى ، وحيثما بدأ الجو ملائما لعمل الرجل الابيض ، كانت المعارضة من ناحية العمال ضد منافسة الزنوج سواء كانوا أرقاء أو أحرارا ، وهو أمر طبيعى جدا ومن حيث صغار المزارعين لم تكن هناك رغبة فى أن يطغى عليهم مزارعون أغنياء يمتلكون مئات الرقيق ويستولون على أراضى كان من الممكن توزيعها على المستوطنين · ولو لم يكن هناك شعور اخلاقى ضد الرق ، فلعله كان من الممكن أن تستمر البلاد فى سلام على أساس اتفاق ميسورى · ولكن الخوف من الالغاء ، واستياء الجنوبيين من اعتقاد الشماليين أنهم أشرار ، دفعهم الى العدوان وأجبر ذلك العدوان الشماليين على الدفاع عما كانوا يرونه مناطق حرة · وكان من الممكن الوصول الى اتفاق حتى بعد انتخاب لنكولن رئيسا لو أن الجنوبيين كانوا على استعداد للعودة الى الحالة التى كانت سائدة قبل سنة ١٨٥٠ · الا أن الجنوبيين كانوا يتصفون بالغطرسة التى ولدها طول عهدهم بالسلطة ، وكان دعاة الالغاء يثيرونهم الى حد الجنون ، واعتقدوا خطأ أن لنكولن بوصفه رئيسا للجمهورية على عاتقه الدفاع عن الاتحاد · لقد كان الرق سبب فى الحرب ، ولكن الرق لم يكن المبدأ الأساسى الذى دار من أجله القتال ، بل كان هذا المبدأ الأساسى هو حق الانفصال ·

وكان لنكولن بوصفه مواطنا عاديا ينفر من الرق ، أما من حيث هو رجل عام فقد وقف دائما ، وبلا تحول ، الى جانب الدستور · فقد قرر خلال مناقشاته مع دجلاس سنة ١٨٥٨ أن للجنوبيين الحق بمقتضى الدستور فى قانون يضعونه للرقيق الفارين ، وكرر هذا الرأى فى خطابه الافتتاحى الذى قال فيه أيضا : « ليس لدى أية نية للتدخل فى نظام الرق فى الولايات المتحدة التى يوجد فيها » ·

فقد استطاع لنكولن أن يقوم بذلك العمل الجليل وهو أن يقود حربا

---

(١) لشاننج - المرجع السابق ج ٦ - ص ٣٨٨
(٢) نفس المرجع ص ٥٨

عوانا بعزيمة ماضية خلال سنوات من الصعاب والهزائم الى أن يتحقق النصر في النهاية وأن يظل طوال المدة ميالا للتفاهم هادئا واسع الافق ، ذلك عمل استطاع لنكولن أن يقوم به ، ومبلغ علمى أنه لم تقم به شخصية تاريخية أخرى . ولم يكن لنكولن ليهاجم الجنوب رغم انفصاله عن الاتحاد لولا أن الجنوب كان هو البادى بمهاجمته .

فهو يقول : « سأستخدم السلطة التى عهد بها الى للمحافظة على أملاك الحكومة واحتلالها والاستيلاء عليها لجباية الضرائب والرسوم ، وفيما عدا ما قد يكون ضروريا لتحقيق هذه الاغراض ، لن يكون هناك غزو ولا استخدام للقوة بين الشعب أو ضده فى أى مكان . وحيثما يكون العداء للولايات المتحدة ، فى اقليم داخلى ، قويا وعاما الى حد يمنع المواطنين المختصين من مباشرة وظائفهم الاتحادية ، لن تكون هناك محاولة لفرض غرباء مكروهين بين الناس لهذا الغرض » .

ويمضى قائلا أنه لا يعارض فى تعديل الدستور على شرط ألا يكون للحكومة الاتحادية حق التدخل فى الانظمة الداخلية للولايات . والشىء الوحيد الذى رفض اجابة الجنوب له هو امتداد الرق ، وهو عرض لا يستطيع الجنوب تحقيقه بالانفصال . واذا ألقينا نظرة الى الوراء بدا الانفصال غير منطقى ، الا اذا نظرنا اليه على أنه خطوة نحو الغزو الخارجى فى أمريكا اللاتينية . وأيا كان الامر فان ألفاظ لنكولن السليمة لم يكن لها أثر ما وأجبر على دخول الحرب الاهلية .

وعلى الرغم من أنه جعل من موضوع الاتحاد ، لا الرق الهدف الاساسى من الحرب فان قوة اندفاع الاحداث العسكرية أدت الى الغائه . فقد كان يعتقد أن « الغاءه تدريجا ، لا دفعة واحدة خير للجميع (×) » كما كان يفضل اتخاذ اجراء يتضمن تعويضا لاصحاب الرقيق وقواعد شبيهة بمقترحات جفرسن لالغاء الرق على درجات . وتقدم بمثل هذه الاقتراحات أولا الى دلاوير ثم الى جميع ولايات الرق التى ظلت موالية للاتحاد . وأشار الى أن التعويض عن جميع الرقيق فى دلاوير يكلف أقل من نصف نفقات حرة مدة يوم واحد ، وأن تعويض جميع ولايات الحدود لن يكلف أكثر من نفقات ٧٨ يوما من أيام الحرب . ولكن ولايات الحدود رفضت مقترحاته بازدراء مفضلة الرقيق على المال . وحرر الرقيق سنة ١٨٦٢ فى منطقة كولومبيا حيث كانت الحكومة الاتحادية تتمتع بحرية التصرف ودفع التعويض لمالكيه .

وأصدر لنكولن كما يعلم الناس جميعا اعلانا فى ٢٢ سبتمبر سنة

(×) نيقولاى وهاى - المرجع السابق - جزء ٥ - ص ٢٠٩

١٨٦٢ يتضمن أن جميع الارقاء فى الولايات التى تظل سادرة فى العصيان فى أول يناير سنة ١٨٦٧ سيصبحون من ذلك اليوم الى آخر الدهر أحرارا • وعرض تعويضات على الولايات الموالية للاتحاد والتى توافق على تحرير من فيها من الارقاء ، وكذلك تعويضا للأفراد الموالين فى الولايات الثائرة نفسها يأخذونه بعد الحرب • وقد أصدر هذا الاعلان لاسباب حربية بوصفه القائد الاعلى للجيش ، وكان قد أبلغ « جريلى » فى خطابه الشهير قبل ذلك مباشرة أنه سيعالج موضوع الرق على أحسن وجه يتفق والمحافظة على الاتحاد ، وأن « هدفه الاسمى فى هذا النضال هو المحافظة على الاتحاد لا القضاء على نظام الرق أو انقاذه • ذلك انه لم يكن يستطيع تبرير اعلان التحرير فى ظل الدستور الا بأنه اجراء حربى موجه ضد أعداء الحكومة الاتحادية • وليس هناك شك فى أن لنكولن كان يريد تحرير الرقيق وأنه كان مستعدا لاتخاذ أى اجراء سليم لتحقيق هذه الغاية ، غير أنه لم يكن مستعدا لان يخالف الدستور لاى سبب كان أوأن يسمح لموضوع الرق أن يطغى على موضوع المحافظة على الاتحاد • وعندما تقدم باقتراح اعلان التحرير الى مجلس وزرائه فى أول الامر ، اقترح سيوارد أنه قد يكون من الحكمة أن يرجىء اعلانه حتى يحرز انتصارا فى احدى المعارك فوافق لنكولن على هذا الرأى • فلما انتهت معركة انتيام أبلغ مجلس الوزراء أن الوقت قد حان • فقد قرر أنه « اذا هيأ لنا الله النصر فى المعركة المقبلة فانه سيرى فى ذلك دليلا على ارادة الله ، وان واجبه أن يسير قدما فى قضية التحرير •• وكانت ارادة الله فى مصلحة الرقيق (×) » •

وزاد الشعور المناهض للرق قوة خلال الحرب ، وحتى ولايات الحدود أصبحت الغالبية فيها تؤيد الالغاء • ولما عرض التعديل الثالثعشر (الغاء الرق) على مجلس النواب لثانى مرة فى يناير سنة ١٨٦٥ ، أيده عضو من دلاوير وأربعة من مارى لاند وثلاثة من فرجينيا الغربية وأربعة من كنتكى وسبعة من ميسورى • وتم التصديق على التعديل الذى كان يتطلب موافقة سبع وعشرين ولاية فى ١٨ ديسمبر سنة ١٨٦٥ بعد ثمانية أشهر من اغتيال لنكولن •

وبلغت الاوضاع السياسية فى الولايات المتحدة كامل نموها بلنكولن والغاء الرق ، ومنذ ذلك الوقت ، ولقد كان أهم ما حدث من تطور فى أحوال البلاد منذ ذلك الوقت تطورا اقتصاديا لا سياسيا • ولقد كانت

(×) نيقولاى وهاى ج ٦ ـ ١٦٠ ـ لم يعترف لنكولن ابدا بحق مجلس الامة فى اصدار تشريعات فى موضوع الرقيق فى الولايات • قارن تصرفه فى قانون ويد ـ دافيز ـ نفس المرجع ـ ج (٩)

الديموقراطية كما تضمنها اعلان الاستقلال هي المبـــدأ الذى الهم لنكولن تصرفاته ، وقد أثبت هذا المبدأ في النهاية انه له من القوة مايكفى لتحرير الزنوج • الا أنه على الرغم من أن لنكولن كان يبدو غير شاعر بأى اختلاف بين مبادئه ومبادىء جفرسون ، فانه قد حـدث تغـيير مهم جدا جاء على درجات غير محسوسة بين مبادىء الرجلين • لقد صارت سلطة الحـكومة الاتحادية فى المقابلة بسلطة الولايات اعظم كثيرا مما كان يظن أنها كانت فى الوقت الذى وضع فيه الدستور • ويرجع بعض السبب فى هذا الى ظروف طارئة عملية ، مثال ذلك أن جفرسن نفسه قد اضطر ـ رغم أنه كان يؤيد بحماسة شديدة حقوق الولايات ـ الى أن يمط الدستور مطا عند شراء لويزيانا • ويرجع بعض السبب فى ذلك أيضا الى أن « مارشال » الاتحـادية كان يستطيع ، وهو من فى المحكمة العليا ، أن يعمل على تنفيذ آراء الحزب بعد أن يكون المقترح العادى قد نسى وجوده منذ أمد طويل • ولكن التوسع الامريكى فى الغرب كان هو العامل الاساسى فى تقوية الحكـومة المركزية • ذلك أن الوطنية المحلية لاتستطيع أن تنمو بين يوم وليلة فى ولاية جديدة • كما أن انتشار السكك الحديدية هيأ للناس حرية فى التنقل جعلتهـم أكثر احساسا بوحدة البلاد • ولعل جفرسن كان يرى أن مطالبة الجنوب بحقـه فى الانفصال عن الولايات المتحدة مساويا لمطالبة الولايات المتحدة بحقها فى الانفصال عن امبراطورية البريطانية • أما لنكولن فلم يكن يسعه أن يقف هذا الموقف فقد كانت أمريكا فى نظره وفى نظر معظم مواطنيه بلدا واحدا وكانوا مستعدين للقتال فى سبيل وحدتها •

لقـد كان ابراهام لنكولن يمثل فى شـخصه مشاعر الغرب وعواطفه ومصـالحه وآماله وكاد فى منصبه أن يكون بعيـدا عن التحيز للاشخاص بعد القوى الطبيعية نفسها ، ومن هذه الصفة استمد قوته غير العادية • أما من حيث هو فرد عادى فقد كان يكره الرق ، ولكنه فى تصرفاته العـامة كان يعارضه لا لشيء الا أنه كان يرى فيـه سـببا للانقسـام ، وفى تلك الحدود فقط • وحتى عندما انتهى رأيه الى أن الاتحـاد لا يستطيع البقاء اذا كان نصفه يبيح الرق ونصـفه لا يبيحه ، فانه كان يفضـل الاجراءات المعتدلة والوسائل التدريجية فى تحرير العبيـد مع التعويض وتهيئة وقت كاف لتسوية الأوضاع الجديدة • ولكن موقفه من حل الاتحـاد كان موقف الرجل الشديد الذى لا يعرف مهادنة • ودليلنا على ذلك أنه عندما انفصل الجنوب أيد قسم قوى من الراى العـام فى الشمال قبول الموقف على أنه حل سلمى للنزاع ، ولكن لنكولن لم يتردد لحظة واحدة فى ضرورة تأكيد السلطة الاتحادية • ووقف يناضل عن الوحدة القـومية كما وقف مازينى وبسمارك ، وعمل كما عمل معظم الوطنيين لتبرير موقفه بالالتجاء الى فـكرة

معنوية يجمع حولها أفكار أمتـه . الا أنه ، على خلاف الكثرة الغـالبة من الوطنيين كان على حق فى التجائه الى هذا العمل . ذلك أن أمريكا كانت « قد آمنت بأن كل الناس قد خلقوا أكفاء » . لكن الرق قد جعل هـذه الفكرة تبـدو هزرا وسخرية . ثم أصبحت فى الحرب الاهليـة مرة أخرى عقيدة خلاقة تصوغ الوقائع فى قالب يجعلها أكثر انطباقا على مثـل أعلى ، وتعيد لامريكا احترامها لنفسها واحترام الامم الاخرى لها .

المنافسة والاحتكار فى امريكا

---

١ ـ الفصل السادس والعشرون : الرأسمالية التنافسية

٢ ـ الفصل السابع والعشرون : الاتجاه نحو الاحتكار

الباب الثانى

الفصل السادس والعشرين

الرأسمالية التنافسية

بينما كان المثاليون يقتل بعضهم البعض فى الحرب الاهلية ، كان العمليون من أجلهم قدرا الى أقلهم شأنا يبذلون كل جهودهم لجمع المال . وصدر فى سنة ١٨٦٢ « قانون المزارع المجانية (١) » الذى اعترض عليه الرئيس بوكانان سنة ١٨٦٠ باعتباره قانونا هداما ، وقد مر هذا القانون بصورة أكثر عنفا . وبمقتضاه كان فى وسع أى أمريكى أو أى أجنبى يعرب عن رغبته فى التجنس بالجنسية الامريكية أن يحصل على ١٦٠ فدانا انجليزيا من الاراضى العامة بلامقابل . وبدأت الادارة الاتحادية فى منتصف الحرب الاهلية حربا ضد الهنود لتستولى على الاراضى التى تقع غرب المسيسبى والتى كان جاكسن قد خصصها لهم ، وذلك لزيادة الاراضى العامة المرغوب فيها . وحدثت موجة ضخمة من الهجرة الى المزارع الجديدة ، ولم يكن المهاجرون من الضياع الشرقية وحدها بل كانوا أيضا من المدن والمصانع . ولتعويض النقص فى اليد العاملة الامريكية صدر قانون يبيح لاصحاب الاعمال استيراد عمال يتعاقدون معهم من أوروبا . وكان تحويل الحرب فى الوقت عينه يتم بعضه عن طريق القروض وبعضه بزيادة الضرائب الجمركية التى ارتفع متوسطها من ١٩٪ الى ٤٧٪ خلال سنوات الحرب (٢)

وصدر من مجلس الامة فى سنة ١٨٦٢ الترخيص بانشاء أول خط حديدى عبر القارة ، وهو خط « اليونيون باسفيك » من أوماها الى الغرب و « السنترال باسفيك » من كاليفورنيا شرقا . وقد منح الترخيص الشركتين اثنين وعشرين مليون فدان انجليزى من الارض وسندات حكومية تقدر بأكثر من سبعة وعشرين مليونا من الدولارات (٣) وحصلت عدة شركات سكك حديدية أخرى على منح كبيرة من أرض أو سندات .

وتدين الثروات الكبرى التى ظهرت فيما بعد بأصلها الى الظروف التى كانت سائدة خلال الحرب الاهلية والتى هيأت فرصا فريدة للفساد .

---

(١) Honestead act.

(٢) بيرد «نحو المدنية الامريكية ، ج ٢ — ص ١٠٨ .

(٣) بوجارت « التاريخ الاقتصادى للشعب الامريكى » ص ٦٣٤ .

والرشوة . مثال ذلك ان بييربون مورجان ، وكان يومئذ فتى فى الرابعة والعشرين ، اشترى بالاشتراك مع آخرين ٥٠٠٠ بندقية قيل انها قديمة وخطرة من الحكومة فى الشرق بسعر ثلاثة دولارات ونصف دولار للقطعة ثم باعوها للجنود فى الميسيسبى مقابل اثنين وعشرين دولارا للقطعة . وحققت لجنة من مجلس الامة فى الموضوع ، ولجنة من اثنين (بالنيابة عن وزير الحربية) - وكان أحد الاثنين روبرت ديل أوون بن روبرت أوون . ورغم أن الوقائع ثبتت صحتها ، فقدقبض مورجان وأصدقاؤه نقودهم(×)

ولم يؤدى نجاح الحزب الجمهورى سنة ١٨٦٠ الى الغاء الرق فقط ، بل انه أدى أيضا الى حكم الاغنياء . وكان الغرب حتى ذلك الوقت متحالفا مع الجنوب فى تأييد الزراعة وحرية التجارة . الا أن رغبة الجنوب فى توسيع نطاق الرق ومعارضته فى « المزارع المجانية » جعلا الشمال الغربى ينضم الى الشرق ويقبل سياسة قائمة على مبادىء هاملتن فيما يتعلق بالتعريفة والشئون المصرفية ، فى مقابل سياسة متحررة فى موضوع الاراضى الغربية . وجنى المزارعون كما كان متوقعا أرباحا طائلة من وراء الحرب ، فقد ارتفعت أسعار جميع الحاصلات الزراعية وبلغ ثمن القمح فى وقت من الاوقات دولارين ونصف دولار للبوشل . وزاد الصادر من القمح ، خاصة الى انجلترا ، زيادة غريبة على الرغم من هذه الاسعار المرتفعة . فقد ارتفع من سبعة عشر مليون بوشل سنة ١٨٦٠ الى ثمانية وخمسين مليونا فى سنة ١٨٦٣ . فلا عجب والحالة هذه اذا نسى الزراع ولاءهم لجكسن وسياسته خاصة وأن السياسة الجديدة كانت تحمل معها الحرية للرقيق المضطهدين . ولم يسبق أبدا أن اتحدت الفضيلة والمصلحة الذاتية بهذه الصورة المرضية .

ولم يقتصر الامر على الزراعة وحدها فى ايجاد مصادر طبيعية جديدة للثروة خلال الحرب الاهلية ، فقد اكتشف أول بئر للبترول فى بنسلفانيا سنة ١٨٦١ ، واستخرج خلال ثلاث سنوات من ٦٢ - ١٨٦٥ ثلاثمائة مليون جالون من البترول . وكان أى رجل يملك أرضا فى مناطق البترول أو يستطيع أن يقنع مزارعا جاهلا بالنزول له عن أرضه ، يأمل فى أن يصير صاحب ملايين بين عشية وضحاها اذا حالفه الحظ ، كما أن الذهب وجد بكميات ضخمة فى كلورادوا ونيفادا . وبدأت مناجم الحديد فى ليك سوبريور ، أكثر المناجم ربحا فى العالم ، تستغل فى هذه الفترة . وعرفت معظم الثروات المعدنية فى الغرب فى سنة ١٨٦٠ والسنوات التسع التالية .

وكان نجاح نظام الاقتصاد القومى الذى بدأه الحزب الجمهورى سنة

(×) مايرز (تاريخ الثروات الامريكية الكبرى) ج ٣ من ص ٥ الى ١٧٠

١٨٦١ يعتمد على تدفق اليد العاملة الرخيصة من أوروبا ، والاراضى البكر فى الغرب تنتظر من يفلحها . ولولا اراضى الغرب لاضطرت هجرة العمال الأجير الامريكى الى أن يخفض مستوى معيشته الى مستوى معيشة العامل فى العالم الجديد ، ولولا هجرة اليد العاملة لأرغمت أراضي الغرب أصحاب الاعمال فى الشرق على رفع الاجور ولجعلت النمو السريع للتصنيع مستحيلا . وكان النظام بهذا الوضع لا يتمتع باكتفاء ذاتى ، ولا يستطيع البقاء الا باستمرار تدفق اليد العاملة وزيادة الاراضى . وانتهت الزيادة فى الاراضى أولا ، وبانتهائها تجمعت سحب التذمر وازدادت قوة حتى أدت بعد وقت قليل الى تحديد الهجرة فى حدود ضيقة جدا . وانتهت أسباب الرخاء بانتهاء اليد العاملة الرخيصة والاراضى الرخيصة ، وكان ذلك هو السبب الأساسى للركود الذى بدأ سنة ١٩٢٩ . ذلك ان نظاما اقتصاديا مكتفيا بذاته لا يمكنه أن يحتمل النقص فى التنظيم الذى صاحب زيادة الثروة فى أمريكا ، ولكن العادات العقلية التى تكونت خلال مائة وخمسين عاما من التقدم جعلت من العسير استيعاب الافكار التى تتطلبها فترة بلغت فيها جهود الرواد نهايتها .

وكانت المنافسة انجيل أمريكا ، كما كانت انجيل انجلترا الصناعية . الا أنه بينما مارست انجلترا مذهب المنافسة فى صورة دولية عن طريق تبنيها حرية التجارة ، قصرت أمريكا ، التى كانت صناعاتها لم تزل فى المهد ، منافستها الى حد يتزايد باستمرار على داخل حدودها القومية عن طريق الضرائب الجمركية المرتفعة . فقد كان مسموحا بهجرة اليد العاملة الرخيصة من أوروبا ، ولكن البضائع الرخيصة من أوروبا كانت تفرض عليها ، بعد تحالف الغرب والشرق فى الحزب الجمهورى ، ضرائب مرتفعة الى حد جعلها بالتدريج ضرائب مانعة . ولربما ظن المرء أن العمال الامريكيين سيحتجون على هذه المنافسة من جانب واحد ، ولكن هؤلاء العمال كانوا متجهين بكليتهم نحو امتلاك المزارع ، ورضوا أن يتركوا كسب الاجور للاجانب . وكانت المكاسب الناتجة من التهافت على تكوين الثروات بين من لم يشتركوا فى القتال كبيرة الى حد لم يعرف من قبل ، وحتى أولئك الذين وقفوا خارج حلبة التهافت كان نصيبهم مكاسب ترضيهم ولا يستهان بها : ١٦٠ فدانا انجليزيا من أرض خصبة فى منطقة كانت السكك الحديدية تتقدم نحوها بمعدل ميل فى اليوم ، والمدن تنمو فيها خلال شهر ويزرع فيها القمح بمجهود قليل الى حد لا يصدقه العقل ليسد حاجة سوق تتسع باستمرار فى أوروبا وأمريكا .

ولم يكن ما كان يحدث يبدو لأنظار المعاصرين تهافتا لتكوين ثروات . فقد كانت مصادر الثروة فى البلاد تبدو كأنها تنادى من يستغلها ، وكان

الناس يعتقدون أن بعض العجلة فى الاستجابة لهذا النداء قربانا مناسبـــا يقدم الى الاله الكبير ـ المنافسة • وكانت روح المنافسة تغرس فى نفوس تلاميذ المدارس حيث كان الصبية يتعلمون حفـــظ أبيات من الشعر يمكن ترجمتها فيما يلى :

أين المدينة ، قريبة أو بعيدة ،

التى لا تجد مدينة تنافسها عندنا •

وأين الفتي الذى لم يخرج من اهابه بعد..

الذى تقدم مثلما أتقدم أنا •

ان هذه الأفكار تلهم عقلى الصغير ..

وتدفعنى لأن أكون أعظم الناس جميعا ..

عظيما ، لا مثل قيصر ، مخضبا بالدماء ..

بل ، مثل واشنجتن ، عظيما فى الخير ..

وقد مات واشنجتن (كما يقول تشارلز ١٠٠ بيرد) وهو أغنى أغنيـاء بلاده • ونجح الكثيرون ممن « تجنبوا أن يخضبوا أيديهم بالدماء » أثنـــاء الحرب الاهلية فى أن يصيروا « عظماء مثل واشنجتن » من هذه الناحية •

وقد تكونت الثروات فى أمريكا منذ الحرب الاهلية من السكك الحديدية والبترول والصلب ، التى امتزجت جميعا فى النهاية ، فى بحر واحد خضم من العمليات المالية • وانتقلت السكك الحديدية والبترول والصلب

من مرحلة منافسة شديدة الى مرحلة من الترابط الكامل الى حد ما •وكانت السكك الحديدية خلال الحـــرب الاهلية ، وفى فترة قصـيرة بعدها ، أهم المصادر الثلاثة ، وكان أبرز اسم فى عالم الســـكك الحديدية هو كومودر فاندربلت •

وكان كومودر فاندربلت قد بلغ التاسعة والستين من عمـــره عندما دفعه الحرب الى الاهتمام بالسكك الحديدية ، وكانت انتصاراته حتى ذلك الوقت كلها فوق المـــاء • وقدرت ثروته عندما توفى فى ســـنة ١٨٧٧ بمبـــلغ ١٠٥٫٠٠٠٫٠٠٠ دولارا • وكان قد بدأ فى عهد المراكب الشراعية ببنـــاء قوارب لتجارة الشواطىء وامتلاكها • وعندما ظهرت السفن التجـارية باع قواربه وصار قبطانا لسفينة تجارية ، وما أن وافت سنة ١٨٢٩ حتى كان قد اقتصد ٣٠٫٠٠٠ دولار استثمرها فى قوارب بخارية صنعها بنفســه • وكان لايقف عنـــد حد فى منافسته ، فيعمل أحيانا عـــلى خراب منافسيه بخفض الاسعار ، وأحيانا أخرى يتقاضى مبالغ ضخمة ليمتنع عن المنافسة •

مثال ذلك أن شركتين للسفن التجارية ، متنافستين فى الظاهـــر ، (كان الجمهور يطالب بقيام المنافسة) نالتا منحة سنوية قدرها ٩٠٠ر٠٠٠ دولار لنقل البريد من نيويورك الى كاليفورنيا ، ولكن فاندربلت استولى من هــذا المبلغ على ٨٤٠ر٠٠٠ دولار أولا ثم ٦١٢ر٠٠٠ دولار حتى لا يرسل سفنه الى كاليفورنيا . ولما كان تسيير السفن عملا مربحا ، وعدم تسييرها أكثر ربحا ، فلا عجب ان تضخمت ثروته .

وجعلت الحرب السفن التجارية غير مربحة الا اذا بيعت للحكومة . ولكن سرعا ما حانت الفرصة للربح منها بهذه الطريقة .. تقرر في سنــة ١٨٦٢ ارسال حملة عسكرية بالبحر الى نيواورد لينز ، وعهد الى فاندربلت شراء السفن . وطالب وكيل اعماله أصحاب السفن «بسمسرة» قبل الشراء، واتفق بعد أن تقاضى « سمسرة » على أسعار خيـــالية لسفن كانت أحيـانا مبنية للعمل فى البحيرات وغير صالحة للملاحة فى البحار الواسعة . وهكذا جنى فاندربلت من بيع سفنه أرباحا طائلة ، ولم يكن وداعه للبحر خاليـــا من بعض الترضية .

وكانت أولى عملياته فى السكك الحديدية ، وهى نموذج لعمليات أخرى كثيرة ، تتعلق ببناء خط صغير فى الضواحى هو طريق نيويورك - هارلم . وبدأ بالشراء فى سنة ١٨٦٢ عندما كان ثمن السهم تسعة دولارات . وبعد أن تمت له السيطرة ارتفعت الاسعار فجـــاة الى ٥٠ دولارا للسهم . وكان سبب ذلك أنه حصل على ترخيص ، بوســـائل غير مشروعة ، من مجلس نيويورك المشترك لبناء خط حديدى يبدأ من نهاية الخط الاول ويمر فى قلب المدينة كلها . ولكن كان له منافس رجل اسمه لو ، كانت له معــه وقائــع سابقة بشأن السفن التجارية . وبينما كان فاندربلت يسيطر على مجلس نيويورك المشترك ، كان لو يسيطر على المجلس التشريعى فى نيـــويورك ، واكتشف المجلس المشترك أن المجلس التشريعى هو الهيئة الوحيدة صاحبـة الحق فى منح الترخيص الذى كان المفروض أن فاندربلت حصل عليه . وظن لو أن فاندربلت قد هزم وكذلك ظن أعضاء المجلس المشترك . ورأوا أنهم لا يجدون سببا يدعوهم الى التورط فيما ألم به من كارثة ، وتنبأوا بأن اسهم السكك الحديدية ستنهار عندما تعرف الحقيقة . ومن ثم تعاقد «آباء المدينة» على البيع المؤجل ، أى أنهم تعهدوا أن يبيعوا « تحت التسليم » أسهما من أسهم شركة هارلم الى مشترين معينين بسعر ٥٠ دولارا أو ما يقرب من ذلك وهو سعر السهم وقت التعاقد . واعتمدوا على أنه عندما يحين وقت التسليم ستكون هزيمة فاندربلت قد عرفت ويكون فى استطاعتهم عندئذ شراء الاسهم التى تعاقدوا عليها بسعر رخيص لبيعها بسعر مرتفع . الا أنهم عندما حان الوقت المحدد للتسليم وجـدوا أن فاندربلت اكتشف المؤامرة وحصل من الاسهم على قدر كبير بحيث لم يبق فى السوق ما يسمح لأعضـــاء المجلس

المشترك بتنفيذ ما تعـــاقدوا عليه • ومن ثم لم يكن أمامهم الا أن يشتروا الاسهم منه بأى ثمن يفرضه ، وقد باعهم فعلا السهم بسعر ١٧٩ دولارا • وفى غضون اسبوع ، كما يقول مؤرخه ، ربح فاندربلت مليونا من الدولارات من المجلس المشترك وملايين أخرى من غيرهم •

ولا سبيل الى انكار أن هذه منافسة ، ولكنها لم تكن هى بعينها المنافسة التى قصدها كوبدن ، أو المنافسة التى كان مفروضا أن يطلب الى أطفـــال المدارس الامريكية أن يعجبوا بها • كما أن هذه لم تكن آخر مرة دخل فيها فاندربلت فى منافسة لشراء أعضاء المجالس التشريعية والقضاء وسلع أخرى مشابهة لهذه السلع • والواقع أن خططه فى سكة حديد هارلم - نيويورك أصابت نجاحا كبيرا لم يسعه الا أن يكررها بالضبط مرة ثانية فى سـكة حديد نيويورك ونهر هدسن • ولم يكن ضحايا هذه المرة هم أعضاء المجلس المشترك بل أعضاء المجلس التشريعى فى ألبانى • وقد قال فى مباهاة : « لقد أفلسنا المجلس كله حتى أن العشرات من أعضائه المحترمين اضطروا الى العودة الى منازلهم دون أن يدفعوا نفقات اقامتهم فى الفنادق » •

وليس من العدل أن ننظر الى هذا القائد البحرى على أنه مجرد قرصان جرىء • فسكة حديد نيويورك الوسطى التى وجه اليها اهتمامه بعـد ذلك أصبحت من ممتلكاته الدائمة وانتقلت الى ورثته من بعده ، وأديرت بكفاية أعظم جدا مما كانت تدار بها قبله • وربح طبعا خلال هـذه العملية عـدة ملايين عن طريق الحيل المالية المألوفة ، الا انه فى نفس الوقت خدم الصالح العام عرضا ،كما خدم مصالحه الشخصية •

وكانت حملة فاندربلت النموذج المألوف للمنافسة بين كبار الرأسماليين وكان ميدان القتال سكة حديد ايرى وكان الذين ينازعونه فيها رجال دهاة مثله هم : دور وفسنك وجولد • وفشل لأول مرة فى أن يحقق نجاحا كاملا فى نضاله مع هؤلاء الثلاثة •

وحدثت واقعة ايرى فى سنة ١٨٦٨ عنـــدما كانت عصبة « تويد » تسيطر على السياسة فى كل من مدينة نيويورك وولاية نيويورك • وكانت الرشوة تعم نيويورك منذ عهد هاملتون ، ولكنها لم تبلغ أبدا ما بلغته من قحة تحت حكم تويد • فقد كانت المدينة غاصة بالمهـاجرين الذين يجهلون أمريكا ، بل ان كثيرا منهم كانوا يجهلون اللغة الانجليزية • وكان «تامانى» يتقن فن اقناع هؤلاء النـاس الذين لم يتعودوا الديموقراطية ولم يكن فى استطاعتهم الصمود أمام « الزعماء المهرجين » بأى حال من الاحوال • وكان الاثرياء فى طول البلاد وعرضها مشغولين بجمع المال فلم يكن يتسع وقتهم لمحاربة السياسيين المحترفين • وعندما زرت أمريكا أول مرة سنة ١٨٩٦ سـألت أحد الكويكريين من أهالى فيلادلفيا الاثرياء : لمـاذا لا يفعل شيئا لتطهير

الحكومة فى مدينته ، فأجاب بأنه كان يهتم فى فترة من الفترات بحركات الاصلاح ، ولكنه وجد بعد ذلك أنه يستطيع أن يربح من اشتغاله بالمشروعات التجارية والمالية أكثر مما قد يوفره من الضرائب عن طريق اشتغاله بحركات الاصلاح ، ومن ثم أقلع « طبعا » عن أن يشغل نفسه بالاصلاح . وهـذا الاتجاه الذى كان لايزال سائدا الى حد كبير سنة ١٨٩٨ كان هـو السنة المألوفة فى سنة ١٨٦٨ . فقد كانت حكومة المدينة وحكومات الولايات تملك منح حقوق ثمينة جدا ، وكان السياسيون المحترفون مهرة فى اقناع أصحاب الاصوات بالنزول عن هذه الحقوق بلا مقـابل ؛ وكان ما يدفع مقابل هـذه الحقوق يذهب الى جيوب السياسيين لا الى الجمهور . فقضاة الولايات ، وهم منتخبون ، صنائع « الزعيم » ، ومن ثم كان فوق القانون طول مدة «زعامته» وكذلك كان المقربون اليه ، وبلغ هذا النظام أقصى درجات كماله بعد الحرب الاهلية مباشرة ، وكان عاملا مهما فى تقلب الحظ فى معركة ويرى .

ودرو وجولد وفيسك ثالوث يثير الاهتمام . فكـان درو رجلا مسنا من معاصرى فاندربلت وكانت بينهما معاملات عديدة عندما كانا قبطانين لسفن تجارية ، وهو منصب وصل اليه درو بوسائل مزيبة بعد أن كان يعمـل راعى بقر ثم اشتغل بعض الوقت مستخدما فى حلبـة ألعاب ، ثم صاحب حانة . ولم يكن مثل فاندربلت جريئـا قوى الشخصية ، بل كان جبـانا متذللا يحشر نفسه فى كل شىء . وكان يلزم الفراش ويدعى المرض كلمـا فشلت خطة من خططه . وكان رجلا شديد الورع اذ أنفق قدرا كبيرا من أرباحه غير المشروعة فى انشاء حلقة دراسات دينية . ويبدو أنه كان يفعل ذلك راجيـا أن يتخذ الله شريكا له ! وكان جولد شابا من مواليد سنة ١٨٣٦ . وكان يخفى الجزء الاسفل من وجهه خلف لحية كثـة ، هادئا يميل الى السرية ، قادرا على انتزاع النصر من الهزيمة فى الازمات بمهارته فى خيانة شركائه ، وكان فيسك ، وهو من معاصرى جولد ، متحدثا لبقا يروق فى أعين النساء ، وقد بدأ حياته بائعا متجولا ، ثم ارتفع مثل جولد الى وظيفة فى حلبة ألعاب متنقلة . وكان كل من فيسك وجولد فقيرين ، ويرجع الفضل فى أول نجاح كبير أصاباه الى درو . وفى النهاية قتل فيسك بيد منافس فى حب احدى عشيقاته الكثيرات ، ونجح جولد فى افلاس درو ، غير أنهم فى نضالهم الاول ضد فاندربلت كانوا يعملون فى وفاق .

وكانت سكة حديد ايرى فى يد درو منذ سنة ١٨٥٧ . ولم يكن يفعل شيئا للمحافظة على الطريق والقضبان ، أو على القاطرات والعربات ، بل انه كان يكتفى بأن يقلب القضبان الحديدية القديمة عندما يؤمر بوضع قضبان جديدة من الصلب . وكانت النتيجة أن تكرر وقوع الحوادث الخطرة . ولم يكن يتخذ ملكيته الخط الا وسيلة للمضاربة فى سوق السندات . فكـان

يطلق الاشاعات التى من شأنها أن ترفع أو تخفض ثمن الاسهم تبعا لمصلحته، ويكون بهذه الطريقة ثروة ضخمة خلال تسع سنوات ·

وبدأت علاقة فاندربلت بسكة حديد ايرى فى سنة ١٨٦٦ عندما سيطر عليها ، بوسائله المعتادة ، واستعد لتعيين مديرين من رجاله لهـا بدلا من درو وأمعاته · ولكن يبدو أنه تأثر بالعواطف للمـرة الوحيدة فى حياته · فقد ذهب اليه درو وذكره برفقتهما القديمة فى أيام الكفاح الاولى ، كمـا ذكره بأنه أطلق اسمه على أحد أبنائه · وقال له أنه قد صار رجلا مسـنا وأن فى الاخفاق بالنسبة له قضاء نهائيا عليه ، هذا الى أنه مستعد لتنفيذ سياسة فاندربلت بكل اخلاص وولاء · وبلغت مهارته فى استدرار العطف حدا جعل القائد البحرى يوافق على أن يبقيـه مديرا للسـكة الحديدية · ووافق أيضا على شابين رشحهما له درو وقال عنهما أنهما ممن يستطـاع الاعتماد عليهم فى تنفيذ أوامر فاندربلت ، وكان الشابان هما جولدو فيسك واستطاع ثلاثتهم ارضاء فاندربلت وقتا ما حتى اعتقد أنه أصبح آمنا فى عمله ·

ولكن لم يمض وقت طويل حتى أفاق من وهمه · فشرع فى الاستيلاء على جميع أسهم ايرى ، واشترى كل ما كان يصل منها الى السوق · وأدرك درو وفيسك وجولد أهدافه فأصدروا لأنفسهم كمية كبيرة من السندات ، وربما كان ذلك من حقهم بمقتضى القانون · ثم اشتروا مطبعة وشرعوا فى تحويل السندات الى أسهم ، وهو أمر كان مخالفا للقانون كل المخالفة ·وباعوا هذه الاسهم لوكلاء فاندربلت فى السوق المالية وسارع هؤلاء الى شرائهـا بمجرد صدورها دون أن يرتابوا فى أمرها · وسرعان ما اكتشفت الحيلة التى لجأوا اليها بطبيعة الحال ، وشرع فاندربلت ، وقد استشاط غضبا ، يعمل للانتقام من الخونة · وكان فى نيويورك قاض اسمه بارنارد تعود أن يتلقى أوامره من فاندربلت · وحصل فاندربلت من هذا الرجل الوقور على قرار يحرم اصدار أية أسهم جديدة · وكان لدى الثالوث عدد كبـير من هذه الاسهم ينوون اصدارها ، ولكنهم أحنوا رؤوسهم طاعة لجلال القانون · وأعطى درو وجولد هذه الاسهم بعد وضعها فى حقيبة الى صبى يعمل فى المكتب لايداعها فى خزانة · ولكن الصبى صعق اذ هاجمه رجل ضخم لـم يعرفه وانتزع منه الحقيبة الثمينة ، الا أن درو لم يثر واكتفى بأن قال له فى وداعة أن يحترس فى المرة المقبلة ، لان الـرجل الضخم كان فى الواقع فيسك . وكان فى الحقيبة ١٠٠٫٠٠٠ سهم بيعت فورا وحـول الثمن الى أوراق نقدية وهرب الرجال الثلاثة ، ومعهم ستة ملايين أوسبعة من الدولارات نقدا الى مدينة جيرس حيث لم يكن للقاضى بارنارد سلطة (×) · وتم هربهم

(×)سرد تشارلز فرانسس دامزو ، وهو حفيد وابن حفيد لرئيس من رؤساء الجمهورية ، قصة معركة ايرى سردا يدعو الى الاعجاب ، فى مقالة « فصل من ايرى » نشر فى عدد يوليـو سنة ١٨٦٩ من « ورث اميريكان ريفيو » ، ثم اعادت مطبعة جامعة بيل طبعه فى سنة ١٩٢٩ ضمن كتاب سمى « السياسة المالية العليا والعقد السابع ·

فى آخر لحظة ، اذ قبض على مديرين آخرين وسجنا •

وفقد فاندربلت ملايين عديدة وأحس بغضب مزدوج ، غضب الرجـــل الماهر الذى خدع ، وغضب الرجل القوى الذى عصى أمره • ولكن تبين مع الوقت أن مركز الثلاثة من الناحية القانونية لم يكن ميئوسا منه بحال • نعم انهم خالفوا قرار القاضى بارنارد ، ولكنه لم يكن القاضى الوحيد فى ولاية نيويورك • فقد أصدر القاضى جلبرت قرارا مناقضا للقرار السابق يحـــرم على كل الاطراف فى جميع القضايا الاخرى اتخاذ خطوات جديدة ، أو القيام بأى تصرف من شأنه السير بالدعوى فى المؤامرة المشار اليها ، فيــأمر فى فقرة مديرى ايرى بالاستمرار فى القيام بواجباتهم متحديا بذلك تحــديا مباشرا قرارا أصدره قاض آخر ، وفى الفقرة التالية يحرم على المديرين أن يكفوا عن تحويل السندات الى أسهم دون اعتبار لقرار أصدره قاض ثالث ، اذ أن القاضى بارنارد لم يكن القاضى الوحيد من بين أصدقاء فاندربلت •

وهكذا كان فى استطاعة المـديرين الادعاء بأنهم كانوا فى وضع سيىء يجبرهم على مخالفة القانون ، لان قاضيا حرم ما أمر به قاض آخر • هـذا الى أن المجلس التشريعى فى ألبانى لا يبعد أن يتساهل مع أشخاص يملكون ستة ملايين أو سبعة نقدا • ومن ثم شرعوا فى استصدار قانون يجعـــل تحويل السندات الى أسهم مشروعا • غير أن الامر كان عسيرا بعض الشىء ، لانهم كانوا معرضين للقبض عليهم فى ولاية نيـــويورك • ولكنهم قرروا أن يخاطروا وذهب جولد الى ألبانى ومعه ٥٠٠ر٠٠٠ دولار نقدا . فقبض عليه ثم أطلق سراحه بكفـــالة ، وشرع فى شراء المجلس التشريعى • وحاول فاندربلت أن يدفع أكثر منه ، ولكن دون جدوى ، مثال ذلك أن أحد ممثلى « الشعب صاحب السيادة » قبل من فاندربلت ٧٥ز٠٠٠ دولار ثم حصل من جولد على ١٠٠ر٠٠٠ دولار أخرى واقترع لصـــالحه • وكانت النتيجة أن القانون الذى يجعل اصدار الاسهم قانونيا من المجلس •

وحاول كل من الطرفين فى هذا النزاع ، ككل نزاع آخر مشـابه له ، أن يضم الرأى العام الى جانبه ، اما عن طريق تشويه سمعة الطرف الآخر أو باتهامه بأنه حاول أن يحتكر المشروع لنفسه وأن يحرم الجمهور من مزايا المنافسة • ويصف تشارلز فرانسيس أدامز تكتيك المديرين الهاربين فى الحصول على تأييد الرأى العام فيقول :

« فى اللحظة التى أحسوا فيها بالاستقـــرار فى مدينة جيرسى شرعـوا يعملون لاستثارة عطف الرأى العام عليهم • كان اتهام خصمهم بالاحتكـار ورقة رابحة فى أيديهم • ولم يكن يهمهم فى الواقع مصلحة التجـــارة التى تتضمنها منافسه فى السكك الحديدية أكثـــر مما تهمهم المصلحة الحقيقية لسكة ايرى نفسها ، ولكنهم قدروا ، وكانوا فى تقديرهم مصيبين ، أنه لا

حد لمدى ما يمكن أن يصل اليه خداع الجمهور · وبدأت منافسة نشطة ضد فاندربلت فى طرق الاتصال البرية والبحرية ، وخفضت أسعار السفروالنقل على خط ايرى بمقدار الثلث في المتوسط ، وصدرت التصريحات الرنانة ، وجاء صحفيون من نيويورك لاخذ أحاديث صحفية ورجعوا من فندق تيلور (الذى أقام فيه المديرون) بجيوب عامرة ونفوس راضية · واهتزت ضفاف جيرسي تحت قعقعة هذه المعركة الغريبة · وأحدثت هذه الاساليب الفنية أثرها على الفور · وما أن حل منتصف مارس حتى كانت العرائض ضد الاحتكار قد بدأت تعم ألبانى (×) ·

وحدث طبعا تحقيق فى تهم الرشوة فى ألبانى واضطر جولد نفسه أن يدلى بشهادته فيه ، ولكن التحقيق لم يسفر عن شيء ·

« اذا كان لنا أن نصدق التقارير الرسمية لمجان التحقيق فان مستر جولد أصيب فى هذه الفترة بتحول نفسى غريب وأصبح فجأة أعظم البلهاء الحقيقيين فى المسائل المالية ممن وقعوا فريسة فى أيدى المحتالين المخادعين· فلم يكن على المحتال الماهر الا أن يتظاهر بأن له تأثير فى عقول أعضاء المجلس التشريعى ، وهو أمر يعرف الجميع أنه غير صحيح ، حتى يستولى على مبالغ غير محدودة من هذا الرجل الساذج الذى نشأ على أرصفة وول ستريت (× ×) وبدأ غريبا أن يكون قد عاش كل هذا العمر ولم يتعلم شيئا من تجارب الحياة · وكان يتعامل فى مبالغ طائلة · فقد أعطى شخصا قال عنه : « لم أكن أعتقد ان له أهمية كبيرة » مبلغ ٥٠٠٠ دولار « لا لشيء الا ليهدىء من روعه » · كان هذا الرجل قد قبض قبل ذلك بقليل ٥٠٠٠ دولار أخرى من أموال ايرى عن طريق عميل آخر من عملاء الشركة · ومن ثم فانه من الطريف أن نعرف المبالغ التى أعطاها جولد لأولئك الذين كان (يعتقد أنهم من ذوى الشأن الكبير) · وقيل عن شخص آخر أنه أخذ ١٠٠ر٠٠٠ دولار من أحد الطرفين (ليؤثر فى المجلس التشريعى) ثم أخذ ٧٠ر٠٠٠ دولار من الطرف الآخر ليختفى بالنقود ، وهو ما نفذه فعلا وعاش بعدها حياة السادة الموسرين الذين لا يقومون بعمل ما · واتهم أحد أعضاء مجلس الشيوخ علنا على صفحات الجرائد بأنه أخذ رشوة قدرها ٥٠ر٠٠٠ دولار من أحد الطرفين ورشوة ثانية قدرها ١٥ر٠٠٠ من الطرف الآخر ، ولكن حالة مستر جولد العقلية المعتلة لم تسمح له الا أن يبدى (دهشته الشديدة) من تصرف هذا الشيخ وان لم يكن لديه علم بشيء عن مثل هذه الرشاوى · وحالف الحظ أعضاء آخرين من مجلس الشيوخ فأصابهم الثراء فجأة ، غير انه لم يكن هناك أقل دليل أو قرينة على الرشوة · وكان الجناح

(×) « المسائل المالية العليا فى العقد السابع » ص ٦٧٠

(× ×) حى الاعمال والمال فى نيويورك (المترجم)

الذى يسكنه مستر جولد فى « دلفان هاوس » عامرا دائما بصحبة طروبة صاخبة ، وكانت صكوكه كثيرة ومبالغها ضخمة . أما سبب توقيع هذه الصكوك ولمن دفعها ، فيبدو أن مستر جولد لم يكن يعرف عنها شيئا أكثر من أى شخص آخرفى‌البانى . واستمرت هذه‌الحالة‌النفسية‌الغريبة‌حتى‌منتصف أبريل ، وعندئذ عاد مستر جولد لحسن الحظ الى حالته العادية - فأصبح رجل أعمال ماهر حريص نشط ، كما لم يعرف عنه انه عاد بعد ذلك الى هذه البلاهة الغريبة فى المسائل المالية » (×) .

على أن مركز الهاربين فى مدينة جرسى ظل مع ذلك مزعجا من بعض الوجوه . فقد كانوا معرضين للقبض عليهم اذا عادوا الى نيويورك ، الا فى أيام الآحاد اذ كان ذلك محرما . كما كانت هناك عصابات من المشاكسين يظن أنهم فى خدمة فاندربلت ، يحومون حول الفندق‌الذى يقيم فيه درو وجعلوه يخشى على نفسه أن يخطف . ولكن نيو جرسى كانت تدرك الشرف العظيم الذى أولاها اياه وجود هؤلاء الرجال الثلاثة العظماء وما يحملوه من نقود كثيرة ، ومن ثم وضع حرس الولاية الوطنى فى خدمتهم ، ووضعت المدافع والبنادق عند معابر الانهار . ولكن درو ظل مع ذلك غير مطمئن وأدرك أن جولد وفيسك يخونانه ، وقد كانا فى الواقع يتجسسان على مراسلاته ويطلعان على برقياته قبل أن يراها . ومن ثم شرع فى مفاوضة فاندربلت وحذا حذوه زميلاه . وتم أخيرا عقد معاهدة سلام استعاد فاندربلت بمقتضاها بعض خسائره ، لا كلها ، وحصل درو على قدر من المال وتمت لفيسك وجولد السيطرة المطلقة على سكة ايرى الحديدية . وحصلا على خدمات « الرئيس » تويد زميلا لهما فى الادارة ، واستمرا يجمعان المال ، ولكن‌دون‌ان‌يصطدما بعدذلك‌صداما مريرا مع فاندربلت . ولم يلبث « الرئيس » تويد أن زج فى السجن عقب ثورة اصلاح . ولكن جولد أخذ ينتقل من نصر الى نصر ، وعندما مات سنة ١٨٩٢ سار ملوك المال ، ابتداء من بييربون مورجان ومن دونه ، فى جنازته الرهيبة .

أما القائد البحرى فقد أثرى أكثر من جولد ، وكانت السنوات الاخيرة من حياته أكثرها نجاحا وماتت زوجته وهو فى الرابعة والسبعين ، ولكنه تزوج مرة أخرى فى العام التالى . وبدأ مرضه الاخير وهو فى الثانية والثمانين واستمر ثمانية أشهر مات خلالها اثنان من أطبائه . الا أن قوته الهائلة خارت أخيرا .

... كلا ولم يفلت ..

(×) « المسائل المالية العليا فى العقد السابع » ص ٧٢

رغم كل آلاته ، بل ذهب رأسا ..

مع كل عصبته النشطة ، ليبنى الطرق فى جهنم ..

ولقد كانت مطالبة الجمهور بانشاء السكك الحديدية فى الغرب شديدة ملحة فى العقد السابع وأوائل العقد الثامن . وكان الزراع وأهالى البـــلاد الصغرى والكبرى يســارعون الى شراء الاسهم فى الخطوط التى يشرع فى بنائها ، وتمنحها الولايات والحكومة المحلية أرض واسعة ، وتقرر لها مبالغ طائلة من الاموال العامة لتسهيل عملية البناء . وكان رجال المـــال الذين يسيطرون على خط من خطوط السكك الحديدية يلجأون الى حيل مختلفة للاستيلاء على أموال صغار المساهمين . وكانت احدى خططهم المفضـــلة أن يكونوا شركة لتنفيذ عملية البناء . ويشترى مديرو الخط وأصدقاؤهم أسهم شركة البناء جميعها . ويبرمون باعتبارهم مديرين للخط المزمع انشائه عقودا خيالية مع شركة البنـــــاء التى تزداد ثراء كلما اقتربت شركة السكك الحــــديدية من الافلاس . ثم يتقــــدمون الى الحكومة المـــــركزية أو حكومات الولايات قائلين أنه قد تبين أن العملية أكثــر كلفة ممـا توقعوا ، ويسارع المواطنون ، الذين يتطلعون الى السكة الحديدية كما يتطلع العطشان فى الصحراء الى الماء ، الى الموافقة على اعانات جديدة تمتصها شركة البناء مرة أخرى . فاذا أوشك الخط الحديدى على الانتهاء تكون شركة السكة الحديدية قد أشرفت على الافلاس . ويســــاق فى تبرير افلاسها حدوث أزمة مالية . ومن ثم توضع تحت يد حارس ، وهكذا ينتقل كل ما اقتصده صغار الناس الى جيب قطب من أقطاب المال . وقصارى القول أن معظم الخطوط الحديدية الامريكية أصابها الافلاس فى وقت من الاوقات ، ولكن هذا لا يدل على عدم كفاية فى الادارة ، بل يدل على نقيض ذلك فى الواقع .

وخير مثال لهذه العملية هو ما حدث فى أول خط حديدى عبر القـارة الذى صدر به الترخيص فى سنة ١٨٦٢ كما سبق القول . فقد سار البناء فيه من أوماها الى الغرب ومن كاليفورنيا الى الشرق بسرعة كبـــيرة ، وتم الخط فى سنة ١٨٦٩ . وقام بتنفيذ أعمال الانشاء فى الجزء الشرقى شركة بناء اسمها « شركة الكريدى موبيلير الامريكية » .

واتهم القائمون بالعمـــل بالرشـــوة ، وقامت لجان مجلس الامة الامريكى بالتحقيق . وقررت أن الخط تكلف بناؤه خمسين مليونا من الدولارات وان « الكريدى موبيلير » تقاضت ٩٣٫٥٤٦٫٢٨٧ دولار و ٢٨ سنت . ويمثل الفرق بين المبلغين وهو ثلاثة وأربعون مليـــونا ونصف مليون ما نهب من الشركة أى ما فقده الجمهور فى آخـــر الامر . وكان « الربح » فى حالة « السنترال باسفيك » أضخم من ذلك على ضخامته ، فقــد تقاضت شركة البناء مائة وعشرين مليونا من الدولارات لتقوم بعمل تكلف ثمانية وخمسين

مليونا • واقترن اسم كثيرين من أقطاب السياسة بالرشاوى التى صاحبت هذا العمل ، وصار أحد هؤلاء الاقطاب رئيسا للولايات المتحدة فيما بعد ، وآخر مرشحا من قبل الحزب الجمهورى للرياسة •

ولم يكن النظام الذى أسسه ملوك المال مرضيا بالمرة من وجهة نظر الأجراء • فعلى الرغم من الديمقراطية ، وعلى الرغم من الحماية الجمركية ، وعلى الرغم من ثروة البلاد التى كانت تزيد بسرعة ، كانت ساعات العمل طويلة والاجور رغم ارتفاعها عن أمثالها فى أوروبا لا تمثل الا نسبة تافهة لا تذكر الى جانب أرباح أقطاب المال • ففى سنة ١٨٧٢ ، عندما كان القائد البحرى فاندربلت يقترب من مليونه المتمم للمائة ، خفض أجور سائقى خط « فورث افنيو » العلوى ومحصليه من دولارين وربع دولار الى دولارين فى اليوم وذلك فى مقابل عمل خمس عشرة ساعة يوميا • وكان القائمون بالعمل أمام أفران اللفح فى صناعة الصلب يعملون أثنتى عشر ساعة يوميا حتى عهد قريب فى القرن الحالى ، وكانوا يعملون أربعا وعشرين ساعة يوميا مرة كل أسبوعين عند تغيير نوبتهم من النهار الى الليل • وكان انشاء النقابات أصعب منه فى انجلترا بسبب اختلاف عناصر الاهلين بين غير الحاذقين ، ولم تنشأ نقابات تذكر بين العمال غير المهرة حتى سنة ١٩٠٠ • وكان فى وسع أصحاب الاعمال أن يرفضوا التعامل مع النقابات ، وكانوا فى بعض الحالات - كما فعل كارنيجى بعد اضراب سنة ١٨٩٢ - يرفضون بتاتا استخدام أعضاء النقابات • وكان استخدام الاطفال منتشرا جدا فى مصانع القطن خاصة فى الجنوب ، وظلت المحكمة العليا ، حتى عهد قريب تعلن أن المحاولات التى تبذل فى منعه غير دستورية • ويقول بوجارت فى هذا : ان استخدام الاطفال فى الجنوب « أدى الى مشاكل اقتصادية كانت قد أصبحت موضوعات شائكة فى نيوانجلند فى منتصف القرن التاسع عشر ، وفى انجلترا القديمة فى أوائل ذلك القرن (×) » •

ومع ذلك فقد كان الاجراء يفضلون امريكا على أوروبا • فقد كانت الاجور أفضل اذا قورنت بما كانوا يتقاضونه قبل أن يهاجروا على الرغم من طول ساعات العمل • وبعثت فيهم الديموقراطية ، مع كل نقائصها ، احساسا باحترام النفس ، فلم يعودوا يشعرون بأنهم ينتمون الى طبقة دنيا ، وكانت لهم آمال واسعة • فقد بدأ كثيرون من أصحاب الملايين حياتهم أجراء ، فقليل من الاقتصاد ، واستثمار دولارات معدودة فى مشروع يحالفه الحظ ، والحصول على رضاء صاحب العمل ، قد تكون الخطوة الاولى نحو تكوين ثروة طائلة • وكان كثيرو ن من الرجال فى صناعة الصلب يفضلون العمل اثنتى

(×) بوجارت - المرجع السابق - ص ٥٨١

عشرة ساعة يوميا ســـبعة أيام فى الاسبوع على ثمان ساعات يوميا وستة أيام فى الاسبوع بأجر أقل ، ولم يكن ذلك لان الاجر الاقل يعنى التعرض للحاجة ، بل لانه كان يقلل من فرص الاقتصــاد ومن ثم فرص الصعود • وكان مبدأ المنافسة وانتهـــاز الفرص سائدا بين جميـــع الطبقات ولم يكن مقصورا على الذين استفادوا منه وحدهم • وكانت الحركة النقابية ضعيفة والاشتراكية لا وجود لها • وكانت قلة تعيش فى بحبوحة النجاح ، والغالبية تعانى الضنك وتعيش على الامل ، ولكن أحدا لم يكن يرغب فى تقليل فرصة النجاح الباهر •

ولما انتهى عهد بناء السكك الحديدية وبطولاته أصبح أقطاب الســكك الحديدية أقرب الى الارستقراطيين أصحاب الاراضى أكثرمنهم الى القراصنة ، فلم يمض الا عشرون عاما تقريبـــا حتى انتقـــلوا من مرحلة البـــارونات النورمانديين الذين عاشوا سنة ١٠٦٦ الى مرحلة سادة مجلس اللوردات فى أيامنا الحاضرة • وكانوا يتمتعون بقوة هائلة • فقد كانوا يملكون مساحات شاسعة من الارض ، ولم يكن أحد يستطيع نقل منتجاته الى السوق دون مساعدتهم • ويصـــور توريس فى قصـــته « الاخطبوط » تحكم السكك الحديدية فى المزارعين • وحاول المزارعون بطبيعة الحال أن يردوا اللطمات بوسائل سياسية • فعادت الراديكالية الزراعية التى وضع أسسها جفرسون جاكسن الى الحياة ، لكن ذكريات الحرب الاهلية جعلت التعاون مع الجنوب عسيرا • هـــذا الى أن الديموقراطية الفـــردية كانت عاجزة أمام المنظمات الهائلة مثل شركات السكك الحديدية الحديثة • وكان العلاج الوحيد لهـــذه الحال حسب الافكار القديمة هو المنافسة • ولكن حيثما كانت حركة النقل لا تكاد تكفى خطا واحدا ، كحال الغرب فى أول الامر ، كان بناء خط آخر سخفا ومضيعة للمال ، وحيثما كان يوجـــد خطان متنافســـان فى الظاهـــر كانا يعتقـــد أن بينهمـــا عادة اتفاقات ، لانهمـــا اذا لم يتفقا فسيقضى عليهما معا بالخراب • وكان الزارعون يستشيطون غضبا كلما اكتشـــف اتحاد بين شركات السكك الحديدية • وأصدرت الولايات قوانين لا عداد لها للحد من سلطات شركات السكك الحديدية • كما أصـــدر مجلس النـــواب الاتحادى بعض القوانين لهذا الغرض • وكان الهدف اجبارها على المنافسة ، ولكن اذا لم يشأ ديكان أن يتقاتلا فليس فى وسع أحد أن يفعل شيئا

ان الراديكالى الذى يؤمن بالمنافسة لابد أن يلقى الهزيمـــة فى أى نزاع يدخله مع الاتحادات الحديثـــة • ذلك أن قوة هـــذه الاتحادات تشبه قوة الجيوش ، وتركها فى أيدى أفراد يؤدى الى نفس الكوارث التى يؤدى اليها ترك الجيوش فى أيدى الافراد • والمنظمات الاقتصادية الضخمة فى العصر

الحديث نتيجة حتمية « للتنظيم » الفنى الحديث الذى ينزع بصورة متزايدة الى جعل المنافسة مضيعة للجهد والمال . والحل الباقى أمام الذين لا يريدون أن يقعوا فى براثن الطغيان هو ملكية الشعب للمنظمـــات التى تفيض على مالكيها قوة اقتصادية . لانه طالما ظلت هــذه القوة فى أيدى الافراد ، فان المساواة الظاهرية التى تنشأ عن الديموقراطية السياسية ليست الا خدعــة وضلالا ..

٢ ـ الاتجاه نحو الاحتكار

الفصل السابع والعشرون
الاتجاه نحو الاحتكار

١ ـ البترول

كان الامريكيون فى سنة ١٨٧٠ يعزون قسطا كبيرا من رخائهم الى المنافسة . غير أنه كانت هناك قوى فنية معينة كانت تعمل ، ضد أرادة كل سكان الولايات المتحدة تقريبا ، على تحويل النظام الاقتصادى من نظام تتنافس فيه عدة مشروعات صغيرة الى نظام يسيطر فيه اتحاد كبير أو اتحادان كبيران سيطرة تامة تقريبا على بعض الصناعات المهمة . وكان الاشخاص الذين ساعدوا على هذا التحول هم أنفسهم الذين قبلوا الفلسفة التنافسية السائدة ووصلوا الى ما أصابوه من نجاح بالعمل بمبادئها . ولكن الذين لم يصيبوا نجاحا هالهم أن تبينوا أن الفلسفة السائدة تقضى على نفسها بنفسها . فقد أخذ المتنافسون يتنافسون حتى لم يبق قائما الا واحد منهم لا يستطيع بعد ذلك أن يتخذ المنافسة شعارا . وقد حدث ذلك فى عدة صناعات ، ولكنى سأركز اهتمامى على أكثرها أهمية : البترول والصلب . ويأتى البترول أولا من الناحية الزمنية .

لقد كان لاثنين من الرجال اكبر الاثر فى خلق العالم الحديث : روكفلر وبسمارك . أحدهما فى الاقتصاد والاخر فى السياسة ، وقد قضيا ، كل فى ميدانه ، على حلم التجربة الذى يقيم السعادة للجميع على أساس من المنافسة الفردية ، واحلال الاحتكار والدولة الموحدة ، أو على الاقل ، الاتجاه فى هذين السبيلين محل ذلك الحلم . ولا ترجع أهمية روكفلر الى أرائه . وهى آراء معاصريه ، بل الى سيطرته العملية البحتة على ذلك النوع من المنظمات الذى يمكنه من الثراء . أن روكفلر كان أداة فى ظهور ثورة اجتماعية نجمت عن الملة باصول الصناعة ، ولكننا لانستطيع القول بأنه كان يقصد النتائج الاجتماعية لتصرفاته .

ولد روكفلر فى مزرعة سنة ١٨٣٩ لأب لايقرله قراروأم تقية(×) . وكان أبوه يحتفظ بمهنته سرا . فقد كان فى الواقع طبيبا متجولا ويصنع الدواء . كان يذهب الى قرية او مدينة صغيرة ويعلن لافتة كتب عليها : « دكتور وليام أ . روكفلر الاختصاصى الشهير فى السرطان هنا لمدة يوم واحد فقط . كل

(×) فيما يتعلق بعائلة روكفلر انظر كتاب « ذهب الله » لجون . ت . فلين

حالات السرطان تعالج ماعدا الحالات المزمنة جدا وهذه تتحسن كثـــيرا » .
وكانت زوجته تعيش أثناء فترات غيابه الطويلة على ماتبتاعه نسيئة من متجر القرية ، ولكنه فى كل مرة يعود كان يحضر معه نقودا تكفى لدفع الديون وأن يعطى كل ابن من أبنائه خمسة دولارات . وكان رجلا مرحا ضخما ذا حيويه عاش الى السادسة والتسعين على الاقل (تاريخ وفاته غير معروف بالضبط) .
وكان كثير المشاكل مع رجال الشرطة ، وبيعت مزرعته فى احـدى المناسبات الوفاء بما عليه من الديون ، وكانت أسرته مضطرة الى التنقل كثيرا بسبب هروبه من دائنيه . وكان فخورا جدا بدهائه ، وكثيـــر المباهاة بمهارته فى خداع الناس . ويقول ابنه جون « انه دربنى على الطرق العملية . لقد كان يعمل فى عدة مشروعات وكان يطلعنى على هذهالمسائل وعلمنىمبادىءالاعمال وطرقها » . أما وصف الاب نفسه لتعليمه « مبادىء » الاعمال فهو أكثر بساطة من هذا الوصف السابق : « انى اخادع اولادى فى كل فرصة تتاح لى . ذلك أنى اريد أنأجعلهم حاذقين . انى اتاجر معهم واستولى على أكثر ما استطيع الاستيلاء عليه منهم واعمل على الانتصار عليهم كلما استطعت . ذلك أنى أريد أن أعلمهم الحذق » .

وكانت والدة جون نقيض آبيه من عدة وجوه . فقد كان زوجها أفاقـا لايعتمد عليه ولا يؤمن جانبه وينظر أليه جيرانه بغير رضى ، وكان على زوجته ابان فترات غيابه الطويل أن تقوم بالعمل بنفسها على الرغم من ازدياد عدد أفراد الاسرة ، وكانت تكافح للتوفيق بين ايراد الاسرة ونفقاتها وتحافظ على مظاهر الوقار رغم ماكان زوجها يفعله ، او ما كان يظن انه يفعله . وكانت قبل زواجها فتاة مرحة ، ولكنها اصبحت مكتئبة وتحولت الى التدين . وكانت تعترض بشدة على الخمر ، ثم أصبحت تعزف عن كل مرح .

وكان جون صبيا جادا خجولا حريصا يحب أمه ويتشرب فضـــائلها . وشب شديد التدين ، لايقرب الخمر ولا يدخن ، ولم ينطق فى حياته بالفاظ نابية مهما بلغت اثارته . وقد وصف بأنه كان طوال حياته « خفيض الصوت ، ناعم الخطى ، متواضعا » . ولعل مما يشك فيه انه قد فعل طوال سنى عمره الخمس والتسعين مايلام عليه فى مدرسة الاحد . وكان يقول فى دروس دينية يلقيها فى مرحلة متأخرة من حياته « لاتكن رجلا طيبا . انى احـب أخى فى الانسانية واهتم بأمره اهتماما شديدا . ولكن لاتكن مغاليا فى المجاملة . كن معتدلا . كن معتدلا جدا . ولا تدع للطيبة مجالا تسيطر فيه عليك . اذا فعلت ذلك فأنت هالك ، أنت وذريتك وأسرتك عدة أجيال مقبلة . والآن .. أنا لاأستطيع أن أكون رجلا طيبا ، فأنا لم أشرب كأسى الاولى من الخمر بعد » .

وما من شك فى أن الفقر وكثرة الانتقال وحزن والدته وعداء الجيران قد تركت جميعها أثرا كبيرا فيه ابان طفولته . فعلى الرغم من انه كان يستطيع

التصرف بجرأة فى ميدان الأعمال ، فانه كان يخشى الجمهـــور دائما وينزع الى السرية بطريقة غريزية حتى عندمالا يكون له من السرية غرض يبتغيه . والرجل الى السرية بطريقة غريزية حتى عندما لايكون له من السريو غرض يبتغيه . والرجل الخجول الذى ينشتد القوة نمط من الرجال معروف . فلويس الحـادى عشر وشارل الخامس وفيليب الثانى أمثلة لذلك النوع من الرجال فهم : ورعون ، دهاة ، لاضمير لهم ، نشطون ويميلون الى العزلة . ولكن القوة بالنسبـــــة لروكفلر لم تكن تنال الا عن طريق المال .

وتصور لنا واقعتان مقدار حبه للمال فى صباه الباكر . فقد اخـذت صورة شمسية لكل الصبية فى مدرسته ، غير انه هو واخاه فضلا أن يظلا خارج الصورة لان ملابسهما كانت رثة للغاية . ومع ذلك فقد حدث قبل ذلك بعام أو حوالى عام ، وكان فى العاشرة من عمره ، أن سمع أن أحد جيـــرانه من المزارعين فى حاجة الى خمسين دولارا وأنه مستعد لان يدفع عنها فائدة قدرها ٧ ٪ . وكان عند جون هذا القدر من المال من مدخراته ، فأقرضه للجار المحتاج بعد أن سأل عن معنى (فائدة) . ثم قال بعد ذلك (قررت منذ ذلك الوقت أن أسخر المال لخدمتى) .

وعلى الرغم من هذه الرغبة الشديدة فى الاقتناء فأنه بدأ يتبرع للاعمال الخيرية بمجرد أن بدأ يكسب . وكان اول عمل شغله فى سنة ١٨٥٥ ، وهو فى السادسة عشرة من عمره بمرتب ثلاثة دولارات ونصـــــف دولار فى الاسبوع . وكان يتبرع بعشرة فى المائة من هذا المبلغ الضعئيـــل . وزادت تبرعاته بنفس النسبة التى زاد بها ثراؤه .

ومما لا ريب فيه أنه كان حقيقة انه رجل فاضل . ولم تكن التصرفات التى وجه اليه النقد من أجلها من النوع الذى حذر منه فى صباه ، كما أنهـا لم تؤدى الى عدم رضاء القساوسة عنه . ولم يؤخذ عليه انه عصى أولئك الذين كان يحترم سلطتهم الادبية ، ومن ثم كان مرتاح الضمير .. وقد قال فى احـد دروسه الدينية : « انه لمن الخطأ أن يفترض أن أصحاب الثراء الطائل دائما سعداء . ذلك انه اذا عاش رجل لنفسه دون اعتبار للانسانية ، فانه يكون أتعس رجل على وجه البسيطة . ولن ينفعه كل المال الذى يستطيع الحصـــــول فى نسيان شقائه .... الرجل الذى أحبه هو الذى يعيش من أجل اخوته فى الانسانية ، الرجل الذى يعيش فى وضوح قانعا بنصيبه ساعيا لخيـــــر الانسانية على قدر استطاعته »

وكان يبدى تسامحا كبيرا أمام النقد : « تقال عنى أحيانا أشياء قاسيـة تؤلم ، ولكننى لم أكن متشائما أبدا . انى أومن بالانسان وبالاخوة بين الناس وانى لواثق أن كل شيء صائر الى خير الجميع فى النهاية » . وقال فى مناسبة أخرى « سيعرفوننى أكثر بعد أن أموت . فليس فى حياتى كلها مالا يحتمل الفحص الدقيق .. فما هى الميزات التى كانت لدى ولم يتمتع بها أى صبى

فقير اخر ؟ »وقال عن تيودور روزفلت الذى كان يحاول استعمال الشدة معه:

« ان رجلا مشغولا الى هذا الحد مثله لايمكن أن يكون دائما مصيبا • وكلنا معرضون للخطأ أحيانا وهو فى ظنى لا يلم على الدوام بجميع اطراف الموضوع الذى يتناوله • وأنا أود أحيانا لو أنه كان أكثر عدلا • ولا أعنى انه يتعمد أن يكون غير عادل • ولكنه كثيرا ما يضلل »

ولقد ورث عن أمه كل ما كان يقوله ويعتقده ويحس به ، ولكن ما كان يفعله قد ورثه عن أبيه ، الى جانب حرص شديد نجم عما تعرض لـــه من مكدرات فى صدر حياته • وترجع أهميته الى ما فعله •

ولم تكن حياة ركفلر حتى عام ١٨٧١ تختلف فى شىء عن حياة غيره من العصاميين الذين ارتفعوا بمجهودهم ودهائهم • فقد عمل باجتهاد ابان الحرب الاهلية تاجرا « بعمولة » ووجد نفسه عند نهاية الحرب على قدر لابأس به من الثراء • وكان أول استثمار له فى البترول سنة ١٨٦٢ ، وبعد الحرب حصر جهوده فى تكرير البترول ، واتخذ شريكا فى سنة ١٨٦٧ هو فلادجــر الذى ظل يحتل مركزا ممتازا فى شركة ستاندرد اويل طوال حيــاته • وفى سنة ١٨٧٠ ضما اليهما شركة ستاندرد اويل برأس مال قدره مليون دولار كان روكفلر يملك منها ٢٢٦ر٧٠٠ دولار • وسارت الامور معهما على اذلالهـا • ولكنهما كانا يعتقدان أن فى وسعهما أن يحققا نجاحا أكبر مما حققاه • وكونا شركة مع بعض مكررى البترول فى فيلادلفيا وبتسبرج ونيويورك أطلقـــا عليها اسم « شركة تحسين الجنوب » ، ولو أننا لانعرف من الذى بدأ بالتفكير فى المشروع ، هما أو غيرهما • وقد ظهرت مواهب ركفلر وفلادجر فى الاسلوب الذى سار عليه العمل فى الشركة •

وكانت أهم المشاكل التى تواجه مكررى البترول مشكلة النقل • فقد كانت انابيب البترول فى ذلك الوقت مقصورة على نقل البترول الى أقرب خط حديدى ، ولم تكن الانابيب التى تمتد مساحات طويلة قد صنعت بعد • ومن ثم كانت السكك الحديدية تتحكم فى النقل • وكانت الشركات التى تستطيع نقل بترولها أرخص من غيرها تتمتع بمزايا • وحصلت «شركة تحسين الجنوب » فى سنة ١٨٧٢ على عقود من نيويورك سنترال وسكة حديد ايرى وسكة حديد بنسلفانيا وخطين اخرين كان بتروله بمقتضاها ينقل بأسعار أقل من بترول الشركات الاخرى • ولم يكن هذا كل شىء ، بل اتفق على أن الزيادة التى تدفعها الشركات الاخرى تذهب الى «شركة تحسين الجنوب» ولا تؤول الى شركات الســـكك الحديدية • وثمة فائدة أخرى جاءت عرضـــا وهى أن الحصول على هذه الزيادة جعل شركة تحسين الجنوب تطلع على كميات البترول التى ينقلها منافسوها المختلفون بالضبط من أية نقطة والى أية نقطة على هذه الخطوط الخمسة •

ولنضرب مثالا يصور الموقف : كان سعر نقل الزيت الخام من مناطق البترول الى نيويورك دولارين وستة وخمسين سنتا ، ولكن شركة تحسين الجنوب كانت تدفع دولار وستة سنتات فقط • وكان انقاص اجر النقل بهذه الطريقة يقلل من نفقاتها • ولكن الدولار والنصف الذى كانت تدفعه الشركات الاخرى المنافسة والذى كانت شركة تحسين الجنوب تأخذه كان يرد لهذه الشركة نفسها • هكذا حصلت الشركة على ميزة مزدوجة بالنسبة لكررى البترول الآخرين •

وقد أبرم خمسة من رؤساء شركات السكك الحديدية عقودا من هذا النوع مع شركة تحسين الجنوب : هم وليام فاندربلت « ابن أمير البحر » نيابة عن النيويورك سنترال ، وجاى جولد عن ايرى ، وتوم سكوت عن بنسلفانيا ، والقائد ج • ب • ماك كلان عن ليك شور وميشيجان الجنوبية• واتفق شفويا على دعوة كل مكررى البترول الى الانضمام الى هذا الاتحاد ، وقد عارضت شركات السكك الحديديةفى الاتفاق حتىبدلت لها شركة تحسين الجنوب هذا الوعد (×) ، ولكن لم يبذل أى جهد للوفاء به • وقد أحيط الموضوع بسرية تامة ، وكان على الشخص أن يقسم على المحافظة على السرية التامة قبل البدء فى المفاوضات ثم الاتفاق أو لم يتم •

ولم يكد ركفلر يبرم العقود مع شركات السكك الحديدية حتى شرع فى الاتصال بمكررى البترول الآخرين فى كليفلاند وعرض عليهم شراء معاملهم بالسعر الذى يقدره هو • وغضب بعضهم ممن أصابوا نجاحا فى عملهم على ما اعتبروه فى أول الامر إهانة لهم ، ولكن روكفلر كان ينصحهم بالبيع فى وداعة ورفق كما لو كان شديد الاهتمام بمصلحتهم • فكان يقول لكل منهم: « ان تشتر اسهما من شركة ستاندرد أويل فلن تعرف أسرتك الحاجة بعد ذلك أبدا » • واذافشلتهذهالحجة فىإقناع الشخص المقصود ، كان يضيف فى شىء من الغموض : « ان لدى وسائل للربح لا تعرف عنها شيئا » • واستسلم المكررون واحدا بعد الآخر وهم كالمسحورين من فرط الرعب • وقد عبر أحدهم عن ذلك بقوله : «لقد كنا نحس بضغط يسلط على عقولنا»• وقال أحدهم ، اسمه حنا ، لروكفلر أنه قرر الا يبيع ،» فرفع روكفلر حاجبيه وهز كتفيه كما لو كان معمل حنا قد قضى عليه (×) » ، وقال له « انك ستقف وحدك ولن يستطيع معملك أن يربح قرشا واحدا بعد ذلك فى

(×) اوردت ايداتاربل نص العقد المبرم مع سكك حديد بنسلفانيا بالكامل فى كتابها « تاريخ شركة ستاندرد أويل » الجزء الاول ص ٢٨١ وما بعدها •

(×) جون • ت • فلين « ذهب الله » ص ١٥٩

كليفلاند . وليست هناك جدوى من منافسة شركة ستاندرد أويل ، فانك اذا فعلت ستصاب حتما بالخراب » فسلم حنا .

وعامل روكفلر شقيقه الاصغر فرانك ، وهو الشاة السوداء فى الأسرة الذى استمر طوال حياته يعارض جون ، بطريقة أكثر عنفا . فقد أبلغ بدون مواربة أن ستاندرد أويل تزمع شراء جميع معامل التكرير فى كليفلاند وأن أصحاب المعامل الذين يرفضون سيجدون معاملهم وقد أصبحت بلا قيمة ويصيبهم الخراب . فاستشاط فرانك غضبا وأراد أن يقاتل ، ولكن شركاؤه تغلبوا عليه وقرروا البيع .

ولم يمض الا شهر حتى استطاع روكفلر وفلادجر الحصول على احتكار يكاد يكون كاملا لكل معامل التكرير فى كليفلاند .

وظلت الأمور تسير بطريقه مرضية الى أن عرف منافسو شركة تحسين الجنوب عن طريق خطأ وقع من كاتب احدى شركات السكة الحديدية بما تحصل عليه الشركة من خصم واسترداد . واستشاط النـاس من فورهم غضبا وخاصة فى مناطق البترول حيث عقدت اجتماعات احتجاج . وبدأ الفزع ينتاب شركات السكك الحديدية وشرعت تفكر فى التملص من العقـود . وقرئت برقيتان فى اجتماع كبير عقد فى منطقة البترول (×) :

« لا شركة الاطلنطى ولا شركة الغرب الكبرى ولا أى من موظفيهما له علاقة بشركة تحسين الجنوب . ان سياسة الشركتين هى بطبيعة الحال تسهيل الامور للمصالح البترولية .

ج.ب.ماك كلان

فارتفعت الاصوات بالهتاف . ولكن البرقية الثانيـة التى قرئت فى الاجتماع كانت :

« العقد مع شركة تحسين الجنوب وقعه جورج.ب.ماك كلان رئيس شركتى الاطلنطى وشركة الغرب الكبرى . لم أوقعه الا بعد أن وقع جميع الاطراف قبلى .

جاى جولد »

وحتى أمير البحر العجوز استولى عليه الفزع ، وقال للجنة من « اتحاد المنتجين » وهى هيئة تأسست لمقاومة الشركات المتحدة : « لقد قلت لبيلى (ابنه) ألا يشترك فى ذلك المشروع بأى شكل كان » . وقررت هذه الهيئة ألا تبيع البترول الخام للشركات المتحدة ما دامت عقودها مع شركات السكك

(×) تاربل — المرجع السابق — جـ ١ — ص ٨٩

الحديدية قائمة • وبلغ اتحاد المنتجين من القوة ، والرأى العام من الثـورة حدا لم تجد معه السكك الحديدية والشركات المتحدة بدا من التراجع • وألغيت العقود فى مارس سنة ١٨٧٢ بعد مرور شهرين اثنين على توقيعها ، ثم الغى امتياز شركة تحسين الجنوب بعد ذلك مباشرة •

وبدا أن فى ذلك انتصارا عظيما للحرية • الا أن روكفلر احتفظ بممتلكاته فى كليفلاند ، كما عرف وسيلة يمكن أن يعود اليها عندما تهدأ العاصفة • وقد يتطلب الأمر عندئذ قدرا أكبر من الحذر واحتياطات أتم للسرية ،ولكن النجاح يكون محققا أكثر من ذى قبل •

وأكد مديرو السكك الحديدية فى ٦ أبريل أنه لم يعد بينهم وبين روكفلر وجماعته أية عقود خاصة ، وأيد روكفلر ذلك فى ٨ أبريل • ولكن شريكـه فلادجر أقسم بعد ذلك بمدة أن مؤسستهما كانت تتمتع بخصم من أول ابريل الى منتصف نوفمبر سنة ١٨٧٢ (×) • ولم ينقطع روكفلر فى الواقـع عن الاستفادة من الخصم فى أى وقت من الاوقات ، بل انه كان يستفيد أحيانا من الخصم والاسترداد معا •

وقد كان ماعملته شركات السكك الحديدية هو منحها أسعارا مخفضـــة لأكبر عملائها ورغبتها فى تركيز عملية التكرير فى عدد قليل من المؤسسات الكبيرة ، عملا منطقيا من وجهة نظرها هى • فقد كان روكفلر وفلادجو فى سنة ١٨٧٢ يستطيعان ارسال قدر من البترول من كليفلاند الى نيويورك يكفى لملء قطار مكون من ستين عربة كل يوم • وأوضحت السكك الحديدية أنه اذا قامت عربة بالرحلة كلها دون توقف فى الطريق لأخذ حمولات جديدة فانه يمكن اعادتها الى كليفلاند فى عشرة أيام،ولكنها اذا كانت ضمن قطارات البضاعة العادية فانها لا تستطيع العودة فى أقل من ثلاثين يوما ، وعلى هذا فان ما طلبه روكفلر من تخصيص ستين عربة يوميا يمكن اجابته بواسطة ٦٠٠ عربة فقط ، بينما يتطلب نقل هذا القدر نفسه موزعا على عدة منتجين صغار ١٨٠٠ عربة • ولـمـــا كانت كل عـــربة تتكلف ٥٠٠ دولار فان هذا يعنى أن اجابة طلب روكفلر يكلف السكك الحديدية ٦٠٠٠٠٠ر٦٠٠ دولار أقل مما يتكلفه نقل الكمية نفسها موزعة على عدة شركات (× ×) • وعلى هذا كانت العوامل الفنية تعمل الى جانب التركيز الذى يمثل الاقتصاد فى الانتاج والتوزيع - وهو اقتصاد كان بلا ريب هدف شركة ستاندرد أويـــل أن تحتفظ به فى يدها أرباحا ، لا ليذهب الى المستهلكين فى صورة تخفيـض فى الاسعار •

(×) تاربل « المرجع السابق » - جـ ١ ص ٩٦ - ١٠٠
(× ×) تاربل « المرجع السابق » جـ ١ - ص ٢٧٨

ويمكن تقسيم أعداء روكفلر الى ثلاثة مجمــوعات : المنتجين والمكررين المستقلين والمستهلكين فى مجموعهم · فالمنتجون كانوا يريدون التعاون فيما بينهم والمنافسة بين المكررين الذين كانوا عملاءهم · وكان الجمهـور يريد المنافسة بين الجميع بوصفها مبدأ من ناحية ، وحتى تنخفض أسعار البترول من ناحية أخرى · وكان المكررون المستقلون فريقين ، فريقــا ينتظر شروط أفضل حتى ينضم الى روكفلر وفريقا يعترض على الاحتكار من حيث المبــدأ ويعتز بمؤسساته التى بناها بنفسه · وكان لكل من هذه الجماعات ناحية ضعف خاصة بها · فالمنتجون كانوا يبذلون الجهد فى سبيل اتحادهم للحد من الانتاج — ومما يدعو الى العجب ، أن الكتاب الذين يناهضون استاندارد أويل كانوا يرون أن هذا الهدف مما يستحق التأييد فى هذه الحالة · ولكن جهود المنتجين منيت بالفشل باستمرار · فقد كان عــــدد كبير منهم ينتج بتروله بترخيص من مزارعين كانوا فى المنطقة قبل ظهور صناعة البترول ، وكانت هذه الترخيصات تقوم على أساس نسبة معينة يتقاضاها المزارع من الانتــــاج ، ولذلك لم يوافق المزارعون على عدم اســـتغلال الآبار للحد من الانتاج ، وكون المنتجون أيضا اتحادا لمقاومة روكفلر وجماعته · الا أنهم بعد انتصارهم الاول على شركة تحسين الجنوب منوا بالهزيمة المرة بعد المرة بسبب خيانة بعض الافراد وحصول أصدقاء روكفلر على أسهم ، أو عن طـــــريق مستقلين مزيفين باع لهم المنتجون البترول دون أن يعرفوا انهم يعملــــون لحساب شركة ستاندر أويل · ولهذه الاسباب المختلفة كان مصـــــير كل الوسائل التى اتبعها المنتجون هو الفشل دائما ·

وكان موطن الضعف فى مركز المكررين أن مصالحهم الاقتصادية لم تكن بالضرورة متعارضة مع مصلحة استاندارد أويل · فعرض روكفلر على أقدرهم شروطا حسنة لينضموا اليه ، وأخذوا ينضمون شيئا فشيئا باستثناء عدد قليل لا يكاد يذكر · أما الذين لم يقدم لهم عروضا مغرية فقــد كانوا من اعتبرهم غير ذى كفاية ، وهؤلاء قضى عليهم · ولم يبق بعد ذلك ســـوى مجموعة صغيرة يدفعها تمسك غير عادى بالمبادىء أو درجة غير عادية من التصلب · واستعملت ستاندارد أويل ضد هؤلاء كل وسيلة من وســـائل المنافسة تخطر على بال · فأينما ذهب بترولهم أبلغ الجواسيس ذلك لشركة ستاندارد أويل فترسل بترولا بأسعار أقل من سعرهم · وكان أصحـــاب المحال الذين يتعاملون فى بترول مستقل يجدون أنفسهم مهددين بالمنافسة ، لا فى البترول فحسب ، بل فى كل سلعة أخرى يتعاملون فيهـا ، واذا لزم الامر أنشئت محال على مقربة تباع فيها جميع السلع بأسعار رخيصة جــدا قضت على التجار العصاة · وعندما أراد المستقلون أن يتخلصوا من طغيان شركات السكك الحديدية التى كانت ما زالت تحابى جماعة روكفلر وأنشأوا لهذا الغرض خطا من الانابيب الى البحر وجدوا أنفسهم مرغمين على أن يعبروا

خط ايرى فى بقعة اسمها هانكوك · وأرادوا أن يعبروا عن طريق نهر تحت جسر ، ولكن القانون لم يكن واضحا فى هـــذه النقطة · ولم يلتجىء أى من الطرفين الى القضاء ·

« فى مساء السبت الاخير من نوفمبر سنة ١٨٩٢ قطع هــدوء هانكوك وصول مائة رجل مسلح من رجال السكك الحديدية على قطار خاص ·وأنزلوا من القطار مدفعا ، وأقاموا نوبة حراسة ليلا ونهارا وبنوا مركزا للانذار تعلوه شعلة تضاء طلبا للنجدة عند الحاجة كما بنوا ثكنات وتركوا عشرين رجـــلا وأقام الباقون فى الثكنات المدة الباقية من الشتاء · وكان الديناميت جزءا من عهدتهم وكان منها أيضا الأهاب والخطاطيف وغيرها من الادوات اللازمةلخلع الانابيب اذا وضعت · وكانت المدافع من الادوات التى تســـتخدمها الشركة وتستعملها فى ثقب الصهاريج التى ينقل فيها البترول اذا اشـــتعل · وحتى يعرف المستغلون ماذا ينتظرهم أطلق المدفع فى الساعة العاشرة مساء وأحدث دويا وهز الناس والنوافذ فى دائرة قطرها عدة أميال · وكان أعداء المنافسة على استعداد للقتل دفاعا عن حقوق كانت موضع شك ، ولم يكن هناك من يدعى أن المحاكم لن تقضى بترضية كاملة اذا وقع ضرر » (×) ·

ووجد خط أنابيب المستقلين طريقا آخر للمرور وتم بناء الخط ، ولـكن ستاندارد أويل سيطرت عليه فى النهاية ·

وقام الجمهور ممثـلا فى المحامين والمجالس التشريعية فى الولايات بعـدة هجمات على الاحتكار وحاول أن يبث الحياة فى المنافسة بعدة وسائل منها ما حدث فى سنة ١٨٧٤ اذ ذهبت لجنة ويندوم من مجلس الأمة ، وهى اللجنة التى عهد اليها بالتحقيق فى مخالفات السكك الحديدية ، الى حد أن دعت الى انشاء عدد من الخطوط الحديدية تملكها وتديرها الولايات أو الدولة ، ولم يكن الغرض من انشائها الحصول على ميزات الاحتكار لصـــالح الجمهور كما قد يتبادر الى الذهن ، بل كانت على النقيض من ذلك ، لضمان وجـود منافسين لا يقبلون الانضمام الى مشروعات موحدة وعمليات الخصم والاســترداد وما اليهــا ·

وكتبت اللجنة فى تقريرها تقول ان « الوسيلة الوحيدة لضمان قيـــام منافسة فعالة يعتمد عليها من السكك الحديدية والمحافظة عليها هى بناء خطوط تملكها الدولة أو الولايات ، أو السيطرة على خط أو أكثر لا يمكن أن تشترك فى تكتلات وبذلك تكون أداة لتنظيم الخطوط الاخرى » ·

ولكن هذه التوصية لم توضع مطلقا موضع التنفيذ ·
وكان قانون التجارة بين الولايات الصادر فى سنة ١٨٨٧ وقانون شرمان

(×) هـ · د · للويد « الثورة ضد الكومنولث » ص ٢ — ١٦١ ·

المناهض للموثقات الصادر فى سنة ١٨٩٠ محاولة لاتقاء شرور الاحتكار فى السكك الحديدية وغيرها من المنظمات الاقتصادية ٠ واستفاد المحامون من القانونين ، لانهما كانا يورطان رجالا أغنياء فى نزاع معقد كثير الكلفة ، ولكنهما لم يخدما أى غرض مهم آخر ٠ وقررت المحكمة العليا أن القانون المناهض للموثقات لا يمكن تطبيقه على النقابات واستغلاله فى القاء زعمائها فى السجون ٠

نعم ان موثقة ستاندارد أويل حلت بالاسم سنة ١٨٩٢ نتيجة لحكم أصدرته عليها المحكمة العليا فى أوهيو ٠ ولكن حل الموثقة لم يكن قد نفذ بعد ست سنوات من ذلك الوقت ، ووجه النائب العام فى أوهيو تهمة عدماحترام القانون الى الموثقة ٠ وصدر قرار المحكمة فى الموضوع بأصوات متساوية ـ ثلاثة ضد ثلاثة ـ وأنقذت الموثقة من نتائج الحكم ٠ الا أن النائب العام لم يعد انتخابه وكان خلفه أكثر ودا نحو ستاندارد أويل ٠ فقط كانت الشركة جد خبيرة بتوجيه السياسة فى أوهيو ٠ مثال ذلك أنها استطاعت أن تجعل « باين » والد صراف الشركة أحد عضوى مجلس الشيوخ عن أوهيو ٠ وأثار عضو الشيوخ الآخر والمجلس التشريعى تهمة وقوع تزوير فى الانتخابات وطالبا بتحقيق يجريه مجلس الشيوخ ٠ ولم يبد باينتحمسا لفكرة التحقيق ولم يحرك ساكنا فى الموضوع ٠

ومع ذلك فقد حلت موثقة ستاندارد أويل فى النهاية وحلت محلها « شركة ستاندارد أويل لنيوجرسى » التى قامت بالعمل نفسه فى خدمة الاشخاص انفسهم ٠ وقد حلت هذه الشركة هى الاخرى بناء على حكم اصدرته المحكمة العليا فى سنة ١٩١٠ باعتبارها منظمة تعرقل التجارة ٠ ومنذ ذلك الوقت أصبحت ستاندارد أويل تتكون من عدة شركات فى ولايات مختلفة مستقلةفى الظاهر ، ولكن التغيير لم يؤد الى نتيجة ملحوظة ٠

ولم تصب حملة الشعب ضد حكم الاثرياء ، التى قامت على وجهة نظر تحررية عتيقة ، بالتأكيد نجاحا كبيرا ٠ وكانت النتيجة النهائية لأربعين عاما من التهييج المستمر ضد الاغنياء هى القاء أحد زعماءالاشتراكية ـ يوجين ف٠دبز ـ فى السجن ٠ وكان أقطاب ستاندارد أويل فى الوقت عينه يستطيعون ارتكاب جريمة الحنث فى الايمان دون أن ينالهم عقاب ، فقد أقسم روكفلر مثلا فى مناسبتين مختلفتين ، ليس بينهما غير بضعة أشهر ، أنه كان وانه لم يكن ، على علاقة بشركة تحسين الجنوب (×)

وكان النزاع مع مكررى البترول الآخرين أكثر صعوبة منه مع المنتجين

(×) كاريل « المرجع المذكور » ج ٢ ـ ص ٢ ـ ١٣٨ وكذلك ٧١ وص ٢٣٠ ج ١ ٠

أو الجمهور · وكانت السكك الحديدية فى هذا النزاع هى الحليف الرئيسى لستاندارد أويل والعامل الاكبر فى نجاحها · وكانت المؤسسات الجديدةالتى تنضم الى التكتل تستمر فى العمل على أساس أنها منفصلة فى الظاهر وتتخذ احتياطات شديدة لاخفاء حقيقة انضمامها · مثال ذلك أنه عندما سيطرروكفلر فى سنة ١٨٦٧ على مؤسسة سكوفيلد وشيرمان وتيجل ، « أحيط ابرام هذا العقد وتنفيذه بكل السرية التى تميزت بها مغامرات مستر روكفلر فى ميدان الاعمال · وبناء على شهادة أحد موظفى المؤسسة أدلى بها فى كليفلاند بعد ذلك بعدة سنوات ، تم توقيع العقد ليلا فى منزل مستر روكفلر فى شارع افليدس فى كليفلاند حيث طلب الى السادة الحاضرين ألا يخبروا أحدا ، حتى زوجاتهم، عن التنظيم الجديد ، وأنهم اذا أصابوا من ورائه أرباحا طائلة يجب عليهم اخفاؤها - ولا يركبوا عربات تجرها خيول سريعة أو يظهروا بمظهر الثراء المفاجىء ، أو يفعلوا أى شىء من شأنه أن يجعل الناس يظنون أنهم جنوا أرباحا كبيرة من تكرير البترول · لان ذلك يؤدى الى المنافسة · وأبلغوا ان جميع الحسابات يجب أن تظل سرية · واستعملت أسماء مستعارة فى المراسلات كما استعمل صندوق بريد خاص لهذه الاسماء الموهومة · والحق ان المهربين واللصوص لم يحيطوا أعمالهم بسرية أكبر من التى استخدمها روكفلر وأعوانه » (×) ·

ولم يحدث أن قام نزاع بين ستاندارد أويل وأى شركة من شركات السكك الحديدية الا مرة واحدة لم تتكرر ، وكان ذلك مع سكة بنسلفانيا الحديدية· وكان ذلك فى سنة ١٨٧٧ عندما أصبحت خطوط أنابيب البترول ذات أهمية وكان روكفلر يحاول السيطرة عليها جميعا·الا أنه كان خط من الانابيب تملكه سكة بنسلفانيا الحديدية هو خط شركة النقل الامبراطورية » · وبدا أن هذا الخط فى طريقه الى أن يصير عديم القيمة باستيلاء روكفلر على جميع معامل التكرير واقتصاره فى نقل البترول على خطوط الانابيب التى يملكها والسكك الحديدية التى بقيت موالية · ومن ثم قرر سكوت أن يبنى معامل لتكرير البترول فى نيويورك تستعمل الزيت الخام الذى تنقله خطوطه · وعندما عرف الأمر حاول روكفلر أن يقنع سكوت بالعدول وكذلك فعلت شركتا ايرى ونيويورك سنترال · ولكن سكوت قرر أن يقاتل ، وبدأت حرب تخفيض الاسعار التى بلغت فى وقت من الاوقات حدا كان الزيت فيه ينقل من مناطق البترول الى نيويورك بخسارة ثمانية سنتات للطن · وفقد كل من له علاقة بالموضوع ملايين الدولارات ولكن النتيجة ظلت مشكوكا فيها حتى بدأ اضراب ، من أشد الاضرابات فى أمريكا ، بين عمال شركتى بلتيمور وأوهيو وامتد الى شركة بنسلفانيا · ووقعت معارك شديدة بين الجنود والمضربين

(×) تاربل - المرجع السابق - ج ١ - ص ١٦٦ ·

أسفرت عن عدة قتلى وتدمير الكثير من ممتلكات السكك الحديدية • وأدى هذا الاضراب الذى وقع فى أكثر الاوقات مناسبة الى انتصار روكفلر • وباعت شركة بنسلفانيا ، التى لم تدفع لاول مرة أرباحا لحملة أسهمها ولم تعد تستطيع مواجهة أى خسائر أخرى ، معامل التكرير وخط أنابيب شركة النقل الامبراطورية الى ستاندارد أويل • ولم تستمع شركات السكك الحديدية منذ تلك اللحظة الى أى اقتراح فيه عداء لروكفلر ، بل كانت تجيب دائما بأنه الرجل الوحيد الذى يستطيع المحافظة على السلام بين الخطوط المختلفة • ولم يعد حتى أقدر الناس وأغناهم بعد هزيمة سكوت ، يعتقدون أنهم يستطيعون الانتصار على ستاندارد أويل • وقد عبر و • هـ • فاندربلت عن هذا الرأى فى شهادة أدلى بها أمام لجنة من « جمعية نيويورك » سنة ١٨٧٩ فقال :

س ـ هل تستطيع أن تعزو ، أو هل أنت تعز فعلا فى تفكيرك وجود شركة واحدة للتكرير الآن بدلا من خمسين شركة الى أى سبب عدا ضخامة رأس مال شركة ستاندرد أويل ؟

ج ـ لذلك عدد كبير من الاسباب ، ان رأسمالهم ليس الاساس الوحيد الذى بنوا عليه مؤسستهم ، فليس هناك شك فى أن هؤلاء الرجال أكثر دهاء منى فيما أعتقد ، أكثر كثيرا جدا ، ولو أنكم اتصلتم بهم فانى أعتقد أنكم ستخرجون بنفس النتيجة التى وصلت اليها من زمن بعيد ، انهم رجال أذكياء مغامرون ، ولم يحدث أن اتصلت بطبقة من الرجال فى ذكائهم وقدرتهم فيما يتعلق بأعمالهم ، وأنا أعتقد أن الكثير من نجاحهم يرجع الى هذا السبب •

س ـ هل يؤدى هذا وحده الى احتكار عمل من هذا النوع ؟

ج ـ انه يساعد كثيرا فى بناء الاحتكار ، وما كانوا ليستطيعوا الوصول الى المركز الذى يحتلونه الان لو لم يكونوا على درجة كبيرة من الكفاية ، ولا يستطيع رجل واحد أن يفعل ذلك كله ، انهم مجموعة من الرجال •

س ـ ألم تكن مجموعة ضمت الرجال الاذكياء فى السكك الحديدية والرجال الاذكياء فى شركة ستاندارد ؟

ج ـ انى أعتقد أن هؤلاء السادة بذكائهم استطاعوا الاستفادة من المنافسة التى كانت قائمة بين شركات السكك الحديدية لمصلحة مؤسساتهم فى نموها ، وليس ثمة شك فى أنهم أفادوا من ذلك •

س ـ ألا تعتقد أنهم استطاعوا أيضا اكتساب ولاء شركات السكك الحديدية وولاء موظفيها ؟

ج ـ لم أسمع أن أى من موظفى شركات السكك الحديدية قد اتهم بأن له مصلحة فى أى شركة من شركاتهم سوى ما كنت أقرأه منذ سنوات فى الجرائد من أن لى أنا مصلحة فيها •

س - ان مصلحتك فى سكك الحديد كبيرة الى حد أنه لا يوجد شخص يتصور أنه قد يكون لك مصلحة شخصية مضـادة لمصـــلحتك فى خطوطك الحديدية . أليس كذلك ؟

ج - عند ما جاءوا ليتعاملوا معنا على نطاق كبير ، كان هذا هو السبب الذى جعلنى أتخلى عن مصلحتى .

س - وهذه هى الطريقة الوحيدة ، فيما نرى ، التى تفسر بهـا تكوين هذا الاحتكار الضخم ؟

ج - نعم ، انهم رجال مهرة أذكياء ، وأنا لا أظن أنكم تستطيعون القضاء على رجال مثلهم بأى تشريع أو أى شىء آخر ، عن طريق أية ولاية أو عن طريقها مجتمعة ، انكم لن تجدوا الى ذلك سبيلا ، انهم سيتفوقون باستمرار ، والايام بيننـــا .

س - هل تعتقد أنهم يسيطرون على السكك الحديدية ؟

ج - نعم ، ويسيطرون على كل شخص يتصل بهم ، أنهم أمهر من أن أقف فى سبيلهم (×) .

ويقول روكفلر ان الله قد وهبه ماله . واذا كان الله يعمل عن طريق القوى الاقتصادية ، فقد يكون ذلك الرجل العجوز على حق . ومهما يكن من أمره فانه قد ربح بعد تقاعده أربعة أمثال ما ربحه خلال عمله وفى نصف الوقت . فقد كان البترول مطلوبا فى أول الامر للانارة ، ولما فقد أهميته فى هذا المجـــال جاءت السيارات . لم يكن هناك شىء يستطيع وقف سيل الثروة المتدفق . وقد تبرع بمبالغ لا حصر لها جعلت العلماء فى أمريكا والصين ، وكذلك القسم الأكبر من علماء البلاد الاخرى ، يفيدون من تبرعاته الخيرية ، ومع ذلك فقد ظل يزداد ثراء . وقد أدى اكتشاف البترول فى مناطق أخرى من العالم الى احياء المنافسة بالرغم من جهوده ، تحمل معها ، الا الخيرات التى كان أعداؤه يتوقعونها ، بل الحرب واشاعات الحرب ، ومع ذلك فقد ظل يزداد ثراء .

« أنا لا أظن أنكم تستطيعون القضاء على رجال مثلهم بأى تشريـــع أو أى شىء آخر عن طريق أية ولاية أو عن طريقها مجتمعة ، انكم لن تجدوا الى ذلك سبيلا ، انهم سيتفوقون باستمرار » . كان هذا رأى وليام فاندربلت ، ويبدو أن الامر كذلك طالما ظل داخل اطار النظام الرأسمالى .

★ ★ ★

(×) تاربل - المرجع السابق - جـ ٢ - ص ٣٨٨ .

ب - الصلب

يقول المؤرخ الاقتصادى « ان انتاج الحديدوالصلب هو الصناعةالرئيسية فى الأمة ، وهو الذى يحدد تقدم الفروع الاخرى (×) • وكانت بريطانيا العظمى أيام الحرب الاهلية متقدمة علىسائر الدول فىصناعة الحديدوالصلب، ولكن أمريكا لحقت بها فى سنة ١٨٩٠ ، وما أن جاءت سنة ١٩٠٠ حتى كانت تنتج ضعفى ما كانت تنتجه انجلترا واسكتلندا مجتمعتين • ففى سنة ١٨٦٠ كان انتاج الحديد والصلب فى أمريكا يقدر بنصف مليون طن ، وفى سنة ١٩٠٠ كان يقدر بتسعة وعشرين مليونا من الاطنان ، وفى سنة١٩١٠بخمسة وسبعين مليونا ، وفى سنة ١٩٢٠ بمائة وأربعة عشر مليونا • وبينما زادت كمية الحديد والصلب مائتى مرة وثلاثين فيما بين سنة ١٨٦٠ وسنة ١٩٢٠، كادت قيمتها تزيد مائة مرة بالضبط • هذا الى أن أمريكا لم تنتج فى سنة ١٨٦٠ الا قدرا ضئيلا جدا من الصلب بينما كان انتاجها فى سنة ١٩٢٠ كله تقريبا من الصلب • وقد نذهب بناء على ذلك الى أن الطن من الصلب فى سنة ١٩٢٠ كان يتكلف حوالى نصف ما يتكلفه انتاج طن من الحديد سنة ١٨٦٠• ان هذا يمثل الى حد ما على ما بلغه التقدم الفنى خلال هذه الاعوام الستين ، ولكنه تقدير غير دقيق ، لان مستوى الاسعار العام فى سنة ١٩٢٠ كان أعلى منه فى سنة ١٨٦٠ •

وكانت أهم شخصية فى نمو صناعة الصلب هى شخصية أندرو كارنيجى ، وهو رجل كانت حياته نقطة الالتقاء لكل مراحل التصنيع من أقدمها الى أحدثها • كانت أسرته منذ عدة أجيال من أصحاب مصانع النسيج اليدوية فى اسكتلندا ، وكانوا فى سنة ١٨٣٥ عندما ولد أندرو على وشك السقوط فى وهدة الفقر بسبب منافسة الآلات•وكان معظم أقاربه من الرجال عهديين متحمسين تحدوهم كراهية شديدة للملك واللوردات ورجال الدين • وكانت أمه من أتباع سويدبورج أما هو فكان من المتحررين من قواعد الدين - أولا بالطابع الثورى الذى اتسمت به الطبقة العاملة فى العقد الخامس ، وبعد ذلك بصورة أكثر اعتدالا جعلت هربرت اسبنسر يعجب به وأدت الى صداقته مع جون مورلى • وهاجرت الأسرة الى أمريكا ، وهناك مر بكل مراحل المنافسة وانتهى به الامر الى بيع مؤسسته ليكون نواة أضخم من الاتحادات جميعا ، اتحاد الصلب فى الولايات المتحدة • وكرس نفسه بعد تقاعده فى سنة ١٩١٠ للتخلص من أمواله • ولما توفى سنة ١٩١٩ وهو فى الثالثة والثمانين من عمره كان قد نجح فى التخلص من تسعة أعشارها •• لقد عاش حتى هنأويلسون على معاهدة فرساى ، ولكنه لم يطل عمره حتى يعلم انها تهنئة لا يستحقها •

وكان عم الفتى كارنيجى الذى يعجب به ويحتذيه ، واسمه لودر ،

(×) بوجادت ص ٥٩٣ •

متحمسا لأمريكا مثل معظم العهديين واتخذ واشنجتن وجفرسن وفرانكلين مثله العليا • ومن ثم كان لدى الصبى عندما وصل أمريكا أمل طيب نحو البلاد الجديدة • وهو يذكر فى خطاب طويل أرسله الى عمه سنة ١٨٥٢ أنه ديموقراطى من أنصار الارض المجانية ، وأنه يأمل فى أن يتم القضاء على الرق فى فرصة قريبة ، ويأسف لأن كلا المرشحين للرياسة رجل عسكرى ، ويؤكد أن أعظم اصلاح فى العصر الحاضر هو « قانون المزارع المجانية » وأنه مسرور لأن « مين » قد أخذت بمبدأ تحريم الرق - وهى خطوة سبقتكم بها على اى الاحوال » • لقد أصبح أمريكيا متحمسا ، ومع ذلك فانه لم تكن ظروفه تسمح له بمغادرتها حتى كان يقضى وقت فراغه فى اسكتلندا •

ولما وصلت أسرته الى بتسبرج كان عليهـا أن تكافح فى سبيل العيش واضطر هو للعمل فى مصنع قطن عند ما كان فى الثالثة عشرة من عمره لقاء دولار وعشرين سنتا فى الاسبوع لا أكثر - وكره العمل كره العاجزين عن ممارسته • وعلى الرغم من أنه أخذ يقوى عزيمته بتذكر الابطال الاسكتلنديين فان الروائح كانت تسبب له الغثيان ، وكانت توقظه فى منتصف الليـل كوابيس تصور أنه أخطأ فى ادارة الآلة التى كان يعمل عليها • ويقول : « لم أنجح أبدا فى التغلب على الغثيان الذى كان يصيبنى من رائحة الزيت • وحتى والاس وبروس لم يفيدانى فى هذا الصدد » • يمكن أن يقال بوجه عام أن أكواخ الفقراء تضم سعادة حقيقية أكبر وحياة أوفى وأكثر غنى مما تضمه قصور الاغنياء » • ومع ذلك فقـد ترك الكوخ الى القصر بأسرع ما استطاع •

وسرعان ما بدأ النجاح يحالف كارنيجى • فبعد حوالى سنة قضاها فى المصنع عمل « ساعى تلغراف » ، وكان ثانى صبى فى بتسبرج يقـوم بهذا العمل ، ولكن عددهم أخذ يزداد بسرعة • وبدأ الرجـل الذى ظل يدعو للمنافسة طول حياته بخنق المنافسة فورا بين « سعاة التلغراف » • فقـد كان الصبى منهم يتلقى عن كل برقية يسلمها خارج حدود المدينـة هبـة مقدارها عشرة سنتات ، فعمل كارنيجى على ايداع كل المبـالغ المتحصلة عن هذا الطريق فى رصيد مشترك يوزع بينهم جميعا بالتساوى فى نهاية كل أسبوع • ويقول مؤرخ حياته فى هذا الصدد : « ونفذت الخطة وقضى على المنافسة ، وعاش سعاة التلغراف فى ود وصداقة منذ ذلك الحين » (×) •

وأصبح فى عام ١٨٥١ عامل تلغراف مرتبة أربعة دولارات فى الاسبوع زادت فى العام التالى الى خمسة وعشرين دولارا فى الشهر ، وكان لا يزال فى السابعة عشرة عندما حالفه الحظ فاسترعى انتباه سكوت الذى كان يعمل فى سكة بنسلفانيا الحديدية ، وكان سكوت نفسه فى ذلك الوقت شـابا

(×) بيترتون ج• هندريك « حياة اندرو كارنيجى » ص ٥١ •

يرقى مدارج الرقى بسرعة ، ومن ثم ألحقه بخدمة الشركة بمرتب قدره خمسة وثلاثون دولارا فى الشهر ، وبقى فى الشركة متنقلا فى وظائف مختلفة اثنتى عشرة سنة أى الى نهاية الحرب الاهلية .

ولم يتطلب منه الامر مدة طويلة ليدرك أن العمل ليس هو الطريق الوحيد لتكوين الثروة . فقد عرض عليه سكوت فى يوم من الايام عشرة أسهم من شركة « آدامز اكسبرس » ثمنها ٥٠٠ دولار ، وحصل على المبلغ المطلوب باقناع أبويه برهن منزلهما . وفى مناسبة أخرى عرض عليه وودراف - مخترع عربات النوم - نصيبا فى مشروعه وكانت العربات لم تزل بعد فى مرحلتها التجريبية . (الا ان امر الدفعات الشهرية التى يجب على أن أؤديها كان يزعجنى - فقد كانت أول دفعة شهرية مائتين وسبعة عشرة دولارا ونصف . ولم يكن لدى هذا المبلغ ولا أعرف وسيلة للحصول عليه . وأخيرا قررت أن أزور مدير المصرف المحلى وأسأله قرضا أرده بواقع خمسة عشر دولارا فى الشهر . ووافق مدير المصرف فورا على منحى القرض المطلوب » .هذا هو السر فى الطريق الى الثراء : كان بحيث اذا سألت مصرفا منحك اياه . وبلغت أرباحه من الاسهم التى حصل عليها خمسة آلاف وخمسين دولارا فى سنة ١٨٦٣ . وكان مجموع دخله فى هذه السنة ٤٧ر٨٤٦ دولارا وسبعة وستين سنتا لم يكن مرتبه منها يزيد على ٢٤٠٠ دولار ، والباقى كان نتيجة استثمارات استخدم فيها ذكاءه وفطانته .وارتفع استثماره الاول فى شركة « آدامز اكسبرس » من ١٢٠ دلارا سنويا حين ابتاع أسهما فيها الى ١٤٤٠ دولارا . وكان قد اشترى بالمبالغ التى اقتصدها مزرعة فى منطقة البترول بالاشتراك مع بعض أصدقائه ، ارتفع ثمنها الى ٠٠٠ر٠٠٠ر٥ دولار ، الا انه كان قد بدأ يوجه اهتمامه الى الحديد .

وترك كارنيجى العمل فى السكك الحديدية بعد الحرب الاهلية وعمل فى صناعة الجسور الحديدية ونجح فيها من مبدأ الامر أعظم النجاح . وحولت عملية « بسمر » التى اخترعت سنة ١٨٥٦ وأحدثت انقلابا فى صناعة الصلب انتباهه من صناعة الحديد الى صناعة الصلب . وقد تأخر استعمال هذه الطريقة بسبب عدم صلاحيتها الا فى الحديد الخام المستخدم فى انجلترا وأمريكا فى ذلك الوقت يحتوى على نسب أعلى من هذه . غير أن حديد ليك سوبريور (البحيرة العليا) ، الذى علم الرجال البيض بوجوده سنة ١٨٤٠ عن طريق هندى متطير يدعى ماجيجى جيج قال لهم : « جبل الحديد - الهندى لا يذهب قريبا منه ، الرجل الابيض يذهب » ، ثبت أنه صالح لطريقة بسمر واكتسب بذلك أهمية جديدة . ويرجع الفضل فى تفوق أمريكا فى صناعة الصلب الى حديد بحيرة سوبريور وعملية بسمر . فقد استطاع بسمر واجيجى ميج أن يقضيا على ما كانت تحلم به بريطانيا من التفوق على سائر الاقطار فى الصناعة الى أبد الدهر .

وفى سنة ١٨٧٢ اشتغل كارنيجى بصناعة قضبان الصلب نتيجة لمقابلة بسمر ومشاهدته «المحول» الذى ابتكره وهو يعمل · وصنع بسمر القضبان الصلب أولا للسكك الحديدية الانجليزية فى سنة ١٨٦٥ ، ولكن القضبان الحديدية ظلت حتى سنة ١٨٧٢ تستعمل فى أمريكا فى كل مكان ·

وبنى كارنيجى مصانعه فى البقعة التى شهدت المعركة التى حلت فيها الكارثة بالقائد برادوك سنة ١٨٥٥ ، وأصاب نجاحا من مبدأ الامر · وسببت أزمة سنة ١٨٧٣ كسادا استمر مدة طويلة فىصناعة الصلب ، ولكن مصانعه ظلت تتسع · فقد كان مبدؤه طوال حياته العملية أن يزيد من انتاجه فى الازمات استعدادا لأوقات الرخاء اذا أقبلت · وقد قال بعد ذلك بمدة : « ان الرجل الذى لديه مال خلال الازمات لهو المواطن الحكيم ذو القيمة » · وكان هو دائما ذلك الرجل · وقد كان لفترات الذعر المالى شأن كبير فى تكتل رأس المال ، لانها تجعل فى وسع المؤسسات القوية أن تستولى على الضعيفة أو تطردها من ميدان العمل · ولم يقرب كارنيجى المضاربة أبدا ، كما لم يكن يعوزه النقد فى أى وقت من الاوقات · وما أن صار سيد نفسه حتى شرع يكره الشئون المالية أشد الكره وابتعد كل الابتعاد عن سوق السندات وعملياتها · ووضع قاعدة لا يحيد عنها تقضى بألا يقرب أحد من شركائه المضاربة اذا استطاع منعه من ذلك · وكان شديد الصلابة فى هذا الموضوع حتى مع أخلص موظفيه وأكثر موضعا لثقته · لقد كان رجل صناعة فحسب · وكان يجمع ثروته عن طريق صناعة منتجات الصلب وبيعها ، لا عن طريق المضاربات المالية ·

وكان كارنيجى جمهوريا فى السياسة ولكنه كان ملكيا فى عمله · فقد كان فى مصانعه حاكما مطلقا ، ولم يقبل أبدا الدخول فى تكتلات أو اتفاقات من أى نوع كان مع مؤسسات منافسيه · فقد كانت المنافسة مصدر متعة له كان شديد الوطأة فى معاركه لا يقف فيها عند حد · وفى داخل مصانعه كانت عينه الفاحصة تبحث عن كل من يبشر بمستقبل من موظفيه ويدفعهم الى المنافسة فى سبيل ارضائه ، ثم يتخذ من أكفأهم شريكا له · وقد قال مرة : « ان مستر مورجان يشترى شركاءه أما أنا فأربيهم » ·

وكان نجاحه يعتمد على التفوق الفنى · فقد كانت قضبان الصلب تباع عندما بدأ صنعها بسعر مائة وستين دولارا للطن · وفى سنة ١٨٩٨ كان سعر الطن سبعةعشر دولارا ، وأنتجت مصانعه فى سنة ١٩٠٠ ، وهى آخر سنة له فى العمل ، أربعة ملايين طن من الصلب ، وهو ما يساوى تقريبا انتاج بريطانيا العظمى ونصف انتاج الولايات المتحدة كلها ·وكانت أرباح مؤسساته أربعين مليونا من الدولارات نصيبه منها أقل قليلا من خمسة وعشرين مليونا · وربح مبلغ ٥٠٫٠٠٠ دولارا استثمره أحد الشركاء

فى المؤسسة سنة ١٨٨٣ ثمانية ملايين دولار فى سنة ١٨٩٨ ٠ وأغرب ما فى الامر أن ذلك كله قد تحقق دون أن يبذل كارنيجى فى تحصيله مجهودا شاقا ٠ فقد كان منذ سنة ١٨٦٥ يقضى نصف السنة فى أوروبا ، معظمها فى اسكتلندا ، ومع ذلك فان اشرافه على العمل ظل كاملا لم يخرج قط من بين يديه ٠ وقد قال مرة مفاخرا لأحد زواره أثناء مشاهدته للمصانع : « اننا هنا أسرة واحدة سعيدة ، كلنا مجمعون على رأى واحد بالاجماع » فغمغم أحد شركائه : « ليكن الله فى عون من يخرج على هذا الاجماع » ٠

وكان هناك شخص واحد لا غير يقف منـــه كارينجى موقف الرهبة ، وهذا الشخص هو أمه ٠ وقد كانت بلا ريب ســـيدة رهيبة حقا ٠ فعندما ألقى ماينو آرنولد أولى محاضراته فى أمريكا تحت رعاية كارينجى فشلت المحاضرة فشلا ذريعا ٠ وحاول كل شخص بعدها أن يبلغه ذلك بلباقة مختلفة الدرجات ٠ وأخيرا تحول الى والدة مضيفه لعلها تقول له شيئا رقيقا يخفف عنه آلام الاخفاق ، وكان كل ما قالته : « كانت المحاضرة أشبه بموعظة دينية يا مستر آرنولد ، موعظة دينية أكثر مما يجب » ٠ وكان من عادة كارينجى أن يركب عربة ذات أربعة جياد مع بعض أصدقائه ويطوف بها اسكتلندا ، وكانت أمه تجلس دائما بجانبه لتحول بينه وبين الفتيات اللاتى ينشـــدن زوجا ٠ وتوفيت سنة ١٨٨٦ عندما كان فى الواحدة والخمسين من عمره ، لم يرض أن يتزوج حتى ماتت ، وأنه كان قد عقد خطبته ٠ وظل بعد موتها عدة سنوات لا يتحدث عنها ، وأزال صـــورها التى كانت على مكتبـه وعلى الجدران ٠ وأخيرا أعادت زوجته صورة مصغرة لأمه الى مكتبه ، وأخذ بعـد ذلك يتحدث عنها كثيرا ٠

وحدث فى جنيف سنة ١٨٩٣ خلال فترة من فترات غيـــابه الدورية اضراب كبير فى مصانعه ٠ واستأجر فريك ، الذى كان يشرف على العمل فى غيابه ، رجال بنكرتون لحماية العمـــال الذين لم يشتركوا فى الاضراب ، ودارت معركة تفوق فيها المضربون على رجال بنكرتون ، وجرح فريك جرحا بليغا ، وان كان غير قاتل بيد الفوضوى بيركمان ، وتغلبت فرقة من ثمانية آلاف جندى مسلحين بالمدافع على الفوضويين واحتلت المصانع ، ولم يستخدم كارينجى منذ هذه اللحظة أحدا من أعضاء النقابات ٠ وقد حـدث الاضراب احتجاجا على تخفيض فى الاجور بلغ بين ١٥ و ١٨ فى المائة ٠ وكان كارينجى فى ذلك الوقت قد شرع ينسى أعمامه العهديين وتضاءلت نزعته التحررية الى أن صارت مقصورة على « ثرثرة » ولى عهد انجلترا والقيصر عن المزايا النسبية للملكيات والجمهوريات ، وكتابة مقالات عن مباهج الفقر ٠

وكان كارينجى من مبدأ الامر يصنع الجسور والقضبان ، ولكن عمـــله الأساسى كان مصنع الصلب ٠ وسادت فى أخريات أيام حيـــاته العامة فى

صناعة الصلب فكرة جديدة هي « التكامل » . وكانت تعنى أن كل المواد الخام وجميع العمليات الصناعية التي لابد منهـــا حتى تصير المنتجـــات في صورتها النهائية ، يجب أن توضـــع تحت ادارة واحدة . وكان لذلك أسباب فنية ، فقد وجد مثلا أن من الخير ألا يترك المعدن حتى يبرد أبدا ، من أول مرحلة يتلقى فيها العمال المادة الخام حتى آخر مرحلة . واضطرت هذه الحركة كارينجي الى الاتصال برجلين بلغا من القوة مثلما بلغ : روكفلر وبييربون مورجان .

وكان كارينجي قد ضمن حاجته من الفحم الكوك باتفـاق مع فريك ، الذي صار بعد ذلك شريكه ، وكان فريك يتحكم في كوك المنطقة كله . أما الحديد الخام الذي كان يجلب من منطقة ميزابي عند ليك سوبيريور فقـــد كانت السيطرة عليه أكثر صعوبة . ذلك أن روكفلر قد حصل على مساحات شاسعة من الارض خلال الذعر المالي الذي وقع في سنة ١٨٩٣ عندما اضطر كثير من صغار المتعاملين للبيع . وبدا بعض الوقت أن روكفلر في سبيله الى تحدى كارينجي في تفوقه في صناعة الصلب . ولكنـــه قرر أن يقتصر على البترول . فأجر أرضه المحتوية على الحديد الخام الى كارينجي وأبرم معـه عقودا لنقل الحديد لسكة الحديدية وبواخره الاثنتي عشرة التي كانت تعمل في البحيرة . وتعهد كارينجي ألا يشترى الحد يد الخام من أحد غير روكفلر ما دام في مقدور روكفلر أن يوفر له مطالبه منه ، وكان مفهوما أن روكفـلر لن ينتج صلبا بنفسه .

الا أن وقف كارينجي في الطرف الآخر كان أضعف من هذا . نعم انه كان واثقا من المواد الخام التي يحتاجها ، وكان يستطيع صـناعة الصلب بتكاليف منخفضة يتفوق بها على أى منافس . غير أن الذين كانوا حتى تلك اللحظة يشترون منه الصلب للاغراض الصناعية المختلفة بدأوا يفكرون في أنه أدعى لربحهم أن يصنعوا ما يلزمهم من الصلب بأنفسهم .

قد أدى هذا الى تبدل في الموقف تجلى بوضوح في يونية ويولية ســنة ١٩٠٠ . فقد أبلغ مستر جون وجيتس رئيس شركة « الصلب والاســلاك الامريكية » مستر سكواب أن في وسعه انتاج ما يحتـــاجه من صلب في المستقبل ومن ثم فان العقد الذى بينه وبين شركة كارينجي يعتبر مفسوخا ، وأرسل أبناء مور المســيطرون على شركتى « أطواق الصلب » و « ألواح الصلب » خطابا يتضمن نفس المعنى . وانتهت بذلك عقـــود عديدة كانت مبرمة مع مصانع كارينجي واختفى عميل كان يشـــترى ٢٠٫٠٠٠ طن في الشهر . وأهم من ذلك كله وأدعى الى العمـــل أن ج.ب. مورجان وشركاءه أنشأوا مؤخرا شركة اسمها « ناشيونال تيوب » (شركة الانابيب الاهلية) مكونة من تسع عشر مصنعا كانت قبـل ذلك تتنافس فيما بينهـــا وكانت

جميعها تحصل على ما تحتاجه من صلب من كارينجي من عدة سنوات ٠ وأصبح فى وسع هذه الشركة أيضا أن تستغنى فى المستقبل عن خدمات مصانع كارينجي ٠ وبنى ماكيزبورت وفى أماكن أخرى عدد كبير من أفران الصهر و « مجموعات التحويل » تؤكد فى تعال اعلان الاستقلال ٠٠ ومنشأة أخرى من منشئات مورجان هى شركة « الجسور الامريكية » ، كان عملها فيما مضى مقصورا على « التجميع » فكانت تشترى ماتحتاجه من صلب من كارينجي ثم تقوم « بتجميعه » وتخرجه الى العالم فى صورة منتجات تامة الصنع ، ثم أصبحت تقابل تجار بتسبرج الآن ببرود هى الاخرى ، فقد كانت هذه المؤسسة التى خلقها مستر مورجان فى طريقها الى انتاج ما تحتاجه من صلب بنفسها » (×) ٠

وكان كارينجي قد تعب من جمع المال ورغب فى التقاعد فى قلعته باسكتلندا حيث يستطيع التمتع بالحديث مع الفلاسفة وتكريس مجهوده لانفاق ثروته كلما كرسه لجمعها ٠ الا أن اعتداده بنفسه كان يتطلب منه ألا يترك العمل وفوق رأسه هالة المجد لا رجلا يخشى المنافسين الاقوياء ٠٠ وكان يملك فى كانوت على ساحل بحيرة ايرى مرفأ بأكمله فى نهاية سكة بسمر الحديدية التى بناها من قبل ليوقف سكة حديد بنسلفانيا عند حدها ٠ وعند هذا المكان اشترى وكلاء كارينجي خمسة آلاف فدان انجليزى تمتد على البحيرة مسافة ميل ، وهناك كان كارينجي يزمع بناء مصنع للانابيب بتكلف ١٢,٠٠٠,٠٠٠ دولار ٠ وكانت هذه العملية هى الخطوة الاولى ٠ فقد اشترى مساحات شاسعة من الارض لبناء مصانع أخرى « تكميلية » ـ صفائح القصدير ، وأسلاك شائكة ، ومسامير ، وما اليها ٠ ومعنى هذا بعبارة أخرى أن شركة كارينجي تستعد لصنع الادوات التى كانت تقتصر فيما مضى على انتاج الصلب الخام اللازم لصنعها ، فتسعيد بذلك السوق التى أخذت تفلت من يدها ٠ لقد كانت الاستعدادات قائمة لبناء مدينة صلب ضخمة لا تختلف عن المدينة التى بنيت فيما بعد فى جارى بانديانا » (× ×) ٠

وبعثت هذه الاستعدادات التى قام بها كارينجي الاحترام فى نفوس الذين قد يفكرون فى محاربته ٠ وكان مورجان يريد تنظيم صناعة الصلب ، ولابد له لتحقيق هذا الغرض من أن يشترى مصانع كارينجي ، وكان كارينجي يريد البيع ولكن بشروط تبين بوضوح متانة مركزه ٠ وقام الرجلان بجس النبض فى حذر عن طريق وسطاء ٠ وأخيرا حصل سكواب ، شريك كارينجي الاصغر من مورجان على عرض هذا نصه : « اذا كان آندى يريد البيع فسأشترى

(×) هندريك « حياة أندرو كارينجي » ص ٤٧٧ ٠
(× ×) المرجع السابق ـ ص ٤٨١ ٠

اذهب اليه اعرف سعره ، وذهب سكواب الى كارينجي الذي أخذ ورقة وكتب عليها ٤٠٠،٠٠٠،٠٠٠ دولار . وقال : « هذا هو السعر الذي أبيع به » . وأخذت الورقة لمورجان الذي قبل السعر فورا . وتقابلا بعد ذلك لأول مرة .

« ودق جرس تليفون كارينجي في يوم من الايام بعد عدة أسابيع من انتهاء المفاوضات ، وسأله المتحدث : هل يسمح بالذهاب الى ملتقى وول ستريت وبرود ستريت لمحادثة قصيرة ؟ ولما كان كارينجي أكبر سنا من مورجان فقد بدت هذه الدعوة غير مناسبة ، ومن ثم أجاب : « يا مستر مورجان ان المسافة من وول ستريت الى الشارع الحادي والخمسين هي نفس المسافة من الشارع الحادي والخمسين الى وول ستريت . يسرني أن أراك هناك في أي وقت » . وبعد فترة قصيرة كان مورجان في منزل كارينجي . كانت المحادثة التي تمت بينهما لطيفة ومرضية . وأشرف مستر جيمس برترام سكرتير كارينجي على توقيت الزيارة . وعندما حان موعد نهايتها أخرج ساعة من جيبه . وخرج مورجان من منزل كارينجي بعد خمس عشرة دقيقة بالضبط . الا ما اقصر الذي تطلبته مناقشة موضوع يتعلق بـ ٤٠٠،٠٠٠،٠٠٠ دولار من رجلين عظيمين .. !

وكان الفراق لطيفا . فقد شد مورجان على يد كارينجي عند الباب وقال :

« مستر كارينجي ، انى أريد أن أهنئك أنت أغنى رجل في العالم (×) .

وانضمت مؤسسة كارينجي ، مع كثير غيرها ، الى منظمة مورجان العملاقة « اتحاد الصلب في الولايات المتحدة » التي تكونت سنة ١٩٠١ ، وكانت تعرف لدى الجمهور باسم « اتحاد البليون دولار » غير أن رأسمالها في الواقع كان أكبر من ذلك : ١،٣٠٠،٠٠٠،٠٠٠ دولار . ولم تكن هذه المنظمة تحتكر صناعة الصلب ، بل انها حرصت على ارضاء الرأى العام ، ولذلك أعلنت أنها لا تنشد احتكار هذه الصناعة . وكانت وقت انشائها تسيطر على ٥٠،١ في المائة من مجموع الانتاج (× ×) . وكانت المنظمة من صنع مورجان ، فهو الذي اختار لها المديرون وعين لها القاضي جاري رئيسا . ولم يكن للمضاربات المالية شأن ما في أعمال كارينجي في عهده ، ولكن المضاربات كانت تعني الفرق بين النجاح والفشل في « اتحاد الصلب في الولايات المتحدة » . ولم تعد العمليات الفنية في الصناعة هي التي تسترعي الانتباه . لقد حدث مصادفة أن أنتج الصلب ، وما كانت الامور لتتغير لو أن الانتاج كان أى شيء آخر . لقد بدأت مرحلة أكثر تجردا في تنظيم النشاط الاقتصادى . فان الجانب المالي لا يختلف وجوهره باختلاف المشروعات ، وقد احتل هذا الجانب مركز الصدارة احتلالا متزايدا بعملية تطور طبيعي . ولم يكن في الاستطاعة عن طريق

(×) المرجع السابق - ٤٩٦ .
(× ×) ايدا تاربل « حياة البرت جاري » ص ١٣١ .

« العمليات المالية » نوع واحد من المشروعات مثل الصلب أو البترول فحسب بل أصبح مستطاعا أيضا تكتيل جميع الصناعات الكبيرة المتقدمة . وكانت هذه هى الخطوة التالية فى نمو الرأسمالية .

ح ــ المــال

ليست قوة السوق المالية شيئا جديدا ، الا أنها زادت مع كل مرحلة من مراحل نمو الفن الرأسمالى . ولم تكن قوة المال ، كما رأينا ذات شأن كبير فى نجاح أقطاب مثل ركفلر وكارينجى ، ولكن مرحلة جديدة بدأت بتقاعد كارينجى وكانت الشخصية المسيطرة فى هذه المرحلة هى شخصية ج. بييربون مورجان الكبير . كان أبوه ج.س مورجان رجلا نابها فى انجلترا يعمل وسيطا بين المشروعات الامريكية والمستثمرين البريطانيين .. كانت صلة بييربون مورجان بأوروبا ، عن طريق أبيه ، أوثق مما أتيح منها لأى من سابقيه فى المشروعات الامريكية الكبرى . وكانت أوروبا ، وخاصة انجلترا ، حتى الحرب العظمى ، تستثمر مبالغ طائلة فى السكك الحديدية الامريكية ، ولكنها بصفة عامة لم تكن تحصل على عائد مجز . ويظهر حملة الاسهم البريطانيون بصفة دورية طوال المعارك التى قامت بين درو وجولد وفاندربلت من أجل سكة حديد ايرى ، ولكنهم كانوا عاجزين عن الحيلولة دون وقوع ما يجعل استثماراتهم عديمة القيمة . كان ما ينطبق عليهم ينطبق أيضا على صغار المساهمين فى الولايات المتحدة . فلم يكن فى وسعهم شىء سوى ان يقفوا مكتوفى الايدى يشاهدون مدخراتهم تذوب فى معركة العمالقة .

وكان بييربون مورجان ، أول من استخدم قوة مصالح صغار المستثمرين ودافع عنها ، رجلا مختلفا كل الاختلاف عن أمير البحر أو ركفلر أو كارينجى فهو على نقيضهم مولود فى القصور ، وكان من أنصار مذهب الشيخوخة ، وينحدر من أسرة قديمة فى نيو انجلاند . وكان منذ صباه ذا خبرة واسعة بالشئون المالية والحكومية فى أوروبا وكان نصيرا للفن تبدو عليه مسحة من أبهة أباطرة الرومان ، يجمع الصور والقصور والنساء بعد أخذ رأى الخبراء (على الأقل فى الاولى منها) بأقل من قيمة التكلفة . وكان يذهب الى اجتماعات الكنيسة حتى فى أكثر أوقاته انهماكا فى العمل . كما كان يقضى أوقات فراغه فى الكنائس الخالية ويرتل الترانيم منفردا . وكان يحتقر كارينجى ويراه شخصا عاميا وضايقه أن سمع « المحدث » الوقح يتحدث عنه باسم بييربون . وكان يكره ركفلر ويراه معمدانيا متعجرفا . وقد قال له جارى مرة أثناء انشاء موثقة الصلب « يجب أن نحصل على حديد ركفلر الخام » . فأجابه مورجان : « وكيف السبيل الى ذلك ؟ » . فرد جارى « يجب أن تذهب الى ركفلر وتحادثه » . فكان الجواب « مستحيل ، أنا لا أحب هذا الرجل » . ومع ذلك فقد ذهب اليه صبيحة اليوم التالى واشترى الحديد الخام فى آخر الامر بعد

أن دفع فيه خمسة ملايين دولار وأكثر من السعر الخارجي الذى كان جارى يعتقد أنه ما يجب دفعه (×) .

وتكاد المرحلة الاولى من نشاط مورجان تكون محصورة فى السكك الحديدية ، ولم يكن ذلك فى محاولات لانتزاع السيطرة من رجال آخرين أقوياء ، بل كان همه منصرفا الى تجنب المنافسة العنيفة القاتلة . وكان سبب شهرته الأولى سنة ١٨٦٩ عن طريق تنظيم الدفاع عن سكة ألبانى وسسكهانا الحديدية ضد جولد وفيسك اللذين كانا يحاولان الاستيلاء عليها لصالح شركة سكة ايرى الحديدية . وهذه القصة مليئة بالحوادث تصور ما كان هذان السيدان يتبعانه من وسائل وما كان يمكن أن يدخلاه فى تاريخ العمليات المالية المفعم بالأقذار . فقد حاولا الهجوم على اجتماع لحملة الاسهم بعصابة من الغوغاء المشاغبين جمعاها من أحقر أحياء نيويورك مع كل منهم عصا غليظة ، الا أن مورجان ورامس ، رئيس السكة الحديدية ، كانا قد استعدا لهما بعصابة من عمال القطارات . وقذف رامس فيسك من أعلى الدرج الى أسفله حيث «قبض» عليه أحد رجال الشرطة » واختفى بعد ذلك . وحدث بعدئذ ان اصطدم قطار من قطارات ايرى وآخر من قطارات ألبانى وسسكويهانا ، كلاهما مملوء بمقاتلين أشداء ، عند مدخل نفق لأن كلا من القطارين رفض أن يفسح طريقا للآخر . وقفز الرجال من القطارين وتقاتلوا حتى حضر حرس الولاية الوطنى وأعاد النظام . وكان هناك فى نفس الوقت جيش الفضاء المألوف كل منهم يصدر أحكاما متناقضة يفرضها على جميع الاطراف . وهزم جولد وفيسك فى آخر الأمر . وأثبت مورجان أنه رجل نافع فى جانب المعاملات المالية المحترمة

وفى سنة ١٨٧٧ بعد وفاة كومودر فاندربلت ، رأى ابنه أنه أمام مجلس تشريعي فى الولاية أقل استجابة لرغائبه مما كان فى عهد تويد ، فقرر أن من الحكمة أن يتخلص من جزء كبير من حصته فى النيويورك سنترال التى كانت تبلغ ٨٧ ٪ من رأسمالها . واستشار مورجان فى طريقة تنفيذ ذلك العزم دون خسارة . وتعهد مورجان بأن يشترى الأسهم بسعرها فى السوق ويوزعها فى انجلترا بشرطين : أن يعين مديرا وأن يضمن لمشترى الاسهم عائدا قدره ٨ ٪ مدة الخمس السنوات التالية . وقبل فاندربلت هذه الشروط وتم بيع الاسهم فى انجلترا بنجاح ، وأناب المساهمون الانجليز مورجان عنهم فى اجتماعات الشركة . وبهذه الطريق اكتسب دون أن يستثمر هو شخصيا مبلغا كبيرا ، نفوذا فى السكك الحديدية باعتباره المدافع عن مستثمرين حقيقيين ، ولم يكن هذا منه عملا خيريا خالصا ، لان أرباحه الشخصية بلغت ثلاثة ملايين دولار .

وكان مورجان يدرك أن المنافسة بين أقطاب السكك الحديدية ، متلفة

(×) تاربل « حياة البرت جارى » ص ١٨ - ١٩ .

وتؤدى الى الخراب، وفى سنة ١٨٨٥ كانت شركتا النيويورك سنترال وخطوط بنسلفانيا - أو بالاحرى كان وليام هـ · فاندربلت وجورج هـ روبرتس مدير بنسلفانيا - على وشك الاشتباك فى حرب طاحنة احداهما مع الاخرى · وكان خط بنسلفانيا الجنوبية يعمل لصالح فاندربلت ضد روبرتس، بينما كان خط الساحل الغربى يعمل ما فى وسعه للاضرار بالنيويورك سنترال بتأييد من روبرتس ، فأخذ مورجان الرجلين معه فى رحلة على ظهر يخته وظل يقنعهما حتى اتفقا على أن يأخذ روبرتس خط بنسلفانيا الجنوبية ويأخذ فاندربلت خط الساحل الغربى حتى يتخلص كل منهما من المنافسة · وكان روبرتس عسير الاقناع ، ولكن مورجان أسدى له خدمة بعد ذلك بعامين ، فقد استعمل نفوذه فى الحيلولة دون دخول خط بلتيمور وأوهيو فى نيويورك ·

وفى سنة ١٨٨٩ كون مورجان « اتحاد السكك الحديدية بين الولايات » من ثمانية عشر رئيسا من رؤساء شركات السكك الحديدية وممثلين للمصارف الرئيسية التى تهتم باصدار الأسهم الجديدة · وكان هدفه هنا أيضا هو منع المنافسة وحماية المستثمر الحقيقى الذى كانت مصالحه تهم مورجان بسبب صلاته بأوروبا · وبعد أن قدم لكل هؤلاء الاقطاب عشاء ممتازا افتتح المشروع بخطاب قصير جدا :

« أن الغرض من هذا الاجتماع هو منع الحاضرين من أن يتولوا تنفيذ القانون بأنفسهم عندما يعتقدون أن حقوقهم قد اعتدى عليها ، كما جرت العادة كثيرا من قبل ، ان هذا أمر غير مألوف فى أى مكان آخر فى المجتمعات المتمدينة ، ولا يوجد سبب وجيه يدعون لأن تستمر هذه الطريقة بين السكك الحديدية (×) ·

وكان قوة المال هي التى امكنته من أن يتحدث بهذه اللهجة الى مجموعة من الرجال الاقوياء الذين لا يميلون لان يملى عليهم أحد شيئا بأى حال من الاحوال وقد احتج أحدهم وهو ماك لويد قائلا :

« انك لا تستطيع أن تملى على رأيك · انى أفضل أن أبيع فى (كشك جرائد) على أن أتلقى أوامر من أى مالى » ·· ولم يمض وقت طويل حتى أصبح فى عداد الفقراء ، ولكن أحدا لا يعلم هل لجأ الى البيع فى « كشك جرائد » أو لم يلجأ اليه ·

وكانت قوة مورجان تعتمد على عملية أطلق عليها اسم «موثقة الاقتراع» · وتفصيل ذلك انه عندما كانت شركة من شركات السكك الحديدية تتعرض لازمة كانت تلجأ اليه ليعاونها فى اعادة تنظيم أمورها ، وكان ينجح فى الحصول على هذه التوكيلات لأن التجربة دلت على أنه يستطيع النهوض حتى

(×) جو كندى وينكلر « حياة ج بييرون مورجان » ص ٦-١٢٧ ·

بأسوأ الخطوط الحديدية حالا بحيث تجنى منها أرباح . وزاد الذعر المالى الذى حدث فى سنة ١٨٩٣ من فرصه ، وفى سنة ١٨٩٨ كان يسيطر على سدس السكك الحديدية فى الولايات المتحدة كلها برأسمال قدره ١٫٥٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠ دولار . ولم تكن قوته مستمدة من مال يملكه فعلا ، بل كانت أشبه بالقوة السياسية ، لأنه كان الممثل المختار لاصوات مبعثرة لحملة اسهم لا عداد لهم

وشرع عندئذ فى الاتجاه الى ميادين أوسع . ففى سنة ١٨٩٥ «أنقذ البلاد» باتفاق مع الرئيس كليفلاند فى وقت كانت الخزينة فيه خاوية بسبب نضوب معين الذهب . فقد أخذ على عاتقه أن يجمع خمسة وستين مليونا من الدولارات ذهبا نصفها من أوروبا وأن يستعمل كل نفوذه المالى فى الاحتفاظ بهـا فى الولايات المتحدة . وأصبح « انقاذ البلاد » عادة لديه ، فقد قام بهذه العملية مرة أخرى سنة ١٩٠٧ . الا أنه ، وقد مات سنة ١٩١٣ ، فاتته فرصة «انقاذ العالم كله » ، وهى المهمة التى تركها لابنه خلال الحرب العظمى .

وكان « اتحاد الصلب فى الولايات المتحدة » الذى تكون سنة ١٩٠١ أضخم عمليات مورجان من الناحية المالية . وكان سبب تكوينها أن معارضته للمنافسة كانت تعمل منذ زمن طويل على آثارة شعور العداء لدى الرأى العام ، كما أن جهوده فى انشاء أضخم الموثقات كانت تزيد أعداء « المشروعات الـكبرى » انزعاجا . وحدث فى ذلك الوقت بالذات أن أغتيل الرئيس المحافظ ماكينلى وأصبح روزفلت بسياسته التحررية رئيسا . وبدأ ، يؤيده المواطنون العاديون بحماسة شديدة ، باتخاذ الاجراءات ضد عدة اتحادات عملا بقانون شرمان المناهض للموثقات . وكانت أولى ضحاياه شركة الائتمان الشمالية التى أسسها مورجان وهيل للسيطرة على سكك الشمال الغـربى الحديدية . واستشاط مورجان غضبا فذهب الى واشنجتن وسلق الرئيس بلسان حاله . وكان مورجان قويا فى غضبه : فاذا تطاير الشرر من عينيه تهاوى أمامه الرجال . ولكن روزفلت كان ندا له فى قوة الشخصية ، وافترقا فى ثورة الغضب . وقال مورجان « ان هذا الرجل مجنون ، انه ألعن من الاشتراكيين» وقال روزفلت « أن مستر مورجان لا يسعه الا أن ينظر آلى على أننى منافس كبير له ينوى أن يقضى على كل مصلحة ان يمكن اقناعه بالاتفاق على عـدم المساس بأى من هذه المصالح » . ورد مورجان قائلا « أنى على استعداد حتى للتصويت الى جانب الديمقراطية كى أخرج هذا الرجـل من البيت الابيض »

وكانت المحكمة العليا قد أصدرت قبل ذلك حكما فى قضية نايت ، لو أنه اتخذ سابقة لكان فيه حماية لشركة الائتمان الشمالية . ولكن المحكمة العليا ليست فوق التراجع أمام الضغط ، واستعمـل الضغط . وقال روزفلت : « لقد كان من الضرورى نقض الحكم الذى صدر فى قضيـة نايت لصالح

الشعب ضد الاحتكار والامتيازات ، كما كان من الضرورى قبل ذلك نقض الحكم فى قضية درد سكوت لصالح الشعب ضد الرق والامتيازات » . وقررت المحكمة العليا بأغلبية خمسة ضد أربعة حل شركة الائتمان الشمالية . ومما هو جدير بالذكر أن القاضى هولمز،أكثر أعضاء المحكمة العليا راديكالية،صوت ضـــد الحكومة .

ونجت موثقة الصلب من الحل بمقتضى القانون .ذلك أنمورجان كانحكيما فاختار لها رئيسا هو البرت ، جراى ، وهو محام تقى من شيعة النظاميين ، راعته تصرفات الرجال الكبار الذين أصبح على صلة بهم ، وعقد جراى أواصر الصداقة مع روزفلت رغم معارضة زملائه المديرين الشديدة ، وكان يتردد كثيرا على واشنجتن ليشيد بعمل روزفلت فى سبيل الصالح العام . وعندما أرادت الموثقة أن تشترى شركة ينسى للفحم والحديد والسكك الحديدية حصل على موافقة روزفلت مقدما . وقال عنها انها ليست مثل بقية الموثقات ، مما دعا مارك تونين أن يقول له عندما قابله أول مرة « أوه .. انى أعرفك . أنت الموثقة الطيبة » . وهكذا حصل مورجان على جائزته وتركت موثقة الصلب دون أن تمس بسوء . غير أن تافت ، بعد أن ظل فى الرياسة مدةتكفىللدخول فى نزاع مع سلفه ، قرر أن يظهر استقلاله بأن يعكس سياسة الحكومة ،وعلى الرغم من انه كان أكثر ودا نحو المشروعات الكبيرة من روزفلت ، فانه رفع قضية ضد « اتحاد الصلب فى الولايات المتحدة » فى أكتوبر سنة ١٩١١ . وفى ابريل سنة ١٩١٥ أصدرت محكمة الولايات المتحدة الاستئنافية قرارها ضدالحكومة ، وبذلك انتقلت القضية الى المحكمة العليا . وانقسمت المحكمة على نفسها بالتساوى فى مارس سنة ١٩١٧ وحكم باعادة مناقشة القضية . غير أن دخول أمريكا الحرب ، التى كان فيها لموثقة الصلب فيها شأن كبير، كان سببا فى التأجيل . وفى سنة ١٩١٩ أصدرت المحكمة العليا فى النهاية قرارها فى صالح الموثقة ، وهكذا انتصرت فضيلة جارى .

لقد كان تشعب قوة مورجان لا نهاية له . فقد كان يسيطر على شركـــة آرمور فى شيكاجو . وعن طريقها كان يتحكم فى حياة تجـــارة الماشية فى الارجنتين . وكان اتحاد النقل البحرى الذى كونه يضم معظم السفن التى تعمل فى الاطلنطى . واستقبله ادوارد الثالث وقيصر المانيا والبابا كمالوكان زائرا ملكيا . ونشرت مجلةلايف موعظة هزلية : « من الذى خلق العالم ياشارل؟ الاجابه : صنع الله العالم بسنة ٤٠٠٤ قبل الميلاد ولكن جيمس .هيل وج . بييربون مورجان وجون د. ركفلر أعادوا تنظيمه فى سنة ١٩٠١ » .

ولم يكن بمورجان على الرغم من قوته الهائلة أغنى رجل فى عصره بحال من الاحوال . فقد توفى عن ثمانية وستين مليونا من الدولارات . ولم يحكمعالم

المال عن طريق ما كان يملكه هو بقدر ما كان يحكمه عن طريق قدرته على بث الثقة فى نفوس غيره • لقد كان الائتمان ممثلا فى شخصه • ولقد قام فى أول الأمر بتنظيم قوة المال فى أمريكا وأجزاء كبيرة من أوروبا حتى يهيىء جوا من العمل المنسق لصالح رأس المال • وحاول روزفلت والمصلحين ، مقتفين أثر تقاليد جفرسن-جاكسن ، أن يعيدوا الفوضى القديمة عن طريق القانون الا أن نجاحهم واخفاقهم فى قضاياهم الضخمة التى بدأت فى جيل وانتهت فى الجيل التالى قلما كان يهم ملوك المال • وكان هؤلاء الرجال يقومون بعمل نافع ضرورى فى قتالهم ضد الفوضى : فقد كانوا يقللون من «الاتلاف»، وكانوا بثرواتهم الطائلة يثبتون بالدليل الواضح ما تستطيع القدرة الانتاجية للعمل الحديث تحقيقه • وقد كانوا على صواب فى كل ما يتعلق بالانتاج ضد ما ذهب اليه دعاة المنافسة • نعم انهم لم يستطيعوا حل مشكلة التوزيع ، الا أن هذه المشكلة كانت تحير خصومهم أيضا • كما لم يستطيعوا أن يقتربوا قط من المساواة : فقد جمع كارينجى ملايينه الاربعمائة عن طريق المنافسة •

لقد بدأت الولايات المتحدة بتراض غير يسير بين هاملتن وجفرسن • ثم دفعت العناصر الجفرسونية بالتدريج نحو الغرب • بينما حكمت العناصر الهلتونية الشرق • وكان للغرب نفوذ كبير طالما كان يعمل فى توافق مع الجنوب غير أنه بعد الحرب الاهلية لم يعد لأعضاء حزب الأمة المزارعين السرية وأتباع برايان رغم حيويتهم وحماستهم • وصارت الولايات المتحدة كلها فى النهاية، فيما يتعلق بحاجتها الاقتصادية ، وحدة منظمة يحكمها عدد صغير من الاغنياء لا مثيل لهم فى الماضى لمصلحتهم الخاصة • ان التنظيم من حيث هو تنظيم كانت له قيمته ، ولكن العيب كان فى الغرض منه • فهو لم يكن يهدف الا الى جعل بعض الرجال الأغنياء أكثر غنى • وقد كان ملوك المال على حق فى رغبتهم فى القضاء على المنافسة ، كما كان خصومهم أيضا على حق فى المطالبة بمراعاة مصالح المواطنين العاديين • ولم يكن الحل ليوجد فى حكم مطلق بصورة أوسع لجماعة الاغنياء ولا فى العودة الى الفوضى الاقتصادية ، ولكن فى الملكية العامة والسيطرة على الاداة التى خلقها سادة المال •

وتحقيق ذلك يتطلب فلسفة شعبية جديدة ، وأداة حكومية جديدة ، ونوعا جديدا من الادراك الديمقراطى • وتبذل الآن محاولة لخلق هذه كلها فى أمريكا فى هذه اللحظة •

* * *

١ ـ مبـدأ القومية

القسم الرابع
القومية والامبرياليــة

الفصل الثامن والعشرون
مبدأ القوميــة

ا ـ النزعة التحررية فى اوروبا

كان فى العالم ثلاثة أنواع مختلفة من التقدميين فى الفترة الواقعة بين سنة ١٨١٥ وسنة ١٨٤٨ : الزراعيون الديمقراطيون فى أمريكا ، والراديكاليون الفلسفيون ، والاحرار • وكانت العلاقات بين الفئتين الاخيرتين فى القارة معقدة بعض الشىء • ذلك أنه لما كان الفريقان من التقدميين فقد أحسا بأنه يجب أن يقوم بينهما تعاون ، غير أن وجهتى نظرهما كانتا مختلفتين الى حد جعل التعاون بينهما عسيرا منذ البداية ، ومستحيلا فى النهاية •

فقد كان الراديكاليون الفلسفيون ، الذين استمدوا معظم آرائهم من فرنسا كما كانت فى القرن الثامن عشر ، يعتقدون أن كل النـــاس متشابهون من الناحية الخلقية ، ويعزون كل ما هنالك من فروق بين الكبار الى التربيـــة والبيئة • أما فيما يتعلق بالدين فكانوا من المتشككين ، وفى الاخلاق كانوا يرون أن السعادة هى الحد النهائى الوحيد • وأن المصلحة الذاتية هى الدافع الاساسى للنشاط ، وأن العقل أداة تمييز المصلحة الذاتية وأن الحكم هو فن التوفيق بين المصالح المختلفة للافراد • وكانوا عالميين وعقليين كما كانوا أكثر ميلا الى الديمقراطية وكان الرخاء ونشر المعرفة فى نظرهم الهدفين السليمين للحكم ، وكان الاقتصاد أهم ما يشغلهم فى الشئون العملية •

وسيطر الراديكاليون الفلسفيون على انجلترا عن طريق كبدن ، وكان لهم عن طريق انجلترا نفوذ كبير فى القارة مدة من الزمان •

الا أن نظرياتهم أتخذت صورتين منذ أيام أون ، احداهما لصاحب العمــل والاخرى للاجير ، ولقد ظلت كل مبادئهم التى تميزوا بها كلها تقريبا حية فى الماركسية : الاعتقاد بأن الناس خلقوا متماثلين ، والايمان بالعقـــل ، والعمالية ، والالتجاء الى المصلحة الذاتية ، والاهتمام بالرخاء المادى • وكانت تعاليمهم هى مصدر الاشتراكية الدوليـــة ، كما كانت هى بعينهـــا مصـــدر الرأسمالية الدولية ، وقد ثبت على مر الايام أن الصــــورة الاشتـــراكية

للراديكالية الفلسفية أكثر صور هذه الفلسفة دواما • فقد مضى عهد كيدن ولكن عهد لينيين ظل باقيا •

وكان الاحرار فى الفترة التى أعقبت سقوط نابليون يختلفون كل الاختلاف عن اتباع بنتام • وحقيقة انهم أيضا كانوا مرتبطين بفرنسا كما كانت فى القرن الثامن عشر، ولكن كانوا مرتبطين فيها بروسو لا بالموسوعيين الاقتصاديين الطبيعيين (الفيزيوقراطيين) فقد كانوا أهل وجدان أكثر منهم أهل تفكير : يتطلعون الى العاطفة لازالة ما يعانيه الضعفاء والمضطهدون• وكانت تسيطر عليهم بعض الالفاظ البليغة العتيقة ، كالطغاة والعبيد والحرية • ويبدوا أنهم لم يسمعوا أبدا هذه الالفاظ دون أن تثير فيهم الانفعال المناسب لها• والحقيقة أن المرء لا يستطيع دائما أن يتأكد من هو الطاغية ومن ليس طاغية ، ففى انجلترا كان هذا الوصف ينطبق على نابليون « جاء طاغية ، وقاتلته فرصة قدسية » كما يقول ودزوورت فى خطابه للحرية• أما فى ايطاليا فقد انعكست الآية فكان نابليون محررا كما يبدو من أغنية مانزونى المعروفة للموت • وفى ألمانيا كان الاحرار منقسمين فى الرأى • فكتب هاين كتابه ليمجد نابليون ، بينما كان الوطنيون فى سنة ١٨١٣ يكرهونه ، وحافظ جوته على حيـــاد كحياد أرباب الاولمب يليق بحكيم مثله •

وكان الاحرار فى البلاد الكوثوليكية مناهضين للكنيسة • وكانوا فى كل مكان من أنصار التسامح الدينى الذى لم يكن له حتى ذلك الوقت وجود فى أنحاء كثيرة من القارة • واعتقد الكثيرون أن الله يتجلى مباشرة للقلب ، خاصة عندما يكون قلب فلاح غير متعلم وأن الدين حماقة ابتكرها القساوسة لاستبعاد الروح البشرية ، وأدى بهم ذلك الى ضرب من التدين الغامض غير الحزبى مثل دين روسو • وكان آخرون من المؤمنين بوحدة الوجود وخاصة أولئك الذين كانوا متصلين بالماسونية الحرة التى بدأت اتجاهها التحررى قبـــل الثورة الفرنسية •

وكان المتحرر النموذجى فى القارة من أنصار المبدأ الجمهورى وكفاهم لذلك سببا أن أثينا وروما أيام مجدهما كانتا جمهوريتين ان لم يكن هناك سبب آخر • غير أن كثيرا من الأحرار كانوا على استعداد لقبول ملوك على شرط أن يمنحوا شعوبهم دساتير ، ويحرروا رقيق الارض ، ويطلقوا حـــرية الدين والصحافة • وكان بعضهم معارضا للارستقراطية ، ولكن كثيرين منهم لم يكونوا من هذا الرأى ، وكانوا يعتقدون ـ كما يعتقد تاسيوس ـ أن روما كانت تتمتع بالحرية فى ظل حكم أقلية مجلس الشيوخ ، ولكنها فقدتها فى حـــكم الاباطرة الشخصى • وأجمعوا كلهم ، بتأثير روسو ؛ على أن الثراء ذو أثر مفسد ، وآمنوا بفضائل الفقر البسيطة •

وخير ما يمكن أن تحدد به وجهة نظر الاحرار من ناحية السياسة العملية

هو ما يحبون وما يكرهون : لقد كانوا يكرهون « الحلف المقدس » ويعتبرون مترنيخ خلاصة الشر المجسم · وكانوا يحبون فرنسا بسبب ثورتها وتفكير فلاسفتها الحر · وكانوا يكرهون آل بوربون وفرنسا وأسبانيا ونابلى ويرون أنهم رمز انتصار الرجعية · وكرهوا الاتراك لانهم يضطهدون اليونانيين،ومن ثم لم يكرهوا القيصر حتى سنة ١٨٤٨ · ولعنوا ذكرى كاسلرى وبت،ولكنهم كانوا يعجبون بكاننج إعجابا لعله فوق ما يستحق ·

وكانوا فوق كل شيء يعبدون بيرون ··

وكان الاعجاب ببيرون فى القارة شيئا يفهم معاصروه أسبابه،وكان الراديكاليون الانجليز يفضلون عليه شلى وكانت قصائده الثورية تلقى فى اجتمـــاعات العرائضيين ويقرأها العمال من أتباع أون · ولكن بيرون كان يعد فى خارج بلاده أعظم شعراء عصره مع جواز استثناء شاعر واحد هو جوته · فقد كان كل شيء حول بيرون يناسب المزاج الوجدانى الابداعى · فقد كان لوردا ومع ذلك كان طريدا منبوذا ، وكان رجلا غنيا ومع ذلك كان يدافع عن المظلومين، وكان فى الظاهر ساخرا عديم المبالاة ولكنه يخفى (فى غير نجاح) قلبا يدمى أسى لمصائب الناس · وكانت اليونان أكثر قضايا العصر اجتـــذابا لأخيلة الجماهير ، ومات بيرون من أجل اليونان ·· وقد مجد « سجين شيون » الذى أضطهد من أجل المبدأ الجمهورى فى القرن السادس عشر · كمـــا كتب عن واشنجتن عدو انجلترا الناجح ، يقول :

ترى أين تقع العين المتعبة
حين تحدق فى العظيم
حيث لا يتوهج المجد الاثيم
ولا يتلألأ ذو المقام الكبير ؟
انها تقع على واحد — هو الاول — والآخر — وخير الناس جميعا ·
هو مستأنس الغرب
الذى لم يجرؤ حاسدوه على أن يكرهوه
وخلف وراءه اسم واشنجتن
كى يستحى الناس حين يدركون أن ليس بينهم
الا واشنجتن واحد ·

وكان أسلوب العصر أن يكون المرء متعبا تحز فى قلبه أحزان خفية ، وأن يحتقر العالم وينشر الحرية فى العزلة · وكان قراصنة بيرون وزنادقته يناسبون المزاج الارستقراطى المتمرد · وقد وضع هو القاعدة التى يبرر بها من يحبون الانسان ويكرهون الرجال فرادى موقفهم هذا · ولم يغفر مانزينى للانجليز

اهمالهم بيرون وأبى أن يصدق أنه عامل زوجته معاملة سيئة .وكان بسمارك فى صباه مداوما على قراءته » وكان يذهب أحيـــانا لصيد البط فى زورق وزجاجة خمر قريبة من يده دائما ، ويقرأ بيرون بين الفنية والفنية » وعندما عقد خطبته وأرسل الى خطيبته نسخا من أشعار بيرون ، ولكنه كتب عليها : « كلها هراء » ولعله كان يفعل ذلك خشية أن يصدم ورعها . بل إنه فكر فى أن يقوم برحلته حول العالم على نمط ما فعله تشايلد هارولد .

وكان لقصائد بيرون أثر كبير فى اذاعة مبدأ القومية ، وعندما كتب عن جزائر اليونان حيث عاشت سافو وغنت وهى تحترق « كان يوصى » ولعله كان يعتقد أنه اذا طرد الاتراك فان سافو جديدة ستعيش وتغنى . وبينما كان مترنيخ يحاول اقناع الاسكندر بأن يطيل عبودية الشعب اليونانى كان بيرون يكتب قصيدته الرائعة عن اليونان التى يقول فيها :

الى روح الحرية : إنك حين جلست على جبهة فيلى
فى صحبة شرازيبولوس واتباعه
هل كان فى وسعك أن تنذرى الناس بالساعة المخربة
التى تغشى الآن جمال سهل أتيكا ؟
ليس الذين يكبلونك بالاغلال الآن ثلاثين طاغية
بل أن كل سوقى حقير يفرض سلطانه على أرضك
وأبناؤك لا يستطيعون النهوض . بل يتحدون عبثا
وهم فى دورهم قالبون ، يرتجفون من وقع سياط الاتراك
مستعبدون من يوم يولدون حتى يواروا الثرى
وقصارى القول فى الحق قد فقدوا رجولتهم
ألا ما أشد ما تغيرت فى كل شىء الا فى شكلك ، منذا الذى
ليعبر اللهب الذى لا يزال يتوهج فى كل عين
نشم لا يحكم بأن قلوبهم قد أخذت تشتعل من جديد
بأشعة الحرية الضائعة التى لم يطفأ لظاها
وما أكثر من يحملون مع ذلك بأن الساعة آتية عما قريب
وأنها سوف ترد اليهم تراث آبائهم
أنهم يتطلعون فى شوق الى أسلحة الاجانب ومعونتهم .
لا انهم لا يجرءون وحدهم على أن يلاقوا غضب أعدائهم
ويمحوا اسمهم الذى لوثته صفحة الاستعباد المحزنة

ألا أيها المستعبدون أبا عن جد ألا تعلمون
أن من ينشدون الحرية يجب أن يقاتلوا فى سبيلها ؟
وأنهم يجب أن ينالوا النصر بسواعدهم اليمنى ؟
أو هل تظنون أن الفرنسيين أو المسكوف سيردون عنكم الظلم ؟ لا
نعم انهم آن يلقون بناهيكم فى الرغام
ولكن مشاعل الحرية لن تضاء لكم
يا أبناء سوقة اسبارطة انتصروا على أعدائكم
ويابلاد اليونان ، بدلى سادتك ، فلا تزالين كما كنت
وقد انقضت أيام مجدك ، ولكن سنى عارك لم تنقض بعد .

وكانت الحرية كما تبدو فىشعر بيرون وفى آمال الاحرار تختلف كل الاختلاف عنها عند الراديكاليين الفلاسفة . ولما كان بنتام وأتباعه منأصحاب مذهب النفعية فانهم لم يعتقدوا بوجود ما يسمى « حقوق الانسان » المطلقة، وان كانوا من الناحية العملية يعتقدون أن من الخير عادة أن يترك الانسان حرا يفعل ما يشاء فى حدود . وكانوا يقدرون حرية الرأى لانهم يعتقدون أنه اذا ترك كل انسان حرا فى عرض قضيته فان خير قضية ، ستسيطر لا محالة على الرأى العام . وكانوا يقدرون حرية التبادل التجارى لانها تزيد منتجات العمل وكانوا متميزين بصفة عامة ضد الحكومات لانها كانت مكونة من ارستقراطيين يحفظون هوارس عن ظهر قلب ولكنهم لا يعرفون شيئا عن التجارة . وكانت الحرية التى يريدونها هى حرية الفرد والقيام بنشاط اقتصادى من النوع الحديث الذى لم يذكر فرجيل وهوميروس عنه شيئا .

وكانتالحرية كما يدركها الاحرار شيئا أروع من حقمبادلة قطن مانشستر بالقمح البولندى ، أو تشويه منظر الوديان بالمناجم والمداخن . فقد كانت الحرية عند الاحرار حقا لا بد منه لكرامة الانسانية . وكانوا يذهبون مع البروتستانت الى انه يجب ألا يكون هناك وسيط بين الروح والله ، وأنه ما من سلطة خارجية تستطيع أن تعلم الانسان شيئا يتعلق بواجبه . فاذا كانهناك ايطالى يشعر بأن ولاءه يجب أن يكون لبلاده لا لحاكم قام عرضا ليحكم جزءا صغيرا منها ، فان من واجبه أن يتصرف تصرف الوطنى ولو أدى ذلك الى نبذ الحق الالهى لملك نابلى أو مطالب البابا الدينية المقدسة . وهكذا كانللامم كما للافراد حق فى أنتكون «حرة» ، أى ألا يحكمها أجانب أو قساوسة أو ملوك ذو سلطان مطلق . وكان الاعتقاد بأن الامم يجب أن تكونحرة من حيثالمبدأ أهم جزء فى مذهب الاحرار من الناحية العملية . فقد نما هذا المبدأ الىأنصار هو مبدأ القومية ، أو مذهب تقرير المصير ، الذى سيطر على شئون أوروبا عامة من سنة ١٨٤٨ الى سنة ١٩١٩ .

ومن الصعب أن نحدد بدقة معنى مبدأ القومية ، فهو بوجه التقريب المبدأ القائل بأن أية مجموعة جغرافية تريد أن تكون وحدة حكومية من حقها أن تكون دولة مستقلة قائمة بذاتها ، غير أن للمبدأ من الناحية العملية حدودا . ففى سنة ١٩١٧ عندما أعلن منزل واحد فى بتروجراد استنادا الى هذا المبدأ أنه أمة من حقها أن تكافح فى سبيل حريتها ، أحس الناس بأن الامر تجاوز الحدود المعقولة ، وحتى الرئيس السابق ولسون نفسه لم يشجع هذا الاتجاه أما ايرلندا فقد اعترف لها بحق الاستناد الى هذا المبدأ ضد انجلترا ، وكذلك كان للجزء الشمالى الشرقى من السنتر هذا الحق نفسه ضد بقية السبتر ،ولكن مقاطعتى فرماناه وبترون لم يسمح لهما بتطبيق هذا المبدأ فى صالحهما ضد بقية السنتر الشمالى الشرقى من اقليم السنتر . هكذا كان من قيود المبدأ الا يكون الاقليم الذى يتعلق به الامر صغيرا جدا . وقيد ثان هو الا يكونالاقليم فى آسيا وافريقيا ، وكان هذا واضحا لكل الناس حتى وقعت اليـــابان الهزيمة بروسيا . وكان ثمة قيد آخر ألا يكون الاقليم ذا أهمية دولية خاصة مثل قناة السويس وبناما (١)

ولم تكن هذه القيود واضحة للاحرار حتى سنة ١٨٧١ لان مفهوم الامـــة كان بالنسبة لهم شيئا يحوطه الغموض وله روح ، مثل أى فرد آدمى . وكان من رأيهم أن ارغام قوم على أن يعيشوا فى ظل حكومة ليست منهم كارغـام امرأة على أن تتزوج برجل تبغضه . ان عاطفة المرء نحو بيته وحبه لاسرته يقومان على أساس من الغريزة، وهما معايكونان أساس حب الوطن باعتباره عاطفة من العواطف ،وكان وجود هذه العاطفة هو الذى يضفى على مبدأالقومية ماهو شرعى فيه .

وللامة ، على خلاف الطبقة ، تعريف غير اقتصادى . فنستطيع أن نقول انها جماعة جغرافية تحس بالتضامن . فهى من الناحية النفسانية تشبـه فوجا من الحيتان أو قطيعا من الماشية أو سربا من الغربان . وقد يكون مصدر التضامن اتحادا فى اللغة ، أو فى أصل مفروض أنه مشترك ، أو ثقـــافة مشتركة . أو مصالح مشتركة وخط مشترك . ولعل هذه العنـــاصر عادة شأن كبير فى نشأة العاطفة القومية ، الا أن هذه العاطفة ، أيا كان مصدرها، هى العامل الوحيد الجوهرى فى وجود أمة . ويميل دعاة القومية الى التفكير فى الامة باعتبارها عنصرا بالمعنى البيولوجى بدرجة أكبر كثيرا ممـا تبرره الوقائع . فشكسبير يصف الانجليز بقوله : « هذه السلالة السعيـــدة من الرجال » ، وتبعه فى ذلك من جاء بعده من مواطنيه ، ولما كانت الامم تعتبر

---

(١) يريد الكاتب يقول ان هذاهو الاعتقاد السائد فى ذلك الوقت وان لم يكن هو الاعتقاد الصحيح أوالعادل (المترجم)

أجناسا فقد ساد الاعتقاد بأن الفروق التى بينها خلقية الى حد ما ، على الاقل، وهكذا أدى الامر بالاحرار الى توكيد الاختلافات بين الافراد والاجناس ، على نقيض الراديكاليين الفلسفيين ، وأن يعزوها الى عوامل أخرى غير التربية والبيئة . وشجعت الدورانية عندما ظهرت هذا الاتجاه كثيرا — لسنا نعنى الداروينية فى صورتها العلمية طبعا ، بل فى الصورة التى رأى السياسيون أنها تخدم أغراضهم .

وبدأت القومية فى صورتها الحديثة فى انجلترا أيام آل تيودور ، اذ أثارها هنرى الثامن فى الدين واليزابيث فى التجارة ، وأضفت عليها البروتستانية قداسة كما أضفت عليها هزيمة الارمادا مجدا ، وحققت لها التجارة عبر البحار ونهب السفن الاسبانية كسبا . وقد ضعف أثر هذه العوامل الثلاثة ، التى تعمل على توليد شعور قومى قوى ، بصفة مؤقتة ابان النزاع مع آل استيوارت، ثم عادت مرة أخرى بعد سنة ١٩٨٨ ، وأدت الى النصر بقيادة مارلبوره وبت الاكبر ونلسون . واستقر الانجليز بعد معركة ووترلو وقدرضوا عن أنفسهم معتقدين أنهم متفوقون على سائر الامم فى الفضيلة والذكاء والبسالة والمهارة التجارية . وفوق كل شىء اخر أحسوا ، كما يقول ملتن عن اليهود بأنهم يفهمون « القاعدة الراسخة للحكم المدنى » . وكانت أول صدمة لهذه الحالة من الرضا الذاتى هى نمو الصناعة الالمانية والامريكية فى أواخر القرن التاسع عشر ، ونشأ عن هذه الصدمه رد فعل يتمثل فى نزعة رديارد كبلنج وسيسيل دودس الاستعمارية الهستيرية .

وكانت القومية الانجليزية قومية حرة النزعة حتى الثورة الفرنسية لانها كانت تؤيد الحكم البرلمانى ضد الحكم الملكى المطلق القائم فى أسبانيا وفرنسا . وأدت معارضة انجلترا للاراء الثورية من سنة ١٧٩٢ حتى وفاة كاسلرى الى جعلها دولة رجعية ، ولكن سياستها الخارجية من عهد كاننج حتى سقوط جلادستون سنة ١٨٨٦ ظلت سياسة حرة باستثناء فترات قصيرة قليلة .

وتبدأ القومية الفرنسية بالدفاع عن الثورة ضد تحالف الملوك ، ويتمثل الشعور القومى ، وفى النشيد الوطنى « المارسييز » . وقادت فرنسا حركة التحرر فى أوروبا سنة ١٧٨٩ و ١٨٣٠ و ١٨٤٨ ، حتى فى سنة ١٨٧٠ بعد سقوط نابليون الثالث رأى رجال من أمثال غاريبالدى وباكونيه أن من الخير أن يتطوعوا للدفاع عن فرنسا وكانت الوطنية فى فرنسا تبدو دائما ، حتى لغير الفرنسيين ، شيئا ليس قوميا بحتا ، ولكنه جهاد مقدس فى سبيل انتصار آراء الثورة فى العالم ، وكان أكثر العناصر تحررا فى فرنسا أكثرها وطنية ، بينما كان ملوك آل استيوارت بعد أن عادوا الى العرش بعد الثورة الانجليزية أكثر الناس استعدادا للخضوع لامر الاجانب .

وتدين القومية الالمانية بنشأتها الى نابليون ، فقد بدأت بعد معركة جينا

ووجدت متنفسا عنيفا فى حرب التحرير سنة ١٨١٣ • وكان لها ، ككل القوميات ، مثلها الاعلى : فقد كانت تهدى آلى تخليص العالم من « الفساد الخلقى » الفرنسى واعادة المثل العليا البسيطة مثل « الواجب » فى عصر أفضل • وكان الايطاليون ، آلذين استبد بهم وفرق بينهم القساوسة وال بوربون هابسبرج ، يراودهم الامل اذا نالوا حريتهم فى أن يقودوا العالم مرة أخرى ، الى النزعة الانسانية والحياة الروحية كما فعلوا منذ القديس فرانسيس الى ميكل انجيلو • وادعى الصقالبة ، الذين تبدت قومياتهم المختلفة لاول مرة فى سنة ١٨٤٨ ، لانفسهم ادراكا غامضا لله وصعوالبانه من أعماق غاباتهم المظلمة ، يمنحهم حكمة تفوق حكمة الاجناس الاخرى آلاكثر منهم وضوحا •

وكان الرجل الحر الحقيقى الكامل يؤمن بكل هذه الضروب المختلفة من آلتفوق القومى ، ويذهب الى أن الامم الحرة التى تحترم فى نفس الوقت حرية غيرها ، يجب أن تنمى كل منها فضيلتها الخاصة بها ويتكون منها جميعا عالم يسوده الوفاق والتناسق الجميل •

غير أن ماحدث فعلا كان لسوء الحظ مختلفا عن ذلك كله •

ب ـ القومية الايطالية

رحب الايطاليون ، الذين أخمدت قوميتهم بعنف فى القرن السادس عشر ، بنابليون باعتباره موآطنا ومحررا • وقد خضعت لنفوذه كل الاراضى الايطالية وبقيت صقلية وحدها على ولائها للرجعية والهمجية تحت تأثير نلسن وليدى هملتن ، وكان الحكم الفرنسى فى أيطاليا مصحوبا باصلاحات حرة النزعة ، وشجع مورا الشعور بالوحدة الايطالية وان ظلت هذه الوحدة غامضة بعض الشىء •

ووضع مؤتمر فينا حدا للنزعة الحكومية الحرة فى ايطاليا • فأعيدت سلطات الكنيسة والارستقراطية، غير أن المدن آلتى قامت فيها حكومات جمهورية مدى الف عام قبل الفترة الثورية مثل البندقية وجنوآ ، لم تعد فيهما الحال الى ماكانت عليه • وقد رأينا فى فصل سابق ماكان تاليران يعتقده فى مطالب أهل جنوا • فكلما زادت رغبتهم فى الاحتفاظ باستقلالهم القديم زاد اهتمام المؤتمر بأن يجعل منهم مثلا يوضح ضالة شأن رغبات الشعوب التى يتعلق بها الامر وأثرها فى توزيع الاقاليم • وعلى هذا سلم أهالى جنوآ الى حكم بيت سافوى المطلق ، على الرغم من وعود لورد وليم بنتك الصريحة •

ومن جنوا هذه جاء الرجل الذى عمل أكثر من أى شخص آخر على اشعال جذوة الوطنية الايطالية والرغبة فى الوحدة ، وكان من الطبيعى أن يأتى من هذا البلد ـ ونعنى جيسبيى مانزينى الذى ولد فى سنة ١٨٠٥ • وكان والده

قد رحب النزعة الجمهورية الفرنسية واحتفظ فى مخبأ خلف كتبه ببعض صحف الجيروند القديمة ، ولو أن أمرها اكتشف لأدت به الى الوقوع فى مناعب مع الشرطة • وكانت دراسة التاريخ الرومانى فى المدارس تعمل على اثارة روح الوطنيه والنزعة الجمهورية معا : فقد تعلم مانزينى أن يعجب بكاتو الاصغر وبروتوس الاصغر والاكبر اعجابا أكثر مما ينبغى لان هذه الدراسة قوت فيه حب التآمر طوال حياته • وكان للثورة الفرنسية فى سنة ١٨٣٠ أصداء فى ايطاليا ، ونفى مانزينى ، لانه اشترك فيها ، الى خارج البلاد وقضى معظم حياته الباقية فى انجلترا ، ومع ذلك فقد ظل زعيم ايطاليا الثورية ومصدر وحيها •

« وكان مانزينى رجلا عبقريا ، ولكنه وقع أكثر مما يجب تحت تأثير فكرتين مجردتين ، الله ومبدأ القومية » • هذا ماقاله أحد رجال الدين بنجامين جويت الذى كانت تبدو له الفكرتان ، كما يجب أن نفترض ، غير ذاتى أهمية • أما مانزينى فكانت الفكرتان عنده متصلتين اتصالا وثيقا : فمبدأ القومية عنده لم يكن ايطاليا بحتا ، والهه لم يكن مجرد معبود قبلى •

فهو يقول : « ان القومية مقدسة فى نظرى لانى أرى فيها أثر العمل لخير الناس كلهم وتقدمهم • ان البشرية جيش يجب يسير لفتح أرض مجهولة ضد أعداء أقوياء دهاة معاً • والشعوب هى فرق هذا الجيش ولكل منها عمل خاص يقوم به ، ويتوقف النصر المشترك على الدقة التى ينفذ بها كل عمل من الاعمال المختلفة •

لقد كتب الله سطرا واحدا من أفكاره على عهد كل شعب •• ويبدو لى أن السمات الاساسية للقومية وهى السمات التى لاتخطىءهى المصالح الخاصة، والقدرات الخاصة ، وفوق كل شىء الوظائف خاصة والمهام الخاصة والعمل لكل منها تقوم به فى سبيل قضية البشرية » ثم مضى يذكر لكل شعب عمله : فعمل انجلترا الصناعة والمستعمرات ، وعمل روسيا ان تمدين آسيا ، وعمل بولندا أن تتزعم الجنس الصقلبى وتدافع عنه ، وعمل آلمانيا أن تفكر ، وفرنسا

أن تعمل ، وأيطاليا أن تجمع بين الفكر والعمل « فبينما الالمانى يسير على الارض وبصره تائه فى أعماق السماء ، وعينا الفرنسى قلما ترتفعان عن الارض أبدا بل يجولان فى سطحها تنقبان ببصرهما النفاذ الذى لايقر له قرار ،فان الروح غير البشرية التى تحرس مصائر ايطاليا من دأبها ابدا ان تنتقل فى لمح البصر من المثل العليا الى آلواقع تسعى منذ القدم لتجمع بين السماء والارض » •

وليس واضحا تماما ما اذا كان مانزينى يريد أن يفعل بفرنسى يريد أن يفكر أو ألمانى يريد أن يعمل ، كما أنه ليس من المحتمل أن وافق رجل غير أيطالى بالدور الرئيسى البارز الذى أسنده الى أيطاليا • وقد نبذ مانزينى

مايطلبه الايرلنديون من اعتبارهم لانهم لا « يستندون الى أى مبدأ واضح من مبادىء الحياة أو أى نظام تشريعى مستمد من خصائص وطنية مميزة لهم ويتعارض بشدة مع رغبات الانجليز ومطالبهم » · أو هذا على الاقل ماذكره· غير أنه يجدر بنا أن نلاحظ أن الايرلنديين كانوا يعارضون مانزينى دائما باعتباره عدوا للبابا ، ولعلهم لو كانوا أكثر زدا له لكانت لهم رسالة قومية ·

وكان مانزينى يرى أن الحركة الصقلبية أهم حركة فى أوروبا بعد الحركة الايطالية ولاحظ ، وكان على حق ، أنها ستقضى حتما على النمسا وتركيا · وكان هدفه النهائى قيام ولايات أوروبية متحدة تحكمها عصبة يجب أن يكون مركزها فى روما تحت زعامة ايطاليا · ويبدو أن مبدأ القومية عنده لا ينطبق فى خارج أوروبا ، فآسيا فى دأبه يجب أن تكون مجرد منطقة تابعة لاوروبا ، ولم يسند الى الولايات المتحدة دورا فى هذه العصبة الدولية · وكانت الامم فى رأى مانزينى تقوم على شعرائها وفلاسفتها ، فقد كان يعرف شعراء بولندا وفلاسفتها ولكنه لم يكن قد سمع عن هؤلاء واولئك فى بلاد الصين ·

مما لاريب فيه أن مانزينى كان يقصد أن يكون عادلا فى نظرته الى الامم ، الا أن تحيزه لبلده لم يكن يفارقه أبدا · فكان يقول عن ايطالية أنها « متألقة طهرتها الالام تنتقل كملك من النور بين الامم التى اعتقدت أنها (ايطاليا) قد ماتت ·

وقال : « ان مصير ايطاليا هى مصائر العالم » وقد رأينا فيما سبق الدور الذى عهد به الى ايطاليا فى أنشاء ولايات أوروبا المتحدة وحكمها من روما · وهو يقول فى ذلك أنها « الارض التى قدر الله لها أن تقوم بالرسالة العظيمة وهى منح أوروبا وحدتها المعنوية ــ ومنح الانسانية عن طريق أوروبا هذه الوحدة » · ولم تكن الامة بالنسبة له مجموعة من الافراد ، بل هى فى نظره ذات ذاتية غامضة انها روح خاصة بها · وقد لزم كارليل مع اطنابه الذى لامبرر له فى بطولة الفرد مقابل حياة الجماعة · ويقول : « أن حياة الامة ليست ملكا لها ، ولكنها قوة ووظيفة فى النظام العام الذى وضعته العناية الالهية » · فالله « قسم الانسانية الى مجموعات مميزة أو نوبات متعددة على وجه الارض ، وبذلك خلق بذور القوميات · وقد عملت الحكومات الشريرة على تشويه الخطة الالهية ، مع ذلك فانك مازلت تستطيع أن تتبين حدودها بوضوح ــ على الاقل فيما يتعلق بأوروبا ــ فى مجارى الانهار الكبيرة اتجاه الجبال العالية وغيرها من الاحوال الجغرافية » · ونسى مانزينى لسوء الحظ أن يخبرنا ماذا كانت الخطة الالهية فيما يتعلق بالدانوب ، فلعل معرفة هذا الموضوع كانت تحول دون وقوع الحرب الكبرى ·

ولا يقتصر الامر على الامة وحدها ، بل ان الاسرة أيضا عنـد مانزينى تتسم بقدسية الجماعة الطبيعية التى هى أكثر من مجموع أفرادها فهـو يقول « ان الاسرة هى قلب الوطن • وفى الإسرة ملك يتمتع بتأثير غامض من الرحمـة والحلاوة والحب ، ملك يجعل واجباتنا أقل جفافا وأحزاننا أقل مرارة •• وملك الاسرة هذا هو المرأة » • وكان مانزينى أعزب • وكان ينظر الى كل من الاسرة والوطن بخيال الرجل المنفى « ان فكرة الاسرة ليست فكرة بشرية ، بل الهية، وليس من قوة بشرية تستطيع القضاء عليها ، فالاسرة كالوطن ، بل أكثر من الوطن ، عنصر من عناصر الوجود »

وكان الراديكاليون الفلسفيون ينظرون الى الناس على أنهم أفراد ، ولايهتمون الا بالتكتلات التى تنشأ من وحدة المصالح الاقتصـادية • وكان مانزينى يهتم بالجماعات التى ترجع الى مصادر بيولوجية أو عاطفية أو جغرافية • وكانت الوحدات الاجتماعية التى تنشأ بهذه الطريقة ، وهى الاسرة والامة والانسانية عامة ، تبدو له غاية فى الاهمية ويراها مصدر ضروب الخير التى توجد فى الافراد وجعله ذلك شديد العداء نحو كبدن وماركس •

فكان يعترض على كبدن بسبب مبدئه القاضى بعدم التدخل فى الشـئون الاوروبية العامة الى جانب اعتراضات أخرى تقوم على أسس أكثر عموميـة • وكان مانزينى يعتقد أن الحياد عمل دنىء اذا كان موضوع النزاع قضـية من قضايا الاخلاق • ومصداق ذلك أن الوحدة الايطالية تمت بفضـل التدخل المسلح من جانب فرنسا فى سنة ١٨٥٩ ، ومن جانب بروسيا فى سنة ١٨٦١ و١٨٧٠ ، وكذلك بعطف انجلترا الدبلوماسى سنة ١٨٦٠ ، وكان يحس بأن طريق المسالمة الذى ينادى به كبدن لو اتبع لادى الى بقاء ايطاليا فى العبودية الى الابد • ومع انه كان مثل كبدن لا يحبذ حرب القوم فانه ظل يقول : « ان رجال السلام لا مبدأ لهم » • ويبدو أنه كان يرى أن من واجبنا أن نحارب كلا من روسيا وتركيا معا لان كلتيهما كانت تضطهد شعوبا أخرى • ولم يخطر بباله أبدا ان عادة شن هذا النوع من الحروب المقدسة فى جميع انحاء العالم سرعان ما تؤدى الى السيطرة والاستعمار •

وكانت الفلسفة النفعية بغيضة كل البغض له لان الناس فى رأيه يجب أن يعيشوا للواجب لا للسعادة • وقد امتدح كارلايل لانه عارض « المادية العنيفة التى ظلت تدعو الى الاغتصاب التقدمى تارة فى كتـابات لوك أو بولنجبروك أو بوب وطورا فى كتابات سميث وبنتام ، وعملت بمبادئهمـا فى المصلحة الذاتية والرخاء المادى على رفع الانانية الى التربع فى قلوب الرجال • ولم تستطع حركة المدنية الصناعية كلها التى طغت على المدنية الفكرية والاخلاقية أن تصم أذنيه (كارلايل) • وكان يرى أن الذين يعتنقون مبدأ النفعيـة « ينصرفون شيئا فشيئا عن تنمية أسمى وأقدس وأخلد ما فى الانسان ، ويتهكمون فيما يسمونه مفيدا • ليس هناك شىء نافع الا الخير وما ينشأ عنه ، فالمنفعة نتيجة تتوقع وليست مبدأ يستهدف » • وليس شغلنا الشاغل على هذه الارض أن ينشد السعادة • بل أن نصبح خيرا مما نحن ، وليس فى الحياة الانسانية هدف آخر سوى أن نكتشف بمجهودنا الجماعى ، وان ننفذ ، كل منا لنفسه شريعة الله دون اعتبار للنتائج الشخصية » • وانتهى الى أنه يجب ألا يبقى

فى الجامعات من أساتذة فلسفة الا الذين يتفقون معه فى مذهبه ، وهو يقول عن الهيجليين الذين ينفر منهم ، « سيأتى يوم من الايام الجميلة نمحو فيه كل هذا الهراء » . وذهب أيضا الى أنه « ليست هناك سيادة للفرد أو المجتمع الا فى حدود ما يتفق والشريعة السماوية وما رسمه الله .. ان صوت الاغلبية وحده لا يتضمن سيادة اذا تبين انه يتعارض من القواعد الاخلاقية العليا .. فارادة الشعب مقدسة اذا كانت تعبر عن القانون الاخلاقى وتطبقه ، وهى تكون عديمة القيمة عديمة الجدوى عندما تقطع صلتها بالقانون ، ولا تمثل فى هذه الحالة سوى النزوات » . وقد اعتنق موسولينى هذه المبادىء وطبقها .

ان القول بأن « ينفذ كل منا نفسه شريعة الله » لا شك مبدأ خليق بالاعجاب . بل ويمكن أن يصير قاعدة للحكم فى رأى الكاثوليكى الذى يعتقد أن الكنيسة تعرف شريعة الله . وقد لا تكون النتائج ، كما رأينا فى الاقاليم التى تحت الحكم البابوى ، مرغوبا فيها فى نظر غالبية المحدثين ، مثال ذلك أن محكمة التفتيش ظلت تمارس الاضطهاد وتصدر قرارات الادانة حتى سنة ١٨٤١ « وتأمر جميع الناس أن يبلغوا عن الكفرة واليهود والسحرة ، وأولئك الذين يعرقلون أعمال المحكمة المقدسة أو الذين يذكرون البابا أو رجال الكنيسة بسوء » . بينما حرم فى سنة ١٨٥١ انشاء خط حديدى عبر الرومانيا بحجة « أن السكك الحديدية تنشر التجارة وان التجارة تنشر الخطيئة » . تلك آراء قد تبدو غريبة ولكنها على الاقل ليست فوضوية ، ما دامت نعترف بأن شريعة الله تتكشف للكنيسة . ولكن ماتزينى مع ذلك لم يقبل سلطة البابا ، فشريعة الله كانت فى نظره ، كما هى فى نظر البروتستانت ، يوحى بها مباشرة لضمير كل فرد . ولكن هذا الوحى كان لسوء الحظ يظهر بشكل مختلف لكل فرد . فضمير ماتزينى أملى عليه أن انجلترا يجب أن تتدخل فى شئون القارة بقوة السلاح لتحرير الشعوب المضطهدة ، لكن ضمير كبدن أملى عليه نقيض ذلك تماما . وكان كلاهما جادا ورجل أخلاق سامية . ان رجلين يعتنقان المذهب النفعى يستطيعان مناقشة خلافاتهما العملية ، لان لهما مقياسا مشتركا يتناقشان على أساسه ، ولكن اثنين يعتنق كل منهما « شريعة الله » ثم وجدا أنهما مختلفان لا سبيل أمامهما الا أن يتهم كل منهما الآخر بالمروق وأن يتقاتلا حتى يتم النصر لاحدهما ، وهكذا تصبح مبادىء ماتزينى « الاخلاقية » التى تبدو أنقى كثيرا من مبدأ السعادة الذى يقول به بنتام ، يصبح عند التطبيق العملى مجرد قانون ولا فرق بينه وبين حكم السيف والمدفع . ان الرجال الذين يعتقدون أنهم يتلقون مباشرة تعاليم السماء قد يصبحون مصدر ازعاج ، ومبادىء ماتزينى لا يمكن أن تنتهى الا الى حرب دائمة أو الى طغيان حديدى .

واعتراضاته على الاشتراكية من النوع الذى تتوقعه من طبيعة اعتراضاته على بنتام . فقد كان يكره مادية ماركس ويؤمن بالدعوة الى حرب الطبقات وكان على اتصال فى أول الامر « بالدولية » ، ولكنه قطع صلته بها بمجرد أن تبين انه لن يستطيع تحويلها من الاشتراكية الى الدفاع عن الشعوب المظلومة . وكان يعتبر الدين ، لا الاقتصاد ، عاملا أساسيا فى تفسير التاريخ ، كما كان

(×) بولتون كنج « تاريخ الوحدة الايطالية » (١ ص ٧٩ .
(× ×) سمبسون « لويس نابليون وانتعاش فرنسا » ص ٤٨

يذهب الى أن البيئة الاجتماعية والاقتصادية « تعبير عن معتقداتها الدينية » ، وهى وجهة نظر متناقضة تماما لما ذهب اليه ماركس من أن الناس نتاج بيئتهم . وان كان يؤيد بعض التشريعات التى تتضمن شيئا من الاشتراكية ، وكانت نظرته الفلسفية تناقض نظرة ماركس كل المناقضة ، وكان يفرد للارادة أهمية كبرى فى كل شيء ويعارض جبرية هيجل ، وبالتالى ، وبصورة أشد ، جبرية ماركس التى كانت تتضمن رذيلة أخرى هى المادية .

ولم يتمتع ماتزينى طوال حياته الثائرة ، الا بفترة واحدة قصيرة من السلطة غير المستقرة ، وكان ذلك فى جمهورية روما سنة ١٨٤٩ التى قضى عليها لويس نابليون ، بعد بضعة شهور من قيامها ، وكان قضاؤه عليها خطوة أولى نحو اكتساب هالة من الاحترام .

أما حركة توحيد ايطاليا التالية التى أصابت قدرا أكبر من النجاح فقد اهتدت بسياسة كافور الماهرة ، وأضيفت الاقاليم الجديدة كلما تم غزوها الى أملاك بيت سافوى . وقد ظل ماتزينى طول حياته جمهورى النزعة ولم يكن راضيا عن تكوين مملكة ايطاليا . الا أن دعوته هى التى ولدت الحماسة التى استغلها غاريبالدى وكافور . ان مبادىء ماتزينى هى التى جعلت ايطاليا كما هى الآن .

ج ـ القومية الالمانية

كانت حركة التحرر الالمانية ، خلال السنوات الستين من معركة حينا الى البروسية النمساوية سنة ١٨٦٦ ، خليطا غامضا الى حد ما من ثلاثة عناصر مختلفة ، ففى الغرب كان يوجد عنصر موال لفرنسا معجب بالاصلاحات التى قامت بها حكومات الثورة ، ويرى أن ألمانيا بلد متأخر وان الهدف الذى ينبغى تحقيقه هو اقامة جمهورية ديموقراطية وان الثورة هى الوسيلة التى لا مناص منها لبلوغ هذا الهدف . وكانت توجد بين التجار وأرباب الصناعة ، وكذلك بين الموظفين البروسيين ، حركة متأثرة بالآراء الانجليزية الخاصة بحرية العمل التى كان يطلق عليها فى الايام الاولى « السمينية » وبعد ذلك « المانشسترية » وكانت هذه الحركة فى ذروة قوتها فى أوائل العقد السابع عندما كان كبدن فى أوج شهرته . وكان العنصر الثالث فى الحركة التحررية الالمانية هو الرغبة فى الوحدة القومية ، وكان لابد لهذا الشعور الوطنى البحت أن يأخذ صورة تحررية فقد كان يبدو أن الوحدة لا يمكن أن تتم الا رغم الامراء ودولة النمسا . وكانت حركة الوحدة الالمانية على عداء مع الفرنسيين ، ومن ثم كان عسيرا عليها أن تتعاون مع الحركة التحررية الفرنسية التى ماتت عندما وجد بسمارك طريقة « محافظة » لتحقيق الوحدة ، ولم تعد الحرية سمة الوطنية الالمانية . وانقلبت الصناعة فى العقد الثامن ضد حرية التجارة ولم يعد لنزعة كبدن التحررية نفوذ فى الماضى كما لم يبق من الراديكالية الفلسفية الا ما تضمنته الديمقراطية الاشتراكية عن طريق ماركس .

وبينما فشلت النزعة التحررية الفرنسية والانجليزية فى أن تتركا أثرا عميقا أو دائما فى ألمانيا كما رأينا ، فان الحركة التحررية فى صورتها القومية ما لبثت أن عمت البلاد كلها باستثناء الاشتراكيين . وجاء أول تعبير أدبى

عنها في أقوال فجته « خطابات موجهة الى الامه الالمانية » وهي محاضرات ألقاها في برلين في شتاء ١٨٠٧ — ١٨٠٨ . وكانت معركة جينا وصلح تلزت قد أذلا بروسيا ، بينما بدا أن لا سبيل الى هزيمة نابليون بعد أن كسب صداقة الاسكندر . وكان فجته فيلسوفا جادا لا تهمه الدنيا ، وكان خليفـــة كانت والزعيم المعترف به للميتافيزيقية الاستشراقية التجريدية ، وقد اتهم بالالحاد لانه وحد بين الله والنظام الاخلاقي في العالم » وأرغم على الاستقالة من منصب الاستاذية في جامعة جينا ، الا أن الحكومة البروسية عطفت عليه فذهب الى برلين ؛ وصار في آخر الامر (سنة ١٨١١) مديرا للجامعة . وكانت فلسفته التي أطلق عليها «المثالية» تعلق أهمية كبرى على الذات . وكان سلوكه يتفق أحيانا مع معتقداته حتى أن جوته وشيلر ، اللذين كانا يكرهانه ، أطلقا عليه اسم « الذات المطلقة » . وعملت معتقداته وشخصيته مجتمعتين على الايحـــاء بالمبادىء التي جعلته مؤسس القومية الالمانية .

ويبدأ فيجته « خطاباته » بقوله انه يوجه كلامه الى الامة الالمانية كلها ، وانه يغفل كل الاغفال جميع سمات الفرقة التي خلفتها في هذه الامة الواحدة أحداث يؤسف لها استمرت قرونا . فقد تلوثت ألمانيا ، من مصادر أجنبيـــة ، بداء الانانية الفردية ، ويجب بناء ألمانيا من جديد على أسس أخلاقية أسمى ، وأول ما يتطلبه تحقيق ذلك الغرض نظام جديد في التربية . « اننا نريد أن نصوغ الالمان ، عن طريق التربية الجديدة ، في كيان متحد كل أفراده تحدوهم مصلحة واحدة يدفعون الى تحقيقها . ويقول ان الارادة « هي المصدر الاســاسي في الانسان » . ثم يمضي مباشرة فيقول « ان التربية الجديدة يجب أن يكون هدفها الاساسي تدمير حرية الارادة تدميرا تاما في التربة التي نتعهدها وان تدخل عنصر الضرورة الحتمية في قرارات الارادة وعكس ذلك مستحيل . ان مثـــل هذه الارادة يمكن بعد ذلك الاعتماد عليها في ثقة واطمئنان » . ويجب أن يجعل التلاميذ ينصرفون عن الاهتمام برفاهيتهم المادية ، وان « نصوغ الرجال الذين هم في أعماقهم وفي كيانهم الداخلي صالحين لان الامة الالمانية لن يقيض لها بقاء الا عن طريق هؤلاء الرجال وحدهم» . وهذا فيما يبدو ، هو السبب في تفضيل الرجال الصالحين على غير الصالحين .

ويجب ألا تكون هناك صلة أيا كان نوعها مع العالم خارج المدرسة خلال فترة التعليم « ويجب أن يظل التلميذ من مبدأ الامر تحت تأثير هذه التربية باستمرار ، وان يفصل كل الانفصال عن المجتمع ويمنع من الاتصال به بأية صـــورة من الصور . ويجب ألا يسمع بأن نزعاتنا وتصرفاتنا يمكن أن توجه نحو رفاهيتنا أو المحافظة على حياتنا . وهذا يعني فيما أرى أن الصبية لهم أن يأكلوا لا لانهم يحسون بالجوع ، بل لان الطعام ضروري حتى يستطيعوا العمل على المحافظة على الامة الالمانية .

وتعليم الالمان في رأيه مهم للعالم لا لبلادهم وحدها ، لان الالمان هم أول من يدعون في العالم للبدء بالعهد الجديد ليكونوا روادا ونموذجا لبقيـــة الجنس البشري . ويدل على ذلك اعتبارات متعلقة باللغة . والفرنسيين والاســبان والايطاليين يعتبرون في نظر فجته من أصل تيوتوني الى حد ما ، ويعترف بأنه حدث اختلاط كبير في ألمانيا بين الالمان والجنس الصقلبي ، ومن ثم فان الالمان

ومنهم الاسكندناويون أنقى من الامم التى تتكلم لغات مستمدة من اللاتينية ، لا على أساس عنصرى ، بل على أساس لغوى ، ذلك أن هذه الامم أصبحت منهكة ومنحطة لانهامدينة بأصلها الى محاولات قام بهامهاجرون للتحدث بلغةوضيعة. لقد كانت اللغتان اللاتينية والاغريقية لغتين نقيتين ، وكذلك الالمانية ، ولكن اللغات الرومانسية* ليست نقية • •

من هذا يستنتج أن الالمانى أكثر جدية وأكثر عمقا من الاجنبى ، ويستتبع أيضا أن الفرق بين المتعلم والجاهل فى ألمانيا أقل منه فى البلاد اللاتينية ، لانه لا يستطيع ادراك المعانى الاصلية للكلمات المستعملة فى هذه البلاد الا الذين يعرفوو اللاتينية (× ×) •

ومن ثم فان مفهوم كلمة « الثقافة » ليس ألمانيا ، وأن الالمانى الذى يريد أن يعرف عنه انه منقف انما يقلد الاجانب • ولكن تبين أن هذه الرغبة فى محاكاة الاجانب تجلب الكوارث ، ان كل الشرور التى أحلت بنا الدمار حتى الآن ذات أصل أجنبى • وطبيعى لأن هذه الشرور لم تكن لتجر فى أذيالها الدمار حتما لولا اتحادها بالحيوية الالمانية والنفوذ الالمانى فى الحياة •

ان ابحاث الاجانب أو الالمان الذين وقعوا تحت تأثير أجنبى ، كلهاتاريخية بحتة ، أما أبحاث الالمانى الخالص ففلسفة حقيقية • ان العبقرية الاجنبية يمكن مقارنتها بنحلة تجمع العسل ، وتودعه بتنسيق جميل فى خلايا ذات بناء منتظم • ولكن الروح الالمانية نسر يندفع بجسمه الهائل ويحلق على جناح قوى مدرب فى السماوات العلا حتى تقرب من الشمس التى يحلو له أن يتطلع اليها •

ويتحدث فجته عن ألمانيا فاعتبارها « الوطن الاصيل » ويعتبر بقية العالم الى حد ما مستعمرات خانت العهد ، وظيفتها الوحيدة أن تنقل الى ألمانيا ثقافة العهود القديمة التى لايفهمها أهل هذه المستعمرات لسطحيتهم الشديدة ولو دمر الاجانب ألمانيا « فان نمو الجنس البشرى الذى ظل مطردا حتى الآن سينتهى ، وتبدأ البربرية ثانية وتظل أبد الآبدين دون أمل فى الخلاص حتى نصبح جميعا مرة أخرى من ساكنى الكهوف مثل الحيوانات المتوحشة ونصير مثلهم أيضا يحاول كل منا أن يلتهم الآخر • ولايستطيع أن يتبين صحة ذلك وحتمية وقوعه الا الالمانى بطبيعة الحال »

(×) الاسبانية والفرنسية والايطالية •

(× ×) هذا صحيح الى حد كبير ، قارن مثلا كلمة هدنة Armistice الانجليزية وكلمة Waffenstillstand الالمانية تجد أن الكلمة الالمانية معناها الحرفى «الاسلحة لاتزال قائمة» •

وكلما تقدمت المحاضرات أصبحت ميزات ألمانيا المتفوقة أكثر وضوحا .. فهو يقول لنا « ان الامة الالمانية هي الامة الوحيدة بين الشعوب الاوربية الحديثة التي أثبتت عمـــلا ، بواسطة المثل الذي ضربته طبقـــة المواطنين الاحرار عدة قرون ، أنها تستطيع الاستمرار في ظل دستور جمهوري. « لقد أطلقنا على الايمان بالموت ، بمقارنته بشعب أصيل حي ، اسم الروح الاجنبية .. وعندما تظهر هذه الروح الداخلية بين الالمان .. فانها ستظهر من فـورها في صورة اعتراف .. بالاعتقاد بخطيئة الجميع بدرجة متساوية .. وقـد وصفت هذا الاعتقاد بما فيه الكفاية في مكان آخر ـ انظر (دليل الحيـاة الموفقة) المحاضرة الثانية . وأخيرا يتبين أن كلمة ألماني لم تأخذ صبغتهـا الجغرافية أو العنصرية الا عرضا ، وان لها في الفكر التيوتوني العميـق معنى آخر أكثر روحانية .

« ومن ثم فسأضع أمامكم بكل وضوح ماذا كنت أعني بكلمة (ألمان) كما وصفناهم حتى الآن . ان المعيار الحقيقي هو هذا : هل تؤمنون بوجـود شيء أولي مطلق وأصيل في الانسان نفسه ، هل تؤمنون بالحرية والتقدم الذي لايقف عند حد ، التقدم الابدي لجنسنا ، أو هل لا تؤمنون بشيء من هذا كله بل تتصورون أنكم تدركون بوضوح وتعرفون أن نقيض ذلك هو مايحدث ، وكل الذين هم أنفسهم أحياء خلاقون ومنتجون لأشياء جـديدة أولئك الذين ، اذا لم يكن ذلك نصيبهم ، فانهم على الاقل ينبذون الشـر ويتطلعون في انتباه الى تيار الحياة الاصيلة يحدوهم الامل ان يجرفهـم معه ، أو الذين ، اذا لم يكونوا قد بلغوا حتى ذلك الحد من التفـوق ، يتوقون على الاقل الى الحرية ولا يكرهونها أو يفزعون منها ، بل على العكس يحبونها ـ كل هؤلاء رجال فيهم اصالة ، وهم عندما تنظر اليهم على انهـم شعب تراهم شعبا أصيلا ممتازا . فهم ألمان وكفى . وكل الذين يستكينون ويقتنعون بمرتبة ثانوية ويعتقدون انهم ينتمون الى أصول أخرى ويعرفون ويفهمون بوضوح انهم كذلك ، هم في الواقع كما يعرفون عن أنفسهـم ، ويزيدهم تعمقا في هذا بسبب ذلك المعتقد ، أنهم يقفون على هامش الحياة التي تتفاعل من تلقاء نفسها أمامهم أو بجانبهم ، وهم صدى لصوت يرتد من الصخور ، صدى لصوت ميت فعلا ، انهم يعتبرون شعبا خارج الشعب الاصيل ، وهم بالنسبة لهذا الشعب الاصيل اجانب دخلاء »

وقد أجاز ماتزيني لكل شعوب أوروبا ، عدا الايرلنديين ، أن تكون لهـا وطنيتها الشرعية الخاصة بها واسهامها في التقدم البشري المنسق . أمـا فنجته فكان أدق منه وأكثر تعمقا فهو يقول :

« ان الالماني وحده ـ الرجل الاصيل الذي لم يصبح جزءا ميتا من منظمـة تحكمية ـ هو الذي ينتمي حقيقة الى شعب يحق له أن يعتمد عليه ، وهـو

وحده الذى يحق له أن يحب أمته حبا صادقا يقوم على العقل . « والحق » ان كونك على خلق وكونك ألمانيا شىء واحد »

وعندما نهبط من هذه القمم الغيبية الى الشئون الدنيويه فى السياسة العملية ، نعلم أن ألمانيا ينبغى ألا تتجر مع العالم الخارجى بل أن تكون دولة مغلقة من الناحية التجارية وقد كتب فجته عن هذا الموضوع كتابا فى سنة ١٨٠٠ ، ان الالمانى لن يحتاج أبدا الى حرية البحار ، لأن « موارد الثروة المتوفرة فى بلاده وما يتمتع به من مثابرة يكفلان له كل ما يحتاجه الرجل المتمدين فى حياته »

الا انه يجب ألا نفترض أن الدولة الالمانية ستكون مسالمة ، ذلك أن السلام هو المثل الاعلى للذين يحبون الراحة المادية

أما الدولة فلها هدف أسمى من ذلك الهدف العادى الذى يرمى الى المحافظة على الامن الداخلى والملكية والحرية الشخصية وحياة جميع سكانها ورفاهيتهم ولتحقيق هذ الهدف وحده ، لا لأى غرض آخر تنشىء الدولة قوة مسلحة . والا فأى روح ينبثق منها الحق الذى لا ينازع فى أن تستدعى كل من له صلة بها وتأمره ، سواء كان هو نفسه مستعدا أو غير مستعد ، على التضحية بكل شىء حتى الحياة وأن ترغم على ذلك كل من يقاوم هذه الدعوة انها ليست روح حب المواطن المسالم للدستور والقانون ، بل هى شعلة الوطنية السامية التى تشتعل فى صدور أبنائها وتشعل الامة كلها وتكسوها حلة أبدية ، والتى يضحى من أجلها الرجل النبيل الفكر بنفسه راضيا ، ويضحى بنفسه أيضا الرجل التافه الذى يعيش لخدمة غيره من الناس .

ان الرجل التافه انما يعيش لخدمة غيره فقط ، مبدأ يتضمن انكار حقوق الانسان والمذهب النبقامى ، لان نبقام يذهب الى أن سعادة كل الناس متساوية فى الاهمية أما فجته فيقرر أن الرجل التافه ينبغى أن يضحى به ، ومنذا الذى يقرر من هو الرجل التافه ، انها الحكومة بلا ريب . ومن ثم فان كل طغيان عمل مشروع ، ويمكن استئصال الخصوم السياسيين باسم النبل القومى .

وصارت « الخطب الموجهة الى الامة الالمانية » كتاب الوطنيين الالمان المقدس وحتى فى سنة ١٩١٩ قال الديمقراطى الاشتراكى « ويبرت » أول رئيس للجمهورية الالمانية بعد أن أعلن سياسته : « وهكذا سنحقق ماقال فجته من انه واجب الامة الالمانية »

ولم يقتصر الاعجاب على ألمانيا وحدها . فقد مجده كارلايل ، وعلم ت . ه جرين جيلا بأكمله فى اكسفورد أن ينظر الى فجته باعتباره النقاء الاخلاقى

الكامل مجسما . ومع ذلك فليس فى العالم الحديث أية قسوة فى الحكم أو طغيان كريه لا تبرره مبادىء هذا الاستاذ الفاضل .

لقد حاول الملوك و « ذلك الحقير ، أداة الطغيان الدموية ، ولـيم بت » القضاء على الثورة الفرنسية فنتج عن ذلك نابليون . وحاول نابليون أن يقضى على بروسيا فنتج على ذلك فجنه الذى أدى الى ظهور بسمارك . وجعل بسمارك بمحاولته تدمير فرنسا ، «الانتقام» أمرا لا بد منه ، وادى «الانتقام» الى ظهور هتلر .

ولعل مذهبا اخلاقيا أساسيا تسانده الحراب ليس خير وسيلة تؤدى الى سعادة البشر .

واذا كانت الوطنية الالمانية ، كما بدأها فجته ، تبدو أكثر وحشية وحبا للسيطرة واعتدادا من وطنية ماتزينى فالسبب فى ذلك واضح . فايطاليا لم تأمل تحقيق وحدتها بدون مساعدة أجنبية ، ومن ثم كان عليها أن تجعل دعايتها من النوع الذى ترضى عنه العقول المتحررة فى البلاد الاخرى . ولكن بروسيا كانت على النقيض من ذلك لا تزال تتذكر أمجاد المقاومة التى أبداها فردريك الاكبر ضد العالم كله مسلحا ، ونسيت الدور الذى لعبته انجلترا حليفته فى ذلك الوقت والتحول المفاجىء فى موقف بروسيا الذى أنقـذه فى النهـاية .

وكان الالمان يحسون بأن المانيا متحدة تستطيع أن تقف وحـدها . والمعتقدات القومية لاتكون عادة مما يرضى الاجانب عنه الا بالقدر الـذى تستلزمه الاعتبارات الدبلوماسية والحربية . واذا كان فجـنه قد دعى لألمانيا أكثر مما طالب به ماتزينى لايطاليا . فالسبب فى ذلك أن فى مقدور ألمانيا أن تكون أقوى من ايطاليا .

وعندما ثار الالمان ضد الفرنسيين فى سنة ١٨١٣ كان يدفعـهم الى ذلك عاملان ، وطنية كتلك التى بشر بها فجته ، والرغبة فى دساتير برلمانية على النمط الانجليزى .

وقد أدخل شتاين ، الذى كان يمثل اتحاد الوطنية والتحررية فى بروسيا عدة اصلاحات من بينها الغاء رق الارض ، ووعد ملك بروسيا ومعظم الحكام الالمان الاخرين ورعاياهم دساتيرا بعد التخلص من نابليون . الا أن النمسا كانت تعارض فى الاتجاه الدستورى وفى الرغبة فى وحدة ألمانيا التى كانت قوية بصفة خاصة فى بروسيا . وقد تجهمت لكل الحركات القوميه بتأثير نفوذ مترنيخ وحرمت قراءة « خطب » فجته .

وأحدثت ثورات سنة ١٨٤٨ تغيرا استمر بعض الوقت . فكان الرجال

الذين احتلوا مركز الصدارة دستوريين أحرارا ودعاة وطنيين للوحـــدة الالمانية ، وحاولوا فى « جمعية فرانكفورت » أن يضعوا مشروع دستـــور لألمانيا ولكنهم لم يستطيعوا التغلب على مشكلة النمسا • فقد كانت النمسا الاصلية ألمانية وأحسوا انه ينبغى أن تضم الى الاتحاد الالمانى الجديد ، الا أن الكثرة الغالبة من سكان الامبراطورية النمساوية الهنغارية كانوا مجريين أو صقالبة ممن لايرغب الوطنيون الالمان في ضمهم الى الاتحاد •

وعرضت « جمعية فرانكفورت » بعد هزيمة أقلية جمهورية من أعضائه تاج ألمانيا المتحدة على ملك بروسيا ، ولكنه رفضه • واستعادت النمســا مركزها ، وأذلت بروسيا ثم شرعت تعمل للقضاء من جديد على كل آمــال الوحدة والحكم الديمقراطى •

ومما يدعو الى الدهشة أن نرى العدد الكبير من الالمان الذين أصبحـــوا من مؤيدى حكومة بروسيا بعد التخلص من نفوذ النمسا كانوا منفيين خلال السنوات التى أعقبت فشل حركات سنة ١٨٤٨ • فلم يقتصر الامر على أن الراديكاليين من أمثال هاين وماركس وليبخت قد أرغموا على الحياة فى خارج البلاد ، بل ان رجالا مثل مومسن ورتشارد فاجنر والرجلين اللـذين صارا فيما بعد أمناء لبسمارك وأخلص أصدقائه ، لوتار بوخر وموريتز بوخ قد نفوا أيضا • ولم تصبح الوطنية الالمانية محافظة خليقة بالاحترام الا عن طريق بسمارك ، ونجم عن ذلك أن كثيرين ممن كانوا متحررين لأنـــهم وطنيون أصبحوا محافظين للسبب عينه •

واستكمل ما كان يطلق عليه أسطورة الوطنية الالمانية ، مقوماته فى عهد بسمارك على يد عدد من الاساتذة لعل أهمهم المؤرخ ترينشكه • فتراه فى كتابه « تاريخ ألمانيا » فى القرن التاسع عشر يعرض الاحداث بصورة قصد بها استثارة الكبرياء القومية دون تقيد بالدقة الضيقة الافق • وكانت آراؤه عنصرا مهما فى تكوين وجهة النظر الاولى فى عهد وليم الثانى ، وسأوضح ما أقول ببعض المقتطفات :

فهو يقول عن الادب فى سنة ١٨١٣ « لقد تغنى شعراء الكفاح الشـــعبى العظيم بالحرب ، وهى الضرب الوحيد من ضروب النشاط السياسى الذى يتناسب مباشرة مع التعبير الفنى • وأيقظت حماستهم الوطنية تلك المشاعر الابدية التى يتميز بها الانسان ، وهى الاحساس بالبهجة فى المعـــركة ، والغبطة فى النزال ، والامل والسرور بالانتصار • لقد كانوا ينشدون هدفا محددا ، هدفا يفهمه الناس البسطاء ، ألا وهو تحرير أرض الوطن من نير الاضطهاد الاجنبى »

ولاحظ بأسف « انه قد نشأ فى العقد الخامس جنون بالسكك الحديدية والمصانع ، وان ميلا الى تفضيل العلوم على اللغتين اللاتينية والاغريقيـــة استولى على كثير من الالمان وخاصه من عاشوا فى انجلترا وأمريكا .

ويقول فى هذا « ان من بين انواع النشاط المختلفة للاقتصاد السياسى الحديث نوع تقدم الى مركز الصدارة بسرعة طائفة من الاشخاص تعصبوا للنفعية والتقدم العام ، وهم سلالة لم تكن المانيا الهادئه تعرفها فى العهود الاولى ، وانماط من الناس سخر منهم فنانو ميونيخ فى مواكبهم المقنعـــة وصحفهم الهزلية باسم « مستر فوارارتز » .

وقد زار جميع هؤلاء الاشخاص انجلترا أو أمريكا ، واهتموا بكل شركة سكك حديدية جديدة أو مشروع لمصنع جـــديد (وكانت هذه فى الغالب مشروعات وهمية للاحتيال) ولم يكونوا يرون لشىء ما قيمة الا اذا أمكن عده أو وزنه أو قياسه .

ومن هذه الاوساط جاءت لأول مرة الصيحة التى ردد صداها بحماسة بعض الصحفيين الجهلة والتى ذهب الى أن التدريب فى العلوم الطبيعية يجب أن يصبح الاساس العام للثقافة ، وان تعليم اللغات والتاريخ ، الذى قامت عليه جميع الامم المتمدينة مدى آلاف السنين ، يجب انزاله فورا من المكانة العالية التى يحتلها

وكان من حسن الحظ أن جاكوب جريم قد أوضح خطأ هذه النظرة العلمية « لقد أوضح أن العلوم الروحية لابد أن تكون هى الاساس الذى تقـــوم عليه الثقافة العامة لأنها وحدها تضم الحياة الانسانية كلها ، بما فيها عالم الخيال وعالم القلب .

واتجه هذه الوجهة نفسها كبار رجال العلم من أمثال ماير وهلمهولتز .. « لقد ظلت المثالية الالمانية القديمة الرائعة حية فى كل هذه الميادين الجديدة فى العلوم الطبيعية .. وترك الانزلاق فى الغباء المادى للرجال الاقل قيمة الذين جاءوا بعدهم »

وتتبع تريتشك النزاع بين الحماية وحرية التجارة الى أصله الاول ، وهو النزاع الذى بدأ من الناحية النظرية فى سنة ١٨٤١ بكتاب ليست « النظام القومى فى الاقتصاد السياسى »

« لم تحظ الفلسفة الحسية الاسكتلنـــــدية فى أى وقت من الاوقات بالانتشار فى بلادنا ، وقد اثبت « كانت » خطأها . ومع ذلك فقد ظـــل مذهب آدم سميث فى العلوم الاقتصادية سائدا فى ألمانيا ، وهو المبدأ الذى يرتبط نجاحه وفشله بالمذهب الحسى . وقد أعاد ريكاردو وسناى بناء هذا

المذهب من جديد والتزما فيه وجهة نظر واحدة تماما ، وعملت كتابات باسمنيا العنيفة على ترويجه بين الجماهير ؟

وقد ثبت ان هذا المبدا قوة من قوى التحرر عندما كانت قضية الساعة هى القضاء على النظام الاقطاعى فى المجتمع ، ولكن بقى يتلكأ حتى الآن فى الجامعات الالمانية لا لشىء أكثر من انه تقليد • وأصبح من عادة رجال الاقتصاد السياسى أن يتبعوا هذه الطريقة المتحجرة ، طريقة معلمى القانون الطبيعى القديم التى هجرها كل رجال القانون الاكفاء منذ أمد بعيد ، أن يستنتجوا قضاياهم باعتبارها استدلالا منطقيا من التصورات المجردة للرجل الاقتصادى الذى يشترى فى أرخص الاسواق ويبيع فى اكثرها ارتفاعا • أما التنسيق بين المصالح المختلفة جميعها وتنظيم المجتمع تنظيما عادلا يقوم على العقل فقد نشأ من الصراع بين أنانية هؤلاء الرجال الاقتصاديين ، انهما نتائج التفاعل الحر للقوى الاجتماعية ، وقد قرر للنزعة الانانية الحيوانية أن تأتى بمعجزة من المعجزات ، فترفع الرجال فوق مستوى الوحوش •• وكان الاشخاص ذوو الاحساسات المرهفة الذين يستطيعون أن يدركوا أن هذا المذهب غير ألمانى ، كانوا مع ذلك على استعداد لان يرجعوا أصل هذه القدرة فى صنع المعجزات الى الانانية المتنورة وذلك لانهم قد فاتهم أن يدركوا أن الانانية لا يمكن أن تكون متنورة ، ولا تستطيع ، من المستوى المنحد الذى توجد فيه بالضرورة ، أن تكسب نظرة عميقة تشمل الافاق الواسعة للحياة القومية • ان هذه النظرية تقوم على تفاؤل لا يؤيده مجرى التاريخ ويتجاهل الى أقصى حد القوتين الكبيرتين فى التاريخ العام ، قوة البغاء وقوة الاثم •

ان فى هذا النقد بعض الحقيقة وشاهد ذلك أن البنتاميين لم يهتموا اهتماما كافيا « بقوة البغاء وقوة الاثم » وهما القوتان اللتان ثارتا لنفسيهما بظهور رجال مثل تريتشكة ونمو حركة القومية فى العالم كله • ولكنه عندما يقول بعدئذ ان من الخطأ أن نفترض « أن التعمق فى فهم المصلحة الذاتية يكفى وحده لوضع حد للجريمة يرد عليه بأن من المشكوك فيه جدا أن أية قوة أخرى يمكن أن يكون لها هذا الاثر •

ان السياسة قوى أخرى كبيرة الى جانب المصلحة الذاتية ، ولكنها بصفة عامة أسوأ منها : انها قوى الحسد والاعتداد والقسوة وحب السيطرة • ويمكن أن نطلق على هذه القوى كلها « البغاء والأثم » • الا أنها فى الواقع هى نفس القوى التى يطلق عليها المثاليون اسماء نبيلة مثل الوطنية والروح التقدمية واحتقار الاهداف المادية البحتة وما الى ذلك •

ولا ريب فى أن هناك جرائم كبرى تنشأ عن الانانية المتنورة ، مثل ادانة الملك ليوبولد للكونجو ، الا أن وقوعها يتوقف على عدم استثارة

ضحاياها . ومحالا لا ريب فيه أيضا أن هناك دوافع أفضل من المصلحة الذاتية ولكنها دوافع لا تبلغ من الانتشار حدا يجعلها ذات قوة سياسية .

ويبدو أن تريتشكه ينهب الى انه يجب على الالمان ألا يأخذوا فى الاعتبار سوى مصلحه ألمانيا على حين أن رجال البلاد الاخرى يكونون أشرارا اذا هم عملوا على تحقيق أهداف قومية خاصة بهم . فهو يصف التحالف الفرنسى الروسى بأنه « خطة سياسية خبيثة » ويرى أن القومية الصقلبية « أحلام خيالية » ، غير أن أبغض الاشياء اليه هو النظرة العقلية النفعية فهو يشكو من أصحاب الاراضى فى انجلترا الذين نزلوا الى ميدان التجارة عندما انخفضت ممتلكاتهم بسبب حرية التجارة ولم يموتوا جوعا كما يجب على السادة أن يفعلوا .

والآن ، قد أصبحت الارض لا تغل ريعا كافيا ، بدأ أصحاب الاراضى يهتمون بالسكك الحديدية والمصارف المالية ، والمشروعات الصناعية على اختلاف انواعها . وسيصبح فى وسع ابن دوق أرجيل قبل مضى وقت طويل أن يدير محلا مربحا لتجارة الخمور دون أن يهبط بسبب ذلك من المستوى الاجتماعى الذى ينتمى اليه .

فبينما ظل سادة ألمانيا فقراء ولكنهم سادة فرسان فى نفس الوقت ، انقلبت المفاهيم الانجليزية القديمة عن الشرف والتمسك بنظام الطبقات الاجتماعية رأسا على عقب والسبب فى ذلك هو قوة المال ، فقد اجتاحت حياة الامة كلها ريح تجارية . وعفى الدهر على المبارزة ، وهى الملاذ الاخير الذى لا يمكن الاستغناء عنه للمحافظة على المجتمع من الانحطاط وسرعان ما أصبحت فى خبر كان .

ويقول عن كبدن :

« انه ينظر الى المجتمع نظرته الى شركة تأمين أسستها ادارة الافراد بطريقة تحكمية . ويرى أن الوظيفة الوحيدة لهذه المؤسسة هى أن تحمى التجارة والعمل ضد القلقلة العنيفة وأن تعمل على أن تظل أقساط المؤمنين عند الحد الادنى . وكانت المصالح الاقتصادية عنده هى كل ما تضمنه الحياة البشرية ، بينما الرحلات السريعة يقوم بها الوكلاء التجاريون وانتاج المصنوعات القطنية الرخيصة هى اسمى الاهداف المدنية . وقد كان جادا كل الجد عندما قال ان وات واستيفنسون أعظم أهمية فى التاريخ من قيصر او نابليون » .

ولم يكن هذا يعنى فى نظره أن كبدن رجل سوء محض . انه يفهم الشعوب الاجنبية خير مما يفهم معظم مواطنيه ، وكان يعجب ببروسيا . ومع ذلك فقد كان له فى بروسيا أسوأ الاثر وادعاه للرثاء .

وكان تريتشكه أكثر عداء لما هو فرنسى منه لما هو انجليزى . فهو يصف الادب الفرنسى الذى يقرأ فى ألمانيا بأنه « يتكون من أقذار ودماء » يصطبغ فى وضوح بآراء دنيوية مستمدة من قلب الافكار القديمة رأسا على عقب وتقول ان « الله خطيئة » ، والزواج فجور والملكية نهب . ثم يقول لنا أن بعض الكتاب الفرنسيين يذهبون الى حد القول بأنه قد يوجد مومسات فضليات .

ونظرية الى اليهود لا تقل عن ذلك سوءا . فيقول لنا أن منتخب هيس منح اليهود المساواة فى الحقوق سنة ١٨٣٣ قبل أى حاكم آخر بسبب علاقته الوثنية بآشيل روتشيلد « وكانت نتيجة هذه التجربة غير مرضية بالمرة . فقد ثبت بوضوح ان آثام النهب والخيانة لم تكن نتيجة للافتقار الى الحرية فحسب بل انها فوق ذلك نقائص متأصلة الجذور فى الشعور القومى عند اليهود ، نقائض يصعب استئصالها . ففى هيس حيث يستطيع اليهود الآن أن يعملوا فى أية مهنة يختارونها أثبتوا انهم مصاصو دماء قساة يستغلون الريفيين المساكين وكانت النتيجة أن مهد تحرير اليهود فى ألمانيا أصبح بؤرة للكراهية المتعصبة ضدهم »

ومنذا الذى يتصور ، بعد قراءة هذه الفقرة ، أن طبقة النبلاء البروسيين القدماء الذين كانوا موضع اعجاب ترتشكه والذين يضعهم فوق الجنس البشرى كله ، كانت تحصل على كل قرش من دخلها عن طريق كون افرادها « مصاصى دماء قساة يستغلون الريفيين المساكين » وانهم لم يبدأوا تحرير رقيق الارض الا نتيجة لهزيمتهم على أيدى الفرنسيين ؟ لقد صدر قرار تحرير رقيق الارض فى سنة ١٨٠٧ - ١٨٠٨ بعد معركة جينا ، وفى سنة ١٨١٦ بعد معركة ولترلو قصر التحرير على الفلاحين الذين يملكون ثيران حرث ونصيبا من حقول القرية . وظل القانون على هذه الحال حتى سنة ١٨٥٠ .

اننا عندما نكون حكمنا على ألمانيا نجد انه من الصعب أن نتذكر الالمان الذين قادوا العالم فى ميدان العلم وكانت لهم احدث الافكار فى الفن الجميل والفنون الصناعية بدأوا نموهم السياسى بعد فرنسا وانجلترا بوقت طويل لقد كان فردريك الاكبر حاكما مطلقا أكثر من هنرى الثامن ، وكان الفلاحون أقل حرية عند وفاته مما كانوا عليه فى انجلترا منذ « أيام الموت الاسود » سنة ١٣٤٩ . ولم تكن النظم البرلمانية ، التى تأسست تدريجا خلال القرن التاسع عشر تتمتع فى سنة ١٩١٤ الا بقدر يماثل ماكان فى انجلترا أيام اليزابث . وكانت بروسيا ، أكبر الولايات شأنا ، أقواها نزعة عسكرية ، كما كانت توجد فى القسم الشرقى منها طبقة من السادة النبلاء الاقطاعيين الذين جاءوا أصلا غزاة دخلاء على الاهالى الصقالبة . هذا الى أنه لم يكن

لطبقة السادة فى انجلترا أى تأثير فى الحكومة التى كانت مقسمة بين كبار الماليين وأسر الاحرار وكلاهما نفوذ متحرر ، بينما نجد السيد بسمارك وجيرانه هم الدعامة الاساسية للعرش فى بروسيا .

وكان عدم الاهمية النسبية للتجارة سببا آخر من أسباب ضعف الآراء الحرة فى ألمانيا اذا قورنت بانجلترا . فقد احتفظت مدن هانسا ، التى كانت تعيش على التجارة طوال القرن التاسع عشر بنظرة تماثل نظرة كبدن ، وفى سنة ١٨٧١ ظلت هامبورج وبرلين خارج نطاق الوحدة الجمركية (الترلفرين) لأنهما تمسكتا بحرية التجارة . والنزعة هى أساسا نتاج للتجارة ، فقد كانت موجودة فى المدن التجارية فى اليونان القديمة وفى ايطاليا فى العصور الوسطى ، وفى الدولتين التجاريتين هولندا وانجلترا . وكان فجته كما رأينا ، يرغب فى أن لاتكون لألمانيا تجارة خارجية ، ويحتفظ أتباعه الحديثون بهذا الاتجاه بالقدر الذى يسمح به العصر . وان ما يبدو لنا متأخرا فى وجهة النظر الالمانية ليرتبط بهذا التهوين من قيمة التجارة .

وتوجد فى كتابات كارلايل جميع المذاهب التى اتسمت بها القومية الالمانية : وهى الاعتقاد بأهمية الادارة أكثر من المعرفة والايمان اكثر من العقل والواجب أكثر من السعادة وعبادة الدولة والاعجاب بالحكم الاستبدادى لقوى ، وتأكيد العنصرية والبطولة الفردية وكراهية التصنيع كراهية مستترة فى صورة الشفقة بالبروليتاريات الصناعية . ويوجد كثير من هذا أيضا عند دزرائيلى ، كما وجدت كل الغرائز التى تبدو بغيضة فى القومية الالمانية متنفسا لها فى النزعة الاستعمارية البريطانية كما تمارس فى آسيا وافريقيا . وتعد الامبراطورية البريطانية ، ولا تزال ، البالوعة التى تصب فيها سوءات الخلق البريطانى ، ولم يكن لألمانيا مثل هذا المتنفس ، وكان لابد لها أن تتحمل استبداد حكامها العتاة فى داخل حدودها . وقد قال بسمارك فى شبابه « لقد كنت أريد أن التحق بالخدمة تحت العلم الانجليزى فى الهند ، ثم قلت أخيرا فى نفسى : وما الذى أصابنى من ضر على يدى الهنود ؟ » ان الرجل الانجليزى الفاضل ليحسن صنعا اذا فكر مليا فى ذلك القول .

٢ ـ بسمارك والوحدة الالمانية

الفصل التاسع والعشرون
بسمارك والوحدة الالمانية

أصيب مبدأ القومية والحركة التحررية بهزيمة مشتركة فى سنة ١٨٤٨ ، غير انهما سرعان ماعادا الى الحياة ٠ فقد حققا متحالفين نصرا باهـــرا فى ايطاليا فى سنة ١٨٥٩ ، سنة ١٨٦٠ بتوحيد البلاد كلها تقريبا وقيام حكومة برلمانية تحت حكم فكتور عمانويل الدستورى (ضمت البندقية فى سنة ١٨٦٦ وروما فى سنة ١٨٧٠) ٠

وكان متوقعا أن يحدث تطور مماثل له فى النزعة التحررية - القومية فى ألمانيا حيث لم يبد محتملا أن يدوم انتصار الرجعية بعد سنة ١٨٤٨ ولكـــن مجرى الاحداث فى ألمانيا لم يسر طبقا للخطة المرسومة ٠ فقد نبذت حكومـــة بروسيا المحافظة مبدأ الشرعية ، وهو المبدأ المعرقل الذى خلفه مؤتمر فينا ، وعملت على ارضاء القومية الالمانية بالقليل من الاصلاحات التحررية فقط ٠ وكان الفصل بين القومية والتحررية ، وبين المحافظة ومبـدأ الشرعية حدثا مهمــا ترك أثرا كبيرا فى تطوير أوربا ٠ ويرجع معظم الفضل فى ذلك الى بسمارك الذى يجب أن يعد لهذا السبب من أكثر الرجال نفوذا فى القرن التاســـع عشر ٠

وكان بسمارك سيدا ريفيا وظل طوال حياته ريفيـــا الى حد ما ، وكان أسلافه اشرافا من ملاك الاراضى فى براندبرج حيث عاشوا خمسمائة سنــه أو أكثر قبل ال هوهنزلون بكثير كما ذكر هو فى احدى المناسبات ٠ وكانوا ذوى كبرياء وصلابة ، فجده كان من أتباع روسو وجلب بذلك على نفسه غضب فردريك الاكبر ، وكان أبوه رجلا هادئا غير طموح التحق فى شبابه ضابطا بالجيش وهو أمر لا مفر منه ، الا انه تقاعد وعاد الى ممتلكاته بمجـــرد أن استطاع الى ذلك سبيلا ولم يشترك فى حرب ١٨٠٦ أو ١٨١٣ ٠ وقد ظلت أجيال عديدة من أسلافه تأكل بشهية وتشرب كثيرا وتزرع ارضها وتصطاد فيها ، وتلد أطفالها وتهرم ثم تموت ، بنظام ثابت لا رتيب كنظام فصـــول السنة ٠

وقد تركت هذه القرون من الوجود المستقر بين أرقاء مطيعين أثرهـا فى أسس تفكير بسمارك وشعوره وجعلته محافظا لا يتحول أيا كانت الظروف وقد قال مرة « انى أحب الاشجار الكبيرة ، انها جدود » ٠ وحدث مرة أن أحد زواره كان على وشك دخول الغابة ليتجول فيها بعربته وعلى رأسه قبعة عالية فقال له : « وفر على أشجارى منظر هذا الشيء ! » ولم تكن تروق له فكـــرة

دفنه فى تابوت تحت الارض ، فأشار ذات مرة الى شجرتى صنوبر ضخمتين وقال « هناك بين هذه الاشجار ، عاليا فى هواء الغابة الطلق ، أود أن يكون مرقدى الاخير حيث تستطيع أشعة الشمس والنسيم الصافى أن تصل الى »

وقد ورث عن أمه ، لا عن أبيه ، الذكاء وعدم الاستقرار · ولم تكن أسرة أمه ، آل منكنز ، من الاشراف بل كان أفرادها من الاساتذة والموظفين الحكوميين ، وكان جده لامه من وزراء فردريك الاكبر ، وأقاله خلف فردريك بحجة انه يعقوبى ، وأعاده فردريك وليام الثالث باعتباره حليفا لاشتاين · وكانت أمه نفسها مثقفة من أهل المدن طموحة وعصرية · ولم ترض عن زوجها لعدم مبالاته بالنجاح ·

وكانت الاسرة تقيم فى برلين شتاء ، وفى الصيف وهو الوقت الذى كان يفضل فيه العودة الى مزارعة كانت تدعى المرض وتصر على الذهاب الى احدى مدن المياه المعدنية الراقية ، وقد حرمت هذه العادة أولادها من قضاء عطلاتهم الصيفية فى الريف · فكانت تزعج من حولها بتبرمها وذكائهاوشغفها بالمدنية وأضوائها ، ولم تكن تستطيع القناعة بطريقة الحياة التى ارتضاها آل بسمارك خمسة قرون ·

وأحب الصبى أوتو ، الذى ولد سنة ١٨١٥ ، والده والريف وكره المدينة وأمه · وكان فى صباه المبكر سعيداً فى مزارع والده فى بنهوف فى بومرانيا يصادق رعاة البقر وحراس الصيد والجياد والكلاب · وكان والده يذكر له عندما يأخذه الى القرية انها ملك لهم كلها · وحان الوقت لأن يذهب الى المدرسة واختارت له أمه ، التى كانت تتابع احداث التطورات الاجتماعية مسكنا تفخر بأنه يجرى على أحدث أساليب بستالوتزى · وهناك عانى أوتو من جراء الطعام السىء والنظام الصارم وطول حياته يشكو منه قائلا انه كان يوقظ كل صباح بوخز من سيف · وفى فترة المراهقة اتهمته تقارير المدرسة « بالبلف والادعاء » وانه لايعرف شيئا عن « الاحترام والواجب نحو مدرسيه » ولم يكن الاحترام فضيلة من فضائله ·

ولما بلغ السابعة عشرة من عمره والتحق بجامعة جوتنجن وقد تشبع برومانسية بيرون واعتقد انه جمهورى ملحد ، وسرعان ما اكتسب فى الجامعة احترام زملائه باستعداده للمبارزة وانتصاره فيها عندما كان يجد من يقبل تحديه · وعقد أواصر صداقة مع موتلى المؤرخ الذى كان طالبا فى الجامعة فى ذلك الوقت أيضا ، وقد قال عنه موتلى انه « لم يتحدث حديثا معقولا الا عندما يكونان معا على انفراد » وفيما عدا ذلك كان بسمارك يقضى معظم وقته فى الشجار · وقد قال مورلى عنه فى ذلك الوقت « هنا توجد المادة التى يصنع منها الابطال فى طريقها الى النضوج » .

وتورط بسمارك في الدين كما كان متوقعا وكتب لأخيه يقول « حدثت بيني وبين الرجل العجوز (والده) مشادة اكثر من مرة لانه رفض أن يسدد ديوني .. ولا يهمني ذلك كثيرا لان لدى من « الائتمان » قدرا كبيرا يمكنني من أن أعيش حياة خليقة ونتيجة ذلك أن أبدو عليلا ضعيفا وعندما أعود الى المنزل في عطلة رأس السنة سيعزو أبي ذلك الى سوء التغذية طبعا . وسأقف موقف المتشرد وأقول اني أفضل أن أصير ملحدا على الاستمرار في معاناة هذا الجوع ، وعندئذ سأحصل على ما أريد . ويقول لاخيه « ان محكمة ينبهوف (والده) يسهل اقناعها بالدبلوماسية الماكرة والكذب اكثر مما يسهل ذلك بألفاظ القتال الرنانة »

وعين في سن الحادية والعشرين في منصب دبلوماسي في اكس لاشابل ولكن واجباته لم ترق له وذهب يطوف اوربا خلف فتاة انجليزية كان يريد الزواج منها . ولما عاد وجد بطبيعة الحال الا مفر له من الاستقالة . وأعطى فرصة أخرى ، الا انه لم يستطع الاستقرار في رتابة حياة الموظف ، وقررت الاسرة ، لاسباب مالية من بينها ديونه ، أن يقيم في نيبهوف لادارة ممتلكاتها ولم يعترض هو على ذلك لاسباب وضحها لاحد أقاربه : « ان الخدمة الحكومية والشئون الدبلوماسية لاتلائمني مطلقا ، ولست أرى نفسي سعيد الحظ اذا اصبحت موظفا حكوميا او حتى وزيرا ، واعتقد أن الزراعة لا تقل مكانة عن كتابة الخطابات الرسمية ، بل ان الزراعة في بعض الظروف أكثر من هذه الخطابات فائدة ، وأنا أكثر ميلا الى اصدار الاوامر مني الى تلقيها . هذه حقائق أستطيع تعليلها بأكثر من انها مسألة مزاج . ان مثل الموظف البروسي كمثل لاعب في فرقة موسيقية عالمية . ان يستعمل آلته طبقا لما تمليه القطعة الموسيقية سواء كان لاعب على الكمان أو على المثلث (×) . أما أنا فأريد من أن اعزف الموسيقى التي تروقني ، أو لا أعزف على الاطلاق .

ثم يقول : « لقد كانت الوطنية هي الدافع الذى حدا ببعض الساسة النابهين للدخول في الخدمة العامة خاصة في البلاد ذات الحكم المطلق ولكن الذى يحدث غالبا هو أن الدافع الاساسي هو الطموح والرغبة في اصدار الاوامر واكتساب الاعجاب والشهرة . ولا يسعني الا أن أعترف بأني لست مبرءا من هذه العاطفة . ان كثير من ضروف التفوق كالتي يصيبها الجندى في الحرب أو السياسي في ظل دستور حر ، والتي امتاز رجال مثل بيل وأوكونل وميرابو ومن اليهم من رجال لعبوا دورهم في حركات سياسية قوية - يجذبني هذا النوع من التفوق بشدة تطغى على أى اعتبار آخر ، ولعله يجذبني يوما كما يجذب اللهب الفراشة .

اني أقل تأثرا بالنجاح الذى قد أصيبه بالطريق المألوف ، بالامتحانات

(×) آلة موسيقية .

والنفوذ ودراسة الوثائق والاقدمية وحظوة الرؤساء • ومع ذلك فانى لتمـر بى لحظات لا أستطيع فيهـا الا أن أحس بالاسف لكل ما فاتنى ممـا يرضى خيلائى وكان ينتظرنى فى الوظائف الحكومية ، الرضاء الذى أحس به حين أقدر رسميا بالترقية السريعة •• والشعور بالسرور حين أعرف أن الناس يروننى شخصا قديرا نافعا ، والمجد الذى يحيطنى ويحيط اسرتى - كل هذه الاعتبارات تبهرنى عندما اشرب زجاجة خمر • ويتطلب منى الامر تفكيرا حادا واعيا كى أقنع نفسى ان كل هذه الاشياء ليست سوى بيوت عنكبوت تنشرها الخيلاء الحمقاء وانها أشبه بزهو المختال بجمال لباسه وفرحة البخيل بنقوده وان ليس من الحكمة أو الفائدة فى شىء أن نبحث عن السعادة فى اراء غيرنا فينا ، وان الرجل العاقل هو من يحيا حياته طبقا لما يعتقد انه صواب وحـق ولا ينقاد وراء الانطباعات التى يتركها فى نفوس غيره أو يعتقد ان النـاس سيتحدثون به عنه قبل موته وبعده •

وملاك القول أنى لا ينقصنى الطموح ، وان كنت أرى أنه لا يقل فى الشر عن غيره من الصفات بل واكثر منها حماقة ، لانى ان سلمت قيادى للطموح فسيتطلب منى ذلك التضحية بكل قواى واستقلالى دون أن يضمن لى شيئا من الرضا الدائم حتى فى أحسن الظروف • ولن يكون لى دخـل يكفينى وأستطيع به أن أقيم بيتا فى المدينة الى أن أبلغ الاربعين وأكون قد وصلت الى مركز كبير حتى لو اصبت نجاحا مابعده نجاح • وعندئذ سأكون قـد أصبحت كالعود الجاف سوداوى المزاج وقد أتلف الكسل صحتى ولا أحتاج الى زوجة الا لكى تكون ممرضة •.

ان هذه الميزات البسيطة : ارضاء كبريائى بما يطرق اذنى من ألفـاظ الاحترام توجه الى باعتبارى « السيد الرئيس » والشعور بأنى لا أفيد البلاد بقدر ما أكلفها الا فيما ندر ، وانى أعرقل شئونها بين الفينة والفينة واصيب مصالحها بالضرر ، ان هذه الميزات لا تستهوينى • ولذلك أستقر رايى عـلى الاحتفاظ باستقلالى وعدم التضحية بقواى الحيوية طالما كان هناك آلاف من الناس (بعضهم ممتازون كل الامتياز) يشغفون بمثل هذه الاشياء ويسعدهم أن يملأوا المكان الذى اتركه خاليا لهم •. »

وعاش بسمارك من سنة ١٨٣٩ الى سنة ١٨٤٧ عيشة النبيـل الريفى الشاب ، فكان يقضى وقته فى الصيد والشراب (المكون منخليط منالشمبانيا والنبيذ عادة) وكان له عددا لا يحصى من المغامرات الغرامية واشتـهر بأنه منهور ،حتى ان الامهات كن يبعدن بناتهن عنه • ولكنه درس الزراعة دراسة جدية نظريا وعمليا ، وقرأ كثيرا من الشعر والتاريخ بالفرنسية والانجليزية والالمانية • وعندما بلغ السابعة والعشرين قام برحلة الى انجلترا التى أحبها

لان اهلها مؤدبون ولان نبلاءها يعودون الى منازلهم من مجلس اللوردات على ظهور الجياد ، ولان جياد فرسان الحرس مخصص لها « تعيين » يومى قدره « بوشل » من الشعير واثنا عشر رطلا من الدريس ، ولان مطاعمها كانت تسمح له بأن يقطع شرائح اللحم ويأخذ منها كل ما يريده .

وعندما عاد من رحلاته لم تعد حياة الريف تروق له .

« يكون مزاجى فى الصباح غير معتدل ، ولكن اكون اكثر قابلية لمشاعر أرق بعد العشاء . أن رفاقى هم الكلاب والخيل ونبلاء الريف . وأتمتع بين أولئك النبلاء بمركز ممتاز لانى أقرأ بسهولة وألبس كما يلبس الآدميون ، وأقطع لحم الحيوان المصيد بمهارة الجزار ، وأجيد الركوب وأدخن نوعا قويا جدا من اللفافات الكبيرة القوية وأستطيع أن أشرب أكثر من كل ضيوفى جميعا لأن الشراب لم يعد يؤثر فى كثيرا لسوء الحظ ، رغم انى أعرف من التجربة أن حالة السكر التى كنت أحس بها أحيانا كانت تسبب لى كثيرا من السعادة . ومن ثم فانى انمو كالنبات فى دورة منتظمة بلا رغبات ولا مخاوف ذات طابع خاص ، وهى حالة رتيبة جدا ومتعبة جدا .

والتقى وهو فى هذه الحالة المزاجية بشابة حسناء تقية هى مارى فون ثادن التى كانت خطبتها معقودة لصديقه مورينر فون بلانكنبرج ، وشرعت السيدة تعمل على هداية صديق خطيبها ، فحدثته (هى وبلاكنبرج) عن فتاة مصدورة على وشك الموت تحبه الا انها لن تموت سعيدة الا اذا عرفت انه اهتدى . وعندما ماتت قالا له انها الهمت الهاما اكيدا بأن روحك لن تضل « آه لو علمت فقط كم صلت المرحومة من أجلك » . فتأثر بسمارك جدا وترقرقت الدموع فى عينيه ولكنه لم يهتد بعد . وأيا كان الامر فقد قابل فى منزل مارى وبلاكنبرج بعد أن تزوجا بصديقة لها اسمها جوهانا فون بوتكامر وتابعت هذه الصديقة عملية هدايته وكان حظها من النجاح أكبر فقد أبصر النور وتزوج السيدة . وكان زوجا مثاليا ، عطوفا رقيقا قويا يهتم بالتفاصيل الدقيقة اهتماما يقارب اهتمام المرأة ، شغوفا بأولاده وينزعج أشد الانزعاج كلما أصابهم أقل وعكة .

ولعل هوايته لم تكن قد بلغت حد الكمال كما أوهم خطيبته فقد كتب الى أخيه يقول :

« نحن نختلف فى مسائل الدين بعض الشىء ويزعجها ذلك أكثر مما يزعجنى ومع ذلك فان الفرق بيننا ليس كبيرا الى الحد الذى تصوره ، لأن أحداثا كثيرة خارجية وداخلية قد بدلتنى أخيرا بحيث أصبحت أعد نفسى بحق من بين الذين يؤمنون بالدين المسيحى (وهو أمر جديد كما تعلم) ومع انى فيما يتعلق ببعض العقائد ، ولعلها هى التى يراها المسيحيون بصفة

عامة غاية فى الاهمية ، لم أستطع - بالقدر الذى أستطيع أن أرى فيه هذه الآراء بوضوح - أن أحمل نفسى على التسليم بوجهة النظر المسيحية • فقد عقدت بينى وبين جوهانا ، بطريقة ضمنية ، اذا صح هذا التعبير ، معاهدة تشبه معاهدة باساو • هذا الى أنى أحب التدين فى النساء وأكره الاناث اللاتى يعرضن علمهن على الملأ » •

وكان بسمارك دائما يؤمن بالخرافات ، ولكنه لم يكن متدينا • وقد استغل الدين فى السياسة عندما وجد فى ذلك فائدة ، وان يكن قد فعل ذلك بطريقة تكاد تكون لا شعورية • وقد قال ذات مرة : « اذا أزلنا الاساس الدينى للدولة فلا يبقى منها الا مجموعة من الحقوق تضمها المصادفة ، أى أنها نوع من الضمان ضد قيام حالة من الحرب يقاتل فيها الناس جميعا بعضهم بعضا •• ولست أرى بوضوح كيف يمكن مثل ، فى مثل هذه الدولة دحض حجج الشيوعيين الخاصة بأن الملكية لا سند لها من الاخلاق •• وهذا الضرب من الحجج قد جعله يحس بأن الدين يفيد • ولكن شعوره الدينى الشخصى ، الى الحد الذى كان يشعر به من تدين ، كان نوعا من وحدة الوجود الغامضة المتصلة بالاشجار الكبيرة والريف • •

وكانت خطبته وكان زواجه فى سنة ١٨٤٧ • وعاد فى هذا الوقت طموحه الى الظهور لاسباب خاصة وعامة معا • فصار عضوا فى الجمعية التشريعية (الاندتاج) ظل طوال الفترة الثورية يؤيد آراء المحافظين المتطرفة التى تليق بالسيد البروسى ويعتقد أن البروسيين هم الشعب المختار ، بل انه ذهب الى حد انكار أن الوطنيين البروسيين كانت لديهم أية فكرة عن المانيا موحدة فى سنة ١٨١٣ •

وقضى السنوات من ١٨٥١ الى ١٨٦٢ فى التدريب على الأعمال الرسمية • وكان فيما بين سنة ١٨٥١ وسنة ١٨٥٨ المبعوث البروسى الى المجلس الاتحادى فى فرانكفورت ، ومن سنة ١٨٥٩ الى سنة ١٨٦٢ كان سفيرا فى سان بطرسبورج ، ثم سفيرا فى باريس مدة بضعة أشهر من سنة ١٨٦٢ ، ثم رئيسا لوزراء بروسيا فى نفس السنة • وكان سياسة بروسيا منذ ذلك التاريخ حتى سنة ١٨٩٠ هى سياسة بسمارك •

وكان الموقف فى سنة ١٨٦٢ يسوده ، نزاع شديد بين الملك والبرلمان • فقد كان ميزان القوة فى البرلمان البروسى وفقا لدستور سنة ١٨٥١ الذى ظل نافذا حتى الحرب الكبرى فى يد الطبقة الوسطى • فكان الناخبون ينقسمون الى ثلاث فئات : أغنياء ومتوسطين وفقراء تساهم كل فئة بنصيب فى دخل الدولة مماثل لنصيب كل من الفئتين الاخريين •

وتنتخب كل فئة على حدة عددا من المندوبين مساويا للعدد الذى تنتخبه كل من الفئتين الاخريين ، ثم ينتخب المندوبون مجتمعين الجمعية التشريعية •

وهكذا كان فى وسع الطبقة الوسطى والفقراء أن يتغلبوا على الاغنياء كما كان فى وسع الطبقة الوسطى والاغنياء التغلب على الفقراء . وسيطرت المبادىء التحررية الانجليزية فى أوائل العقد السابع على الطبقة الوسطى بينما لم يكن لاسال أو ماركس قد أفلح فى اثارة الطبقة العاملة الى التحمس للاشتراكية بعد ، فكان البرلمان فى هذه الظروف تحرريا بأغلبية ساحقة وكان البرلمان يتمتع بحق الرقابة على الشئون المالية ولكن الوزارة كانت مسئولة أمام الملك وحده . واعتقد زعماء الاحرار ، الذين درسوا تاريخ الدستور الانجليزى ، انهم يستطيعون السيطرة على الهيئة التنفيذية عن طريق الرقابة المالية . وكانت مهمة بسمارك أن يهزمهم فى هذه المحاولة .

وكان الجيش هو منار النزاع . فقد كان من المسلم به أن الجيش من شأن الملك . ولكن الاقتراع على الاعتمادات المالية اللازمة له من أعمال الجمعية التشريعية . وأراد الملك وليام جيشا أكبر مما كان له وقتئذ ، ووافقت الجمعية على بعض الزيادة التى طلبها الملك ، لا عليها كلها ، الا أن الاحرار أرادوا فى مقابل ذلك أن تقرر جميع الضرائب بمقتضى ميزانية سنوية ، وكانوا يأملون من وراء ذلك أن يرغموا الملك على اختيار وزارة تتفق واتجاهات الاغلبية فى البرلمان . وحل الملك البرلمان ، ولكن الاحرار عادوا أقوى مما كانوا فى أى وقت مضى ، وارتاع الملك لهذا ونزع الى التسليم . ولو أن الملك انتهى الى التسليم لصارت بروسيا ديموقراطية برلمانية ولتغير تاريخ العالم أتم التبديل . غير أن المحافظين أقنعوه بأن يقوم بمحاولة أخيرة قبل أن يذعن . وقد يستطيع بسمارك ، الذى عرف عنه أنه رجعى جرىء حازم والذى أشار باتخاذ اجراءات صارمة فى سنة ١٨٤٨ أن يجد وسيلة لهزيمة الاحرار واستدعى بسمارك من أفينيون وتمت بينه وبين الملك وليام مقابلة خطيرة . وعندما أشار بمقاومة البرلمان أبدى وليام تخوفه من أن يكون مصيره الى الجلاد مثل مصير تشارلز الاول . فأجاب بسمارك أنه من ناحيته على استعداد للقاء المصير الذى يلقيه استرفورد . وذكر الملك بالنخوة البروسية . واذن الملك الذى لم يكن قد اقتنع كل الاقتناع ، الى بسمارك مبدئيا أن يبحث الموضوع . وأثبتت الاحداث أنه لم يكن بين الاحرار « اللاندتاج » من يماثل كروموبل وأن مخاوف الملك لا أساس لها .

وبدأ بسمارك بأن أبلغ البرلمان أنه سيمد العمل بالضرائب السابقة بمرسوم وأنه سيترك للمستقبل أمر اصدار قانون لتصحيح الوضع . وفى خطابه الاول فى اللاندتاج تقدم بعرض للمصالحة كان قد تدرب عليه فى افينيون ، ولكنه وجدأن الوقت لم يكن قد حان بعد لأن يتقدم به للمعارضة ومضى يقول :

« ان أنظار ألمانيا لا تتعلق باتجاه بروسيا التحررى بل تتعلق بعظمتها .. ان بروسيا يجب أن تحتفظ بقوتها للوقت المناسب الذى فاتها فعلا

أكثر من مرة . والمسائل الكبرى اليوم لن تحسمها الخطب ولا قرارات الاغلبية - لقد كان هذا هو الخطأ الذى وقعنا فيه سنة ١٨٤٨ وسنة ١٨٤٩ - بل الذى يحسمها الدم والحديد .

تلك لغة لم يكن البرلمان قد ألف سماعها من قبل . وكان الرد عليها « خطبا وقرارات للاغلبية » الا أن البروسيين استمروا يدفعون الضرائب غير القانونية التى ظلت تجنى منهم ، ونفذ الملك الاصلاحات التى أرادها فى الجيش ، وثبت أن البرلمان عاجز . هذا بينما قرر بسمارك أن يتيح للبلاد شيئا آخر تفكر فيه .

ولحسن الحظ ثارت مشكلة شلزفيج وهولشتاين فى ذلك الوقت بالذات وكانت هاتان الدوقيتان تابعتين للملك الدنمارك منذ سنة ١٤٦٠ ، ولكنهما لم تكونا جزءا من مملكة الدنمارك نفسها ، وكانتا تخضعان لقانون مختلف عنها ، فى وراثة العرش . وكانت هولشتاين جزءا من الامبراطورية الرومانية المقدسة ويسودها شعور موال لالمانيا ، وكانت الغالبية فى شلزفيج أو فى الجزء الشمالى منها على الاقل ، تميل الى الدنمارك .

وكان الوريث الشرعى لهما بسبب اختلاف قانون الوراثة فيها هو دوق أوجستنبرج لا ملك الدنمارك . وكان والد الدوق أوجستنبرج قد نزل عن حقوقه فيهما مقابل مبلغ من المال ، لكن هذه الحقوق قد يستطاع احياؤها . وحدثت تعقيدات لا نهاية لها . قال بالمرستون : ان المشكلة لايستطيع فهمها فى العالم الا ثلاثة - زوج الملكة ، وكان قد توفى ، وأستاذ جامعة ألمانى ، وكان عندئذ فى مستشفى المجانين ، وهو شخصيا . وقد نسى كل ما يتعلق بها . الا أنه على الرغم من كل هذه التعقيدات كان يوجد شىء واحد واضح ، وهو أن بروسيا ليس لها أى حق فى شلزفيج وهولشتاين . ولكن بسمارك قرر أن بروسيا يجب أن تستولى عليهما ، وقد أخذتهما بروسيا فعلا نتيجة لحربين . وقد قال الملك فى سنة ١٨٦٣ عندما اقترح بسمارك ضمهما « ولكنى ليس لى حق فى هذين الدوقيتين » فأجاب بسمارك : « هل كان للمنتخب الاكبر ، هل كان للملك فردريك أى حق فى بروسيا وسيليزيا ؟ لقد عمل آل هوهنزلون كلهم على توسيع رقعة الدولة » وارتاع الملك من حديث بسمارك ، كما كان يحدث كثيرا ، ولكن بسمارك نال ما أراد فى النهاية .

وكانت الخطوة الاولى عقد حلف مع النمسا اتفق الطرفان - النمسا وبروسيا - بمقتضاه على تسوية المسألة فى صالح دوق أوجستنبرج فى الظاهر . وفى سنة ١٨٦٤ استولى الطرفان على الدوقيتين عقب حرب قصيرة مع الدنمارك فأخذت النمسا مؤقتا هولشتاين وأخذت بروسيا شلزفيج ، وقد اعترفتا كلاهما وقتئذ بأن مطالب دوق أوجستنبرج ليس لها أساس . واستشاطت الدول الاخرى ، وخاصة انجلترا ، غضبا ، ولكنها لم تستطع أن تفعل شيئا .

وكانت الخطوة التالية هى التصرف مع النمسا ، وهنا كان على بسمارك أن يتغلب على الشعور بالاخوة الالمانية الذى يعد الحرب مع النمسا من قبيل قتل الاخ أخاه • وكان هناك فريقان من دعاة الوحدة الالمانية أولئك الذين يريدون « ألمانيا العظمى » التى تضم النمسا ، وأولئك الذين يريدون «ألمانيا الصغرى» التى لا تضمها • ولكن الوحدة التى تضم النمسا كانت من الناحية السياسية غير عملية بسبب ممتلكات آل هابسبورج غير الالمانية • وكانت النمسا دائما منذ سنة ١٨١٥ العقبة الرئيسية فى سبيل الوحدة فكان ابعادها عن الاتحاد الالمانى ضرورة أولية • وقد أدرك بسمارك ذلك ولكن كثيرا من الوطنيين الالمان لم يدركوه • ومن ثم كان عليه أن يعمل على ضمان كل تأييد ممكن فى حربه مع النمسا سنة ١٨٦٦ •

ففى ٨ ابريل سنة ١٨٦٦ عقد بسمارك حلفا مع ايطاليا تعهدت ايطاليا بمقتضاه أن تعلن الحرب على النمسا اذا فعلت بروسيا ذلك خلال الاشهر الثلاثة التالية: وتعهد الطرفان بألا يعقدا صلحا الا مشتركين على أن تستولى ايطاليا على فينيسيا وتأخذ بروسيا غنيمة موازية لذلك على حساب النمسا • وفى اليوم التالى عمل بسمارك على أن يعرض قرار على المجلس الاتحادى يقضى بانتخاب برلمان لألمانيا كلها على أساس منح حق الانتخاب لجميع الرجال (يفهم منه ضمنا استثناء النمسا) ، على أن يقوم هذا البرلمان بوضع دستور ألمانى مستعينا بمشورة من يراه من الامراء • ورفضت النمسا طبعا هذا الاقتراح الذى لم يكن الغرض منه سوى استمالة الراغبين فى الوحدة على أساس ديموقراطى • وصدرت الاوامر الى الجيش البروسى بدخول هولشتاين التى انسحب منها النمساويون دون قتال • ولما لم تفلح هذه الخطة فى اثارة الحرب تقدم بسمارك الى المجلس الاتحادى باقتراح بوضع نظام جديد مستبعدا النمسا منه صراحة • فأعلنت النمسا أن بروسيا قد خرقت الدستور الاتحادى وطالبت كل أعضاء الاتحاد الالمانى الآخرين بتعبئة قواهم ضد بروسيا • وردت بروسيا بانذارها نهائى وبدأت الحرب •

واستلزم الامر مداراة الملك كالعادة • وفى سبيل ذلك حافظ بسمارك على أسلوب ورع فى لهجته يستعمله فى هذه المناسبات ووجد أنه يترك أثره • وقد كتب خلال هذه الازمة يقول :

يا صاحب الجلالة انه مما يتعارض مع مشاعرى ، بل انى أستطيع أن أقول مع ايمانى ، أن أحاول ملحا أن أؤثر فى سيدتكم العلية فيما تتخذونه من قرارات فى مسائل الحرب والسلم • وأترك الامر الى الله العلى القدير ليسدد خطى جلالتكم لما فيه خير الوطن وانا لأكثر ميلا الى الدعاء منى الى تقديم النصح فى هذا المجال • ولكننى لاأستطيع أن أخفى عنكم انى مقتنع بأننا اذا حافظنا على السلم الآن فان خطر الحرب سيعود ، وقد يكون ذلك خلال بضعة أشهر وفى

ظروف أقل ملاءمة من الظروف الحاضرة . ان السلم لا يمكن أن يدوم الا اذا كان الطرفان يرغبان فيه .. وأن رجلا مثل خادم جلالتكم المخلص الامين على صلة وثيقة بالسياسة النمساوية خلال الستة عشر عاما الماضية ، ليس فى وسعه أن يشك فى أن العداء فى فيينا نحو بروسيا قد أصبح المحرك الرئيسى لسياسة الدولة ، بل لعلى أستطيع القول بأنه قد أصبح المحرك الوحيد لهذه السياسة . وسيصبح هذا المحرك نشطا فعالا ساعة يجد مجلس الوزراء فى فيينا أن الظروف قد أصبحت أكثر ملاءمة مما هى الآن . وستكون أول محاولة تقوم بها النمسا هى أن تعمل على خلق الظروف فى ايطاليا وفرنسا بحيث تصبحان أكثر ملاءمة لها . »

وكتبت ولية العهد (التى صارت فيما بعد زوجة الامبراطور فردريك) الى أمها الملكة فكتوريا تصف بسمارك بأنه « الرجل الشرير » وتعبر بذلك عن الشعور العام لدى الالمان الاحرار . ولكن بسمارك كان يعرف أن الانتصار سيجعل الجميع يعفون عنه ، وكان مولتكه رئيس أركان الحرب قد أكد له بأن الانتصار محقق . هذا الى أنه عندما استشار الكتاب المقدس ينشد فأله فيه وقع على الفقرة التى تقول « عندما يرتد أعدائى على أعقابهم فانهم سيسقطون ويبيدون فى حضورك . لأنك قد حافظت على حقى وقضيتى وجلست على عرشك تحكم بالحق . » هذا ما كتبه بسمارك الى زوجته على أن هذا لم يبدد كل شكوكه ، فهو يكتب قائلا « اننا واثقون كل الثقة ولكن يجب ألا ننسى أن الله العظيم يغير الامور كما يشاء .

ولم يستمر الحرب طويلا وانتصرت بروسيا انتصارا مؤزرا وأصر بسمارك الذى كان يعرف أنه سيحتاج الى صداقة النمسا فيما بعد، على السلام بمجرد أن أصبحت أغراضه مستطاعة . وكان الملك والقواد يرغبون فى دخول فيينا فى موكب نصر ، ولكن بسمارك دافع عن رأيه وبكى ، وكان له فى النهاية ما أراد . وحصلت ايطاليا على فينيسيا وحصلت بروسيا على شلزفيج - هولشتاين - وهانوفر ونسا وفرانكفورت وهيس - كاسل والقسم الشمالى من هيس - دارمستاد . وحل الاتحاد الجرمانى القديم الذى كانت تسيطر فيه النمسا ، تكون بدلا منه اتحاد شمال ألمانيا اتفق على أن يتكون فيه رايختاج ينتخب على أساس حق الانتخاب لجميع الرجال وأن يكون رئيسه ملك بروسيا . ولم يبق بعد ذلك الا خطوة أخرى واحدة لتتم الوحدة الالمانية الكاملة . وكانت ألمانيا موحدة فعلا من الناحية المالية عن طريق الاتحاد الجمركى - باستثناء مدن الهانس - الا أن تجديد الاتحاد الجمركى بعد الحرب التى وقفت فيها معظم ألمانيا الجنوبية مع النمسا كان يتطلب معاهدة جديدة لم يوافق بسمارك على عقدها الا اذا اقترنت بتحالف عسكرى كانت لبروسيا فيه اليد العليا . وقبلت ألمانيا الجنوبية شروطه مع بعض الامتعاض ، وجدد الاتحاد الجمركى عن طرية « الجمارك » .

وانتخب لاندتاج جديد فى بروسيا خلال الحرب التى قامت فى سنة ١٨٦٤ وكانت بروسيا قد كسبت الحرب قبل أن يجتمع وأصبح بسمارك بطلا قوميا • وعندئذ حان الوقت لتقديم غصن الزيتون الذى كان بسمارك قد جاء به معه من أفينيون وأقر اللاندتاج الحكومة على جمعها الضرائب على أساس غير شرعى منذ سنة ١٨٦٢ ، وأقرها أكثر من ذلك على انشائها للجيش الذى حقق هذه الانتصارات الرائعة المحيية • وانقسم الاحرار الى فريقين ، أكبرهما الفريق الذى أطلق على نفسه الحزب الحر وكان أكثر مؤيدى بسمارك وولاء له • ومن الغريب أن بسمارك واجه صعوبة أكبر مع المحافظين الذين استشاطوا غضبا لتحالفه مع ايطاليا ضد النمسا • وكان خلافه معهم قد بدأ خلال حرب القرم عندما فضل صداقة روسيا على صداقة النمسا • وكان الذى دفعه الى ذلك أنه منذ أن ذهب الى فرنكفورت سنة ١٨٥١ أحس بأنه لا بد لبروسيا بضرورة أن تؤكد وجودها ضد الغطرسة النمساوية التقليدية • فقد كان المألوف فى اجتماع المبعوثين فى فرانكفورت ألا يدخن الا المبعوث النمساوى وحده • ولكن بسمارك أشعل لفافته بكل جرأة • وعندما قابله المبعوث النمساوى مرة مرتديا قميصه فقط قال بسمارك « نعم ، ان الجو حار » وخلع سترته • وكانت هذه التصرفات تقريرا بما سيحدث فى المستقبل •

ولم يكن بسمارك يحترم مبدأ الشرعية فى وراثة العرش • فقد كان هدفه الوحيد مصالح بروسيا ، وكان على أتم استعداد لان يصادق نابليون الثالث رجل الخطيئة ، كما كان المحافظون يسمونه ، اذا كانت صداقته تساعد على جعل بروسيا عظيمة • وقد كتب فى سنة ١٨٥٧ الى صديقه المحافظ المتطرف ونصيره السابق جيرلاخ يقول :

« ما هو عدد الجماعات التى ظلت قائمة فى عالم السياسة اليوم وليس لها جذور فى التربة الثورية ، اليك مثلا أسبانيا والبرتغـــال والبرازيل وكل الجمهوريات الامريكية وبلجيكا وهولندا وسويسرا واليونان والسويد وانجلترا ولم تزل هذه الاخيرة تعمل عن قصد حتى اليوم فى ظل ثورة سنة ١٨٦٦ المجيدة • بل أن الاقاليم التى فى يد الامراء الالمان الحاليين والتى حصلوا على بعضها من الامبراطور والامبراطورية ،وعلى بعضها الآخر من نبلائها وباروناتها وعلى جزء آخر منها من ممتلكات بلادهم نفسها ، ليس لديهم ما يثبت شرعية ملكيتهم لها • ونحن لا نستطيع فى حياتنا السياسية نفسهـــا أن نتجنب استخدام التأييد الثورى » •

ونادى قبل ذلك فى سنة ١٨٤٨ يقول : « ماذا يهمنى من أمـر الدويلات الصغيرة ، ان همى الوحيد هو المحافظة على قوة بروسيا وزيادتها » وقـــد كانت هذه فى الواقع هى وجهة نظره طوال حياته السياسية • ولم يعمل للوحدة الالمانية الا بعد أن وجد وسيلة يربط بينها وبين زيادة قوة بروسيا ولم يكن له أى مبدأ يسير عليه فى السياسة الدوليـة عـلى نقيض أصحاب

مبدأ الشرعية • فلم يكن يهمه نوع الحكم الذى يختاره الفرنسيون لأنفسهم فسواء لديه أكان يحكمهم ملك من آل بوربون أم بونابارت أم كانت لهم حكومة جمهورية ، وسوآء أكانت حكومتهم فاسدة أم صالحة ، وسواء أكانوا سعداء أم أشقياء • لقد كانت هذه كلها فى نظره أمورا لا يحفل بها الوطنى البروسى الا من حيث تأثيرها فى قدرة فرنسا على الاضرار بجيرانها • وهو يختلف فى ذلك عن المحافظين والاحرار على آلسواء ، ولكنه علم الدنيا أن تعتنق مبادئه • وقد أتبع القيصر مبادئه هذه وعقد فيما بعد محاولة مع حكومة فرنسا الجمهورية الملحدة دون أن يخشى شيئا •

وبقيت مهمة واحدة يجب القيام بها قبل أن تتم وحدة ألمانيا وهى أن يشترك الشمال والجنوب فى حرب ضد فرنسا ، يجب أن يبدوانها حرب فرضنها آلغطرسة الفرنسيه على ألمانيا • وكان بسمارك مقتنعا بأنه ليس هناك ثمة وسيلة أخرى تحقق الشعور اللازم لاتمام الوحدة تحت زعامة بروسيا • وكان لابد عن اعداد العدة بعناية للحرب ضد فرنسا • فأما الاستعدادات العسكريه يمكن تركها باطمئنان فى يد مولتكه ، ذلك أن بسمارك كان حريصا على ألا تؤدى سياسته الا آلى الحرب التى يثق مولتكه فى أنه سينتصر فيها • وذلك على الرغم مما كان يقوم بين الرجلين من نزاع فى كثير من الاحيان • وكان مولكته ، بعد تجربة حربين ، وبعقد حلف عسكرى مع الولايات الالمانية الجنوبية ، على استعداد لأن يعده بالنصر اذآ أعطى فرصة عامين أو ثلاثة أعوام ليستكمل استعداداته العسكرية • وأما آلمشاكل الاخرى فكانت مشاكل دبلوماسية • فقد كان من الضرورى التأكد من حياد الدول الكبرى الاخرى • وقد ضمن حياد روسيا بأن وعدها بتأييده فى اعادة النظر فى معاهدة سنة ١٨٥٦ الخاصة باغلاق المضيقين • وكان من الممكن أن تقف انجلترا الى جانب حليفتها فى حرب آلقرم • ولكن بسمارك خدع نابليون فجعله يبدى رغبته كتابة فى ضم بلجيكا الى فرنسا ، وضمن اعلان هذه الرغبة فى اللحظة المناسبة منع انجلترا من مساعدة فرنسا • وظل موقف ايطاليا والنمسا موضع شك حتى النهاية ، ولم يضمها الى صف ألمانيا الا هزائم نابليون العسكرية • وكان يسع ايطاليا أن تقف الى جانب فرنسا لو أن الامبراطور وافق على أن يحتل فيكتور عمانويل روما ، ولكنه رفض تحت تأثير تعصب يوجينى • وهكذا ترك الامر لمواطنى لوثر فى أن يقوضوا سلطة البابا الزمنية فى معركة سيدان •

وقد عالج بسمارك المراحل الاخيرة التى أدت الى الحرب مع فرنسا بمهارة فائقة • فقد كان بسمارك ونابليون كلاهما رجلين سافلين ، غير أن أحدهما كان ماهرا وكان الآخر غبيا ، وجعل السافل الماهر سفالة الآخرين واضحة لكل الاعين فى أوروبا وأفلح فى اخفاء سفالته هو • وكان بسمارك يفشل فى

آخر لحظة بسبب أمانة الملك وليام الساذجة · ولكنه استطاع « بنشره » برقية ايمز أن ينجح فى اشعال الحرب التى يريدها فى اللحظة التى كان كل شىء معدا لها ·

وكانت نتيجة الحرب ، كما يعرف الجميع أن ضمت المانيا الالزاس واللورين وتكونت الامبراطورية الالمانية ، وكانت نتيجتها بالنسبة لفرنسا أن أدت غرامة حربية ضخمة كما قامت فيها الجمهورية الثالثة وأبيدت حكومة كوميون باريس التى قضى عليها بوحشية لا مثيل لها على يد حكومة الحرية والمساواة والاخاء الجديدة ·

وكان للامبراطورية التى ضمت ألمانيا كلها باستثناء النمسا الجرمانيـــة دستور اتحادى يشبه كثيرا دستور الاتحاد الالمانى الشمالى الذى أنشىء سنة ١٨٦٧ · وصار ملك بروسيا آمبراطورا لالمانيا ، ورئيس وزراء بروسيـــا مستشارها الامبراطورى ، وكان هو والوزراء الآخـــرون مسئـــولين أمام الامبراطور فقط لا أمام البرلمان · وأنشىء مجلس اتحادى (بوندسرات) مكون من مندوبين تعينهم الولايات المختلفة ومجلس نواب (رايخستاج) ينتخب مباشرة على أساس حق الانتخاب العام للرجال · وكان الرايخستاج يسيطر على المالية وكانت موافقته لازمة على القوانين ، ولكن اقتراح التشريعات كان من حق البوندسرات · ظل بسمارك مستشارا حتى سنة ١٨٩٠ ولم يحـــد البرلمان فى الواقع من سلطته · وكانت الطبقة الوسطى قد أخضعت ولم تواجه بسمارك بعد ذلك مطلقا صعاب مثل التى واجهها سنة ١٨٦٢ وكان عداء فرنسا الصامت مما يتفق وأغراضه لأنه كان يهيىء سببا واضحا للابقاء على القوة العسكرية الالمانية الا أنه لم يجد فرصة لاثارة حروب أخرى لان العالم قد اقتنع بأن القتال مع بسمارك ليس من حسن السياسة ·

ولعل الاعمال التى قام بها من سنة ١٨٦٢ وسنة ١٨٧١ أمهر ما عرف من أعمال فى تاريخ الحنكة السياسية وأكثرها مدعاة للاعجاب · فقد كان عليه أن يسيطر على الملك الذى كان ابنه وزوجته وزوجة ابنه يضمرون له [illegible] الذى كان يبغضه ويبغض سياسته فى أول الامر ، وكان عليه أن يجعل القومية الالمانية قومية محافظة لا حرة ، عسكرية لا انسانية ، ملكية مطلقة لا ديمقراطية · وكان عليه أن ينتصر على الدانيمركيين والنمساويين والفرنسيين على الرغم من أن الدول الكبرى الاخرى لم تكن واحدة منها تريد له النجاح · ولم يكن يستطيع أن يسمح للملك بأن يفهم سياسته ، لانها لم تكن من النوع الذى يرضى عنـــه جندى قديم أمين · ولم يكن يستطيع أن يسمح للعالم أن يفهمها لأن العالم كان يقضى عليها لو أنه فهمها · وكان فى كل لحظة معرضا لكارثة مذهلة · وكان من حسن حظه أنه لم يوجد وقتئذ فى أى بلد آخر من يفهم ألاعيبـــه

السياسة كما كان يفهمها هو . وحتى دزرائيلي ، كان طفلا في يده كما ثبت فيما بعد ، وظلت النسا وفرنسا وآنجلترا وروسيا تنفذ مشيئته طوال السنوات الحرجة . وكان يواجه استياء شديدا ضده في كل مكان ، ولكن هذا ما لبث أن زال في كل مكان الا في فرنسا . وأصبحت ألمانيا في النهاية من القوة بحيث صارت معارضتها غير مجدية .

وتحمل أعمال بسمارك طابع شخصيته التي كانت ضخمة مهولة ومعقدة ومتعددة النواحي ، فقد كتب مرة الى زوجته ابان خطوبتها يقول بمناسبة قصيدة قرأها لها : « ان أكثر ما يسرني في ليلة كهذه أن تجيش نفسي رغبة في المشاركة في هذه المهمة وأن أصبح جزءا من عاصفة الليل ، على ظهر جواد جامح يطوى الارض على الصخور في ظل رعد العاصفة في بلاد الراين . » وكان في صباه يفضل بيرون على كل من عداه من الشعراء ، وعلى الرغم من أنه نبذ بيرون بعد زواجه فان خطاباته لزوجته تدل على أن هذا الجانب من طبيعته لم يزل حيا ، فهو يقول لها « ان ما هو رائع في أرضنا هذه ليشبه على الدوام ملاكا ساقطا ، فهو جميل ولكن ينقصه السلام ، عظيم في مشروعاته وجهوده ولكنه لا ينجح أبدا ، انه فخور ولكنه مكتئب حزين » . وكان بسمارك مزيجا من الوحشية والرقة : رقيق نحو الذين لا يقفون في سبيله بأي شكل من الاشكال ـ كزوجته وأولاده والخيل والكلاب ، وحتى مع كل من يعارضه . فقد أظهر وحشية لا مثيل لها ابان الحرب مع فرنسا » أن كل قرية ارتكب فيها عمل من أعمال الخيانة تحرق بأكملها ويشنق كل سكانها من الرجال » وجاءته امرأة في « كومرس » تسترحمه ليعفو عن زوجها الذى قبض عليه » استمع الوزير (بسمارك) اليها في لطف وعندما انتهت قال لها بأعظم ما يستطيع من العطف : حسنا يا سيدتي الطيبة ـ في وسعك أن تطمئني تماما الى أن زوجك (ورسم خطا بأصبعه حول عنقه) سيشنق في القريب العاجل » (١) وعندما أشيع أن غاريبالدى و ١٣٠٠٠ من المتطوعين وقعوا في الاسر قال : « لماذا لم يقتلوا رميا بالرصاص ؟ » وقال في مناسبة أخرى انه اذا قبض على غاريبالدى « فاننا سنعرضه على الجماهير بتذاكر وسنعلق حول رقبته بطاقة كتب عليها (ناكر الجميل) وكان يرى أنه يجب الا يؤسر السود بل لابد من قتلهم ولم يكن يحس بأى عطف على الفرنسيين في محنتهم بل كان يسخر منهم جميعا ، وعندما بدا على «فافر» أنه مريض قال عنه أنه يصطنع المرض بقصد استثارة الشفقة . الا انه كان يشعر بقلق شديد جدا على مصير أولاده . فقد قال مرة وهو يتجول على جواده بين الجثث بعد معركة كوننجراتير : « أن قلبي ليرتجف كلما تصورت أن هربرت قد يرقد هكذا في يوم من الايام . » لقد كانت مشاعره بدائيـة وقسمت

---

(١) لوخ « بسمارك » ص ٢٠٧

الجنس البشرى الى فريقين ، أصدقاء وغير أصدقاء ، ولم يكن غـير الاصدقاء يثيرون فى نفسه أية شفقة مهما حدث لهم .

وكان العالم الذى خلقه كان على منوال مشاعره . فقد كان عالما مقسما الى ألمانيا ، التى يجب أن ترعى وتعز ، وبقى الكرة الارضية وهو اما أن يستغل أو يخضع . وكان هو نفسه فظا ، قلقا ، ذا بطولة ؛ يريد أن يصوغ العالم على منواله . وقد نجح فى ذلك الى حد كبير لسوء الحظ .

٣ ـ النمو الاقتصادى للامبراطورية الالمانية

الفصل الثلاثون

النمو الاقتصادى للامبراطورية الالمانية

كان نمو الصناعة فى ألمانيا خلال الاعوام الثلاثة والاربعين ، منذ قيام الامبراطورية الى بداية الحرب الكبرى سريعة سرعة غير عادية وتميز بسمات جديدة ففى انجلترا وأمريكا كان التصنيع أمرا يتم خبط عشتواء ويقوم على المشروعات الفردية وكانت الحكومة فى انجلترا حتى سنة ١٨٤٦ ،وفى أمريكا حتى سنة ١٨٦٠ ، تفضل الزراعة على الصناعة . وأدى مبدأ حرية العمل والتجارة الى عدم قيام توجيه مركزى فى شئون الحياة الاقتصادية . فقد كان يظن أن أكثر المشروعات ربحا أكثرها فائدة من الناحية الاجتماعية ، وأن الانانية المستنيرة أفضل من التدخل الحكومى .

لكن هذه القواعد قد أصبحت فى سنة ١٨٧١ عديمة الاثر فى سياسة ألمانيا التى نبذت الفلسفة التحررية وساد الاعتقاد بأن النشاط الاقتصادى ينبغى أن يكون بحيث يؤدى الى الرخاء القومى ، وأن الحكومة يجب أن تتدخل اذا لم تحقق القوى الطبيعية هذه النتيجة . ونتج عن ذلك أن النمو الاقتصادى الذى كان ينظم مركزيا على نطاق قومى ،تم بمهارة وتفكير وأحست الدولة أنها شريك فى كل المشروعات التى لاقت قبولا .

وهكذا استعملت عدة دوافع قديمة فى اتجاهات جديدة . فالولاء للدولة والتعاون بين المواطنين والرغبة فى العظمة القومية استغلت فى الحياة الاقتصادية بطريقة لم يلجأ اليها كبدن وأتباعه الذى كان كما قال تريتشكى ، يغفل القوتين الكبيرتين فى التاريخ العام ، قوة الغباء ، وقوة الخطيئة » وكان كبدن ينظر الى القومية باعتبارها انما ارستقراطيا يجب ألا ينغمس فيه أصحاب المصانع ، ويؤمن بأنهم ينبغى ألا يتطلبوا من الدولة كثيرا وألا يعطوها فى مقابل ذلك الا القليل . كما أن مزايا التجمع الاقتصادى لم تكن مما يروق له : فغزالو القطن فى مانشستر لم يكونوا يرغبون فى امتلاك مزارع فى «الولايات الجنوبية » أو سفن لنقل المواد الخام اذ لم تظهر فائدة تجميع ما كان يعتبر أصلا انواعا من الصناعة مختلفة كل الاختلاف الا فى المراحل الاخيرة من النمو الصناعى ، كما حدث مثلا فى موثقة الصلب فى أمريكا . واستطاعت ألمانيا التى بدأت متأخرة أن تفيد من تجارب الآخرين وأمكن عن طريق الشعور القومى توجيه دافع المنافسة الى الخارج ، ضد الاجانب بينما يسر الولاء للدولة تحقيق مزايا التعاون فى الداخل . وهو ولاء من الطراز القديم الموجه أولا الى شخص صاحب السيادة . كان من اليسير فى ألمانيا أن يرتبط الولاء بالدولة لأن الدولة كانت لم تزل صاحبة السيادة،

أما فى انجلترا أو أمريكا فقد جعلت الثورة والروح الجمهورية ذلك مستحيلا وكان هذا الدافع مهما بصفه خاصة فى تسهيل انشاء بيروقراطيــة قادرة أمينة ، وما كان النمو الاقتصادى فى ألمانيا ليتم بدونها بالصورة التى تم بها فعلا ٠

ولم تكن القومية الاقتصادية مذهبا جديدا ٠ فقد كان هذا المبدأ مسلما به فى القرن السابع عشر عدا ربعه الاخير ٠ وقد أبرز آدم سميث ، أول من تحدى هذا المبدأ ، تأثيره بأن أطلق على كتـابه « ثروة الامم » الا أن آراءه وآراء الراديكاليين الفلسفيين التى جاءت بعدها أدت الى عالميــة اقتصادية بلغت ذروتها فى العقد السابق ٠ ولسنا ننكر أن نظرة أنصار حرية التجارة المناهضة للقومية لم تحظ أبدا بانتشار واسع ٠ فقد ظل اسكندر هاملتون معاصر آدم سميث ، على ولائه للنظرة القديمة ، وتسبب بكتابه « تقـرير عن المصنوعات » فى أن أتبع الجزء الاقتصادى من أمريكا صورة قومية فى الشئون الاقتصادية ٠ وتشبع فردريك ليست ، الذى عاش فى أمريكا من سنة ١٨٢٥ الى سنة ١٨٣٢ بمذهب هاملتون (١) ، وعلمه للالمان فى كتابه « النظـــام القومى فى الاقتصاد السياسى » الذى نشر فى سنة ١٨٤١ ٠ وكان تيـــار آراء كبدن قويا جدا فى ذلك الوقت ، حتى ليست نفسه لم يدع الا الى حماية « الصناعات الوليدة » بينما كان يؤمن فى نفس الوقت بحرية التجارة فى النهاية ٠ الا أنه عندما أوقع بسمارك الهزيمة بالنزعة الحرة ونصر القومية تذكر الناس ليست وتبين أنه كان قد ساق حججا نظرية تؤكد ما كان ألمان العقد الثامن يريدونه ٠ ويرجع السبب فيما كان له من أهمية الى أنه كان ينظر الى الشئون الاقتصادية من الناحية القومية ٠

ومن العجيب أن نلاحظ أن اليابان بدأت ، فى نفس الوقت تقريبا تتطور تطورا مماثلا لهذا يجمع بين العسكرية والتصنيع والولاء للدولة والمهارة الفنية الصناعية الحديثة ، وحدث فيها تحول أسرع مما حدث فى ألمانيــا تناول عادات الناس وطريقة تفكيرهم ٠

ويتمثل الفرق بين بروسيا والديموقراطيات الغربية فى سياسة السكك الحديدية ٠ فمبدأ ملكية الدولة للسكك الحديدية ، الذى كان فى انجلتـرا وفرنسا اجراء دعا اليه الاشتراكيون ، قد سار عليه بسمارك ونفذه بوصفه جزءا من السياسة المحافظة التى كان يسير عليها ٠ فقد كان يريد أن تكون

---

(١) يقول ليست فى كتابه « مجمل الاقتصاد السياسى الامريكى » ما ياتى :

لقد وجدت أن الاجزاء التى يتكون منها الاقتصاد السياسى هى : ١ — الاقتصـاد الفـردى ٢ — الاقتصاد القومى ٣ — اقتصاد « الجنس البشرى »

ويعالج سميث الاقتصاد الفردى واقتصاد الجنس البشرى ٠٠ ونسى كل النسيان الموضوع الذى يدل عليه عنوان كتابه « ثروة الامم » ٠

السكك الحديدية من أملاك الامبراطورية ولكن حب التملك بين الافراد حال دون ذلك الا فى الالزاس واللورين حيث صارت السكك الحديدية من الاملاك الامبراطورية بمقتضى معاهدة الصلح : الا أنه أستطاع أن يشترى السكك الحديدية فى بروسيا لحساب ولاية بروسيا ، وقبل أن يتقاعد فى سنة ١٨٩٠ لم يعد فى بروسيا الا عدد قليل من الخطوط الخاصة · واستمرت سياسة الملكية العامة بعد سقوطه فى جميع الامبراطورية الالمانية لا فى بروسيا وحدها ، فلم تحل سنة ١٩٠٩ كان فى ألمانيا ٦٠٫٠٠٠ كيلو متر من خطوط السكك الحديدية لم يكن من بينها سوى ٣٦٠٠ تملكها جهات غير عامة عـدا بعض الخطوط الضيقة المحلية · وكانت ادارتها تدعو الى الاعجاب ، وخفف الدخل المتحصل منها عبء الضرائب كثيرا · ووضعت تعريفـة النقـل بالسكك الحديدية بحيث تعمل على تشجيع التصدير · وكانت الدولة بطبيعة الحال متيقظة للاعتبارات العسكرية واستطاعت أن تنشىء ما كانت تتطلبـه الضرورات الفنية الحديثة من سكك حديدية دون أن تضطر الى مناقشـة الموضوع مع هيئات الموضوع من الرأسماليين غير الرسميين ·

ورسمت بيروقراطية بسمارك الاشتراكية للوقاية من اشتراكية الماركسيين البرولتيارية · وقد نجحت هذه السياسة أتم النجـاح فى حالة السكك الحديدية ويقول كلاهام فى هذا :

ورسمت بيروقراطية بسمارك الاشـتراكية للوقايه من اشـتراكيه الماركسيين البرولتياريه · وقد نجحت هذه السياسة أتم النجـاح فى حالة السكك الحديدية ويقول كلاهام فى هذا :

« يجب ألا يغيب عنا النظام العسكرى الصـارم الذى طبق على موظفى السكك الحديدية » · وقد كتب ألمانى فى ذلك يقول : لم يكن البريد والسكك الحديدية الا قسمين مدنيين من أقسام الجيش · وكان مديروهما فى كثير من الاحيان من قواد الجيش ، على الاقل فى بروسيا · وكانت هناك حقائق أخرى أكثر دلالة من ذلك فى هاتين المصلحتين · كان ثلاثة أرباع مليون رجل يقفون وقفة انتباه عسكرية عندما يخاطبهم رؤساؤهم » وتفسر هـذه الحقـائق بعض السبب فى الطريقة الممتازة ودقة المواعيد اللتين تميزت بهمـا ادارة السكك الحديدية · وهذه الحقائق هى السبب أيضا فى عدم قيام أية حركة عمالية بين عمال السكك الحديدية تماثل الحركات التى كانت تنمو فى فرنسا وانجلترا خلال السنوات الاولى من القرن العشرين · وقد تطلب الأمر حربا دامت أربع سنوات وانتهت بهزيمة وثورة سياسية قبل أن يضرب عمـال السكك الحديدية (١) ·

---

(١) كلابهام « النمو الاقتصادى لفرنسا والمانيا » ص ٣٤٩ ·

وقد نبذ بسمارك نظرية « حرية العمل والتجارة » فيسياسته الجمركية كما نبذها في السكك الحديدية . فقد جرت بروسيا على سياسة حرية التجارة الحقيقية ، واحتفظ الاتحاد الجمركى (المزلفراين) بتعريفة منخفضة قبل سنة ١٨٦٦ حتى يستبعد النمسا التى كانت تعتبر التعريفة المرتفعة أمرا لا مناص منه . وكانت الصفة الغالبة على ألمانيا انها بلد زراعى وطبيعى أن تكون ضد الحماية بوصفها بلدا مصدرا للمواد الغذائية . ولم يول بسمارك المسائل الاقتصادية شيئا من العناية الا بعد انشاء الامبراطورية ببضع سنوات ، وترك هذه المسائل لرلبروك الذى كان يدين بمبدأ حرية التجارة .

وسارت الامور على اذلالها خلال العامين الاولين . الا ان الازمة العالمية التى حدثت سنة ١٨٧٣ عزيت فى كل مكان الى أسباب محلية ، كما يحدث دائما فى الازمات . واعتقد الكثيرون فى المانيا ان حرية التجارة هى سبب الازمة . وكان لرلبروك قد ألغى الضرائب الجمركية على الحديد فى تلك السنة وقرر الغاء الضرائب على المصنوعات الحديدية ابتداء من سنة ١٨٧٧ . وأخذت الشكاوى تتزايد خلال هذه الفترة حتى اذا كان عام ١٨٧٦ قرر بسمارك ان صحة لرلبروك لم تعد تمكنه من القيام بأعباء منصبه الثقيلة .

ولم يكن ارباب الصناعة وحدهم هم الذين يريدون الحماية . فقد كانت المنافسة الروسية قد بدأت تضر بزراع القمح فى الشمال الشرقى وهم طبقة النبلاء الحديثين (البنكر) التى ينتمى اليها بسمارك نفسه واشد مؤيدى الملكية البروسية . وكانت الحكومة على استعداد لان تبدى ترعاهم رعاية خاصة وكان النتيجة ان تقررت تعريفة جديدة فى سنة ١٨٧٩ تمنح الزراعة والصناعة حماية معتدلة . ورفع بسمارك الضرائب بعد ذلك ثم خفضها كابريفى بعض الشيء . ولكن الضرائب رفعت مرة اخرى فى سنة ١٩٠٢ الى حد كبير باستثناء المواد الخام . وحتى عندئذ ظلت الحماية فى المانيا اقل منها فى أى دولة من الدول العظمى الاخرى باستثناء المملكة المتحدة .

لقد قدر فى سنة ١٩٠٤ ان ما تفرضه المانيا من الضرائب على المصنوعات الهامة التى تصدر لها من المملكة المتحدة يعادل ٢٥٪ من قيمة هذه المصنوعات وكان الرقم المقابل له الذى يفرض على المصنوعات الايطالية هو ٢٧ والفرنسية ٣٤ والنمساوية ٣٥ وعلى مصنوعات الولايات المتحدة ٧٣ وعلى مصنوعات روسيا ١٣١ . وهذه الارقام تقريبية ولكنها توضح الى حد ما الشدة النسبية للتعريفات الجمركية . (١)

ونمت الصناعة الالمانية نموا سريعا مستمرا من سنة ١٨٧٩ الى سنة ١٩١٤ . وسواء كان سبب هذا النماء هو التعريفة الجمركية او لم يكن ولنبدا

---

(١) كلابهام - المرجع ص ٣٢٢

بأكثرها اهمية وهى الحديد والصلب . لقد كانت هذه الصناعة تعتمد أساسا على الحديد الخام المستخرج من اللورين والفحم المستخرج من وستفاليا . وكان الحديد الخام قبل سنة ١٨٧٠ ملكا لفرنسا التى كان تتفوق على ألمانيا فى انتاج الحديد فى العقد السابع . وما ان حلت سنة ١٨٧٥ حتى كانت المانيا تنتج مليونى طن من تماسيح (١) الحديد مقابل ما يقل قليلا عن مليون ونصف تنتجها فرنسا . ثم حدث كساد يرجع بعض سببه الى الازمة العالمية وبعضه الى أن الحديد الخام الالمانى لا يلائم طريقة بسمر . وقد عولج هذا النقص باختراع طريقة توماس جيلكرالست واستعمالها . وقد عاصر ذلك ظهور تعريفة سنة ١٨٧٩ الجديدة . ومن هذه اللحظة تضاعف انتاج الصلب الالمانى تقريبا كل عشر سنوات حتى ارتفع من مليون ونصف مليون فى سنة ١٨٨٠ الى ثلاثة عشر مليونا من الاطنان فى سنة ١٩١٠ . فتفوق بذلك على انتاج المملكة المتحدة فى سنة ١٩٠٠ . ومن ثم بلغت قيمة صادرات المانيا من الحديد والصلب والمنتجات الصناعية منهما اكثر من ١٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠ جنيه انجليزى فى سنة ١٩١٣ ، وكانت الولايات المتحدة الامريكية وحدها هى التى ظلت متفوقة على المانيا فى انتاج الصلب والحديد فى بداية الحرب (العالمية الاولى) .

واتجهت الصناعة فى ألمانيا كما حدث فى أمريكا نحو الاحتكار فى اثناء نمائها . ولم تقع فى ألمانيا تلك الاحداث الغريبة فى المنافسة بين أقطاب الصناعة التى تميز بها تاريخ الولايات المتحدة الاقتصادى ، وقد ادى عدم الايمان بالمنافسة الحرة الى ان تم الاحتكار باتفاقات مناسبة لم تلق من الحكومة اى اعتراض كالذى لقينه من تيردور روز الاتفاقات المماثلة لها فى أمريكا . فقد ضم اتحاد الصلب الالمانى الذى تكون فى سنة ١٩٠٤ كل صناعة الصلب فيها تقريبا . فلم تكن مصانع كروب مثلا الا احدى الشركات التى يتكون منها الاتحاد . بينما سيطرت نقابة فحم « الراين ووستفاليا على نصف انتاج الفحم فى ألمانيا . وواضح ان قوة هاتين المنظمتين العملاقتين عندما تعاونتا تكاد تكون مستعصية على المقاومة وتكون فى الصناعات الاخرى نوع من التجميع أقل تماسكا من الموثقات كما عرفت فى أمريكا اسمه الاتحاد الصناعى « الكارتل » لم يكن يزيد فى كثير من الاحيان عن اتفاق على أسعار البيع .

وكان للاتحاد فى صورة موثقة أو اتحاد صناعى مميزات بالاضافة الى تلك المميزات الاخرى التى يمكن الحصول عليها فى الاقتصاد العادى من الانتاج الكبير . فكان المنتجون يستغلون التعريفة فى رفع اسعارهم الى اقصى حد يتفق وهزيمة المنافسة الاجنبية ويبيعون سلعهم فى الخارج باسعار اقل من

---

(١) Pig iron ويطلق هذا الاسم على الحديد حين يخرج من افران اللفح مباشرة Blast furnaces قبل أن ينقى .
وهذان هما الاسمان اللذان يسمى بهما فى الانجليزية والعربية .

غيرها . وهذا هو ما أصبح يسمى فى انجلترا « بالاغراق » . وكان الاغراق هو المبدأ الذى سارت عليه كل الاتحادات الصناعية التى لها تجـــارة صادرات .

وكانت هناك ميزة اخرى فى المجال السياسى . مثال ذلك ان صناعـــة الصلب فى العالم تستفيد من نوبات الذعر التى تجتاحه . وقد فضح لا يبنجت الداشتاج فى سنة ١٩٠٣ بكشفه عن الوسائل الفاسدة التى كانت الموثقـات الكبرى تتبعها فى اثارة الشعوب المتنازعة الى التسلح بعضها ضد بعض .. وتستطيع التجمعات الضخمة ان تفعل ذلك بسهولة اكثر من عدة مؤسسات منفرقة اقل منها شأنا .

وصناعة الاصباغ والكيماويات ميدان تفوقت فيه ألمانيا على غيرها والسبب الاساسى فى ذلك ارتفاع مستوى التعليم عن غيره فى البلاد الاخرى وان كان لبعض الميزات الطبيعية الاخرى بعض الاثر فى هذا التفوق . ويتمثل العامل الاخير فيما يسميه كلابهام « لاكنز الذى تفردت به المانيا، هواملاح البوتاسيوم الخام » التى لم تنتج منها فى سنة ١٨٦١ غير الفى طن ، والتى ارتفـــع انتاجها فى سنة ١٩١١ الى تسعة ملايين ونصف مليون . وانتجت المانيا من حامض الكبريت ، الذى يعتبر عنصرا مفيدا فى صـــناعة المخصبات خاصة . اكثر قليلا من مائه الف طن فى سنة ١٨٧٨ ، ثم ارتفع الانتاج الى اكثر من اثنى عشر ضعفا فى سنة ١٩٠٧ . وزاد المصـــدر من بضائع الصباغة . التى كانت تعتمد على صناعة الكيماويات زيادة سريعة حتى بلغت فى سنة ١٩١٣ حـوالى عشرة ملايين جنيه استرلينى .

وكانت الصناعات الكهربائية ، كما يقول كلابهام « اعظم عمل صناعى قائم بذاته حققته المانيا الحديثة . فقد كان العالم يواجه طائفة جديدة من المشاكل العلمية والاقتصادية . وقد تفوقت المانيا التى اصبحت امة صناعية كاملة الاستعداد على ما عداها من الدول فى علاج هذه المشـــاكل كما تفوقت أيضا فى كل فروع التخصص التطبيقى للكهرباء خلال السنوات الاولى من القرن الحالى . من افران كهربائية لمصانع الصلب وغيره من فروع الصناعات المعدنية والمعادن الاخرى الى كهربة السكك الحديدية وكهربة الات الزراعة بما فيها المحاريث . والطريقة الكهربائية لانتاج النيتروجين من الهواء (١) .

وكانت هذه الصناعة مثلا من امثلة التركيز ، فقد عقده من فترة المنافسة عدة اتفاقات خلال السنوات الاولى من القرن الحالى ، حتى لم يبق فى نهـــاية الامر سوى مجموعتين . سيمنز والجمين الكتريزيتانس — جيزلشافت . لم تعد بينهما اية منافسة .

---

(١) كلابهام — نفس المرجع ص ٣٠٨

وقد تمت فى ألمانيا فى عقد او حوالى عقد مراحل من النمو اقتضت قرنا فى انجلترا واربعين سنة فى امريكا · وقد رأينا كيف انتقلت القوة فى أمريكا من أيدى رجال الصناعة الى ايدى رجال المال · ولكن القوة فى ألمانيا كانت فى أيدى المضارف منذ بداية الصناعة الحديثة تقريبا · فقد كان فى وسع رجال مثل كارنيجى وروكفلر ان يردوا اى مبالغ اقترضوها لان ارباحهم كانت هائلة · اما فى المانيا حيث قنع رجال الصناعة بارباح اقل · فقد ظلوا عادة مدينين للمصارف وكانت قوة « الدوتيش بانك » بصفة خاصة كبيرة جدا لا فى ألمانيا وحدها بل حيثما تسربت الاموال الالمانية · وكان له فروع فى معظم البلاد من الصين الى بيرو · وكان هو الذى مول سكك شمال المحيط الهادى فى الولايات المتحدة حتى سنة ١٨٩٣ · والمسيطر على سكك تركيا الحديدية · وكانت له مصلحة مالية فى مشروع سكة برلين · بغداد الحديدية · واكتسب المصرف على مر الايام نفوذا متزايدا فى السياسة الالمانية · غير ان هذا النفوذ كان متبادلا · فقد كان استثمار المصرف الاموال فى تركيا ذا اهمية للدبلوماسية الالمانية · وكانت الوطنية والشئون المالية تسيران فى تناسق ووئام · وكان من الممكن تنمية مصالح الماليين بحيث لا تتعارض مع الولاء للدولة ·

وازداد التوجيه الاقتصادى تركيزا بسبب نمو هيئات الاتحاد لصناعى وزيادة قوة المصارف الكبرى · وقد كتب فنصل النمسا فى برلين يقول فى تقرير رسمى بعث به سنة ١٩٠٦ يقول : « لم يحدث قط فيمامضى ان سيطرت جماعة من الرجال يكاد يبلغ عددها خمسين رجلا على الاقتصاد الالمانى هذه السيطرة التامة ، ولم يحدث فى فترة من فترات التوسع الصناعى الماضية ان نبذت القاعدة القديمة الخاصة بحرية القوى الاقتصادية الى الحد الذى بلغه الامر فى سنة ١٩٠٦ عندما كانت القرارات الخطيرة الخاصة بمدى الانتاج والمبيعات فى الخارج والاسعار ومنح الائتمان وتكوين رؤوس الاموال الجديدة وتحديد الاجور واسعار الفائدة كلها مركزة فى أيدى اشخاص قلائل يتولون المناصب الرئيسية فى المصارف الكبرى والمشروعات الصناعية الجبارة والاتحادات الصناعية الضخمة وقد فازت هذه المصالح المتحدة الكبرى بنصيب الاسد من الرواج الصناعى وكانت ارباحها تزيد كلما زاد تركيز الصناعات التى تمثلها فى ايدى النقابات · (١)

ولم تكن عملية التركيز قد وصلت فى الوقت الذى كتب فيه هذا التقرير الى ما وصلت اليه فى سنة ١٩١٤ · وما تزال هذا التركيز مستمرا منذ ذلك الحين ومالم يوقف سيرها العمل السياسى فليس ثمة سبب يمنع استمراره حتى تصبح كل القوة الاقتصادية فى ألمانيا مركزة فى يد شخص واحد · بل يقال

---

(١) ذكرت هذه الفقرة فى كتاب دوسون « تطور المانيا الحديثة » ص ١٧٠

ان هذه المرحلة قد تحققت فعلا وان الرجل الذى بيده هذه القوة هو « تيسن » وان هتلر ليس سوى بوق له (١) ·

وان النمو الحديث للصناعة الكبيرة فى ألمانيا خلال هذا القرن ليتناقض تناقضها عجيبا ما كان باقيا فى ألمانيا من الاثار الاقطاعية عندما تولى بسمارك زمام الامور فيها · فقد ظلت « الطوائف المهنية » باقية حتى سنة ١٨٤٨ عندما حاولت الحركة الثوريه ان تقضى عليها محاولة لم تدم طويلا لان الحـــركة الرجعية اعادها فى العام التالى مباشرة الى ما كانت عليه · وشاهد ذلك ما ينص عليه قانون صدر فى بروسيا سنة ١٨٤٩ وهو ان السلع التى ينتجها الصناع المهرة لا يمكن بيعها آلا فى متاجر يمتلكها رؤساء فى الحرفة الخاصة بها وفى ميكنبرج « احتفظت مطاحن قضاء الاخطاط القديمة حتى سنة ١٨٤٩ بحق طحن الغلال · وكانت مدن الدوقية تستطيع ان تطلب الى اصحاب الحـانات الريفية الا يشتروا الجعة الا من امكنة لا تبعد عن قراهم اكثر من ميلين ، وان تشترى الجعة التى تستعمل فى حفلات التعميد والزواج والجنازات من اقرب مدينة بينما كان صنع البيرة بواسطة الافراد مما يمكن تحريمه بأمـــر المدن (٢) ·

وكان اكثر اجزاء المانيا تأخرا هو ذلك الجزء من بروسيا الذى يقـــع شرق نهر الالب حيث كانت توجد مزارع طبقة كبار الملاك · وكان هؤلاء الكبار اوسع الطبقات نفوذا · وعلى الرغم من ان رق الارض قد الغى فقد صحب الغاءه فى سنة ١٨١٠ « قانون الخدم » الذى لم يكن ينطبق على الخدم بالمعنى المعروف فحسب · بل كان يطبق كذلك على كل العمال الذين يستخدمون بصفة دائمة ويعيشون فى املاك المخدوم ·وهذا القانون «يلزم العمال باطاعة مخدومها الى حد لايكاد يختلف عن الارغام الطليق · وقيد حق الغاء عقود الخدمة تقييدا يصعب معه القول بأن هذا الحق موجود اصلا · وحرم كذلك على العمـــال صراحة بمقتضى قانون ٢٤ ابريل ١٨٥٤ ان يضربوا اضرابا جماعيا ايا كانت الظروف · وكانت عقوبة المخالفة هى السجن · وقصارى القول انه على الرغم من ان عبارة « رق الارض » لم تعد تستعمل فان الرق ظل فى الواقع قائما فى روحه بل فى أثره » (٣) وقد ظل هذا القانون ساريا فى شرق بروسيا حتى الحرب الكبرى ·

وينص قانون صدر فى سنة ١٨٥٤ وظل أيضا ســـاريا على أن الخدم gesinde الذين تثبت عليهم تهمة المكابرة فى العصـــيان او التمرد على أوامر مخدوميهم او المشرفين عليهم ، او الذين يرفضـــون العمل

---

(١) ارنست هنرى « هتلر فوق اوروبا » سنة ١٩٣٤
(٢) دوسون « بسمارك واشتراكية الدولة » ص ٨٨
(٣) دوسون « تطور المانيا الحديثة » ص ٢٨١

أو يتركون الخدمة دون مبرر قانوني • يعاقبون بغرامة لا تتجاوز ٥٠ تالى (١٥ شلنا) او بالحبس مدة لا تزيد على ثلاثة ايام اذا تقدم مخدومهم يطلب عقابهم دون ان يكون فى ذلك مساس بحق مخدوميهم فى طردهم او الاحتفـــــاظ بهم » • (١)

ويجب أن نذكر هنا أن القضاة الذين كانوا يحكمون فى هذه القضـايا كانوا هم المخدومين انفسهم او اصدقاءهم •

وليس من المستغرب وهذه الظروف ان اصبح شرقى بروسيا الزراعى قليـل السـكان • فقـد كان الرجال يرفضـون العودة الى هـذه الحالة الشبيهة بالعبودية بعد انتهاء مدة خدمتهم العسكرية ويتجهون الى العمـل فى الصناعة • واستمر النقص فى الأيدى العاملة يزيد زيادة تنذر الخطر وكانت الوسيلة الوحيدة لعلاجه الهجرة الموسمية الضخمة لعمال من بولندا الروسية والنمساوية كانوا يعملون بعقود ويؤجرون مقابل عمل ١٢ ساعة فى اليوم •

وقد ظل عدد سكان الريف فى ألمانيا ثابتا تقريبا من سنة ١٨٤٩ الى سنة ١٩١٠ بينما زاد عدد سكان المدن الى اربعة امثاله • وفى سنة ١٨٧١ كان ثلث سكان الامبراطورية الالمانية او اكثر قليلا من ثلثهم يعيشون فى مدن عدد سكانها ٢٠٠٠ نسمة او اكثر بينما زادت هذه النسبة الى ثلاثة اخماس فى سنة ١٩١٠ • ولم يقتصر الامر على أن المدن نمت • بل ان نمو المدن الكبرى كان أكثر من غيرها • كما أن هذه المدن الكبرى حدث فيها تغيير أسرع نحو طريقة حديثة فى الحياة • ويمكن توضيح ذلك بالتغيير الذى حدث فى معدل المواليد • ففى سنة ١٨٧٦ كان معدل المواليد فى البلاد كلها ٤١٪ بينما كان فى برلين اكبر من ذلك (٤ر٤٥٪) ولكنه انخفض فى سنة ١٩٠٥ فى ألمانيا كلها الى ٣٣٪ بينما بلغ فى برلين ٦ر٢٤٪ فقط مقابل ١ر٢٧٪ فى لندن • (١) وقد ظل معدل المواليد فى انخفاض سريع منذ سنة ١٩٠٤ فى جميع انحـــاء ألمانيا •

وصحب تصنيع المانيا نمو فى الاشتراكية والحركة النقابية • وكانت أول حركة استهوت الطبقة العامية بصورة واضحة هى التى تزعمها لاسال فى العامين الاخيرين من حياته (من ٢٨٦٢ الى ١٨٦٤) وكان لاسال يهـدف الى القضاء على الرأسماليين عن طريق التعاون فى الانتاج • ورأى ان اول خطوة فى سبيل ذلك هى منح حق الانتخاب لجميع الرجال • ودعا الى اتخاذ هذا الاجراء فى مقابلات مع بسمارك الذى رأى فيـه أداة يسـتخدمها ضـد اعدائه الاحرار • وقال عنه « انه من أمهر من عرفت من الرجال ومن اكثـرهم ظرفا » وكان بين لاسال وبسمارك نوع من التجـــاذب المزاجى • ولم يكن

---

(١) دوسون « تطور المانيا الحديثة » ص ٣٠٩.

المستشار يعترض على منح حق الانتخاب للرجال من حيث المبدأ كما ثبت في سنة ١٨٩٧ كما انه لم يكن عديم العطف على اشتراكية لاسال التي تتسم بعض الشيء بالارستقراطية • الا ان الحركة العمالية وقعت اكثر تحت تأثير ماركس بعد موت لاسال وظل تأثيره هذا يزداد باستمرار • وكانت النتيجة ان تأسس الحزب الاشتراكي الديموقراطي في سنة ١٨٦٩ تحت بيبل ولايبخت الاكبر • ولم يشارك هذا الحزب في الحماسة الوطنية التي كانت سائدة في تلك الفترة • واقترح ممثلاه في الرايشتاغ سنة ١٨٧١ ضد ضم الالزاس واللورين الى المانيا • وكان للحزب في سنواته الخمس والعشرين الاولى صيغة ماركسية خالصة جعلته موضع هجوم مرير باعتباره ضد الله والوطن • ومع ذلك فقد استمر ينمو باطراد •

واستغل بسمارك محاولتين لاغتيال الامبراطور (لم يكن للاشتراكيين اية علاقة بهما) فأصدر في سنة ١٨٧٨ قانونا يجعل الاشتراكيين جريمة تعرض مرتكبها لعقوبات مختلفة • وظل هذا نافذا حتى سنة ١٨٩٠ • وحاول المستشار في نفس الوقت ان يرضى الاحرار بما اتخذ من اجراءات للتأمين من المرض والحوادث والتقدم في السن • وهي الاجراءات التي اتخذها لويد جورج نماذج أقام عليها قانون التأمين في انجلترا • وابتكر عدد من الاساتذة مذهبا اسموه « اشتراكية الدولة » اطلق عليه اعداؤه « أشتراكية الاساتذة » وكان الهدف الذي تبتغيه هذه النظرية هو الاخذ بما هو صالح في الاشتراكية ونبذ ما هو غير صالح • وكان المفروض انها تمثل المبادىء التي يسير على هديها بسمارك • وكانت الاشياء غير الصالحة في الاشتراكية هي الحادها ونزعتها الجمهورية وعالميتها ورغبتها في حرمان الاغنياء من ارباحهم التي حصلوا عليها بطرق مشروعة ورغبتها في نقل القوة الى البرولتياريات • اما الصالح فيها فكان ان نشاط الدولة يمكن ان يساعد كثيرا على زيادة الكفاية القومية • وان الانسان يجب عليه • بصفة عامة • ان يكون رحيما بالاجراء الفقراء • وان الكثيرين في سوق الاوراق المالية • وخاصة اليهود ، يستعملون في المضاربة طرقا معوجة يحسن وضع حد لها • وقد استمسك المسيحيون الاشتراكيون هذه النقطة الاخيرة واكدوها محاولين ان يحولوا مناهضة الرأسمالية الى مناهضة السامية • وقد آتت كل هذه المذاهب ثمارها فيما بعد ولكنها ظلت عديمة القيمة الى حد ما في تلك الايام •

ولم يفلح بسمارك بتودده ولا بوعيده في ايقاف نمة الديموقراطية الاشتراكية • وينبغي أن نذكر أن اضطهاد الاشتراكية كان أميل الى الاعتدال اذا قورن بما حدث بعد الحرب • فقد كان الحزب لا يزال يستطيع انتخاب أعضاء في الرايستاغ ، وسمح له في سنة ١٨٨٠ بان يعقد مؤتمرا اتفق فيه على اقامة الشيوعية « بكل الوسائل » وليس كما كان الامر حتى ذلك الوقت « بكل الوسائل المشروعة » ونال الديموقراطيون الاشتراكيون في انتخابات

الرايستاغ فى سنة ١٨٩٠ قبل انتهاء العمل بالقانون الإستثنائى مباشرة ١٬٤٢٧٬٠٠٠ صوت • وتهاون وليم الثانى الذى كان يصطنع موقف الشخص الذى يريد أن يبدأ عهدا جديدا فى تطبيق القانون ، ولكن ثبت أن الملاينة مثلها كمثل الشدة ، لم تفلح فى الاضعاف بالاشتراكية • فكان رايستاغ سنة ١٩١٢ ، الذى كان قائما عند بدء الحرب العالمية الاولى يضم ١١٢ عضوا من الديموقراطيين الاشتراكيين من مجموع الاعضاء البالغ عددهم ٣٩٧ • نال الديموقراطيون الاشتراكيون فى الانتخابات ٤٬٢٥٠٬٠٠٠ صوت ، أى أكثر من ثلث مجموع الاصوات ، وكانت الزيادة فى عدد الاصوات التى نالوها منذ الانتخابات السابقة التى تمت فى سنة ١٩٠٧ حوالى مليون صوت • وكانت هذه احدى الحقائق التى أفزعت الحكومة وجعلتها تفكر فى وجوب القيام بعمل حاسم •

ويتمثل النمو السريع ، الذى تميزت به فترة ما قبل الحرب بوضوح فى نمو الحركة النقابية • وكانت النقابات فى ألمانيا مرتبطة بالسياسة منذ البداية • فكان فى البلاد نقابات ديموقراطية اشتراكية ونقابات أحرار ونقابات مسيحية • وكانت نقابات الديموقراطية الاشتراكية هى وحدها التى تعتبر فى الواقع جزءا من حركة عمالية حقيقية • وقد ظلت المنظمات النقابية ضعيفة حتى بداية القرن الجديد • ففى سنة ١٨٩٥ لم يكن هناك سوى ٢٦٩٬٠٠٠ نقابى من جميع الانواع ، ولكن عددهم بلغ مليونا فى سنة ١٩٠٢ ومليونين فى سنة ١٩٠٦ ، وثلاثة ملايين فى سنة ١٩٠٩ أربعة أخماسهم كانوا فى اتحادات اشتراكية •

وعاصر نمو الحركة النقابية تغيير فى صبغة الحزب الديموقراطى الاشتراكى فقد كان الحزب فى أول الامر ماركسيا متشددا يتطلع الى القضاء على النظام الرأسمالى عن طريق الثورة ، وينظر شذرا الى جهود الاصلاح التى تبذلها النقابات الانجليزية • الا أن الرخاء العجيب الذى عم ألمانيا قد نفذ الى الطبقات العاملة الى حد ما ، فارتفعت الاجور وبدت الثورة بعيدة الاحتمال ، هذا الى أنه كان من العسير الا يسر المرء لنجاح بلاده • وعمل الذين أطلق عليهم « أنصار اعادة النظر » على تلطيف أكثر أجزاء برنامج الحزب صلابة ، وكان أولهم « برنشتاين » قد عاش فى انجلترا وتأثر باعتدال الحركة النقابية العمالية فيها • وانتقد دعاة اعادة النظر على الرغم من معارضة ببيل والرجال القدامى وأصبح الديموقراطيون الاشتراكيون من جميع النواحى العملية حزبا للاصلاح التحررى لا أكثر الا أقل • ومع ذلك فقد استمر القيصر وكبار الملاك بحكم العادة القديمة ترتعد فرائصهم لفكرة استيلاء الاشتراكيين على مقاليد الامور •

ولم يكن نمو الاشتراكية الا مشكلة واحدة من المشاكل التى نشأت عن

نمو الصناعة . وكانت مشكلة الغذاء هي المشكلة الثانية . فقد كانت ألمانيا في سنة ١٨٧١ ما زالت تملك فائضا من الاغذية تصدره الى خارج البلاد ولكن الموقف انعكس حوالى سنة ١٨٧٤ بسبب زيادة عدد السكان ، وان لم يبدأ هذا الموقف يكون خطيرا الا بعد سقوط بسمارك . فخفض خلفه كابريفي الضرائب على الغلال وكانت هذه الضرائب قد زادت زيادة كبيرة منذ سنة ١٨٧٩ (فقد ارتفعت مثلا على الشعير والشيلم من ١٠ شلنات للطن الى ٣٠ شلن في سنة ١٨٥٥ والى ٥٠ شلنا في سنة ١٨٨٧) . ولم تؤد حماية المحصولات الزراعية الى نفور الصناع فحسب بل كان لابد لها أن تؤدى الى زيادة انتشار الديموقراطية الاشتراكية بسبب ارتفاع أثمان الغذاء .

غير أن سياسة كابريفي قضت عليها تعريفة بولوف الجمركية التى سنت في سنة ١٩٠٢ وأعادت الضرائب السابقة بل زادتها . وأصبحت ألمانيا بفضل هذه التعريفة الجمركية وباستعمال أحسن الطرق العلمية فى الزراعة أقرب الى الاكتفاء الذاتى فى السنوات الأخيرة قبل الحرب منها فى سنة ١٩٠٠ . ففى سنة ١١ - ١٩١٢ كان ثلث القمح المستهلك تقريبا مستوردا من الخارج ولكن الشيلم (هو أهم من القمح فى ألمانيا) كان كافيا بل فاض منه القليل للتصدير . وكان الغرض الاساسى من التعريفة ، الى جانب ارضاء طبقة كبار الملاك ذات النفوذ السياسى ، هو جعل ألمانيا قادرة على انتاج ما تحتاجه من غذاء فى وقت الحرب . الا أنه ثبت عند وقوع الحرب ان اعتماد ألمانيا على المصادر الاجنبية فى الغذاء كان أكبر مما ظن وخاصة فى المواد الدهنية . ولم تكن المشكلة سهلة الحل . فالحماية المرتفعة كانت تؤدى الى الاشتراكية والاعتماد على المصادر الاجنبية كان يستلزم تحدى الاسطول الانجليزى اذا أريد كسب الحرب . وكان الحل الوسط الذى انتهى اليه رجال السياسة يتضمن بعض مساوىء كل من الامرين .

وقد ظهر النمو الاقتصادى فى ألمانيا من سنة ١٨٧١ الى سنة ١٩١٤ طاقة ومهارة جماعيتين لم يسبق لاية امة أخرى أن أظهرتهما . فقد كان الالمان أحسن تعليما من الانجليز أو الفرنسيين أو الامريكيين ، وكان لديهم عدد أكبر من الخبراء على اختلاف أنواعهم . وكان لديهم التنظيم الذى جعل مهارة الخبراء فى متناول اليد بسرعة فى أى مكان اشتدت فيه الحاجة اليها أكثر من غيره . غير أنه كانت هناك عوامل أخرى جعلت هذا التقدم غير مستقر على الرغم من هذه المميزات التى تدعو الى الاعجاب والتى أدت الى هذا التقدم العظيم . ذلك أن التغيير المفاجىء فى عادات الحياة - من الخضوع الزراعى فى بروسيا الشرقية الى التحرر النسبى للصناعة الحديثة فيما يتعلق بحالة المجموعات الكبيرة من الاجراء ، ومن الفقر التقليدى المصحوب بالوقار الى الرفاهية المفاجئة المزعزعة بين رجال الاعمال ، ومن الورع والتدين اللوثرى الى حريات برلين وثرائها التى كان يتمتع بهما عددا لا

يحصى من الاسر كانت ذلك الوقت تعيش عيشة بسيطة ـ كل ذلك حدث بصورة أسرع وأشمل مما يسـتطاع معها هضمه وتمثيله . وكانت النتيجة الكثيرة الحدوث نشوة هستيرية وايمانا بالامكانيات اللانهـائية للقوة من النـوع الذى أودى بنابليون . وكان أمام من بيـدهم القـوة شبحان : الاشتراكية والحاجة الى الغذاء من الخارج .

ولم يستطع النظام على الرغم من نجاحه أن يواصل هذا النجاح طويلا ، بل كان لابد من حدوث انفجار من نوع ما .

٤- السياسة الاستعمارية

الفصل الثانى والثلاثون

السياسة الاستعمارية

١ – تقسيم أفريقيا

رأينا ان ذلك النوع الجديد من التنظيم الاقتصادى الذى لم يكن موجودا ابان حرب نابليون الا فى شمالى انجلترا وعلى ضفاف نهر الكلايد قد امتد فى جميع أوروبا الغربية وأمريكا الشمالية ، وبلغ فى بلدين هما الولايات المتحدة وألمانيا ، مدى من النمو أكثر تقدما مما حققته بريطانيا العظمى على أن مدى توسعه لم يقتصر على تلك الاجزاء من العالم التى يسكنها الرجل الابيض بل انه امتد بسرعة الى كل آسيا وأفريقيا • وقد غير اتصاله بالمجتمعات المتخلفة فى النمو من سماته بعض الشىء • فقد احتاج الامر أولا الى المساعدة الحكومية حينما كان الغزو أولى ضرورية للرأسمالية يضاف الى هذا أن الشعوب الملونة وخاصة فى أفريقيا ، كان يمكن اخضاعها لاستغلال أكثر بشاعة من أسوأ استغلال كان من الممكن سياسيا أن يقوم فى البلاد التى يسكنها الجنس الابيض فقط • وقد أضفى الاقتصاد الحديث القائم على أصول الفن طابعا جديدا فى السياسة الاستعمارية كما أضفت هذه السياسة الاستعمارية نفسها على التصنيع لونا سياسيا جديدا •

وكان للسياسة الاستعمارية تاريخ طويل قبل أن يبدأ عهد التصنيع• واذا أغفلنا الازمنة القديمة فاننا نجد أن أصلها فى العهود الحديثة يرجع الى كريستوفر كولومبس وفاسكو داجاما اللذين وجها جهود أسبانيا والبرتغال أولهما الى الغرب وثانيهما الى جزائر الهند الشرقية • وجذب جيل المغامرة وبريق الذهب المكتشفين والافاقين الى بلاد الاتكا وبلاط امبراطور المغول العظيم • غير أن احتكار الاراضى الجديدة الذىمنحه البابا لاسبانيا والبرتغال لم يلق من الانجليز أو الفرنسيين أو الهولنديين احتراما ، فاستحوذ هؤلاء جميعا على امبرآطوريات شاسعة • وكانت نتيجة الحروب الكثيرة التى تفوق الانجليز فى الشرق بينما لم تعد القارة الامريكية ميدانا للاستعمار بعد سنة ١٨٢٤ • وكان البريطانيون منذ ذلك الوقت حتى سنة ١٨٨٠ هم الامة الوحيدة التى تملك امبراطورية واسعة بعيدة •غير أنهم فقدوا اهتمامهم بحيازة المستعمرات تحت تأثير مذهب حرية التجارة • فقد كان بنتام كما رأينا يرى أن المستعمرات عبئا يتطلب نفقات لا فائدة منها ، وصارت وجهة نظره مع الوقت هى وجهة نظر الحكومة • وفى سنة ١٨٥٠ ، عندما ضمت مستعمرة نهر الاورانج الى ممتلكات بريطانيا ألح المجلس الخاص فى ألا

تضاف فى المستقبل أية أملاك جديدة سواء دائمة أو مؤقتة مهما صغرت مساحتها الى الممتلكات البريطانية الحالية فى القارة الافريقية .» وظلت السياسة العامة للحكومة البريطانية معارضة للتوسع فى الامبراطورية حتى سنة ١٨٨٦ ، ولكن الهيئات الحاكمة كانت تضطر للتراجع بحكم الظروف المرة تلو المرة .

وحدثت أولى علامات التحول ابان حكم دزرائيلى الذى دام من سنة ١٨٧٤ الى سنة ١٨٨٠ . فقد كان دزرائيلى يحب الشرق وتهمه أبهة امبراطوريتنا الهندية وبهائها . وقبلت منه الملكة فيكتوريا بكل سرور لقب امبراطورة الهند وكان الشرق الادنى (وخاصة البلاد التى تجاور فلسطين) يفتنه دائما : فأيد تركيا فى مؤتمر برلين سنة ١٨٧٨ وسره ان كان له رأى فى شئون مصر . وقد أبدى مهارة كبيرة فى ربط السياسة بالشئون المالية . فعندما عجزت تركيا عن دفع أرباح الاسهم لحامليها من البريطانيين ، استأجر قبرص من الباب العالى مقابل جزية سنوية ، ولكنه دفع الجزيه بالنيابة عن السلطان الى دائنيه البريطانيين مباشرة . وعندما اضطر الخديوى بسبب اسرافه الى بيع أسهمه فى شركة قناة السويس اشتراها منه دزرائيلى لحساب الحكومة البريطانية . وثار غلادستون متحمسا للقيم الخلقية ضد تأييد دزرائيلى «للاتراك الذين تجل فظائعهم عن الوصف » والذين روعت قسوتهم جيله أكثر مما تروع جيلنا الذى شرب كأسه من الاهوال حتى الثمالة . ومع ذلك فعندما صار غلادستون رئيسا للوزراء وجد نفسه مضطرا للاستمرار ، بل والاستزادة ، فى سياسة سلفه وخاصة فيما يتعلق بمصر .

وكان هناك عاملان دفعا حكومة غلادستون لاحتلال مصر فى سنة ١٨٨٢ : قناة السويس وحملة الاسهم والسندات المصرية . وكان كلاهما تهدده فى تلك السنة ثورة وطنية أخمدها البريطانيون لمصلحه الخديوى . واضطرتهم هذه المصالح ، أو هكذا يظنون ، الى البقاء فى البلاد ليعلموا الخديوى كيف يحكمها . وليس هناك من ينكر أن الحكومه صارت تحت نفوذ البريطانيين أفضل مما كانت من قبل . ويمكن أن يقال نفس الشيء عن احتلال الفرنسيين للجزائر سنة ١٨٣٠ وتونس سنة ١٨٨١ ، وتبدو السياسة الاستعمارية فى هذه الحالات فى خير أثوابها . فقد كان أثرها حسبنا بصفة عامة (١) على الرغم من الدوافع المريبة التى حركتها .

---

١ ـ هذه وجهة نظر مفكر انجليزى متحرر ، وحتى لو كان هذا صحيحا فان ما قد عسى أن يكون المستعمرون قد قاموا به من اصلاحات انما قاموا به لمصلحتهم قبل كل شيء ولا يمكن أن يعوض البلاد المستعمرة عن حريتها واستقلالها . وأكبر شاهد على هذا ما حدث فى مصر فى عهد الحكم الوطنى من تقدم رائع وما نشاهده من وحشية الاستعمار فى الجزائر .

ودخلت الدول الغربية منذ سنة ١٨٨٤ وما بعدها فيما كان يعرف باسم « السباق لاحتلال افريقيا » وأصبح من المبادىء المعترف بهما فى اللغة الدبلوماسية ان أى كسب اقليمى لأحدى دولتين متنافستين يجب أن يقابله كسب اقليمى مساو له للدولة الأخرى ، وكانت النتيجة انه أصبحت افريقيا كلها قبل سنة ١٩٢١ مقسمة بين الدول الغربية باستثناء دولة ليبيريا التى يسكنها الزنوج ومملكة الحبشة المسيحية – الأولى لأنها كانت صغيرة وتهم الولايات المتحدة ، والثانية لأنها أنزلت بالايطاليين هزيمة نكراء . وقد تم تقسيم افريقيا بالطرق الدبلوماسية ولكنه لم يتم دون أن يغرس فى نفوس الدول المستعمرة أحقادا مريرة كانت من أسباب الحرب العظمى الأولى .

٢ – الكنغو

لما كانت تجارة الرقيق قد قضى عليها وتحرر العبيد ، فقد كانت أسهل طريقة لاستغلال العمال السود هى احتلال البلاد التى يعيشون فيها . وكان من محاسن الصدف أن هذه البلاد تحتوى موآد أولية ثمينة . ولم يكن الجشع الا دافعا واحدا فقط من الدوافع التى أدت الى استعمار أفريقيا وان كان هو أهمها كلها ، ولكن هنالك حالة واحدة يبدو ان الجشع كان فيها هو الدافع الأوحد وهى دولة الكونغو « الحرة » لقد كان بعض الراديكاليين الفلسفيين يعتقدون ان المصلحة الشخصية المادية اذا فهمت على حقيقتها تصبح دافعا ملائما للنشاط المفيد .. ان مثل الكونجو يهىء لنا فرصة لاختبار هذه النظرية .

والكنغو نهر ضخم يجرى فى منطقة تقرب مساحتها من مساحة أوروبا كلها باستثناء روسيا ويشق طريقه فى غابات مظلمة ويمر فى أقاليم يكاد سكانها يكونون كلهم من الهمج . وعلى الرغم من أن مصبه كان معروفا منذ زمن طويل فان منابعه العليا لم تكتشف الا فى سنة ١٨٧١ على يدى دكتور ليفنجستون الرجل المنفى ، الذى جمع قدرا متساويا من حب المغامرة والرغبة فى نشر الدين المسيحى بين أهل افريقيا . وكان ستانلى الذى عثر عليه فى يوجيجى على بحيرة تنجانيقا أقل اهتماما بالانجيل منه ببعض النواحى الأخرى من الحضارة المسيحية . وقد قام بأول رحلاته لحساب جريدة نيويورك هيرالد ، وكانت رحلاته التالية (التى تم فيها اكتشاف مجرى الكونجو كله وبعض روافده) على نفقة ليوبولد ملك البلجيكيين ولمصلحته ، وكان ستانلى يتحدث عنه دائما بأحسن عبارات الاطراء .

وكان الملك ليوبولد بن ليوبولد خال الملكة فكتوريا ، وكانت هى تقدر نصحه فى أوائل حكمها . وكان الى جانب ذلك ، كما يقول سير هـ . هـ . جونسون ، حفيد لوى فيليب وزوج أرشيدوف نمساوية ومن مؤيدى الكنيسة الكاثوليكية

المخلصين ومن كبار الاغنياء ، وكان من العاملين عـلى تقدم البحوث العلمية وخاصة في افريقيا ، ومن مناصري البعثات التبشيرية • وقرر مؤتمر برلين الذي عقد في سنة ١٨٨٤ للنظر في تقسيم افريقيا أن يعهد الى هـــذا الملك الواسع الافق شخصيا بحكم اقليم يمتد حوالى مليون ميل مربع ويضم الجزء الاكبر من حوض الكونجو • لقد كان ليوبولد موضع احترام الدبلوماسيين وتمجيد الرحالة ، وكان النـــاس بصفة عامة يعتقدون انه نمـــوذج الرجل الانساني في معاملة الزنوج • وقد أعلن في بيان له في سنة ١٩٠٦ عنـــدما تبرع بمبلغ ١٢٫٠٠٠ جنيه انجليزى للبحوث العلمية فى مرض النوم •

« اذا حقق الله أملى (الانتصار على مرض النوم) فانى سأكون قادرا على أن أقف أمام عرشه فى يوم الدينونة متصنعا بانى قد قمت بأجل عمل فى القرن الحالى ، وسيدعو الله عـــدد لا يحصى من الآدميين الذين أنقذتهم بأن يشملنى برحمته » (١)

ولما استولى الملك ليوبولد على الكونجو أعلن ان غرضـــه انسانى بحت • وأوضح ستانلى الذى كان يقوم له بحملة دعاية فى انجلترا ، الى أى حد كان الملك ليوبولد يحب الرجل الأسود • وانه يخشى أن يكون الشعب الانجليزى عاجزا عن « أن يقدر حق قدرها تلك العاطفة الحية المتوقدة الشاملة التى تهدف الى العمل على امتداد نفوذ المدنية فى المناطق المظلمة من أفريقيا الحزينة ، لأن هذه العاطفة ليست مرتبطة بأى ربح مادى • » وعنـــدما طلب الملك ليوبولد مساعدة ولى عهد انجلترا (ادوارد الثالث) فى سنة ١٨٧٦ فى عقـــد مؤتمر للنظر فى استقرار بعض الأوربيين فى المناطق التى يتم ارتيادها من أفريقيا وتشجيع هذا الارتياد بقصد نشر المدنية « تردد الأمير والتبس عليه الأمـــر عنـــدما أكد له ان الدافع الوحيد هو حب الانسانية » ، وكتب الى ســـير بارتل فرير يقول :

« ان المشكلة هى : هل يهتم الجمهور الذى يمثل المال بالأمر اهتمامه هو ؟ ان حب الانسانية شىء جميل ، غير انها اذا لم تكن لها نتائج فانه لن يجد عند الجمهور الانجليزى ما يستحقه من خطورة • » (٢)

وأيا كان الأمر فان تأكيد الملك ليوبولد للنزعة الانسانية لمشروعه قد جاء بالغرض المقصود منه • فلم تبدو الدول الأخرى الا قليلا من الحماسة لمشروع يتطلب نفقات بلا أمل فى جزاء مادى • وعندما عرض ليوبولد أن يتحمل النفقات بنفسه سمحوا له بأن يحمل العبء (كما اعتقدوا) بشرط أن يحافظ على حرية الدين وحرية التجارة وحرية الصحافة وما اليها •

---

١ ـ اوردها ا • د • موريل فى « المطاط الاحمر » ص ١٥١
٢ ـ سيدنى لى « الملك ادوارد السابع » (١) ص ٦٢٩

وما أن كسب الملك الانسانى استحسان العالم بقضائه على تجار الرقيق العرب ، حتى شرع يعمل فى تنظيم حكومة فى أملاكه . ولما كان من مؤيدى أحدث النظريات فى هذا الميدان فقد أنشأ نظاما من اشتراكية الدولة يعد أشمل وأكمل نظام من نوعه عرفه العالم ، ويبدو انه كان متفقا مع الرأى الحديث الذى يذهب ... الكثيرون من أن الاشتراكية ينبغى ألا تتضمن شيئا من هراء الديموقراطيه . فأصدر قرارات بأن كل الأرض وكل المطاط وكل العاج ملك للدولة - التى كانت هو نفسه - وحرم على الأهلين أن يبيعوا المطاط والعاج للتجار الأوروبيين كما حرم على الاوروبيين أن يشتروا منهم شيئا من هذا أو ذاك . ثم أرسل منشورا دوريا لموظفيه يذكر فيه انهم « يجب ألا يتركوا وسيلة لاستغلال منتجات الغابات » وانهم سينالون عن كل ما يجمعونه من مطاط وعاج مكافأة تزداد قيمتها اذا كانت نفقات جمعه صغيرة . وتصغر عندما تكون نفقات جمعه كبيرة . فاذا كانت نفقات الجمع مثلا ثلاثين سنتيما أو أقل للكيلو منح الموظف خمسة عشر سنتيما عن الكيلو ، أما اذا زادت النفقات عن سبعين سنتيما للكيلو فانه لا يمنح غير أربعة سنتيمات لا أكثر . وجاءت النتائج المالية محققة لكل آماله وقد خصصت أجزاء من الكونجو يستغلها الملك مباشرة وأجزاء أخرى تستغلها شركات كان له فيها نصيب كبير من الأسهم . ولنضرب مثلا موثقة أنفرس التى كانت تستغل منطقة تقع الى الشمال من النهر : بلغ رأس المال المدفوع ١٠٠٠٠ر١٠ جك وبلغ صافى أرباحها فى ست سنوات ٣٧٠٠٠٠ر٣٧٠ جك ، وربحت شركة أخرى فى أربع سنوات ٧٣١ر٦٨٠ جك عن رأس مال مدفوع قدره ٤٠ر٢٠٠ جك وكانت القيمة الأصلية للأسهم التى كان الملك يملك نصفها ، ٢٥٠ فرنكا للسهم ، ولكن قيمتها ارتفعت فى سنة ١٩٠٦ الى ١٦ر٠٠٠ فرنك للسهم أما أرباح المناطق الشاسعة التى كانت أملاكا خاصة للملك فان معرفتها كانت أكثر صعوبة من هذا ، ولكن الاستاذ كاتيه يقدرها بمبلغ ٣٠٠ر٠٠٠ جك فى السنة (١)

وكانت الطريقة التى جمعت بها هذه الأرباح الضخمة بسيطة : كانت السلطات تامر كل قرية بأن تجمع قدرا معينا من المطاط ، بقدر ما كان رجال القرية يستطيعون جمعه والمجىء به اذا أهملوا كل عمل آخر يحصلون به على أقواتهم . فاذا لم يجمعوا الكمية المطلوبة أخذت نساؤهم رهائن وجمعن فى ساحات مسورة أو ضممن الى حريم الموظفين الحكوميين . واذا لم تنجح هذه الوسيلة أرسلت الى القرية جماعة من الجنود الوطنيين ، كثيرون منهم من آكلى لحوم البشر ، لنشر الرعب بين الأهالى ولو اقتضى الأمر قتل بعض الرجال ، الا أنهم كانوا يؤمرون ، لمنع الاسراف فى الطلقات النارية ، أن يأتوا معهم بيد آدمية يمنى عن كل رصاصة يطلقونها . فاذا أخطأ أحدهم الهدف أو استعمل

---

١ موريل - المرجع السابق - ص ١٤٥

الطلقات فى صيد الوحوش كان يقطع اليد اليمنى لرجل حى ليجمع بذلك العدد المطلوب منه . وكانت النتيجة ، بناء على تقرير سير هـ . هـ . جونستون الذى أيدته كل المصادر المحايدة الأخرى ، أن انخفض عدد السكان فى خلال خمسة عشر عاما من حوالى ٢٠ مليون نسمة الى تسعة ملايين (١) ولسنا ننكر أن مرض النوم كان له نصيب فى هذا الانخفاض ، اذ أن انتشار هذا المرض قد ساعده كثيرا ما اتبعه الملك ليوبولد من نقل الرهائن من أقصى حدود ممتلكاته الى أقصاها من الناحية الأخرى .

واتخذت احتياطات ضخمة للمحافظة على سرية القتل المنظم بالجملة الذى كان وسيلة الملك الرأسمالى فى حصوله على مكاسبه . فكان الموظفون والحكام يتلقون منه المال وهم فى نفس الوقت تحت رحمته . ومنع التجار الافراد من دخول البلاد وضمن سكوت البعثات التبشيرية الكاثوليكية لورعه الكاثوليكى . وعمل على افساد بلجيكا بطريقة منظمة . وكانت الحكومة البلجيكية شريكة له فى جرائمه الى حد كبير . وكان الرجال الذين يهددون باعلان الحقيقة يشترون بالمال ، واذا تبين انهم غير قابلين للرشوة كانوا يختفون بطريقة غامضة . وكان الأشخاص الوحيدون فى الكنجو الذين لم يستطع تكميم أفواههم هم المبشرين البروتستانت الذين كان معظمهم يظنون أن الملك يجهل الاعمال التى تتم باسمه وكان طبيعيا منهم أن يعتقدوا ذلك . ولنضرب مثالا واحدا من عدة أمثال : كتب جوزيف كلارك أحد المبشرين الأمريكيين فى ٢٥ من مارس سنة ١٨٩٦ يقول :

« ان تجارة المطاط غارقة فى الدماء ، ولو أن الأهالى ثاروا وقتلوا كل رجل أبيض فى أعالى الكنجو لما استوفوا الا جزءا قليلا من حقهم ولبقى لهم منه الشىء الكثير . أليس من الممكن أن يقوم أحد الأمريكيين من ذوى النفوذ بمقابلة ملك البلجيكيين واطلاعه على ما يرتكب باسمه ؟ ان البحيرة محجوزة للملك لا يسمح للتجار بدخولها ـ وقد قتل مئات من الرجال والنساء والاطفال لجمع المطاط له . » (١)

ولكن من السهل أن يعتقد المرء أن المبشرين كانوا يبالغون ، أو أن هذه الحوادث كانت مجرد تصرفات فردية يقوم بها موظفون فسدت قلوبهم بسبب الحمى والوحدة . فقد كان يبدو من غير المعقول أن يكون هذا النظام كله انما وضعه الملك للحصول على مكاسب مالية . ولعل الحقيقة كانت تظل خافية أمدا طويلا لولا رجل واحد ـ أ . د . موريل . يقول سير هـ . هـ جونستون وهو رجل من بناة الامبراطورية غافل يعرف افريقيا معرفة وثيقة ، وكان

---

١ ـ سير هـ . هـ . جونستون « استعمار افريقيا » فى سلسلة كيمبردج التاريخية ص٣٥٢
١ ـ موريل ـ نفس المرجع ـ ص ٥٤

أصلا أحد المؤمنين بالملك ليوبولد ، يقول هذا الرجل بعـــد أن وصف كيف استعمل الملك نفوذه فى خنق النقد فى العالم المتمدين كله ، ما يأتى :

« ان قليلا من الروايات تبـــدو خيالية ــ وستبدو خيالية أكثر للأجيال القادمة ــ من القصة التى تروى كيف انتصر على هـذا العمـلاق داوود فى شخص كاتب سفن فقير يعمل فى مكاتب شركة لفربول للسفن التى كانت من بين شركاء الملك ليوبولد .

فقد أرسل هذا الكاتب ، واسمه أ . د . موريل ، الى انتويرب ببلجيكا بصـــفة عامة لأنه كان يتكلم الفرنسية ومن ثم كان يستطيع أن يدبر كل تفاصيل أجور السفر وشئون المسافرين وشحن البضائع والمنتجات مع موظفى دولة الكونجو . وعرف خلال عمله بعض الوقائع البشعة التى تتعلق بسوء ادارة الكونجو ، فوجه نظر مخدوميه الى هذه الوقائع والى ضرورة التحقق منها . وكانت النتيجة أن فصل .

وشرع يعمل ، وهو لا يكاد يملك مليما ، بالقلم والقرطاس ليطلع العالم عن طريق الصحافة البريطانية والناشرين البريطانيين عـلى الحالة القـائمة فى الكنجو (١) .

اشتبك موريل من تلك اللحظة حتى وفاته فى معركة دائمة ــ أولا ضـــد القسوة والظلم السائدين الكونجو ، ثم ضد الدبلوماسية السرية فى مراكش ، ثم ضد النظرة المتحيزة لأصل الحرب ، وأخيرا ضد مظـــالم معاهدة فرساى . وحالفه الفوز فى معركته الأولى بعـــد صعاب لا يتصـــورها العقل وأكسبته الاحترام العام وأدت به الى معركته الثانية ، وهى المعـــركة الاكبر التى طالب فيها بمعاملة ألمانيا معاملة عادلة ، الى السجن والتشنيع عليه ، والمرض والموت ولم يصب فيها نجاحا الا ما كان يناله من تشجيع الذين أحبوه لتحمسه لقضايا لا مصلحة له فيها . ولم أعرف قط رجلا آخر أوتى ما أوتى موريل من بطـولة وبساطة فى تحرى الحقائق السياسية واعلانها .

وكانت الصعاب التى لقيها موريل فى اثارة الرأى العام لقضية الاصلاح فى الكونجو من النوع الذى لا يطيقه من النـــاس الا القليل . ذلك ان الفرنسيين وقد راعتهم ضخامة أرباح ليوبولد أنشأوا نظاما مشابها كل الشبه لنظامه فى الكونجو الفرنسى وحصدوا منه على النتائج عينهـا . ومن ثم لم يكونوا بأى حال من الاحـوال يريدون أن يطلع العـــالم عـلى النتائج الحتمية لوسائله الاقتصادية . كما ان وزارة الخارجية البريطانية لم تكن تريد أن تقتنع بأقواله لحاجتها الى صداقة بلجيكا وفرنسا لأسباب سياسية عليا ، بل أنها عملت على

---

١ ــ المرجع السابق ص ١٥٥

اخفاء التقارير القنصلية التى تؤدى الى تأييد اتهامات موريل والمبشرين ٠وقالت الكنيسة الكاثوليكية ـ بناء على أوامر الفاتيكان كما يقول موريل ـ آن الدعوة الى الاصلاح ليست كلهـا سوى هجوم مقنع على الـكثلكة الرومانية يقوم به المبشرون البروتستانت ، الا أن هذا الدفاع لم يصمد طويلا أمام الأدلة الدامغة فتخلت الكنيسة عن ليوبولد ولم يتورع عملاؤه بطبيعة الحال عن الالتجاء الى أية وسيلة للتشهير بدعاة الاصلاح واتهامهم بأن لهم دوافع دنيئة ٠

ومع ذلك فقد نجح موريل وجماعة اصلاح الكونجو فى اثارة الرأى العام ، فى انجلترا أولا ثم فى العالم المتمدين كله بعدئذ ٠ واضطرت الحكومة البريطانية الى الاعتراف بأن قناصلها أيدوا الاتهامات وخاصة كيزمنت (الذى شنق ابان الحرب) ٠ وأراد الملك أن يؤكد دعواه بأن الفظائع التى ارتكبت كانت ضـد رغبته فاضطر لتعيين لجنة من ثلاثة من رجال القانون النزيهين لتحقيق هـذه التهم ، وعلى الرغم من أنه لم ينشر سوى جزء من تقريرهم ، فقد أيد ما سمح بظهوره صحة هذه التهم ٠ وأخيرا استعملت أوروبا فى سنة ١٩٠٨ السلطة التى خولها اياها مؤتمر برلين فحرمت الملك نفسه من ملكية الكونجو وعهدت به الى بلجيكا ٠ واتفق على وجوب نظام الاستغلال الذى أقامه الملك ٠ وكان زملاء الملك ليوبولد من الملوك قد أصبحوا وقتئذ يتجنبونه بسبب قسوته نحـو الزنوج وعطفه على فتيات الباليه ٠

وقد تمكن الضمير الانسانى من التغلب على الملك ليوبولد لأنه لم يكن على أية حال سوى حاكم صغير ٠ ولكن استثارة العالم على فرنسا فى هذا الموضوع لم تجد فتيلا ٠ ولهذا ظلت الفظائع تقع على نطاق واسع وأكبر ، بل انهـا لا تزال تقع فى الكنغو الفرنسية كلها باستثناء المناطق الساحلية التى لم يكن من السهل ابعاد المسافرين عنها ٠ ولايزال ضباب كثيف لا يمكن النفاذ فيه يلف الغابة القائمة فى وسط الكونجو وأعاليـه ويحجبها عن أنظـار الناس حتى الآن (١)

٣ ـ مستعمرة أفريقية الجنوبية الغربية الالمانية

جاء اشتراك الحكومة الألمانية فى السباق لاستعمار افريقيا متأخرا ٠ ولم تكن راضية عنه ٠ فقد كان مجال اهتمام بسمارك منصرفا الى أوروبا ٠ ولم يكن راغبا فى التورط فى مغامرات فى مناطق نائية ، وكان يتفق مع فردريك الاكبر فى الاعتقاد بأن « جميع الممتلكات النائية عبء ثقيل على الدولة ٠ وان قرية على الحدود تساوى أكثر من مقاطعة على بعد مائتين وخمسين كيلو مترا منه » ٠٠ وقد جعلته نزعته المحافظة بطىء فى ادراك أهميـة الحركات الجـديدة وتفهم ضرورتها ٠ فهو قد بدأ حياته الرسمية بنظرة كبار الملاك البروسيين الضيقة

١ ـ موريل عبء الرجل الابيض (طبعة ١٩٢٠) ص ٤٧ .

الاصطفائية ، غير أنه اضطر شيئا فشيئا الى أن يضم آلى اهتمامه ببروسيا ، أولا بقية ألمانيا ثم التصنيع ثم المستعمرات · وكانت تسيطر على حياته السياسية رغبتان : الأولى أن تصبح بروسيا دولة كبرى ، والثانية تضم كبار الملاك والفلاحين والحقول والأشجار · واضطر شيئا فشيئا الى التضحية بالرغبة الثانية فى سبيل تحقيق الأولى ·

وكان فى ألمانيا حزب استعمارى نشط منذ العقد الخامس عندما فوجىء جريفيل بالالمان يتحدثون عن الحاجة الى المستعمرات والأسطول · وظل هذا الحزب يقوم بدعاية مستمرة يؤيده التجار والمبشرون · كما أيده ليست وبعد ذلك ترنشكه · الا أن بسمارك كان وقتئذ مشغولا بتدعيم ألمانيا وتوسيع رقعتها فى أوروبا · وكان نجاحه فى هذه المهمة التى اختطها لنفسه من أكبر الأسباب التى دفعت الدول الأخرى الى أقاليم نائية تبسط فيها سلطانها وتعلى مكانتها · وكانت المغامرات الاستعمارية التى تقوم بها الدول الأخرى تسره وتشرح صدره لأنها كانت تطلق يده فى أوروبا ، كما انها كانت مصدر نزاع دولى يستطيع استغلاله · الا أنه أدرك شيئا فشيئا ان سياسة القوة يمكن ممارستها على نطاق أوسع من أوروبا وان حكمة فردريك الأكبر لم تعد صالحة فى عهد الصناعة ·

وفى سنة ١٨٧٩ نشر رحالة اسمه أرنست فون ويبر مقالا يحث فيه ألمانيا على الاستيلاء على خليج دلاجوا من البرتغال وملء الترنسفال بالألمان وانشاء امبراطورية ألمانية بالتدريج تمتد الى نهر الزمبيزى · وكانت هذه الخطط تلقى تأييدا كبيرا رغم عدم اهتمام الحكومة بها وكان تريتشكه قد كتب فى السنة السابقة يقول :

« لا شك فى أن الظروف فى جنوبى افريقيا مواتية لنا · فالسياسة الاستعمارية الانجليزية التى صادفت نجاحا فى كل مكان لم تنجح فى رأس الرجاء الصالح · فالحضارة الموجودة هناك حاليا حضارة تيتونية لانها هولندية، واذا أوتيت امبراطوريتنا الشجاعة فى أن تتبع بتصميم سياسة استعمارية مستقلة فان صداما بين مصالحنا ومصالح انجلترا لا مندوحة عنه » (١)

ولم تؤت هذه المشروعات الكبيرة ثمرة لأن بسمارك لم يكن مستعدا لمعاداة البريطانيين · الا أن مشاكل نشأت بسبب المبشرين الألمان والتجار الذين استقروا فى دمارالاند وناماكوالاند · فقد وجدوا أنفسهم فى نزاع مع الأهالى وطلبوا الى بريطانيا أن تحميهم ، وطلب المبشرون فى عام ١٨٨١ زورقا حربيا بريطانيا ، ولكن طلبهم رفض · وكان البريطانيون قد احتلوا قبل ذلك خليج ولفنسن وهو الميناء الوحيد الصالح فى المنطقة ولكنهم رفضوا أن يتحملوا أية

(١) اوردروسون فى « الامبراطورية الالمانية » (٢) (٢) ص ١٧٨

مسئولية فى غيره من الاقاليم • وأخيرا ، فى سنة ١٨٨٣ ، سأل تاجر من برمن ، اسمه لودريتز الحكومة الالمانية هل تؤيده اذا رفع العلم الالمانى على آنجرابكونيا (سميت فيما بعد لودريتزبرخت) • وسأل بسمارك البريطانيين فى أدب هل يدعون أية سيادة أو حماية لهم على هذه المنطقة ، وأشار الى عزمه على المطالبة بها اذا لم يكونوا قد ادعوها لأنفسهم فعلا • وأجابت وزارة الخارجية البريطانية أنه لابد من استشارة حكومة رأس الرجاء الصـــالح قبل أن ترد • ورفضت حكومة رأس الرجاء الصالح أن تتحمل أية مسئولية فى المنطقة بسبب ما ينطلبه ذلك من نفقات • وعندئذ أبلغ لورد جرنفيل بسمارك بعد أن انتظر هذا تسعة أشهر للرد على استعلامه الرسمى البحت ــ ان حكومته لا تدعى أية سيادة على آنجرابكونيا الا أنها تعتبر مطالبة أية دوله أخرى بالسيادة على هذه المنطقـــة اعتداء على حقوقها الشرعية • وطلب بسمارك الأدلة التى تثبت هذه « الحقوق الشرعية » ولكنه لم يتلق ردا • فانتظر أربعة شهور أخـــرى ثم أعلن فى ٢٤ أبريل سنة ١٨٨٤ الحماية على كل المنطقة الممتدة بين نهر الاورانج وآنجرابكونيا وغضب الانجليز ، بعد فوات الاوان ، لهذا التصرف وفى مايو أعلنت حكومة رأس الرجاء الصالح عزمها على الاستيلاء على الساحل كله من نهر الاورانج الى خليج ولفنسن ، بما فيه المنطقة التى كانت ألمانيا تطالب بها وقتئذ • غير ان الحكومة البريطانية عادت فتراجعت فى يونيه واعترفت هى والدول الأخـــرى بضم المنطقة التى تمت حتى صارت المستعمرة الالمانية الضخمه وهى مستعمرة افريقية الجنوبية الغربية الالمانية •

ولم تكن المستعمرة الجديدة ناجحة كل النجاح من الناحية المالية • فقـــد فوجىء « الهيربرو » وهم شعب قوى مقاتل بحرمانهم من أراضيهم وماشيتهم بالعنف وعندما وجدوا أنفسهم مخيرين بين الموت جوعا أو البقاء فى حالة تشبه الرق ثاروا • واشتعلت حرب طويلة عوان قاتل فيها الطرفان بوحشية شديدة • وقد كتب سير هـ • هـ • جونستون فى سنة ١٩١٣ رأيه فى حوادث هـــذه الحرب التى انتصر فيها الالمان أخيرا وختم مقاله بقوله : .

« يقال انه لا يوجد سوى ٢٠٠٠٠ (هربرو) يعيشون الآن فى دمارالاند ، ولو ان هذا الشعب الذكى القوى ــ شعب البانتو الزنجى انقرض لكان هذا أمرا يدعو الى الأسف الشديد • • وقد كلفت ألمانيا هـــذه الحرب الطويلة فى الصحراوات القاحلة والجبال الصخرية أكثر من خمسة آلاف جندى ومستعمر و ١٥ مليون جنيه استرلينى • ولو ان الالمان أرضوا الاهالى منذ بداية تاريخ هذه المستعمرة لكان ذلك أقل كلفة • ولتبقى بعد ذلك أكثر من نصف مساحة افريقيا الجنوبية الغربية تحت تصرف الرجل الأبيض »

وقد تعـــود الناس خلال الحرب الكبرى أن يضربوا مثـــلا بالحملة ضـــد (الهيروبرو) للدلالة على قسوة السياسة الاستعمارية الالمانية • ومع ذلك فان

السياسة الالمانية كانت صورة طبق الأصل ، كما ستنرى ، للسياسة البريطانية فى مثابيليلاند وحقيقة أن القائد فون ترونا كان شديد القسوة ، ولكنه لم يجد تأييدا من الحكومة المركزية واضطر الى الاستقالة . وقد أطرت السلطات المختصة قبل الحرب جهود ألمانيا الاستعمارية فى أفريقيا . فها هو ذا سير هـ . هـ . جونستون يقول فى سنة ١٩١٣ :

« إنهم يدركون أخطاءهم بسرعة ، ويصلحونها بنفس السرعة . فهم فى التجارة ، كما هم فى الحكم ، يلاحظون ويتعلمون ثم يتقنون خير المبادىء وإن السياسى الذى لا يقدر عظمة الخلق الألمانى أو يتوقع زوال الممتلكات الألمانية فى الأراضى البعيدة لهو سياسى قصير النظر . »

وكان من نتائج الحرب العالمية الاولى أن فقدت ألمانيا كل ممتلكاتها فى آفريقيا التى بلغت أكثر من مليون ميل مربع .

٤ - نمو السياسة الاستعمارية البريطانية

نشأت الامبراطورية البريطانية كلها تقريبا دون مساعدة متعمدة من سياسة الحكومة أو تأييد من المذهب الاستعمارى . فقد كان غلادستون وهو من أتباع كبدن ، يكره الاستيلاء على أقاليم جديدة ، الا أن عهدا جديدا بدأ بانتصار المحافظين فى سنة ١٨٨٦ ، وأخذت حمى انشاء الامبراطورية تزداد زيادة مستمرة منذ تلك السنة الى آخر القرن . واتخذت صورا كانت أحيانا اجرامية وأحيانا أخرى تدعو الى السخرية وكانت دائما كريهة . وكان لهذا التحول فى وجهة النظر عدة أسباب . فنمو الصناعة فى الخارج وبخاصة فى أمريكا وألمانيا قضى على الاحساس بالفخر بأن انجلترا هى مصنع العالم ، ومن ثم تطلبت الحاجة الى المباهاة فلسفة مختلفة تستطيع بها أن نبتهج بأن لنا أكبر الامبراطوريات كلها . وزاد تقدير البريطانيين للممتلكات فيما وراء البحار بعد أن رأوا ان الأمم الأخرى قد بدأت تتطلع اليها . وقد تقبل غلادستون الهزيمة على أيدى البربر والمهدى باستنبسلام ، ولكن الرجل الانجليزى العادى أحس بأن « ماجوبا » وموت جوردون قد أذلاه ايما اذلال . وكانت الكثرة الغالبة من الانجليز تكره الحكم الذاتى لايرلندا وهو النتيجة المنطقية لسياسة غلادستون وولدت مقاومته ميلا الى التملك والسلطان . وقد اتخذ من عيدى ميلاد الملكة فيكتوريا فى سنة ١٨٨٧ سنة ١٨٩٧ مناسبتين لمظاهر قصد بها تقوية هذا الشعور .

وكانت هناك الى جانب هذه الأسباب السياسية للنزعة الاستعمارية أسباب أخرى بعضها اقتصادي وبعضها من نوع أكثر من ذلك مثالية ، فكان المبشرون يدفعون الى الاعتقاد بأن غزو دولة مسيحية للوثنيين يؤدى الى انتشار الدين

الحقيقي • وشاهد ذلك ما حدث في الاجتماع السنوى « لجمعية نشر الانجيل » الذى عقد سنة ١٩٠٠ اذ قال لورد هيوسيسل ابن رئيس الوزراء ومن أكثر الناس تديناً فى عصرنا ما يأتى :

« لقد كان عدد كبير من الناس راغبين من صميم قلوبهم للاشتراك فيما يمكن أن نسميه الحركة الاستعمارية في أيامنا • غير ان ضمائرهم لم تكن مستريحة كل الاستراحة الى أن هذه الحركة بعيدة كل البعد عن التلون بالأغراض الدنيوية كما يريدونها • » هو يظن أنه اذا أوضح لنا أهمية الأعمال التبشيرية فان ذلك يخلع على الروح الاستعمارية صبغة قدسية الى حد ما •

وكان كتاب سيلى « توسع انجلترا » وهو دعوة الى ما يسمى فى أمريكا (بالمصير الواضح الذى لا خفاء فيه) أثر كبير فى الطبقات الأكثر ثقافة • وقد شرح رسكين وهو اشتراكى وزعيم أخلاقى ومعبود الشبيبة التقدمية ، فى محاضرته الافتتاحية فى اكسفورد مذهب القومية الاستعمارية فى أكثر صورها تطرفا فقال :

« ان أمامنا الآن مصير نستطيع بلوغه وهو أسمى مصير أتيح لشعب له أن يقبله أو يرفضه • اننا لا نزال شعبا قويا متماسكا • تختلط فيه خير دماء الشمال ولم نصب بعد بانحلال فى مزاجنا ، فما زال فى وسعنا أن نحكم بحزم وأن نطيع بكرامة •• فهل لكم يا شباب انجلترا أن تجعلوا بلادكم مرة أخرى عرشا يجلس عليه الملوك ، جزيرة ذات سؤدد ، ومصدر نور للعالم كله • وموئلا للسلام ، سيدة العلم والفن والراعية الأمينة للمبادىء التى تثبتت صحتها على مر السنين رغم اغراء التجارب السخيفة والرغبات الفاسدة • بلادا يقدسها الناس وسط ضجيج الغيرة القاسية ، لشجاعتها الفريدة وحسن نواياها نحو بنى الانسان ، ان هذا ما يجب أن تكونه انجلترا اذا لم تشأ أن تمحى من الوجود : يجب عليها أن تنشىء مستعمرات بأسرع ما تستطيع وفى أقصى بلاد يمكنها أن تصل اليها ، مستعمرات تضم خيرة رجالها وأكثرهم نشاطا ، فتضع يدها على كل قطعة أرض خالية تستطيع أن تصل اليها ، وهناك تعلم مستعمريها أن فضيلتهم الأولى هى الاخلاص لبلادهم وأن هدفهم الأول هو العمل على تقدم انجلترا وتقويتها فى الارض والبحر ، وانهم وان أقاموا فى أرض بعيدة ليس لهم أن يعتقدوا أن حق بلادهم عليهم قد سقط كما لا يسقط حقها على بحارة أسطولها عندما يكونون فى بحار نائية •• واذا كنا نستطيع الحصول على رجال مقابل أجر زهيد يقفون أمام فوهات المدافع حبا فى انجلترا ، فقد نستطيع أن نجد أيضا رجالا يحرثون ويزرعون من أجلها يتصفون بالرحمة والاستقامة ويربون أولادهم على حبها ويستدفئون فى ظل بهائها ومجدها ، أكثر مما يفعلون تحت ضوء السماء الاستوائية كلها • »

وكانت لهذه المحاضرة بنوع خاص أهمية كبرى لأنها كانت مصدر الهام

لسيسل رودس الذى جاء الى اكسفورد بعد القائها مباشرة ورأى انها تعبر عن المبادىء التى وجهت حياته ٠

وكاد رديارد كبلنج هو الداعية الأدبى الأول للسياسة الاستعمارية طول العقد العاشر من القرن التاسع عشر ٠ وقد بدأ بقصصه عن الهنود والانجليز التى عرض فيها الرأى القائل ان الانجليز لم يذهبوا الى الهند الا لخير الهنود وانهم قالوا آلاما تجل عن الوصف فى سبيل الواجب لا غير ! ولكنه سرعان ما وجه عنايته الى أجزاء أخرى من الامبراطورية وخاصة جنوبى أفريقيا ٠ وكان يؤمن ايمانا لا يتزعزع بتفوق الجنس الانجلو ساكسونى ورجولته وصور انجلترا تباهى مدن بريطانيا الأكثر عظمة من مراكز النقاء العنصرى مثل كلكتا وهونج كونج ٠

« ما من شك فى أنكم من أبناء تلك الدماء ٠٠ وما دامت الدماء تجرى فى عروقكم »

فسأعرف أن خيركم هو خيرى ، وستشعرون أن قوتى هى قوتكم ٠
وان بيتنا موطد الدعائم وان أعمدته لن تنهار ٠
منذ أيام مرج بن عامر حين اشتعلت آخر الحروب جمعاء »

وكان ينظر الى اله المسيحية على أنه معبود قبلى بريطانى وكان « واثقا كل الثقة من ان البحار الخالدة تقاتل الى جانبنا » ونادى بأعلى صوته فى « أغنية الانجليز » :

ألا ما أحسن حظنا — وما أفضل تراثنا
(تواضعوا يا بنى وطنى واخشوا الله فى أفراحكم)
لأن الهنا العلى الأعلى
قد جعل البحر العميق وكأنه الأرض الجافة
وشق لنا طريقا الى أقصى أطراف الأرض

وقد عبر كيلنج عن هذه العاطفة الاستعمارية أتم تعبير فى قصيدته « ترتيلة الانسحاب » التى أنشأها فى عيد الملكة فيكتوريا سنة ١٨٩٧ فقال :

يا اله ابائنا يا من عرفناه من قديم
يا رب صفوف قتالنا الممتدة الى أمد بعيد
يا من تسيطر تحت سلطان يده الرهيبة
على أرض الصنوبر والنخيل —
يا رب الجيوش ، كن معنا
كيلا ننسى — كيلا ننسى !

غير ان هذا المزاج الراقى لم يكن يليق الا بمناسبة عظيمة لا غير . ومع ان السياسة الاستعمارية كانت تنطوى على شيء من المثالية الحقة . فقد كانت فى الحياة اليومية أكثر ميلا فى العادة الى الشئون الدنيوية ذات دوافع اقتصادية صريحة . وكانت هذه الدوافع تختلف بعض الشيء عند الذين هاجروا عنهـا لدى أولئك الذين استثمروا نقودهم لا غير . وكانت هناك أسباب كثيرة دفعت الطبقات العليا وأصحاب المهن الى تأييد كل توسع فى الامبراطورية فالشبان الذين لم يكونوا على قدر كبير من الكفاية ، الذين نشأوا على عادات التفـوق الاجتماعى ووجدوا ان المجتمع فى بلادهم قد صار أكـثر ديموقراطية ، كان يسرهم أن تسنح لهم فرصة للكسب وممارسة سلطة الأمر والنهى فى مناطق تسكنها شعوب « دنيا » . وكذلك جعل الازدحام والتصنيع وسيادة القانون انجلترا تبدو مقبضة فى نظر من يميلون الى المغامرة وكريهة عند من يفضلون الوحدة والمنـاظر الجميلة . وقـد ذهب الكثيرون الى المستعمرات لا لشيء الا ليهربوا من الظروف الكريهة المقيدة للحياة الانجليزية الحديثة . ووجـدوا أنفسهم بناة للامبراطورية من حيث لا يشعرون . وقد وصف كبلنج التناقض بين رغباتهم وما حققوه فعلا فى احدى قصائده الجميلة المعروفة باسم « مطارد الشعور » فقال :

سيصفر النورس من ورائه وتتحطم الموجة العمياء نارا
وينفذ ارادة الله العليا ، دون أن يعرف ما يبتغيه
ويبصر كواكب قديمة تتبدل ، ونجوما غريبة تشرق
ويدير الى العاصفة شراعه الذى ابتلاه البحر فى ظـلال السماوات الجديدة
ويدفعه حب الكسب القوى الى الامام ويتسلح بسلاح الجوع
كى ينتزع قوته من الصحراء العادية ومكسبه القليل من الرمال
يضايق عينيه دخان جيرانه وتعكر أصواتهم صفو راحته
ويوغل فى السير حتى يصير الجنوب شمالا مكتئبا لا يملكه انسان
يرغب فى العزلة وستأتى اليه هذه الرغبة فى عقبيه
بآلاف من المركبات ، وبشعب وملك
وسوف يعود بالطريق الذى سار فيه وسيلقى بجوار معسكره
وهناك سيضيء طرق آمنة بالفأس والشعلة
الذى لم يكد يذهب عنه الدفء الشارع الصاخب الرافعة والخاتم
متى تقوم فى آخر برية ظفر بها عمد امبراطورية

تقصور فيهـا كيف يخترف المهاجر الصحارى ويتحمل المشاق ينشـد الوحدة ولا يلبث الجيش والشعب والملك أن يأتوا فى أعقابه .

بيد أن آلاف المركبات كانت تدفعها عوامل أخرى مختلفة .

فقد كانت الطبقات المشتغلة بالتجارة . وقد تأثرت بزيادة الضرائب الجمركية فى كل مكان الا فى المملكة المتحدة ، تريد أسواقا لا تستطيع الحكومات الاجنبية أن تستبعدهم منها . ورحب الصناعيون بالمملكات الاستوائية ليتخـذوها مصادر ثمينة للمواد الاولية والمواد الغذائية العظيمة القيمة . إلا أن الشىء الذى كان أكثر أهمية من الاســواق والمواد الاولية هــو ايجــاد متنفس للاستثمار (١) . ذلك أن شق الطرق وانشاء السكك الحـديدية واستغلال المزارع والمناجم وبناء السدود ومالا يحصى من الاعمال الاخرى التى تتطلبها تنمية مناطق لم تمسسها المدنية كانت كلها تهىء مجالا يرحب به أصحاب رؤوس الاموال لاستثمار المال الذى لم يعد يستطاع استثماره فى الصناعات المتخلية بحيث يدر ربحا مماثلا لما كانت تدره المصانع فى أول عهدها والسكك الحديدية عندما بدأت فى انجلترا . هذا الى أن رأس المال القديم مثل الجديد قد أدى الى مغامرات استعمارية ، وقد رأينا كيف حصل جملة الاسهم التركية والمصرية البريطانيون على فوائد أسهمهم . ويبين هذا فائدة الجيوش والاساطيل عندما تكون فى متناول اليد : فلم يستطع المستثمرون الانجليـز فى سكك ايرى الحديدية أن يفعلوا شيئا حيال مستر درو عندما خدعهم واستولى على أموالهم ، بينما كان فى وسع الذين أقرضوا الخديوى المال أن يستعملوا قوات التاج (دون أن يكلفهم ذلك شيئا) فى تحصيل ديونهم ، بل انهم استطاعوا أن يفوزوا بالاعجاب باعتبارهم وطنيين لانهم يرغبون فى أن تحتل بريطانيا مصر .

أما فى حالة جنوب أفريقيا ، التى يجب أن نوجه اهتمامنا اليها الآن، فقد كانت هناك قوة أخرى عملت أكثر من أية قوة سواها على تشجيع الغــــزو الاجنبى منذ فجر التاريخ : تلك هى بريق الذهب والاحجار الكريمة وما لهما من اغراء .

٥ - افريقيا الجنوبية البريطانية

اكتشف البرتغاليون فى سنة ١٤٨٨ رأس الرجاء الصالح الذى امتدت منه الامبراطورية البريطانية شيئا فشيئا نحو الشمال حتى اتصلت بامتداد مصر نحو الجنوب ، ولكنهم لم يجعلوا منه موقعا لمستعمرة لهم . فـقد كان الهولنديون هم الذين أنشأوا مدينة رأس الرجاء الصالح فى سنة ١٦٥٢ .

---

١ - انظر ج . أ . هوبسون « الاستعمار : دراسة » ص ٦٠

ثم استعمروا الارض المحيطة بها وأدروا فيها عددا كبيـــرا من الهيجونوت الفرنسيين بعد الغاء مرسوم نانت . واستولى الانجليز على مستعمرة الرجاء ابان حروب نابليون عقابا للهولنديين لانهم اضطروا الى الوقوف الى جانب فرنسا . وأعيدت اليهم فى سنة ١٨٠٢ ثم أعاد البريطانيون غزوها واحتفظوا بها فى سنة ١٨١٥ . وكره كثير من الهولنديين حكم الانجليز كرها جعلهم يتسربون الى الشمال فى سنة ١٨٣٦ فى مجاهل القارة وأسسوا أولا ولاية الاورانج الحرة ثم الترنسفال . وكان وضع هاتين الجمهوريتين غير محدد نوعا ما : فقد ادعينا السيادة عليهما ولكنهما رفضتا الاعتراف بها . وفى سنة ١٨٧٧ أعلن سير بارتل فرير ضم الترنسفال الى الاملاك البريطانية ، ولكنها ثارت بعد ثلاث سنوات من الاحتكاك ، وتركها غلادستون الذى كان قــد خلف دزرائيلى تتمتع باستقلالها وترك مسألة السيادة عليها مرة أخرى غامضة الى حد ما .

وكان تاريخ جنوبى أفريقيا فى السنين الخمس والعشرين التالية هو تاريخ سيسل رودس نفسه .

ولد سيسل روز فى سنة ١٨٥٣ وكان ابنــــا لقس ريفى . وكان الابن الثالث لهذا القس . ومع أن أخاه الاكبر قد أرسل الى ونشستر والثانى الى ايتن ، فان المال كان قد نفد عندما جاء دوره فى التعليم فأرسل الى مدرسة نهارية محلية . وكان الأب يأمل فى كل ابن من أبنـــائه أن يصير قسا ، ولكنهم جميعا رفضوا هذا وأصبح أربعة منهم جنودا واثنـان من بنـــاة الامبراطورية . وكان سيسل معرضا لذات الرئة فأرسل عندما بلغ السابعة عشرة من عمره فقط لينضم الى أخيه الذى كان مزارعا فى ناتال . وأصابا بعض النجاح فى زراعة القطن . غير أن بريق حقول الماس الجديدة جذبهـــا اليها بعد عام أو حوالى عام من ذلك الوقت فخرج اليها سيسل من مزرعته فى سنة ١٨٧١ ومعه « بعض آلات التنقيب وبعض كتب الادب القديم ومعجم فى اللغة اليونانية » ووصل الى حقول الماس بعد شهر تقريبا .

وكان قد مضى فى ذلك الوقت أربعة أعوام لا غير على اكتشاف أول الماسة فى منطقة اتضح انها أغنى حقول الماس التى عرفت فى التاريخ كله . فقد ذهب مزارع هولندى اسمه شلك فان ينكرك فى سنة ١٨٦٧ لزيارة صديق له ولاحظ أن أولاد صديقه يلعبون بحصى التقطوها ، وكانت احداها لامعة فاستأذن فى أن يأخذها لعرضها على الخبراء . وكانت النتيجة أن بيع الحجر الحاكم بمبلغ ٥٠٠ جنيه ، ومرت بعد ذلك سنتان لم يوجد خلالهما الماسات كبيرة . وكان لدى أحد السحرة حجرا يستعمله فى أغراض السحر (ولعل هذا الاستعمال للماس هو السبب الاصلى فى البحث عنه) وعرضه على فان نيكيرك فاشتراه هذا مقابل ٥٠٠ رأس من الغنـم وعشرة ثيران وجـــواد .

واشترى أحد التجار الحجر من فان نيكرك بمبلغ ١١٠٠٠ جنيها وباعه للورد ددلى بمبلغ ٢٥٠٠٠ جنيها ، وأضفى على هذا الحجر التقدير الخاص بالجواهر العظيمة فأطلق عليه اسم « نجم جنوبى افريقيا » .

وكان المكان الذى وجدت فيه الالماسة يقع شمال نهر الاورانج مباشرة داخل حدود ولاية الاورانج الحرة ، لكن البريطانيين استغلوا بعض الغموض فى حجة ملكية الارض ونجحوا فى الاستيلاء على المنطقة وأرادوا أن يرضوا ضميرهم فدفعوا تعويضا قدره ٩٠٠٠٠ جنيها وحصلوا على حقل الماس يساوى مئات الملايين .

وعندما وصل رودس الى البقعة التى سميت فيما بعد « كمبرلى » كانت فى حالة من الغموض والاضطراب التى تتسم بها عادة مستعمرات التعدين الجديدة وبدأ يكسب المال بسرعة واشترى حقوق التعدين فى مناطق مختلفة بأسرع ما سمحت له موارده . ومن الغريب أنه غادر جنوبى أفريقيـا وعاد الى اكسفورد بعد أقل من عامين من النجاح الذى صادفه . وأضر الجو بصحته ثانية فاضطر الى قطع دراسته أكثر من مرة ليعود الى جنوبى أفريقيا . ولـم يبد نجاحا ملحوظا فى الدراسة ولكنه أصبح خلال اقامته الاضطرارية فى الريف من أصحاب الملايين ومن رجال السياسة الناجحين . وما من شك فى أنه كان طالبا غير عادى فى الفصل الدراسى الاخير . اذ كان قد بلغ الثامنة والعشرين . الا أن المدة التى قضاها فى اكسفورد حققت مع ذلك الغرض منها لأنها ساعدته فى الحصول على تأييد الطبقة الحـاكمة البريطانية فى مناسبات حرجة شتى .

وينبغى ألا نفترض أن رودس كان مجرد حامل للمال ، فقد كان على عكس ذلك كثير التأمل فى بعض المشاكل العميقة التى تمس مصير الانسانية وقد انتهى بعد شىء من التردد الى أن وجود الله وعدم وجوده احتمالان متساويان، وسبق وليم جيمس فى كتابه « ارادة الايمان » فأحس بأن التردد فى موضوع مثل هذا لن تكون عاقبته سليمة ، وقرر أن تقوم تصرفاته على أساس الفرض بأن هناك اله . وكانت الخطوة التالية هى تحديد غرض الله من خلق الكون وكان ذلك أكثر سهولة على رودس واستقر رأيه على « أنه من الواضح أن الله يعمل لخلق طراز من البشر أصلح ما يكون لنشر السلام والحرية والعدل فى العالم وأن يجعل لهذا الطراز السيادة عليه . ولم يكن هناك سوى جنس واحد فى نظره يقرب من هذا الطراز المثالى الذى يريده الله وهـو العنصر الذى ينتمى اليه ـ العنصر الانجليزى السكسونى ، فغرض الله من خلق الكون هو اذن أن يخص بالسيادة العنصر الانجلوساكسونى ، وخير ما يمكن عمله للمعاونة فى تنفيذ الرغبة الالهية فى الدنيا هو الاسهام فى تحقيق سيادة

العنصر الانجليزى الساكسونى ، وهكذا يقترب حكم السلام والعدالة والحرية » (١) .

وشرع رودس يعمل للمعاونة على تحقيق غرض الله فى نشر « السلام والحرية والعدالة » عن طريق حرب الماتابيلى وغزة جيمسون وحرب البوير واخضاع الزنوج الشمال أولا ثم البوير بعدئذ للسيادة البريطانية وانشاء نظام ضخم من الفساد السياسى فى كل من انجلترا وجنوبى أفريقيا . وكان طوال الوقت يعتقد باخلاص أنه موكل فى هذا من قبل الله .

كان الاساس الذى قام عليه نجاح رودس طوال حياته العاملة هو سطرته على الماس كمبرلى ، فبعد سنة ١٨٨٨ كانت شركة « مناجم دى بير المتحدة » التى كان هو الشريك الاكبر فيها ، تملك كل حقول الماس المعروفة وقتئذ فى جنوب افريقيا والتى كان انتاجها يمثل ٩٠ ٪ من الانتاج العالمى كله . وكان له نصيب مهم فى مناجم الذهب فى الترنسفال ولكنه لم يكن محتكراله . وكانت شركة « حقول الذهب المتحدة فى جنوب افريقيا » توزع أرباحا ارتفعت بسرعة من ١٠ ٪ سنة ١٨٩٢ الى ٥٠ ٪ ١٨٩٤ - ١٨٩٥ وكانت تدر عليه دخلا سنويا يبلغ ثلاثمائة أو اربعمائة ألف جنيه . ومع ذلك فان مصالحه فى الذهب لم تبلغ مطلقا أهمية مصالحه فى الالماس .

وقدر رودس فى نفس الوقت لاسباب استعمارية وليست شخصية ، أن الامبراطورية يجب أن تمتد شمالا فى المناطق التى سميت فيما بعد روديسيا . وكان يسكن القسم الجنوبى من هذه البلاد ، وهو يتكون من مرتفعات معشبة ، قبيلة الباتابيلى من الرعاة المحاربين وكان يحكمها زعيم جدير بالاعجاب اسمه لوبنجولا . وكان هذا الزعيم طويل القامة معتدلها ، قوى البنية جدا ، وتبدو عليه المهابة « عارى الجسم الا من قطعة طويلة جدا من القماش الأزرق القاتم احاط بها جسده ولكنها لم تخف منه شيئا على « الاطلاق » وكان يتمتع بنفوذ رادع على الرأى العام فى قبيلته التى كانت شكسه محاربة ، وكان حكيما وسياسيا فى حدود مامر به من تجارب ولكنه كان محاربا قويا عندما تبدو الحرب ضرورية ، وكان كما يقول وليم سوز فى كتابه الصغير المجيد عن حياة ردوس « ملكا من قمة رأسه الى اخمص قدمه »

الا انه لسوء حظه لم يكن يعرف القراءة ، ولكنه كان يستطيع شرب الشمبانيا . وكان يكره الساعين الى نيل الامتيازات الذين « يجيئون كالذئاب دون اذنى ويشقون الطرق فى بلادى . » ولكنه كان انيسا سهل القياد اذا طلبوا اذنه بطريقة مناسبة . وعند ماعرف أن بلاده تحتوى على ذهب كثير أرسل رودس فى سنة ١٨٨٨ ثلاثة من أصدقائه ، أحدهم كان فى زميل كلية

---

١ بازيل وليم « حياة سيسل رودز » ص ٥٠

« جميع القديسين » ليخطبوا وده · وأصابوا نجاحا تاما وحصلوا على جميع حقوق التعدين فى ممتلكاته مقابل ١٠٠ جنيه فى الشهر و١٠٠٠ بندقية و١٠٠٠٠٠ طلقة من الذخيرة وقارب بخارى مسلح في نهر الزمبيرى · وقد عرف هذا الاتفاق باسم « امتياز رد » (١) ·

وكانت الخطوة التالية تكوين شركة امتياز تتمتع بسلطات تماثل سلطات شركة الهند الشرقية القديمة ·· وكان هذا يتطلب الحصول على موافقة الحكومة البريطانية ، وتم له ذلك بتأييد الدوائر العليا له ، وكان من بين من تقدموا بطلب الامتياز وحصلوا عليه دوق فايف (جـد ادوارد السابع) ودوق آبركورن والبرت جراى (فيما بعد آيرل جراى الحاكم العام لكندا) وغيرهم من العظماء · وكان لدوق فاين فائدة خاصة لان الاسرة المالكة أصبحت بفضله ذات صلة بمشروعات رودى · وكان الامتياز الذى منح فى سنة ١٨٨٩ يؤكد حماية حقوق الاهالى وحرية الدين وحرية التجارة وكان من بين الاسباب التى منح الامتياز على أساسها العمل على تحسين أحوال « الاهالى الذين يسكنون الاقاليم المشار اليها من الناحية المادية وعلى تقدمهم ماديا فى الحضارة » · وقد تم الاعتراف « بامتياز رد » وصارت الشركة حكومة لمساحة شاسعـة لا يحدها من الشمال الا ممتلكات الدول الاوروبية الاخرى ·

واكتشف لوبنجولا فى هذه الاثناء أن الوثيقة التى وافق عليها كانت أبعد أثرا مما كان يظن فأملى خطابا الى الملكة فكتوريا كان مما جاء فيه :

« حضر منذ مدة فريق من الرجال الى بلادى ، أهمهم رجل اسمه فيمـا يبدو « رد » وطلبوا الى مكانا ينقبون فيه عن الذهب وقالوا انهم سيعطوننى بعض الاشياء مقابل منحهم حق التنقيب · فطلبت اليهم أن يرونى ما يعرضون اعطاءه لى وعندئذ أريهم أنا ما أريد اعطائهم اياه كتبت وثيقة قدمت لى لتوقيعها · وسألت عما تتضمنه فقالوا انها لا تتضمن سوى الكلمات التى قلتها والكلمات التى قالها أولئك الرجال · فوضعت بصمتى عليها ، وبعد ذلك سمعت من مصادر أخرى أنى قد أعطيت هذه الجماعة بمقتضى هذه الوثيقة حق امتلاك المعادن الموجودة فى بلادى · فعقدت اجتماعا من رجالى ومن الرجال البيض وطلبت صورة الوثيقة · وقد ثبت لى أنى قد وقعت على تنازل عن الحقوق المعدنية فى بلادى كلها لرد وأصدقائه · وعقدت بعد ذلك اجتماعا من رجالى ورفضوا الاعتراف بهذه الورقة لانها لا تتضمن كلمـاتى ولا كلمات من فى حوزتهم ·· وأنا أكتب اليك لتعرفى حقيقة الامر » ·

وكتب اليها بعد ذلك ببضعة أشهر خطابا آخر يشكو فيه من أن « الرجال

---

١ — ان خير ما كتب عن معاملات رودس مع لوبنجولا يوجد فى كتاب موريل « عبء الرجل الاسود » الفصل الرابع

البيض يزعجونني كثيرا بسبب الذهب . فاذا كانت الملكة قد بلغها أنى نزلت عن البلاد كلها فان ذلك غير صحيح » .

وردت الملكة على لسان وزير المستعمرات ، على أخيها الملكى بانه يستحيل عليه أن يستبعد الرجال البيض ، وأنها بعد أن قامت بتحريات عن الاشخاص الذين يتعلق بهم الامر تأكدت من أنهم « ممن يوثق فيهم للقيام بأعمال البحث عن الذهب فى بلاد الزعيم دون الاساءة الى شعبـه ، أو المســاس بقرآهم وماشيتهم وحدائقهم بحال من الاحوال » . وحدثت من وقت لآخر بعض المشاكل المتعلقة بسرقة الماشية ، غير أنه لم تتخذ أية خطوة أخرى فى الموضوع مدة بضع سنين . وكانت الشركة صاحبة الامتياز توجه اهتمامها الى تطور أحوال الاجزاء الجنوبية والى العمليات المالية فى انجلترا . وكان رأسمالها مليونين من الجنيهات موزعة على أسهم يساوى قيمة كل منها جنيه واحد ، وكانت بذلك تستطيع أن تضم الى مساهميها أشخاصاً لم يكونوا من الاغنياء ولهذا كان مؤيدوا رودس يوجدون حتى بين الاجراء . وابتـاع دى بيرز ٢٠٠٠٠٠ر٢٠٠ سهم والمؤسسون ٩٠٠٠٠ر٩٠ وابتاع رودى شخصيا عددا كبـيرا منها ، يضاف الى هذا أن « شركة الترخيصات المتحدة » التى كان يملك جزءا منها حدد لها نصف الارباح المستقبلة . واذا كان العالم قد الف مثل هــذه الاوضاع فأنه لم يكن من المرغوب فيه تشجيع أى نقد يوجه لهذا العمل .

وفى يوليه سنة ١٨٩٣ قرر الدكتور جيمسون مدير الشركة صاحبة الامتياز أن الوقت قد حان للتصرف مع الماتابيلى فطلب متطوعين لمساعدته على « تحطيم لوبنجولا » . وعرض على كل مقاتل يتطوع ٣٠٠٠ « مورجن » (تسعة أميال مربعة) وامتياز عشرين موقعا للتنقيب عن الذهب ، وأضاف أيضــا أن « الغنيمة ستقسم نصفها للشركة والباقى يوزع بالتساوى بين الضبـاط والرجال » . وقد قدرت قيمة مجموع هذه العروض بعشرة آلاف جنيه لكل مقاتل . ولم يكن من العسير بمقتضى هذه الشروط وجود عــدد كاف من الرجال يساعدون الله فى (نشر السلام والحرية والعدالة) . (وما أن جـاء شهر أكتوبر حتى كانت الاستعدادات قد تمت . وأرسل لوبنجولا ، الذى كان الامل لا يزال يراوده فى حل سلمى ثلاثة مبعوثين للمفاوضة . وتعهد البريطانيون بمنح المبعوثين (أمان المرور) . ولكن اثنين منهما قتـلا « مصادفة » فى يوم وصولهم الى المعسكر ، وكانت هذه بداية الحرب التى استمرت ثلاثة أشهر وحققت كل أغراض الرجال البيض . واختفى لوبنجولا وهرب رجاله أو قتلوا ، ووزعت ٩٠٠ مزرعة و١٠٠٠٠ر١٠ امتياز تعدين فى الاراضى التى كانت أصلا مملكته ، ونهب ١٠٠٠٠٠ر١٠٠ رأس من الماشية ، وترك هذا من بقى على قيد الحياة من الاهالى دون مورد يعيشون منه .

وكان من الضرورى على الدوام فى عملية « تمدين أفريقيا السوداء حرمان

آلسكان من الارض والماشية والمصادر التقليدية الاخرى للغذاء ، حتى يضطروا الى العمل عند البيض . غير أن هذه الطريقة كانت أيضا مما يجب فى بلاد التابيلى ولهذا أدخل فيها نظام السخرة . وفى سنة ١٨٩٦ ، بعد أن أصر البوير جيمسون ، قام المتابيلى بمحاولة يائسة لاسترداد حريتهم عن طريق الثورة ، ولكنهم هزموا طبعا ، ولم يسببوا متاعب من أى نوع كان حتى هذه الايام . وفرضت ضريبة قدرها جنيهان على كل فرد من الاهالى الذين اضطروا للعمل عند البيض ليحصلوا على المبلغ عن طريق الاجور . وهكذا حلت مشكلتا آلدخل والاجور معا . ومع ذلك فان المتابيلى ، كما يقول مبشر معروف هو مستر كارنيجى ، لم يعترفوا بالجميل بل يقولون :

« لقد ضاعت بلادنا ، وخسرنا ماشيتنا ، وتفرق شعبنا ، ولم يبق لدينا ما نعيش لاجله ، وقد هجرتنا نساؤنا يفعل الرجل الابيض ما يشاء بهن ، وأصبحنا عبيدا للرجل الابيض ، فنحن لا قيمة لنا ولا حقوق ولا قوانين من أى نوع » .

ولعل مما يساعد على العزاء أن نفكر فى أن كل هذه الآلام قد حققت هدفا عظيما طيبا هو نقل قطع من المعدن آلاصفر من تحت الارض فى بقاع معينة الى بقاع أخرى هى أقبية المصارف الكبرى .

وكان جيمسون بطل حرب المتابيلى مساعد رودى وصديقه الحميم . وكان مشروعه التالى أقل نجاحا من مشروعه الاول ولكنه كان أكثر منه أهمية .

كانت بلاد الترنسفال باستثناء حقـــول الذهب لا تزال يسكنها بعض الهولنديين الذين تركوا رأس الرجاء الصالح لانهم لم يستطيعوا البقاء تحت حكم البريطانيين . وكانوا فى مزارعهم المنعزلة يحتفظون بتقوى القرن السابع عشر البسيطة وينظرون الى العالم الرأسمالى الجديد برعب وفزع . وعندما اكتشف الذهب عند نهر الراند أدركوا أنه يجلب ثروة مفاجئة لمن يوجد فى أرضه ذهب من المزارعين ، غير أنهم رفضوا أن تكون لهم أية علاقة ، فيما عدا تحصيل الايجار وفرض الرسول ، بجحافل المغامرين من كـل جنس الذين زحفوا على أرضهم وقد كانت من قبل هادئة حتى قدومهم اليها . وعلى الرغم من أن الدخلاء « صاروا يفوقونهم بنسبة ٥ الى ١ فان البوير رفضوا منحهم حق التصويت وظلوا وقتا طويلا يمنعون مد السكك الحـــديدية التى تربط بلادهم برأس الرجاء الصالح . هذا الى أنهم فرضوا ضرائب جمركية مرتفعة الى حد جعل كل شىء يستورده « الدخلاء » غالى الثمن ، وكاد يقضى عـــلى التجارة فى مستعمرة الرجاء الصالح . وشعر الدخلاء أنهم أكثـــر عناصر البلاد أهمية : فقد كان بعضهم على قدر كبير من الثراء ، وكان اقليمهم ينتج معظم ما فى العالم من ذهب وأسخطهم هـذا على استبعـادهم من السلطـة السياســـية .

وكان رودس يأمل ، وكذلك تأمل الحكومة البريطانية ، أن يثور الدخلاء ضد الرئيس كرجو على أساس الدعوة القديمة « لاضرائب دون تمثيل » التى كان لها وقتذاك وقع حسن على الآذان الانجليزية . ودأبت السلطات العسكرية خلال سنة ١٨٩٥ على أن تجلب الجنود من الهند وترسلهم اليهـا عن طريق رأس الرجاء الصالح بدلا من قناة السويس حتى تستطيع انزالهم الى البر اذا حدثت اضطرابات فى البلاد . ولم يكن رودس فى ذلك الوقت مسيطرا على الشركة صاحبة الامتياز فحسب ، بل كان أيضا رئيس وزراء مستعمرة رأس الرجاء الصالح ، وقد استعمل سلطته المزدوجة فى ارسال جيمسون ومعه قوة مسلحة الى أقرب نقطة من جوهانسبرج تقع على حدود الترنسفال بحجة ظاهرة هى حماية خط حديدى كان ينشأ وقتئذ . وحاول اشعال فتنة فى الراند تؤيدها حركة جيمسون ورجاله . ولكنه فشل فى الاتفاق مع (المحصلين) فى آخر لحظة ، فقد كان الكثيرون منهم يريدون الاستقلال بينما كان هو مصرا على ضم الترنسفال الى الامبراطورية البريطانية . وأوشك رودس عندئذ على التخلى عن مشروعه ، ولو الى حين ، غير أن جيمسون الذى كان أكثر منه حدة فى الطبع بدأ هجومه فى ٢٩ ديسمبر سنة ١٨٩٥ ، وفى ٢ يناير وقع وهو وجميع رجاله أسرى فى يد رجال كروجو بطريقة تجللهم بالعار . وكانت نتائج هذا الحدث بعيدة الاثر بصورة تدعو الى الدهشة . فقد انقلب أصدقاء رودس من الهولنديين عليه بطبيعة الحال واضطر الى اعتزال السياسة فى رأس الرجاء الصالح وان ظل مسيطرا على روديسيا . وقيل أن الحكومة البريطانية ، أو على الاقل جوزيف شمبرلين وزير المستعمرات ، لها ضلع فى الامر ، وعلى الرغم من أن ذلك قد يكون غير صحيح ، فمما لا مراء فيه أنه كان هناك اهمال جدير باللوم . وأرسل الامبراطور الالمـانى برقيـة تهنئة الى الرئيس كروجر أشاعت السخط فى انجلترا الى درجة أن معظـم الناس نسوا أن يلوموا المغيرين . سلم جيمسـون ورجاله الى الانجليز لمعاقبتهم فلما وصلوا لندن اشترك الاهلون كلهم فى الاحتفال بهم . وحكم على جيمسون بالسجن مدة قصيرة ولكنه أطلق سراحه فورا « لاسباب صحية » . ولم تعد العلاقة ودية بين انجلترا وألمانيا بعد ذلك الحادث . وأصرت الحكومة البريطانية على مناصرة قضية « الدخلاء » وظلت تدفعها بلا هوادة الى نهايتها فى حرب البوير . وكان لشئون جنوبى افريقية منذ اللحظة التى وقعت فيها هذه الغارة عواقب وخيمة فى تاريخ العالم .

وانتهى نفوذ رودس فى مستعمرة رأس الرجاء ولكنه احتفظ بأهميته فى أماكن أخرى . فقد كان يرغب فى انشاء خط برقى بين رأس الرجاء والقاهرة وكانت روديسيا تصل الى الى بحيرة تنجانيقا ولكن بعد هذه النقطة كان لابد من المرور داخل الكونغو أو أفريقيا الشرقية الالمانية . وفى سنة ١٨٩٩ قام بزيارة الملكين اللذين بيدهما الامر ليرى أيهما يمنحه خير الشروط فى الاذن له

بانشاء الخط مخترقا أراضيه . وكان يحتقر الملك ليوبولد ، » ولما خرج من المقابلة أمسك بملحقنا العسكرى الذى صادف مروره على مقربة منه وهمس فى أذنه ، شيطان ، أنى أقول لك ان هذا الرجل شيطان × » . ولكنه على النقيض من ذلك أفلح من القيصر فلاحا يدعو الى الاعجاب . فقد بدأ فى حديثه معه ببعض الملاحظات الخبيثة عن برقية كروجر فقال « لقد كنت ولدا شقيا وحاولت أنت أن تؤدبنى وكان أهلى يريدون تأديبى أيضا ، لانى ولد خبيث فلما حاولت أنت أن تفعل ذلك قالوا ، لا ، اذا كان هذا من شأن أحد فهو من شأننا نحن ، كانت النتيجة ياصاحب الجلالة أن كرهك الانجليز جدا ، وأن عملية تأديبى لم تحدث قط » .

وسر هذا الحديث القيصر فمنح رودس ما طلبه .

وحل جوزيف تشمبرلين ابتداء من سنة ١٨٩٦ محل رودس فى التصرف فى شئون الترنسفال ، وكان تشمبرلين قد بدأ بداية راديكالية ولكنه انقلب استعماريا مثل رودس نفسه واختار وزارة المستعمرات بالذات - لينفذ سياسته . وهو يقول « ان العناية التى تحدد مصائرنا قصدت أن نكون دولة حاكمة كبرى . ونحن نفتح .. نعم نفتح - ولكننا لا نفتح الا لكى نمدين شعوبا كثيرة على وجه البسيطة وندير شئونها وننميها لمصلحتها أولا ولمصلحتنا أيضا بلا ريب » . قد قوى الشعور الاستعمارى فى انجلترا الى حد كبير خلال سنة ١٨٩٨ بغزو كتشنر للسودان واذلال الفرنسيين بارغامهم على التخلى عن فاشودة . وفى سنة ١٨٩٩ بدا لتشمبرلين أن الوقت قد حان للنظر فى أمر الطرف الآخر من امبراطورية « القاهرة الى رأس الرجاء الصالح » والانتهاء من مشكلة البوير . وقد كانت طبعا « ضربا فى سبيل الديمقراطية » أو كما قال لورد سالسبورى « نحن لا نسعى وراء حقول الذهب ولا نريد ضم أقاليم جديدة « غير أن بعض الاجانب الساخرين لاحظوا رغم ذلك أننا حصلنا من وراء هذه الحرب على حقول ذهب وضممنا أقاليم جديدة .

وكانت حرب البوير عارا مزدوجا على انجلترا ، لان قضيتنا كانت غير عادلة ، وكانت جيوشنا فى أول الامر فاشلة . وكان الشعور فى القارة الاوروبية معاديا للانجليز أشد العداء وجعلت هزائمنا على يد البوير الناس يعتقدون أننا فى طريقنا الى الاضمحلال . وراجت الاشاعات عن اتفاق فرنسى - المانى - روسى لارغام انجلترا على عقد صلح مع الترنسفال . وأدرك الانجليز لاول مرة منذ حروب نابليون أنه قد يكون من المفيد أن يكون لهم حلفاء فى القارة ، فعرض تشمبرلين أن يعقد حلفا مع المانيا ولكن عرضه قوبل بالرفض

× وليامز « حياة سيسل رودس » ص ٣٤٠ .

وكان قسم كبير من الرأى العام ضد الحرب طوال مدة القتال . وقد اضطر لويد جورج ، فى برنجهام بلد تشمبرلين ، أن يفر متخفيا فى زى رجال الشرطة ، ولكنه لم يفقد شعبيته فى ويلز أبدا . وتحدث كامبل بانرمان ، أحد زعماء الاحرار ، عن « الطرق الوحشية » فى معرض ذكر حرق المزارع ومعسكرات اعتقال النساء والاطفال . وما أن انتهت الحرب حتى انقلبت البلاد على الحزب الذى أشعلها وعلى كل الفلسفة الاستعمارية التى أوحت بها

وقد ساعد على هذا الانقلاب عاملان . الاول أن تشمبرلين شرع فى حملة لفرض الضرائب على المواد الغذائية باعتبارها الوسيلة الوحيـــدة لتـدعيم الامبراطورية ، غير أن ذكريات المجاعة فى العقد الخامس جعلت الاحـــرار يعتقدون أن أنشاء اتحاد جمركى للامبراطورية قد يبتاع بثمن أعلى ممـــا يستحق . وكان العامل الثانى أكثر اتصالا بحرب جنوب أفريقيا . فقـد كان أصحاب المناجم ، الذين قامت من أجلهم الحرب ، يريدون عملا رخيصا . وقد قيل للعمال البريطانيين طوال الحرب أنهم سيجدون عند نهاية القتال متسعا كبيرا فى « الراند » ، غير أن أجورهم كانت أكثر ارتفاعا مما يريد سادة جوهانسبرج . ورؤى أن العمال السود لا يكفون ، فتقرر استيراد عمال صينيين بشروط تجعلهم أقرب الى الارقاء . فثار شعور النقابات وكذلك الشعور المناهض للرق . وأشار رئيس أبرشية جوهانسبرج الى أن جلب هؤلاء الوثنيين الفقراء الى أرض مسيحية عمل من أعمال الرأفة ، ولكن هذه الحجة فشلت ، لسبب ما فى اقناع الناس . وألمح الاخلاقيون من معارضى الحكومة الى الاخطار الاخلاقية التى تنجم عن الاحتفاظ بعشرة آلاف رجل من غير نساء ، وأعلنت الحكومة أنها جلبت عددا معينا من زوجات العمال الصينيين وقال أسقف كنتربرى عندئذ أن الاخلاق قد أصبحت فى حرز أمين . غير أن المتشككين هزوا رؤسهم لما علموا أن عدد النساء اللاتى جىء بهن كان اثنتين لا غـير .

ومنح الشعب كامبل بانرمان فى آخر الامر أغلبية عظمى على الرغم من حديثه عن « الطرق الوحشية » . وظن السذج البسطاء أن الاستعمـــار والحرب قد انتهى أمرها ، وأن الحكومة الجديدة ستسير فى طريق نحو السلام ولكن كانت هناك لسوء الحظ أقلية صغيرة من حزب الاحرار تؤيد الاستعمار باستمرار ، وكان من هذه الاقلية سير ادوارد جراى الذى صار وزيرا للخارجية . وبينما كان الشعب يعطى صوته متحمسا ضد الحرب وافق هو ، بدون علـم مجلس الوزراء ، على المحادثات العسكرية مع فرنسا ، وهى محادثات لم تكن قد جعلت الحرب الكبرى أمرا محتوما ، قد جعلت على الاقل اشتراك انجلترا فيها اذا وقعت أمرا محتوما .

وكانت النتيجة أنه ، على الرغم من أن رودس قد مات قبل الحرب مباشرة

وأن تشمبرلين قضي بعد سنتين من اشتعال نارها ، وعلى الرغم من أن البرلمان ندم على الشرور التى ارتكبها فى أيامهما ، قيدت حفنة من الرجال انجلترا بسلوك الاساليب العتيقة الغاشمة مستعينين على ذلك بوسائل خفيـــة ، وساقوا بلادهم معصوبة العينين فى طريق الكارثة العالمية ٠

٦ ـ آسيـــا

وكانت السياسة الاستعمارية الاوروبية أقل نجاحا فى آسيا منهـــا فى افريقيا وقد سلكت للوصول الى غايتها طريقا مختلفا ٠ وينبغى لنا أن نعتبر روسيا الآسيوية مستعمرة وليست امبراطورية تم الحصول عليها بطريق الفتح ، فقد كان السكان الاصليون قليلين وكانت مقـــاومتهم للمهاجرين الروس أقل من مقاومة بعض الهنود الحمر للبيض فى الولايات المتحدة ٠ وكان مركز بريطانيا قد استقر فعلا فى الهند فى سنة ١٨١٥ ولم يحدث فيه أى تغيير مهم خلال الفترة التى نبحث فيها ٠ ومع ذلك فقد ولد الاتصال بالافكار السياسية الغربية حركة قومية فى الهند ، فى أجزاء أخرى من آسيا ، بدأ يحس بها الانجليز قبيل اشتعال نار الحرب الكبرى ×

كانت المناطق المفتوحة للمنافسة الاستعمارية هى الامبراطورية العثمانية وبلاد ايران والشرق الاقصى ٠ وكان اضمحلال تركيا قد أثار نهم الدول الكبرى منذ أن تساوم نابليون والاسكندر على القسطنطينية وبلاد الشام والقلاع والبلقان ، الا أن الغيرة المتبـادلة حالت دون تقسيم كالذى تم فى أفريقيا بنجاح ٠ وكان للروس والفرنسيين والانجليـز مصالح فى الشرق الادنى ، ولكن المانيا حلت بالتدريج محل انجلترا فى صداقة السلـــطان ، وأصبحت آسيا الصغرى حقلا لاستثمار رأس المال الالمانى ، وأثار مشروع الخط الحديدى بين برلين وبغداد حماسة الاستعماريين الالمان بنفس الطريقة التى أثار بهـــا مشروع خط القـــاهرة ـ رأس الرجاء الصالح الحديدى الاستعماريين فى انجلترا (ويبدو كأنما الاستعماريون فى جميع البـــــلاد مشغوفون بالاحرف المتكررة فى أوائل الكلمات) ، وقد اعترضت كل من روسيا وانجلترا على انشاء خط حديدى يمتد من برلين الى الخليج الفـارسى ، ولكن تم التوفيق بين وجهات النظر فى صالح المانيا قبل اندلاع نار الحرب مبـــاشرة ٠

وكانت ايران ، أكثر البلاد الاسلامية ثقافة وأرقاها فنا ، قد اعتنقت الافكار التحررية وأنشأت برلمانا بعد قرون طويلة من فساد الحكم ٠ ولم يكن ذلك

• يشير المؤلف الى تكرار الحـــروف الاول فى كلمتى

• يقصد المؤلف دائما بالحرب الكبرى الحرب العالمية الاولى لان كتابه يبحث فى الفتـــرة الواقعة بـــين ١٨١٤ و ١٩١٤ ٠

عما يروق انجلترا او روسيا . واستولت انجلترا ، بمقتضى اتفاق تم فى سنة ١٩٠٧ ، على منطقة فى الجنوب تحوى حقول بترول ذات أهميـة خاصـة للبحرية البريطانية ، التى قررت قبل ذلك مباشرة استبـدال البترول بالفحم فى الاسطول ، بينما استولت روسيا على منطقة أوسع بكثير وقضت على أنصار الدستور بالوحشية المألوفة للنظام القيصرى ، وتركت منطقة فى الوسط تضم أقل من ربع البلاد تتمتع باستقلال اسمى × .

وكان أهم من هذه الحوادث التى وقعت فى الشرق الادنى ما كان من أثر للتدخل المتكرر من جانب الرجال البيض فى الصين واليابان : ففى القرن السادس عشر والسابع عشر أرسل البرتغاليون من ماكا والاسبان من مانيلا مبشرين وأسلحة نارية الى كل من البلدين . وقضى اليابانيون بعد أن تعلموا صنع الاسلحة النارية على الذين اعتنقوا المسيحية وأغلقـوا بلادهم فى وجه الاوروبيين باستثناء سفينة هولندية واحدة فى العام . أما الصينيون فقد كانت آراؤهم فى المسيحية كرأى فلتير فيها ولكنهم اضطروا الى الاعتراف بأن الجزويت تفوقوا عليهم فى قدرتهم على التنبؤ بالخسوف والكسوف ومن ثم استمروا يتحملونهم لهـذا السبب . ولم يكن أى من لبلدين يعتقد أن الرجال البيض يستطيعون هزيمتهم فى الحرب .

غير أن الصينيين واليابانيين تفتحت أعينهم على الحقيقة ، الاولـون على يد انجلترا والآخرون على يد أمريكا . فقد حارب الانجليز الصين فى سنـة ١٨٤٠ لان السلطات الصينية اعترضت على اسـتيراد الافيون . ووضعت المعاهدة ، التى عقدت نتيجة لهذه الحرب ، الاسس التى قام عليها النظـام الذى استمر يعمل به فى الصين الى ما بعد الحرب والذى لم تزل كثير من اسسه قائمة حتى الآن × . فاتفق على أن تشرف على الجمارك الصينية هيئة من الموظفين المسئولين فقط أمام رئيسهم الذى كان انجليزيا طالمـا ظلت انجلترا تختص بالنصيب الاكبر من تجارة الصين الخارجية ، كما اتفق على الا تزيد ضريبة الواردات على ٥٪ من قيمة ما يستورده حتى على أشياء مثل الكحول ، و (لمدة طويلة) الافيون واستولت الدول الاجنبية مجتمعة على عدد متزايد من « موانىء المعاهدة » يقع الكثير منها على بعد مئات الأميال من البحر ، وفقدت الصين سيادتها الفعلية على هذه المدن ولم يبق لها فيها سوى السيادة الاسمية . واتفق على أن يخضع الاجانب فى الصين لقوانينهم الخاصة والا يحاكموا الا أمام قضاة من جنسيتهم . ومع ذلك فقد استمـر

---

* عالجت تقسيم ايران بين روسيا وانجلترا بتفصيل اوفى فى مقال « سياسة الاتفاق من ١٩٠٤ الى ١٩١٥ التى يتضمنها كتاب « العدالة فى اوقات الحرب » من صفحة ١٧١ الى صفحة ١٩٣ .

* لقد تبدلت هذه الحال كثيرا بعد ذلك فلم يعد للنظام القديم اثر فى الصـين الآن . (المترجم)

الصينيون ، الذين تفرقوا على العالم كله منذ القرن الثالث قبل الميـــلاد ، يحتفظون بكبريائهم وينظرون الى الاجانب باعتبارهم مصدر ازعاج أكثـر منهم مصدر تهديد .

أما فى اليابان فقد اتخذت الاحداث طريقا مختلفا عن هذا كل الاختلاف . فقد جعلتهم حملة أمير البحر ميرى ، التى طالبت فى سنة ١٨٥٣ بانشاء علاقات تجارية مع الولايات المتحدة ، يدركون أن الاسلحة قد تقدمت منذ آخر اتصال لهم بالمدنية المسيحية فى أوائل القرن السابع عشر . فأذعنوا لما طلبه مؤقتا كما أذعنوا للانجليز الذين جاءوا بعدهم مسرعين . وعقدت معاهدات تجارية وفتحت « موانى معاهدة » لتجارة ، ولم يساور الشـــك أحدا من الغربيين فى أن الامور كلها ستسير وفقا للخطة المرسومة . وهـذا ما حدث فعلا ، ولكن الخطة كانت من وضع اليابانيين لا من وضع الرجال البيض . فسرعان ما تعلم اليابانيون كل ما يتعلق بالقدرة الحربية والبحرية فى الحضارة الاوروبية ، واستعادوا سلطتهم على موانىء المعاهدة ، وخضع الاجانب للقوانين والمحاكم اليابانية واستمرت التجارة ولكن على أســاس الند للند لا على أساس مصلحة الرجال البيض وحدهم .

وعندما اقتتل اليابانيون الصينيون على كوريا فى سنة ١٨٩٤ وادعى كل منهم أن له السيادة عليها ، دهش العالم للهزيمة السريعة الساحقة التى منى بها الصنيون . كانت النتيجة أن حدث سباق بين الدول لاحتلال الصين فطالب الفرنسيون بمنطقة نفوذ لهم فى الجنوب والبريطانيون فى حوض نهر اليانجتسى ، واستولوا الروس على منشوريا وسرهم أن حصلوا أخيرا فى بورت آرثر على منفذ حر الى المياه الدافئة . وكان من حسن حظ الالمـــان أن قتل لهم مبشران فى شانتوغ عام ١٨٩٧ فانتزعوا من الصين تعويضا لهم عن هذا العمل ميناء كياو تشو وامتيازات ثمينة بانشاء خطـوط جديدة فى المنطقة التى تقع خلفها . وأخيـــرا هاجم بعض الصينيين الرجعيين الجهلة « الملاكمون » بتشجيع الامبراطورة الارملة ، الشيطانين الاجانب حينما وجدوهم وخاصة فى الارساليات التبشيرية وفى المفوضيـات فى بكين . وأرسلت حملة مشتركة من الدول الاجنبية فى سنة ١٩٠٠ لتأديب البلاد ، ونهبت بكين وفرضت على البلاد غرامة ضخمة ، وأصبح من حق حى المفوضيات منذ تلك اللحظة أن يحمى نفسه بفرق عسكرية أجنبية ومنع الصينيون من بناء منازل بالقرب من جدرانه . واعتقد الناس عندئذ أن الصين قـد أحنت رأسها ذلا لأوروبا .

ولكن الحرب اليابانية الروسية التى دارت رحاها بعد أربع سنين من ذلك

الوقت بدلت كل شيء · فقد اعتبر اليابانيون أن حقهم في كوريا قد تقرر من الحرب مع الصين · غير أن بعض الغراندوقات الروسيين كانت لهم امتيازات في قطع الاشجار من غابات البلاد فضلا عن أن الاستيلاء على كوريا كان يبدو ضروريا لاستكمال حيازة منشوريا · جعل انشاء الخط الحديدي الجديد في سيبيريا الحرب تبدو عملا سهلا في نظر السلطات العسكرية الروسية · الا أن اليابانيين أثبتوا أنهم أقوى الفريقين ، فقد دمروا الاسطول الروسي في البحر، واستولوا في البر على بورت آرثر ومنشوريا الجنوبية حتى مكدن · وكانت هذه أول مرة منذ أيام عظمة الاتراك هزم فيها الاوروبيون على يد شعب غير أوروبي · وكان الاستعمار الوحيد القائم في الصين منذ تلك اللحظة هو الاستعمار الياباني أما الاوروبيون فلم يبقوا فيها خصوصـــا بعد الحرب الكبرى الا من باب التسامح لا غير ·

وكان لآثار الحرب اليابانية الروسية من الاهمية في روسيا ما كان لها في الصين · فقد أدت أولا الى ثورة سنة ١٩٠٥ التي أقامت دستورا وبداية حكم برلماني · ثم أدت ثانيا الى تغيير شامل في سياسة روسيا الخارجية فلم تعد المغامرات في الشرق الاقصى مستطاعة لهم · وكان مستحيلا على الفرنسيين أن يساعدوا الروس هناك بسبب التحالف الانجليزي الياباني · ولهـــذا السبب عينه ، وكذلك بسبب الاتفاق الودي الانجليزي الفرنسي في سنة ١٩٠٤ وهي نفس السنة التي بدأت فيها الحروب الروسية اليابانية ، لم يكن متوقعا أن يساعد الفرنسيون الروس على انجلترا · وجعل ذلك كله من المستحيل على روسيا اتباع سياسة التوسع في اسيا ، وهكـــــذا زالت أسباب العداوة بين انجلترا وروسيا وهي العداوة التي ظلت قائمة منذ بدأ الروس تقدمهم في وسط آسيا وشعرت انجلترا من جرائه بقلق شديد على امبراطوريتها الهندية · وكانت النتيجة أن وجه الروس طموحهم نحـــو البلقان والشرق الادنى حيث اصطدموا بتركيا والنمسا وهنغاريا وبألمانيا تبعا لذلك · ولم تكن هذه السياسة تتعارض مع مصالح بريطانيا في أي مكان ، بل انها على النقيض من ذلك جعلت صداقة بريطانيا ممكنة ومرغوبا فيها · ومن ثم كان الاتفاق الودي الروسي الانجليزي في سنة ١٩٠٧ الذي أكمل تجمعات الدول الكبرى التي استمرت حتى الحرب الكبرى (الاولى) ·

وقضى تفوق اليابان في الشرق الاقصى على مطامع الدول الاوروبيـــة في الصين ، وبذلك زالت من ميدان المساومة بينها آخر منطقة مهمة لم يكن قد تم الاستيلاء عليها · ومن هذا الوقت كانت خريطة العالم قد تم تخطيطها وأصبح مكسب أي دولة لا يمكن أن يتحقق الا على حساب دولة أخرى · وزاد من حدة المنافسة بين الدول وجعل التوفيق بينها أكثر صعوبة من ذي

قبل . فقد أصبحت قوى التوسع التى كانت لا تجد لها متنفسا فى الاستعمار مضطرة الى العمل ، لا فى المناطق النائية غير المستثمرة بل فى مناطق أقرب منها اليها وعن طريق المنافسة المباشرة بين الامم المتجاورة . وقد تنبأ رجال السياسة نتيجة ذلك التنافس ، ولكنهم كانت تنقصهم الارادة والذكاء اللازمان لمنع وقوعها ، وساقهم التيار نحو الكارثة لا حول لهم ولا طول، وان لم يروا أمامهم المصير المحتوم .

٥ ـ قضاة أوروبا

الفصل الثانى والثلاثون

قضاة أوروبا المحكمون

اتخذ انقسام الدول الكبرى فى أوروبا الى معسكرين فى سنة ١٩٠٧ الاخيرة التى استمرت حتى الحرب الكبرى · وكان العالم قد تغير منذ مؤتمر فينا أكثر مما تغير فى أى قرن خر مضى : فقد زادت الحرية وزاد التنظيم معا وبقدر متساو تقريبا · فأما من حيث الحرية فقد اختفى رق الارض ، وأدخلت النظم البرلمانية فى بلاد لم تكن فيها من قبل ، وصارت هذه النظم أكثر ديموقراطية فى البلاد التى عرفتها من قبل ، وتمت للنقابات صبغتها القانونية ، ومنحت الاجراء ما يقرب من المساواة فى القدرة على المساواة فى معاملاتهم مع أصحاب الاعمال ، وسمحت الحكومات فى كل مكان بالهجرة ، وبدأت الهجرة تترك أثرا كبيرا فى أوروبا الشرقية والجنوبية ، واستقر التسامح الدينى فى كل مكان باستثناء الامبراطورية الروسية ، وأصبح القانون الجنائى أقل وحشية ، وألغيت الرقابة على الصحف أو خففت · وفى ميدان السياسة صارت حرية الرأى أقرب لأن تكون حقيقة واقعة منها فى أية فترة سابقة ·

وكان التغير فى التنظيم مماثلا فى روعته لما حدث فى الحرية · فقد أصبحت المنظمات الاقتصادية على نطاق واسع ضرورة يحتمها اختراع السكك الحديدية ، وصارت ممكنة بفضل قانون المسئولية المحدودة · وزاد حجم تجمعات رأس المال باستمرار فى كل من أوروبا وأمريكا ، وبذلك تركزت القوة الاقتصادية فى أيدى عدد قليل من الاقطاب ، وأصبحت الحكومات ، التى كانت يقوم بوظائف قليلة نسبيا فى سنة ١٨١٥ ، تعمل فى عدة اتجاهات جديدة وأهم هذه الاتجاهات هى التربية : وكان وجود ديموقراطيات متعلمة فى البلاد الغربية مما جعل فى الامكان قيام تعاونى قومى وثيق لم يعرف مثله من قبل الا فى دول المدن الصغيرة · وجعلت السكك الحديدية والتلغرافات والتليفونات فى وسع رجال الحكم الموجودين فى المراكز اصدار تعليمات سريعة الى المقيمين فى الجهات النائية · وبذلك قويت سلطات الحكومات · وقامت خارج أوروبا ، حيث كان الهنود الحمر يصطادون وزعماء القبائل الافريقية يقودون محاربيهم فى المعارك ، مدن جديدة وآلات حديثة أدخلت الناس فى فلك سوق الاوراق المالية ·

وعلى الرغم من أن العالم تغير كثيرا منذ سنة ١٨١٤ فقد كانت هناك ناحية واحدة لم يمسها تغيير مهم ، وكان ما طرأ فيها من تغيير تخلفا الى الوراء لا تقدما . فقد ظلت العلاقات الخارجية بين الدول الكبرى ، كما كانت فى أيام مؤتمر فينا ، فى أيدى أفراد ربما كانت سلطتهم خاضعة لقيود من الناحية العملية أن تكون سلطات مطلقة . فعلى الرغم من قيام برلمانات فى الامبراطوريات الشرقية الثلاث ، فان علاقاتهم الخارجية ظلت خاضعة أتم الخضوع لاباطرتها كما كانت الحال فى عهد اسكندر الاول ومترنيخ . وفى انجلترا أبعدت العلاقات الخارجية عن الاشراف الفعال للبرلمان بسبب السنة التقليدية سنة الاستمرار فى السياسة الخارجية ، فقد ظلت وزارة الخارجية فى أيدى أبناء أسر الاحرار الذين تولوها منذ سنة ١٨٣٠ أيا كان الحزب الحاكم . وفى فرنسا كان وزير الخارجية أقل سلطة من أمثاله فى الدول الاخرى فى أوروبا ، الا أن التحـالف بين الموظفين الدائمين وبعض ذوى المصالح الاقتصادية أدى الى نتائج شبيهة جدا بالنتائج التى أدت اليهـا السلطة المطلقة فى أماكن أخرى .

وبينما ظلت العلاقات على وضعها القديم ، زادت قدرة الدول على الاضرار بعضها ببعض الى حد يجل عن الوصف . فقد غير العلم التصنيع فن الحرب وجعل فى الامكان تخصيص جزء من السكان للقتال وانتاج الذخائر أكبـر بكثير مما كان يمكن تخصيصه للتدمير أيام حرب نابليون . ومكنت سرعة التحرك ونقل الأوامر الجيوش من غزو بلد معاد بأسرع مما كان يحدث فى أى وقت مضى . ومن ثم أصبحت الامم أكثر خوفا بعضهـا من بعض وزاد هذا الخوف من حدة الشعور القومى الذى يولد بدوره خوفا أكبر وبالتالى زيادة الشعور القومى فى الناحية الاخرى من الحدود . وعمل الخوف والقومية فى تفاعل يؤدى الى كوارث ، على أن يزيد كل منهما الآخر باستمرار كمـا شجعها على التنظيم القومى فى سبيل الحرب ، وخاصة الحرب المفاجئة ، لان أسرع الدول فى التعبئة تستطيع أن تضمن التقاء الجيوش فى أرض العدو . وكان لابد أن تعمل الاساطيل والجيوش والدبلوماسية فى تعاون وثيق ، وأن يكون تفكيرها على الدوام هو تفكير الرجال الذين ينتظرون الاشارة لبدء السبـاق .

وكان الافتقار الى التنظيم فى العلاقات الخارجية مرتبطا بنقص فى التنظيم فى ناحية من نواحى الحياة الاقتصادية ، وهى استثمار رأس المال الجديد . وقد رأينا المكاسب الهائلة التى أصابها سيسل رودس والملك ليوبولد من استثمار رأس المال فى أفريقيا . وكان هناك آخرون ينشدون أرباحا مماثلة عن طريق القيام بالمغامرات الاستعمارية فى أجزاء كثيرة من الدنيا .

وكان الحصول على هذه الارباح يتم تارة عن طريق الغزو ، وتارة أخرى

عن طريق الدبلوماسية . وارتبطت صناعة الصلب والحديد فى الدول الكبرى ارتباطا وثيقا بصناعة الاسلحة التى كانت تحاول دائما بيع هذه الاسلحة الى الدول المتخلفة . فعندما أغرق اليابانيون سفن قيصر روسيا ألح عليه امبراطور ألمانيا مرارا بأن يأمر بصنع سفن جديدة له فى مصانع ألمانيا ، ولكن القيصر فضل أن يضع ثقته فى حلفائه الفرنسيين . وعندما أراد سير بازيل زهاروف أن يكون ثروة من بناء الغواصات لم يصب نجاحا فى أول الامر مع أى من الدول الكبرى . ولكنه نجح أخيرا فى حمل مواطنيه اليونانيين على شراء واحدة منها ، وأدى ذلك الى أن اشترى الاتراك اثنتين، واشترت دولة أخرى ثلاثا وأخرى أربعا وهكذا حتى غرقت الموزيتانيا ـ وهو تسلسل كان مجزيا لبناء السفن من أول الى آخره . وبهذه الطرق أصبح استثمار رأس المال الجديد مرتبطا بالالاعيب الدبلوماسية ، واعتمدت أرباحه فى كثير من الاحيان على خطر الحرب .

وكانت الشئون الخارجية تعالج فى كل مكان معالجة الاسرار الغامضة يضير المصلحة القومية عرضها عارية أمام انظار غير العارفين بدخائلها . وكان من حسن حظ المؤرخين أن أدت الثورات التى نشبت فى الامبراطوريات الشرقية الثلاث الى نشر وثائق الدول فى تاريخ مبكر جدا عما كان يمكن أن يحدث لو أن الحكومات القديمة ظلت باقية فى الحكم . وبذلك أصبح الآن فى وسعنا أن نحكم بدقة على أعمال الرجال الكبار الذين كانوا يتحكمون فى قوات بلادهم الهائلة فى السنوات الاخيرة قبل الحرب الكبرى وكأنهم عاشوا منذ مائة عام .

وكان من أهم هذه الشخصيات كما كان من أهم الشخصيات سنة ١٨١٤ قيصر الروسيا وامبراطور النمسا وملك بروسيا الذى صار امبراطور المانيا . غير أنه حدث بين هذه الدول الشرقية الثلاث تغيير كبير فى أهميتهم بعضهم بالنسبة لبعض . فألمانيا الآن تأتى على رأس القائمة والنمسا فى ذيلها ، بينما فقدت روسيا ، وان ظلت فى مركز ممتاز جدا ، المكانة التى كان يحتلها اسكندر الاول وأصبحت هذه المكانة لألمانيا ، وأحست انجلترا التى كانت ما زالت قوية بأسطولها وأمبراطوريتها أنها مهددة من ناحية ألمانيا . وكانت سلطة الشئون الخارجية فى انجلترا منذ نهاية سنة ١٩٠٥ فى يد سيرادوارد جراى ينفرد بها انفرادا يكاد يماثل انفراد امبراطور ألمانيا بالسلطة فى بلاده وكانت فرنسا تبدل سياستها من حين الى حين ، ولكن مقاليد الامور فى السياسة التى تم لها النصر أخيرا كانت فى يد دلكاسية وبونكاريه ولم يكن كل هؤلاء الرجال مجرد ممثلين لقوى غير شخصية ، بل انهم كانوا يؤثرون فى الاحداث بفضل مزاجهم الشخصى .

وكانت هناك عناصر ثابتة فى الدبلوماسية الاوروبية طوال الفترة المحصورة من سنة ١٨٧١ وسنة ١٩١٤ ، وأخرى متغيرة . وكان أهم

العناصر الثابتة هو عداء فرنسا لألمانيا . وقد تقبل بسمارك ذلك وعده أمرا لا مندوحة عنه ، وعالجه من ناحيه بتحسين علاقة بروسيا ، ومن ناحية أخرى بتشجيع انجلترا وفرنسا وايطاليا على القيام بمغامرات استعمارية تؤدى الى اصطدامها بعضها ببعض . وحسنت فرنسا بعد سقوط بسمارك مركزها الدبلوماسي شيئا فشيئا ، أولا بالمحالفة الفرنسية الروسية ثم بالاتفاق الودى مع انجلترا وأخيرا باضعاف مركز ألمانيا والنمسا فى البلقان نتيجة لحروب البلقان ، هذا الى أن كان مفهوما أن المصادر الصناعية للولايات المتحدة ستكون فى متناول فرنسا وانجلترا أكثر من ألمانيا فى حالة وقوع حرب ، وتكاد مؤسسة مورجان بنوع خاص تعد شريكة فى الاتفاق ، وكلما تحسن مركز فرنسا زاد أمل السياسيين وأرباب الصناعة الفرنسيين فى استرداد المقاطعات المفقودة وخاصة مراكز الحديد الخام فى اللورين . وكانت آمال الدول الاخرى ممكنة التحقيق فى حروب صغرى ، ولكن استعادة الالزاس واللورين كانت مستحيلة الا فى حرب أوروبية عامة . ومن ثم كانت مصالح فرنسا وسياستها ، اكثر من أية دولة كبرى أخرى ، تعمل لوقوع صدام كبير بمجرد أن ضمنت تأييد انجلترا لها بمقتضى خرى ، تعمل لوقوع صدام كبير بمجرد أن ضمنت تأييد انجلترا لها بمقتضى الاتفاق الودى الذى عقد سنة ١٩٠٤ .

وكان أهم رجل فى أوروبا ذلك الوقت اذا حكمنا له من نفوذ على الاحداث ، هو الامبراطور وليم الثانى . وقد أمضى وليم الثانى صدر حياته فى ظل جده وليم الاول وجدته الملكة فيكتوريا . وكانت والدته ، كبرى بنات الملكة فكتوريا ، زوجة لولى العهد فردريك الذى اعتلى العرش وهو على وشك الموت بعد أن انتظره حتى بلغ السابعة والخمسين ولم يكن يستطيع أن يشترك بأى نصيب فى الحكم مدة جلوسه على العرش التى استمرت بضعة أشهر . ولم يكن وليم الثانى ، وقد ولد بذراع ضامرة موضع حب والدته فى أى وقت من الاوقات ، وقد أعربت مرة لشخص نمساوى عن اعجابها الكبير بولى عهد النمسا اذ قارنته بأنها « الغليظ البليد » ، (وقد أعاد الرجل كلماتها بطبيعة الحال) . وكانت أمه امرأة طموحة ذات شخصية قوية تهفو نفسها الى اعتلاء العرش ، وكانت تكره بسمارك وتكره ألمانيا ولم تكلف نفسها عناء اخفاء احساسها بأنها انجليزية . وعاش الامبراطور العجوز طويلا - فقد مات فى التسعين من عمره - وفقد آمالها شيئا فشيئا وأدركت أن حكمها (ونقول حكمها لان زوجها كان خاضعا لها) سيكون قصيرا وأضاف ذلك حسدا الى ما كانت تحسه من كره نحو ابنها الذى تشاجرت معه فى الساعات الاخيرة من حياة زوجها شجارا لم تمح آثاره قط . وكان كره وليم لامه مصدر كرهه لانجلترا .

على أن انجلترا لم تكن موضع حقده فحسب ، بل انها كانت ايضا

موضع اعجابه اعجابا لا يقل عن حقده . وكان يوجد فى تلك الايام « دويلة ملكية » أوسع نفوذا من « الدويلة الحمراء » أو « الدويلة السوداء » فكان فى شمالى أوروبا أسرة ملكية واحدة يحكم بعض أعضائها بلادا مختلفة ، وكانت الملكة فيكتوريا هى الرأس المعترف به لهذا البيت العظيم . فلم يكن امبراطور ألمانيا وحده حفيدها بل أن قيصر روسيا أيضا تزوج حفيدتها . وقد كتب نيقولا بفخر فى مذكراته عندما تمت خطوبته « سأناديها ياجدتى » ومنذ أن دخلت فرساى فى حوزة الجمهوريين (١) لم يكن هناك قصر ملكى فى بهاء قصر وندسور . وكان وليم الثانى كلما دعى الى الاقامة فيه أبان حياة « جدته » يحس بسرور ممزوج بالتفاخر ويتباهى بروعته عند عودته . ولم يكن يستطيع مقاومة نزعته فى التحبب الى الانجليز ، وان كانت محاولاته فى ذلك سمجة الى حد اضطر وزراءه الى تحذيره باستمرار من هذا الاسراف فى اعلان العواطف . وكان اعجابه بالانجليز مرتبطا بالملكة فكتوريا كلما كان حقده عليهم مرتبطا بأمه .

وقال الامبراطور فى كيل سنة ١٩٠٤ أمام الملك ادوارد يدافع عن سياسته الخاصة ببناء أسطول ضخم ، وهو دفاع صحيح من الناحية النفسية ولكنه قد يكون بعيدا عن الحكمة من الناحية السياسية :« عندما كان يسمح لى وأنا صبى صغير أن أزور بليموث وبوتسموث فى رفقة خالات طيبات وأمراء البحر الطيبين ، كنت أعجب بالسفن الانجليزية الشامخة فى هذين الميناءين العظيمين . واستيقظت عندئذ فى نفسى الرغبة أن أنشىء لى سفنا مثلها فى يوم من الايام وأن يكون لى أسطول جميل مثل الاسطول الانجليزى عندما أكبر . » وقد حاول بولوف مستشاره أن يمنع نشر هذا الحديث قائلا انه « اذا وصف الاسطول بهذه الطريقة العاطفية باعتباره نتيجة لميوله الشخصية وذكريات طفولته فان الرايشتاج قد يرفض اقرار الاموال اللازمة له » ولكن الامبراطور لم يلن . فقد أصر أن يرى « العم برتى » كل أسطوله على الرغم من أنه حذر مرارا من أنه كلما زاد اعجاب الملك بالاسطول كان الاثر السياسى أسوأ ، وكانت تحدوه باستمرار رغبة فى أن يكون عظيما مثل « جدتى » .

وكان لذراع الامبراطور الضامرة أثر سيء فى شخصيته يماثل أثر أمه أو جدته . فقد جعلته خيلاؤه القلقة ينشد الظهور والتباهى باعتباره ضرورة لا بد منها ، وكان مركزه على رأس أسرة هوهنلون يحتم عليه أن يكون جنديا غير أنه لم يتعلم ركوب الخيل الا بصعوبة كبيرة وبمجهود كمجهود الابطال ، ولم يكن بد من أن تكون الجياد التى يركبها هادئة ذلولة . وكما كان يحدث فى المناسبات الحرجة مثل زيارته لطنجة حين نزل بها ليرضى بولوف ويثير حنق فرنسا وانجلترا ، كان يشتد قلقه كلما أحس بأن الجواد الذى يركبه

---

(١) الى منذ اصبحت حكومة فرنسا جمهورية

نشط أكثر من اللازم • وقد كتب بعد مدة طويلة من زيارته لطنجة خطابا الى بولوف يعرب فيه عن تذمره فقال « لقد نزلت فى طنجة لانه ارادتنى أن أنزل بها ذلك لمصلحة الوطن وأمتطيت جوادا غريبا على الرغم مما تسببه لى ذراعى العاجزة من صعوبة في الركوب وقد كان الجواد يكلفني حياتى وهو ما كنت تقامر به فى هذه اللعبة » وعلق بولوف على ذلك بقوله « ليس من بين الصفات الكثيرة المحببة للامبراطور صفة تروق المرء أكثر من الطريقة التى تتجلى فيها العزيمة بحق والتى تحمل بها شلل ذراعه اليسرى وتغلب عليـــــه •

وقد أصبح الامبراطور بفضل ارادته القوية فارسا جريئا وراميـــا ماهرا ولاعب تنس ممتاز دون أن يحاول مطلقا اخفاء هذا العيب الجثمانى »

وهذا صحيح لا شك فيه ولكن المجهود الذى بذله جعل كبرياءه تتجه وجهات وخيمة العاقبة •

وكان حبه الظاهر للاعتداء واستعداده للتحدى ومباهاته بقــدرته الحربية كانت رداء يخفى به عصبيته ويتقى به قول النـــاس أنه ناقص الرجولة • ولو أنه ولد رجلا غنيا فى مركز غير رسمى لوجد سعادته التامة فى أن يجعل نفسه من رعاةالفن : ولاحاط نفسه بمصورين وموسيقيين يطرون صوره ونغماته • ولارضيت حاجته الى الاطراء بشىء من الاعجاب البعيد عن الاخلاص لانتاج فنى مما ينتجه ، بدلا من أن يضطر الى الاتجاه فى طريق كان أحد العوامل التى أدت الى دمار أوروبا • ويبدو مزاجه الطبيعى فى نوع الاصدقاء الذين اختارهم بمحض ارادته ، ومن بين هؤلاء الــكونت فيليب أيولنبرج الذى كان أوثقهم صلة به • وكان أيولنبرج مخنثا وخبيثا ، مصابا بانحراف جنسى مثل أصدقاء الامبراطور الذين كانوا على صلة وثيقة به • وكان قد بدأ يحـدث رد فعل ضــد صفات الرجـولة فى بروسيا القديمة حتى فى الدوائر العسكرية نفسها • فقد كان رئيس المجلس العســكرى الكونت هوسلن — هايسلر يرتدى فى كثير من المناسبات ملابس راقصات الباليه • وفى آخر مرة رقص أمام الامبراطور وسقط فى آخر الرقصة ميتا — ممــا سبب الخزى لرعايا جلالته •

ولم تكن قوة شخصيــة وليم الثــانى فى مثل قوة بسمارك أى قوة رجل ذى ارادة لاتقل ، بل كانت تميل الى قوة الشخصية فى الممثــل الذى يخشى الا يكون الدور الاول فى المسرحية من نصيبه • وقد كان سببا فى صعـوبة التفاهم بينه وبين المستشار العجوز الذى ظل مدى ستة وعشرين عاما الحاكم المطلق فى بروسيا • وكان الرجل العجــوز يتمتع بميزة بغض الامبراطورة فردريك له ، ومن ثم ظل فى الحكم العامين الاولين من العهد الجديد • غير أن

الخلاف الذى لم يكن منه مناص وقع فى سنة ١٨٩٠ وعزل بسمارك من منصبه .

وحدث ان ثارت فى هذه اللحظة بالذات مشكلة حيوية يجب البت فيها هى مشكلة تجديد معاهدة « اعادة الضمان » مع روسيا . فقد كان الحلف النمساوى الالمانى الذى عقد فى سنة ١٨٧٩ يتضمن خطر تحالف فرنسا مع روسيا وأراد بسمارك ، ان يحول دون ذلك فعقد معاهدة سرية مع روسيا مدتها ثلاث سنوات اتفق بمقتضاها الطرفان على ألا ينضم أحدهما الى دولة ثالثة فى الاعتداء على الطرف الآخر .

وكانت لروسيا والنمسا مصالح متعارضة فى البلقان ، ولكن بسمارك صمم على أن يكون صديقا للطرفين . وظلت الدول الشرقية الثلاث ذات علاقة ودية منذ سنة ١٨١٣ باستثناء فترة استمرت اسابيع قليلة فى سنة ١٨٦٦ وعملت هذه الصداقة على الاحتفاظ بالسلام فى أوروبا ومنعت فرنسا من ان تجد لها فيها حلفاء . واستطاعت المانيا بفضل معاهدة « اعادة الضمان » (التى كان يجب اخفاؤها عن النمسا) أن تفعل كل ما يمكن للمحافظة على الوفاء بين الاباطرة الثلاثة .

كانت هذه السياسة من صنع بسمارك . وكان مغضوبا عليه .. ومن ثم فلابد أن تكن سياسته خاطئة . وفى غمرة الارتباك الذى حدث فى الفترة بين عزل بسمارك واستقرار الأمور لخلفه لم يكن هناك سوى شخص واحد يفهم دخائل الدبلوماسية الالمانية هو البارون هولشتاين وزير الخارجية . واوصى هولتشاين بعدم تجديد المعاهدة لان الحكومة الروسية ترددت فى عقدها مع اى شخص آخر غير بسمارك . ولم يكن هو يرغب فى عودة بسمارك الى الحكم فلم تجدد المعاهدة وتحولت روسيا الى فرنسا وعقدت معها اتفاقا وديا فى سنة ١٨٩١ حلفا فى سنة ١٨٩٤ .

وكان هولشتاين الذى اكتسب بهذا العمل نفوذا كبيرا فى السياسة الخارجية الالمانية لاول مرة شخصية فذة فريدة فى نوعها . فقد حدث أثناء طفولته ان اشتعلت النار فى حظيرة لأبيه مليئة بالضأن ، وعندما حاول أبوه انقاذها داسته الخراف ومات قتيلا تحت حوافرها . وقد تركت هذه الحادثة أثرا بالغا فى الصبى وظل طوال حياته عرضة لاضطراب عصبى كلما رأى خرافا » وأيا كان الأمر فلم يبد عليه شىء من الشذوذ حتى أمره بسمارك فى يوم من الايام عندما كان هولتشاين سكرتيرا للسفارة فى باريس يقدم له أدلة ضد رئيسه كونت ارنيم الذى قرر بسمارك ان يقضى عليه .

واضطر هولتشاين الى الشهادة ضده فى جلسة علنية بالمحكمة . وكان

ارنايم محبوبا من مجتمع برلين . فعومل هولتشاين معاملة المنبوذ لانه قام بدور الجاسوس فى زى صديق . وعاش منذ هذه اللحظة فى عزلة عن المجتمع وحتى الامبراطور نفسه لم ينجح الا مرة واحدة فى مقابلته بعد دعوة متكررة كان هولتشتاين يرفضها بدعوى آنه ليست لديه ملابس تليق بالبلاط .

وقد قال القيصر مرة بعد سقوط بسمارك أن اعزله كان أشبه برفع كتلة من الجرانيت والكشف عن الهوام التى تحتها . ولعله كان يفكر فى هولتشاين ، آن كان يقول عنه ايام سطوته انه « رجل فاضل الى أقصى حد » وقد وجد هذا » الرجل الفاضل « عزاءه عن عزلته الاجتماعية فى مباهج القوة السرية . فصادق ايولنبرج وجمع ضده فى نفس الوقت الادلة آلتى يستطيع بها إن يرسل « صديقه » الى السجن فى اى وقت شاء . ويقال إنه لجأ ذات ليلة من المطر المنهمر الى حانة ذات سمعة سيئة تستعمل ملتقى للمنحرفين جنسيا ورأى فيها رجلين فى زى البحارة اتضح انهما متنكران فى هذا آلزى وكان يناديان بعضهما بعضا باسمى « كرواس » و « هوفمان » . وعرف أن « كرواس » هو ايولنبرج . ولما قابل بولوف لاول مرة بعد ذلك بسنين عدة عرف صوته ، لقد كان بولوف هو « هوفمان » نفسه ومكنته هذه المعرفة التى لاشك فيها والتى قيل ان هذا الحادث كان بدايتها من آلسيطرة على هذين الرجلين النابهين ، وجعلته بالتالى يعمل على رقيهما . ولكنهما ، أيا كان سمو المركز الذى وصلا آليه كانا مضطرين دائما لاتباع السياسة التى يوصى بها أن يعنيا الاشخاص الذين يروقونه . ولهذا كانت سياسة ألمانيا الخارجية من سنة ١٨٩٠ عندما سقط بسمارك الى سنة ١٩٠٦ هى سياسة هولتشاين . فهو الذى اشار برفض عرض تشمبرلين لعقد محالفة بين آنجلترا والمانيا وهو الذى اوحى بالسياسة المراكشية التى ارغم بولوف القيصر عليها على كره منه . ولم يحبذ برقية كروجر التى كانت من بنات أفكار القيصر ولكنه حرص على أن يكون بعيدا عند مناقشتها لانه ادرك ان تبعتها ستقع على عاتق مارشال وزير الخارجية الذى كان يريد اقصاءه ليضع محله بولوف . وكان الناس كلهم تقريبا يخشونه بسبب معرفته بالاسرار المشينة ومهارته فى الدسائس . وكان آلسبب فى سقوطه حادثا غير متوقع بالمرة فقد حدث فى سنة ١٩٠٦ ان اغمى على بولوف فى الرايشتاغ وعهد بجمع اوراقه مؤقتا الى مرؤوسه تشيرسكى . وكان من بين هذه الاوراق استقالة هولتشاين آلتى كان يستعملها ، كعشرات المرات السابقة ، مجرد وسيلة من وسائل الضغط . ولكن تشيرسكى لم تكن تحيط به أسرار شائنة على خلاف الكثيرين غيره فذهب على الفور الى القيصر وحصل على موافقته على الاستقالة . وظن هولتشاين أن يولنبرج هو الملوم على هذا فقضى عليه كما قضى على الكثيرين غيره من النابهين ، بأن قدم معلومات عن اصدقاء القيصر الاخصاء الى الصحفى الراديكالى هارون آلذى نشرها فى صحيفته . ومات هولتشتاين فى سنة

١٩٠٩ عجوزا فقيرا لايكاد يبصر فى مسكن صغير فى حى من احياء برلين غير الراقية وهو نفس المسكن الذى عاش فيه طوال مدة سطوته ٠ وقد نعته جريدة الديلى ميل عند وفاته قائلة آنه « كان مثال الموظف البروسى من رجال المدرسة القديمة « لقد كان عالما مثقفا لا يمل من العمل ٠ وكان وطنيا من نوع خاص ٠ الا أن طبيعته الهستريية دفعته فى كل المواقف الحرجة الى أن يقدم النصيحة الخاطئة وكان لاخطائه الملتوية شأن كبير فى خلق جو الحرب ٠

وتكشفت علاقة القيصر بايولنبرج واصدقائه عن جانب واحد من شخصيته ، ولكن خطاباته الى « نكس » اعز الناس لديه امبراطور روسيا تكشف عن جانب آخر مختلف عن هذا كل الاختلاف ٠ وكان نيقولا الثانى الذى اعتلى العرش سنة ١٨٩٤ أصغر من قريبه وليم يقل منه ذكاء وأضعف شخصية ٠ فبدأ انه من الممكن اقامة علاقة بينهما يكون وليم فيها هو المتسلط ومن ثم يجعل سياسة تتفق ومصلحة المانيا ٠ ولم يستطع وليم أن يتخلى عن هذا الامل حتى بعد أن أصبح التحالف الثلاثى والاتفاق الثلاثى مجموعتين واضحتى المعالم بينهما عداء متبادل ٠ كما انه لم يدر بخلده آبدا ان ماكان يقوله لقريبه العزيز ضد فرنسا وانجلترا يمكن أن ينقل اليهما ٠ ولما ان عقد الحلف الروسى الفرنسى مباشرة قال لنيكس » : « ضع هؤلاء الانذال « آلفرنسيين » فى مراكزهم واجعلهم يلزمون السكون » وكان يؤلمه أن يعامل ملك مطلق الجمهوريين باحترام ٠ ان محادثات الفراندوقات مع زعماء الجمهورية تجعل الجمهوريين يعتقدون انهم خلق شرفاء ممتازون يستطيع الامراء ان يختلطوا بهم دون حرج » ومن الطريف أنه أخطأ فى هجاء لفظ الجمهوريين (١) يضاف الى هذا انه « يجب ألا ننسى أن جوريه يجلس على عرش ملك فرنسا وملكتها وان لم يكن ذلك خطأه الشخصى ٠٠ نكس ٠٠ صدقنى ، ان لعنة الله حلت على هؤلاء الناس الى الأبد ! »

ولم تفلح هذه الحجج فى ازالة الغشاوة عن عين قيصر روسيا ليرى وضاعة فرنسا ٠ وقد أصاب وليم نجاحا أكبر — أو على الاقل خيل اليه ذلك — عندما كتب عن الخطر الاصفر وعمل على اثارة قيصر روسيا ليشن حربا مقدسة على بوذا ٠ وسر نشوب الحرب بين روسيا واليابان ، وأكد للقيصر تأييد المانيا المعنوى الكامل بشرط أن توقع روسيا معاهدة تجارية من النوع الذى تحتاجه ألمانيا ٠ فلما رفض قيصر روسيا أن يبرم أى اتفاق سياسى دون علم فرنسا ، كتب وليم الى بولوف يقول : « ينبغى علينا الآن أن نضم اليابان ونوجه الى باريس ضربة تدمى أنفها ! »

وكان بغض الامبراطور للانجليز يبدو كلما ورد ذكرهم على لسانه ٠ فهو يتحدث عنهم بأنهم « دولة تتدخل فيما لا يعنيها » ٠ ومع ذلك فانه عندما

---

١ — كانت مراسلات الامبراطورين تكتب باللغة الانجليزية ٠

اقترح تشمبرلين عقد محالفة معه ، كتب الامبراطور مباشرة الى « نكس اعز الناس لديه » مبالغا فى وصف العرض ويطلب رأيه فى الظاهر ويشير فى الواقع الى أنه لا يستطيع أن يرفضه الا اذا تقدم القيصر بعرض أحسن منه للفوز بصداقته • وقد ظل حتى سنة ١٩٠٦ يراوده الامل فى أن يقوم القيصر باقناع فرنسا بالانضمام الى كتلة فى القارة ضد انجلترا ، وكان يحس بأنه هو ونيقولا يستطيعان شخصيا السيطرة على العالم • وكتب فى سبتمبر سنة ١٩٠٢ يقول : اننا بوصفنا حاكمين للدولتين اللتين تتزعمـــان الكتلتين الاوروبيتين الكبيرتين نستطيع أن نتبادل الرأى فى أى موضوع عام يهم مصالح الكتلتين ، فاذا ما استقر رأينا على الطريقة التى نعالجه بها فان فى وسعنا أن نقنع حلفاءنا بأن يتبنوا هذه الآراء نفسها واذا ما قرر الحليفان — أى الدول الخمس — أن السلام يجب أن يسود ، لم يكن أمام العالم من سبيل الا أن يظل فى سلام وأن يتمتع بنغمته • ومعنى هذا أنه يريد العودة الى سياسة الحلف المقدس التى أنشأت لاوروبا حكومة دولية رجعية ظلت قائمة من سنة ١٨١٥ الى سنة ١٨٣٠ وقد أدت هذه السياسة الى المحافظة على السلام فى الماضى ولكنها أصبحت مستحيلة فى سنة ١٩٠٢ • فقد كانت فرنسا منذ سقوط نابليون رجعية ممزقة الاوصال ، ولكنها بعد سنة ١٨٧١ كانت متحررة غير راضية عن فقد الالزاس واللورين • وكان بين روسيا والنمسا نفور بسبب تضارب مصالحهما فى البلقان وفى القسطنطينية وازداد هذا التضارب بسبب نمو القومية الصقلبية • وأثار الاسطول الالمانى فى عداء انجلترا وجعلها تتطلع الى زيادة اشتعال نار البغضاء بين فرنسا وألمانيا ومن ثم لم تعد سياسة امبراطور ألمانيا ، ولعل ذلك لسوء الحظ ، مستطاعة بسبب النزعة الاستعمارية والنزعة القومية العدائيتين اللتين تسودان ذلك العصر فى ألمانيا وفى غيرها من البلاد •

وكان أكبر أمل فى كسب نيقولا ، كما كان يبدو للامبراطور ، عن طريق خوفه من المبادىء لتحررية والثورة• وقد نجح مترنيخ فى استغلال هذه الطريقة ليحول اسكندر الاول ضد اليونانيين ، وكان نيقولا الاول يكره الفرنسيين بعد سنة ١٨٣٠ وحاربهم فى القرم ، كما أن جد نيقولا الثانى قد اغتيل بأيدى الثوار الذين يمكن اعتبار مبادئهم الضارة من وحى فرنسا • ولم تكن انجلترا فى نظر أى حاكم مطلق تفضل فرنسا من هذه الناحية • وكانت الغلبة لهذه الافكار بعض الوقت فى سنة ١٩٠٥ • فقد هزم القيصر فى الشرق الاقصى وكان يواجه ثورة فى بلاده • وقد استشاط غضبا من انجلترا لتذمرها من حادث دوجرابنك التى أطلق فيها أسطوله فى البحر البلطى وهو فى طريقـه الى اليابان النار على مراكب صيد انجليزية حسبها قوارب طوربيد يابانية • فأبرق الى امبراطور ألمانيا يقول : أنى لا أجد من الالفاظ ما يعبر عن حنقى على تصرف انجلترا • واستغل وليم الفرصة السانحة وقابل القيصر فى رحلة بحرية على يخته فى بوجوركو على البحر البلطى ، وأمضى معه معاهدة فاجأه بها

دون حضور أحد من وزراء الدولتين • وقد قال للقيصر أن يوم توقيع هـذه المعاهدة هو حجر الزاوية فى سياسة أوروبا وسيفتح صفحة جديدة فى تاريخ العالم • وأرسل أيضا الى بولوف أنشودة انتصار يقول فيها : ان صباح أول يوليه سنة ١٩٠٥ فى بوجوركو يعتبر نقطة تحول فى تاريخ أوروبا وفرحة لوطنى المحبوب الذى سيتحرر أخيرا من قبضة روسيا • وفرنسا الخانقة •

ولكن لسوء الحظ أعلن بولوف أن المعاهدة لا قيمة لها بسبب كلمتين اضافهما امبراطور ألمانيا الى مشروعها ، كما رفض وزير الخارجيـة الروسى لامسدورف التصديق عليها بحجة أنها تتعارض مع التزامات روسيا نحـو فرنسا • وهدد بولوف بالاستقالة ولكن وليم أرسل له برقية احتجاج طويلة ختمها بقوله : ان اليوم الذى أتسلم فيه استقالتك لن يكون فيه امبراطور ! فكر في زوجتى وأطفالى المساكين !

وقد أقنعت هذه الفكرة ، أو فكرة أخرى ، المستشار بالبقاء ، ولـكن المعاهدة قضى عليها القضاء الاخير •

ومع ذلك فقد استمر ولى يكتب الى نكى كان ما استقرأ عليه شخصيا قد جعل الوثيقة سارية المفعول • وذهب الى أن الاتفاق الودى بين فرنسا وانجلترا ، وكان حديث العهد وقتئذ ، يهدف الى غرض تحررى : ان الصحافة التحررية فى فرنسا وانجلترا متفقتان على التنديد بصراحة بجميع الاعمـال وأوجه النشاط الملكية فى روسيا – وهما تطلقان عليها اسم القيصرية – وتؤيد بصراحة قضية الثوريين التى تهدف الى نشر المبادىء التحررية والاستثارة والمحافظة عليهما ضد القيصرية والسياسة الاستعمارية وبعض الدول المتخلفة• ونقصد بذلك بلادك وبلادى • والعبارة التى يكررها الانجليز باستمرار على مسامع الفرنسيين هى ، لندافع متكاتفين عن الحرية فى العالم كله ونعمل على نشرها فى البلاد الاخرى• وهذا يعنى تشجيع الثورات فى أوربا كلها ومساعدتها وخاصة فى البلاد التى ليست تحت السيطرة المطلقة لهذه البرلمانات الملعونة •

وتناسى فى نفس الرسالة خبث الفرنسيين وحث على عقد حلف ضـد انجلترا وقال ان الاتحاد القارى الذى تحمى جناحه أمريكا ، هو الطريقة الفعالة الوحيدة التى تحول دون أن يصبح العالم كله من ممتلكات جون بول الخاصة يستغله كما يتراءى له بعد أن يثير كل الشعوب المتمدينة بعضها ضد بعض لفائدته الخاصة • ونحن نرى هذا المبدأ الآن يعمل فى المسألة المراكشية هكذا التى يبذل فيها جون بول كل ما فى وسعه ليثير فرنسا ضدنا •

غير أن هذه الجهود أيضا ذهبت أدراج الرياح ، فقد سوى قيصر الروسيا خلافاته مع انجلترا وأصبح شيئا فشيئا أقل مودة لوليم • ويبدو أن ولى كان

أقرب الى الصواب من نكى فيما يتعلق بمصالح الاباطرة بوصفهم طبقة من الطبقات ، ولعله كان يستطيع أن يكون أكثر اقناعا بشيء من اللباقة .

وكان الاسطول الالمانى ، الذى حدد اتجاه السياسة البريطانية ابتداء من سنة ١٩٠٢ من صنع امبراطور المانيا شخصيا . وقد رأينا كيف أكد أن رغبته فى بناء السفن الحربية قد اوحى بها المنظر الذى شاهده وهو صبى فى رفقة خالات طيبات فى بورتسموث وبليموث . ولكن كانت هناك أيضا دوافع اكثر خطورة . فقد كان يحسد انجلترا على قوتها فى المناطق البعيدة : فقد حدثت اضطرابات فى الكويت ظهرت على اثرها السفن البريطانية فورا وحدث نزاع بشأن ساموا ، فأسرع اليها اسطول صاحب الجلالة ! وكان ضرب كريت بالقنابل أقل قسوة مما أراد بسبب أمراء البحر الانجليز . وعندما ذهب فى رحلة بحرية فى البحر الابيض لم يستطع ان يحاجز نفسه عن الاعجاب بجبل طارق او عن ابلاغ « نكى » عظيم تحمسه ! « كل ما اقوله ان جبل طارق شيء هائل ، انه اعظم شيء رأيته فى حياتى . وان اللغة لتعجز كل العجز عن وصفه وصفا مناسبا ، انه عظيم بطبيعته ، وبالقوة الحربية المركزة فى هذه الصخرة الهائلة وحولها . وكان يحس انه قد يستطيع اذا توفر له الاسطول المناسب أن يحصل أيضا على صخرة عظيمة قوية . ومما يتفق تماما مع اعجابه بانجلترا أنه كتب الى قيصر الروسيا بعد ذلك بأشهر قلائل يقول « ان قيامك ببعض المظاهرات الحربية على الحدود الافغانية — الايرانية قد يكون عملا ممتازا يحد من وقاحة البريطانيين وعجرفتهم وذلك لانى أعلم وقد بلغت أن ذلك هو الشيء الوحيد الذى يخشونه ، وان خوفهم من دخولك الهند من تركستان ودخولك افغانستان من ايران هو السبب الحقيقى الوحيد فى ان مدافع جبل طارق والاسطول البريطانى ظلت صامتة منذ ثلاثة اسابيع (بعد حادث دوجربانك) » وينبغى ان نعتبر مصدر هذه النصيحة وكذلك اقتراحه بأن يقتحم اسطول قيصر الروسيا فى البحر الاسود المضيقين فجأة وينضم الى اسطول البحر البلطى فى رحلة الى الشرق الاقصى هو اعجابه بانجلترا اعجابا ممتزجا بالحسد . ولكن هذه النصائح ، التى بذلت تحت ستار الصداقة ، تنم عن غدرة بالقيصر الذى كان لديه مايكفيه من متاعب مع اليابان ومن الثورة فى بلاده ، وما كانت حرب جديدة مع انجلترا لتخفف من هذه المتاعب .

وكان يؤيد الامبراطور وليم ضد باقى وزرائه فى بنائه للاسطول أحد الفنيين المتحمسين هو تيربيتز الذى لم يكن يفهم شيئا فى الدبلوماسية . فقد ذعر بولوف أولا ، ثم بنتمان هولفج بعده ، من عزلة المانيا التى آدى اليها عداء انجلترا ، وأدركا انه اذا حدث ان اشتركت المانيا فى اى حرب كبرى فان انجلترا ستنضم حتما الى الجانب الاخر . وكانا يريدان عقد اتفاق بحرى

مافتئت الحكومة البريطانية تقترحه على المانيا . واجاب الامبراطور بغضب في أول الامر بأن اى اقتراح من هذا النوع تتقدم به انجلترا رسميا يعني الحرب ، وكان يؤيده في ذلك تيربيتز ، ولم يكن سبب موقفهما ان المانيا مستعدة للقتال ، بل كان سببه اعتقادهما أن اللهجة الحازمة ستخيف الانجليز . ونصح امير البحر فيشر ، وهو رجل يشبه تيربيتز الى حد كبير ويعجب به جدا (١) ، بأن يضرب الاسطول الالماني ويتم اغراقه فجأة بدون انذار سابق كما ضرب الاسطول الدنماركي منذ قرن مضى في كوبنهاجن . وقال وزير البحرية المدني آرثر لى (لورد اوف فاريهام فيما بعد) لمستمعيه في خطاب له أنه اذا نشبت الحرب فان الاسطول الالماني سيغرق قبل أن يعرف آلالمان ان الحرب أعلنت . ولم يكن من شأن هذه المقترحات « الودية » ان تجعل المفاوضات بعد ذلك سهلة ميسرة .

وعلى الرغم من ان بتربيتز ووليم الثاني توقفا منذ سنة ١٩١٢ عن الاعتراض على عقد أتفاق بحرى كامل من ناحية المبدأ ، فانهما ظلا كارهين لهذا الاتفاق فكانا يضعان له شروطا مستحيلة ، خاصة المطالبة بوعد بالحياد في اى حرب تشترك فيها اى من الدولتين ، وهو عمل اذا تم لايتفق مع التزامات انجلترا نحو فرنسا وبلجيكا . وهكذا استمر العداء والتسابق في التسلح البحرى ، رغم ادراك الساسة الالمان انه سيؤدى حتما الى حرب لابد ان تكون وخيمة العاقبة وقد تنتهي بكارثة ماحقه . وكان الامبراطور هو المسئول وحده عن السياسة البحرية لانه كان يؤيد تيربيتز ضد جميع مستشاريه الاخرين . وكانت الفكرة السائدة لديه انه لن تمضى بضع سنوات ، وصفت بأنها « منطقة الخطر » ، سيكون الاسطول الالماني من القوة بحيث لاتجرؤ انجلترا على مهاجمته . وعندما أعلن الانجليز سياسة «قوة الدولتين» (٢) التي يبنون بمقتضاها سفنا تحول دائما دون وصول المانيا حتى الى مايقرب من قوة الاسطول البريطاني ، أكد تيربيتز لوليم أن الخوف من زيادة الضرائب سيمنعهم في القريب آلعاجل عن المضي في هذا السبيل . ولم يفهم كلاهما ان التفوق البحرى كان عاملا ثابتا في السياسة البريطانية لاتستكثر عليه اية تضحيات مالية مهما بلغت ضخامتها ، وكانا يقولان « فلنحافظ على السلام بضع سنوات أخرى ويكن في وسعنا بعدها ان نواجه الاسطول البريطاني . ولكن الحرب نشبت كما كان يمكن أن يتوقع قبل أن تنتهي « بضع السنوات» التي كان يترنبيتز يريدها .

---

(١) كتب فيشر في سنة ١٩١٦ خطابا الى تيربيتز يبدأ «صديقى القديم تيربيتز» وينتهي «المخلص الى ان يتجمد الجحيم» .

(٢) المقصود بهذه السياسة ان يكون الاسطول البريطاني اقوى من مجموع اسطولين لدولتين مختلفتين (المترجم)

وقد كانت سياسة وليم البحرية غير واقعية • فلم يكن لديه اى أمــل في اللحاق بالبريطانيين ، لان السفن الحربية لايمكن ان تبنى سرا • ودفع الانجليز الى الانضمام الى روسيا وفرنسا فشجعت بذلك اعداء المانيا أينما وجدوا ، وأحيت فى فرنسا أملا جديدا فى الانتقام ، وفى روسيا رغبة جارفة فى الاستيلاء على القسطنطينية ، وفى البلقان استعداد جديدا لتحدى النمسا • وقد كان مبعث الخطورة فى كل التطلعات الدبلوماسية من سنة ١٩٠٤ الى سنة ١٩١٤ هو قلق انجلترا من قوة الاسطول الالمانى ولما حان الوقت آخر الامر كى يستخدم وليم سفنه ، احتفظ بها كأنها لعب ثمينة هى همه أن تبقى• لقد كان وليم يحب أسطوله فى الحرب والسلم على السواء اكثر مما ينبغى •

وكان الحكم فى الامبراطورية الروسية حكما مطلقا اكثر منه فى المانيا نفسها • نعم ان نيقولا الثانى الذى اعتلى العرش فى سنة ١٨٩٤ ، اضطر الى منح اقامة نوع ما من الحكم الدستورى فى ســــنة ١٩٠٥ : الا ان انجلترا وفرنسا ، اللتين كانت نزعة التحرير فيهما شبحا يخيف به امبراطور آلمانيا قيصر روسيا ، ساعدتا حليفها على جعل الدوما مجلسا عــــديم القيمة بأن اقرضتاه ما احتاجه من مال حين أراد ان يحله • وقد فعلا هذا على الرغم من ان الدستور الذى صدر حديثا كان يحرم عقد قروض دون موافقــــة مجلس الدوما • وكان الحكم فى روسيا من سنة ١٩٠٧ الى سنة ١٩١٤ حكمــــا دكتاتوريا لايقف عند شىء لا يحد من أثره سوى الاغتيال •

وتزوج نيقولا بعد اعتلائه العرش بفترة وجيزة جدا ووقع تحت سيطرة زوجته التامة • وكانت توجه سياسته — وهى سياسة زوجته — اهــداف معينة محدودة تحديدا تاما • فقد كان يريد ان يرفع الصليب فوق مسجد أيا صوفيا فى القسطنطينية ، وكان يريد المحافظة على الحكم الملكى المطلق •وكان يريد أن يقف فى وجه التسامح الدينى فى اية صورة من صوره او مايقرب منــه • وعندما اقترح أستوليبيين ، الذى لم يكن رديكاليـــا بالمعنى الدقيق ازالة بعض القيود المفروضة على اليهود ، رد عليه القيصر بقوله :

« ان ضميرى لم يضلنى او يوجهنى فى الطريق الخطأ حتى الان • ومن أجل هذا سأستمع الى ما يمليه على مرة أخرى • وأنا اعرف انك تؤمن كما اومن أنا نفسى بأن القيصر فى يد الله • فليبق اذن فى يد الله • وأنى لاحمــل أمام الخالق جل وعلا مسئولية هائلة عن القوة التى أملكها وأتصرف فيها ، ولكنى على استعداد دائم لان اقدم له حسابا عنها • ولا يؤسفنى الا أنك انت وزملائك أضعتم وقتا طويلا فى البحث فى مسألة أرفض رفضا تاما أن أوافق عليها أو أقرها • »

وكان كذلك صلبا لايلين فى وجه « القوميين القدامى » ولكننا لايسعنا الا ان نعترف أن هؤلاء ايضا كانوا اشخاصا اشداء مسنتئين • فقد إختلفوا مع

الحكومة على طريقة هجاء كلمه « يسوع » ، كما كانوا يصرون على اعادة كلمة « هالللولايا » مرتين بدلا من ثلاث مرات فى موضع معين من القداس ·

وعندما اطلق صبى النار على احد امراء البحر واصابة خفيفة طلب امير البحر استعمال الرأفة بالصبى الذى حاول قتله بسبب صغر سنه واقترح تخفيف عقوبة الاعدام · ولكن القيصر رفض ذلك وقال ·

« انى لست قاسيا ولا منتقما · والذى اكتبه اليك هو ماأعتقده وأومن به ايمانا متأصلا فى قرارة نفسى · ورغم ان ماسأقوله مؤلم وقاس فان الشبح الصحيح الذى لاشك فيه ، وان يكن ذلك يحزننا ويجللنا بالقار ، هو أنه ليس ثمة طريقة لمنع اراقة انهر من الدماء الا اعدام بعض الاشخاص المضللين· وانى لادعو لك بالصحة والسلام الكامل لروحك ، وأشكر لك كل ما فعلته لروسيا ولى · »

وفى سنة ١٨٩٥ عندما قامت حركة تدعو الى اشتراك مجالس « الزمتفوس » (وهى هيئات شبيهة بمجالس المقاطعات) فى الحكم ولم تكن بأى حال من الاحوال ثورية ، ألقى القيصر خطابا قاسيا مخالفا بذلك نصيحة مستشاريه :

« لقد بلغنى انه سمع خلال الاشهر الماضية فى بعض اجتماعات « الزمتفوس » صوت من تراودهم احلام طائشة تقول ان « الزمتفوس » يمكن ان يعهد اليها الاشتراك فى حكم البلاد · واريد ان يعلم كل شخص اننى سأكرس مجهودى للاحتفاظ بمبدأ الحكم الملكى المطلق ، لخير الامة كلها ، بنفس الحزم والشدة اللذين اتبعهما والدى المأسوف عليه : »

وقد استمر نيقولا لايتحدث بهذه اللهجة نفسها حتى اللحظة التى خلع فيها عن العرش ·

ومع ذلك فان هذه الامور ليست هى التى تبدو فيها شخصية القيصر الحقيقية لقد كانت السياسة تضجره ، وكان يحب زوجته وأولاده ويحب ركوب الدراجة يتجول بها فى الحديقة ، كان شغوفا بلعبه الدومينو · وعندما اصيبت ابنته العزيزة أليكس بألم فى قدمها انزعج انزعاجا شديدا ، ولكنه عندما فقد امبراطورية لم يعر الامر اهتماما جديا · وفى ٢٣ فبراير سنة ١٩١٧ وهو فى مركز القيادة العامة يبذل اخر محاولة للفرار من الثورة انزعج عندما علم ان اولاده اصيبوا بالحصبة · وارسل برقية الى القيصر يقول فيها : ماأشد انزعاجى ·· أرجو أن ينجو جميعا من الحصبة ، أنى أفتقد كثيرا نصف الساعة التى كنت أقضيها كل مساء فى لعب الورق بمفردي · سأعود الى لعب الدومينو فى أوقات فراغى » وأرسل برقية فى اليوم التالى لخلعه يقول : » شكرا خالصا

على برقيتك . وصلت الوالدة لقضاء يومين ، المكان مريح وجميل ، سنتناول العشاء معا فى قطارها . عاصفة ثلجية اخرى . انى معك بفكرى وصلواتى . نيكى » ولم يفوته أبدا أن يعلق على حالة الجو مهما تكن الاحداث .

لقد كان نيقولا زوجا عطوفا وابا رؤوفا ، أما مابقى من شخصيته ،وهو قليل ، فكان مزيجا من القسوة والغدر والعجرفة العاجزة .

وكان مايفتقر اليه من حزم ، متوفرا كله فى القيصرة ، وهى امرأة تشبه الى حد كبير ليدى ماكبث، وتكاد تكرر فى رسائلها الى زوجها نفس العبارات القوية التىقالتها هذه السيدة . فليدى ماكبث تقول « انى أخشى أن طبيعتك فهى مفعمة بالرحمة الانسانية أكثر مما يجب » وتقول القيصرة « سامحنى يا أعز الناس لدى » ولكنك تعلم انك اكثر رقة ورأفة مما ينبغى . » ثم تمضى قائلة « كن ياحبيبى ، اكثر حزما واكثر ثقة بنفسك . أنت لتدرك حــــق الادراك انك على حق ، ومن ثم فاذا حدث أى خلاف فى الرأى ، افرض رأيك واجعله يسود على ارآء غيرك » وكان الموضوع الذى كتبت بشأنه هذه الرسالة هو : من الذى يقرر خطة الحمله فى غاليسيا سنة ١٩١٥ ، السلطة العسكرية اوراسبوتين رجل الله الذى يتلقى الوحى فى الموضوع من الله جل وعلا . وكانت الامبــراطورة التى دأبت على معــاملة الجميع بتعاظم وكبرياء ، ذليلة أمام « صديقنا » الذى كانت تعتقد ان لديه قدرة خارقة فى المحافظة على صحة ابنهــا . ومنيت القوات الروسيــة غاليسيا فى الشهــر التالى بسلسلة من الكوارث ابرق القيصر خلالها من مركز القيادة يقول : « وصلت قواتى فى أمان . الجو بديع . والغابات الآن خضراء ورائحتها جميلة ، انى ذاهب توا الى الكنيسة . شكرا لك على برقيتك . عانقك بحنان . نيكى . »

وكانت الامبراطورة ، التى واجهت بارادتها القوية عقبات بدا الا ســبيل الى التغلب عليها بالوسائل البشرية : الجيوش الالمانية . ورغبة كل الطبقات الروسية فى الثورة أو الاصلاح . والاســـتهداف الوراثى للتخــــريف الذى أصيب به ولى العهد ، تتحول شيئا فشيئا الى مصادر غيبية فى طلب المعونة وأخذت بايمان يتزايد يوما بعد يوم أنها وجدت ضالتها فى « القـــديس » . وقد كتبت فى سنة ١٩١٦ الى القيصر تقول : « انى أضـــــع كل ثقتى فى « صديقنا » الذى لا يفكر الا فيك وفى طفلنا وفى روسيا . وسنجتاز هـــذه الايام العصيبة بتوجيهه . ان الكفاح سيكون مريرا ، ولكن أحد رجال الله قريب منك يقود سفينتك بين الصخور الى شاطىء الامان » . وبعد ذلك بعدة أيام عندما أثير موضوع تغيير بعض الوزراء الذين عينوا بايعاز راســبوتين اتخــذت الامبراطورة لهجة الاستعطاف والحنو الرفيق : « آه يا حبيبى انك تستطيع أن تثق فى . قد لا أكون ماهرة جدا ــ ولكننى أتمتع باحساس قوى

كثيرا ما يكون خيرا من العقل • احتفظ بالاوراق والاسماء يا حبيبي العزيز من أجل زوجتـــــك ».

ولم يكن راسبوتين ، الذى كان يعيش فى هذه الاثناء حياة عربدة وسكر ويجمع المال ، سوى الحلقة الاخيرة فى سلسلة من المحتالين وأسوئهم — وهم محتالون ممن يتظاهرون بأنهم متصوفة روحانيون وأثروا فى الســــياسة الامبراطورية سنين طويلة • وكانت السلطة التى يتمتع بهـــا المهرجـــون النصابون نتيجة طبيعية لمركز القيصر غير الواقعي الذى لا يمكن تبريره فى العالم الحديث الا بعادة تصديق الترهات • فان القيصر والقيصرة ، وقد رفضا كل اصلاح ، لم يجدا مهربا من افهام الذات الا بأن يعيشا فى عالم من الخداع والاوهام •

لقد كان وليم الثانى ونيقولا الثانى أقوى شخصين فى العــــالم خلال السنين العشرين السابقة على الحرب الكبرى • ومن الخطأ أن نفتـــرض أن سياستهما لم تكن من صنعهما بل من وضع وزرائهما • فكلاهما كان يختار رجالا ينفذون أوامره وان كانا فى بعض المناسبات يقتنعان بالســـير فى طريق ما كانا ليختاراه لو ترك الامر لهما وحدهما • مثال ذلك ان سياسة ألمانيا فى مراكش سنة ١٩٠٥ و ١٩٠٦ كانت من وضع بولوف • ولم يرض القيصر قط عنها كل الرضا • ولكن ألمانيا وروسيا ، أقوى دولتين فى القارة قد تركتا سياستهما الخارجية وجيوشهما وأساطيلهما بصـــفة عامة فى أيد هـــذين الرجلين •

وهناك ملكان آخران كان لهما بعض الشأن فى مجرى الامـــور ، همــــا امبراطور النمسا فرانسيس جوزيف والملك ادوارد السابع •

وكان فرانسيس جوزيف ، الذى اعتلى العرش اثناء الاضــــطرابات التى وقعت سنة ١٨٤٨ ، شيخا مسنا جدا عاش خلال كثير من الاحزان العـــامة والخاصة ، حتى أصبح يرى أن سوء الحظ هو نصيبه الطبيعى فى الحياة فمن الناحية العامة : منى بالهزيمة على يد بروسيا ، وفقد ممتلكاته الايطاليـــة ، وأرغم على منح هنغاريا حق المساواة التامة للنمسا ، وكان عاجزا كل العجز عن ايقاف نمو تيار السخط الصقلبى الخطر فى أجزاء مهمة من ممتلكاته • اما اما من الناحية الخاصة : شنق شقيقه — مكسميليان امبراطور المكسيك السيء الحظ — على يد رعاياه الثائرين واغتيلت زوجته بيد فوضوى ايطالى ، مات ابنه ميتة عنيفة كانت فى اغلب الظن انتحارا ، وتزوج ابن اخته ووريثه فى العرش — وهو الذى قتله ايذانا ببدء الحرب الكبرى — زواجا غير متكافىء لاتتيح لابنائه من هذه الزوجة أن يرثوا • وقد عاش الرجل العجوز حتى شاهد عجز جيوشه ، ولكنه لم يعش حتى يرى زوال أسرة هاسبرج وانحلال امبراطوريته • وترك تدبير معظم الامور فى السنوات الاخيرة قبل سنة ١٩١٤

فى يد ابن اخيه الارشيدوق فرانسيس فرديناند الذى زاد نشاط الجيش وسرعة حركته وحرم الامبراطور من لذة مشاهدة الاستعراضات الفخمة . فقد كان التبعب يبلغ بالجنود بعد سير يوم كامل حدا لايستطيعون معه جنى رفع ايديهم بالتحية العسكرية ، مما جعل الامبراطور المسكين يلعن ماطبعت عليه الحياة الحديثة من عجلة هذا وكان ابن اخيه يضع فى نفس الوقت الخطط لمنح الصقالبة استقلالهم الذاتى وتحويل الملكية الثنائية الى ملكية ثلاثية . وقد كان الخوف من أن تؤدى هذه السياسة الى قبول الصقالبة الجنوبيين لحكم آل هابسبرج أحد الاسباب التى وان دفعت الوطنيين الصربيين الى الائتمار على قتله .

وكان الناس فى القارة يبالغون فى شأن ادوارد السابق . اما اهل انجلترا فكانوا يبخسونه قدره . فقد كان يبغض ابن اخته وليم الثانى ، ويحب الفرنسيين فى كل من «لهوهم وجدهم» كما قال غامبتا . وبادله الفرنسيون هذه العواطف . وكان ذا اللباقة كبيرة وكياسة وله مكانة ملحوظة فى كل القصور الملكية فى اوروبا . وعلى الرغم من انه لم يكن يتصرف الافى حدود الدستور ، فليس ثمة شك فى انه بذل مجهوداً فى تنفيذ سياسة حكومته اكثر مما كان يفعل قبلا بعد ان بدأت الحكومة فى تحسين علاقتها بفرنسا . وكانت لديه ثلاثة اسباب تدفعه للوقوف ضد المانيا ، وهى اسباب تربط بأمه وزوجته وأخته على التوالى . فقد كانت الملكة فكتوريا تؤيد فى حماسة عظمة كلا من بروسيا والنمسا ، واشتد بها الحنق على كل من بالمرستون ولورد جون رسل لتأييدهما وحدة ايطاليا على حساب النمسا ، فى سنة ١٨٧٠ كانت تريد ان تعقد محالفة مع بروسيا التى تمثل كما قالت «المدنية والحرية والنظام والوحدة بمقارنتها بفرنسا التى كانت تمثل «الدكتاتورية والفساد والانهيار الخلقى والاعتداء» (١) واتجه الامير كما هى طبيعة ارثى العروش ، الى الاختلاف مع والدته وتكون لديه ميلا متحيزا لفرنسا وكان ذلك رد فعل طبيعى على ميلها هى نحو المانيا . وكان الهجوم النمساوى البروسى على الدانمرك ، بعد ان تزوج اميرة دانماركية ، سببا فى نفوره من بروسيا وزاد نفوره حقد ضم شلزفيج وهولشتاين لبروسيا . وتكونت لديه منذ تلك اللحظة أسوأ فكرة ممكنة عن بسمارك كانت تشاطره اياها شقيقته ولية العهد التى صارت فيما بعد الامبراطورة فردريك ، والتى اطلقت على بسمارك اسم «الرجل الخبيث» فى خطاب كتبته الى امها . وكان ادوارد شديد العطف على اخته بنحاز الى جانبيها فى كل نزاع لها مع ابنها . وكانت الملكة فيكتوريا تعامل امبراطور المانيا اذا ماضايقها معاملة الولد الخبيث فى محضنه . فعندما شكا لورد سالسبرى ردت عليه تقول : «انى أشك فى ان اى ملك كتب

---

١ — سير سيدنى لى الملك ادوارد السابع (١) ص ٣٠٣

بهذه اللهجة الى ملك آخر ، خاصة اذا كان هذا الملك الثانى جدته ، عن رئيس وزرائه • ولو كنت مكانك لما فعلت أبدا مثل هذا ، وأنا شخصيا لم يحدث أبدا أن هاجمت الامير بسمارك وان كنت ادرك جيدا اى عدو لدود لانجلترا واعرف كل ما سببه لها من أذى »

وما كان اى شخص ، حتى لو كان امبراطورا ، لتغضبه هذه اللهجة من « جدته » ولكن خاله « برتى » وان كان شعوره فى اغلب الظن مماثلا لهذا الشعور لابد له أن يعبر عنه بطريقة مختلفة • فهو لم يكن ممن يفصح عن غيظه كما يفعل ابن أخته ، ولكنه كان يقف موقفا من التعالى الهادىء يثير حنق الامبراطور ، وقد كتب ادوارد السابع الى لورد فوليز يقول : أنا أعرف أن الامبراطور الالمانى يكرهنى ، وأنه لا يفتأ يكرر هذا فى كل مناسبة (خلف ظهرى) مع انى بينما كنت على الدوام رقيقا ظريفا فى معاملته » وعلى الرغم من أن ادوارد الميت أقوى من الحى ! « وكان فى هذه العبارة من عنصر الصدق أكثر مما يعتقده الانجليز الذين كانوا واثقين فى دستورهم البرلمانى وثوق المبتهج المنشرح الصدر • وكانت الحكومة هى التى قررت السير على سياسة الاتفاق الودى مع فرنسا ، وان كان الملك قد أحبها وعمل بدبلوماسيته على نجاحها • فقد كان البريطانيون يخشون ابان حربهم مع البوير أن تتحد أوروبا ضدهم وكانت خير وسيلة للحيلولة دون ذلك هى الانضمام الى احدى المجموعتين: الحلف الثلاثى أو الحلف الثنائى •وقد حدث قبل ذلك احتكاك مع فرنسا فى افريقيا ومع روسيا فى آسيا ، فكان يبدو فى اول الامر ان عقد صداقة مع المانيا أقرب وايسر • وبذل جوزيف تشمبرلين جهودا فى هذا الاتجاه سنتى ١٨٩٨ و ١٩٠٠ ،ولكن ولكن المانيا نأت عنه بجانبها • فقد نصح هولشتاين بأن التأخير فى عقد الحلف مع انجلترا مفيد لالمانيا لان اتفاقا بين انجلترا من ناحية وفرنسا وروسيا من ناحية اخرى مستحيل ، وان انجلترا ستضطر فى آخر الأمر الى قبول أية شروط تفرضها ألمانيا فى نظير تحالفها معها • وفضلا عن هذا فان وليم الثانى كان قد بدا لنوه فى بناء اسطوله واذا كان له ان يصادق انجلترا فلا بد له ان يبقيه صغير الحجم • ومن ثم جعل بولوف يتهرب فى اجاباته على عروض الاتفاق التى تقدم بها الانجليز ، ولكنه اكتشف بعد فوات الاوان ان عقد اتفاق بين انجلترا وفرنسا لم يكن مستحيلا كما اعتقد هولشتاين •

وكان الاتفاق مع فرنسا (١٩٠٤) من عمل لورد لاند سدوام مع روسيا سنة ١٩٠٧ من عمل سير ادوارد غراى ، ولكن كليهما فى الواقع كان من وضع الموظفين الدائمين فى وزارة الخارجية الذين نعرف عنهم أقل مما نعرف عن هولشتاين لانه لم تحدث فى انجلترا ثورة تكشف الستار عن أسرار ذلك الوقت وكانت قوتهم السريه ، خاصة فى عهد غراى ، تكاد تكون مطلقة من كل قيد وكان غراى رجلا سلمى التفكير ووطنيا مخلصا وشريفا كريما فى معاملته الذين يراهم اكفاء له،

شديد التحمس للعمل فى الخفاء • ولهذا وضع الانجليز حياتهم ومصائرهم بين يديه ، وان لم يكن يعرف لغة أجنبية ولم يكد يغادر انجلترا أبدا ، وأنه كان أقل جهدا من أن يتحقق من كل ما كان أعوانه يبلغونه • يضاف الى هذا أن ايمانه بالشرف والنزاهة لم يمتد الى مجلس العموم لانه كان يعتقد كما يعتقد الارستقراط فى أيامه أن الافراد العاديين لا يستطيعون فهم السياسة الخارجية • وسمح للقواد العسكريين باعداد خطة للحرب المشتركة مع فرنسا ولامراء البحرية بالدفاع عن بحر الشمال على أن يركز الاسطول الفرنسي نشاطه فى البحر الابيض المتوسط • ولم يطلع مجلس العموم على شيء من هذا ، بل أكد مرارا اننا لسنا مرغمين على الاشتراك مع فرنسا فى حالة وقوع حرب • وأخيرا أعلن الحقيقة كلها فجأة فى ٣ من أغسطس سنة ١٩١٤ ، الا أن الشعب كان عندئذ فى حالة هياج وصفق لبعد نظره ،وما كان الشعب ليوافق مقدما طوال السنوات الثمان التى تولى فيها غراى الشئون الخارجية على السياسة التى نجمت عنها هذه الالتزامات الخطرة والحق ان انجلترا لم يكن فيها للشعب أية سيطرة على السياسة الخارجية من سنة ١٩٠٦ الى سنة ١٩١٤ اكثر مما كان له فى المانيا او روسيا • بل كانت السياسة الخارجية البريطانية هى مايقرر به ادوارد غراى ان تكون ، وما كان يقرره سير ادوارد غراى هو ماكان ينصح به سرا الموظفون الدائمون• وليس معنى هذا أن نصائحكم لم تكن موضع ترحيبه : فقد كان يكره الالمان لغلظتهم •أما الروس ذوو اللطف ودماثة الخلق الذين كانوا يبيدون خير العناصر فى بولندا وفنلندا وايرن وفى روسيا نفسها ، فقد كانوا يحتفظون فى معاملاتهم بأسلوب غاية فى المجاملة لم يدرك معه ما كانوا يستخدمون ما يقدمه لهم من تأييد •

وينبغى الا نتصور ان اوروبا كلها كانت تستسلم وهى هادئة ساكنة لحكم ملوكها المطلقين القلائل • ففى روسيا قامت الثورة فعلا سنة ١٩٠٥ ، وتأزمت فيها الامور الى ما يقرب من الثورة فى السنوات التالية • وفى النمسا والمجر بلغ تذمر الصقالبة حدا يهدد الامبراطورية بالتفكك ، وفى المانيا كان الاشتراكيون الذين كانوا فى سنة ١٩٠٢ يؤلفون اكثر من ثلث اصحاب الاصوات ، معارضين اشد المعارضة لسياسة الاستعمار ، وكان يبدو انهم سيطروا بعد فترة قصيرة على الرايشتاج ويملون على الحكومة السياسة التى يريدونها • ولكن الدفاع عن الدين والملكية فى الامبراطوريات الشرقية الثلاث اصبح لسوء الحظ مرتبطا بالدفاع عن الحكم المطلق • وكانت النتيجة ان الراسماليين ، حتى الذين كانوا معرضين للخراب إذا نشبت الحرب ، وجدوا انفسهم مرغمين على تأييد دعاة الدبلوماسية المغامرة ، كما اضطر المسيحيون المتدينون الى تأييد العسكريين ليمنعوا القضاء على الذين يبشرون بدين المسيح •

وكانت خطط العسكريين في فرنسا وانجلترا مختلفة في تفاصيلها عن الخطط السابقة بسبب قيام الحكم الديموقراطي في البلدين وان كانت القوى الكبرى مماثلة تقريبا لتلك التي توجد في اوروبا الشرقية . وكانت فرنسا قد خرجت لتوها من قضيــة دريفوس » التي حكم فيها على رجل برىء ، لانه يهــودي ، بالخيانة ونفى لى جزيرة الشيطان بناء على وثائق مزورة . وقد ظلت الجريمة ثابتة في نظر جميع الكاثوليكيين الصالحين ، باستثناء اولئك الذين اشتركوا في تزوير الوثائق طبعا ، حتى آنها واخر دليل من ادلة الاتهام . وروعت الامة لهذه القضية ، فالكنيسة والجيش والاغنياء كانوا ضد دريفوس ، بينما كان المدافعون عنه ملحدين واشتراكيين وبروليتاريين . وبدا ان انتصـــار المدافعين عن دريفوس هــو انتصار لقضيــة السلام ، ولعل الامر كاد يــكون كذلك لولا الاتفاق الفرنسي الانجليزي وتعارض مصالح فرنسا والمانيــا التعدينية في مراكش ، وشراسة دلكاسيه التي كانت تشجعه عليها بريطانيا . وكان حزب السلام قويا الى درجة استطاع معها اسقاط دلكاسيه وعقد مؤتمر الجسر ، ولكن الوطنين ، بمساعدة اخطاء بولوف ، نشروا أسطورة مضمونها ان دلكاسيه انما يضحى به الانذال الذين لايهمهم فرنسا ارضاء لامبراطور المانيا وبفضل هذه الاسطورة استطاع دلكاسيه وبوانكاريه عندما حان الوقت ان يجعلا سياسة فرنسا عدائية على الرغم من رغبة الاشتراكيين المتطرفة في السلام ، رغم أنف الاتحــاد العام للعمل وأجزاء كبيرة من الجنوب ، والحق أن الدعوة الى السلام التي كان يقوم بها لاشتراكيون المناهضون لرجال الكنيسة، كانت في الواقع السبب الاساسي في اتجاهات القساوسة والاثرياء الحربية .

وكانت طريقة الرجعيين في الاستيلاء على السياسة الخارجية في انجلترا اكثر دهاء منها في غيرها . فقد احازوا الاصدقاء السلام بأن يعتقدوا انهــم انتصروا في السيطرة على مقاليد الامور بينما عملوا في هدوء على مــــلء المراكز الرئيسية — في السياسة الخارجية والجيش والشئون المــــالية — باصدقائهم القللين في حزب الاحرار . وكان اهتمام التقـــدميين مركزا في الشئون الداخلية ، ولم يدرك قبل الحرب الاهمية الكبرى للسياسة الخارجية الا فئة قليلة جدا منهم ولكن عددهم أخذ في الازدياد حتى اصبحوا في القريب العاجل فيما بعد قوة ضخمة .

وقد كانت في كل بلد في اوروبا عناصر قوية سريعة الازدياد تــؤيد العمل بطريقة جديدة كل الجدة في العلاقات الخارجية . وكانت بضع سنوات قليلة كفيلة بأن تحدث تحولا في روسيا والمانيا يترك أثره في كل مكان اخر . لكن نفس الطريقة القديمة ظلت في الوقت نفسه قائمة بلا تغيير منذ مؤتمر فينا فيما بعد ما يسمونه اتفاق أوروبا . وقبل أن تسيطر القوى الجديدة على مقاليد الامور ، ساقت الطريقة القديمة أوروبا الى الهاوية .

ان فكرة « مسئولية الحرب » التى كان لها شأن كبير ابان الحرب واحتلت مكان الصدارة فى معاهدة فرساي فكرة غير علمية على الاطلاق . ذلك ان كل امة من الامم سمحت لعدد قليل من رجالها بتوجيه سياستها الخارجية وكان فى قدور الزعماء فى كل بلد كبير ، بقسط وافر من الحكمة ، ان يحولوا دون وقوع الحرب فى الوقت الذى نشبت فيه . ولعل تأجيلها كان يهيىء فسحة من الوقت لحدوث تغير فى النظام وقتئذ او على الاصح فى الفوضى القائمة ومن ثم لاتقع حرب على الاطلاق ، ولكن وجود الطريقة القديمة ، او بالاخرى عدم وجود طريقة بالمرة ، جعل وقوع حرب آن آجلا او عاجلا امرا لايمكن تفادية الا بدرجة من حسن السياسة فى كل مكان فى العالم لم يكن ثمة مايجعلنـا نتوقعه . وذلك انه لم يكن بين الحكومات (باستثناء حكومة فرنسا) حكومة تريد الحرب أكثر مما يريد سائق سيارة مخمور وقوع حادث . ولكن الحكومات جميعها كانت تطلب ميزات قومية مختلفة اكثر مما كانت تطلب السلام . وكان التساؤل عن الملوم فى وقوع الحرب كالتساؤل عن المسئـول فى حادثة تصادم فى بلد ليس فيه قانون ينظم المرور ، عدم وجود حكومة دولية كل أمة الحكم النهائى فى قضاياها وما زال يجعل وقوع حرب كبرى من وقت لآخـر أمرا فى حكم المؤكد . أن السيادة المطلقة لكل دولة كانت تؤيدها كبرياء الملوك وايمان الاحرار بمبدأ القومية ، وكانت النتيجه المنطقيـة لهذه الفوضى فى حب التسلط الذاتى ، الى وقوع الحرب فى سنة ١٩١٤ ولابد أن تظل تؤدى الى نشوب حرب من وقت لآخر حتى تقوم سلطة الامم الفردية لها من القوة ما تستطيع به فرض طاعتها على جميع الامم .

٦ ـ الخاتمة

خاتمـــــــــة

انتهى القرن التاسع عشر بكارثة بسبب الصـدام بين التصـــنيع الفنى والنظريات السياسية . ذلك ان الانتاج الآلى والسكك الحديدية والبـــرق والتقدم فى فنون الحرب عملت كلها على الاستزادة من التنظيم كمـا زادت من قوة أولئك الذين يسيطرون على الاقتصاد والسياسة . وكان فى وسع بيـير بون مورجان ووليم الثانى أن يوجها الطاقة البشرية أسرع وفى جموع أضخم مما كان يستطيعه خشيار شاى ملك الفرس أو نابليون أو أى من الرجال العظماء فى الماضى . الا أن الفكر السياسى القوى لم يتقدم بنفس الخطى التى تقدم بها تركيز السلطة : فالنظريات التى استطاعت أن تنجح فى تغيير الاوضاع ظلت موزعة بين الملكية والديموقراطية التنافسية أولاهما تمت الى عهـد ما قبل التصنيع ، والثانية لا تلائم الا المراحل الاولى للصناعة . ولم يكن حكم الاقلية الثرية ، وهو الحكم الذى كان قائما فعلا فى البلاد الغربية معترفا به وبذلت كل الجهود الممكنة لاخفائه عن أعين الجمهور .

وظلت حكومات الامبراطوريات الشرقية الثلاث حتى سقوطها فى سنة ١٨١٧ و١٩١٨ تسير على مبدأ الشرعية الذى كان سائدا فى أوروبا سنة ١٨١٥ واستطاعت هذه الامبراطوريات بتحالفها أن تفرض نظامها على أوروبا التى تمتعت بالسلام وتحملت حكم الاستبداد من سنة ١٨١٥ الى سنة ١٨٤٨ . ثم تلت ذلك فترة لم تستطع فيها المحافظة بالقوة على السلام وان ظلت صديقة . وأخيرا قام بينها نزاع لعدة أسباب أهمها القومية الصقلبية ، وكانت النتيجة أن اختفت الشرعية من العالم بوصفها مبدأ سياسيا عند نهاية الحرب الكبرى .

وكان مصدر التغيرات السياسية التى حدثت طوال ذلك القرن مذهبين فكريين هما : التحرر والراديكالية . فاما التحرر فيرجع أصله الى القرن الثامن عشر وهو الذى أوحى بالثورتين الامريكية والفرنسية . ويدعو هذا المذهب الى الحرية الفردية والقومية ، مع أقل قدر ممكن من النشاط الحكومى ، بل ان كثيرا من الاحرار قصروا وظيفة الحكومة على منع الجريمة . ونجح مذهب التحرر فى خلق ظروف مستقرة وسكان راضين الى حد لا بأس به فى المجتمعات الزراعية، ولكنه لم يستطع أن يفعل للاجراء الا القليل لأن فلسفته لم يهتد الى طريقـة للحد بين القوة الاقتصادية فى أيدى الافراد . وقد نجح فى انشاء برلمانات ، على درجة من القوة تزيد أو تنقص فى كل بلد من بلدان أوروبا وأمريكا وكذلك فى اليابان والصين ، ولكن الفوائد التى نتجت عنه لم تظهر بوضوح فى أجزاء كثيرة من العالم .

وكان أبعد أجزاء المذهب التحررى أثرا هو مبدأ القومية . ذلك أن أنصار مبدأ الشرعية كانوا يعتبرون الدول ملكا خاصا للملوك ، ولكن الاحرار قاموا يدعون الى انه يجب ن ترسم الحدود بناء على رغبة السكان . ودعا الاحرار ، ردا على ما قامت به الدول الكبرى من اخماد للثورات التى حدثت ابان سيطرة

هترنيخ الى حق كل بلد فى أن تكون له حريته كاملة وألا يتوقع منه أن يتحمل صاغرا أن تدخل خارجى فى شئونه . وهكذا قضوا على بداية الحكومة العالمية التى أنشئت أيام مؤتمر فينا .

وتسرب مبدأ القومية بعد أن أدى الى توحيد ألمانيا وايطاليا ، الى البلقان حيث نجمت عنه مشاكل أصعب من أن تحلها حكمة ساسة أوروبا مجتمعين .

وتحول مبدأ القومية بطريقة طبيعية ، ساعد بسمارك على الاسراع بها ، الى مبدأ الوطنية . فكان دعاة القومية يقولون : ان كل بلد ينبغى أن يكون حرا فى تحقيق أهدافه المشروعة . أما دعاة الوطنية فكانوا يقولون ، أو على الاقل هذا ما كان يدور بخلدهم ، ان بلدى ينبغى أن يكون حرا فى تحقيق أهدافه سواء كانت مشروعة أو غير مشروعة . وبهذا التغيير تحولت الوطنية الى الاستعمار .

وكانت الراديكالية ، على خلاف التحررية ، تستمد وحيها من الاعتبارات الاقتصادية وخاصة تلك التى أظهرتها المراحل الاولى للتصنيع . وكان الراديكاليون أكثر فردية من الاحرار لانهم لم يكونوا يهتمون بالامم نفسها . ولعلهم بوصفهم أفرادا كانوا يحسون بالوطنية ، ولكنهم بوصفهم من أصحاب النظريات كانوا عالميين . وكانوا يؤمنون بحرية التجارية وحرية المنافسة وحرية الابتكار الفردى فى حدود القانون الجنائى . ولم يعترضوا على قوة الملكية ما دامت الملكية قد اكتسبت بالمجهود الشخصى لا عن طريق ميزة خاصة أو ميراث . لقد كانت فلسفتهم هذه تنطبق على الجيل الاول من الرأسماليين الصناعيين الذين كونوا ثرواتهم بمجهودهم ، غير أن أبناء الجيل التالى ، حتى من كان منهم مدينا بكل شىء للثروة الموروثة ، ظلوا يتحدثون عن أنفسهم كأنهم أمثلة لامعة للنجاح الذى يمكن أن يصيبه المرء عن طريق المجهود الشخصى . وفى أمريكا ، حيث كانت معظم القوة الاقتصادية فى أيدى فئة من المحتكرين ، ظل هؤلاء المحتكرون أنفسهم يشيدون بالمنافسة باعتبارها القوة الدافعة للتقدم .

وكان للراديكاليين الفلسفيين ، بوصفهم مدرسة ذات آراء خاصة مزايا هامة قد يغفل عنها الانسان فى العصر الحاضر . فقـــد كانوا يطبقون محك النفعية على كل الانظمة القائمة ولم يقبلوا أى شىء على أســــاس من وجوده التاريخى وانتهوا بهذا الاختبار الى أنه ليس هناك مايبرر الملكية أو الارستقراطية أو الدين أو الحرب أو قيام الامبراطورية . وكان الاحرار يعترضون على بعض هذه المؤسسات بالاعتماد على العاطفة أو العبارات الخطابية الخلابة ، ولـــكن اعتراضات الراديكاليين الفلسفيين كانت هادئة تقوم على الحجج ، ويبدو عليها أنها مستمدة من صوت العقل الجامد الذى لا يلين . وما كانت ألوان التحامل كالتى أدت الى الاضطهاد الدينى وتقييد حرية اليهود ، لتقف على قدميها اذا طبق عليها هذا الاختبار ، كما أن أولئك الذين تأثروا بالراديكاليين الفلسفيين لم يكن يظن أن يضللهم بريق البطولة العسكرية أو الشخصية الملكية . وكانوا فى المسائل الاقتصادية وفى غيرها من المسائل يناقشون بدقة وعناية ويفترضون فى نقاشهم أن المصلحة الشخصية هى الدافع الاساسى لنشاط الافراد وان

السعادة العامة هى هدف المشرع . وعندما كان تحيزهم يقودهم فى طريق غير سليم كما حدث لهم كثيرا ، كانت النتيجة التجاؤهم الى الحجج الخاطئة وهى أقل اقناعا بكثير من بلاغة السفسطائيين .. ومن ثم كان نفوذهم وهم مصيبون أقوى منه حين يكونون مخطئين ، وكانوا أكثر فائدة مما قد يتوقع لهم اذا نظرنا الى الاخطاء الكثيرة التى اختلطت بمذاهبهم .

وقد شارك الاشتراكيون نظرة الراديكاليين الفلسفيين هذه الى حد كبير، وكان موضع الخلاف الاساسى بينهم أن الاشتراكيين نظروا الى العالم من ناحية الاجير لا من ناحية صاحب العمل . وقد كان أوون صديقا فنتام ، وكان ماركس من اتباع ريكاردو فى كثير من الاراء المهمة . الا أن ماركس أدرك مافات أسلافه الراديكاليين أن يروه ، وهو اتجاه رأس المال الى التركيز فى منظمات ضخمة ذات قوة اقتصادية هائلة ، وأدرك أيضا ما للرأسماليين من نفوذ على الحكومات ، وهو ما لم يكن ظاهرا عندما كانت الحكومات لا تزال فى أيدى أصحاب الاراضى من الارستقراطيين شبه الافطاعيين . غير أن هناك أمرا واحدا ، وهو أمر بالغ الاهمية ، ورث فيه ماركس عن الراديكاليين الفلسفيين القيود التى كانت تحدد آرائهم . ذلك أن المنظمات التى كان من الضرورى للبرولتياريات، فى نظره ، أن تكافحها كانت منظمات اقتصادية واختيارية وليست قائمة ، مثل الشعوب والاسر ، على أساس عاطفى أو بيولوجى . فقد افترض أن البروليتارى الذى لا يملك شيئا ، لن يكون له شعور وطنى ، أو على الاقل ، ليس لديه قدر من هذا الشعور يمنعه من الوقوف فى وجه الرأسمالى . وهو ، فى هذه الناحية لم يقدر قوة الدوافع غير الاقتصادية حق قدرها .

وتستمد النزعة القومية الاقتصادية ، وهى القوة السائدة فى العالم الحديث قوتها من كونها تجمع بين دوافع المصلحة الشخصية التى اعتمد عليها ماركس والراديكاليون والدوافع الاخرى الاقل عقلية التى توحى بالشعور الوطنى . فالرءوس الهادئة يمكن كسبها عن طريق الارباح وأصحاب الطبع الحاد يمكن كسبهم عن طريق النداءات البليغة . وبهذه الطريقة تجمعت خبائث من شعارات المدارس المختلفة منافسة .. نعم ، ولكن بين الامم ، تعاون .. تم داخل الامة ومصالح ذاتية لخير الامة مجتمعة ، وتضحية .. نعم فى سبيل الامة من قبل الفرد الذى ليس له نصيب فى النهب الذى تقوم به الاقلية الثرية الحاكمة ، ثروة .. نعم فى خدمة المجد القومى ، أما تكوين الثروات .. فلا لان أقطاب الصناعة يساعدون على جعل البلاد عظيمة فى كل ما يفعلون .

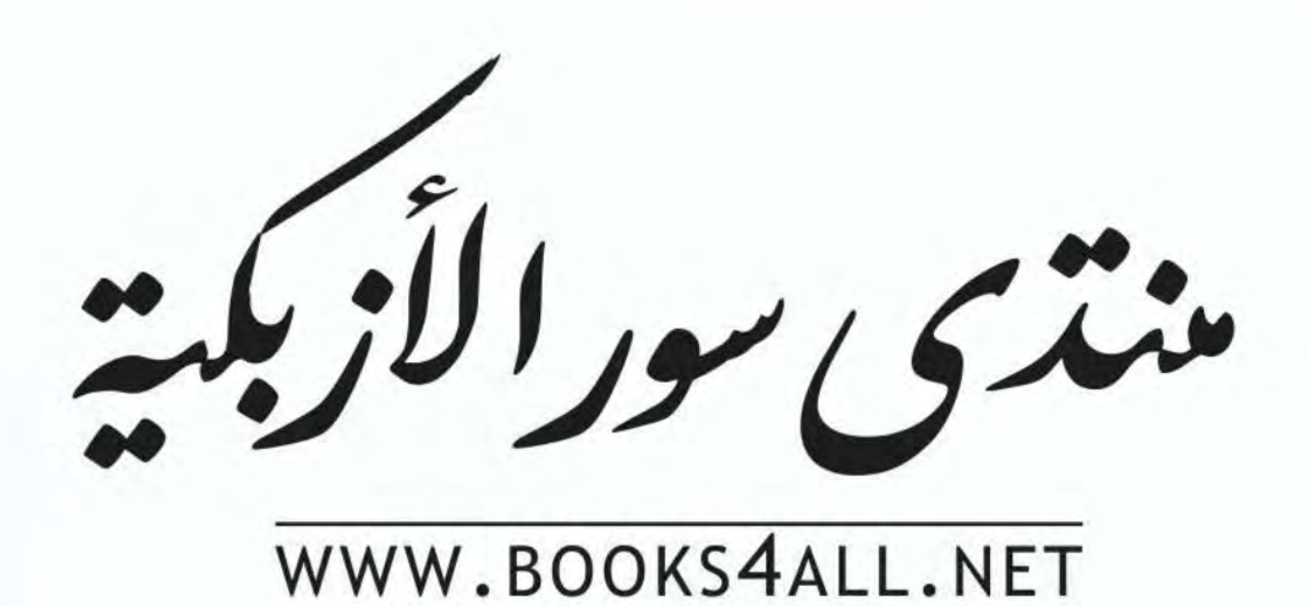
وقد كانت هذه هى العقيدة السائدة فى كل العالم المتمدن خلال السنوات السابقة على الحرب ، والتى لا تزال أقوى سيطرة فى العصر الحاضر تنظيم الى أقصى حد داخل الدولة ، وحرية لا حد لها فى العلاقات بين الدول . واذا كان التنظيم يؤدى الى زيادة قوة الدول ، والدول تستمد قوتها الخارجية عن طريق الحرب أو التهديد بالحرب ، فان زيادة التنظيم القومى وحده ، لا يمكن الا أن

تؤدى الى زيادة الكوارث عند وقوع الحرب • ولما كان ظل خطر الحرب مصدر رعب دائم ، فان الحرية داخل الدولة تعتبر خطرة • وقد وصل العالم بأخذه مبدأ التنظيم القومى عن الاشتراكيين ومبدأ الحرية الدولية من الاحرار الى حالة تهدد كيان المدنية نفسها فى الصميم • والتنظيم مع الاصول الفنية الحديثة فى الصناعة والعلم الحديث أمر لا غنى عنه ، وقدر معين من الحرية ضرورى للسعادة والتقدم ، ولكن الفوضى كاملة تكون أكثر خطورة بين شعوب منظمة تنظيما دقيقا منها بين أفراد فى داخل أمة • وقد فشل القرن التاسع عشر لانه لم ينشىء منظمة دولية • فقد ورث عن الماضى دولا وظن أن المسألة قد حلت عندما جعلها دولا قومية • وخلق اعتباطا ونتيجة للاصول الفنية التى لا تسترشد فى عملها بالتفكير ، منظمات اقتصادية لم تعلمه فلسفته كيف يسيطر عليها • وقد أدى تحالف هذه المنظمات مع الدول القومية الى أن أصبحت الفوضى فى العلاقات الدولية أكثر خطورة منها فى أى وقت مضى • ولم يفهم الاحرار والراديكاليون ما للتنظيم من أثر فى عالم تحكمه الاصول الفنية العلمية • وبسبب عدم فهمهم هذا انتهى القرن الذى حاولوا قيادته بكارثة رغم الزيادة الكبيرة فى الثروة والقدرة العقلية والسعادة •

وقد ظلت أمريكا طول الفترة التى نتحدث عنها معزولة عن أوروبا الى حد كبير • ولم تصر أمريكا جزءا من النظام العسكرى والدبلوماسى الذى نما فى أوروبا لبعدها عن الدول الكبرى الاخرى ، وقد ظلت فى عزلتها هذه الى ما بعد بداية الحرب بعامين ونصف عام ، وكان العامل الاساسى فى توحيد أوروبا وأمريكا عندما حدث ، هو أثر الشئون المالية •

وكانت الحرب الكبرى من بعض النواحى نهاية حقبة من الحقب ، كما كانت من بعضها الآخر مجرد حادث عارض فى عملية مستمرة • فقد وضعت حدا لمبدأ الحق الالهى فى الحكم وهو المبدأ الذى حل محله فى البلاد التى كان سائدا فيها الحكم السافر للقوة المسلحة • كما قضت على آمال الاحرار ومذهب التقدم الحتمى اللذين عبرت عنهما روح التفاؤل فى القرن التاسع عشر وأثبتت خطأهما • ولكن الحرب كانت ، فى النواحى التى تعتمد على النمو الاقتصادى الحديث ، أو تعبير واسع المدى للقوى التى ظلت تعمل مدى خمسين عاما ، والتى لا تزال تزداد قوة على الدوام • ولقد كان نمو الاحتكارت القومية ، وخاصة فى الحديد والصلب ، وبالذات فيما يتعلق بالحديد الخام فى اللورين ، كان ولا يزال أكثر أهمية فى السياسة العالمية مما يدرك معظم الناس أو يعترف به رجال الحكم والسياسة • ولا تزال الاسباب نفسها التى أدت الى الحرب فى سنة ١٩١٤ تعمل ، واذا لم تكبح جماحها سيطرة دولية على الاستثمار والمواد الاولية ، فستؤدى لا محالة الى النتائج نفسها ، ولكنها ستكون على نطاق أوسع •

وقصارى القول أن التنظيم الاقتصادى العالمى لا العواطف السلمية هو السبيل الوحيد لانقاذ الجنس البشرى المتمدين من الانتحار الجماعى •



منتدى سور الأزبكية
WWW.BOOKS4ALL.NET